

ICQSQS 2015

الوحي والعلوم في القرن الواحد والعشرين

تسليح المرأة والشباب المسلم لمواجهة التحديات المعاصرة
وتنوع الأجناس والأديان من منظور القرآن والسنة

تحرير:

الأستاذ الدكتور محمد أبو الليث الخير آبادي

الدكتور عصام التجاني محمد إبراهيم

الوحي والعلوم في القرن الواحد والعشرين

تسليح المرأة والشباب المسلم لمواجهة التحديات المعاصرة وتنوع الأجناس والأديان من منظور القرآن والسنة

تحرير:

الأستاذ الدكتور محمد أبو الليث الخيراآبادي

الدكتور عصام التجاني محمد إبراهيم

المحررون المشاركون

الدكتورة روضة الفردوس فتح يس

الدكتورة ناظرة محمد

الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

حقوق الطبع

حقوق الطبع محفوظة لقسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. لا يسمح بإعادة طبع أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل من الأشكال الإلكترونية، أو الآلية بما في ذلك التصوير، أو النسخ، أو التسجيل الصوتي، أو التخزين الإلكتروني، إلا بموافقة خطية مسبقة من رئيس قسم دراسات القرآن والسنة، ويستثنى من ذلك التصوير لهدف إجراء البحوث العلمية، على أن يشار عند الاستشهاد به للناشر.

الطبعة الأولى: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

ISBN: 978-967-418-396-7

الناشر:

دار الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا للنشر IIUM Press
IIUM Press, International Islamic University Malaysia
P.O. Box 10, 50728 Kuala Lumpur, Malaysia
Phone (+603) 6196-5014, Fax (+603)-6196-6298
Website: <http://iiumpress.iium.edu.my/bookshop>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

١- محور تسليح المرأة والشباب المسلم لمواجهة التحديات المعاصرة من منظور القرآن	
١٥-٢	١. الدور الريادي للمرأة وفق الرؤية القرآنية والتحديات المعاصرة رابعة بنت هلال بن مبارك المقبالية
٢٠-١٦	٢. الشباب المسلم والتحديات المعاصرة د. عبد الله محمد الحواسي
٣٧-٢١	٣. الشباب المسلمون في أندونيسيا وتحديات المستقبل: رؤية قرآنية د. زمخشري حسب الله
٥١-٣٨	٤. المشكلات النفسية للشباب المسلم وطرق الإرشاد النفسي المقدمة على ضوء الكتاب والسنة دراسة تحليلية لحتوى الاستشارات النفسية المنشورة بموقع الشبكة الإسلامية د. محمد عبد العلم إبراهيم د. علي أحمد التهامي
٦٧-٥٢	٥. تربية الطفل في ضوء النصوص القرآنية والسنة النبوية د. بان حميد الراوي
٨٤-٦٩	٦. تنمية الوازع الديني لدى الشباب في مواجهة التحديات المعاصرة في ضوء السنة النبوية د. سعيد بن نزال بن وندي العنزي
٩٩-٨٥	٧. حجية القرآن الكريم التربوية د. صالح بن سليمان البقاوي
١١٨-١٠٠	٨. دور التربية الإسلامية في المحافظة على الهوية الإسلامية للشباب في ظل المتغيرات المعاصرة د. طلال بن علي مثنى أحمد
١٣٧-١١٩	٩. رؤية نظرية لتفسير أسباب وقوع الفرد في المشكلات الفردية دراسة وصفية وفق المنظور الإسلامي د. حمود بن خميس بن حمد النوفلي
١٥٣-١٣٨	١٠. عوامل نجاح التربية الإسلامية في زمن التحديات المعاصرة باي زكوب عبد العالي
١٦٥-١٥٤	١١. مشكلات الشباب المسلم المعاصرة وسبل علاجها في ضوء القرآن والسنة المشكلات الدينية والأخلاقية أمودجاً د. جمعة أحمد همد آدم
١٧٧-١٦٦	١٢. منظور القرآن والسنة في تسليح المرأة والشباب المسلم لمواجهة التحديات المعاصرة د. يوسف موسى علي عبد الله أبو عليقة
١٩٠-١٧٨	١٣. هدي النبي صلى الله عليه وسلم في توجيه الشباب د. محمد عادل خان

٢- محور تنوع الأجناس والأديان من منظور القرآن

٢٠٦-١٩٢	الأسس الشرعية لمعاملة غير المسلمين في الإسلام: نصارى مصر نموذجاً د. رضا عويس حسن سرور	١٤
٢١٧-٢٠٧	الأسس والمنطلقات الإسلامية لمواجهة التحديات المعاصرة أحمد باكر صالح الباكري	١٥
٢٣٧-٢١٨	التعامل مع غير المسلمين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية د. عبد الله بن مسلم الأحمدى	١٦
٢٤٧-٢٣٨	التعايش بين الأديان وفق المنهج الإسلامي د. ليلي بنت محمد بن سليمان العقيل	١٧
٢٦٨-٢٤٨	التعددية السياسية والحزبية من منظور إسلامي أ. د. الفاتح عبد الله عبد السلام	١٨
٢٧٩-٢٦٩	الفروق المهمة بين حفظ التوراة والإنجيل وحفظ السنة د. فواز بن سالم القنّامي	١٩
٢٩٨-٢٨٠	المادة المعرفية والمنهجية لدراسة الأديان في القرآن الكريم د. بدران مسعود بن لحسن	٢٠
٣١٦-٢٩٩	المركّزات المنهجية للاتجاه الليبرالي في التعامل مع السنة النبوية: دراسة استقرائية تحليلية لآراء الكتاب الإندونيسيين د. زهر الفتى صالحين	٢١
٣٢٩-٣١٧	النظرة القرآنية للاختلاف الديني الأسس القرآنية في التعامل مع المخالف الديني في المجال الدعوي والأخلاقي والاجتماعي يوسف عطية حسن كليبي	٢٢
٣٣٨-٣٣٠	أهمية الحوار في القرآن الكريم وداد جمال حسين راوه	٢٣
٣٤٩-٣٣٩	حركة "الأخوات في الإسلام" (Sisters in Islam) في ماليزيا وتعاملهن مع النص القرآني: آية الحجاب نموذجاً د. ميك ووك محمود حبيب الله زكريا	٢٤
٣٥٦-٣٥٠	خصائص الخطاب القرآني مع الآخر أ. د. غازي غزاي المطيري	٢٥
٣٦٣-٣٥٧	ما يؤخذ وما يرد من علوم الغرب فيما يخص الكون وخلقته أ.د. سوسن أحمد القلال	٢٦
٣٧٧-٣٦٤	موقف القرآن الكريم من الحوار الإسلامي المسيحي: المؤسسات الإسلامية بالفلبين أنموذجاً خيرالدين داتو سليمان لاوء	٢٧

٣٩٢-٣٧٨	موقف القرآن والسنة من نزول المسيح ﷺ آخر الزمان د. محمد إبراهيم الشرييني صقر	.٢٨
٤٠٩-٣٩٣	نظرة القرآن الكريم لتنوع الأجناس والأدوار وآثارها في تنمية المجتمعات عفاف عبد الغفور	.٢٩

بين يدي الكتاب

الكتاب الذي بين أيدينا يحتوي على ٢٩ بحثا كل يسعى إلى محاولة بيان كيفية اهتمام الإسلام بالمرأة والشباب، وضرورة تسليحهما وإعداد كل منهما لمقاومة التحديات التي تواجههما، والتي تهدد دينهم الحنيف، وعلاقتهم برهيم ومجتمعهم. فمن هذا المبدأ درس علماؤنا الأجلاء النصوص القرآنية التي تختص بالمرأة، فجاءت النتيجة إلى أن مجموعة من الدراسات وصلت إلى أن ما يقرب من (٨٠ %) من المواد القانونية في القرآن الكريم أشارت إلى المرأة ومكانتها. هذا إن دل على شيء فإنما يدل على العناية الربانية بالمرأة. ومن الناحية الأخرى أوضح الباحثون مبادئ تعامل وتعايش المسلمين مع غير المسلمين.

فبعد ثمانية سنوات مضت على مؤتمرنا الدولي الأول الذي عقدناه بعنوان "مناهج تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث الشريف" في ٢١-٢٢/٦/١٤٢٧هـ الموافق ١٧-١٨/٧/٢٠٠٦م، جاء مؤتمرنا الدولي الثاني هذا الذي ننظمه بالاشتراك مع مركز القضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد، وتبيان، حول موضوع: (الوحي والعلوم في القرن الواحد والعشرين) في ٢٢-٢٤/٥/١٤٣٦هـ الموافق ١٣-١٥/٣/٢٠١٥م.

ومن حسن حظ هذا المؤتمر أنه بعد الإعلان عن تاريخ عقده بدأت طلبات المشاركة تتهاافت علينا من كل جانب، ومن كل حذب وصوب، من الأردن، وإندونيسيا، وإيران، والبحرين، وبروناي، وتونس، والجزائر، ودبي، والسعودية، والسودان، والإمارات، والعراق، وعمان، وقطر، وليبيا، وماليزيا، ونيجيريا، وغيرها حتى وصل عددها إلى ٢٤٧، قُبل وطُبع منها ١٥٥ بحثا فقط، إضافة للبحوث الأخرى المقبولة باللغتين الإنجليزية والملايوية التي طبعت في كتاب منفصل، ليتجاوز العدد الكلي ٢٠٠ بحثا.

وهذه الكثرة الكاثرة من البحوث إن دلت على شيء فتدل على أن عنوان المؤتمر ومحاوره كان فيهما نوع من الجودة والطراوة، وكيف لا، فهو يتعلق بالقرآن والسنة اللذين هما مصدران أصليان للتشريع الإسلامي، ولذلك اعتنى العلماء المسلمون على مرّ العصور بدراستهما، وبيان ما تضمنناه من تشريعات وأخلاق وعقائد. ولكن جانبا مهما من جوانبهما في حاجة ماسة إلى دراسته للوفاء بمتطلبات هذا العصر، من علوم الطب، والإدارة، والاقتصاد، والسياسة، والحساب، وغير ذلك من العلوم الإنسانية والتطبيقية. فمن هذا المنطلق، رأى القسم عقد هذا المؤتمر إسهاماً منه في التأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية والتطبيقية، وأسلمة المعارف الإنسانية المكتسبة، وتنزيل معارف الوحي والتراث الإسلامي على القضايا الحياتية المعاصرة للمسلمين.

والبحوث المنشورة تتمحور حول الموضوعات الآتية:

١. أسلمة العلوم الإنسانية والتطبيقية.
٢. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
٣. قضايا معاصرة في دراسات القرآن والسنة.
٤. مقاصد القرآن والسنة.

- ٥ . الأنظمة والمؤسسات المالية من منظور القرآن والسنة.
 - ٦ . الحفاظ على البيئة من منظور القرآن والسنة.
 - ٧ . الوسطية والاعتدال من منظور القرآن والسنة.
 - ٨ . تسليح المرأة والشباب المسلم لمواجهة التحديات المعاصرة من منظور القرآن والسنة.
 - ٩ . تنوع الأجناس والأديان من منظور القرآن والسنة.
- وقد برهنت بعض الأبحاث على أن أساليبها تحولت من أسلوب التقليد إلى التحديث والتجديد شكلا ومضمونا، وهذا بشير خير لمستقبل المؤتمرات إن شاء الله.
- والجدير بالذكر أن اللجنة العلمية للمؤتمر ارتأت أن تجعل جميع الأبحاث العربية المقبولة في المؤتمر على نمط واحد، من حيث علامات الترقيم للآيات، والأحاديث، والنصوص الأخرى، وكتابة المصادر والمراجع في الهامش والفهارس ، فخصّصت أساتذة لذلك العمل، ولقراءتها، وتصحيحها، وتحكيمها تحكيماً وُدِّيّاً، فنشكر لهم أجزل الشكر وأوفى الامتنان.
- كما نتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدنا معنويا أو ماديا، خاصة كلية العلوم وعميدها الأستاذ الدكتور قمرالزمان يونس، ومركز الأسلمة ومديره الأستاذ المشارك الدكتور حزيان مدنون، ومركز وحدة الأمة ومديره الأستاذ الدكتور وليد فكري فارس، وجميعهم بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.
- ولا يفوتنا أن نلهج بشكرنا العظيم وامتناننا الغالي لمعالي داتو سري الأستاذة الدكتورة زليحا قمر الدين مديرة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وسعادة الأستاذ الدكتور إبراهيم محمد زين عميد كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، وسعادة الأستاذ المساعد الدكتور محمد شاه جاني رئيس قسم دراسات القرآن والسنة، والدكتور عصام التجاني محمد إبراهيم مدير المؤتمر، والدكتورة روضة الفردوس فتح يس مقرر المؤتمر، وسعادة الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن رئيس مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد بكلية الدراسات الإسلامية في قطر – جامعة حمد بن خليفة، وسعادة الأستاذ الدكتور محمد بن سريع السريع رئيس مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه (تبيان) على دعمهم المتواصل لإنجاح هذا المؤتمر، ورعايتهم الشاملة لكل صغير وكبير من أموره.
- وأخيرا، وليس آخرا، نرجو من الله العلي القدير أن نكون قد وفقنا نحن أساتذة القسم، وكليتنا، ومركز القرضاوي للوسطية، وتبيان في إسعاف طلبة العلم بأحدث البحوث وأرقاها. وبالله التوفيق.

أ. د. محمد أبو الليث الخيراآبادي

رئيس التحرير

١ - محور

تسليح المرأة والشاب
المسلم لمواجهة التحديات
المعاصرة
من منظور القرآن والسنة

الدور الريادي للمرأة وفق الرؤية القرآنية والتحديات المعاصرة

رابعة بنت هلال بن مبارك المقبالية^١

ملخص البحث:

تبوأَت المرأة في القرآن الكريم مكانة عالية لم تتبوأَ مثلها في أي من الكتب البشرية والقوانين الوضعية الأخرى. إلا أن هناك مجموعة من الدعوات المناهضة لإعادة صياغة الدين والشريعة وفق حاجات المرأة المعاصرة، مع ما تواجهه المرأة اليوم من تحديات تتعلق بالعمل، والتفوق، والتخصص، والقيادة، والسفر، والتملك وغيرها من المجالات المختلفة. وهذا البحث دراسة تأصيلية تحليلية يهدف إلى تقصي آيات القرآن الكريم التي عالجت موضوع المرأة، عبر أزمنة سابقة وفي حالات مختلفة، تناولت الدور الريادي الذي لعبته المرأة في مجالات شتى، وتفوقها الذي ترك أثره في إسعاد الناس والمجتمعات البشرية. وقد سارت منهجية البحث على تحليل محتوى الآيات القرآنية الكريمة التي تضمنت موضوع المرأة، بعد دراستها نظرياً من المراجع المعتمدة في تفسير القرآن الكريم، ثم تحديد الفكرة العامة للآيات القرآنية الكريمة كوحدة للتحليل، وتحديد الأدوار الريادية للمرأة كفئات للتحليل. وتم التأكد من صدقها بعرض بطاقة التحليل على مجموعة من المتخصصين^٢، وتم إعادة التحليل للتأكد من ثباتها.

وكشفت النتيجة عن حضور مصطلح (النساء) بوفرة في القرآن الكريم مع مشتقاته ومرادفاته ودلالاته، ومنها الأزواج والزوج، والأنثى، والبنات، والمرأة، والأهل، والفتيات، والأخت، والوالدة، والأم. كما أن هناك مصطلحات تعنى بكل من الرجل والمرأة معاً مثل: بني آدم، والذين آمنوا، والوالدين، والإنسان، والناس. وهي تشمل القرآن الكريم كله، إلا أن التحليل تناول ما يُعنى بالمرأة كإنسان مكرم، ولذلك تم اختيار الوالدين وبني آدم منها؛ للدلالة على العناية بها ومساواتها في الكرامة الإنسانية مع الرجل (بني آدم)، وفي الإحسان إليها مع الأب (الوالدين). كما جاء في الآيات التي تم استقراؤها مجموعة من الصفات التي وردت بشكل صريح منها: المؤمنات، والمحصنات، والطيبات، والمصدقات، والمهاجرات. إضافة إلى: الأمة المؤمنة، والموءودة. وقد وردت موضوعات خاصة بأحكام المرأة مثل: أحكام الطلاق، والعدة، والنفقة، والزواج، والتعدد، والملكية، والمهر، والرضاعة، وأحكام الوفاة، والميراث. وورد في الآيات التي تم استقراؤها كذلك: أدب البيوت والاستئذان، والحجاب، والحدود المتعلقة بالزنا والشهادة والقذف.

وهناك طائفة من الآيات القرآنية الكريمة التي عنيت بشخصيات نساء ورد ذكرهن صراحة أو ضمناً منها: مريم بنت عمران عليها السلام، وزوج آدم عليه السلام، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (قصة الإفك)، وأم مريم عليها السلام، وأم موسى وأخته عليهما السلام، وامرأتا مدين، وزينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها (قصة النبي)، وامرأة زكريا عليه السلام، وامرأة إبراهيم عليه السلام، وامرأة لوط عليه السلام، وامرأة نوح عليه السلام، وامرأة فرعون، وخولة بنت ثعلبة رضي الله عنها (المجادلة)، ومملكة سبأ، وأمّهات المؤمنين زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم - بوجه عام - رضي الله عنهن، وامرأة العزيز، وحمالة الخطب زوج أبي لهب.

^١ طالبة في برنامج الدكتوراه في التربية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، rabea.moqbali@moe.om

^٢ تتقدم الباحثة بوافر الشكر الجزيل لأعضاء هيئة التدريس من كلية التربية، وكلية الحقوق بجامعة السلطان قابوس في سلطنة عمان، الذين أفادوا الباحثة بدقة ملاحظاتهم بعد عرض قائمة التحليل عليهم. وهم: د. سيف الهادي، ود. شريفة آل سعيد، ود. سليمان الشعلي، ود. إيمان الرجيبية.

ومن خلال استعراض تلك الآيات القرآنية الكريمة التي تربو على ٢٦٠ آية، من واقع التحليل في ٥٩ سورة من سور القرآن الكريم التي ورد فيها موضوع المرأة، بداية بسورة البقرة إلى سورة المسد؛ فإن جميع ذلك يدل على عظيم عناية القرآن الكريم بالمرأة، وإعطائها حقوقها التي أضعفتها البشرية عندما ابتعدت عن منهج الله ﷻ. ولولا تخصيص البحث بمصطلحات محددة فإنه من الأجدر أن نقول: إن القرآن الكريم كله نزل للمرأة كما نزل للرجل على السواء. ويعالج البحث - في الصفحات التالية - الشخصيات المؤمنة من النساء، كمحاولة لقراءة دورهن الريادي الذي ترك أثره في إسعاد الناس والمجتمعات البشرية.

مقدمة: الواقع والتحديات وإشكاليات النظرة المعاصرة إلى المرأة

لعبت المرأة دوراً ريادياً في مسيرة حياة الأنبياء والرسل عليهم السلام، فالمرأة لم تكن عنصراً خاملاً وفق الرؤية القرآنية؛ بل شاركت عبر تاريخ البشرية الطويل، لقد كانت مثلاً للأُم التي جاهدت لأجل حياة أولادها وصلاحهم وسعادتهم وهدايتهم، وفاءً لله تعالى. وكانت مثلاً للزوجة الوفية المطيعة لزوجها، والمهاجرة الصابرة في سبيل الدعوة إلى عقيدة التوحيد، وكانت مثلاً للفتاة التي اضطرتها الظروف للعمل، ولكنها تحملت المسؤولية في صبر وعفة وأخلاق، وكانت مثلاً للأخت التي تعين أسرتها وتحفظ إخوتها، وترعى مصالحهم في حكمة وسداد رأي، بل كانت مثلاً للمرأة القائدة في أي موقع من مواقع العمل، تنظر للمواقف بموضوعية وحكمة وحسن تدبير وسياسة. وإن وجود سورة في القرآن الكريم تعد ثاني أطول سورة في المصحف الشريف هي سورة "النساء"، وكذلك سور "مریم"، و"الطلاق"، و"المجادلة" مؤشر على مكانة المرأة ومنزلتها العظيمة في القرآن الكريم.

وللمرأة حسب نتيجة هذا البحث حضوراً في ٥٩ سورة من سور القرآن الكريم، يؤكد هذه النتيجة مجموعة من الدراسات التي توصلت إلى أن "ما يقرب من (٨٠ %) من المواد القانونية في القرآن الكريم أشارت إلى المرأة"، بالإضافة إلى أن هناك "حضوراً واسعاً للمرأة في القرآن الكريم يجعل منها قائدة أحياناً، وعبادة أحياناً أخرى، ويجعل منها حاملة لمعجزة تخرج للعالم بطفل دون أن يمسه فيها بشر، ولا تكاد تقرأ كتاب الله ﷻ إلا وتجده فيه للمرأة حضوراً مع أخيها الرجل"^٢.

ولكن بالرغم من هذا الحضور القرآني للمرأة؛ إلا أنها واجهت ولا تزال مجموعة من التحديات، منها: دعاوي التحريض على الإسلام، وتغييب دور الأسرة، ومهاجمة نصوص ثابتة في القرآن الكريم^٣ تحت مسمى المطالبة بحرية المرأة وحقوقها ومساواتها - في جميع الأحوال مع الرجل - من خلال مؤتمرات، وحملات إعلامية، ومؤسسات مجتمعية، فانبثقت مجموعة من النساء يدافعن عن حقوقهن عن جهل أحياناً، أو عن حقد أحياناً أخرى، في ظل تقاليد أو ممارسات سائدة وُسمت بالإسلام - كونها تمارس داخل المجتمع الإسلامي - وهي بمنأى عن منهج الإسلام. وهناك عدد من النساء اللواتي

^١ Roded, Ruth, **women in islam and the middle east**, ٢٧

^٢ الهادي، سؤال أهل الذكر، برنامج تلفزيوني، حلقة عن أحكام الطهارة للمرأة، سلطنة عمان، ١٤/٨/٢٠١٢م.

^٣ انظر بالتفصيل: النابلسي، "صورة المرأة العربية في وسائل الإعلام وفنون التعبير قضايا وتوجهات" مقال في كتاب المرأة العربية بين ثقل الواقع وتطلعات التحرر، ص ٢٨.

كن يهاجمن الدين الإسلامي في سبيل المطالبة بحقوقهن، يبدو تراجعهن في آخر حياتهن بعد معارك طويلة من الجدل والنقاش، حيث تصرح إحداهن "بأن الإسلام أعطى المرأة حقوقاً أكثر من كل الأديان، إلا أن الرجل وظّف بعض جوانب هذا الدين لتركيز مجتمع رجالي يسيطر فيه الذكور على الإناث".^١ وهذا الاعتراف الأخير أشارت إليه ميادة الحسن^٢ حيث ذكرت في بحثها حول حقوق المرأة الاقتصادية بين الشريعة والعرف ما يلي: "الممارسات التطبيقية في عهود ما بعد عصر الرسالة أقصت المرأة عن ميدان الحياة شيئاً فشيئاً، وساهم في ذلك فتاوى ترجمت النصوص حسب رؤى خاصة، وقدمت للمجتمع على أنها التعبير الوحيد عن شرع الله تعالى، وكفلت السنون المتعاقبة إضفاء صفة "الحق" الذي لا يقبل التغيير على هذه الفتاوى، فأصبحت ديناً في نظر العامة؛ ولذلك أصبحت الحاجة ماسة بالعودة إلى ينبوع الأول للتشريع لإعادة القراءة الفقهية لها، بغية إرساء منهج العودة إلى النصوص الثابتة، وعدم تقديس الاجتهادات المتغيرة".

ويتفق معها بنتاجي^٣ حيث يشير في كتابه عن مكانة المرأة في القرآن والسنة الصحيحة قوله: "تعرض المرأة المسلمة المعاصرة إلى تأثير مناقض من قوم مسلمين صادقي العقيدة، لكنهم تلقوا وفهموا بعض قضايا المرأة في الإسلام على نحو غير صحيح أو غير دقيق، فأنزلوها في كتاباتهم نظرياً وعملياً بعض منازل الهوان والضعفة...".

مما يشي بغياب المرأة عن إدراك دورها الريادي حسب نماذج المرأة التي وردت في القرآن الكريم، ويبدو للباحثة أن هذا الغياب ناشئ عن قصور في الفهم القرآني لنصوص القرآن الكريم، أو تغييب هذا الدور الريادي للمرأة عن أجيالنا في مواد المناهج الدراسية أو الإعلامية أو المؤسسات التربوية والمجتمعية.

أضف إلى ذلك فإن "الكتابات الإسلامية في مجال قضية المرأة رغم مساحتها الواسعة إلا أنها تكشف في كثير منها نوعاً من التكرار والتقليد، حتى صار معروفاً في هذه الكتابات أن يبدأ الكاتب بالحديث عن الظروف السيئة للمرأة عند الأمم والشعوب القديمة، ثم عن احتقار المرأة في عصر الجاهلية، ثم عن انحلال المرأة في الغرب، وبعد ذلك يأتي الحديث عن تكريم الإسلام للمرأة الذي أعلى من شأنها، واعترف لها بحقوقها؛ ولذلك فإنه حري بمثل هذه الكتابات أن تنطلق من الأصول والقواعد الإسلامية في بلورة الرؤية المعرفية والعملية لقضايا المرأة، ثم تعالج قضايا تنمية المرأة واقعاً عملياً في مجتمعاتها، بعيدة عن إطار التقاليد وحساسيات الطرف الآخر"^٤.

ولعل عودة الناس -رجالاً ونساءً- إلى المنهج الإسلامي الأصيل -فهماً صحيحاً وتطبيقاً ممارساً- يكفل للمرأة عدم الانشغال بقضية المطالبة بحقوقها؛ هذه القضية التي أرتقت العالم الغربي والعالم الشرقي.

تؤكد هذه الحقيقة شذى الدركلي^٥ في بحثها: "حقيقة أن الدين الإسلامي قد أعطى للمرأة ما يحفظها وحقوقها على أكمل وجه، وبما هو حريٌّ بأن يستقطب حسد نساء العالم أجمع، وكما ورد في الآية الكريمة: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

^١ السعيد، المرأة المسلمة هموم وتحديات، ص ١١٩، ١٢٠.

^٢ ميادة محمد الحسن، حقوق المرأة الاقتصادية بين الشريعة والعرف، مجلة البحوث والدراسات الشرعية، ٢٤٤، (مصر: ١٤٣٤هـ).

^٣ بنتاجي، مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ص ٥٢، ٥٣.

^٤ الميلاء، المرأة في المشروع الإسلامي المعاصر، ثقافتنا، ١٦٤، من www.iranarab.com تاريخ الدخول: ١/١٠/٢٠١٤م.

^٥ شذى سلمان الدركلي، المرأة المسلمة في مواجهة التحديات المعاصر، ص ٩.

أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿سورة البقرة: ١٠٥﴾.

الدور الريادي للمرأة في عهد الرسل والأنبياء عليهم السلام:

مفهوم الدور الريادي:

الدور (role): هو "نوع من السلوك ينتظر أن يقوم به الفرد بسبب وضعه في السلم الاجتماعي، مثل دور الذكر، ودور الأم، فكل فرد يتخذ عديداً من الأدوار في مناسبات مختلفة"^١.

والرائد: "من يتقدم القوم ويسبقهم في أي أمر من الأمور، ويمهد سبيلاً من السبل أمام الآخرين"^٢.

والريادة (entrepreneurship) أو (leadership)، أو الدور الريادي (leading role) أو الأدوار الريادية (entrepreneurial roles): تعني القيادة والرياسة، وعملية اكتشاف الفرص أو استغلالها وتطويرها، والقيادة هي العمل الرائد أو القدرة على التأثير أو النفوذ، وهي القدرة على معاملة الطبيعة البشرية. والمبادرة للانخراط بهدف صنع قيمة لمنظمة قائمة أو لمنظمة جديدة"^٣.

أما الدور الريادي - حسب مفهوم البحث الحالي - فهو {القدرة على القيام بأعمال جديدة، تتميز بالمخاطرة والابتكار، تسهم في تطوير مستوى الحياة}. وحسب هذا التعريف تعتقد الباحثة أن المرأة وفق الرؤية القرآنية قد أسهمت إسهاماً فاعلاً في تطوير المجتمعات البشرية، وشاركت بحضورها وأدوارها في إسعاد الناس. ولقد "كانت دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام لأقوامهم إلى توحيد الله تعالى متسقاً مع الفطرة، وعندما بشروهم وأندروهم لم يفرقوا بين رجال ونساء؛ إذ كل الناس رجالاً ونساءً مدعوون لإسلام الوجه لله تبارك وتعالى موحدين له، وإفراده بالعبادة، وخلع الأنداد والأوثان والأضداد"^٤. و"لم تخل حياة نبي من الأنبياء من المرأة المكملة والمعينة في سائر الدعوات والرسالات، وعلى مر العصور والأزمان"^٥.

وفيما يأتي بعض النماذج التي وردت حسب ترتيب القرآن الكريم لها:

زَوْجُ آدَمَ:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، [البقرة: ٣٥]. أسكن الله ﷻ المرأة الجنة كما أسكن الرجل - آدم النبي ﷺ -، وكرمت هذه المرأة بمشاركتها مع النبي في التكريم والتكليف والمسؤولية؛ ورغم ذلك يكلف آدم ﷺ بالتوبة بعد تلقي الكلمات من ربه. وبالتالي فإن

^١ إبراهيم، موسوعة المعارف التربوية، ص ١٨٤٥

^٢ انظر: نور الدين، معجم نور الدين الوسيط، ص ٦٤٣؛ ورضا، معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة، ص ٧٤٢.

^٣ انظر: = ٨٩٦٠، almiftah، Isa, M. F, Zainuddin, M. N, Zainuddin, M. K -

- Zainuddin, shorter oxford english dictionary, vol. ١, ١٥٥.

وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، م ٣، ص ١٨٦٩؛ وجواد، شوقي، وحجازي، هيثم، والعجلوني، محمد، أثر بيئة تفعيل المعرفة في المنظمات الريادية

أنموذج مقترح للمنظمات الأردنية، المؤتمر العلمي الدولي السنوي العاشر، الريادة في مجتمع المعرفة، ٢٦-٢٩/٤/٢٠١٠ (نسخة الكترونية)، ص ٢.

^٤ الصالح، موقع المرأة المسلمة ودعاوي التجديد، ص ٢١.

^٥ أسماء عبدالمعمر العمري، المرأة في القصص القرآني دلالات وعبر، ص ٥٥.

القرآن الكريم لا يلقي بالمسؤولية على حواء وحدها. وإنما ينص على أن الذي وسوس لهما معاً هو الشيطان ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠]. ويلاحظ أن الآيات الكريمة من سورة (طه) تشير إلى أن آدم ﷺ هو الذي تلقى الوسوسة بشكل مباشر من الشيطان دون تدخل من حواء ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجُكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١١٧-١٢١].

امرأة عمران:

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنِكَ وَدُرِّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٧].

ساد في الجاهلية وأد جسدي للأنتى، وفي بعض المجتمعات اليوم ساد وأد نفسي اجتماعي^١، وليس أدل على ذلك من اعتبار الأم لم تنجب إلا إن أنجبت الولد الذكر مهما كانت أمماً للبنات، وهناك عائلات تحتفل بالمولود الذكر، ولا تحتفل بالمولود الأنثى، ويكنى الآباء والأمهات بالولد الذكر، بغض النظر إن كانت بنتٌ تكبر هذا الولد، بل وصل بنا الوضع أن التبكير بالبنات دون البنين متشاهم منه! وأن ذكر اسم البنت أو اسم الزوجة في المحافل ومجالس الرجال عيب! والله -جل في علاه- يخاطبنا بقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ...﴾، عندما وضعت امرأة عمران أنثى، وذلك بعد سنوات من عدم الإنجاب حيث نذرت أن يكون المولود محرراً خادماً لله ﷻ ظناً منها أن المولود ذكر، لكي يسهم في البناء الأخلاقي في عصره. فلما وضعت الأنثى لم تياس فسمتها مريم لتكون خادمة في بيت المقدس؛ وفاءً لندرها لله ﷻ صابرة محتسبة في ذلك، رغم اختلاف الأنثى عن الذكر. وإن مما يشي بالدور الريادي لامرأة عمران، عدم اليأس من ولادة الأنثى، والرضا بما قسم الله ﷻ، والثقة في عطاء الله ﷻ معبرة عن هذه الثقة بدعاء خالص لله ﷻ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى...﴾، يدفعها الأمل أن الله ﷻ منجها من الشر في المستقبل: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنِكَ وَدُرِّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. والدعاء أسلوب تربوي ناجح يمارسه الآباء في حق أبنائهم. ويبدو للباحثة أن الدور الريادي الرائد الذي لعبته أم مريم عليها السلام يمثل في أنها خاطرت بابنتها وهي -أنثى- لتكون خادمة في بيت المقدس، تنازعتها عاطفة الأمومة ويحقق قلبها للأنثى كبقية الأمهات في العالم، إلا أنها تضحي بهذه العاطفة؛ في سبيل أن توفي نذرها لله تعالى.

مريم ابنت عمران:

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَائِمِينَ﴾ [التحريم: ١٢]. ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعِيبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا

^١ يتفق مع رأي: حنان لحام، أم حكيم بنت الحارث العروس الشهيدة، ص ١٠.

كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٢-٤٧﴾.

لقد ارتبط اسم عيسى عليه السلام بأمه في القرآن الكريم في (١٦) مرة وردت في القرآن الكريم -حسب البحث الحالي- بينما ورد اسم عيسى عليه السلام وحده دون اسم أمه (٩) مرات فقط. وتظن الباحثة أن هناك دلالة على مكانة شأن مريم عليها السلام واقتران اسمها بالنبي عيسى عليه السلام؛ ذلك لأنها لعبت دوراً ريادياً في حياة ابنها النبي عيسى عليه السلام، بل في مسيرة حياتها كلها، ابتداءً بنذر أمها امرأة عمران وهي جنين في بطنها بأن تكون محررة خالصة لله تعالى، ثم بعد ذلك دعاء أمها بأن يعيدها ربها من الشيطان الرجيم، وتعيش بعد ذلك تنذر حياتها لله عز وجل في كفالة نبي آخر هو زكريا عليه السلام، وينبتها الله نباتاً حسناً، إن هي إلا حياة طيبة نقية؛ أن تنشأ فتاة وليدة في أحضان العبودية الخالصة لله عز وجل من قيام وركوع وسجود وقنوت وصلاة لله وحده! وليس بغريب بعد ذلك أن يمدحها الله عز وجل، ويصطفها على نساء العالمين، وأن يؤيدها بمعجزة تخرج للعالم بطفل نبي، وأن تُتلى آيات عفتها حتى قيام الساعة: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، فأى تربية تربي بناتنا اليوم انطلاقاً من أصل الأم التي تتسلسل في الطهر والعفاف والعبودية الخالصة لله عز وجل. وأي صورة وضعت للمرأة اليوم في مجتمعات تدين بالإسلام تقتدي بها بناتها، وتنشأ عليها في ظل دعوات إلى التحرر المطلق والخروج السافر؟

إن الموقع الريادي المميز للسيدة العذراء مريم عليها السلام ماثل في كونها مصطفاة على نساء العالمين، ونساء العالمين لا تتعلق بنساء زمانها فقط، ولكنها تحتل موقعاً للتميز والتفرد على سائر النساء في كل عصر وزمان ومكان. وهو ما يدل على أن الاصطفاء الإلهي ليس خاصاً بالرجال وحدهم دون النساء، مما يعطي المرأة -وهي هنا السيدة مريم عليها السلام- نموذج للاقتداء والاهتداء بسبب تفوقها في صفات الكمال والطهارة.

ويضرب الله عز وجل (مثلاً) بالسيدة مريم عليها السلام للذين آمنوا -رجالاً ونساءً- كان ذلك النموذج ثمرة عفتها، وتصديقها بكلمات ربها، وقنوتها لله وحده. ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فَرَعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبَنِّحْنِي مِنْ فَرَعُونَ وَعَمَلِهِ وَبَنِّحْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّيهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبَنِّحْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١-١٢] وهو موقع ريادي آخر تمثله السيدة مريم تتفوق فيه على الرجال والنساء.

وتمثل كذلك الدور الريادي للسيدة العذراء مريم في مشهد الأمل المتبوع بالجد والمثابرة، وليس أمل النائمين: "وهي تكابد آلام المخاض، وقد بلغ بها الحزن مبلغه وخاض، وهي تعاني ما تعاني، تأتيها درر المعاني وهزني إليك بجذع النخلة، تساقط عليك رطباً جنياً أو تساقط عليك بصيغة المبالغة، وهو معنى يشي بأهمية الحركة، والاتكال على النفس، تحركي، اجتهدي، ابذلي ما في وسعك، لا تنتظري العون وأنت جامدة، وكلما كانت الحركة كانت البركة، وكلما تكررت المحاولات واشتد الالحاح ازدادت نسبة النجاح"^١.

^١ مقطع سمعي مباشر من خطبة يوم الجمعة، مسجد الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ١٢/٩/٢٠١٤م.

امرأة إبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧١-٧٣]. ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات، ٢٤-٣٠].

تفرد ريادي عجيب!، ومعجزة سماوية يؤيد الله تعالى بها المرأة، مما يوحي إلى أذهاننا أن المعجزات ليست خاصة بالأنبياء الرجال وحدهم، ولكن المرأة في الرؤية القرآنية لها سمات خاصة تميزها وتعطيها حقها من التكريم والاصطفاء والمعجزات.

أضف إلى ذلك أن المرأة لم تكن غائبة عن واقع المشهد، تتحاور وتتعبج وتمارس حقها في الحركة، يلجأ إليها النبي إبراهيم عليه السلام لكي تعاونه في إكرام الضيف، وتشارك برأيها، بينما المرأة اليوم في بعض المجتمعات وجدناها تقف بين حضارتين متناقضتين فهي إما أن تلتزم بحجابها وتغيب عن المشهد الخارجي، أو أن تشارك وهي سافرة مولية شطرها قيم الإسلام ومثله.

ملكة سبأ:

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

المرأة وفق الرؤية القرآنية لم تكن أنتى حبيسة منزلها فقط، ولكنها خرجت -وفق ظروف محددة وخاصة-: تبصر أخواها، وتستقي الماء، وتتخذ مكاناً شرقياً، وتهاجر إلى وادٍ غير ذي زرع، بل وتقود شعباً وتملك دولة. ورغم أن ملكة سبأ عندما وصلتها دعوة سليمان عليه السلام كانت تعبد الشمس مع قومها من دون الله تعالى، إلا أن الله تعالى يؤيد حكمته ويصدقها بأن الملوك فعلاً كذلك يفعلون: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أُذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]. ينم عن مكانة المرأة، وخبرتها في المجال السياسي، وحنكته في شؤون القيادة والحكم. وقدرتها على تجنب دولتها أي مجال للخسارة، أو أي نوع من أنواع الألم والعذاب لشعبها، فأين ملكة سبأ اليوم عندما نقارنها بملوك ورؤساء وأمرء ومديري مؤسسات يضحون بشعوبهم ومرؤوسهم بجرعوتهم أنواع الألم والظلم والعذاب في سبيل أن يحافظوا على عروشهم وكراسيهم.

أم موسى عليها السلام:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْفَيْثُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

يتكرر تمييز المرأة بأن الله تعالى يوحي إليها وهي أم، وليس وحي الله تعالى خاص بالرجال دون النساء، كما أن الاصطفاء ليس خاصاً بالرجال دون النساء في النماذج السابقة، فالمرأة أنجبت الأنبياء والرسل عليهم السلام، والمرأة وقفت بجانبهم واعتنت بهم أيما عناية، ويلاحظ في موقف أم موسى عليها السلام هذا الملح الشديد وهي تلقي بطفلها في اليم، خوفاً من الغرق وخوفاً من فرعون الذي يذبح الأبناء ويستحي النساء، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصر: ١٠]. ولكن أمر الله تعالى غالب في أن تستحيب وتطيع ما أوحى إليها دون أن تدرك الحكمة سوى أن عليها

الطاعة، وهو تفرد رائد أن تخاطر أم بولدها إلى مستقبل مجهول مخوف بالموت في سبيل الطاعة لله ﷻ، يتشابه هذا الموقف الرائد الذي جاء مخالفاً لغريزة الأمومة عند الأمهات، مع موقف السيدة أم مريم عليها السلام عندما خاطرت بابتها في سبيل نذرها لله ﷻ.

"وهذا التعبير بفرغ قلب أم موسى أن من علاماته أنها أوشكت أن تخرج إلى الشارع صائحة نائحة معلنة عن مشاعرها، مفصحة عن مأساتها بفقد ولدها، ولو فعلت لقتلت وليدها لأنه سيقطع يقيناً أنه من بني إسرائيل، وهذا كفيلاً بقتله"^١. ولكن الله ﷻ أكرمها بأن ربط على قلبها لأنها من عباده المؤمنين.

امرأة فرعون:

يبدأ الدور الريادي لامرأة فرعون بأنها اعتنت بطفل مجهول سار إلى قصرها، لم تقف موقفاً سالباً ولم تعلن إهمالها لطفل عابر، ولكنها عبّرت عن مشاعر أمومة نحو طفل لم تنجبه، لدرجة أنها اعتبرته ولدها وقرّة عين لها ولفرعون: ﴿وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]. "ويضرب لنا مثلاً رائعاً في امرأة فرعون الذي ادعى الألوهية وقد استخف كل الناس رجالاً ونساءً، استخف عقولهم إلا أن امرأته آسية ظلت بعقيدتها الحرة صافية للتوحيد، ولم تستمع له، ولم يقدر على أن يرغمها على أن تعتقد فيه الألوهية، وهو موقف لم يقفه سوى رجل واحد هو مؤمن من آل فرعون، فمن الرجولة أن يقف في وجه فرعون ولكنه يقف بلباقة، أما هذه المرأة فتقف موقفاً صارماً لا هوادة فيه، فتقول: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، وكان يكفي أن تقول هذا، ويكون ذلك تعريضاً بموقف فرعون، ولكنها خصته أيضاً بقولها: ﴿وَبِحُجِّي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ [التحريم: ١١]^٢.

وفي دعائها ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ ما يدل على "قوة الإرادة المتمردة على الإغراء والسلطة، والإصرار على رفض زخارف الدنيا، لنيل محبة الله ﷻ وطاعته، وهذا يفند ما يقال اليوم عن المرأة أنها مسلوبة الإرادة وأنها عاجزة عن اتخاذ القرار بنفسها"^٣.

أخت موسى عليه السلام:

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠]. موقف ريادي آخر من أخت تعني بأخيها الرجل النبي، كما اعتنت به الأم ووقفت بجانبه الزوجة. يصف القرآن الكريم أسلوب هذا المرأة الأخت في مشهد هادئ وحكيم تتفوق فيه المرأة ينم عن قمة في الذكاء: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١١-١٢]. وربما كان "التعبير ببصرت به لا يعني أبصرته فحسب، وإنما التمكن من الإبصار والمتابعة الدقيقة والحثيثة، والعظمة أن كل ذلك تم وهي متشاغلة في الظاهر عن الولد، كأنما تلتقط بعض أعشاب الأرض لتعد طعام

^١ نوفل، تفسير سورة القصص دراسة تحليلية موضوعية، ص ٢٤٠.

^٢ الشعراوي، دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، ج ٨، ص ٢٢٢.

^٣ لمزيد من التفصيل: بيدس، هالة حسني، والعليمات، فاطمة محمد، خطاب المرأة اللغوي في القرآن الكريم، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية،

الأردن، ٤٠م، ٢٤ع، ٢٠١٣، ص ٢١٨.

أهلها، فهذه بعض ضلال عن جنب، لأنها لو أبدت اهتماماً للفتت إليها الأنظار، ولكشفت الأمر كله ولأودت بأخيها".^١

بنات مدين:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

ظل موضوع عمل المرأة أو خروجها - بشكل عام - محل نقاش طويل، والقرآن الكريم يوجز عمل بنات مدين في صورة بليغة محددة الضرورة، ومعيار الخروج في صورة تفرض احترام المرأة، والتزامها قيم العفة والحياء والحشمة. وهو دور ريادي تتميز فيه المرأة بدورها الإيجابي في المجتمع. وعدم انغلاقها تحت ذريعة الخوف والضعف والوهن، أو بدعوى عدم أهليتها للرأي والشورى.

وفي موقف يدل على الذكاء والفراسة وحسن التصرف تقول لوالدها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْذِنْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْذَنَ الرَّجُلُ نِسَاءَهُ وَأَنَّهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [القصص: ٢٦]. تلخص في كلمتين ما تناولته نظريات علم التنمية البشرية اليوم حول نجاح القائد، أو نجاح الزوج، أو نجاح المعلم، أو الرئيس... إلخ في كلمتين هما: (القوة)، و(الأمانة). ويستجيب الأب لدعوة ابنته. وقد تناقلت الأمة أحاديث موضوعية، ووجدت في كتابات المسلمين تلك الأحاديث التي تفيد احتقار المرأة والنظرة الدونية لها، وأنه لا رأي لها ولا كلمة!^٢

المرأة في بيت الرسول محمد ﷺ حسب القرآن الكريم

صاحبة قصة الإفك^٣:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

يتشابه موقف البراءة من الإثم والإفك للسيدة عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين رضي الله عنها مع موقف براءة مريم العذراء، فالموقف الريادي واحد، والتميز على الرجل والمرأة سواء في هذا الموقف، تتلو الأمة إلى قيام الساعة موقف تفرد المرأة في عفتها وطهارتها، وتبرأتها من فوق سبع سماوات، ثم تتلى أحكام شرعية تنص على كرامة المرأة الإنسان، لم يحفظها لها الإنسان إلا بقوانين الله ﷻ المنصوص عليها في كتابه.

أمهات المؤمنين رضي الله عنهن^٤:

^١ نوفل، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

^٢ أورد: بنتاجي، في كتابه مكانة المرأة في القرآن والسنة الصحيحة، مجموعة أحاديث عن المرأة تم تحقق عدم صحتها ص ٣٥٣-٣٨١.

^٣ الإفك هو الإثم والبهتان، والمراد به هنا: ما وقع من الإفك على عائشة أم المؤمنين، أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم حديث عائشة الطويل في سبب نزول هذه الآيات من سورة النور، وحاصله: أنها خرجت من هودجها لتلمس عقداً لها انقطع، فحلوا وهم يظنون أنها في هودجها، فرجعت وقد ارتحل الجيش والهودج معهم، فأقامت في ذلك المكان، ومر بها صفوان بن العطل، وكان متأخراً عن الجيش، فأناخ راحلته وحملها عليها، فلما رأى ذلك أهل الإفك اتهموها بالفاحشة، وقالوا ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا. الأشقر، القرآن الكريم وبهامشه زبدة التفسير من فتح القدير، ص ٤٥٨.

^٤ مات النبي ﷺ عن تسع نسوة لكل واحدة ظرف خاص في زواجها، أما السيدة خديجة فقد تزوجها وسنه خمس وعشرون سنة، وسنها أربعون، ومع هذا الفارق الكبير فقد عاشا عيشة سعيدة حتى ماتت، وقد أمضى معها زهرة شبابه، إذ ماتت وهي في سن الخامسة والستين، ومع هذا لم يتزوج من غيرها مع عدم

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ...﴾ [الأحزاب: ٦].

يتمثل الدور الريادي لأمهات المؤمنين، رضي الله عنهن أزواج الرسول ﷺ في مكانتهن اللائقة واحترام المؤمنين لهن، كونهن أمهاتهم إكباراً لهن وتعظيماً لمقامهن. فضلاً عن تخصيص أحكام تشريعية في علاقة المؤمنين بهن. بل تأتي آية التحريم لتخاطب جميع أمهات المؤمنين ولم تستثن واحدة منهن ما يدل على احترام مشاعرهن جميعاً. كنيات وأبكاراً: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

وهذه توجيهات خاصة لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، التزم بها جميعهن رضي الله عنهن، ولذلك أخذن دورهن الريادي في الأمة، وامتلن الطهر والقنوت، وكنّ قدوات المؤمنات في التزكية والعبادة الخالصة لله ﷻ، وفي التحلي بكرم الصفات والأخلاق، وكانت حياتهن الفاضلة مدارس يتعلم منها الرجال والنساء في الأمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَرَئِبْتَنَّهُا فَتَعَالَيْنِ أُمْتِعَنَّ وَأُسْرَحَنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنِ يَاْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا وَمَنْ يَفْعَلْ مِّنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُمْ كَأَحَدٍ مِّنَ السَّاءِ إِنْ اتَّقَيْتُمْ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٣٤].

وما كانت علاقة كل واحدة منهن تحمل كيداً أو عداً للأخرى، ولكنها علاقة الرحمة والإيثار والتنافس في المحبة، وفي العلم والعبادة والأخلاق، يلاحظ في ذلك تعامل النبي ﷺ معهن في عدل ورحمة ومودة يجسد هذه العلاقة قوله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي». فالرسول ﷺ لم يكن دكتاتورياً في تعامله معهن، وكان يعدل بينهن بالتسوية، فأثرت تلك العلاقة أنهن نقلن عن رسول الله ﷺ من بعده تشريعات الإسلام للناس جميعاً، "كان عدد من نساء المؤمنين في وقت مبكر دورا في نقل نصوص القرآن الكريم: عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين سمعت مقاطع من القرآن الكريم من النبي ﷺ نفسه، حيث اعتمدت كمراجعة وتثبت للنسخ الأخرى، بل إن أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما احتفظت بالنسخة الكاملة المكتوبة للقرآن الكريم حتى عهد عثمان بن عفان ﷺ - الخليفة الراشد الثالث - واعتمدها عثمان ﷺ كنسخة رسمية"^١. ويبدو هذا الدور الريادي لامرأة تكون محل ثقة كبار الصحابة لدرجة أن تحتفظ عندها

المانع، ثم تزوج بعائشة مع صغر سنها، وبحفصة بنات كبار الصحابة لإبقائهم قريبا من بيوتهم، وبأم سلمة مع كثرة عيالها وكبر سنها، كل هذا لإرضاء أصحابه ورجال دعوتهم، وجبرا لخاطر امرأة كأم سلمة هاجرت مع زوجها إلى الحبشة وإلى المدينة ثم لما مات زوجها، أليس من المروءة أن يجبر خاطرهما حتى يطمئن كل قواده وحنوده على أهليهم بعد وفاتهم، وهذه سودة امرأة مسنة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان زعيم قريش أسلمت قبل أبيها وهاجرت إلى الحبشة ثم لما مات زوجها تزوجها النبي إكراماً لها وتقديراً لعملها، وصفية بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود، وجويرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق، وقد هزمت قبيلتهما فأراد النبي أن يجبر خاطر صفية وجويرية فتزوجهما لأسباب سياسية لا تخفى على قائد جماعة وصاحب دعوة، ولا يظن أحد أن النبي ﷺ كان يعيش عيشة المترفين في بيته، وتلك ظروف زواجه كلهن فما تزوج لجمال أو لشباب أو لطلب رفاهية، وما كان مترفاً في مآكل أو مشرب أو ملابس. [حجازي، محمد محمود،

التفسير الواضح، ج ٢٢، ص ٢٠ و ٢١]

بنسخة القرآن الكريم هذا الكتاب المقدس منهج الأمة الذي هو الآن بين أيدينا وحتى قيام الساعة، كان بين يدي امرأة! اعتنت بها في عهود خلفاء ثلاثة جاءوا بعد رسول الله ﷺ أبوبكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم جميعاً.

برز الدور الريادي للمرأة في عهد النبي ﷺ، حيث شاركن في جميع تفاصيل الدولة التي أسسها الرسول ﷺ بداية بالدعوة إلى الإسلام، فكانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أول امرأة تستجيب للدعوة وتقف بجانب زوجها ﷺ وتسانده، ثم كانت منهن المجاهدة في سبيل الله ﷻ، والمهاجرة إلى الله تعالى، والشهيدة في سبيل الله ﷻ، والمبايعة لرسول الله ﷺ، إلى أن تولت منصب الرأي والشورى في الدولة واستجاب رسول الله ﷺ لرأيها، كما أجاز من أجازته، وتولت منصب الإفتاء والتعليم للأمة^١.

زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

يزوجها الله ﷻ من فوق سبع سماوات من سيد الخلق أجمعين محمد ﷺ، لكي تبطل عادة التبني التي تنسب الأدياء إلى حكم الأبناء، وينص تشريعاً في الزواج من الأدياء. وكانت رضي الله عنها تفتخر بزواجها الذي تم بطريق الوحي أمام أمهات المؤمنات.

هذه المرأة الشريفة التي أكرهت على الزواج من زيد لم تكن راغبة فيه إلا امتثالاً لأمر الله ورسوله، ولكنها إنسانة، لم تستطع أن تعيش معه، ولم يتحمل هو الحياة مع امرأة لا ترغب فيه فاشتكى إلى رسول الله ﷺ أنه يريد طلاقها، فطلقها زيد ولما انقضت عدتها خطبها رسول الله ﷺ لتصبح أماً للمؤمنين، وينتهي بزواجها إحدى عادات الجاهلية إلى الأبد.

خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة، ١].

كانت تشتكي إلى الله ضعفها وقلة حيلتها، وفراقها لزوجها ووحشتها، تقول لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله! أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك!". تقول عائشة رضي الله عنها وكانت تسمعتها من حجرتها: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية، فحقاً إن الله سميع بصير^٢. وتتلو الأمة اليوم سورة كاملة في القرآن الكريم بسبب امرأة، لمجرد شكواها ينزل من السماء تشريعاً بإنهاء عادة جاهلية هي عادة الظهار، ويقرر الله ﷻ لجميع الرجال أن زوجاتهم ليست أمهاتهم.

وهكذا نقرأ مشاهد رائدة للمرأة في القرآن الكريم في جميع أحوالها وظروفها التي تزامنت مع موكب الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهم أفضل الخلق الذين حملوا للبشرية رسالات السماء لتحقيق سعادة الناس في الدنيا والآخرة، وهناك نساء وفتيات - لم يستوعبهن البحث الحالي-، كانت لهن أدواراً ريادية أخرى، ومشاركات واعية على مستوى الأسرة

^١ التفاصيل في: زيادة، أسماء محمد أحمد، دور المرأة السياسي في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين.

^٢ حجازي، التفسير الواضح، ج ٢٨، ص ٤.

والأمة في مسيرة حياة الأنبياء والرسل عليهم السلام، ولم يعمد الأنبياء عليهم السلام إلى تغييب أدوارهن في واقع الحياة، فهذا لوط عليه السلام يخاطب قومه قائلاً: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. وهارون عليه السلام يستعطف أخاه بالأم مخاطباً إياه: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ...﴾ [طه: ٩٤]. ويرفع يوسف عليه السلام أمه على العرش كما رفع أباه، ويدعو نوح عليه السلام لأمه كما يدعو لأبيه، وكذلك من بعدهم إبراهيم عليه السلام، وكذلك النبي يحيى عليه السلام، ويتحدث عيسى عليه السلام في مهده قائلاً: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢]. والأنبياء عليهم السلام في عنايتهم بالأم وشمول الدعاء لها مع الأب يعلمون الناس أنهم مهما وصلوا منزلة رفيعة عند الله كأنبياء ورسل؛ إلا أن الأم يجب الإحسان إليها، وتعهّد التواضع لها. ويخاطب موسى أهله وهي إلى حوار في الوادي المقدس: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]. ويسارع الأنبياء والرسل إلى إنقاذ أهلهم النساء المؤمنات من عقوبة تكذيب أقوامهم لهم. وكما أيد الله تعالى امرأة إبراهيم عليه السلام بمعجزة الإنجاب وهي عجوز عقيم، فإن زوج النبي زكريا عليه السلام كذلك كانت عقيماً ولكن شاء الله تعالى أن يبشرهم بيحيى عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]. ويدعو النبي إبراهيم عليه السلام لزوجته وذريته فيقول: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ثم يقتدي به ولده إسماعيل فيدعو أهله إلى الصلاة: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

بل كانت زوجات الرسل والأنبياء عليهم السلام دليل على بشرتهم، فالرسل عليهم السلام ليسوا ملائكة، ولكنهم من جنس البشر ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

التوصيات:

من واقع العرض السابق بدا واضحاً أن المرأة لعبت دوراً ريادياً مميزاً عبر تاريخ الإنسانية منذ عهد آدم عليه السلام إلى عهد خاتم الأنبياء والرسل محمد عليه السلام، وأعطيت من الحقوق ما كفلتها لها شريعة الإسلام ومنهج السماء؛ إلا أنها أقصت عنها عندما ابتعد المجتمع كله عن شريعة الإسلام. ولذلك فإنها مطالبة بتحمل المسؤولية والتكليف، وأن تأخذ بزمام المبادرة لكي تسهم من جديد في العودة إلى العهد الريادي للأمة، بالطرق المشروعة الآتية:

- يُفسح أمامها الطريق لتسلح أدوات العلم ووسائله، ولتنمية مواهبها ومهاراتها وخبراتها، وتطبيق ما اكتسبته، و تلجى حاجاتها ومطالبها في المشاركة المجتمعية، والاقتصادية، والقانونية، والسياسية، والقيادية في إطار منهج الإسلام الحنيف.
- يُعنى بتربية الأفراد من حولها وتوجهاتهم الفكرية، وكذلك توفير المؤسسات الخاصة بالمرأة لكي تستطيع أن تؤدي أدوارها الريادية داخل البيت، والأسرة، والمجتمع، وفق شريعة الله تعالى لا تفريط ولا إفراط.
- دراسة شخصيات المرأة التي وردت في القرآن الكريم، بشكل تفصيلي وفي إطار مجالات الحياة العملية المعاصرة، مع استمرار الاجتهاد في موضوعات المرأة فيما لا نص فيه.

المصادر والمراجع:

١. إبراهيم، مجدي عزيز، موسوعة المعارف التربوية، (القاهرة: عالم الكتب، ط ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
٢. الأشقر، محمد سليمان عبدالله، القرآن الكريم وبهامشه زبدة التفسير من فتح القدير، (الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م).
٣. بنتاجي، محمد، مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، (القاهرة: دار السلام، ط ١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
٤. بيدس، هالة حسني، والعليمات، فاطمة محمد، خطاب المرأة اللغوي في القرآن الكريم، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، (الأردن، م ٤٠، ع ٢، ٢٠١٣م).
٥. جواد، شوقي، وحجازي، هيثم، والعجلوني، محمد، أثر بيئة تفعيل المعرفة في المنظمات الريادية نموذج مقترح للمنظمات الأردنية، المؤتمر العلمي الدولي السنوي العاشر، الريادة في مجتمع المعرفة، ٢٦-٢٩/٤/٢٠١٠م (نسخة الكترونية).
٦. حجازي، محمد محمود، التفسير الواضح، (بيروت: دار الجيل، ط ٤، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).
٧. الحسن، ميادة محمد، حقوق المرأة الاقتصادية بين الشريعة والعرف، مجلة البحوث والدراسات الشرعية، (مصر: ع ٢٤٤، ١٤٣٤هـ).
٨. الدررزي، شذى سلمان، المرأة المسلمة في مواجهة التحديات المعاصرة (عمّان: روائع مجدلاوي، ط ١، ١٩٩٧م).
٩. رضا، يوسف محمد، معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ٢٠٠٦م).
١٠. زيادة، أسماء محمد أحمد، دور المرأة السياسي في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، (القاهرة: دار السلام، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
١١. السعيد، حسن، المرأة المسلمة هموم وتحديات، (بيروت: دار الهادي، ط ١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
١٢. الشعراوي، محمد متولي، دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، جمعه: محمد بن عبدالحكيم القاضي، راجع التحقيق: محمد السعدي فهدود (القاهرة: دار الكتاب المصري ودار أخبار اليوم قطاع الثقافة، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
١٣. الصالح، محمد أديب، موقع المرأة المسلمة ودعاوي التجديد، (الرياض: شركة العبيكان، ط ١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
١٤. عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، (القاهرة: عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٨م).
١٥. العمري، أسماء عبد المنعم، المرأة في القصص القرآني دلالات وعبر، (عمّان: كنوز المعرفة، ط ١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).
١٦. لحام، حنان، أم حكيم بنت الحارث العروس الشهيدة (الرياض: دار الهدى، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
١٧. مقطع سمعي من خطبة يوم الجمعة، مسجد الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ١٢/٩/٢٠١٤م.
١٨. الميلاد، زكي، المرأة في المشروع الإسلامي المعاصر، ثقافتنا، ١٦٤، من www.iranarab.com تاريخ الدخول: ١٠/١٤/٢٠١٤م.
١٩. النابلسي، محمد سعيد، صورة المرأة العربية في وسائل الإعلام وفنون التعبير قضايا وتوجهات - مقال في كتاب: المرأة العربية بين ثقل الواقع وتطلعات التحرر، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٩٩م).
٢٠. نور الدين، عصام، معجم نور الدين الوسيط، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
٢١. نوفل، أحمد، تفسير سورة القصص دراسة تحليلية موضوعية، (عمّان: مركز حراء القرآني، ط ٢، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م).
٢٢. الهادي، سيف، سؤال أهل الذكر، برنامج تلفزيوني، حلقة عن أحكام الطهارة للمرأة، سلطنة عمان، ١٤/٨/٢٠١٢م.

٢٣. Roded, Ruth, **women in islam and the middle east**, (London & New York: I.B.Tauris publishers, ٢, ٢٠٠٨), ٢٧
٢٤. Zainuddin, **shorter oxford English dictionary**, (Oxford university, ٥.ed, ٢٠٠٢), vol.١, ١٥٥.
٢٥. Zainuddin, M. K, Zainuddin, M. N, Isa, M. F, **almiftah**, (Jalan: al azhar media enterprise, ٢٠٠٨), ٨٩٦.

الشباب المسلم والتحديات المعاصرة

د. عبد الله محمد الحواسي^١

ملخص البحث:

سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على الشباب المسلم وأهم التحديات المعاصرة، وكيف يمكن النهوض بهذا الشباب وتسليحه، ليتمكن من الصمود في المستقبل أمام الانجرافات التي ستواجهه، باعتبار أن هذه الفئة العمرية من المجتمع هي العمود الفقري وحجر الزاوية الذي به يقوم المجتمع الحضاري، لكل أمة تطمح للرفي في مستقبلها القادم، فهذه الفئة العمرية من الشباب المسلم بجنسيه الذكور والإناث لها أوضاعها الخاصة ومواقفها المختلفة عن غيرها من الفئات العمرية بالمجتمع. ويهدف إلى بيان مدى اهتمام الوحي الإلهي بالشباب المسلم. والكشف عن أكبر التحديات العصرية التي تواجه هذه الفئة العمرية من الشباب المسلم، وكيف يمكن أن نسلح الشباب المسلم حتى لا يتأثر بالعواصف العصرية؟ من خلال: دعوة الشباب المسلم للتفكير الإيجابي البناء، ومنحه الثقة حتى يكون قادراً على اتخاذ القرار، وعدم فرض الآراء عليه في تحديد مسار حياتهم، متبعاً فيه المنهج الوصفي التحليلي والذي يعني بوصف الأمر الذي يراد دراسته ولا يقف عند مجرد الوصف وجمع المعلومات، بل يتعدى ذلك إلى تحليلها وتفسيرها ومعرفة العلاقة بينها.

المقدمة:

لقد حرص الإسلام كل الحرص على غرس مبدأ الولاء للدين الحنيف كعقيدة في المؤمنين، وذلك حتى يبقى الإسلام هو مدار حياة المسلم، يعيش ويحيا له، حتى يلقي ربه.

فالشباب هم طاقة الأمة وقوتها، وعمادها ومصدر عزتها، قد جعلهم الله عز وجل من أعظم أسباب بلوغ المعالي والقمم لا تشذ عن ذلك أمة من الأمم، ومن أكبر مقومات بناء مجد الأمة، وصناعة تاريخها، فشباب اليوم هم رجال الغد، وهم الأصل الذي يبنى عليه مستقبل الأمة، ولذلك جاءت النصوص الشرعية بالحث على حسن رعايتهم وتوجيههم إلى ما فيه الخير والصلاح، فإذا صلح الشباب وهم أصل الأمة الذي يبنى عليه مستقبلها بعد توفيق الله سبحانه، وكان صلاحه مبنياً على دعائم قوية من الدين والأخلاق، فسيكون للأمة مستقبل زاهر^٢.

الشباب والقرآن الكريم:

لم يرد في القرآن الكريم ذكر الشباب بهذا اللفظ، ولكن يمكن أن نجد العديد من الألفاظ القرآنية الأخرى التي يقصد من ورائها الشباب، ونحن هنا لا ندرس مصطلح أو لفظ الشباب بعينه، بل نسلط الضوء على فئة عمرية محددة من فئات المجتمع بصرف النظر عن سماها.

ومع ذلك فالقرآن كلام الله، وهو صالح لكل زمان ومكان، قد وردت فيه العديد من الألفاظ التي تشير إلى هذه الفئة العمرية من المجتمع. قال تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَئِي يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

^١ جامعة الجبل الغربي بليبيا.

^٢ ابن عثيمين، من مشكلات الشباب، ص ٤.

فقد أراد الله تعالى أن يوضح لنا من خلال هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام كان شابا "سمعنا فتى" أي شابا. قال ابن عباس: "ما بعث الله نبيا إلا شابا، ولا أوتي العلم عالما إلا وهو شاب"^١.

وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

يقول ابن كثير في تفسيره لمعنى الفتية في سورة الكهف: "إنهم فتية وهم الشباب، وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم شبابا، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل"^٢.

يتضح من ذلك أن مصطلح الفتوة في القرآن الكريم المقصود منها الفئة العمرية التي تبدأ من سن ١٥ إلى سن ٢٤، وربما أكثر من ذلك حسب تصنيف الجمعية العامة للأمم المتحدة.

وهذه الفترة للشباب تقع بين فترتين عمريتين فيهما ضعف كما بينه الله عز وجل في كتابه بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

بمعنى أن الشباب أو الفترة العمرية التي قبيل الشباب تكون ضعفا، ثم يأتي الشباب، وتأتي القوة والحركة والطاقات المتزايدة وتدبير الأمور، وبعد ذلك تأتي فترة عمرية أخرى فيها ضعف وهي الكهولة والشيوخوخة. فتبين لنا من خلال الآية الكريمة أنه لا قوة في حياة الإنسان إلا في فترة شبابه، وهي الفترة العمرية التي يستطيع أن يعطي الإنسان فيها كما يكون قادرا على التغيير وإحداث كل ما نراه مستحيا.

وفي زمننا هذا تتعرض فئة الشباب إلى العديد من التحديات الجسيمة:

منها التحديات الأخلاقية والسلوكية والتحديات الفكرية:

نحن الآن إن غفلنا فيه أو سهونا عن شبابنا فإنهم سينحرون وراء أفكار أخرى، وسنحسرهم ولن نستطيع إرجاعهم إلى جادة الطريق أبدا.

فالسبل المضلة للشباب كثيرة خصوصا مع هذه الظروف وتقنية الاتصالات وكثرة التيارات والأفكار المنحرفة التي همها استدراج شباب المجتمع إلى التهلكة والفوضى، ناهيك عن الانحلال والفسق، ولنا في قصة يوسف عليه السلام العظة والعبرة والفائدة الكبرى، وهي كفيلة بأن تقوم أخلاقنا وسلوكنا في مختلف الفئات العمرية. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ • وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٢-٢٣].

وهنا وجب أن ننوه إلى أن سياسة العزلة للشباب لن تجدي نفعا، فقفل الإنترنت والقنوات الفضائية لن يمنع الشباب من ترك المنكرات، ولكن التربية السليمة هي العاصم الذي يكفل الحصانة الذاتية للشباب، فشبابنا إن لم يتمتع بتربية سليمة دينية معتدلة فستخطفه السبل المضلة.

^١ أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، كما نسبه إليه ابن كثير في تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ١٨٢.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٧٣-٧٤.

ونحن عندما ننبه من الإنترنت والقنوات الفضائية و... إلخ، لا نعني بذلك الانقطاع عن المجتمعات التي تختلف عنا دينيا واجتماعيا، كالتى ترى بالاختلاط والانحلال الأخلاقي حرية شخصية، بل يجب الاحتكاك بهم والتعامل معهم والاستفادة من حضارتهم، ولكن في حدود ما يراه الشرع الحنيف، بحيث لا يصل هذا الاحتكاك إلى درجة الانصهار والدوبان في تلك الحضارة.

فالشباب الذي يعيش مع أسرته في أجواء إيمانية، مصحوبة بالتوجيه والثقيف الديني الوسطي البعيد عن الغلو، والأخلاقي العلمي فإنه وإن ضل الطريق لفترة ما حتما سيعود لرشده وإلى جادة الطريق، لما يحمله من قيم وتعاليم إسلامية قد جبل عليها.

وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم الشباب على الزواج لأنه أحسن للنفس وهوأها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الشباب: من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^١.

فلا شك في أن الصوم يعفف النفس ويهذبها ويلجمها أمام الشهوات، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتَعَفِيفِ الدِّينِ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْزِبَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

الحاجات الاقتصادية والمعنوية للشباب المسلم:

إن عدم إشباع الشباب سواء المادية أو المعنوية بما فيها الاحتياجات التربوية التعليمية السليمة والعاطفية والقدرة على تكوين صداقات ناجحة، هذه الاحتياجات لا تقل أهمية عن الاحتياجات المادية للشباب، فليس عشا إن نزلت أول كلمة في القرآن (اقرأ)، وفي موسم الحج جمع الله للمسلمين بين منافعهم المتمثلة في التجارة، أو أي أمر من أمور الدنيا فيما يرضاه الله، مع ذكر اسم الله عز وجل، وهذه فيها تذكرة وفائدة للمسلمين: ﴿لَيْشْهَدُوا مَنْفَعَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

أما الاحتياجات المادية فعادة ما تختلف من مجتمع إلى آخر، فهذه الاحتياجات لا تكون ذات أهمية للشباب في مجتمع ما لو فرتمها، في حين يلجأ بعض الشباب في مجتمع آخر إلى السرقة أو غير ذلك من السلوكيات المنحرفة، لأجل إشباع حاجاته المادية، مما يترتب على ذلك خللا في المجتمع.

فالشباب الذي تربى تربية دينية إسلامية وسطية؛ وإن كان فقيرا أو غنيا، فإن سلوكه لن ينحرف بسبب خوفه من الله عز وجل، وتربيته السليمة، ذلك هو حال الشباب الذي يتعرض لعواصف معنوية ونفسية كرفقاء السوء، والاستعمال المحرم لوسائل الاتصالات، فمن كانت تربيته صحيحة فلا خوف عليه من العواصف العصرية.

فيجب على المجتمعات لحماية الشباب من الانحراف وضع الخطط المدروسة والكفيلة بتحقيق احتياجات الشباب المادية والمعنوية، بدلا من ملأ فراغهم بالرياضة والسياحة فقط.

فلقد آن الأوان كي تطور علما للشباب خصوصا بهذه الفئة تحت مسمى (علم الشباب ... إن عدم تطوير مثل هذا العلم إلى الآن في جامعاتنا ما هو سوى دليل إضافي على هدر الشباب، وتكفي نظرة سريعة إلى واقع الشباب في عصر

^١ ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ص ٥٥٢.

العولة عموماً، وواقعهم في بلاد هدر الإنسان كي يتضح مدى أهمية مثل هذا العلم وضرورته لوضع سياسات شبابية على الصعيد المجتمعي في التربية والعمل والمشاركة الاجتماعية والانتماء كما في الترويج^١.

كيف يمكن أن نسلح الشباب المسلم حتى لا يتأثر بالعواصف العصرية؟

- إقحامهم في المهام وتحميلهم المسؤولية:

هذه الفئة العمرية هي الفئة المعطاة في المجتمع، وقد حظيت بعناية خاصة في الإسلام، فمعظم من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم هم من شباب قريش، وكانوا عوناً له لنشر الإسلام إلى يومنا هذا المثل الأعلى والقُدوة الحسنة أمثال: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابي بلال بن رباح، وحزمة بن عبد المطلب، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن عباس، والمقداد ... والقائمة تطول بشباب الإسلام الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فتكليفه ﷺ لأسماء بن زيد لقيادة جيش المسلمين وهو شاب يافع لم يتجاوز العشرين عاماً ما هي إلا لتمكين الشباب والرفع بهم وتحميلهم المسؤولية ولمعرفته ﷺ بأهمية الشباب ودورهم وقدرتهم على التغيير وما تمتلكه هذه الفئة من طاقة تستطيع أن تفعل ما نراه مستحيلاً.

فوجب على المجتمع الاقتداء بسنة نبينا صلى الله عليه وسلم في الكبار بهذه الشريحة، وتحميلهم المسؤولية حتى يكونوا قادرين على تحمل أعبائهم المستقبلية والنهوض بها.

إن تهميش الشباب وممارسة دور الوصاية عليهم، يعد عملاً مرفوضاً في العملية التربوية الصحيحة للأجيال الصاعدة، كما أنه مرفوض أساساً لدى هذه الشريحة؛ لأنهم يرون في أنفسهم قادرين على المساهمة في إيجاد الحلول والتغيير والتطوير، وربما بطرق أسهل و، وسرع وأضمن نجاحاً مما يراه الجيل القديم.

فيجب أن نعي أن بعض الحركات التمردية للشباب تعد مفيدة، ويجب ألا نحاول قمعها بالقوة أو بأي طريقة أخرى، وربما تكون مؤشراً إلى بداية أزمة، وربما تكون حادة، فينبغي أن نتجه إلى الأزمة، ونحاول حلها بدل أن نركز التمرد وقمع الشباب^٢.

وهذا لا يعني أن نطلق العنان للشباب فيتصرفوا كما يحلو لهم، فهم شباب ونظرة العلو ومرحلة الغرور سرعان، فيجنحوا عن الطريق السليم، وعلى المجتمعات ألا تغفل ذلك وتبادر بالحلول، من خلال دراسات معمقة صحيحة لهذه الفئة العمرية.

وفي الوقت ذاته فتح الفرص للشباب المتميزين للابتكار والتطوير والاختراع، فبعض من الأجيال القديمة وحبا في الظهور وخوفاً من تهميشها، تضطر إلى كبح طاقات الشباب، لتخل لها الساحة طلباً للسلطة والمناصب، ولنا في هذه الآية المثل الأعلى: ﴿وقال لهم نبيهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ [البقرة: ٢٤٧].

- منح الثقة للشباب المسلم ليتمكن من اتخاذ قراراته:

^١ حجازي، الإنسان المهدور، ص ٢٠٣.

^٢ إبراهيم، المشكلات السلوكية بين الشباب الكويتي، ص ١٧٦.

يجب على المجتمعات مساعدة الشباب وتدريبهم في اتخاذ قراراتهم، حتى يصبح الشاب ناجحاً في مجتمعه، دقيقاً في اتخاذ قراراته المهمة في الوقت المناسب كونه تعود وتمرس أن يتخذ قراره بنفسه، وهذا لا يعني عدم رجوعه وطلبه للمشورة في بعض الأمور التي تحتاج إلى قرارات مفصلة مدروسة.

ختاماً:

إن قوة الشباب المسلم تكمن في ثباته على دينه وصلابته فيه، وتمسكه به، واستقامته على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، مع الاشتغال الدائم بالعلم النافع، وعمارة الأوقات بالعمل الصالح، بنفس تواقفة إلى العلاء، وطموحة إلى المعالي، ودون تراخ أو تقصير في إشاعة الأمل والرجاء في نفوس الناس، حتى تهتز مشاعرهم إلى هذا الدين الحق، وتربو معرفتهم به، وذلك بدعوتهم إليه على بينة وعلم وهدى وبصيرة.

فإن لم تهتم المجتمعات بهذه القضايا الشبابية المهمة، وفتح المجال لهم لممارسة رغباتهم بلعب دور فاعل داخل المجتمع، فستكون النتائج وخيمة متنافية مع الإسلام والعادات والتقاليد.

وضع القرآن والسنة الشريفة كمعيارين أساسيين لتربية الشباب المسلم، فالتربية الدينية الصحيحة لشبابنا في صغرهم تنقذه فيما بعد من سبل الظلال في الفترة العمرية الفعالة والأكثر عطاء كونها تقع كقوة بين ضعفين، والتربية السليمة للشباب المعاصر تبدأ بتحقيق العبودية الحققة لله عز وجل في نفوس الشباب المسلم، وتخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالاتباع دون سواه والعمل بشرع الله ظاهراً وباطناً.

القدوة الحسنة من أعظم الأساليب المؤثرة في نفوس الشباب.

الحوار والإقناع العقلي من أنجح الأساليب التربوية في الوصول إلى نتيجة إيجابية مع الشباب.

الوقوف على حاجات الشباب ومتطلباتهم، يعين على فهمهم، وبالتالي إمكانية التعامل معهم والاستفادة منهم.

إذ ليس خافياً على أحد أن المجتمعات المهتمة بالشباب والتي توفر لهم احتياجاتهم، وتدعم فيهم روح العطاء والابتكار تكون أكثر رقياً وتطوراً من غيرها من المجتمعات.

قائمة المصادر والمراجع:

- ١- إبراهيم، فائزة يوسف، المشكلات السلوكية بين الشباب الكويتي، (الشارقة: مجلة شؤون اجتماعية، ع: ٤٦ جمعية الاجتماعيين، صيف: ١٩٩٥م/١٤١٦هـ).
- ٢- ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، (القاهرة: دار الجيل، د.ط، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).
- ٣- ابن العثيمين، محمد صالح، من مشكلات الشباب.
- ٤- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ط).
- ٥- حجازي، مصطفى، الإنسان المهدور، (بيروت: المركز الشبابي العربي، د.ط، ٢٠٠٥م).

الشباب المسلمون في إندونيسيا وتحديات المستقبل: رؤية قرآنية

د. زمخشري حسب الله*

ملخص البحث:

هدفت هذه الدراسة إلى البحث في واقع الشباب المسلمين في إندونيسيا اليوم، وتحديات المستقبل التي يواجهونها، والإرشادات القرآنية التي تُمكن الشباب المسلمين من مواجهة تلك التحديات. وقد استُخدم المنهج التحليلي الوصفي لاستنباط أهمّ التعاليم القرآنية التي يجب مراعاتها واتباعها على الشباب المسلمين. وقد ركّز الباحث في طرح بحثه على واقع الشباب المسلمين في إندونيسيا باعتبارها أكبر دولة إسلامية من حيث عدد المسلمين، ومن حيث عدد الشباب. وخلصت الدراسة إلى أن القرآن أبرز دور الأسرة والمدرسة والمسجد والمجتمع والحكومة في تربية وإعداد الشباب المسلمين، الذين سيلعبون ثلاثة أدوار أساسية في المستقبل: مواصلة إنجاز السابقين، وتعويض فشل السابقين بالنجاح، وتحريك المجتمع نحو الإصلاح والتغيير. وكشف البحث أن أهمّ المعوقات والتحديات التي واجهها الشباب المسلمون الإندونيسيون تكمن في أربع تحديات رئيسة، وهي: تحدي الشيطان والنفس والهوى، وتحدي الغزو الفكري، وتحدي الانحلال الأخلاقي، وتحدي الحكومة العلمانية.

المقدمة:

تعدّ إندونيسيا أكبر دولة إسلامية من حيث عدد السكان. وتُعدّ فئة الشباب فيها أكبر شريحة من شرائح السكان. مع هذا العدد الضخم من الشباب، يُوجد العديد من المشكلات التي يواجهونها، والتي قد تتضخّم تلك المشكلات إن لم تجد الحلول المناسبة لها.

ولقد اهتمّ القرآن الكريم وسنة نبينا محمد ﷺ بالشباب وبالمشكلات التي يواجهونها اهتماماً كبيراً، وإن لم يحتوِ القرآن على مصطلح أو لفظة (الشباب) مباشرة إلا أنه ورد فيه ما يرادفها من الألفاظ، مثل الفتية والذرية. وعلى الرغم من وجود كثير من التعاليم القرآنية التي تتعلّق بالشباب، إلا أن الوعي بتوجيه الشباب وتمكينهم من مواجهة مشكلاتهم على أساس قرآني لا يزال ضعيفاً. بل نجد أن أكثر حكومات الدول الإسلامية تميل في سياساتها نحو الشباب وجهة غريبة، مثل تركهم دون توجيه ولا إرشاد، مما يؤدي إلى هدر طاقاتهم فيما لا ينفع. أمّا في الغرب، فقد ظهر في العصر الحاضر علمٌ يسمّى علم الشباب *Youth Science*، حيث يدرّس في جامعاتهم، بينما جامعات العالم الإسلامي لم تتعرّف بعد إلى مثل هكذا علم. يقول الدكتور مصطفى حجازي في هذا الصدد: "تكفي نظرة سريعة إلى واقع الشباب في عصر العولمة عموماً، وواقعهم في بلاد هدر الإنسان كي تتضح مدى أهمية مثل هذا العلم وضرورته، كأساس لوضع سياسات شبابية على الصعيد المجتمعي في التربية، والعمل والمشاركة الاجتماعية والاندماج، كما في الترويج".¹

المبحث الأول

القرآن والشباب

المطلب الأول: مفهوم الشباب

* محاضر بكلية التربية، جامعة دارماوانسا بميدان إندونيسيا.

¹ مصطفى حجازي، الإنسان المهدور: دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، ص ٢٠٤.

عرّف الثعالبي الشباب لغةً في كتابه فقه اللغة بأنه "جمع شاب، وهو ما بين الثلاثين والأربعين"^١، وما بكت العرب على شيء كما بكت على الشباب، حتى قال أبو العتاهية:

فيا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب^٢

وأما الشباب اصطلاحاً، فعرفه الجعبي بأنه "مرحلة قوّة بين ضعفين، قوّة بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة، وهي مرحلة عمرية بين ١٥-٢٥ سنة، كما حددها مؤتمر وزراء الشباب الأوّل في جامعة الدول العربية بالقاهرة ١٩٦٩م انسجاماً مع المفهوم الدولي المتفق عليه في هذا الشأن، علماً بأنّ المدى العمري للشباب يختلف باختلاف البلدان والمجتمعات"^٣.

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وفي المعجم اللغوي الإنجليزي (Oxford)، يقابل لفظ الشباب باللغة الإنجليزية كلّ من اللفظتين Youth و Young و"تطلق على المرحلة العمرية التي تمتدّ ابتداءً من مرحلة الطفولة إلى ما قبل الرشد"^٤.

يبدو من خلال المعجم اللغوي، أنّ الشباب في المعجم العربي، يدلّ على المرحلة التي يكون فيها الفرد في مظهرٍ حسنٍ، ووجهٍ حسنٍ، وجسدٍ مفعمٍ بالحيوية، في حين نجد المعجم الأجنبي يشير على أنّ المراهقة تستعمل كمترادف لمفهوم الشباب، لأنّ المرحلة العمرية التي تحدث ما بين الطفولة وسنّ الرشد يحصل فيها مجموعة من التغيّرات النفسية والبيولوجية والاجتماعية.

وقد حدّدت منظمة الصحة العالمية (WHO) فئة الشباب أنّها من كان في عمرٍ يتراوح ما بين سنّ العاشرة إلى سنّ الرابعة والعشرين. أمّا فئة المراهقين، فهي يتراوح أعمارها ما بين سنّ العاشرة إلى سنّ التاسعة عشر. وقد سار على هذا المفهوم كثيرٌ من الحكومات من الدول الغربية. ففي كندا مثلاً، قرّرت الحكومة الكندية أنّ من تجاوز سنّ الرابعة والعشرين ليس له أيّ حقّ في المطالبة بضمان توفير الخدمة الاجتماعية من الحكومة^٥.

من البيان أعلاه، يمكن أن نستنتج أنّ ثمة اتجاهات في التعريف بالشباب، منها من يجعل الشباب محصوراً في فئة عمرية معينة، ومنها من يجعل الشباب يشمل الفئة العمرية التي سادت فيها القوّة الجسمية والفكرية، حيث يمكن للشخص فعل العديد من الإنجازات ما لا يمكن تحقيقها فيما قبلها وما بعدها.

^١ الثعالبي، فقه اللغة وأسرار العربية، ج١، ص٣١٣.

^٢ أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، ص٣٢.

^٣ نافذ سليمان الجعبي، تربية الشباب على ثقافة التغيير، بحث مقدّم لمؤتمر فيلادلفيا الدولي السابع عشر عن ثقافة التغيير، ٦-٨ نوفمبر ٢٠١٢م، ص٣.

والمقال منشور على الموقع التالي: www.philadelphia.edu.jo

^٤ Oxford Learner's Pocket Dictionary, (Oxford University Press, Fourth edition, ٢٠٠٨), p. ٥١٨

^٥ <http://youth.moh.gov.bh/ArticlesDetails.aspx?id=١٣>، تاريخ التصفح: ٢٢ سبتمبر ٢٠١٤م

المطلب الثاني: سمات الشباب وصفاتهم في القرآن

مَنْ أَمَعِنَ النَّظَرَ فِي رُؤْيَةِ الْقُرْآنِ نَحْوَ الشَّبَابِ، يُدْرِكُ أَنَّ الشَّبَابَ فِي مَفْهُومِهِ الْقُرْآنِيِّ لَيْسَ فِي قُدْرَةِ الْجَسَدِ، وَلَا فِي قُوَّةِ الشَّهْوَةِ، وَإِنَّمَا الشَّبَابُ فِي صَلَابَةِ الْعَزِيمَةِ وَحِمَاةِ الرُّوحِ. وَمِنْ حَكَمِ اللَّهِ تَعَالَى، أَنَّهُ بَعَثَ الْمُصْطَفَى ﷺ عَلَى سِنِّ الْأَرْبَعِينَ، وَهِيَ أَحْصَبُ فِتْرَةٍ مِنْ فِتْرَاتِ الْعُمَرِ وَأَنْضَجُهَا، وَأَحَاطَ بِالشَّبَابِ. فَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ أَسْلَمَ يَوْمَ أَنْ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي السَّابِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ. وَكَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي السَّادِسَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عَمْرِهِ. وَكَذَا عِثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ ﷺ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي الْخَامِسَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عَمْرِهِ. أَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِهِ.

ومن إشارات القرآن إلى أهم صفات الشباب وسماتهم ما يلي:

أولاً: الشباب يتبعون الحق، وبما يؤمنون به بقوة. فهم في العادة لا يخافون التهديد والأذى الذي قد يواجهونه، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُشْرَفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]. فسر ابن كثير كلمة الذرية في الآية السابقة بالأحداث والشباب الذين يتبعون الحق ويتمسكون بما يؤمنون به، على الرغم من تهديد فرعون وأتباعه^١.

ثانياً: الشباب مفطور على حب الاستطلاع (sense of curiosity)، والتعرف على المعلومات الجديدة التي لم يكن لهم علم ومعرفة بها من قبل. فهم كثير البحث والتطلع لمعرفة الأسرار والحكم وراء الأحداث والوقائع التي يمرّون بها، كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

ذكر الإمام البغوي في تفسيره للآية السابقة أنّ السجينين الذين لقيهما يوسف داخل السجن هما من فئمة الشباب، أحدهما: خباز مصر وصاحب طعامه، والآخر: ساقيه وصاحب شرابه. غضب الملك عليهما، فحبسهما. وكان السبب فيه: أنّ جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله، فضمنوا لهذين مالا، ليسمّا الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم، ثمّ إنّ الساقى نكل عنه، وقبل الخباز الرشوة فسّم الطعام، فلمّا أحضر الطعام والشراب قال الساقى: لا تأكل، أيّها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخباز: لا تشرب، فإنّ الشراب مسموم. فقال الملك للساقى: اشرب، فشربه، فلم يضره، وقال للخباز: كُلْ مِنْ طَعَامِكَ، فأبى فحرب ذلك الطعام على دابة فأكلته فهلك، فأمر الملك بحبسهما^٢.

ثالثاً: استقامة الشباب العالية وتمسكهم القوي بمبادئهم، فهم ليسوا ممن يتاجرون بالمبادئ بثمن بخس، كما أنّهم ليسوا ممن اغترتهم متاع الحياة الدنيا، فيتركون دينهم ومبادئهم من أجلها، حيث قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْىءُ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. تتحدث هذه الآية عن قصة أصحاب الكهف، وهم مجموعة من الشباب الذين تركوا قرابتهم وأسرهم وأصدقائهم من أجل الحفاظ على دينهم ومبادئهم وتوحيدهم.

رابعاً: يتسم الشباب بالثبات على الحق، فهم لا يتراجعون عن مبادئهم، على الرغم من كثرة عدد الكافرين لهم، أو كثرة عدد المستهزئين عليهم، فهم مستعدون تمام الاستعداد على فعل أي شيء من أجل الحفاظ على مبادئهم، على

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٢٨٨.

^٢ البغوي، معالم التنزيل، ج ٤، ص ٢٤٠.

الرغم من كون ما يفعلونه قد يضرهم ويهدد سلامتهم. حيث قال الله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَىٰ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]. صوّرت لنا الآية السابقة إبراهيم عليه السلام بأنه شاب يتحلّى بالشجاعة.

بناءً على البيان السابق، فالشباب في نظر القرآن لا تعني من كان في سنّ الإنتاج فحسب، بل لا بُدّ أن يتحلّى أيضاً ببعض السمات الإيجابية، مثل: التجديد، والتفأؤل، والرؤية المستقبلية، والأخلاق الكريمة. فالشباب متميّزون بأنهم مستعدّون لمواجهة أيّ تغييرٍ نحو الأفضل، سواءً كان على الصعيد الاجتماعي، والثقافي. بل كثيراً ما يكون الشباب روادّ التجديد والتغيير نحو الأفضل في المجتمع.

وقد ذكر الله نماذج من الشباب الخيرة في القرآن من خلال القصص القرآني، ليكونوا المثل الأعلى لشباب المسلمين في كلّ عصرٍ ومصر، لكي لا يخافوا في الله لومة لائم كما فعل أصحاب الكهف^١، ويكونوا أصحاب عفة كعفة يوسف عليه السلام^٢، ويكونوا أصحاب تضحية وفداء كما فعل إسماعيل عليه السلام^٣، ويكونوا أذلاء لله وأعرّاء على أعداء الله كما كان إبراهيم عليه السلام^٤.

المطلب الثالث: الأدوار التي أناطها القرآن للشباب

قال الإمام الشهيد حسن البنا مخاطباً الشباب: "أيها الشباب، إنّما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها، وتوفّر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها. وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة: الإيمان، والإخلاص، والحماسة، والعمل من خصائص الشباب"^٥.

من حكمة الله تعالى، كلما تعظّم الإمكانات التي يمتلكها الشباب، تعظّم المسؤولية التي تُوضَع على عاتقهم كذلك.

فقد أناط القرآن على الشباب أدواراً كبيرة للقيام بها. ذكر القرآن أنّ على الشباب المسلمين ثلاثة أدوارٍ رئيسة، وهي:

أولاً: مواصلة إنجاز السابقين. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ [الطور: ٢١]. صوّرت لنا الآية السابقة، أنّ في المجتمع طائفة من كان آباؤهم على إيمان، ثم اتبعهم ذريتهم على إيمان بعد وفاتهم، فهم خير خلفٍ لخير سلفٍ. بعبارة أخرى، هناك طائفة في المجتمع واصلوا تحقيق الإنجازات التي سبق أن حقّقها من قبلهم، سواءً كان على الجوانب الدينية والإيمانية، أم على الجوانب الدنيوية كالاقتصادية والسياسية والاقتصادية.

ثانياً: تعويض فشل من سبقهم بالنجاح. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]. بيّنت لنا الآية السابقة، أنّه في بعض الأحيان يكون الشباب خلفاً لمن

^١ انظر: قوله تعالى في سورة الكهف الآية ١٣-١٨.

^٢ انظر: قوله تعالى في سورة يوسف الآية ٢٣ و٣٣.

^٣ انظر: قوله تعالى في سورة الصافات الآية ١٠٢.

^٤ انظر: قوله تعالى في سورة الأنبياء الآية ٥٢ و٦٧.

^٥ حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص ١٧٣.

سبقهم الذين هم أسوءُ منهم، سواءً كان على الجانب الديني والإيماني، أم على الجوانب الدنيوية كالاقتصادية، والسياسية، والاقتصادية. وهذا يعني أنّ على الشباب القيام بما يمكنهم على تعويض فشل من سبقهم بالنجاح.

ثالثاً: تحريك المجتمع نحو الإصلاح والتغيير. وقد ذكر القرآن قصة إبراهيم الخليل الذي قام بالتجديد وإصلاح أمته، حين قال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مرم: ٤٢]. حينما نمنع النظر في الشباب، ندرك أنّهم يتمتعون بالإمكانات والقدرات والخصائص ذؤن غيرهم من الناس، بحيث تمكنهم من قيادة التغيير في مجتمعاتهم، وتحقيق مستقبل أفضل لها. ومن المعلوم أنّ الشباب مفطورٌ على حب التغيير، كما أنّ لهم القدرة على بناء المستقبل الأفضل. يقول عباس محجوب: "حركات التغيير في التاريخ العالمي اتجهت إلى الشباب لتجعل منه وسيلتها، ومادتها، ومحل أفكارها، وإطار حركتها، ومنجم تضحيتها، ومن طبيعة الشباب أن يستهويه كل جديد، ويروده كل أمل في التغيير"^١.

إنّ العالم الإسلامي اليوم يتفوق على غيره من العوالم بالنسبة إلى عدد الشباب. فلو أحسن القادة المسلمون إعداد شبابهم وتوجيههم إلى ما فيه صلاحهم لكان ذلك قوة هائلة لتحقيق النهضة الحقيقية في العالم الإسلامي.

وحسب تقرير البنك الدولي للتنمية البشرية للعام ٢٠٠٧م، فإنه يعيش في البلدان النامية (١,٣ بليون شاب)، ويعلق التقرير على ذلك قائلاً: "إنه نظراً لوجود ١,٣ بليون شاب يعيشون حالياً في بلدان العالم النامية. وهو أكبر رقم تبليغه شريحة الشباب على مر التاريخ، لم يكن هناك وقت أفضل من الآن للاستثمار فيهم، حيث إنهم أفضل صحة وأوفر حظاً من التعليم مقارنةً بالأجيال السابقة، وحيث إنهم يدخلون قوة العمل في ظل انخفاض عدد المعالين، بسبب تغيير العوامل الديموغرافية. إلا أنّ من شأن الإخفاق في اغتنام هذه الفرصة لزيادة فعالية ما يتلقونه من تدريب، ليلاءم احتياجات سوق العمل، ولجعلهم مواطنين فاعلين في مجتمعاتهم أن يؤدي إلى تفشي حالة من الإحباط وخيبة الأمل، ومن ثم إلى توترات اجتماعية"^٢.

المبحث الثاني

الشباب المسلم الإندونيسي وتحديات المستقبل

أشار مكتب الإحصاء المركزي (Badan Pusat Statistik) بإندونيسيا أنّ تعداد الشباب الإندونيسي عام ٢٠١٣م بلغ ٦٢,٦ مليون نسمة.^٣ هذا العدد يعدّ كبيراً. هذا يعني أنّ الحديث عن واقع الشباب المسلم في إندونيسيا يعني الحديث عمّا لا يقلّ عن ٥٣,٢ مليون شاب مسلم (أي ٨٥% من التعداد الكلي لشباب إندونيسيا). لأنّ نهضة الإسلام في إندونيسيا، كغيرها من الدول الإسلامية، متوقفة على أوضاع الشباب المسلمين فيها. إذا صلحت أوضاعهم في الحاضر، فستصلح أوضاع البلاد في المستقبل، والعكس صحيح، لأنّ شباب اليوم رجال المستقبل.

^١ عباس محجوب، مشكلات الشباب المطروحة والحل الإسلامي، ص ٢٧.

^٢ التقرير السنوي للبنك الدولي سنة ٢٠٠٧م، ص ٤٩، انظر:

siteresources.worldbank.org/EXTANNREP%K/Resourses/English.pdf

^٣ انظر: http://www.bps.go.id/menutab.php?tabel=1&kat=1&id_subyek=12, تاريخ التصفح ١٠ أغسطس ٢٠١٤

وقد شهد التاريخ أحداثاً مهمة في إندونيسيا لعب الشباب الدور الرئيس فيها. فقبل استقلال إندونيسيا، لعب الشباب دوراً مهماً في حادثتين لا يُنسى، وأولهما حادثة قَسَم الشَّبَاب (Peristiwa Sumpah Pemuda)، وهي حادثة وقعت في تاريخ ٢٨ أكتوبر ١٩٢٨م، حيث اجتمع الشباب الإندونوسيون باختلاف قبائلهم، وجزرهم، ولغاتهم، وديانتهم، أيام الاحتلال الهولندي، واتَّفَقوا على أن يتحدوا في مقاومة الاحتلال الهولندي بإقرارهم أن قوميتهم واحدة، ولغتهم واحدة، ووطنهم واحد، وهي إندونيسيا.^١ وثانيهما، حادثة الإعلان الرسمي لاستقلال إندونيسيا (Proklamasi Kemerdekaan Indonesia). وقعت هذه الحادثة في ١٧ أغسطس ١٩٤٥م، حيث لعب الشباب الدور المهم في خطف المهندس سوكارنو إلى منطقة Rengasdengklok، من أجل دفعه إلى استغلال فرصة انهزام اليابان في الحرب العالمية الثانية وإصدار الإعلان الرسمي لاستقلال إندونيسيا من احتلال اليابان.^٢

أما في العصر الحاضر، فقد لعب الشباب الإندونيسي دوراً كبيراً في حادثة إصلاح الحكم (Reformation) وإسقاط نظام سوهارتو Suharto الذي حكم إندونيسيا مدة اثنتين وثلاثين سنة، حيث لعب الشباب، خاصة طلاب الجامعات، الدور الرئيس فيها من خلال قيامهم بالمظاهرات والمطالبة من البرلمان بعزل الرئيس سوهارتو، وغيرها من الأحداث التاريخية المهمة الأخرى.

على الرغم من أن الشباب الإندونيسي الناجحين والمتفوقين موجودة في كل عصر، إلا أنه من المؤسف حقاً، أن الصورة الأبرز للشباب الإندونيسي اليوم صورة لا يُحسد عليها، حيث إن وسائل الإعلام كثيراً ما تسلط الضوء على الجوانب المظلمة للشباب المسلم الإندونيسي في عصرنا الحاضر.

إن المشكلات التي يعاني منها الشباب المسلم الإندونيسي اليوم لا تُعدّ ولا تُحصى. فهناك مشكلات أخلاقية، ومشكلات اجتماعية، ومشكلات صحية، ابتداءً من الزنى، وتعاطي المخدرات، انتهاءً إلى انتشار مرض الأيدز، وغيرها من المشكلات الأخرى. وعند إمعان النظر في تلك المشكلات، يمكننا أن نستنتج أن هناك أربع تحديات يواجهها الشباب المسلم في إندونيسيا، تتمثل في تحدي الشيطان والنفس والهوى، وتحدي الغزو الفكري، وتحدي الانحلال الخلقي، وتحدي الحكومة العلمانية.

وفيما يلي بيان كل تحدٍ من تلك التحديات بالتفصيل:

المطلب الأول: تحدي الشيطان والنفس والهوى

إن الشيطان والنفس خطيرةٌ ليست على الشباب فحسب، بل على كل إنسانٍ ضعيف الإيمان. وقال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ بينَ خمسِ شدائد: مؤمنٌ يُحْسَدُ، ومنافقٌ يبيغضه، وكافرٌ يقاتله، وشيطانٌ يُضِلُّه، ونفسٌ تنازعه»^٣.

ذكر القرآن مراراً وتكراراً أن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيئاً. والشيطان مأخوذٌ من فعل (شطن - يشطن) معناه بُعدٌ يبعُد. فالشيطانُ صفةٌ تُطلق على كلِّ بعيدٍ عن الحقِّ، وبعيدٍ عن رحمة الله^١. بينما الهوى، فتُطلق على ميلان النفس إلى ما

^١ انظر: Ahmad Mansur Suryanegara, *Api Sejarah*, p ٥٢٦-٥٢٥.

^٢ انظر: Ahmad Mansur Suryanegara, *Api Sejarah* ٢, p. ١٥٢-١٤٧.

^٣ نسبة السيوطي في جمع الجوامع أو الجامع الكبير، ج ١، ص ١٩٨٦٧، رقم ٢٩ إلى ابن لال عن أبان عن أنس. وضعفه العراقي في المغني عن حمل الأسفار، ج ٢، ص ٧٤١، رقم ٢٧٢٠.

تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرّ^١. ونهى الإسلام المسلمين عن اتباع الهوى، الذي يتمثل في ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة على ما يدعو إليه الحقّ والرشد^٢.

وقد أشار القرآن أنّه حينما يطاوع الشياطين في خطوة أولى، جزئية بسيطة لا يلحقون لها بالأ، هذه الخطوة الأولى البسيطة يستطيع من خلالها أن ينفذ إليهم ﴿اسْتَرْكَبُوا الشَّيْطَانَ بِنِعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]. وكذا، حينما امتلأ القلب بحبّ الشهوات، فليس فيه مكانٌ للطاعات، وحينما امتلأ القلب بحبّ الله، فليس فيه مكانٌ للشهوات. يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٍ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. فالعنى المخالف لتلك الآية أنّه من يُتبع هواه وفقّ منهج الله، فلا شيء عليه.

إنّ وقوع العديد من الشباب في وحل الرذائل يرجع سببه الأساسي إلى عدم وجود الوعي لدى العديد منهم بخطورة الشيطان والنفس، خاصة في ظلّ كثرة أوقات الفراغ لديهم. وقد قال الشاعر العربي:

إنّ الشبابَ والفراغَ والجدّة
مفسدةٌ للمرء أي مفسدة

إنّ تورط العديد من الشباب بالمشكلات العديدة، كتعاطي المخدرات، والزنى، تبدأ من فشلهم في استغلال أوقاتهم الاستغلال الأمثل. ولكي يستغل الشباب أوقاتهم استغلالاً صحيحاً، فإنّ عليهم أولاً أن يستحضروا مراقبة الله في كلّ لحظة، وأنّ يُدركوا أنّهم سوف يُحاسَبوا عن كلّ لحظةٍ من لحظات حياتهم، كما أنّ عليهم أنّ يشعروا بالمسؤولية نحو الذات والمجتمع، وأنّ هناك دوراً إيجابياً يُطلب منهم تُجاه أنفسهم وتُجاه مجتمعهم. وقد ظهر اليوم في إندونيسيا العديد من حركات الشباب التي تعني بتوجيه الشباب على القيام بأعمال خيرية، ومن أبرزها حركة ACT (Aksi Cepat Tanggap)^٤.

المطلب الثاني: تحدّي الغزو الفكري

إنّ مصطلح الغزو الفكري الذي يُسمى في الإنجليزية *Brain Washing*، يحمل في صلبه المعنى السلبي الذي يشير إلى انتهاك القيم التي تقع ضمن حيز الخصوصية الثقافية لمجتمع ما^٥. ويرادف الغزو الفكري مصطلح التغريب، ويعني "خلق عقلية جديدة تعتمد على تصوّرات الفكر الغربي ومقاييسه، ثمّ تحاكم الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من خلالها، وذلك بهدف سيادة الحضارة الغربية"^٦.

القرآن الكريم يحثنا على التفاعل الفكري ويرفض الغزو الفكري، لأنّ التفاعل إنّما يكون من جانبين بين ندين، يُعطي كلّ منهما يأخذ، أيّ يأخذ ما يحتاج إليه وفق معايير مدروسة، ويترك ما يترك تبعاً لمنطق معلوم محتفظاً بهويته. بينما الغزو دائماً يكون من طرفٍ قويٍّ لطرفٍ ضعيفٍ، لغالب قاهر لمغلوب مقهور، يأخذ ولا يعطي، وكثيراً ما يأخذ الضارّ ويدع النافع^٧.

^١ الخليل الفراهيدي، معجم العين، ج ١، ص ٤٧٩؛ وابن فارس، مجمل اللغة، ج ٢، ص ٥٠٢؛ والصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، ج ٧، ص ٣٥٧.

^٢ الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج ١، ص ٣٢٠.

^٣ ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٨، ص ٣٥٣.

^٤ انظر أهم برامج وفعالية الشباب في هذه الحركة من خلال الموقع التالي: <http://www.act.id/id/what-we-do>، تاريخ التصفح ١٩ يوليو ٢٠١٤

^٥ مرسي، الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج العربية - نظرة إسلامية، ١٣٦ (بتصرف).

^٦ انظر: أبو العينين، أصول الفكر التربوي الحديث بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه التغريبي، ص ١٧.

^٧ القرضاوي، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي الإسلامي، ص ١٧٥-١٧٦ (بتصرف).

لقد لعبت وسائل الإعلام في إندونيسيا اليوم - التي هي في معظمها يسيطر عليها رجال الأعمال الصينيون المسيحيون^١ - دوراً بارزاً في غرس الثقافة الغربية والغير الإسلامية وسط المجتمع، ويستهدف أساساً هدم فئة الشباب الذين هم المحرك الأساسي في نهضة المجتمع.

بالاستقراء، نجد أن تشوية صورة المسلم والإسلام من أهم الموضوعات التي أصبحت تُروّج بحسب السياسات الإعلامية في التأثير في إندونيسيا. على الرغم من أن أكثر تلك المسلسلات تأخذ موضوعات ذات طابع ديني، إلا أنها كثيراً ما تُعرض صورة المسلم والحاج في شكلٍ مسيءٍ للإسلام. إضافةً إلى ذلك، كثيراً ما تشجّع تلك المسلسلات الفتاة المسلمات على اتباع موضةٍ معيّنة في اللباس التي تتعارض مع القيم الإسلامية في اللباس.

نعيش اليوم في عصر الهيمنة الأمريكية والصينية على مختلف الصُّعد، وأخطرها يتمثل في سيادة الثورة الإعلامية بصبغة أمريكية وصينية، وبما تحمل من قيم وعاداتٍ دخيلة، وما صاحبها من بثٍّ لمفردات جديدة في واقعنا، غيرت، بل هدمت مناطق من الوعي، لم يكن بالإمكان خلخلتها.^٢

إن تحديّ الغزو الفكري وخطورتها تكمن في أنّ سلوكيات الشباب تتأثر بالتحشيد أكثر من التأثر بعملية الإقناع، فعندما تصنع وسائل الإعلام رأياً عاماً في مجتمع ما حول مسألة معيّنة؛ فسرعان ما ينساق الشباب مع عملية التحشيد هذه بطريقة اتباعية محضّة، وإن لم يصاحبها اقتناع تام. وقد قام المهيمنون على وسائل الإعلام بشتى أنواعها؛ المرئية والسمعية باستغلال القاعدة ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فما عادت أعين هؤلاء الشباب تبصر الحقيقة.

لمواجهة هذه التحديّ، لا بدّ أن نأخذ الدروس والعبر من قصّة أصحاب الكهف الذين آووا إلى الكهف، هرباً من الملك الظالم، ليحافظوا بذلك على دينهم. فالشباب المسلم في إندونيسيا اليوم، في حاجةٍ ماسّة كذلك إلى كهفٍ من نوعٍ آخر؛ يلتجئون إليه. هذا الكهف قد يكون تجمّعاً إيمانياً، أو مركز علمٍ ومعرفة، أو عالماً رانياً، أو كتاب علمٍ يُنتفع به، من أجل وقاية هؤلاء الشباب من فتن الزمان ووسائل الغزو الفكري. فاللجوء إلى الكهف ليس فقط من أجل طلب العزلة، بل للتزوّد الإيماني والفكري؛ لتحقيق الانطلاقة الرشيدة والفاعلة في حياة الشباب.

المطلب الثالث: تحديّ الانحلال الخلقي

إنّ السلوك الإنساني ينبثق من ثقافةٍ يحملها الفرد، تتمثل في: مأكله وملبسه وحديثه. كلّما كانت الثقافة التي يحملها الفرد مصبغةً بصبغةٍ إسلاميةٍ، فهو يتمتّع بحصانة قوية من الانزلاق في مستنقع الانحلال الأخلاقي. إنّ تحديات الانحلال الأخلاقي التي يواجهها الشباب المسلمون اليوم تزداد يوماً بعد يومٍ بأشكالها المختلفة. فهناك مشكلة تعاطي المخدّرات لدى الشباب، وهناك مشكلة انتشار الزنى أوساط الشباب، وهناك جرائم والانحراف السلوكي لدى الشباب. ويمكننا أن نتصوّر حجم تلك التحديّات من خلال البيانات التالية:

^١ يوجد اليوم في إندونيسيا خمس عشرة قناة تلفزيونية مجانية؛ وحدة منها حكومية، و غيرها غير حكومية. وسوى قناتين تلفزيونيتين التي يملكها رجل العمل المسلم، اثني عشرة قناة تلفزيونية أخرى يملكها رجال الأعمال الصينيون الغير المسلمين.

^٢ حجازي، الإنسان المهودور: دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، ص ٢٠٣.

أولاً: فيما يتعلق بخطورة انتشار الزنى، أصدرت وزارة الاتصال والمعلومات بحكومة إندونيسيا (*Kementrian Komunikasi Dan Informasi*) نتائج الإحصاء أنّ أكثر من ٩٧ % من ٤٥٠٠ طلبة المدرسة الإعدادية في اثنتي عشر مدينة كبيرة في إندونيسيا قد سبق لهم التعامل مع المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت.^١

وأشارت بعض الدراسات المسحية سنة ٢٠٠٥ في العديد من الميادين الكبيرة في إندونيسيا إلى وضع مأسوي لأحوال الشباب والشابات، ففي مدينة دنباسر *Denpasar* في مقاطعة بالي *Bali* مثلاً، أنّ من ٦٣٣ طلبة المدرسة الثانوية الذين يدرسون في الصفّ الثاني الثانوي ١٥٥ شخص منهم، أي ٢٣,٤ % من إجمالي العدد الكلي، قد سبق لهم ممارسة الزنى. و٨٢ % من الشباب والشابات في أربع مدن كبيرة في إندونيسيا (جاكرتا *Jakarta*، باندونج *Bandung*، سورابايا *Surabaya*، وميدان *Medan*) يشهدون أنّ لهم أصدقاء قد مارسوا العلاقة الجنسية قبل الزواج (الزنى). كما أنّ ٦٦ % من الشباب والشابات يشهدون أنّ لهم صديقات حوامل قبل الزواج. في جاكرتا وضواحيها نسبتها ٥١ %، وفي باندونج نسبتها ٥٤ %، وفي سورابايا نسبتها ٤٧ %، وفي ميدان نسبتها ٥٢ %.^٢

وقام مكتب حكومي لحماية حقوق الأطفال (*Komisi Perlindungan Anak*) بإجراء مقابلة مع ٤,٥٠٠ شاب وشابة في العديد من المدن الكبيرة، وتوصّل إلى نتيجةٍ معجبة أنّ ٦٢,٧ % من المقابليين اعترفوا أنّهم قد مارسوا العلاقة الجنسية قبل الزواج (الزنى).^٣ كما أصدرت وزارة الصحة الإندونيسية بياناً أنّ ٧٥ % ممن يُصابون بعدوى الأيدز في إندونيسيا كانوا من الشباب خاصة ممن كانوا في سنّ المراهقة.^٤

ثانياً: فيما يتعلق بخطورة تعاطي المخدرات والإدمان عليها، سجّل مكتب الشرطة المركزيّة الإندونيسية أنّ العديد من حالات تعاطي المخدرات والمسكرات في الفترة من سنة ٢٠٠٤م إلى مارس ٢٠٠٩م التي في أغلبها ترتبط بسلوكيات الشباب، كما يلي: ٤٥,٤٥١ حالة تتعلق بتعاطي المخدرات (الحشيش، هيروين *Heroin*، كوكاين *Cocain*)، و٣٨,١٢٥ حالة تتعلق بتعاطي العقلية (إكستاسي *Extacy*، الميثامفيتامين)، و١٧,٤٤٠ حالة تتعلق بتعاطي المسكرات وأدوات التجميل، والأدوية المغشوشة.^٥ كما سجّل مكتب الشرطة المركزيّة الإندونيسية كذلك، أنّ أكثر الجرائم التي تُرتكب في الفترة من سنة ٢٠٠٤م إلى مارس ٢٠٠٩م يرتكبها الفئات التالية: ٩٨,٦١٤ حالة جرمية ارتكبتها طلبة المدرسة الثانوية، و٣٥,٥٣٦ حالة جرمية ارتكبتها طلبة المدرسة الإعدادية، و١٧,١٩٤ حالة جرمية ارتكبتها طلبة المدرسة الابتدائية.^٦

وقد أصدر مكتب وطني إندونيسي لمحاربة المخدرات (*Badan Narkotika Nasional*) بياناً أنّ عدد متعاطي المخدرات سنة ٢٠١١م هو ٤,٧ - ٣,٧ مليون إندونيسي، ممن يتراوح أعمارهم من السنّ العاشر إلى السنّ التاسع

^١ <http://www.antarajatim.com/lihat/berita/121616/pornografi-di-kalangan-pelajar-mengerikan>, تاريخ التصفح ١٢ أبريل

٢٠١٤م.

^٢ Herna Lestari, *Kehamilan Tak Direncanakan*, (Jakarta: Mitra Inti, ٢٠٠٥), p. ٣٦.

^٣ www.okezone.com, Monday, ١٠th May ٢٠١٠.

^٤ Lili Junaidi, *Faktor-faktor yang Mempengaruhi Perilaku Seks Multipartner pada Tukang Ojek yang Mangkal di Dekat Lokalisasi Pasar Kembang Kota Yogyakarta*, makalah pada *Jurnal pengendalian Penyakit dan Penyehatan Lingkungan*, Kementrian kesehatan RI, Edisi ٣, Desember ٢٠١٣, hlm ٢١.

^٥ M. Cholil Nafis, *Kependudukan Perspektif Islam*, (Jakarta: Mitra Abadi Press, cet ke-٢, ٢٠١١), p. ٢٢٣.

^٦ *Ibid*, p. ٢٢٣-٢٢٤.

والخمسين، أي نسبة تفضيل الشباب لتعاطي المخدرات هي ٢,٢%. ويتوقع أن تزداد نسبتها بـ ٢,٨% في عام ٢٠١٥م^١.

وقامت جامعة إندونيسية (*Universitas Indonesia*) بالتنسيق مع مكتب وطني لمحاربة المخدرات (*Badan Narkotika Nasional*) بدراسة مسحية على عشرات آلاف طلبة المدارس والجامعات في ٣٣ مقاطعة في إندونيسيا في فترة ما بين ٢٠٠٦م إلى ٢٠٠٩م، وتوصلت إلى نتيجة أن نسبة ازدياد تعاطي المخدرات سنوياً هي ١,٤%، ويتوزع معدّلها كما يلي: لدى طلبة الجامعة = معدّل ٦,٠%، ولدى طلبة المدرسة الثانوية = معدّل ٦,٦%، ولدى طلبة المدرسة الإعدادية = معدّل ٤,٢%.

من نظر إلى البيانات أعلاها، سيشعر بجزنٍ شديدٍ بما عانى بها الشبابُ اليوم من مشكلات تتعلق بالانحلال الأخلاقي. تلك الأرقام والبيانات لا تبشّر بالخير، كما أنّها تشير كذلك إلى وجود مخطّطات مبرمجة من قبل جهةٍ معينةٍ من أجل إفساد الشباب، والحيلولة دون نهضة إندونيسيا بنهضة شبابها.

والجدير بالذكر، أنّ القرآن قصّ لنا قصّة نبي الله يوسف عليه السلام حتى نأخذ درساً في مواجهة تحدّي الأخلاقي، حينما خرج نبي الله منتصراً على مكيدة زليخا، بعد أن: ﴿عَلَّقْتُ الْأَبْوَابَ، وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ. قَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف:٢٣]، وتستمرّ الواقعة، بين إثارة زليخا الجنسية، وممانعة يوسف، ويلخص القرآن المشهد: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [يوسف:٢٥]، هي تريد السيطرة عليه، وهو يريد المحافظة على دينه وعفّته، وبعد أن خيّر بين الخضوع لأوامر زليخا أو السجن، اختار يوسف السجن. ولما أُخرج من السجن، قام بإنقاذ البلاد من كارثة القحط.

لا تقتصر فائدة دراسة تلك القصّة في معالجة مسألة العقّة مقابل الشهوة الجنسية فحسب، فهي كفيلة بأن تقوم سلوك شبابنا وأخلاقهم كذلك. ومجتمع إندونيسيا اليوم، وإن قيل بأنّه مجتمعٌ محافظ، إلّا أنّه يعيش درجةً عاليةً من الانفتاح، لأنّه لم يعد يوجد اليوم أيّ حدود أو قيود تمنع الشباب من التآثر والتفاعل مع الثقافات الأخرى. كُنّا في السابق نُشبّه العالم في ظلّ عصر العولمة بالقرية الصغيرة؛ ومع ازدياد تطوّر وسائل الأتصال نُشبّه العالم الآن براحة اليد المبسوطة، التي تستطيع أن تبصر فيها ما تشاء.

لا شك أنّ الانحلال الأخلاقي سببه البعد عن منهج الل؛ لأنّ في التمسك بشريعة الله عصمة من الخطأ، ونجاة من الزلل. وكثيراً ما يبدأ الانحلال الأخلاقي من بداية تكوين الأسرة، فالخطأ الذي ينشأ عن اختيار الزوجة يؤدّي إلى الإضرار بالأبناء والبنات، فإذا فسدوا كانت الأمة بلا أخلاق. ومما يؤدّي إلى الفساد كذلك: ترك المسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفساد مناهج التعليم وقرها من التوجيهات الربانية والحكم الإلهية، وفقد المسلمين القدوة الصالحة التي بها يتشبهون ويمنهجها يأتسون.

المطلب الرابع: تحدّي الحكومة العلمانية

^١ Laporan Akuntabilitas Badan Narkotika Nasional Tahun ٢٠١٣, p. ٨.

يُنصّ في الدستور، أنّ إندونيسيا ليست دولةً إسلامية، حيث إنّها لا تتخذ من أحكام الشريعة الإسلامية أساساً للدولة، على الرغم من أنّ أكثر سكّانها يتديّنون بالإسلام، فهي ليست دولة دينية ثيوقراطية كذلك. وفي جانب آخر، لم تكن إندونيسيا دولةً علمانية بكلّ ما تحمل تلك الكلمة من المعاني كذلك، فهي تعترف بسنّة أديانٍ رسمية في الدولة، هي الإسلام، والكاثوليكية، والبروتستانتية، والهندوسية، والبوذية، وكونفوشية. بل توجد في إندونيسيا وزارة الشؤون الدينية بخلاف بقية الدول العلمانية الأخرى، حيث تقوم هذه الوزارة بتنظيم كلّ ما يحتاج إليه أصحاب كلّ الديانات الرسمية في إندونيسيا من أمور، مثل غرس التسامح الديني بين أصحاب الديانات المختلفة، تنظيم التصريح بشأن بناء المعابد، حتّى القضايا التي تتعلق بشأن شعائر دينية لديانة معنة، كتسويق الحجّاح والمعتمرين وتوزيع أموال الزكاة بالنسبة للمسلمين.

على الرغم من ذلك، فهناك تحدّيات لا ينبغي الاستهانة بها بشأن اتباع الحكومة الشياسة العلمانية تجاه الشباب. نجد مثلاً، كيف كانت الحكومة العلمانية كثيراً ما تشجّع على نشر الفكر الليبرالي في فهم الإسلام على المسلمين عامة، وعلى الشباب خاصة. هذا الأمر يمكن أن يستتج من حثّ الحكومة لطلبة العلوم الإسلامية على الدراسة في الغرب، وهيئتها لمن تخرّج من جامعات الغرب على المناصب المهمّة في تنظيم الشؤون الإسلامية^١.

إضافة إلى ذلك، فقد سمحت الحكومة بانتشار بعض الفلسفة الدينية الهدامة التي تسعى إلى بلورة كل الديانة وجعلها ديناً واحداً، وعدم وضع عقوبة صارمة لمن يرعّب في التزاوج من مختلف الديانة. وقد أدّى هذا الأمر إلى وقوع حالات ارتداد بعض المسلمين والمسلمات بسبب الزواج في إندونيسيا^٢.

وقامت الحكومة بدعم اقتصاديات الدولة لكي تبقى على أساسها العلماني الرأسمالي. وقد أدّى هذا الأمر إلى ازدياد الفجوة بين طبقة الأثرياء الذين هم في أغلبها من الصينيين وغير المسلمين وبين طبقة الفقراء الذين هم في أغلبها من المسلمين. وقد قال الرسول ﷺ من قبل: «كاد الفقر أن يكون كفرة»^٣، مما يدلّ على أنّ بقاء النظام الاقتصادي الرأسمالي العلماني يولّد تحدّياً كبيراً على الشباب بشأن دينهم.

والجدير بالذكر، أنّ الحكومة قامت بالتفريق بين المدارس الدينية والمدارس غير الدينية، خاصة فيما يتعلق بالميزانية المالية التي تعدّها لها، ممّا أدّى في كثيرٍ من الأحيان إلى تهميش وتقليل الميزانية التي تُعدّ للمدارس والجامعات الإسلامية. وقد أدى هذا الأمر إلى نفور الشباب من الالتحاق بالمدارس والجامعات الإسلامية لتدني مستويات المرافق المتوفّرة فيها. ومن المعلوم، كلّما ابتعد الشباب عن نظام الإسلام في الحياة، يكون معرّضاً بدرجة أكبر لتحديات العولمة وسلبياتها. وكلّما تمسك الشباب بتعاليم الإسلام، ليس في شؤون علاقتهم مع أنفسهم ورتبهم فحسب، وإنّما يكون كذلك في شؤون علاقتهم مع الناس من حولهم، يكونوا ذوي حصانة من التآثر بسلبيات تلك التحديات.

^١ انظر: ٨٦-٨٥، Sohirin Mohammad Solihin, *Emergence And Development of Liberal Islam In Indonesia*, p.

^٢ Ugi Suharto, *Pemikiran Islam Liberal: Pembahasan isu – isu Sentral*, p. ١٨-٢٠.

^٣ وهو حديث ضعيف كما قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، ج٩، ص٧٧، رقم ٤٠٨٠.

المبحث الثالث

التعاليم القرآنية لتمكين الشباب المسلم الإندونيسي من مواجهة تحديات المستقبل

ستقابل إندونيسيا فترة (*Window of Opportunity*) فيما بين سنة ٢٠٢٠م إلى سنة ٢٠٣٠م، وهي فترة ذهبية لنهضة البلاد، حيث بلغ عددُ الصالحين للعمل (أي من كان في فترة العمر ما بين ١٦-٦٤ سنة) إلى أعلى قمته، وفي نفس الوقت نزل عددُ غير الصالحين للعمل (أي من كان في فترة العمر ٠-١٥ سنة، وفيما بعد ٦٥ سنة) إلى أدنى قمته^١.

وفي فترة (*Window of Opportunity*)، ستكون ثقل المسؤولية التي وُضعت على عاتق فئة الصالحين للعمل تجاه فئة غير الصالحين للعمل في أدنى النسبة. فهذا الأمر يؤدي إلى كون إندونيسيا ستمتلك عدداً كبيراً من فئة الصالحين للعمل من شعبه، نتيجة انخفاض عدد الوفيات والولادة.

إنّ إندونيسيا لن تتمكن من استغلال فترة (*Window of Opportunity*) تمام الاستغلال إن لم يتمكن شبابها من مواجهة العديد من التحديات التي يواجهونها أحسن مواجهة. فكيف يمكن للشباب أن يصبحوا قادة في المستقبل، إذا انحطوا في عنفوان شبابهم بأمر يُعدهم من المساهمة الفعالة لنهضة البلاد. ولهذا، فمن الضرورة أن يُوجّه الشباب، الذين سيصبحون رجالاً في المستقبل، حيث ستكون على عاتقهم مسؤولية تطوير البلاد، وجهة قرآنية حتى يتمكنوا من استغلال تلك الفرصة الثمينة من أجل تحقيق أعلى نسبة للنمو الاقتصادي.

وأشار القرآن الكريم إلى أنّ مسؤولية تمكين الشباب من مواجهة تحديات المستقبل في إندونيسيا متوقفة على تكاتف الجهود لعديد من الجهات: الأسرة، والمدرسة والجامعة، والمسجد، والمجتمع، والحكومة. وفيما يلي بيان مسؤولية كل من تلك الجهات.

مسؤولية الأسرة:

الأسرة هي الجهة التي تلعب الدور الأهم في تكوين شخصيات الشباب وتمكينهم على مواجهة تحديات حياتهم. وقد أشار النبي إلى ذلك في حديثه: «ما من مولود إلا يولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» (متفق عليه). وقد وجّه القرآن الأباء والأمهات على أن يوفروا الأوقات الكافية للاهتمام بشؤون أبناءهم، والمحاورة معهم، ليتكفوا من التعرّف على حاجات الشباب النفسية والجسدية، وأهم المشكلات التي يواجهها أبناءهم. فمسؤولية توجيه الأبناء وتربيتهم لا تكون على عاتق الأمهات فحسب، بل لا بدّ للأباء القيام بواجبهم كذلك. وقد قصّ القرآن قصة لقمان ووصاياه لابنه لتكون نموذجاً للأباء في تربية أولادهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ. وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٢-١٩].

^١ M. Cholil Nafis, *Kependudukan Perspektif Islam*, p. ١٤٩-١٥٠.

كما وجّه القرآن الآباء والأمهات على أن يتعرّفوا على أصدقاء أبنائهم وبناتهم وخلفياتهم، حتى يتمكنوا على مراقبة أبنائهم وصرفهم عن التأثير السيء الذي قد يظهر فيما بعد. وقد قصّ القرآن كيف أن ابنتي الرجل الصالح الذي كان في مدين، أخبرتا أباهما بشأن موسى عليه السلام الذي قد ساعدهما في إصدار الرعاء، باعتباره غريباً في المدينة^١.

إضافة إلى ذلك، وجّه القرآن الآباء والأمهات على نشر الوعي لدى أبنائهم بضرورة الالتزام بالتعاليم الإسلامية في جميع شؤون حياتهم، سواء كان في علاقتهم مع ربه في شؤون العبادات، أو كان في علاقتهم مع الناس في شؤون المعاملات.

مسؤولية المدرسة والجامعة:

إن المهمة الأكبر للمدارس والجامعات ليست في تعليم ونشر المعلومات للطلاب فحسب، وإنما في غرس التصوّر الإسلامي الصحيح نحو الحياة. فكلّ المعلومات الجديدة التي يجدها الشباب من المدرّسين والمحاضرين إن لم تكن مبنية على التصوّر الإسلامي الصحيح، قد تكون وبالاً عليهم.

إضافة إلى ذلك، لا بدّ للمدارس اليوم أن تلعب دوراً فعّالاً في تربية الشباب تربيةً جنسيةً، من خلال ضبط سلوك الشباب والشابات بشأن عوراتهم، وتربيتهم الاستئذان في الدخول إلى غرف الغير، وتفهيّمهم بأهمية غضّ البصر وحفظ الفروج، وغيرها من الأمور المهمة بشأن التربية الجنسية. إن لم تتطرق مناهج التربية على تفهيم الشباب والشابات بهذه الأمور، فستزداد الفرصة أن يحصلوا على معلومات خاطئة أو معلومات لا تتساير مع الشريعة الإسلامية من مصادر أخرى، مثل الإنترنت.

ومن الأهمية بمكان كذلك، أن تتعاون المدارس والجامعات مع المكاتب الأخرى التي لها دور مهم في ضبط سلوك الشباب. مثلاً، بالتنسيق بين المدارس والجامعات مع ديوان حكومي لمحاربة المخدرات بإجراء مراقبة مستمرة من خلال وضع جدول مبرمج من أجل تحليل الدم والبول لدى الطلبة لتأكيد خلوهم من التعاطي بالمخدرات.

مسؤولية المسجد:

سُمّي المسجد بيت الله تكريماً وتعظيماً وإشارةً على علوّ مكانته وعظمة دوره في المجتمع. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أحبّ البلاد إلى الله مساجدها» (رواه الإمام مسلم).

بالنظر إلى ثلاث آيات قرآنية^٢ تتحدّث عن المسجد، نجد أنّ القرآن أشار إلى دورين رئيسين للمسجد؛ هما إصلاح العقيدة، وحثّ الناس على القيام بالعمل الصالح. وهذا يعني، أنّ للمسجد دوراً كبيراً في تمكين الشباب على مواجهة التحديات.

في العصر الحاضر في إندونيسيا، ابتعد الشباب عن المسجد إلّا قليل منهم ممن رحمهم الله، حيث صار المسجد ممتلاً بفئة الشيوخ وكبار السنّ دون الشباب. والرسول صلى الله عليه وسلم ذكر في حديثه، أنّ من ضمن سبع فئات التي سيظلمهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلّا ظله: «رجل قلبه معلق بالمساجد» (رواه الإمام البخاري). فمن الضرورة أن نسعى إلى إرجاع شبابنا قريباً من المساجد.

^١ انظر قوله تعالى في سورة القصص الآية ٢٣-٢٨.

^٢ انظر: سورة التوبة: ١٨، وسورة النور: ٣٦-٣٧، وسورة الجن: ١٨.

ومن الأمور التي يمكن للمسجد أن يلعب الدور الرئيس في تمكين الشباب في مواجهة التحديات، أنّ على خطباء المساجد أن يناقشوا العديد من قضايا الشباب ومشكلاتهم في خطب الجمعة، وأن يوجهوا الشباب إلى ما فيه صلاحهم. كما أنّ على أئمة المساجد أن يُرفقوا الشباب في أنشطتهم الإيجابية النافعة، ويكونوا قدوةً صالحةً لهم، حتى يتأسى ويقتدي الشباب بهم. إضافة إلى ذلك، أنّ على نظراء الوقف للمساجد أن يدفع الشباب إلى عمارة المساجد بوضع البرامج التي يمكن للشباب المشاركة والإسهام والإبداع فيها.

مسؤولية المجتمع:

إنّ للمجتمع دوراً مهماً في تكوين شخصية الشباب وتمكينهم على مواجهة التحديات. فالشباب كثيراً ما يتأثر بمن حوله. فالجتماع الصالح يؤثر إيجابياً على صلاح الأفراد، كما أنّ المجتمع الطالح يؤثر سلبياً على أفرادهِ. ولهذا، أشار القرآن إلى ضرورة إيجاد مجتمع إسلامي التي يتنافس المسلمون فيه جميعاً، شبابهم وشيوخهم، على الإكثار من فعل الخيرات، حين قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وجّه القرآن جميع أفراد المجتمع على القيام بالتواصي بالحقّ والتواصي بالصبر بعضهم لبعض، كما أن عليهم أن يكثرُوا من الأعمال النافعة الإيجابية حتّى يقتدي الآخرون بها، وألاً يكثرُوا من الأعمال الضارة السلبية حتّى لا يقتدي الآخرون بها. قال رسول الله ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» (رواه الإمام مسلم).

إضافة إلى ذلك، وجّه القرآن جميع أفراد المجتمع على الصحبة بالأخيار والابتعاد عن أصدقاء السوء. قال الرسول ﷺ: «مثلُ المجلس الصالح والمجلس السوء كمثل صاحب المسك وكبير الحدّاد، لا يعدمك من صاحب المسك إمّا أن تشتريه أو تجد ريحهُ، وكبير الحدّاد يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحاً خبيثة» (رواه الإمام البخاري).

كما وجّه القرآن جميع أفراد المجتمع على ضرورة تكوين جوّ إيماني لبعضهم البعض. فقد كان وجود رسول الله ﷺ فيما بين الصحابة سبباً رئيساً في تقوية إيمانهم. قال الله تعالى: ﴿وَكَيفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]. ومن أهمّ سمات جوّ إيماني في المجتمع عدم التظالم فيما بين أفراد المجتمع. قال الرسول ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره» (رواه الإمام مسلم).

مسؤولية الحكومة:

إنّ الحكومة بسياساتها وخططها التنموية تلعب دوراً مهماً في تكوين شخصية الشباب وتمكينهم على مواجهة التحديات. وقد أشار القرآن أنّ السياسات التي اتبعتها كلّ حاكم لا بدّ أن تكون مبنية على الحقّ وبعيدة عن الهوى. يقول الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وأوّل مسؤولية الحكومة تجاه الشباب وضع استراتيجيّة التي تكون في مصلحة الشباب. الحكومة لا بدّ أن تفسح المجال للشباب، إنّ لم تفسح المجال للشباب في ممارسة رغبته بلعب دور اجتماعي ضمن توجيه صالح، فستكون النتيجة

أحد شيئين: إما أن تخدم طاقات الشباب، وتقتل مواهبه، وتدفن طموحاته، وإما أن يبادر إلى ممارسة أدوارٍ منحرفةٍ، ويقوم بأعمالٍ فاسدةٍ^١.

ذُكر في بعض التقارير أنّ من أبرز الدول التي تنخفض فيها نسبة الجريمة على مستوى العالم هي اليابان، وذلك لأن الحكومة اليابانية كثيراً ما تحتضن مؤسسات اجتماعية تُعنى بالشباب، ومن بينها مؤسسة يُطلق عليها وحدة الإرشاد والتوجيه للشباب تضم ١٢٦ ألف عضو متطوع. وكذلك مؤسسة المرأة لإعادة التأهيل تضم ٣٢٠ ألف متطوعة. فكلّ مشكلة من المشاكل تجد لها مؤسسة متخصصة بدراساتها وبوضع الخطط لمواجهةها وبالتحرك تجاهها، بينما لا يتجاوز الاهتمام عند حكومة الدول الإسلامية عامةً، وحكومة إندونيسيا خاصةً، مجال الحديث عن المشكلة، دون أن نندفع باتجاه تأسيس المؤسسات واللجان المتخصصة لدراساتها والبحث عن حلولها^٢.

الخاتمة ونتائج البحث:

بعد هذه الدراسة المتواضعة حول الشباب المسلمين الإندونيسيين وتحدياتهم في المستقبل من خلال نظرة قرآنية لها، أجدني قد توصلت إلى أهمّ نقاط رئيسة كما يلي:

أولاً: إنّ الشباب في مفهومه القرآني ليس في قدرة الجسد، ولا في قوّة الشهوة، وإتّما الشباب في صلابة العزيمة وحماسة الروح. والشباب في نظر القرآن لا بدّ أن يتّسم بالشجاعة، وحبّ الاستطلاع، والتجديد، والتفأؤل، والرؤية المستقبلية، والأخلاق الكريمة، والتمسك على المبادئ. وقد أناط القرآن عليهم ثلاث مسؤوليات رئيسة، هي مواصلة إنجازات من سبقهم، وتعويض فشل من قبلهم بالنجاحات، وتحريك مجتمعهم نحو التغيير للأفضل.

ثانياً: للشباب المسلمين دور كبير في نهضة الإسلام بإندونيسيا. وقد ظهر هذا الدور بارزاً في الماضي، سواء قبل استقلال إندونيسيا وبعد استقلالها. على الرغم من أنه إلى الآن يوجد العديد من الشباب المسلمين الإندونيسيين ما زالوا قائمين بتحقيق العديد من الإنجازات، إلا أنّ الصورة الأغلب التي تظهر في وسائل الإعلام أن معظم الشباب لم يحسن التعامل مع أربع تحديات رئيسة، وهي تحديّ الشيطان والنفس والهوى، وتحديّ الغزو الفكري، وتحديّ الانحلال الأخلاقي، وتحديّ الحكومة العلمانية.

ثالثاً: أشار القرآن إلى ضرورة تكاتف الجهود بين الفئات المختلفة، من الأسرة والمدرسة والمسجد والمجتمع والحكومة، من أجل القيام بالخطوات التي من خلالها تمكّن الشباب على القيام بدور فعّال في المجتمع ومواجهة التحديات في حياتهم بحسن مواجهة.

وأوصي ببعض التوصيات التالية:

أولاً: على الشباب المسلمين الإندونيسيين أن يكونوا قريين من القرآن تلاوةً وفهماً وعملاً، لأنّ في القرآن عصمة من الانزلاق في وحل الانحراف والضلال.

^١ حسن الصفار، مسؤولية الشباب، ص ٣٢.

^٢ حميد المبارك، مقالات في فهم الدين، ص ٢٣٩-٢٤٠.

ثانياً: على القائمين بشؤون الشباب، من الآباء، والأقارب، والمجتمع، والمدربين، والحكومة، أن يعوا أن أفضل الاستثمار في نخضة البلاد هو الاستثمار في تربية الشباب وتأهيلهم ليتمكن الشباب في الحاضر والمستقبل من تحمّل المسؤولية فرديةً كانت أم جماعيةً.

ثالثاً: على المسلمين الإندونيسيين أن يعودوا إلى شخصياتهم الإسلامية، وأن يحاولوا الخروج من جميع المشكلات التي يواجهونها منطلقين من فهمهم الصحيح للقرآن، ومطبّقين مناهج القرآن في حياتهم.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، (بيروت: دار المعرفة، ط ١، ٢٠٠٦م).
٣. ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ط ١، ٢٠٠٠م).
٤. ابن عباد، صاحب، المحيط في اللغة، (بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٤م).
٥. ابن فارس، مجمع اللغة، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٤م).
٦. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (السعودية: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م).
٧. أبو العينين، علي خليل، أصول الفكر التربوي الحديث بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه الغربي، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٨٦م).
٨. البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، (السعودية: دار طيبة، ط ٤، ١٩٩٧م).
٩. البناء، حسن، مجموعة الرسائل، (مصر: دار الطباعة والنشر الإسلامية، ١٩٩٢م).
١٠. التقرير السنوي للبنك الدولي سنة ٢٠٠٧م.
١١. الثعالبي، عبد الملك بن محمد، فقه اللغة وأسرار العربية، (القاهرة: مؤسسة المختار، ط ١، ٢٠٠٩م).
١٢. الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٥هـ).
١٣. الجعب، نافذ سليمان، تربية الشباب على ثقافة التغيير، (بحث مقدّم لمؤتمر فيلادلفيا الدولي السابع عشر عن ثقافة التغيير، ٢٠١٢م).
١٤. حجازي، مصطفى، الإنسان المهدور: دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م).
١٥. الصفار، حسن، مسؤولية الشباب، (بيروت: دار البيان العربي، ط ٣، ١٤١٢هـ).
١٦. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م).
١٧. القرضاوي، يوسف، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي الإسلامي، (القاهرة: مكتبة الوهبة، ط ٢، ١٩٩٧م).
١٨. المبارك، حميد، مقالات في فهم الدين، (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط ١، ٢٠٠٧م).
١٩. محجوب، عباس، مشكلات الشباب الحلول المطروحة والحل الإسلامي، (الدوحة، قطر: سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ١٤٠٦هـ).
٢٠. مرسي، محمد عبد العليم، الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج العربية - نظرة إسلامية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط ١، ١٩٩٥م).

ثانياً: الكتب غير العربية

- Junaidi, Lili. (٢٠١٣). *Faktor-faktor yang Mempengaruhi Perilaku Seks Multipartner pada Tukang Ojek yang Mangkal di Dekat Lokalisasi Pasar Kembang Kota Yogyakarta*, makalah pada *Jurnal pengendalian Penyakit dan Penyehatan Lingkungan*, Kementerian kesehatan RI, Edisi ٣, Desember. .١
Laporan Akuntabilitas Badan Narkotika Nasional Tahun ٢٠١٣. .٢
 Lestari, Herna. (٢٠٠٥). *Kehamilan Tak Direncanakan*. Jakarta: Mitra Inti. .٣
 Nafis, M. Cholil. (٢٠١١). *Kependudukan Perspektif Islam*. Jakarta: Mitra Abadi Press, cet ke-٢. .٤
Oxford Learner's Pocket Dictionary. (٢٠٠٨). Oxford University Press, Fourth edition. .٥
 Solihin, Sohirin Mohammad. (٢٠٠٩). *Emergence And Development of Liberal Islam In Indonesia*. Kuala Lumpur: IIUM Press. .٦
 Suharto, Ugi. (٢٠٠٧). *Pemikiran Islam Liberal: Pembahasan isu – isu Sentral*. Kuala Lumpur: Dewan Pustaka Fajar. .٧
 Suryanegara, Ahmad Mansur. (٢٠١٢). *Api Sejarah*. Bandung: Salamadani, cet ke-٥. .٨
 Suryanegara, Ahmad Mansur. (٢٠١٤). *Api Sejarah ٢*. Bandung: Salamadani, cet ke-٥. .٩

ثالثاً: مواقع الإنترنت

- , <http://www.act.id/id/what-we-do> .١
<http://youth.moh.gov.bh/ArticlesDetails.aspx?id=١٢> .٢
siteresources.worldbank.org/EXTANNREP%K/Resources/English.pdf .٣
http://www.bps.go.id/menutab.php?tabel=١&kat=١&id_subyek=١٢ .٤
<http://www.antarajatim.com/lihat/berita/١٢١٦١٦/pornografi-di-kalangan-pelajar-mengerikan> .٥
http://www.bnn.go.id/portal/_uploads/post/٢٠١٤/٠٤/١٦/LAKIP_BNN_٢٠١٣_Oke.pdf .٦

المشكلات النفسية للشباب المسلم وطرق الإرشاد النفسي المقدمة على ضوء الكتاب والسنة دراسة تحليلية لمحتوى الاستشارات النفسية المنشورة بموقع الشبكة الإسلامية

د. محمد عبد العليم إبراهيم* د. علي أحمد التهامي**

ملخص البحث:

هدفت الدراسة إلى تسليط الضوء على مشكلات الشباب المسلم، وتناولت واحدة من المشكلات النفسية ذات الطابع الديني، وهي الوسواس الدينية، وذلك بتحليل محتوى الاستشارات النفسية الخاصة بهذا الموضوع في موقع الشبكة الإسلامية. واستخدمت الدراسة منهج تحليل المحتوى لوصف المشكلة، والوقوف على أبعادها ومتغيراتها، فكانت عينة الدراسة مكونة من ١٨٨ استشارة تم اختيارها عن طريق العينة العشوائية الطبيعية لكل من الأفكار الوسواسية المتعلقة بالدين، والوسواس المتعلقة بالعبادات. وتوصلت إلى النتائج التالية: كانت الأفكار الوسواسية المتعلقة بالدين أكثر قراءة من الوسواس المتعلقة بالعبادات. كما أن الإرشاد الدوائي السلوكي بلغت نسبته ٥٢,٤%، ثم تلاه الإرشاد الديني ٢٨,٦%، ثم الإرشاد السلوكي ١٦,٥% من بين أنواع الإرشادات المقدمة. ووجدت الدراسة أن عدد الآيات الكريمة التي وردت في الاستشارات كانت نسبتها ٣٣,٣%، وتلتها التوجيهات الإسلامية العامة ٣١,٤%، ثم نسبة عدد الأحاديث الشريفة ٢٧,٩% من بين النصوص الدينية التي وردت في الاستشارات. وتوصلت الدراسة أيضاً إلى أن نسبة الذكور أصحاب الاستشارات المتعلقة بالأفكار الوسواسية الدينية كانت أعلى من نسبة الإناث في هذا الصنف، ونسبة استشارات الإناث كانت أعلى من الذكور فيما يتعلق بوسواس العبادة.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد! فإن الشباب يعتبر العنصر الأساسي في بناء الأمة وتقدمها وتحضرها ونهضتها، وهو الذي يخطط ويعمل ويبتكر، فإن صلح هذا الجسم صلحت الأمة ونمت، وإن فسد ضاعت الأمة وفسدت. ونتيجةً للتغيرات الحياتية المختلفة في العصر الحالي، فقد واجه الشباب المسلم العديد من المشكلات النفسية التي تسببت في إعاقة بعضهم في تأدية وظائفهم الدينية والدنيوية، فلجأ بعضهم إلى البحث عن الحلول من خلال الاستفسارات والاستشارات عبر الشبكات والمواقع الإلكترونية التي تقدم خدمات الاستشارات النفسية، فكان للشبكة الإسلامية الدور الرائد والبناء في التصدي لهذه المهمة من خلال أفراد باب خاص للاستشارات النفسية يقوم علمه نخبة من المختصين في مجالات الطب النفسي والإرشاد الديني والسلوكي. وقد حاولت هذه الدراسة تسليط الضوء على واحدة من المشكلات النفسية التي شغلت الشباب كثيراً في الآونة الأخيرة وهي اضطرابات الوسواس القهري التي تعبر عن حالات سلوكية شاذة تستحوذ فيها على الشخص فكرة أو

* مؤسسة حمد الطبية، قطر.

** مؤسسة حمد الطبية، قطر.

خاطرة أو صورة اندفاعية (وساوس أو هواجس غير مرغوبة) غالباً ما تكون سخيقة وتافهة لكنها تفرض نفسها عليه وتظل تعاوده وتراوده، أو تلح عليه لعمل فعل غريب فيجد نفسه مندفعاً لتحقيقه وملزماً بتكراره، ويبدو الشخص في هذه الحالات عاجزاً تماماً عن التخلص من تلك الفكرة أو طردها، أو الإقلاع عن ذلك الفعل المجرى على إتيانه وتكريره رغم إدراكه لطبيعتها الشاذة الغريبة التافهة، وهذا يؤدي إلى توتر شديد وقلق حاد وخوف كلما نزعت نفسه إلى كبجها أو مقاومتها، ولا يشعر بالارتياح إلا بإزالتها ثم ما يلبث أن يهدأ حتى تراوده تلك الوسواس أو الطقوس الحركية من جديد، فيحاول مقاومتها ومجاهدتها لكنه قد يفشل في ذلك، فينصاع ويتسلم لها مرة ثانية وثالثة ورابعة فيدمنها ما لم يتم علاجه. مما يؤدي إلى الإنهاك الشديد وسوء التوافق وضياح الوقت.

وإذا ارتبطت بأفكار متعلقة بالدين والعقيدة أو بالعبادات فقد يكون هناك عبء وحمل آخر بالنسبة للمسلم. فقد يشكك في عقيدته وفي تأدية عباداته بالطريقة المطلوبة وقد يصل الأمر إلى ترك تلك العبادة.

ولهذا السبب حاولت هذه الدراسة التركيز على اضطرابات الوسواس المجردة المتعلقة بالدين والوسواس الفكرية المصحوبة بأفعال العبادات في باب الاستشارات النفسية ولأهميتها من بين المشاكل النفسية التي يعاني منها الشباب اليوم وكبداية لسلسلة من الدراسات في بقية المشاكل النفسية. وذلك للتعرف على حجم المشكلة وإيجاد الحلول المناسبة لها وكيفية وضع برنامج إرشادية متكاملة تساعد في علاج المشكلة وتسهم في الوقاية منها.

وبما أن الإرشاد الإلكتروني أصبح متاحاً لكثير من الفئات الشبابية بواسطة المواقع الإلكترونية، مما ساعد على إمكانية نشر الثقافة النفسية والدينية بكل يسر وسهولة.

ومن فوائد الإرشاد الإلكتروني أنه يشجع أصحاب المشكلات النفسية على الإفصاح عن مشاكلهم الخاصة بكل صراحة ودون تردد. وكذلك من فوائده أنه يلعب دور العلاج النفسي الجماعي فالتعرف على مشاكل الآخرين ومعاناتهم قد يؤدي إلى شعور الفرد بالرضا والمساواة والمؤاساة أو التقليل من حجم مشكلته بالنسبة للفرد. هذا بالإضافة إلى أنه يقدم دون أي تكلفة مادية.

ومن فوائده أيضاً أنه لا يشعر فيه صاحب المشكلة بأي وصمة اجتماعية نتيجة طلبه للعلاج أو الإرشاد فقد يتردد أصحاب المشكلات النفسية كثيراً قبل الذهاب إلى المستشفيات أو المراكز العلاجية النفسية إذ أن الوصمة مازالت موجودة في كل المجتمعات.

مشكلة الدراسة:

قامت الشبكة الإسلامية بتصنيف الاستشارات النفسية المتعلقة بالوسواس إلى خمسة تصنيفات هي:

- ١- أفكار وسواسيه مجردة تشمل المتعلقة بالدين وبأمور أخرى.
- ٢- طقوس وسواسيه.
- ٣- أفكار وسواسيه مصحوبة بأفعال وتشمل المتعلقة بالعبادات وبالمرض وبأفكار أخرى.
- ٤- وساوس عامة.
- ٥- وساوس قهرية.

وبعد النظر في هذه التصنيفات اختارت هذه الدراسة تصنيفين ينفرد بهما الشباب المسلم دون غيره، حيث إن بقية التصنيفات قد يعاني منها المسلم وغير المسلم، وهما الأفكار الوسواسية المجردة المتعلقة بالدين والأفكار الوسواسية المصحوبة بأفعال المتعلقة بالعبادات، لتتم دراستها وفقاً لأكثرها قراءة، وأنواع الإرشادات المقدمة من قبل المستشارين، وعدد الآيات والأحاديث، والتوجيهات الإسلامية التي وردت فيها، ونوع المستشارين من حيث الجنس، وتكرارها عبر السنوات في الفترة ما بين (١١/٨/٢٠٠٢م - ٣٠/٩/٢٠١٤م).

وبناء على ما سبق صيغت مشكلة الدراسة في الأسئلة التالية:

- ١- ما هي أكثر الاستشارات قراءة في مجال الوسواس المتعلقة بالأمر الديني والعبادات؟
- ٢- ما هي أكثر أنواع الإرشادات شيوعاً؟
- ٣- كم عدد الآيات والأحاديث والتوجيهات الإسلامية التي وردت في العينة المختارة من الاستشارات النفسية؟
- ٤- أيهما أكثر استفساراً في التصنيفين الذكور أم الإناث؟
- ٥- ما هو الأكثر تكراراً للتصنيفين وفقاً للسنوات التي نشرت فيها الاستشارات؟

أهداف الدراسة:

- ١- معرفة طبيعة الاستشارات في مجال الوسواس المرضية ونوع الإرشادات المقدمة وفقاً للكتاب والسنة.
- ٢- الكشف عن اهتمامات قراء الاستشارات من خلال تصنيف الاستشارات الأكثر قراءة.
- ٣- معرفة شيوع أنواع الوسواس المختارة وفقاً لتغير الجنس والفترات الزمنية التي نشرت فيها.
- ٤- محاولة إيجاد صيغة مشتركة تُستنبط من إجابات المستشارين لعلاج اضطرابات الوسواس المتعلقة بالدين والعبادات.

أهمية الدراسة:

تتضح أهمية هذه الدراسة في الآتي:

- ١- إبراز دور الإرشاد الإلكتروني في علاج ومشكلات الشباب المسلم من خلال الخدمات التي تقدمها الشبكة الإسلامية والمساعدة في تطوير هذه الخدمات.
- ٢- تسليط الضوء على مشكلات الشباب المسلم النفسية ودراساتها دراسة تفصيلية للمساعدة في تقديم برامج إرشادية تواكب المتغيرات الحياتية.
- ٣- محاولة إيجاد حلول للمشكلات النفسية للشباب بصورة عامة واضطرابات الوسواس بصورة خاصة تتناسب مع التعامل الإسلامية وذلك بغرض تأصيل وأسئلة البرامج العلاجية في مجال الصحة النفسية.

مصطلحات الدراسة:

المشكلات النفسية: أي مشكلة ذات طابع نفسي سلوكي تؤرق صاحبها، وتسبب له سوء التوافق الشخصي والاجتماعي.

طرق الإرشاد النفسي: الإرشادات التي أدلى بها المختصون المعتمدون كمستشارين في الشبكة الإسلامية، وهي تشمل: الإرشاد الديني والدوائي والسلوكي.

محتوى الاستشارات النفسية: إجابات المستشارين على أسئلة المستشيرين.
الشبكة الإسلامية: الموقع الإلكتروني التابع لوزارة الأوقاف بدولة قطر المعروف بإسلام ويب.

حدود الدراسة:

حددت الدراسة الاستشارات النفسية المنشورة في موقع الشبكة الإسلامية في الفترة ما بين (١١/٨/٢٠٠٢م - ٣٠/٩/٢٠١٤م) باب الحالات النفسية العصبية - قسم الوسواس.

الإطار النظري:

الوسواس الدينية:

تعتبر الوسواس الدينية التي تشمل بالطبع الأفكار التسلطية المتعلقة بالدين والأفعال القهرية المشابهة للأفعال الدينية من أكثر أنواع الوسواس شيوعاً في مجتمعاتنا الإسلامية، فحسب الدراسات القليلة التي أجريت على المجتمعات العربية، فقد كانت نسبة الوسواس الدينية في دراسة الدكتور عكاشة على العرب المصريين ٥٦% وفي دراسته الأحدث بلغت نسبة الأفكار التسلطية المتعلقة بالدين ٦٠% ونسبة الأفعال القهرية المشابهة للأفعال الدينية ٦٨% كما كان المحتوى الديني هو المحتوى الغالب للوسواس بنوعها في دراسة سعودية وما يشير إليه ذلك بالطبع هو أهمية دراسة هذا النوع من الوسواس^١.

الأفكار التسلطية المتعلقة بالدين:

هذا النوع من الأفكار يأخذ عدة أشكال، منها:

١- الأفكار الاجترارية:

وتأخذ شكل التفكير فيما نهينا عن التفكير فيه من الأمور الغيبية التي لا يفيد التفكير فيها هي تتعلق بذات الله عز وجل وبرسوله الكريم ﷺ، وقد تأخذ شكلاً تشكيكياً في الكثير من أمور العقيدة.

٢- النزعات القهرية:

ويقصد بها الشعور بالرغبة في فعل ما لا يجوز فعله مثلاً في مكان العبادة، كأن يسب المرء أو يلعن ما لا يجوز سبه أو لعنه.

٣- الأفكار الاقتحامية:

وهذا شكل من أشكال الأفكار التسلطية المتعلقة بالدين تقتحم الفكرة فيه وعي الشخص المؤمن رغماً عنه عندما ينوي الوضوء أو الصلاة مثلاً.

^١ أبو هندي، الوسواس القهري من منظور عربي إسلامي، ص ٤٣.

٤- أفكار الشك التسلطية:

والشك المقصود هنا هو الشك المتعلق بأداء الفرض الديني أو النافلة في مقابل عدم آدائه كإحسان الاستنجاء أو الوضوء أو تكبيرة الإحرام في استهلال الصلاة أو صحة النية للصلاة، وهناك من يشكون في نقضهم للوضوء^١.

علاج الوسواس القهري:

تطورت أساليب العلاج بعد الاكتشافات العلمية في مجال الطب النفسي في نهاية السبعينات وأوائل الثمانينات من القرن العشرين، حيث تم اكتشاف التأثير الإيجابي لعقار من مضادات الاكتئاب الثلاثية الحلقة في الوسواس القهري والذي له علاقة مباشرة بالناقل العصبي السيروتونين، هذا بالإضافة إلى تطور تقنيات العلاج السلوكي المعرفي. ومن أهم هذه العلاجات:

العلاج بالعقاقير:

من الأدوية المستخدمة كثيراً في علاج الوسواس عقار يعرف علمياً باسم (فلوكستين Fluoxetine)، ويسمى تجارياً باسم (بروزاك Prozac)، جرعته (عشرين مليجراماً) يومياً بعد الأكل، وله مسميات تجارية كثيرة تختلف من دولة إلى أخرى^٢.

العلاج السلوكي:

تفسّر النظرية السلوكية الأفكار الوسواسية في ضوء نظرية التعلم بأن الوسواس القهري شأنه شأن أي سلوك متعلم من البيئة تحت شروط التدعيم. وبالتالي فإن الأفكار الوسواسية تكون لها القدرة على إثارة القلق، أي نمط جديد من السلوك قد تم تعلمه، والأفعال القهرية تحدث عندما يكتشف الشخص أن عملاً معيناً مرتبطاً بالأفعال الوسواسية. قد يخفف القلق وتدرجياً مع التكرار، فإن هذا الفعل يصبح ثابتاً وتنتظر هذه النظرية إلى أن الوسواس على أنها تمثل منبهاً شرطياً عله الاشتراط بعدما كان في السابق منبهاً محايداً^٣.

ومن فنيات العلاج السلوكي:

أ- الاسترخاء العضلي:

يستخدم كأسلوب قائم بذاته لخفض التوتر والقلق الناتج عن عدم الاستجابة للأفكار الوسواسية.

٢- التعرض:

وتتلخص هذه الطريقة في الطلب من المرضى أن يتعرضوا أو يعرضوا أنفسهم للأشياء التي يخافون منها أو التي يتجنبونها خوفاً من الشعور بالقلق أو الضيق أو الاشمزاز. ويمنعوا أيضاً من الاستجابة جزئياً أو كلياً عن طريق تأصيل الطقوس أو اختصارها، أو الامتناع عنها فترات زمنية محددة^٤.

^١ المرجع السابق، ص ٤٣٢.

^٢ عبد العلم، استشارات الشبكة الإسلامية، ٢٠١٤م.

^٣ جودة، الوسواس القهري وتداعياته على الصحة النفسية، ص ٥٢.

^٤ الأغا بشار، دراسة سمات شخصية مرضى الوسواس القهري في البيئة الفلسطينية ...

العلاج الديني:

ينطلق العلاج الديني الموجه للمسلم الموسوس من الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾. وعليه فإن توجيه هذا الفرد إلى ذكر الله سواء بالاستماع إليه في مجالس استماع القرآن الكريم، تلك المجالس التي تتطلب آداباً خاصة كالطهارة: طهارة البدن والثوب والنفس، والخشوع والتوجه إلى الله والتفكير في معاني كلامه، أو تلاوة القرآن الكريم في مجالس التلاوة، كما أن توجيهه إلى أداء الصلاة بما فيها من تلاوة، وخشوع وحركات، وبما تحمله من توجه مباشر إلى الله سبحانه وتعالى حيث يدعوه الإنسان المضطرب ويطلب منه العون... وتوجيهه إلى الصيام والزكاة وغير ذلك من العبادات الإسلامية يمكن أن يكون عوناً له في التخلص من وساوسه.

إن العلاج الديني لا يقف عند هذا الحد إنما يتوجه من خلال التربية القرآنية إلى توجيه المريض للتخلص من كثير من السمات والعادات التي يشب عليها كالصلابة وعدم المرونة والمغالاة، مما يساعد أيضاً في سرعة الشفاء^١. فيما يلي بعض النماذج لعلماء المسلمين في علاج عصاب الوسواس:

١- ابن قيم الجوزية:

أورد ابن القيم في كتابه: إغاثة اللهفان من معابد الشيطان.

يستحق التعزيز البليغ الذي يزجره وأمثاله عن أن يشرعوا في ما لم يأذن به الله ويعبدوا الله بالبدع لا بالاتباع. فمما نهي عنه الغلو وتعدي الحدود والإسراف، وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]، وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ٤١٤]، وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقول الرسول ﷺ: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم».

٢- من أراد التخلص من بلية الوسواس فليستشعر أن الحق في اتباع رسول الله ﷺ في قوله وفعله، وليعزم على سلوك طريقته عزيمة من لا يشك أنه على الصراط المستقيم، وأن مخالفته من تسويل إبليس ووسوسته.

٣- العلم بالشرع، وذلك بسؤال أهل الذكر أو القراءة والاطلاع. ومثال ذلك أن عمر ﷺ يهيم بالأمر ويعزم عليه فإذا قيل له لم يفعله رسول الله ﷺ انتهى. وأن الصحابة ما كان فيهم موسوس، ولو كانت الوسوسة فضيلة لما اذخرها الله عن رسوله وصحابة رسوله، ولو أدركهم لمقتهم، ولو أدركهم عمر لضربهم وأذبحهم، ولو أدركهم الصحابة لبدعوهم.

٤- الاعتقاد في أن الوسوسة مرض سببه قبول الإنسان لوساوس الشيطان. وأنه لا عذر لأحد في قبول هذه الوسوسة.

وقد روى مسلم في صحيحه من حيث عثمان بن أبي العاص قال: "قلت: يا رسول الله ﷺ! إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي يلبسها علي. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك الشيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، وأتفل عن يسارك ثلاثاً»، ففعلت ذلك فأذهب الله عني".

^١ محمد، بعض أشكال عصاب الوسواس القهري وعلاقته ببعض المعطيات الدينية، ص ٢٠٠.

وفي المسند وسنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان يأتي أحدكم وهو في الصلاة، فيأخذ شعرة من دبره فيمدّها فيري أنه قد أحدث فلا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً».

٥- يستحب للإنسان أن ينضح فرجه وسراويله إذا بال ليدفع عن نفسه الوسوسة، فمتى وجد بللاً قال: هذا من الماء الذي نضحته، فقد روى أبو داود بإسناده عن سفيان بن الحكم الثقفي أو الحكم بن سفيان قال: "كان النبي ﷺ إذا بال يتوضأ وينتضح"^١.

٢- الإمام الغزالي:

أما الإمام الغزالي فقد ذهب إلى أن الوسوسة خبل في العقل أي فساد فيه. وعليه فإن على المعالج أن يعبر لهذا العقل صوابه، وذلك بالآتي:

١- تزويده بموقف الشرع مما هو فيه.

٢- تعليمه قواعد المنطق الوارد بعضها في كتاب الغزالي "القسطاس المستقيم".

٣- حثه على أن يسلك سلوك الرسول ﷺ وصحابته والابتعاد عن سلك المغالين.

ومن بعض ما أورده الإمام الغزالي في كتابه: إحياء علوم الدين (الجزء الأول).

ويفيد في علاج الموسوسين:

١- الطهارة لها أربع مراتب:

الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات.

والثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

والثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والردائل الممقوتة.

والرابعة: تطهير السر عن ما سوى الله تعالى وهذه طهارة الأنبياء.

فالموسوس لم ينته إلا منشغلاً بالمرتبة الأولى، فيمغن فيها ويستقصي في مجاريها، ويستوعب جميع وقته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة، وهذا مخالف لسنة وسيرة الأولين الذين استغرقوا في تطهير القلب وتساهلوا في أمر الظاهر.

٢- المنزل للموسوس أن يُعلم الموسوس أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين فما يشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها يقيناً يُصلى معه ولا ينبغي أن يتوصل بالاستنباط إلى تقدير النجسات.

٣- ألا يبول الإنسان في المغتسل ولا يبول واقفاً، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يبولن أحدكم في مستحمة ثم يتوضأ فيه فإن عامة الوسواس منه».

٤- على الفرد أن يستبرئ عن البول، ولكن أن لا يكثّر التفكير في الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر، وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء.

٥- الابتعاد عن الاستقصاء في الاستنجاء بعدم التعرض للباطن، فإن الاستقصاء منبع الوسواس.

^١ المرجع السابق، ص ٢٠٢.

٦- يكره في الوضوء أمور ثلاثة: أن يزيد على الثلاث، وأن يسرف في الماء، وأن بنفض اليد فيرش الماء، وأن يتكلم أثناء الوضوء وأن يلطم وجهه بالماء لطمًا.

الدراسات التجريبية التي أجريت في مجال علاج الوسواس القهري:

يستعرض الباحثان في هذا الجزء بعض الدراسات التجريبية التي أجريت في المجتمع العربي والإسلامي المتعلقة بعلاج الوسواس.

ففي دراسة محمد عودة محمد ١٩٩٠م التي بعنوان (بعض أشكال عصاب الوسواس القهري وعلاقتها ببعض المعطيات الدينية) والتي هدفت إلى الكشف عن المعطيات الدينية لبعض أشكال الوسواس القهري، كما هدفت أيضاً إلى التخطيط لطريقة في العلاج الديني لهذه الأشكال، وقد حددت هذه الدراسة المفاهيم والشعائر الدينية التي يمكن أن تتسرب منها وسوسة تتطور لتتحول إلى شكل من أشكال عصاب الوسواس القهري من هذه المفاهيم والشعائر: الشيطان ووظائفه، الطهارة، النية في الصلاة نفسها، ثم عرضت الدراسة الطرق العلاجية التي اقترحتها كل من ابن قيم الجوزية والإمام الغزالي، وكذلك طرق العلاج السلوكي الحديثة، وعلى ضوء هذه الطرق قديمها وحديثها بني برنامج علاجي ديني، طبق على خمس حالات وسواسيه وأثبتت فعاليته، وتعتبر هذه الدراسة من الدراسات التجريبية التي جمعت بين العلاج الديني والعلاج السلوكي. أما دراسة محمد حجار (١٩٩٢م) والتي بعنوان: (البنية المعرفية لخفض الشعور بالذنب وفتية منع الاستجابة لخفض أعراض الوسواس والأفعال القهرية) طبقت على شاب عمره الزمني (٢٤) عاماً يعاني من طقوس قهرية في الوضوء والصلاة. وقد أشارت نتائج الدراسة إلى تراجع الوسواس والأفعال القهرية وخفض القلق والشعور بالذنب. وتطابقت نتائج دراسة محمد سعفان (١٩٩٦م) مع هذه في فاعلية الاستراتيجية العلاجية السلوكية.

وفي دراسة مصطفى السعدني (١٩٩٦م) التي كانت عن العلاج الدوائي والعلاج السلوكي المعرفي طبقت على عينة تكونت من (٢٤) مريضاً، وقد بينت نتائج هذه الدراسة أن عقار سيناالوبرام وكلوميبرامين والعلاج السلوكي المعرفي قد خفضت درجات المرضى على مقياس الوسواس القهري بعد العلاج بالمقارنة إلى ما قبل العلاج.

وقد بينت دراسة سعاد البشر وصفوت فرج (١٩٩٩م) مدي فاعلة أسلوب العلاج السلوكي التعرض ومنع الاستجابة - مقارنة بالعلاج الدوائي في التغلب على أعراض الوسواس القهري.

وقد أسفرت نتائج دراسة محمد أحمد سعفان (٢٠٠٢م) التي بعنوان: (فعالية برنامج إرشادي انتقالي في خفض الوسواس والأفعال القهرية المرتبطة بالشعور بالذنب) عن وجود علاقة ارتباطية إيجابية دالة إحصائياً بين الشعور بالذنب والوسواس والأفعال القهرية، كما بينت النتائج أن التدخل الإرشادي القائم على إعادة الفهم والموجه إلى خفض الشعور بالذنب كأن له فعالية في خفض الشعور بالذنب.

منهج الدراسة:

أُستخدم منهج تحليل المحتوى في هذه الدراسة كمنهج يتناسب وطبيعة الدراسة.

^١ المرجع السابق، ص ٢٠٤.

وهناك عدة تعريفات لمنهج تحليل المحتوى وتبنت الدراسة الحالية التعريف الأشمل والأوضح في تحديد مفهوم تحليل المحتوى وهو كما ذكره الدكتور العساف وهو: تعريف بيرلن (عبارة عن طريقة بحث يتم تطبيقها من أجل الوصول إلى وصف كمي هادف ومنظم لمحتوي أسلوب الاتصال)؛ لأنه يؤكد على الخصائص التالية:

- ١- تحليل المحتوى لا يجري بغرض الحصر الكمي لوحدة التحليل فقط وإنما يتعداه لمحاولة تحقيق هدف معين.
- ٢- أنه يقتصر على وصف الظاهر وما قاله الإنسان أو كتبه صراحة فقط دون اللجوء إلى تأويله.
- ٣- أنه لم يحدد أسلوب اتصال دون غيره، ولكن يمكن للباحث أن يطبقه على أي مادة اتصال مكتوبة أو مصورة.
- ٤- أنه يعتمد على الرصد التكراري المنظم لوحدة التحليل المختارة^١.

مجتمع الدراسة:

هو عدد الاستشارات الخاصة بالوساوس المنشورة في موقع الشبكة الإسلامية، في الفترة ما بين (١١/٨/٢٠٠٢م - ٣٠/٩/٢٠١٤م) حددت فيه تصنيفين من بين خمسة تصنيفات للوساوس فكان عدد استشارات الوساوس الفكرية المتعلقة بالدين (٣٨٨) استشارة والمتعلقة بالعبادات (٢٤٢).

عينة الدراسة:

تم اختيار عينة عشوائية طبقية قوامها (١٨٨) استشارة منها ١١٦ استشارة عبارة عن أفكار وسواسيه مجردة متعلقة بالدين ٧٢ استشارة عبارة عن أفكار وسواسيه مصحوبة بأفعال متعلقة بالعبادات وهما يمثلان ٣٠% من العدد الكلي لكل من الصنفين. واستبعدت الاستشارات الخاصة بالطقوس الوسواسية والوساوس العامة الوساوس القهريّة والمتعلقة بالمرض والأفكار الأخرى.

الطريقة والإجراءات:

خضعت الاستشارات التي تم اختيارها عشوائياً - بطريقة العينة العشوائية الطبقية - إلى تحليل محتواها وفقاً للمتغيرات التالية:

رقم الاستشارة - تاريخها - عدد قراءها - اسم المستشار الذي أجاب عليها - نوع الإرشاد الذي قدم - نوع صاحب الاستشارة - عدد الآيات التي وردت فيها - عدد الأحاديث التي وردت فيها الإشارة إلى الآيات - الإشارة إلى الأحاديث - التوجيهات الإسلامية العامة مثل الحث على الصلاة وبر الوالدين وفعل الطاعات وتجنب المنكرات والحث على الأذكار وغيرها.

وتم تفرغ هذه البيانات في استمارة معدة لذلك وتم إدخالها في الحاسب الآلي ومن ثم تم حساب التكرارات والنسب المئوية وفقاً لمتطلبات الدراسة.

نتائج الدراسة ومناقشتها:

يعرض الباحثان النتائج التي توصلت لها الدراسة الحالية في شكل جداول تكرارية ونسب مئوية وفقاً لمنهج البحث الذي تبنته الدراسة.

^١ العساف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، ص ٢٤٥.

جدول رقم (١) يبين ترتيب أكثر الاستشارات قراءة في مجال الأفكار الوسواسية المتعلقة بالدين حتى تاريخ ٢٠١٤/٩/٣٠ م:

الترتيب	رقم الاستشارة	سنة النشر	صاحبها	عدد القراءة	نوع الإرشاد
١.	٢٦٥١٢١	٢٠٠٧	ذكر	١٣٧٣٧٦	ديني
٢.	٢١١٧٠٦٠	٢٠١١	ذكر	٦١٠٩٧	دوائي/سلوكي
٣.	٢٤٤٩١٤	٢٠٠٥	ذكر	٣٣٠٣٢	ديني
٤.	٢٧٩٦٧١	٢٠٠٨	ذكر	١٧٠١٠	ديني/دوائي
٥.	٢٨٣٤٢٦	٢٠٠٨	أنثى	١٥٦٦٦	دوائي/سلوكي
٦.	٢٣٤٥٩٥	٢٠٠٥	أنثى	١٤٥٠٦	دوائي/سلوكي
٧.	٢٨٢٢٧١	٢٠٠٨	أنثى	١١٦٩٠	ديني
٨.	٢١١٥٥٣٢	٢٠١١	أنثى	٩٨٠٢	دوائي/سلوكي
٩.	٢١٤٦٩٨٤	٢٠١٢	ذكر	٨٦٥٠	دوائي/سلوكي
١٠.	٢١٣٥٣٤٠	٢٠١٢	ذكر	٨٥٢٢	دوائي/سلوكي

جدول رقم (٢) يبين ترتيب أكثر الاستشارات قراء في مجال الوسواس المتعلقة بالعبادات حتى تاريخ ٢٠١٤/٩/٣٠ م:

الترتيب	رقم الاستشارة	سنة النشر	صاحبها	عدد القراءة	نوع الإرشاد
١.	٢٩٤٤٢١	٢٠٠٩	أنثى	١٨٥٩٦	دوائي/سلوكي
٢.	٢١١٢٢٧٠	٢٠١١	أنثى	١٢٧٦٧	دوائي/سلوكي
٣.	٢٥٣٩١٠	٢٠٠٦	أنثى	١٢٧١٣	دوائي/سلوكي
٤.	٢٧٧٣٩٨	٢٠٠٨	ذكر	٩٩٩٦	دوائي/سلوكي
٥.	٢٦١٣٥٩	٢٠٠٦	أنثى	٩٤١٦	ديني
٦.	٢١٠٢٧٩٥	٢٠١٠	أنثى	٩٣٢٢	دوائي/سلوكي
٧.	٢١١٩٤٦٢	٢٠١١	أنثى	٧٣٦٢	دوائي/سلوكي
٨.	١٦٧٩	٢٠٠٢	أنثى	٧٠٢٣	دوائي/سلوكي
٩.	٢١٤٢٥١٤	٢٠١٢	ذكر	٦٨٦٤	دوائي/سلوكي
١٠.	٢١٢٣٢٠٦	٢٠١١	ذكر	٦٢٤٣	دوائي/سلوكي

جدول رقم (٣) يوضح تكرار ونسب أنواع الإرشادات المقدمة في عينة الدراسة:

نوع الإرشادات	الوسواس المتعلقة بالدين		الوسواس المتعلقة بالعبادات		النسبة
	التكرار	النسبة المئوية	التكرار	النسبة المئوية	
سلوكي	١١	%٧٨,٦	٣	%٢١,٤	%١٦,٥
ديني	٣٨	%٧١,٧	١٥	%٢٨,٣	%٢٨,٦
دائي	٦	%١٠٠	٠,٠	%٠,٠	%٣,٨

النسبة	العدد الكلي	الوساوس المتعلقة بالعبادات		الوساوس المتعلقة بالدين		النصوص الواردة في الاستشارة
		النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	
٣٣,٣ %	٢١,٩ %	%٢١,٩	٢٣	%٧٨,١	٨٢	الآيات
٢٧,٩ %	١٥,٩ %	%١٥,٩	١٤	%٨٤,١	٧٤	الأحاديث
%١,٩	%٥٠	%٥٠	٣	%٥٠	٣	إشارة إلى الآيات
%٥,٤	٤١,٢ %	%٤١,٢	٧	%٥٨,٨	١٠	إشارة إلى الحديث
٣١,٤ %	٣١,٣ %	%٣١,٣	٣١	%٦٨,٧٥	٦٨	توجيهات إسلامية عامة
١٠٠ %	٢٤,٨ %	%٢٤,٨	٧٨	٢٣٧ %٧٥,٢٥		المجموع

%٥٢,٤	٩٧	%٤٤,٣	٤٣	%٥٥,٧	٥٤	دوائي/سوكي
%٤,٩	٩	%٣٣,٣	٣	%٦٦,٧	٦	ديني/دوائي
%٢,٧	٥	%٨٠	٤	%٢٠	١	ديني/سلوكي
%٠,٥	١	%١٠٠	١	%٠,٠	٠	ديني /سوكي/دوائي
%١٠٠	١٨٥	%٣٧,٣	٦٩	%٦٢,٧	١١٦	المجموع

جدول رقم (٤) يوضح تكرار ونسب النصوص الدينية لوردة في استشارات عينة الدراسة:

جدول رقم (٥) يبين تكرار ونسب صنفى الوساوس وفقاً لمتغير النوع:

النسبة المئوية	العدد الكلي	أفكار وسواسية معلقة بالعبادات		أفكار وسواسية معلقة بالدين		النوع
		النسبة المئوية	التكرار	النسبة المئوية	التكرار	
%٤٥,٧	٨٦	%٣٠,٢	٢٦	%٦٩,٨	٦٠	ذكر
%٥٤,٣	١٠٢	%٤٥,١	٤٦	%٥٤,٩	٩	إناث
%١٠٠	١٨٨	%٣٨,٣	٧٢	%٦١,٧	٧	المجموع

جدول رقم (٦) يبين تكرار ونسب صنفى الوساوس وفقاً للسنوات:

النسبة المئوية	العدد الكلي	الوساوس المتعلقة بالعبادات		أفكار وسواسية متعلقة بالدين		السنة
		النسبة المئوية	التكرار	النسبة المئوية	التكرار	
%٩	١٧	%٣٥,٣	٦	%٦٤,٧	١١	سبتمبر/٢٠١٤
%١٨,٦	٣٥	%٣٧,١	١٣	%٦٢,٩	٢٢	٢٠١٨

٢٠١٢	٢٩	%٧٠,٧	١٢	%٢٩,٣	٤١	%٢١,٨
٢٠١١	١٠	%٥٥,٦	٨	%٤٤,٤	١٨	%٩,٦
٢٠١٠	٢	%٥٠	٢	%٥٠	٤	%٢,١
٢٠٠٩	١	%٣٣,٣	٢	%٦٦,٧	٣	%١,٦
٢٠٠٨	١٠	%٦٢,٥	٦	%٣٧,٥	١٦	%٨,٥
٢٠٠٧	٨	%٥٧,١	٦	%٤٢,٩	١٤	%٧,٤
٢٠٠٦	٨	%٦١,٥	٥	%٣٨,٥	١٣	%٦,٩
٢٠٠٥	٦	%٥٤,٥	٥	%٤٥,٥	١١	%٥,٩
٢٠٠٤	٣	%٦٠	٢	%٤٠	٥	%٢,٧
٢٠٠٣	٥	%٧١,٤	٢	%٢٨,٦	٧	%٣,٧
أغسطس/ ٢٠٠٢	١	%٢٥	٣	%٧٥	٤	%٢,١
المجموع	١١٦	%٦١,٧	٧٢	%٣٨,٣	١٨	%١٠٠
					٨	

مناقشة النتائج :

يناقش الباحثان نتائج الدراسة بناء على الأسئلة التي صيغت في مشكلة الدراسة وهي:

السؤال الأول:

ما هي أكثر الاستشارات قراءة في مجالي الوسوس الفكرية المتعلقة بالدين والعبادات؟

يجيب على هذا السؤال البيانات الموضحة في الجدولين: (١) و(٢). فبعد تحديد أكثر عشرة استشارات قراءة من عينة الدراسة وترتيبها تنازليا بداية بالأكثر قراءة ثم الأقل . يلاحظ في الجدولين رقم (١) و(٢) أن الاستشارات في مجال الوسوس الفكرية المتعلقة بالدين نالت أكثر قراءة من الوسوس المتعلقة بالعبادات بصورة عامة مما يدل على اهتمامات القراء بموضوع الوسوس الفكرية ذات الطابع الديني وهي معظمها ترتبط بالمسائل العقائدية عن المولى سبحانه وتعالى وعن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. ومن جانب آخر نلاحظ أن أصحاب الاستشارات الأكثر قراءة هم الذكور في صنف الأفكار المتعلقة بالدين بنما نجد استشارات الإناث أكثر قراءة في صنف الوسوس المتعلقة بالعبادات ومحتوى معظم هذه الاستشارات في مجال الطهارة والصلاة مما يشير ربما إلى اهتمامات القراء من الإناث لهذا المجال من الاستشارات والله أعلم.

يلاحظ أيضا في الجدولين السابقين الذكر أن أنواع الإرشادات المقدمة موجودة في أكثر عشرة استشارات قراءة في مجال الوسوس المتعلقة بالعبادات هي الإرشاد الدوائي السلوكي ووجود الإرشاد الديني قليل في هذا المجال وبنسبة أكثر في مجال الأفكار الوسواسية المتعلقة بالدين مما يشير إلى أن توزيع الاستشارات المتعلقة بالوسوس الفكرية يجد حظا أوفر في الإرشاد الديني.

السؤال الثاني:

ما هي أكثر أنواع الإرشادات شيوعاً:

يكشف الجدول (٣) الإجابة على هذا السؤال فيلاحظ أن نسبة الإرشاد الدوائي السلوكي بلغت ٥٢,٤% يليها الإرشاد الديني ٢٨,٦% ثم الإرشاد السلوكي ١٦,٥% وأقلها الإرشاد الديني السلوكي الدوائي ٠,٥%. وهذا يؤكد أن اهتمام المستشارين كان أكثر بالإرشاد الدوائي السلوكي والإرشاد الديني. وتشير النتيجة أيضاً إلى قلة الإرشاد المتكامل إلى يضم كل من الإرشاد الدوائي والديني والسلوكي خاصة ما يتعلق بالوساوس القهرية المتعلقة بالدين (محمد، ١٩٩٠). ولكن قد نجد أن بعض المستشارين يعالجون تلك الفجوة بالإشارة إلى استشارات سابقة فيها إجابة مكتملة لإجاباتهم فيحيلون صاحب الاستشارة إلى أرقام تلك الاستشارات وهذا مجهود مقدر منهم. وتتفق هذه النتيجة مع دراسة كل من مصطفى السعدي (١٩٩٦) وسعاد البشر وفرج (١٩٩٩) في الاهتمام بالعلاج الدوائي والسلوكي للتغلب على أعراض الوسواس القهرية.

السؤال الثالث:

كم عدد الآيات والأحاديث والتوجيهات الإسلامية التي وردت في العينة المختارة من الاستشارات النفسية: بالنظر إلى الجو رقم (٤) الذي يوضح تكرار ونسب النصوص الدينية التي وردت في استشارات العينة نجد أن نسبة الآيات الكريمة كانت ٣٣,٣% من بين النصوص التي وردت تليها التوجيهات الإسلامية العامة حيث بلغت ٣١,٤% ثم الأحاديث الشريفة بنسبة ٢٧,٩% وتقل النسب في كل من الإشارة إلى الأحاديث وإلى الآيات ٥,٤% و ١,٩% على التوالي. وبمقارنة عدد الاستشارات المختارة وهي ١٨٨ مع العدد الكلي للنصوص الواردة وهي ٣١٥ فإن هذه النسب تعد مقبولة مما يعكس اهتمام المستشارين بتسيخ دعائم التأصيل والأسلمة في مجال الإرشاد النفسي وأنهم لم يغفلوا عن مخاطبة أصحاب المشكلات النفسية وفقاً لعقيدتهم وثقافتهم الإسلامية. وأيضاً ذلك يعزز ويدعم رسالة وأهداف الشبكة الإسلامية الرامية لتتقيف وتنوير الشباب المسلم بتعاليم الشريعة الإسلامية السمحاء.

السؤال الرابع:

أيهما أكثر استفساراً في التصنيفين الذكور أم الإناث؟

الجدول رقم (٥) يبين تكرار ونسب صنفَي الوسواس وفقاً لمتغير النوع ، فنجد فيه أن نسبة الذكور أكبر من نسبة الإناث فيما يتعلق بالأفكار الوسواسية المتعلقة بالدين (٦٩,٨% ذكور، ٥٤,٩% إناث) بينما نلاحظ أن نسبة إناث أكبر من نسبة الذكر فيما يتعلق بالوسواس المتعلقة بالعبادات (٤٥,١% إناث، ٣٠,٢% ذكور) وهذا يتطابق مع ما أُشير إليه سابقاً في الإجابة على السؤال الأول الخاص بترتيب الاستشارات الأكثر قراءة. وهذا يؤكد اهتمام الذكور بالأمور الفكرية والبحث عن الحقائق ربما من الناحية الفكرية المجردة. وفي المقابل يوضح أيضاً اهتمام النساء بالطهارة وبالنظافة أكثر يجعلهم عرضة للإصابة بالوسواس المتعلقة بذلك.

السؤال الخامس:

ما هو الأكثر تكراراً بالنسبة لصنفي الوسواس على مدى السنوات؟

بالنظر العامة في الجدول رقم (٦) نلاحظ أنه لا توجد زيادة طردية أو نقصان طردي في عدد الاستشارات لكل من الأفكار الوسواسية المتعلقة بالدين أو الوسواس المتعلقة بالعبادات على مدى الثلاثة عشر سنة إذا أنها تتأرجح بين الزيادة

والنقصان إذا بدأت قليلة في الأعوام (٢٠٠٢، ٢٠٠٤، ٢٠٠٣) ثم زادت في الأعوام (٢٠٠٥، ٢٠٠٦، ٢٠٠٨، ٢٠٠٧) ثم انخفضت في العامين (٢٠١٠، ٢٠٠٩) ثم أخذت في الزيادة مرة أخرى في الأعوام (٢٠١٣، ٢٠١٢، ٢٠١١). وعموماً يمكن القول بأن أكثر زيادة كانت في الأعوام الأخيرة مقارنة بالأعوام السابقة. وقد يرجع السبب لأسباب فنية متعلقة بتصنيف الاستشارات أو عدم وجود المستشارين في فترة محددة أو أن بعض أصحاب الاستشارات طلبوا حجب استشاراتهم.

المصادر والمراجع:

١. أبو هندي، الوسواس القهري من منظور عربي إسلامي، (الكويت: عالم المعرفة، ط١، العدد ٢٩٣، ٢٠٠٣م).
٢. الأغا بشار جبارة، دراسة سمات شخصية مرضى الوسواس القهري في البيئة الفلسطينية باستخدام برنامج تدريبي علاجي، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، (٢٠٠٩م).
٣. البشر، سعاد، صفوت فرج، المقارنة بين كل من العلاج السلوكي بأسلوب التعرض ومنع الاستجابة وبين العلاج الدوائي لمرض الوسواس القهري، دراسة نفسية، المجلد الثاني عشر، العدد الثاني، (القاهرة: ١٩٩٩م).
٤. جودة، آمال عبد القادر، الوسواس القهري وتداعياته على الصحة النفسية، بلسم مجلة جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، العدد: ٣٦٥، (القدس: مطبعة الأمل، ٢٠٠٥).
٥. حجار، محمد حمدي، العلاج النفسي الحديث للاضطراب الوسواسي الجبري، (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٢م).
٦. سعفان، محمد أحمد، فاعلية برنامج علاجي يتكون من المادة البناء المعرفي والواجبات المنزلية والتغذية الراجعة في علاج الوسواس والأفعال القهرية، مجلة كلية التربية، جامعة الرقازيق: العدد: ٢٧، الجزء أول، (مصر: ١٩٩٦م).
٧. سعفان، محمد أحمد، فعالية برنامج إرشادي انتقالي في خفض الوسواس والأفعال القهرية المرتبطة بالشعور بالذنب، مجلة كلية التربية وعلم النفس، جامعة عين شمس، العدد السابع والعشرون، الجزء الرابع، (مصر: مكتبة زهراء، ٢٠٠٢م).
٨. العساف، صالح محمد، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٨٩م).
٩. محمد عبد العلم إبراهيم، استشارات الشبكة الإسلامية - www.Islamweb.net
١٠. محمد، محمد عودة، بعض أشكال عصاب الوسواس القهري وعلاقته ببعض المعطيات الدينية، أبحاث ندوة علم النفس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (القاهرة: ١٩٩٠م).

تربية الطفل في ضوء النصوص القرآنية والسنة النبوية

د. بان حميد الراوي^١

ملخص البحث:

قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾. وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فالأطفال هم قرة العين وزينة الحياة وأمل المستقبل. ولا بد من الاهتمام بهم على المستوى الفردي والمجتمعي، وبكل شؤون حياتهم وقضاياهم، اهتماماً مباشراً من أجل ضمان مستقبل مشرق بإذن الله تعالى، لاسيما أن ما تفرضه العولمة اليوم من نمطية لا تبتغي فيه الحفاظ على الإنسانية، مهما تجملت بالنداء لحقوق الإنسان، ومهما ادعت سيرها في نهج تحقيق العدالة والمساواة، فإنها تسعى لعملية غسل دماغ الطفل، وعرض الثقافة الغربية عليه عن طريق الرسوم المتحركة. ولقد اهتمت الشريعة الإسلامية بهذا الموضوع في آيات القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والتي تطرقت إلى شؤون الأطفال كافة، وطريقة تربيتهم وكيفية التعامل معهم وحقوقهم الشرعية والأدبية، وأوصت الشريعة بالإحسان إليهم والرفق في التعامل معهم، وعدم تكليفهم بأمر فوق طاقتهم. وعليه فسوف يكون هذا البحث وصفيًا معتمدًا على استقراء الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، وبيان كيفية تربية الطفل تربية إيمانية وأخلاقية وفق القرآن الكريم والسنة النبوية، مبينا حقوق الطفل في الإسلام؛ لأن أطفال الأمة هم شباب المستقبل ورجال الغد، ورصيدها وضمنان بقائها؛ لأن الدعائم الجوهرية لحياة الإنسان تقوم على خواص الطفولته المبكرة.

توطئة:

قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، فالأطفال هم قرة العين وزينة الحياة وأمل المستقبل. ولا بد من الاهتمام بهم على المستوى الفردي والمجتمعي، وبكل شؤون حياتهم وقضاياهم، اهتماماً مباشراً من أجل ضمان مستقبل مشرق بإذن الله تعالى، لاسيما أن ما تفرضه العولمة اليوم من نمطية لا تبتغي فيه الحفاظ على الإنسانية، مهما تجملت بالنداء لحقوق الإنسان، ومهما ادعت سيرها في نهج تحقيق العدالة والمساواة، فإنها تسعى لعملية غسل دماغ الطفل، وعرض الثقافة الغربية عليه عن طريق الرسوم المتحركة، وهذا يمثل جانباً خطيراً من جوانب ما ندعوه بالغزو الثقافي في إطار ما يدعى بالعولمة الآن. ولقد أصبح الاهتمام بالأطفال مؤشراً حضارياً تتسابق فيه الشعوب والدول، وتسن العديد من التشريعات الخاصة بحماية الأطفال وضمن حقوقهم والدفاع عن قضاياهم، حتى أصبح هذا المجال مقياساً لتقدم المجتمعات ورفيها وتحضرها. ولقد اهتمت الشريعة الإسلامية بهذا الموضوع في آيات القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ التي تطرقت إلى شؤون الأطفال كافة وطريقة تربيتهم وكيفية التعامل معهم وحقوقهم الشرعية والأدبية، وأوصت الشريعة بالإحسان إليهم، والرفق في التعامل معهم، وعدم تكليفهم بأمر فوق طاقتهم. وعليه فسوف يكون هذا البحث وصفيًا معتمدًا على استقراء

^١ الأستاذ المشارك بكلية التربية للبنات بجامعة بغداد.

الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، وبيان كيفية تربية الطفل تربية إيمانية وأخلاقية وفق القرآن الكريم والسنة النبوية، مبينا حقوق الطفل في الإسلام؛ لأن أطفال الأمة هم شباب المستقبل ورجال الغد، ورصيدها وضمان بقائها؛ لأن الدعائم الجوهرية لحياة الإنسان تقوم على خواص الطفولة المبكرة.

المبحث الأول: تعريف مصطلحات البحث

يعد القرآن الكريم والسنة النبوية المعين الذي لا ينضب، والذي يسهل أن نستمد منه أسس وأهداف وأساليب التربية الإسلامية، ولعل أفضل ما يستشهد به تحليل الغزالي لجوهر القرآن؛ إذ قسمه إلى عنصرين أساسيين، يتصل أحدهما بالمعرفة ويشمل (٧٦٣) آية، ويتصل الآخر بالسلوك ويشمل (٧٤١) آية^١.

ولقد كرم الله تعالى حياة الإنسان، وجعل طفولته أشد تكريماً؛ لأنها الأساس لتلك الحياة، فبين الله عَلَيْكَ في مواضع كثيرة من القرآن مراحل تكوين الإنسان وبداية خلقه، والعناية الإلهية به، وتعد الطفولة أهم مراحل الحياة لما لها من أثر بالغ في حياة الأمة، فالأطفال لبنات يقوم عليها مستقبل، لذا أصبح من الضروري الاهتمام بمرحلة الطفولة، وقد تعددت وتنوعت الاتجاهات والجوانب التي تناولتها مفاهيم التربية الإسلامية، ومن هنا صار لزاماً أن نقف للتعريف بمفهوم التربية والطفل.

أولاً: تعريف التربية لغة واصطلاحاً:

تعريف التربية لغة: بالعودة إلى المعاجم نجد أن كلمة "تربية" من الجذر "ربا يربو" تحمل معنى الزيادة والنمو، وأربيته نميته^٢، وتعني أيضاً التنشئة^٣، والتعليم^٤، والتأديب^٥.

والتربية اصطلاحاً: هي "مجموعة التصرفات العملية والقولية التي يمارسها راشد بإرادته نحو صغير، بهدف مساعدته في اكتمال نموه، وتفتح استعداداته اللازمة وتوجيه قدراته؛ ليتمكن من الاستقلال في ممارسة النشاطات وتحقيق الغايات التي يعد لها بعد البلوغ، في ضوء توجيهات القرآن والسنة"^٦.

والتربية الإسلامية هي "تنمية جميع جوانب الشخصية الإسلامية والفكرية والعاطفية والجسدية والاجتماعية وتنظيم سلوكها على أساس من مبادئ الإسلام وتعاليمه، بغرض تحقيق أهداف الإسلام في شتى مجالات الحياة"^٧.

ثانياً: تعريف الطفل لغة واصطلاحاً:

الطفل لغة: تعني كلمة "طفل" لغوياً "الصغير من كل شيء أو المولود، وجمعها أطفال"^٨. وهو الرخص الناعم الرقيق؛ والطفل المولود ما دام ناعماً رخصاً^٩، والصبي يدعى طفلاً^{١٠} حين يسقط من بطن أمه ألى أن يحتلم^{١١}.

١ ينظر: دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ٥.

٢ ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٢، ص ٤٨٣.

٣ ينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ١٥٨.

٤ ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ٢، ص ٤٤.

٥ ينظر: الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، ص ٣٤٥.

٦ محب الدين أبو صالح وآخرون، دراسات في التربية الإسلامية، ص ١٣.

٧ ينظر: رشيد، التربية الإسلامية وأساليب تدريسها، ص ١.

٨ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مج ٢، ج ٤، ص ٧.

والطفل اصطلاحاً: "هو عالم من المجاهيل المعقدة كعالم البحار الواسع الذي كلما خاضه الباحثون، كلما وجدوا فيه كنوزاً وحقائق علمية جديدة، لازالت محتفية عنهم، وذلك لضعف وضيق إدراكهم المحدود من جهة، واتساع نطاق هذا العالم من جهة أخرى"^١، والطفولة "المرحلة من الميلاد إلى البلوغ"^٢.

المبحث الثاني

بيان حقوق الطفل

لقد كرم الله ﷺ الإنسان، وأهتم بطفولته لأنها أساس حياته، وجعل للأبناء منزلة خاصة في نفوس الآباء والأمهات ليضمن لهم حق الرعاية والحنان، وقد عدهم زينة الحياة إذ قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، كما عدهم نعمة عظيمة؛ إذ قال ﷺ: ﴿وَأَمَدُ دُنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الاسراء: ٦] وقد حدد القرآن الكريم في آيات متعددة حقوقاً للطفل ودعا إلى احترامها وحمايتها، وللطفل حقوق ما قبل الولادة وما بعدها ويمكن أن نوجزها بالآتي:

أولاً: حقوق الطفل قبل الولادة:

- ١- هناك حقوق عدة اقراها الاسلام للطفل حتى قبل ولادته وهو جنين في رحم أمه منها:
١- إباح الله ﷺ إفطار الأم الحامل في رمضان إن لم تستطع الصيام خوفاً على الجنين.
- ٢- تحريم الإجهاض؛ فلا يحق للمرأة أن تسقط جنينها، وإذا فعلت ذلك عمداً أثمت، وكان عليها الكفارة والعُرّة "وهي عشر دية الأم"^٣. كما لا يحق لها تناول الأدوية التي تشكل خطراً على الجنين مما يؤدي إلى إسقاطه أو تشويهه.
- ٣- تأجيل إقامة الحد على المرأة الحامل خوفاً على الجنين والحرص على إبقاء حياته^٤، كما فعل رسول الله ﷺ مع الغامدية عندما جاءته وتريد أن تكفر عن نفسها وقالت له: إنها زنت وأنها حامل، فقال لها ﷺ: «فأذهبي حتى تلدي»^٥.

^١ بنظر: ابن منظور، المعجم الوسيط، ص ٥٨٦-٥٨٧.

^٢ بنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٤٠١.

^٣ بنظر: سهام مهدي جبار، الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية، ص ٩٤.

^٤ بنظر: ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ص ٥٨٧.

^٥ العك، تربية الأبناء والبنات في ضوء القرآن والسنة، ص ٣٢.

^٦ بنظر: جبار، الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية، ص ١٤٧.

^٧ أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الحدود، باب من أعترف على نفسه بالزنى، ج ١١، ص ١٦٨، رقم ١٦٩٥.

ثانيا: حقوق الطفل بعد الولادة مابعد الولادة:

إذا كان الله عز وجل أعطى الطفل قبل ولادته {وهو جنين} حقوقا عدة، فمن المؤكد أن له حقوقا أكثر بعد ولادته، نوجزها بالآتي:

١- استحباب البشارة بالمولود {ذكرا كان أم أنثى} مما يدخل المسرة في القلوب^١، وقد ذكر القرآن الكريم البشارة بالمولود في مواطن عدة منها قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩].

٢- الأذان في أذنه اليمنى، والإقامة في أذنه اليسرى ليكون أول ما يقرع سمعه كلمات تعظيم الله والشهادة له بالوحدانية والدعوة إلى الإسلام، ولإبعاد الشيطان عنه^٢.

٣- تحنيك المولود -ومعناه مضغ التمرة، وذلك حنك المولود بها، وذلك بوضع جزء من الممضوغ على الأصبع، وإدخال الإصبع في فم المولود، ثم تحريكه يمينا وشمالا حتى يبلغ الفم كله بالتمر الممضوغ- لما للتمر من فوائد جمّة تفيد الطفل، وهذا من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولعل الحكمة من ذلك تقوية عضلات الفم، وليتهيأ المولود للرضاعة وامتصاص اللبن بشكل قوي^٣.

٤- تسمية الطفل وقد أوجب الإسلام عند اختيار الأسم أن يكون الأسم حسنا وذا معنى جيد لما له من تأثير نفسي كبير في الإنسان^٤.

٥- استحباب حلق رأس الطفل يوم سابعه والتصدق بوزنه على الفقراء والمستحقين؛ فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحسن بشاة، وقال: «يا فاطمة! احلقي رأسه، وتصدقي بزنة شعره فضة»^٥؛ وفي هذا حكمة صحة إذ إن الحلق يقوي الشعر، ويفتح مسام الرأس، فضلا عما في التصديق بوزن الشعر بقيمة الفضة من حكمة اجتماعية تتمثل في التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع الإسلامي^٦.

٦- العقيقة وهي الذبيحة التي تذبح للمولود يوم سبوعه عند حلق شعره، عن الذكر شاتان وعن الأنثى شاة. وهي سنة مؤكدة، وليس فرضا واجبا^٧.

٧- الختان^٨ وهو شعار الإسلام وعنوان الشريعة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الفطرة خمس أو خمس من الفطرة، الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب»^٩.

^١ ينظر: علوان، تربية الأولاد في الإسلام، ج ١، ص ٧.

^٢ ينظر: ابن قيم الجوزية، تحفة المودود بأحكام المولود، ص ٣٠.

^٣ ينظر: علوان، تربية الأولاد في الإسلام، ج ١، ص ٧٧.

^٤ ينظر: المصدر السابق، ج ١، ص ٨٤-٨٨.

^٥ ينظر: ابن قيم الجوزية، تحفة المودود بأحكام المولود، ص ٣٣-٨٠. والحديث رواه الترمذي، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للمباركفوري، كتاب الأضاحي، ج ٥، ص ٩٢، رقم ١٥١٩.

^٦ ينظر: علوان، تربية الأولاد في الإسلام، ج ١، ص ٩٩.

^٧ الختان قطع الثقلنة [أي الجلد] التي على رأس الذكر. وفي الاصطلاح الشرعي هو الحرف المستدير على أسفل الحشفة، أي موضع القطع من الذكر. ينظر: ابن قيم الجوزية، تحفة المودود بأحكام المولود، ص ١٢٤-١٦٧ (موضوع الختان).

٨- الرضاعة إلى الحولين والفظام، قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَسِّمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. قال سيد قطب: "والله يفرض للمولود على أمه أن ترضعه حولين كاملين لأنه سبحانه وتعالى يعلم أن هذه هي الفترة المثلى من جميع الوجوه الصحيحة والنفسية للطفل،... وللوالدة في مقابل ما فرضه الله عليها، حق على والد الطفل، أن يرزقها ويكسوها بالمعروف والمحاسنة، فكلاهما شريك في التبعه وكلاهما مسؤول أبحاث هذا الصغير الرضيع هي تمده باللبن والحضانة وأبوه يمدّها الغذاء والكساء لترعاها وكل منهما يؤدي واجبه في حدود طاقته"^٢.

٩- الحضانة والولاية؛ إذ إن "تربية الطفل في أحضان والديه تهيئ له كل أسباب النمو الصالح جسميا وعقليا وتعدّه نفسيا" لاستقبال الحياة والنجاح فيها"^٣.

المبحث الثالث

أهمية وأهداف تربية الطفل

أولا: أهمية تربية الطفل:

تعد التربية بصفة عامة تنمية ورعاية لكل جوانب الإنسان، سواء أكانت عقلية أم نفسية أم وجدانية أم جسدية أم خلقية، ومن هنا جاءت أهميتها، وبما أن الطفولة هي المرحلة الأساسية لما بعدها من مراحل، فإن تربية الأطفال في مرحلة الطفولة تعد تأسيسا للعادات الحسنة، وترسيخا للعقيدة السليمة في أعماق الفكر والقلب، وتثبيتها وتوجيهها إلى الأخلاق الفاضلة في تصرفاتهم أجمع؛ لذا "يجب أن يقوم بها الوالدان بشكل أساسي بالاستعانة بالمربين إن أمكن ذلك، وضمن المنهج الإسلامي الصحيح النابع من القرآن الكريم والسنة المطهرة، مع الاستفادة من تربية السلف وحسن تطبيقهم لهذا المنهج"^٤. وغرس العقيدة في النفوس هي أمثل الطرائق لإيجاد أفراد صالحين يستطيعوا أن يقوموا بدورهم كاملا في الحياة.

وقد حدد القرآن الكريم في آيات متعددة حقوقا للطفل ودعا إلى احترامها وحمايتها حمايتها، وأحاطه بأنواع من الكفالة المادية والمعنوية؛ لتضمن تربيته تربية صالحة، كما جعل للطفل حقا في التربية والتوجيه، وجعل ذلك من مسؤولية الآباء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] تلك الوصايا من الوالد لابنه والتي احتوت على العديد من القيم الدينية والخلقية منها: الاخلاص، والإيمان بالله إذ هو مصدر السلوك الإنساني، والتواضع والاعتدال وغيرها من القيم التربوية التي ساقها الله تعالى في كتابه لتكون زادا للمربي.

^١ أخرجه البخاري، فتح الباري شرح البخاري، كتاب اللباس، باب قص الشارب، ج ١، ص ٤٧٣، رقم ٥٨٨٩.

^٢ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٥٤.

^٣ جبار، الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية، ص ١٦٣.

^٤ ينظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ٩٩.

^٥ خير فاطمة، منهج الإسلام في عقيدة الناشئ، ص ٢٠.

كما حدد ﷺ ضوابط أخلاقية للطفل لها تأثير كبير في شخصيته المستقبلية، إذ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ أَذْنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور: ٥٨].

ولقد نالت الطفولة نصيبها الأوفر من الأهتمام في منهج النبي ﷺ وسنته؛ إذ نجد أحاديث كثيرة تخص الطفل، إما بإقرار حق له، أو بتعيين واجب عليه، وما ذلك إلا اعتراف بطفولته، وما فيها من حاجات، وعددها الأساس في بناء شخصيته المتكاملة، فكان اهتمام النبي ﷺ قبل تكوينه بحث الأبوين على حسن اختيار كل منهما للآخر، وحث الزوج على حسن معاملة الزوجة، وحق الطفل في الحياة مؤكداً على ما جاء في القرآن الكريم من تحريم وأد البنات؛ فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعا وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»^١. ويقرر كذلك حقوقاً للطفل كالانفاق عليه من قبل وليه على أن يكون ذلك بالعدل بينه وبين أخوته لما له من آثار طيبة فب سلوكه في المستقبل، كما يقر الرسول ﷺ حقوقاً اجتماعية كاختيار اسم الطفل، والحث على كفالة اليتيم، والتأكيد على حق الطفل في التربية إذ يقول ﷺ: «لأن يؤدب الرجل ولده أو أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع»^٢.

وإيماناً من الرسول ﷺ بشخصية الطفل المستقلة؛ فقد كان يحترمه بالقاء السلام عليه وباستئذانه وبالنزول إلى مستواه في اللعب^٣. والنصوص الدالة على فضل تربية الأطفال كثيرة لاسيما أن تربية الطفل جزء من تربية الفرد الذي يسعى الإسلام إلى إعداده وتكوينه ليكون عضواً نافعاً وإنساناً صالحاً في الحياة، بل هو مدار بعثة النبي ﷺ؛ حيث قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]؛ والتركية هي التربية وأعظم بل أسمى ما يرى عليه الفرد تحقيق العبودية لله رب العالمين وإخلاص العبادة له والسلامة من الشرك، قال ابن كثير رحمه الله: "ويزكئهم: يطهرهم من رذائل الأخلاق وذنس النفوس وأفعال الجاهلية"^٤؛ لذا اهتم العلماء المسلمون بتربية الأولاد، ويتضح ذلك من مؤلفاتهم وكتبهم سواء ما يتعلق بأهمية التربية أو بيان وسائلها أو ثمراتها؛ وبعد يمكننا القول: إن الطفولة قد نالت اهتماماً ملحوظاً في القرآن والسنة النبوية بمجالاتها أجمعالتكوينية، والجسدية، والروحية، والخلقية وسنعرض لاحقاً لذلك في بحثنا هذا.

ثانياً: أهداف التربية وغايتها:

وقد ركزت التربية وفي مختلف الحضارات على مرحلة الطفولة، لأهميتها في بناء شخصية الفرد، وفي عصرنا الحالي، تتعاطم أمام الطفل المسلم وفي مختلف بقاع الأرض تحديات كثيرة، شملت الهوية والثقافة والدين والحرية، بالإضافة إلى تحديات المعرفة والتطور التكنولوجي والتعليم، ورغم أن التربية المعاصرة قد حددت المتطلبات والمعايير والأفكار والافتراضات التربوية لكافة جوانب نمو الطفل، إلا إنها لا زالت تعاني من أوجه قصور عديدة، خاصة فيما يتعلق بتحقيق حالة من التوازن

^١ أخرجه مسلم في صحيحه، ج ٢، ص ٦١.

^٢ أخرجه الترمذي في سننه، ج ٤، ص ٣٣٧.

^٣ ينظر: أسماء عبد الله السلطان، تربية الطفل في ضوء القرآن والسنة، ص ٦٣.

^٤ القاسم: خالد بن عبد الله بن عبد العزيز، أهمية تربية الأولاد في الإسلام (مقال)، شبكة الألوكة. ٢٧ / ١١ / ٢٠١٢ م.

داخل شخصية الطفل، بالإضافة إلى افتقارها إلى الجانب الروحي، الذي يشكل صمام الأمان لتربية الطفل في كافة مراحل نموه؛ ومن ثم فإن التربية الإسلامية أصبحت - أمام هذه التحديات - مطالبة بإعادة النظر في فلسفة التربية وأهدافها وفق منهج إسلامي قائم على القرآن والسنة النبوية وأقوال المرين من سلفنا الصالح واجتهاداتهم^١، والهدف من ذلك إعداد إنسان صالح، فاضل ذي خلق كريم وعزيمة قوية، قادر على التلازم مع حياة المجتمع الذي ينتمي إليه، وممارسة دوره النافع فيه ليكون بحق خليفة الله في الأرض، لذلك ينبغي أن يكون هذا الإعداد شاملاً لجوانب حياته كافة، الخاصة والعامة، تربية تجلب النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة^٢، يقول تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [التقصص: ٧٧]. ونستطيع أن نضع ثلاثة أهداف رئيسة للتربية الإسلامية:

الأول: بناء الإنسان المسلم ذي الشخصية المتكاملة، وذلك بتحقيق النمو الجسمي، والعقلي، والروحي، والأخلاقي، والاجتماعي^٣.

الثاني: التنمية العلميّة، وذلك باكتشاف المواهب والقدرات، وتنميتها، وتعليمه العلوم المناسبة له، لا سيما العلوم الشرعية، وما يعيل إليه من العلوم الأخرى المفيدة للأمة.

الثالث: إخراج أمة مسلمة؛ متناصرة، متناصحة، مجاهدة، حاملة رسالة الإسلام إلى العالم.

وقد ذكر بعض الباحثين أهدافاً تفصيلية كثيرة، وهي مندرجة تحت الأهداف الثلاثة، إما خادمة للشخصية المسلمة بجوانبها المختلفة، أو خادمة للنمو العلمي، أو للأمة المسلمة^٤.

ومصادر اشتقاق الأهداف في التربية الإسلامية ثلاثة، هي:

١- الوحي الإلهي: المتمثل في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

٢- المجتمع المسلم: الذي يجب التعرف على احتياجاته، ومتطلباته، وظروفه، وأحواله المتغيرة؛ لتحديد الأهداف التي تناسبه.

٣- الفرد المسلم: الذي يجب التعرف على طبيعته، وميوله، ورغباته، ومواهبه؛ لوضع الأهداف التي تناسب ذلك^٥.

عليه فالتربية تتفاعل مع المتغيرات المختلفة وتتأثر بها وتتأثر فيها. وهي القادرة على كسب النشئ القدرة على التكيف مع تلك المتغيرات مع رسوخ الثوابت الإسلامية؛ لذا فإن الغاية من التربية الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة النبوية هي تحقيق العبودية لرب العالمين والتي هي الحكمة من خلق الإنسان، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبها تتعلق نجاته وتحقق سعادته كما قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠] وتحت هذه الغايات تندرج أهداف التربية الإسلامية كافة.

^١ ينظر: شاهين محمد عبد الفتاح وشندي إسماعيل، تربية الطفل في ضوء السنة النبوية، ص ٣.

^٢ ينظر: هداية سناء حسن، تربية الطفل وأساليبها في التشريع الإسلامي، ص ٥١.

^٣ ينظر: القاسم، أهداف التربية الإسلامية وغايتها، (مقال على النت - شبكة الألوكة).

^٤ ينظر: بالجني، أهداف التربية الإسلامية وغاياتها، ص ٣٨.

^٥ ينظر: الكاتب مجهول، أهداف التربية ومقاصدها، (مقال على موقع جامعة أم القرى).

ثالثاً: أنواع التربية:

يجد الباحث في التربية أنها تشمل أنواعاً متعددة يمكن حصرها بما يأتي:

١. التربية الإيمانية: وهي ربط الطفل منذ نعومة أظفاره بأصول الإيمان وأركانه، وترسيخها في خوالج نفسه، إبتداءً بوجود الله تعالى وصفاته، مروراً بعظمة كلام الله ﷻ وإعجازه وبيانه بالسنة المشرفة، وانتهاءً بالاعتقاد على تطبيق أركان الإسلام، وتمثل مبادئ الشريعة الغراء حتى تتسامى روحه إلى الأفق الأعلى، بإيمان صادق، ويقين ليس بعده كفر^١، يقول الله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]. ويروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من مولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»^٢ أي أن كل مولود يولد على الدين الحق وهو دين التوحيد الإسلام.

٢. التربية الخلقية: وهي تنشئة الفرد على المبادئ الخلقية والفضائل السلوكية والوجدانية التي توجه سلوك الطفل من وقت تمييزه، حتى يعتاد الصّلاح وترسخ في نفسه القيم، فتكون دافعاً له إلى كل فضيلة ووعناً له على كمال دينه ومروءته وشخصيته، ومنها برّ الوالدين واحترامهم، والتزام الأدب في التعامل مع الغير إبتداءً بالأسرة، وانتهاءً بمختلف المؤسسات الاجتماعية والأفراد^٣، وقد وصف الله تعالى نبيه الكريم ﷺ بذلك فقال ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ اللَّهُ﴾ [القلم: ٥].

٣. التربية البدنية: ويتم من خلالها تنمية قدرات الفرد البدنية، وزيادة كفاءته الحركية، الأمر الذي يعينه على تحمل أعباء الحياة ومتطلباتها، فالعقل السليم في الجسم السليم^٤، وقد قال ﷻ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»^٥.

٤. التربية العقلية: وهي تنمية المدارك الفكرية والقدرات العقلية لدى الطفل، وذلك عن طريق توجيهه نحو اكتساب المعارف الشرعية والعلمية والثقافية والحضارية التي تساهم في تحقيق نضجه الفكري المدعم بالحكمة والمنطق والسداد في الرأي^٦، والآيات القرآنية الداعية إلى إعمال العقل والفكر، وإلى التبصر في الخلق كثيرة، قال تعالى ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

٥. التربية الوجدانية: وهي تربية المشاعر الإنسانية لدى الفرد من فرح وحزن وقلق واطمئنان، وتوجيه الأحاسيس الداخلية من لذة وألم، وضبط العواطف والإنفعالات الوجدانية من حب وكره، وهذا النوع يتجلى في المعاملة الودية للطفل، وإشعاره بالحبّ والرعاية والعطف واحترام الذات^٧ وقد تجلّى ذلك في سلوكه ومعاملته صلى الله عليه وسلم وعن أبي هريرة

^١ ينظر: علوان، تربية الأولاد في الإسلام، ج ١، ص ١٤٧.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلّى عليه، رقم ١٣٥٨. ينظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح البخاري، ج ٣، ص ٣١٧.

^٣ ينظر: علوان، تربية الأولاد في الإسلام، ج ١، ص ١٦٧.

^٤ ينظر: الزحيلي، الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، ص ٢٨.

^٥ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز: ١٦، ص ٣١٥.

^٦ ينظر: الزحيلي، الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، ص ٣٣.

^٧ ينظر: حسين، محمد، التربية في الإسلام، ص ٢٥٠.

ﷺ قال: قَبِلَ رسول الله ﷺ الحسن ﷺ وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إنَّ لي عشرة من الولد ما قبِلت منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^١.

٦. التربية الاجتماعية: تربية الطفل منذ نعومة أظفاره على التكيف مع المجتمع بمختلف مؤسساته، والالتزام بالآداب الاجتماعية، والفضائل الخلقية التي ترتبها العناصر الراشدة فيه، وتعريف الطفل بحقوق المجتمع والقوانين والنظم السائدة فيه حتى يتمكن من التعايش مع أفرادها على أسس المحبة والاحترام والأخوة والتعاون، دون أن يخل ذلك بجراته في إثبات ذاته، بعيداً عن التردد أو الخجل^٢، قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^٣.

٧. التربية المهنية: تدريب الطفل على الكسب الضروري وتعليمه الصنائع التي تليق بهمن أجل تأمين المتطلبات المادية للحياة^٤، وغالباً ما تخضع هذه الوسائل والطرق لتغير الزمان والمكان، وتراوح بين القدم والحداثة كالزراعة والصناعة والتجارة وتعلم المعلوماتية والحاسوب واللغات وغيرها^٥، ويجوز للوالد إحارة ولده واستخدامه تدريباً له وتأديباً^٦. وقد أمر الله تعالى بالسعي في طلب الرزق، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

٨. الأدبية: تتجلى في إتقان علوم اللغة العربية، لتقويم لسانه، وإصلاح بيانه^٧، ويعلم رواية الرجز والقصيد، ومن الشعر ما انطوى على فضل الأدب ومكارم الأخلاق، وأركان علوم اللسان العربي تتمثل في اللغة، والنحو، والبيان، والأدب^٨، وبحفظ القرآن الكريم تحفظ اللغة العربية، ولولاه لاندثرت منذ زمن بعيد، وهو معجزة النبي ﷺ في فصاحته وبلاغته وتناسقه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٩. التربية الجمالية: إيقاظ شعور الفرد بجمال الكون، والتعبير عن ذلك بإحساس مرهف، يبعث فيه الشعور بالارتياح والسرور، ويتذوق الجمال، ويسعى للحفاظ عليه والعناية به، فيرتقي وجدانه، وتتهذب انفعالاته، لتنعكس على نفسه بمتعة ذات طابع خاص^٩، وقد تحدث القرآن عن الزينة والجمال، ولفت نظر الإنسان إلى ما في الكون من جمال وروعة وفن وإبداع حتى تكون دليلاً على قدرة الله وعظمته، فهو سبحانه جميل يحب الجمال وقد أمر الإنسان بالتجمل فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

^١ البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ج ٣، ص ٥٩٩٧، رقم ١٠٧٨.

^٢ ينظر: حسين، تربية الأولاد في الإسلام، ص ٣٥٧.

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج ١٦، ص ١٤٠.

^٤ ينظر: الصاوي، بلغة السالك لأقرب المسالك على الشرح الصغير، ج ٢، ص ٢٥٤.

^٥ ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص ٧٧.

^٦ ينظر: الأسروشي الحنفي، جامع أحكام الصغار، ج ١، ص ١٣٢.

^٧ ينظر: الزحيلي، الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، ص ٢٩.

^٨ ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص ٦٢٤.

^٩ ينظر: الزحيلي، الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، ص ٣٤.

١٠. التربية الجنسية: وتعني تعليم الولد وتوعيته ومصارحته بالقضايا المتعلقة بالجنس والمتصلة بالزواج حتى يكون على بينة من الحلال والحرام، ومن كل ما قد يؤدي إليهما، فيتحكم بذاته ويضبط نوازعه بعيداً عن الانسياق وراء الشهوات، والتخبط في سبل الغواية والانحلال^١.

وهذا النوع من التربية يتم بشكل تدريجي مرحلي، فيبدأ بالجاز إلى التلميح، كلما توسعت مدارك الطفل وظهرت نباهته، لكن لا ينتقل إلى التصريح إلا بعد مؤانسة الرشد منه، وبلوغه مرحلة التكليف. وينبغي تدريب الطفل على التزام المبادئ الإسلامية في الإستئذان، وغض البصر، والتفريق في المضاجع والعفة والحياء، والغيرة على المحارم. ومن الضروري في هذا الصدد إبعاد الطفل عن المثيرات الجنسية، وإشغاله بما هو نافع له من الأنشطة العلمية والثقافية والرياضية على اختلاف أنواعها^٢.

المبحث الرابع

أساليب التربية ومزاياها في ضوء الكتاب والسنة

أولاً: أساليب التربية:

تنوع الأساليب التربوية لتحقيق الهدف العام للتربية، ويمكن إجمالها فيما يأتي:

١. القدوة الحسنة: تعد القدوة من أهم الأساليب التربوية التي ينعكس تأثيرها في شخصية الفرد بشكل واضح، ولها دور بارز في تعديل السلوك على وفق القيم والفضائل الخلقية، ويعود السبب في ذلك إلى ميل الطفل نحو تقليد الآخرين، ومحاكاتهم في أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم، وهذا يتطلب من المربي تمثل الإستقامة في سلوكه، وترجمة قوله إلى فعل حتى يكون أبلغ أثراً وأعمق انطباعاً في النفس، وهذا موضع اتفاق بين علماء التربية المسلمين وغيرهم^٣، والأصل في ذلك قوله تعالى **وَعَلَىٰ**: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٢. الوعظ والإرشاد: يعد النصح والتوجيه المباشر أسلوباً مهماً في التربية، ويختلف تأثيره باختلاف حال النفوس في الإقبال والنفور، والسهولة والعناد، ومن المعلوم أن نفس الطفل أكثر مرونة، وألين عريكة وأسرع اعتياداً من الكبير، فكان تعاهده بالتربية والتأديب واجب كل من يتولى أمره؛ وقد روي عن عبد الله بن مسعود **رضي الله عنه** أنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحولنا الموعظة في الأيام كراهة السامة»^٤.

٣. التعويد: وهي تكرير الشيء دائماً أو غالباً على نهج واحد من غير علاقة عقلية، وقد تأخذ طابعاً اجتماعياً، فترتضيها عقول الناس، ويعودون إليها مرة بعد أخرى^٥. والإنسان في الغالب يكون إلى ما اعتاد أميل وعليه أحرص وبه أشد تمسكاً، والصغير أسلس قيادة، وأحسن مواتاة وقبولاً، وهذا يرتب على المربي تعويد الطفل على التزام القواعد

^١ ينظر: علوان، تربية الأولاد في الإسلام، ج ١، ص ٤٩٩.

^٢ ينظر: الزحيلي، الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، ص ٣٢.

^٣ ينظر: النحلوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ٢٥٦.

^٤ ينظر: حوامدة، تربية الأطفال في الإسلام، ص ١٠٣.

^٥ مسلم، الصحيح، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الاقتصاد في الموعظة، ج ١٧، ص ١٦٣.

^٦ ينظر: مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٨، ص ٤٤٣.

والمبادئ الإسلامية حتى ينساق وراء أدائها بشكل آلي، وقد قال ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ»^١، وليس ذلك إلا بهدف تعويدهم على التزام الطاعة واجتناب المعصية.

٤. إثارة العاطفة: تثار العواطف بإيقاظ المشاعر الوجدانية، وتحريك العواطف الداخلية تجاه الشيء المتعلم بحيث يكون رديفاً للفرد نحو الالتزام به والثبات عليه، وتنوع الوسائل المستخدمة في الترغيب بالأمر وإثارة الاهتمام به، كالحوار والقصة وضرب الأمثال وغيرها، وهذا أسلوب قرآني بليغ الأثر في تهذيب النفس وتوجيهها، قال تعالى: ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

٥. التربية بالتعليم: يعد التعليم وسيلة خادمة للتربية، وجزءاً مهماً منها، وهو في الغالب يقترن بالدليل العقلي والبرهان المنطقي، ويراعى فيه التدرج مع استخدام الوسائل الحديثة والحسية بغية تقرب المعنى وتزويد الفرد بأرضية علمية وثقافية واسعة^٢.

٦. الترغيب والترهيب، الترغيب: وعد يصاحبه تحبيب الإنسان وإغراؤه بإنجاز عمل ما، يجني من ورائه مصلحة وخيراً، أما الترهيب: فهو وعيد الإنسان بالعقوبة، وتحذيره من الأعمال المحرمة، وما من شك أن استخدام مثل هذا الأسلوب له أهميته، لا سيما في مراحل الطفولة الأولى، وهو مستقى من الفطرة الإنسانية، إذ أن لدى الطفل ميلاً طبيعياً نحو حب الثناء والمدح، كالرغبة في كل ما يجلب له اللذة والسرور، دون التفكير في العاقبة، وهو أيضاً يبغض اللوم، وكل ما يجلب له الشعور بالألم^٣.

٧. الثواب والعقاب: حظي هذا الجانب باهتمام علماء التربية المسلمين كما اعتمده علماء النفس في الغرب، ومن صور الثواب المادي: تقدم ما له قيمة مادية في ظاهره، وهو معنوي في تأثيره أيضاً وذلك كالمكافآت المالية والجوائز نحو الدمى، والكتب، والأدوات المدرسية والرياضية والفنية والألعاب، والهدايا المختلفة، وقد تكون معزراً غذائياً، وفق ما عبر عنه علماء النفس. أما العقاب: وهو إنزال العقوبة الفعلية بالإنسان المقصر أو المسيء للأدب، فهو ضروري في بعض الأحيان لتقويم سلوك الطفل وتنمية الشعور بالمسؤولية لديه، شرط ألا يكون تلقائياً متكرراً بحيث يصبغ علاقة الولد بأبويه أو معلميه؛ لأن التعنيف المتكرر يفقد تأثيره شيئاً فشيئاً، بل وقد ينتج منه أشكال من السلوك الخاطيء، كالاستهزاء مثلاً^٤.

على أن من الواجب هنا أن لا نغفل الأساليب التربوية الخاطئة في تنشئة الطفل وحكم الشرع فيها، والتي يمكن أن نلخصها بما يأتي:

١- الأسلوب التسلطي: يقوم هذا الأسلوب على تحكم الوالدين في أفعال الطفل وأقواله، والتحكم برغباته بطريق الجبر والإكراه، وتوجيه سلوك الطفل بما يتوافق مع رغباتهم الشخصية. ومن أمثلته إجبار الوالد طفله على ارتداء لباس معين، أو تناول ما يكره، ومنه التحكم بنوع الدراسة أو العمل أو اللعب أو ما شابه. وقد أثبتت التجارب والدراسات

^١ أخرجه الترمذي، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الصبي بالصلاة، ج٢، ص١٢٦، رقم ٤٠٧، وقال: حديث حسن صحيح.

^٢ ينظر: سعيد علي، أصول الفقه التربوي الإسلامي، ص ٤٤١.

^٣ ينظر: البابطين، أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، ص ٣٥.

^٤ ينظر: المصدر السابق، ص ٦٤.

أن لمثل هذا الأسلوب آثاره السلبية على شخصية الطفل إذ يقتل فيه روح الإبداع والإبتكار، ويفقده القدرة على إبداء الرأي والمناقشة واتخاذ القرار، والشعور الدائم بالخجل والقلق والتوتر، وقد يؤدي به إلى العناد والعدوانية.

٢- الإهمال: وهو تجاهل الوالدين الطفل بعيداً عن الإشراف والتوجيه لسلوكه ترغيباً وترهيباً، فضلاً عما قد يرافقه من السخرية التي تؤدي إلى إصابة الطفل بالإحباط، وقد يكون هذا التجاهل مقصوداً أو غير مقصود، مادياً أو عاطفياً، كما في حال الإنشغال عن الطفل بالعمل أو الملهيات ونحوها^١.

٣- الإفراط في الحماية: وتكون بالتساهل مع الطفل وتشجيعه على إشباع رغباته، وممارسة أشكال السلوك دون مراعاة الضوابط الدينية أو الخلقية أو الاجتماعية، وهذه الحماية قد تتعدى حدود الآخرين، وذلك في حال تعرضهم للإيذاء من الطفل نفسياً أو جسدياً. ومن المعلوم أن لهذا الأسلوب آثاره السلبية على شخصية الطفل، حيث ينشأ أنانياً غير آبه بأحد، حريصاً كل الحرص على تلبية رغباته والحصول على كل ما يريد، ويصبح عاجزاً عن الإعتماد على نفسه محتاجاً إلى معونة الغير، ويعاني في الغالب من سوء التكيف^٢.

٤- الإفراط في الشدة: وتعني تعريض الطفل للعقاب المستمر إزاء ما يصدر عنه من أنواع السلوك المختلف، ويرافق ذلك في الغالب عدم التناسب بين الذنب والعقاب الذي يتم إيقاعه^٣. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن رضي الله عنه وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^٤.

٥- المفاضلة بين الأطفال: يخطئ كثير من الآباء والأمهات عندما يفاضلون بين أبنائهم، ويعمدون إلى التمييز بينهم في المعاملة أو الإنفاق أو غيره، ويكون ذلك لاعتبارات شخصية أو متعلقة بالطفل المميز، جنسه، تربيته بين الأولاد، صفاته الخلقية أو الخلقية. وأيا كان سبب التمييز فلا مبرر له، إذ الضرر المترتب عليه يفوق نفعه، ومن أهم آثاره التفكك الأسري، وزرع بذور الأحقاد والضغائن في قلوب الأولاد تجاه بعضهم البعض وتجاه والديهم، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعدل بين الأولاد فقال: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»^٥، وهذا حديث عام في الإنفاق وغيره.

٦- التوبيخ المستمر: إشعار الطفل بالذنب بشكل دائم، وذلك من خلال تعريضه للنقد المستمر، وتتبع أخطائه والإكثار من لومه، وهذا الأسلوب من شأنه أن يجعل الطفل انطوائياً متقوقعاً حول ذاته، كثير التردد والخوف إزاء أي أمر، وقد ينشئ لدى الطفل ردود فعل مختلفة كالإستهزاء واللامبالاة بسماع الملامة وركوب القبائح وقد يدفع به إلى المعاندة والنكايه لاسيما عند المكاشفة^٦، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد الناس عن ذلك، فقد ورد عن أنس رضي الله عنه أنه قال: "خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، والله ما قال: أف، ولا: لم صنعت؟، ولا: ألا صنعت"^٧.

^١ ينظر: المصدر السابق، ص ١٠٠.

^٢ ينظر: فوستير، تربية الشعور بالمسؤولية عند الأطفال، ص ٦٦، ٧٠.

^٣ ينظر: عبد الرحمن، أطفال المسلمين، ص ٩٥.

^٤ البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانفته، ج ٤، ص ١٠٧٨، رقم ٥٩٩٧.

^٥ أخرجه مسلم، كتاب الهبات، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة، ج ١١، ص ٦٥.

^٦ ينظر: ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص ٦٩.

^٧ أخرجه البخاري في كتاب الأدب.

٧- التذبذب في المعاملة: ويعني التقلب وعدم الإستقرار في تعامل الأبوين مع الطفل، لاسيما في استخدام أسلوب الثواب والعقاب، فيعاقب على القيام بسلوك معين أحيانا، ويثاب على السلوك ذاته أحيانا أخرى، مما يجعل الطفل في حيرة من أمره في صحة ما ارتكب أو خطئه. وينشأ عن استخدام هذا الأسلوب في الغالب شخصية متقلبة تتعامل مع الآخرين بشكل مزدوج^١.

ثانيا: مزايا الأساليب التربوية وفق الشريعة الإسلامية:

ينهل النظام التربوي الإسلامي من تعاليم الشرع الإسلامي القويم، ساعيا من وراء ذلك إلى إعداد فرد صالح سوي يسعى إلى الكمال في جوانب حياته كافة، كما يمتاز من غيره من الأنظمة بمزايا متعددة، يمكن إجمالها فيما يأتي:

١- المربي قدوة: تؤثر القدوة في شخصية الفرد بشكل واضح، ولها دور بارز في تعديل السلوك وفق القيم والفضائل الخلقية، ويعود السبب في ذلك إلى الميل الفطري للطفل إلى تقليد الآخرين، ومحاكاتهم في أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم، وهذا موضع اتفاق بين علماء التربية المسلمين وغيرهم^٢، والأصل الشرعي للقدوة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وغالبا ما ينتهي هذا الأسلوب بالممارسة العملية للحياة، والدروس العملية للفضيلة والقيم والأحكام الشرعية فيعتمد الطفل على نفسه، ويستفيد من تجاربه.

٢- الوسطية والاعتدال: يمتاز النظام التربوي في الإسلام بالوسطية والاعتدال، فهو ينبذ الشدة المفرطة، كما ينافي التساهل المبالغ فيه، وهو يعتمد الحزم في التعامل مع الطفل، ويخاطبه على قدر عقله، كما يتيح الفرصة أمامه لإصلاح الخطأ^٣.

٣- اعتماد الحوار البناء يحترم الأسلوب التربوي الإسلامي حقوق الجميع، ويتيح الفرصة لكل فرد ليعبر عن رأيه، بعيداً عن الجبر والإكراه، ويعتمد النصح والتوجيه المباشر وغير المباشر، وتنوع الوسائل المستخدمة في ذلك، كالحوار والقصة وضرب الأمثال وغيرها، وهذه من الأساليب القرآنية ذات الأثر البالغ في تهذيب النفس وتوجيهها.

٤- سياسة التشجيع والتحفيز والثواب والعقاب للطفل: ترتبط الأوامر والنواهي في التربية الإسلامية بسياسة التشجيع والتنفيذ، والإنذار والتبشير والترغيب والترهيب، والثواب والعقاب، والإقبال والإحجام. ولا خلاف بين علماء التربية المسلمين في اعتماد الثواب كأسلوب أولي في تهذيب السلوك وتوجيهه على المدى البعيد، وذلك من خلال تنمية الحوافز الإيمانية لدى الفرد، وزيادة دوافعه نحو التعلم والعمل الجاد^٤.

وبعد: تهدف التربية في التشريع الإسلامي إلى تنمية المدارك الفكرية والقدرات العقلية لدى الطفل، وتوجيهه نحو اكتساب المعارف الشرعية والعلمية والثقافية والحضارية التي تساهم في تحقيق نضجه الفكري المدعم بالحكمة والمنطق والسداد في الرأي؛ وقد تبين مما سبق أن التربية في التشريع الإسلامي لا تقتصر على جانب محدد من حياة الفرد، وإنما تشمل جانب حياته كافة، العامة والخاصة.

^١ ينظر: وولف، الإساءة للطفل، ص ٦٥.

^٢ ينظر: النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأسايبها، ص ٢٥٦.

^٣ ينظر: عبد الرحمن جمال، أطفال المسلمين كيف رباهم النبي صلى الله عليه وسلم، ص ٦٧.

^٤ ينظر: علي سعيد، أصول الفقه التربوي الإسلامي، ص ٤٣٢.

ثالثا: دور المرأة في التربية:

تعد الأم العنصر الأساس الفاعل في تربية الآبناء وتقويمهم وتوجيههم بالشكل الصحيح والسليم الذي يتوافق مع كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، وهي تؤثر في أبنها منذ لحظات تكوينه الأولى وهو جنين في بطنها؛ إذ يتأثر بنوع الغذاء الذي تتلقاه الأم، وبالأعراض التي تصيبها أثناء الحمل ولهذا يسأل الطبيب المرأة كثيرا حين يصف لها بعض الأدوية عن كونها حاملا" أو لا، ولا يقف أثرها عليه وهو في بطنها، بل أن لها الدور الأكبر في تنشئته، فهي في مرحلة الرضاعة أكثر من يتعامل معه ولها تأثير في أشعار الطفل بالحنان والقرب الذي يحتاجه؛ ولهذا أوصى الله ﷻ الأم بإرضاع طفلها إذ يقول ﷻ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]؛ عليه فالأم أكثر تعاملًا مع أطفالها من الأب، وهذا يعني أنه أكثر اكسابا للخلق والسلوك الذي يصعب تغييره في المستقبل.

وإذا كانت الأم أكثر التصاقا بالأولاد عموما في طفولتهم، فإنها تزداد قربا من البنات بعد الطفولة، وهنا يظهر دور الأم وخطورته لاسيما في مرحلة المراهقة لدى الفتاة؛ إذ تعيش مرحلة تبدأ فيها فتن المجتمع وشهوات النفس تدور من حولها وتدعوها للفساد، تكون هي فيها في عالم، والأم في عالم آخر؛ لذا يتوجب على الأم أن تكون قريبة من بنتها ذلك أن الفتاة تجرؤ أن تصارح أمها أكثر من أن تصارح أبيها^١. ومن هذا يتبين لنا دور الأم في التربية وأهميته.

ولعل من الواجب أن تشعر الأم نفسها بأهمية التربية وخطورتها، وخطورة الدور الذي تتبوؤه، وأنها مسؤولة عن جزء كبير من مستقبل أبنائها وبناتها، وحين نقول التربية فإننا نعني بها إعداد الطفل بجوانب شخصيته كافة: الإيمانية، والجسدية، والنفسية، والعقلية، فضلا عن التربية الدينية التي تغرس في نفوس الابناء عقيدة التوحيد، وحب الله، وحب الصلاة، مع العناية بنظام المنزل الذي له أثر كبير في تعويد الابناء على السلوكيات التي نريد^٢، وفي توجيه عقيدة الطفل، وربطه بأصول الإيمان وأركانه، وصولا إلى تطبيقه، وتمثل مبادئ الشريعة، كما تهتم بتنشئته على المبادئ الخلقية والفضائل السلوكية والوجدانية، وتنمية قدراته الفرد البدنية ومداركه الفكرية، وتوجيه الأحاسيس الداخلية لديه، فضلا عن تعريف الطفل على حقوق المجتمع والقوانين والنظم السائدة فيه حتى يتمكن من التعايش مع أفراده على أسس المحبة والإحترام والأخوة والتعاون، وممارسة الدور الذي يناسبه، ولا تغفل توعيته ومصارحته بالقضايا المتعلقة بالزواج حتى يكون على بينة من الحلال والحرام.

الخاتمة:

خُلصت بعد العرض إلى بعض النتائج والتوصيات:

التربية في الإسلام هي عملية إعداد الفرد الفعال والمواطن الصالح في جوانب حياته كافة. وأن الأسرة هي البيئة الطبيعية لتنشئة الطفل؛ لذلك عملت التربية الإسلامية على تنظيمها وبنائها في ضوء أسس ومعايير محددة، ويفوق دور الأسرة دور بقية المؤسسات التربوية، ويتضح هذا من تأكيد القرآن الكريم والسنة على ذلك الدور، وعلى دور الأبوين تحديدا.

^١ ينظر: سيما راتب عدنان أبو رموز، تربية الطفل في الإسلام، ص ١٣٨.

^٢ ينظر: المصدر السابق، ص ١٣٩-١٤٠.

والتربية الإسلامية تربية شاملة، ومهما تعددت أهداف التربية وغاياتها فإنها لا تخرج عن إطار الهدف الأسمى للتربية الإسلامية، وهو تحقيق العبودية لله تعالى.

وقد اعتمدت التربية الإسلامية أساليب متعددة للوصول بالفرد إلى أعلى المستويات التي أرادها الله ﷻ له، وبما ينسجم مع مكانته كونه خليفة الله على الأرض، ولا تقتصر التربية على أسلوب الثواب والعقاب، فالطفل بحاجة إلى التوجيه النظري والعملي، والحوار والممارسة العملية للأمور وغيره. وتفتقر كثير من السياسات التربوية التي يتبعها الآباء مع أبنائهم إلى المصادقية الشرعية؛ ومن هنا جاءت ضرورة التوعية التربوية للآباء والأمهات، وإحاطتهم بخصائص نمو الأطفال ودوافع السلوك لديهم ومحاولة إيجاد العلاج للمشكلات السلوكية المتوقعة منهم في المواقف المتعددة. فالطفل بحاجة إلى التوجيه النظري والعملي، والحوار والممارسة العملية للأمور، ولا ينبغي الاقتصار في تنشئته على أسلوب واحد. وينبغي التدرج في استخدام الأساليب التربوية مع الحرص على توحى الحكمة في انتقاء الأسلوب المناسب ومراعاة الخصائص النفسية والجسدية لدى الطفل، وإحاطة العقاب البدني للطفل بشروط وضوابط تؤكد على أنه حالة استثنائية، لا يمال إليها إلا إذا تعدت غيرها من الأساليب مع وجوب مراعاة ضوابطه الشرعية، ومتابعة الطفل، ومراقبته وتوجيهه لاسيما فيما يتعلق بمسألة الأقران ووسائل الإعلام، وشغل فراغه بالقراءة والرياضة وبكل ما ينفع الناس ويصلحهم، ويظهر لنا بعد هذا كله: إن للآم أثرا بالغا في التربية يفوق أثر الأب في تربية الطفل، لاسيما في السنوات الأولى، وكونها الأساس في غرس القيم الإسلامية في نفوس أبنائهم، مما ينعكس على سلوكهم في حاضرهم ومستقبلهم.

المصادر والمراجع:

١. إبراهيم، صبحي طه، التربية الإسلامية وأساليب تدريسها، (عمان: دار الأرقم للكتب، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
٢. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح البخاري، طبعة جديدة ومنقحة ومصححة ومطبوعة عن الطبعة التي حقق أصلها عبد العزيز بن باز، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (مصر: ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
٣. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة.
٤. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الجليل).
٥. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، تحفة المودود بأحكام المولود، تحقيق: كمال علي الجمل، (مصر: مكتبة الأيمان).
٦. ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق: ابن الخطاب، (مكتبة الثقافة الدينية، ط١).
٧. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
٨. أبو رموز، سيما راتب عدنان، تربية الطفل في الإسلام، رسالة ماجستير منشورة على النت.
٩. الأسروشنى الحنفي، محمد الحسين، جامع أحكام الصغار، تحقيق: أبي مصعب البدري، محمود عبد المنعم، (القاهرة: دار الفضيلة).
١٠. الباطين، عبد الرحمن، أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، (الرياض: دار القاسم، ط١٤١٦هـ).
١١. البخاري، أبي عبد الله محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، (بيروت: دار صادر، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
١٢. جبار، سهام مهدي، الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية، (بيروت: المكتبة العصرية، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
١٣. حسين، محمد، التربية في الإسلام، (مصر: دار الدعوة، ط٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

١٤. حوامدة، باسم، تربية الأطفال في الإسلام، (عمّان: دار جرير، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
١٥. خير فاطمة، محمد، منهج الإسلام في عقيدة الناشئ، (بيروت: دار الخير، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
١٦. دراز، محمد عبدالله، دستور الأخلاق في القرآن، دراسة نظرية للأخلاق في القرآن، تعريب: عبد الصبور شاهين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).
١٧. الزحيلي، وهبة، الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، (دمشق: دار الفكر، ط١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
١٨. الزيات، أحمد حسن، وأبراهيم مصطفى، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية (جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).
١٩. السلطان، أسماء عبدالله، تربية الطفل في ضوء القرآن والسنة (رسالة ماجستير)، (المملكة العربية السعودية: الرياض، كلية التربية للبنات بالرياض، قسم التربية وعلم النفس، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
٢٠. سيد قطب، في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشروق، ط١٤٢٢هـ/٣٠، ٢٠٠١م).
٢١. شاهين، محمد عبد الفتاح، وشندي، إسماعيل، تربية الطفل في ضوء السنة النبوية (بحث)، (فلسطين: غزة، الجامعة الإسلامية، كلية التربية، ٢٠٠٥م).
٢٢. الصاوي، أحمد، بلغة السالك لأقرب المسالك على الشرح الصغير، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٢م).
٢٣. عبد الرحمن، جمال، أطفال المسلمين، (مكة: دار طيبة الخضراء، ط١٤٢٥هـ/٧، ٢٠٠٤م).
٢٤. العك، خالد عبد الرحمن، تربية الأبناء والبنات في ضوء القرآن والسنة، (بيروت: دار المعرفة، ط٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
٢٥. علوان، عبد الله ناصح، تربية الأولاد في الإسلام، (القاهرة: دار السلام، ط٦، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
٢٦. علي، سعيد، أصول الفقه التربوي الإسلامي، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط١٤٢٣هـ/١، ٢٠٠٢م).
٢٧. الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، (القاهرة: مكتبة مصر، ط١، ١٩٩٨).
٢٨. فوستير، كونستين، تربية الشعور بالمسؤولية عند الأطفال، ترجمة: خليل إبراهيم، (القاهرة: مؤسسة فرانكلين للطباعة).
٢٩. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، (بيروت: دار الفكر، ط١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
٣٠. القاسم: خالد بن عبد الله بن عبد العزيز، أهمية تربية الأولاد في الإسلام (مقال)، شبكة الألوكة ٢٧/ ١١/ ٢٠١٢م.
٣١. المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
٣٢. محب الدين أبو صالح، ومقداد ياجن، وعبد الرحمن النحلوي، دراسات في التربية الإسلامية، (١٤٠٠هـ/١٩٧٩م).
٣٣. مرتضى الزبيدي، محب الدين أبو فيض السيد محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي هلاي (ط١، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).
٣٤. النووي، يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
٣٥. النحلوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، (دمشق: دار الفكر، ط١٤٠٣هـ/٢، ١٩٨٣م).
٣٦. هدلة، سناء حسن، تربية الطفل وأساليبها في التشريع الإسلامي، (بحث منشور في: مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية: مؤسسة اسطنبول للثقافة والعلوم، العدد ٣، يناير ٢٠١١م).
٣٧. وولف، ديفيد، الإساءة للطفل، ترجمة جمعة يوسف، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ط١، ٢٠٠٥م).
٣٨. ياجن، مقداد، أهداف التربية الإسلامية وغاياتها، (الرياض: وسوعة التربية الإسلامية، ط٦، ١٤١٠هـ/١٩٨٦م).
٣٩. (الكاتب مجهول)، أهداف التربية ومقاصدها، (مقال على موقع جامعة أم القرى).

تنمية الوازع الديني لدى الشباب في مواجهة التحديات المعاصرة في ضوء السنة النبوية

د. سعيد بن نزال بن وندي العنزي*

ملخص البحث:

نظراً لمكانة الشباب الإسلامي في بناء حضارة الأمة ورفعته، ودورهم الفاعل في بلوغها سلم المجد والسؤدد، فقد سلط عليهم أعداء الأمة حرباً مدروسة، فوجهوا لهم مخططاتهم ومكائدهم بشتى الطرق والوسائل كالقنوات الفضائية، وشبكات الإنترنت، والإعلام بشتى صورته وأشكاله، ونتيجة لهذا الغزو الهائل، ولدرء خطره وأضراره نتلمس الوقاية والعلاج في هدي النبي ﷺ الذي أمرنا المولى ﷺ الاقتداء بسنته. ومن هنا جاء هذا البحث هادفاً إلى بيان مفهوم الشباب في الإسلام، وبيان مكانة وأهمية مرحلة الشباب في الإسلام، وبيان خصائص وحاجات مرحلة الشباب، وبيان القيم والمبادئ التي يجب تعزيزها عند الشباب، وبيان الأساليب النبوية لتعزيز القيم والمبادئ عند الشباب، مستخدماً المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم على جمع المادة العلمية من خلال قراءة الأحاديث النبوية في مصادرها، وتصنيفها وتحليلها، ومن ثم استنباط الأساليب النبوية لتعزيز القيم والوازع الديني لدى الشباب.

التمهيد:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد! فيسرنى المشاركة في المؤتمر الدولي الثاني للقرآن الكريم والسنة الشريفة حول موضوع الوحي والعلوم في القرن الواحد والعشرين، والذي ينظمه قسم دراسات القرآن والسنة بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، بالتعاون مع الجمعية العلمية السعودية للقرآن (تبيان) يومي الجمعة والسبت ٢٢ و٢٣ من جمادى الأولى ١٤٣ هـ؛ وذلك لأهمية موضوع الملتقى، حيث إن الوحيين: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الأول والثاني من مصادر الشريعة الإسلامية، واللذان أمرنا المولى ﷺ بالرجوع إليهما والتحاكم لهما عند التنازع والاختلاف، وبلوغ مراحل الخطر قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقد اخترت الإسهام بموضوع يخص الشباب؛ للمكانة الرفيعة لشباب الأمة المسلم، حيث إنه سبب تقدم الأمة ورفعته، وحصنها الحصين في صد هجمات الأعداء في كل ميادين الجهاد والتضحية، ولذلك جاءت النصوص الشرعية بالحث على حسن رعايتهم وتوجيههم إلى ما فيه الخير والصلاح. وقد عرف أعداء الأمة قيمة الشباب المسلم في الحفاظ على مجد الأمة

* أستاذ مشارك وعميد كلية المجتمع، جامعة سلمان بن عبدالعزيز، المملكة العربية السعودية.

وهويتها فوجهوا لهم مخططاتهم ومكائدهم بشتى الطرق والوسائل، كالتقنيات الفضائية، وشبكات الإنترنت، والإعلام بشتى صورته وأشكاله، ولهذا الأهمية والمكانة للشباب المسلم، ولالأخطار العظيمة المحدقة بالشباب في هذا العصر أحببت أن أسبر التوجيهات النبوية الشريفة للشباب لتنمية القيم والوازع الديني لديهم لمواجهة التحديات المعاصرة في ضوء السنة النبوية). وقد جاء البحث في تمهيد ومبحثين وخاتمة:

المبحث الأول

الشباب ومكانتهم في الإسلام وخصائص المرحلة التي يعيشون فيها

المطلب الأول: بيان مفهوم الشباب:

الشباب في اللغة:

الشباب في اللغة يدل على الفتوة والنمو والحدأة، قال ابن فارس: الشين والباء أصلٌ واحد يدلُّ على نَمَاءِ الشَّيْءِ، وَقُوَّتِهِ فِي حَرَارَةٍ تَعْتَرِيهِ. من ذلك: شَبَّتُ النَّارَ أَشْبُهًا شَبًّا وَشُبُوبًا. وهو مصدر شُبَّت. وكذلك شَبَّتُ الحَرْبَ إِذَا أَوْقَدْتَهَا. فالأصل هذا. ثم اشتق منه الشَّبَابُ الذي هو خلاف الشَّيْبِ. يقال: شَبَّ الغُلامُ شَبِيبًا وشَبَابًا، وَأَشَبَّ اللهُ قَرْنَهُ. والشَّبَابُ أيضًا: جمع شابٍ، وذلك هو النَّمَاءُ والزيادةُ بقوَّةِ جسمه وحرارته. ثم يقال فَرَقًا: شَبَّ الفَرَسُ شَبَابًا، بكسر الشين، وذلك إِذَا نَشَطَ وَرَفَعَ يَدِيهِ جَمِيعًا^١.

وقال ابن منظور: الشَّبَابُ: الفَتَاءُ والحدأة، شَبَّ يَشُبُّ شَبَابًا ... والاسم الشَّيْبَةُ، وهو خِلافُ الشَّيْبِ، والشباب جمع شابٍ وكذلك الشُّبان يقال: شَبَّ الغُلامُ يَشُبُّ شَبَابًا وشُبُوبًا وشَبِيبًا^٢.

الشباب في الاصطلاح:

اختلف العلماء في تحديد مفهوم الشباب نظرًا للاتجاهات التي ينظرون من خلالها، فمنهم من يحدد مفهوم الشباب من خلال مراحل عمر الإنسان، وقد اتفق أصحاب هذا الرأي على تحديد بداية هذه المرحلة بسن (١٥) سنة كبداية سن البلوغ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩]. وقال ﷺ: «رَفَعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَخْجُونِ حَتَّى يَعْقِلَ»^٣، واختلفوا في نهاية هذه المرحلة، والأشهر أنها إلى سن (٢٥) سنة، وهذا ما حدده وزراء الشباب العربي في مؤتمهم الأول انسجاماً مع المفهوم الدولي في هذا الشأن^٤. ومنهم من

^١ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ش ب.

^٢ ابن منظور، لسان العرب، ش ب ب.

^٣ أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب فِي الْمَخْجُونِ يَسْرِقُ أَوْ يُصِيبُ حَدًّا، ج ٤، ص ٢٤٤، رقم ٤٤٠٣؛ والحاكم في مستدرکه، ج ١، ص ٢٥٧، وقال الحاكم: "حديث صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي.

^٤ الحسن، تأثير الغزو الثقافي على سلوك الشباب العربي، ص ٢١. ونقل الدكتور العيد في رسالته للماجستير: المنهاج النبوي في دعوة الشباب، ص ١٦، بعض الأقوال الأخرى في تحديد فترة الشباب بالسن، ورجح أنها من البلوغ حتى بلوغ سن الأربعين، واستشهد بقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥].

يحدده باكتمال البناء الدافعي والانفعالي للفرد في ضوء استعداداته واحتياجاته الأساسية^١، ومنهم من يحدده باكتمال نمو البناء العضوي والوظيفي للمكونات الأساسية لجسم الإنسان^٢. ومنهم من يرى أن فترة الشباب تبدأ عندما يؤهل الشخص لأداء دوره الاجتماعي^٣.

وبالنظر لمجمل هذه الآراء والاتجاهات التي ينظرون من خلالها نجد أن فترة الشباب فترة ذهبية تمتاز بالحيوية والنشاط وتكتمل فيها الخصائص البيولوجية والسلوكية والاجتماعية والنفسية والانفعالية.

المطلب الثاني: مكانة الشباب في الإسلام:

الشباب هم عماد الأمم، وسر نهضتها، وبناة حضارتها، وديننا الإسلامي الحنيف أولى عناية خاصة بفئة الشباب، ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تزخر بذلك توجيهاً وإرشاداً، وثناء وتمجيداً، فقد أخبر المولى جل وعلا بأن أتباع موسى عليه السلام هم الشباب فقال تعالى: ﴿فَمَا أَمَّنْ لِيُوسَىٰ إِلَّا ذَرِيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ﴾ [يونس: ٨٣]. وقال تعالى على لسان قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]. وقال تعالى مثنياً على أصحاب الكهف: ﴿نُفِثَ عَلَيْكَ بِآهْمٍ بِالْحَقِّ إِيَّاهُمْ فَتِيَّةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

وقد عنيت السنة النبوية عناية خاصة بفئة الشباب، وذكرت آثارهم، ومن ذلك قوله ﷺ مخبراً عن خير غلام أصحاب الأعداء وأنه سبب هدايتهم: «... فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا أَمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِدْعٍ ثُمَّ تَخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْعُلَامِ، ثُمَّ ازْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِدْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْعُلَامِ ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ، فَقَالَ: النَّاسُ أَمَّنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ، أَمَّنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ». وقال ﷺ مبينا مكانة من نشأ من الشباب في طاعة الله: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... وَسَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ»^٥. وقد أولى النبي ﷺ جل عنايته وتوجيهاته لفئة الشباب، ومن ذلك قوله ﷺ لابن عمه ابن عباس: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَيْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ

^١ فهمي، العولمة والشباب من منظور اجتماعي، ص ٨٧.

^٢ الهاشمي، علم النفس التكويني، ص ٢٣٨.

^٣ فهمي، العولمة والشباب من منظور اجتماعي، ص ٨٧.

^٤ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأعداء، ج ٤، ص ٢٣٠٠، رقم ٣٠٠٥.

^٥ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الآذان، باب مَنْ جَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، ج ١، ص ١٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء

الصدقة، ج ٢، ص ٧٤٥، رقم ١٠٣١.

بِشْيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشْيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشْيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشْيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، زُفَعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^١.

المطلب الثالث: خصائص مرحلة الشباب:

تعد معرفة خصائص وحاجات النمو لدى الشباب من أولى الأولويات لدى أهل التربية والتعليم من مربين ومعلمين ودعاة، وكذلك الأسرة والمجتمع؛ لأن هذه الخصائص والحاجات تعد القوى الموجهة الأساسية لحياة وسلوك الشباب، فيجب عند التعامل مع فئة الشباب مراعاة هذه الخصائص والحاجات، وإشباع رغباتهم وتلبية احتياجاتهم وفق الإمكانيات المتوفرة وفي حدود المسموح به من قيم ومبادئ الشرع الحنيف، ومراعاة هذه الخصائص والحاجات تحصل التربية السليمة لهذه الفئة، وبعدم مراعاتها يحدث كثير من الانحرافات والمشاكل النفسية والاجتماعية لدى الشباب.

وقد قام علماء النفس باستخلاص الخصائص البيولوجية والسلوكية والاجتماعية والنفسية والانفعالية التي لها التأثير القوي في تعاملات الشباب، ومن أبرز هذه الخصائص:

أولاً الخصائص الجسمية:

تعد مرحلة الشباب المرحلة الأخيرة لاكتمال البنية الجسمية للإنسان من طول وعرض، وكذلك اكتمال الحواس وبلوغها نموها النهائي^٢ في الكم والكيف والتكوين الجسمي العام في مقوماته الداخلية والخارجية، فالشاب يبلغ إلى أقصى ما تحمله وراثته في نمو العظام والأعصاب والحواس^٢ في هذه المرحلة ويتزامن مع النمو الخارجي للجسم النمو الداخلي للأعضاء الداخلية.

ويمكن تلخيص أهم الخصائص الجسمية في هذه المرحلة بما يلي:

- ١- النمو السريع والمفاجئ في الهيكل العظمي، واشتداد العضلات، والتغير في الصوت.
- ٢- ظهور الخصائص الجنسية الجسدية الأولية كنشاط الغدد التناسلية، ويتبع ذلك ظهور الخصائص الجنسية الثانوية كظهور الشعر.
- ٣- تغييرات مهمة في الأجزاء الداخلية كالقلب والشرايين.
- ٤- يتأخر النمو في الجهاز العضلي عن النمو في الجهاز العظمي مقدار سنة تقريباً وهذا ما يسبب للشباب تعباً وإرهاقاً.
- ٥- عدم التوازن بين النمو الجسمي ومظاهر النمو الأخرى، فقد يتم النمو الجسمي بينما لا يزال النمو العقلي أو الانفعالي أو الاجتماعي لم ينضج بعد. ومن ثم قد ينخدع الكبار ويتوقعون من الفتى في هذه الحال أداءً عقلياً أو سلوكياً أو انفعالياً أو اجتماعياً يتناسب مع نمو الجسمي.
- ٦- تمثل مرحلة الشباب آخر مرحلة من مراحل النمو المتزايد في الكم والكيف.

^١ أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، ج ٤، ص ٦٦٧، رقم ٢٥١٦، وقال: "هذا حديث حسن صحيح". وصححه الألباني، صحيح وضعيف الجامع

الصغير، ج ١، ص ١٣٩٢.

^٢ الهاشمي، علم النفس التكويني، ص ٢٣٨.

وقد كان النبي ﷺ يراعي الخصائص الجسمية للشباب ولا يحملهم فوق طاقتهم وبخاصة في أول مرحلة الشباب، فقد كان يريد من يحاول الجهاد ولم يبلغ مراعاة لعدم اكتمال نموه، ويتأكد من ذلك بنفسه ﷺ. قال ابن هشام: "وأجاز رسول الله ﷺ يومئذ سمرة بن جندب الفزاري ورافع بن خديج أخا بني حارثة وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردهما فقيل له: يا رسول الله إن رافعا رام فأجازه، فلما أجاز رافعا قيل له: يا رسول الله فإن سمرة يصرع رافعا، فأجازه. ورد رسول الله ﷺ أسامة زيد وعبدالله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت أحد بني مالك بن النجار والبراء بن عازب أحد بني حارثة وعمرو بن حزم أحد بني مالك ابن النجار وأسيد بن ظهير أحد بني حارثة، ثم أجازهم يوم الخندق وهم أبناء خمس عشرة سنة".^١

ثانياً: الخصائص العقلية:

كرم الله ﷻ الإنسان بالعقل، وميزه به عن سائر المخلوقات، وعقل الإنسان شأنه شأن بقية أعضاء الإنسان وحواسه، ينمو بالتدرج حتى يكتمل نموه في المرحلة المتأخرة من مرحلة الشباب، ولا شك أن لكل مرحلة من مراحل عمر الإنسان خصائص عقلية تميزه عن بقية المراحل "فيختلف إدراك الشاب عن إدراك الطفل، حيث إن إدراك الطفل يتمركز حول الأمور الحسية المادية التي يعيشها ويشاهدها في بيئته... أما الشاب فيتأثر النمو العقلي الذي يبلغه وتأثير الخبرات الجديدة التي اكتسبها وعرفها يستطيع أن يعرف الأمور المجردة المعنوية".^٢

فيتوجب على المربين والمعلمين والذين يتعاملون مع فئة الشباب أن يراعوا الخصائص العقلية لهم في هذه المرحلة، وأن يسعوا إلى تنميتها. وقد كان النبي يراعي الخصائص العقلية للشباب ويلطفهم ويوصيهم، ومن ذلك وصيته لأبي ذر رضي الله عنه قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».^٣

ثالثاً: الخصائص الاجتماعية:

الإنسان اجتماعي بطبعه، فلا تستقيم له الحياة إلا بمشاركة الآخرين والتواصل معهم كما قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا لِلنَّاسِ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [المحرات: ١٣]، وشرع المولى جل وعلا كثيراً من العبادات التي تؤدي جماعة لتزيد من اللحمة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، كصلاة الجماعة والصدقة و عيادة المريض وغيرها من العبادات. ودعا النبي ﷺ إلى تكاتف المجتمع وتراحمه قال ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَىٰ».^٤

^١ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤، ص ١٢. ويومئذ يعني يوم غزوة أحد.

^٢ العيد، المنهاج النبوي في دعوة الشباب، ص ٤٨.

^٣ أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرتنا النساء، ج ٤، ص ٣٥٥، رقم ١٩٨٧، وقال: حسن صحيح.

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج ٨، ص ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج ٤، ص ١٩٩٩، رقم ٢٥٨٦، واللفظ لمسلم.

وتتمو الخصائص الاجتماعية لدى الطفل بالتدرج حتى تتضح في مرحلة الشباب، فيشعر الشاب أنه بحاجة إلى التواصل مع الآخرين والتعامل معهم، وأن إشباع حاجاته ورغباته مرتبط بتعامله وتواصله مع الآخرين، وكذلك يشعر بقيمته ومكانته بالمجتمع وأنه له تأثيراً على الآخرين كما أن للآخرين القدرة على التأثير عليه، ولهذا يظهر عليه "الرغبة في مقاومة السلطة، والميل إلى انتقاد الآباء أو المعلمين، إذ يزداد الوعي الاجتماعي، والميل إلى النقد، والرغبة في تأكيد الذات"^١.

وكذلك تظهر في هذه المرحلة "رغبة الشاب في الاستقلال عن الأسرة، وتكوين أسرة خاصة، والاعتماد على النفس، والاهتمام بالعمل والمهنة، والاهتمام بالشخصية"^٢.

رابعاً: الخصائص الانفعالية:

تتميز مرحلة الشباب وبخاصة المراحل الأولى منها بسرعة التأثير والانفعال مقارنة بمن يكبرونهم في السن، وذلك أن الشاب في هذه المرحلة "مرهف الحس، رقيق الشعور، تسيل مدامعه سراً أو جهراً، ويتأثر حين ينتقده الناس ولو كان النقد هادئاً صحيحاً، وهو شديد الحساسية بما يسمعه من مواعظ أو قصص تاريخية أو بطولية أو آثار أدبية، وترجع هذه الحساسية إلى اختلاف اتزان هرمونات الغدد، إلى جانب نموه السريع في هيكله العظمي، مما تزيد معه الأبعاد الجسمية زيادة مفاجئة، وهذا النمو في الهيكل العظمي لا يصاحبه بنفس السرعة نمو في مختلف الأجهزة الجسمية الأخرى، كما أن هذه الحساسية ترجع إلى عدم قدرة الفتى على التكيف السريع مع البيئة المتجددة"^٣. وقد كان النبي ﷺ يراعي الخصائص الانفعالية لأصحابه وبخاصة الشباب، فعن معاوية بن الحكم السلمي، قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِّنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَأَتَكَلَّ أُمِّيَاءَ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَيَّ أَفْحَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونِي، لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ، وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^٤.

المطلب الرابع: القيم والمبادئ التي يجب تعزيزها لدى الشباب:

تعد القيم والمبادئ هي الأساس والمعياري الحقيقي لقياس حضارة وتطور الأمم والشعوب، فمهما بلغت الأمم من حضارة وتطور إذا لم تحكمها قيم ومبادئ فمآلها الدمار، وخير مثال لهذا التطور الهائل في الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل، فإذا لم يحكم استعمال هذه الأسلحة قيم ومبادئ تمنع استعمالها في الظلم والجور أهلك الشعوب بعضهم بعضاً، ولهذا فإن

^١ منصور، والشربيني، الشباب بين صراع الأجيال المعاصر والهدى الإسلامي، ص ٣٧.

^٢ زهران، علم نفس النمو الطفولة والمراهقة، ص ٤١١.

^٣ العبد، المنهاج النبوي في دعوة الشباب، ص ٦٧.

^٤ أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، ج ١، ص ٣٨١، رقم ٥٣٧.

القيم والمبادئ تعد: "صورة المجتمع، لأنها الضابط والمعيار الأساس للسلوك الاجتماعي، والمجتمع في عمومه لا يتكون دون وجود هذا البناء المعياري"^١.

والقيم في التربية الإسلامية هي: "تلك المعايير التي جاء بها القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ودعا إليها الإسلام، وحث على الالتزام والتمسك بها، وأصبحت محل اعتقاد واتفق، واهتمام لدى المسلمين؛ إذ تمثل موجبات حياتهم، ومرجعاً لأحكامهم، إذ يحدد المقبول وغير المقبول، والمستحسن والمستهجن، والمرغوب فيه وغير المرغوب فيه من الأقوال والأفعال ومظاهر السلوك المختلفة"^٢.

ومن أبرز القيم والمبادئ التي يجب تعزيزها لدى الشباب:

١- القيم العقديّة والإيمانية والروحية :

يعد علم العقيدة أشرف العلوم على الإطلاق، لأن شرف العلم مبني على شرف المعلوم، والله تعالى أشرف معلوم، فالعلم به إذاً أشرف العلوم. وتحصيل هذا العلم الشريف من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، ولهذا أمر الله به قبل القول والعمل، فقال تعالى: ﴿فَاعْتَرَأْتُهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثَوْنَكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

ولهذا وجب الاهتمام بالقيم العقديّة تعلماً وتعليماً وعملاً؛ لتكون الأعمال صحيحةً مقبولة عند الله تعالى نافعة للعاملين، خصوصاً في هذا الزمن الذي كثرت فيه التيارات المنحرفة؛ كتيار الإلحاد، والصفوية، وتيار القبورية الوثنية، وتيار البدع المخالفة للهدي النبوي، وكلها تيارات خطيرة ما لم يكن المسلم مسلحاً بسلاح العقيدة الصحيحة، المرتكزة على الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة، فإنه حريٌّ أن يجرفه تلك التيارات المضلّة. وقد كان النبي ﷺ حريصاً على تعليم أصحابه وتلقينهم القيم العقديّة الصحيحة النقية، ومن ذلك ما رواه خباب بن الأرت، قال: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِأَثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ حِمِّهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكْبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^٣.

^١ أبو العينين، القيم الإسلامية والتربوية، ص ٧.

^٢ الزهراني، قيم السلام في كتب التفسير والحديث والتربية الوطنية، ص ٣١.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ج ٤، ص ٢٠١.

٢- القيم العلمية والفكرية:

لاشك أن القيم العلمية هي من أولى القيم التي يجب تعزيزها لدى الشباب ؛ لأنه بالعلم يستطيع الإنسان أن يعبد ربه على بصيرة ويتعد عن مواطن الفتن والانحراف، وقد قال النبي ﷺ مبيناً فضل العلم وأهله: «مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^١.

وقد فقه سلف الأمة فقه هذا الحديث وحرصوا على الاجتهاد في طلب العلم أكثر من حرصهم على الاجتهاد في العمل، فعن أبي هريرة وأبي ذر قالوا: "باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً"^٢.

٣- القيم الأخلاقية:

ديننا الإسلامي الحنيف دين الأخلاق الحميدة والقيم الفاضلة، قال الله تعالى ممتدحاً خلق نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وقد بين ﷺ أن الأخلاق الفاضلة سبيل إلى الجنة والأخلاق السيئة سبيل إلى النار فقال ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يَكُونَ صِدِّيقًا وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^٣. وانتشار هذه القيم الأخلاقية يولد في المجتمع الثقة والألفة والمحبة والتقدير بين أفرادها، مما ينعكس على رقي المجتمع وإيجابيته.

٤- القيم الاجتماعية:

عزز الدين الإسلامي الحنيف القيم الاجتماعية وحث عليها قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]، وقد شرع المولى ﷺ بعض العبادات التي تؤدي جماعة لزيادة ترابط المجتمع وتماسكه مثل صلاة الجماعة، والعيدين، والحج وغيرها من العبادات. وقد حرص الرسول ﷺ منذ بدء دعوته على تكوين مجتمع مسلم قوي مترابط، تنتشر بين أفرادها الألفة والمحبة والعطف والإيثار، مستخدماً وسائل متعددة لتقريب فهم كثير من المعاني السامية والقيم الفاضلة بأمثلة من الواقع المحسوس، فيها إثارة للعواطف والوجدان، ودفع للمرء على اكتسابها والمحافظة عليها. من ذلك قوله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَىٰ»^٤.

٥- القيم الصحية:

^١ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، ج ١، ص ٢٥؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، ج ٢، ص ٧١٩، رقم ١٠٣٧.

^٢ أخرجه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه، ص ٢٨.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ كَوْنُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، ج ٨، ص ٢٥؛ ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، ج ٤، ص ٢٠١٣، رقم ٢٦٠٧.

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج ٥، ص ٢٢٣٨؛ ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتكاتفهم، ج ٤، ص ١٩٩٩، رقم ٢٥٨٦.

تُعَدُّ الصحة من أهم النعم في حياة الإنسان، ذلك أنه بغيرها لا يستطيع تحقيق آماله، فمن غير الصحة لا يستطيع الإنسان أن يعمل، ولا يستطيع أن يؤدي الواجبات المنوطة به، سواءً الدينية أو الدنيوية على الوجه الأكمل، "ومفهوم الصحة في الإسلام لا يقتصر على الصحة الجسمية - كما هو متبادر في أذهان كثير من الناس - بل يشمل الصحة الجسمية، والنفسية، والعقلية أيضاً. وهناك علاقة وثيقة بين هذه الجوانب؛ إذ إن الصحة الجسمية تؤثر في الصحة النفسية والعقلية، والعكس صحيح أيضاً، ولهذا لا ينبغي أن تقتصر التربية الصحية على التربية الجسمية فقط بل يجب أن تشمل الجوانب الأخرى"^١.

ولم يفت النبي ﷺ الاهتمام بموضوع الصحة بجوانبه الثلاثة السابقة، ولهذا نراه يحرص على تربية أصحابه على الاهتمام بهذه الجوانب جميعاً، واستخدم في بيانه وسائل متعددة لتعزيز القيم الصحية؛ لما في ذلك من أثر كبير في توضيح المعاني، وتجسيمها على صور محسوسة، من ذلك قوله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ»^٢.

المطلب الخامس: التحديات المعاصرة التي تواجه الشباب:

تواجه الشباب المسلم في هذا العصر تحديات كبيرة خارجية وداخلية تكاد تعصف بكيانه، وتفقده هويته المسلمة، وبخاصة التحديات الخارجية الموجهة بعناية ودراسة دقيقة لشخصية الشباب المسلم وميولهم واتجاهاتهم، ومن أخطر التحديات الخارجية:

١- الغزو الفكري والأخلاقي ومحاوله طمس الهوية الإسلامية، وتمييع شخصية الشباب المسلم، وتشكيك المسلمين في عقيدتهم وثوابتهم ومسلماهم، وقد ساعد في ذلك الثورة الهائلة في نظام الاتصالات والمعلومات، وغزو الشبكة العنكبوتية بيوت المسلمين فلا يخلو بيت من ذلك إلا ما ندر.

٢- الغزو الحضاري الغربي، نتيجة التطور الهائل في التقنيات والتكنولوجيا الحديثة في الغرب، مما ولد الإعجاب والانبهار والافتتان بهذه الحضارة عند كثير من أبناء المسلمين، وقبولها كاملة غثها وسمينها، ما ينسجم معها مع القيم والمبادئ الإسلامية وما لا ينسجم.

٣- فرض العولمة بوسائلها المختلفة، وهو ما يعني هيمنة القطب الواحد على العالم، وتصدير ثقافته من خلال فرضها تحت شعارات عدة كالحرية والديمقراطية .

٤- الدعوة إلى القومية والحزبية والمذهبية، مما يثير الخلاف والشقاق بين المسلمين ويجعلهم شعوباً وقبائل يسهل السيطرة عليهم.

٥- السيطرة على مدخرات الأمة، ومصادر التنمية فيها بشتى الوسائل والذرائع، عسكرية وسياسية، مما يشيع الفقر والبطالة في المجتمعات الإسلامية، ويجعل الأمة وبخاصة الشباب مشغولين بتحصيل مصادر رزقهم اليومي.

^١ يالجن، جوانب التربية الإسلامية الأساسية، ص ٤٥.

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، ج ١، ص ٢٠٣، رقم ٢٢٣.

المبحث الثاني

الأساليب النبوية لتعزيز القيم والوازع الديني لدى الشباب

استخدم النبي ﷺ كل ما أمكنه من أساليب تربوية ووسائل تعليمية لتبليغ أمته رسالة ربها، وقد كان النبي ﷺ يختار في مجال الدعوة أفضل الأساليب و الوسائل التعليمية، وأوقعها في نفس المخاطب، وأقربها إلى فهمه وعقله، وأشدّها تشبيهاً للعلم، وأكثرها مساعدة على إيضاحه، فلم يقصر ﷺ تعليمه على طريقة واحدة، أو وسيلة واحدة في جميع المواقف التعليمية، بل كان ينوع في طرق تعليمه وفي استخدامه الوسائل التعليمية بحسب ما يتطلبه الموقف التعليمي، وتلميه حاجة المتلقي. وفي هذا المبحث نستعرض بعض الأساليب التي استخدمها النبي ﷺ لتعزيز القيم والوازع الديني لدى الشباب.

المطلب الأول: أسلوب القدوة.

يعد أسلوب القدوة الحسنة من أهم أساليب التربية الإسلامية لأنه في الواقع تجسيد للقيم الإسلامية التي يدعى إليها، وطريقة غير مباشرة للدعوة لتعديل السلوك محاكاة للقدوة الحسنة. ولأهمية أسلوب القدوة فقد أمر المولى جل وعلا النبي ﷺ بالافتداء بالأنبياء قبله بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْتَهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وأمرنا المولى جل وعلا بالافتداء بالنبي ﷺ بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

وقد كان النبي ﷺ قدوة حسنة تتصف بكل صفات الكمال البشري، وكان ﷺ يطبق كل تعاليم القرآن الكريم في سلوكه وأقوله وأفعاله، ولهذا أجابت عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: «فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»^١. قال النحلاوي معلقاً على هذا الحديث: "حقاً كان رسول الله ﷺ بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرآن وتعاليمه، وآدابه وتشريعاته، ولما فيه من أسس تربوية إسلامية، وأساليب تربوية قرآنية"^٢. ولهذا الأهمية الكبيرة للقدوة، فقد أمر النبي ﷺ بالافتداء به في مجال العبادات، كما في حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَزْمِي عَلَى رِجْلَيْهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مِنَّا سِكِّمًا، فَإِنِّي لَا أَذْرِي لَعَلِّي لَا أَحْجُبُ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ»^٣.

المطلب الثاني: أسلوب الحوار:

الحوار أسلوب رباني كريم، ومنهج نبوي شريف، للدعوة إلى الحق وبيانه، قال الله تعالى أمراً نبيه ﷺ بمحاورة أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وامتثل النبي ﷺ أمر ربه وحاوَر أصحابه بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادل المشركين وأهل الكتاب بالتي هي أحسن.

^١ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ج ١، ص ٥١٣، رقم ٧٤٦.

^٢ النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، ص ٢٢٩.

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر، ج ٢، ص ٩٤٣، رقم ١٢٩٧.

وقد تعددت تعريفات العلماء للحوار، ولكن مع تعددها فإنها تدور حول المعنى اللغوي للحوار، وهو مراجعة الكلام بين طرفين أو أكثر، ومن هذه التعريفات: أنه حديث بين طرفين أو أطراف عدة لعرض وجهات النظر بينهم حول مسألة متنازع عليها، بقصد التوصل إلى حل مناسب أو نتيجة مناسبة^١.

وقد استخدم النبي ﷺ الحوار في شتى الموضوعات الدينية والدنيوية، ومنها استخدامه الحوار لتعزيز قيم العفاف وتنمية الوازع الديني والتنفير من الزنا، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: **إِنَّ فَتَى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ائْتِدَنْ لِي بِالزَّيْنَاءِ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمَ عَلَيْهِ فَرَجَرُوهُ، قَالُوا مَهْ مَهْ؟، فَقَالَ: «ادْنُهُ»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيْبًا، قَالَ: فَحَلَسَ. قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟» قَالَ: لَا، وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ». قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِابْنَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأَخَوَاتِهِمْ؟» قَالَ: لَا، وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِإِعْمَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ؟» قَالَ: لَا، وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ. فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْقَتْلَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ»^٢.**

المطلب الثالث: أسلوب القصص:

القصة وسيلة تربية فعّالة، لها وظيفة كبيرة في تكوين القيم والاتجاهات في نفوس المتعلمين، وهي وسيلة تعليمية شيقة في توصيل المعلومات، وجذابة في شد الانتباه، وقد عرفت البشرية منذ فجر التاريخ أهمية القصص، فهي أداة الاتصال ونقل الأخبار بين الشعوب والمجتمعات؛ لما تتميز به من خصائص لا توجد في غيرها من أدوات الاتصال الأخرى. وعندما نزل القرآن الكريم أعلى من شأن القصص، فقلما تخلو سورة من سور القرآن الكريم من ذكر القصص، بل سميت سورة من سور القرآن الكريم بسورة القصص، ولهذا يعد القصص سجلا حافلا لجهاد الأنبياء والصالحين، وبيان انتصاراتهم في نهاية الأمر. قال الله تعالى: ﴿كَانَتْ فِي قِصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقد تعددت أقوال الكتاب والباحثين من أدباء وتربويين ومفسرين وغيرهم في تعريف القصة، وذلك حسب اختلاف مشارهم ومدارسهم الفكرية. والذي يهمنا في هذه الدراسة تعريف أهل التفسير والحديث للقصص بأنه: "الإخبار عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة"^٣.

وقد استخدم النبي ﷺ القصص لبيان القضايا الكلية والحقائق العقلية المجردة، فيسوقها بأسلوب قصصي محسوس يخرجها من إطارها التجريدي الذي لا يخلو من طابع الغموض وعدم التحديد، ويضعها في صورة تكون أدعى للفهم والاستيعاب.

^١ جعلوك، الحوار لغة الضعفاء أم الأقياء، ص ١١٤.

^٢ أخرجه أحمد في مسنده، ج ٣٦، ص ٥٤٥، رقم ٢٢٢١١، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، ج ١، ص ٣٤١، وقال: "رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج ١، ص ٣٦٩: "وهذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح".

^٣ القطان، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠٦.

ومن القصص الذي جاء على هذا النهج ما قاله رسول الله ﷺ: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوَّيَّةٍ^١ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: ارْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ؛ فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»^٢.

لذلك فإن: "القصّة تسهم في بناء الإنسان تصوراً وسلوكاً، فأما من ناحية الفكر فهي تمدّه بالتصورات العقديّة، والقيم والمثل العليا، وأما من ناحية السلوك فهي تمدّه بنموذج بشري واقعي لتطبيق هذه التصورات في الحياة الدنيا ... والأمثلة العالية تنتقل بين الناس، ويلتزمها الجيل بعد الجيل"^٣.

المطلب الرابع: أسلوب ضرب الأمثال:

تُعَدُّ الأمثال خلاصة تجارب الأمم، ومحصل خبراتها، وهي المرآة التي تنعكس على صفحاتها عادات الأمم وأخلاقها وأفكارها، وعلاوة على ذلك فالأمثال تعد وسيلة تعليمية مهمة لتوضيح المعاني، وتصوير المعقول في صورة المحسوس. وتتخلص أوجه أهمية المثل في أنه "يُصَوِّرُ المعقول بصورة المحسوس، وقد يُصَوِّرُ المعدوم في صورة الموجود، والغائب بصورة المشاهد الحاضر، فيستعين العقل على إدراك ذلك بالحواس، فيتقوى الإدراك ويتضح المدرك"^٤.

وقد تعددت تعريفات العلماء نظراً لاختلاف مشاربهم، ومن أقرب هذه التعريفات لاستخدام الأمثال للبيان والتوضيح والإقناع تعريف الحكيم الترمذي للأمثال بأنها: "نموجات الحكمة، لما غاب عن الأسماع والأبصار؛ لتهدي النفوس ما أدركت عياناً"^٥.

وقد استخدم النبي ﷺ ضرب الأمثال في خطبه ومواعظه وسائر محادثاته، للإقناع العقلي عن طريق الإلزام بالحجة والبرهان؛ لما له من خصائص تؤهله لذلك، كإيجاز اللفظ، والدقة في إصابة المعنى، وتصوير المعاني وتجسيدها في صورة حسية، واعتماده على الأدلة المتقررة في ذهن المخاطب، مما يكون له الأثر الكبير لإلزامه بالحجة، وغير ذلك من الوسائل الإقناعية^٦. ومن ذلك حديث أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ

^١ الدو الفلاة الواسعة، وقيل: الدو المستوية من الأرض، والدوية المنسوبة إلى الدو، وقيل دوية ودواية إذا كانت بعيدة الأطراف مستوية واسعة. ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤، ص ٢٧٦.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التوبة، ج ٥، ص ٢٣٢٤، رقم ٥٩٤٩٠؛ ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحظ على التوبة والفرح بها، ج ٤، ص ٢١٠٣، رقم ٢٧٤٤، واللفظ لمسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

^٣ العرياني، القصّة في السنة النبوية وآثارها التربوية، ص ١٨.

^٤ اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ج ١، ص ٣١.

^٥ الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنة، ج ١، ص ١٤.

^٦ يالجن، توجيه المتعلم إلى منهج التعلم في ضوء التفكير التربوي الإسلامي، ص ١٩٨ بتصرف يسير.

الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُخَذِّبَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ بَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ بَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»^١.

المطلب الخامس: أسلوب الترغيب والترهيب:

يعد أسلوب الترغيب والترهيب من الأساليب الفاعلة في تنمية القيم والاتجاهات لدى الشباب، حيث إن هذا الأسلوب: "يتعامل مع طبيعة الإنسان وحبه للأشياء التي تبعث في نفسه اللذة والنعيم والراحة، والسرور، ويخاف ويهرب من الأشياء التي فيها خوف وألم مادي أو معنوي"^٢. والترغيب هو: "كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة، وقبول الحق والثبات عليه"^٣.

ويُعدُّ أسلوب الترغيب من أهم الوسائل لدفع المخاطبين لإنجاز ما يطلب منهم، "وذلك لأن الله فطر النفس البشرية على حب الخير والسلام، والرغبة في الحصول على كل محبوب، كما فطرها على كراهة الأذى والرغبة مما يصيبها من البلاء في النفس والمال والأهل"^٤. فغرس الرجاء في النفوس، والترغيب فيما عند الله - سبحانه وتعالى - من الخير الذي لا ينتهي له في الدنيا والآخرة أمر مطلوب، حتى يبادر العبد إلى القيام بكل ما من شأنه أن يجعله أهلاً لنفحات الله سبحانه، ورحمته، وكرمه. ولأهمية أسلوب الترغيب في التربية الإسلامية وأثره في النفس الإنسانية فقد استخدمه النبي ﷺ كثيراً في تحفيز أصحابه للمبادرة في الأعمال الصالحة، ومنها قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلَّقِينَ، قَالُوا: وَلِلْمُقَصَّرِينَ، قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلَّقِينَ، قَالُوا: وَلِلْمُقَصَّرِينَ»^٥.

أما الترهيب فهو: "كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله"^٦. ويعد أسلوب الترهيب من الأساليب المهمة للزجر عن الذنوب والمعاصي وقيح الأقوال والأفعال؛ وذلك لأن غرس الخوف من غضب الله وعقابه العاجل والآجل في النفوس مطلوب؛ لكي يحمل النفوس على اتقائه بتجنب ما يسخط الله ﷻ، والقيام بالطاعة التي ينال العبد بها مرضاة الله.

وقد استخدم النبي ﷺ الترهيب للزجر عن الذنوب والمعاصي والأخلاق السيئة، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ»، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»^٧. فكرر النبي ﷺ القسم، ونفي الإيمان ثلاثاً؛ للزجر والترهيب عن إيذاء الجار.

^١ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، ج ٢، ص ٧٤١، رقم ١٩٩٥؛ ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، ج ٤، ص ٢٠٢٦، رقم ٢٦٢٨.

^٢ الدخيل، مدخل إلى أصول التربية الإسلامية، ص ١٣٠.

^٣ زيدان، أصول الدعوة، ص ٤٢١.

^٤ القرشي، تربية النبي ﷺ لأصحابه، ص ٤٥٧.

^٥ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الحلق والتقصير عند الإحلال، ج ٢، ص ١٧٤؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تفضيل الحلق على التقصير، ج ٢، ص ٩٤٥، رقم ١٣٠١.

^٦ زيدان، أصول الدعوة، ص ٤٢١.

^٧ أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ج ٨، ص ١٠.

المطلب السادس: أسلوب الإقناع:

يعد أسلوب الإقناع من أهم أساليب التربية الإسلامية، وهو هدف أساس للحوار والمناقشة؛ لأنه يعتمد على الدليل المتقرر في نفوس المخاطبين، وكذلك تصوير الأمور الغيبية والمعنوية بصورة محسوسة، مما يكون أدمى للقبول، وألزم بالحجة. والإقناع: "عملية إرضاء، يقوم فيها المرابي باستخدام الطرق المؤثرة التي تجعل نفس المتعلم ترضى - بكل جوانبها - بالشيء المعتقد، وتقع به، بعيداً عن أي عامل خارجي، ويأتي الاتباع نتيجة لهذا الإقناع"^١.

وقد استُخدم أسلوب الإقناع في القرآن والسنة كثيراً، وتعددت أساليبه لأهميته وتأثيره الإيجابي في قبول الحق والإذعان له، وتعزيز القيم والمبادئ في نفوس المخاطبين، ومن هذه الأساليب قياس التمثيل وهو: "وهو إلحاق أحد الشيئين بالآخر، وذلك أن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه أو على أمر بدهي لا تنكره العقول، وبين الجهة الجامعة بينهما"^٢. وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب الإقناع كثيراً في أحاديثه، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وُلِدَ لِي غُلَامٌ أَسْوَدٌ. فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟» قَالَ: حُمْرٌ قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْزُقٍ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَأَتَى ذَلِكَ؟» قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ. قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ»^٣.

المطلب السابع: أسلوب إثارة روح التنافس:

يعد أسلوب المنافسة من الأساليب الإسلامية الأصيلة التي تزخر بها آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة؛ وذلك لما له من حث وترغيب في المسارعة لعمل الخير. والبعد عن الأعمال السيئة، قال الله تعالى بعد ذكره لأصناف من النعيم في الجنة: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتْمُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٢-٢٦].

والمنافسة هي: مجاهدة الفرد للانتصار على غيره من الأشخاص الذين يسعون للانتصار أيضاً وذلك بمسابقتهم في عمل الخير، وخير ما يتنافس عليه من الأعمال ما يقرب إلى الله سبحانه، ومنه الغبطة وهي: رغبة في النفس أن يكون لها مثل ما لغيرها من غير زوال ما عند الغير؛ وهي تؤدي إلى المنافسة إذا صحبتها العزيمة وحب العمل.

وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب إثارة المنافسة في قضايا ومجالات متعددة، ففي الجهاد ما رواه أنس بن مالك: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَفْرَدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَهَقُوهُ، قَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ»، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهَقُوهُ أَيْضًا، فَقَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ»،

^١ ابن جبار، لإقناع في التربية الإسلامية، ص ٣٠.

^٢ الألمي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص ٧٨.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، ج ٥، ص ٢٠٣٢، رقم ٤٩٩٩؛ ومسلم في صحيحه، كتاب اللعان، ج ٢، ص ١١٣٧، رقم ١٥٠٠، واللفظ للبخاري.

فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِصَاحِبِيهِ: «مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا»^١.

الخاتمة:

ففي ختام هذا البحث الذي أرجو أن أكون قد وفقت فيه، أذكر أهم النتائج والتوصيات:

- ١- المكانة العالية والرفيعة للشباب، فهم عماد الأمم، ومستقبل حضارتها.
- ٢- وجوب مراعاة خصائص مرحلة الشباب بكل جوانبها والمساهمة في تميمتها تنمية إيجابية واستثمارها الاستثمار الأمثل.
- ٣- يجب تنمية وتعزيز القيم الإسلامية الأصيلة لدى الشباب ؛ لأن هذه القيم هي المعايير والضوابط والمحكات لتصرفاتهم قبولاً ورفضاً.
- ٤- من أهم القيم الإسلامية الأصيلة التي يجب الاهتمام والعناية بها القيم العقدية، والأخلاقية، والاجتماعية، والعلمية والفكرية، والصحية، وذلك لأهمية هذه القيم وتأثيرها الفاعل في سلوك الأفراد والجماعات.
- ٥- يتعرض الشباب في هذا العصر لتحديات كبيرة، وهجوم شرس من الأعداء، كالغزو الفكري والأخلاقي، والغزو الحضاري، وفرض العولمة، والدعوة إلى القومية والحزبية والمذهبية.
- ٦- من أنجع السبل للتصدي لهذه التحديات التي يتعرض لها الشباب الاقتداء بالنبي ﷺ في تعامله مع الشباب، والاستفادة من الأساليب النبوية الشريفة في تعزيز القيم الإسلامية الأصيلة التي تعطي الشباب حصانة من الانحراف والاستسلام لهذه التحديات.
- ٧- تنوع الأساليب النبوية في تنمية وتعزيز القيم الإسلامية لدى الشباب له الأثر الفاعل والإيجابي في تنمية وتعزيز القيم الإسلامية لدى الشباب، مما يزيد من حصانة الشباب أمام هذه التحديات والمخاطر.
- ٨- من الأساليب النبوية التي استخدمها النبي ﷺ لتعزيز القيم والمبادئ لدى الشباب وكان لها الأثر الإيجابي في ذلك: أسلوب القدوة، أسلوب الحوار، أسلوب القصص، أسلوب ضرب الأمثال، أسلوب الترغيب والترهيب، أسلوب الإقناع، أسلوب إثارة روح التنافس.
- ٩- تنوع الأساليب النبوية لتنمية وتعزيز القيم لدى الشباب يفتح الباب أمام الدعاة والمربين للبحث عن الأساليب الفاعلة التي تناسب فئة الشباب والعصر الذي يعيشون فيه، مستفيدين من التقدم الحضاري والتكنولوجي وبما يتوافق مع الشريعة الإسلامية.

التوصيات:

- ١- الاستفادة من نصوص السنة النبوية الشريفة في مواجهة الأخطار والتحديات فهي معين لا ينضب.

^١ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، ج ٣، ص ١٤١٥، رقم ١٧٨٩.

- ٢- الاهتمام بفئة الشباب، وذلك بعقد الدورات والندوات والمؤتمرات لدراسة خصائصهم وتوجهاتهم من أجل التعامل معهم التعامل الأمثل.
- ٣- توجيه طلاب الدراسات العليا بالدراسة والبحث في الموضوعات المتعلقة بفئة الشباب، لمعرفة خصائصهم واستثمار طاقاتهم.

المصادر والمراجع:

١. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، المعجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
٢. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط ٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
٣. ابن هشام، عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف حسن، (بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ).
٤. أبو العينين، علي خليل مصطفى، القيم الإسلامية والتربوية، (المدينة المنورة: مكتبة الحلبي، ١٤٠٨هـ).
٥. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، (بيروت: دار الكتاب العربي).
٦. أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
٧. الألباني، محمد بن ناصر الدين، صحيح وضعيف الجامع الصغير، (بيروت: المكتب الإسلامي).
٨. الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٤، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
٩. الألمعي، زاهر عواض، مناهج الجدل في القرآن الكريم، (الرياض: مطابع الفرزدق، د.ط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).
١٠. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (بيروت: دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
١١. الترمذي، محمد بن علي، الأمثال من الكتاب والسنة، تحقيق: السيد الجميلي، بيروت، دار ابن زيدون).
١٢. الترمذي، محمد بن عيسى، السنن، تحقيق: أحمد شاکر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
١٣. جعلوك، محمد بن علي، الحوار لغة الضعفاء.. أم الأقوياء، (بيروت: دار الراتب الاجتماعية، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
١٤. الحاكم، محمد بن عبد الله، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، ١٤١١هـ، د.ت).
١٥. الحسن، إحسان بن محمد، تأثير الغزو الثقافي على سلوك الشباب العربي، (الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، د.ط، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
١٦. الدخيل، محمد بن عبد الرحمن، مدخل إلى أصول التربية الإسلامية، (الرياض: دار الخريجي للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
١٧. زهران، حامد بن عبد السلام، علم نفس النمو الطفولة والمراهقة، (القاهرة: عالم الكتب، ط ٥، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
١٨. الزهراني، صالح بن يحيى. قيم السلام في كتب التفسير والحديث والتربية الوطنية في المرحلة المتوسطة في المملكة العربية السعودية، (رسالة دكتوراه، كلية التربية، جامعة أم القرى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
١٩. زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة، (الإسكندرية: دار عمر بن الخطاب، ط ٣، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

٢٠. الشنقيطي، أحمد عبد الصمد، الأساليب النبوية لتنمية القيم الإيمانية لدى الشباب المسلم في ضوء التحديات المعاصرة، (رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
٢١. العرياني، سلطان بن محمد، القصة في السنة النبوية وآثارها التربوية، (رسالة ماجستير، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
٢٢. العيد، سليمان بن قاسم، المنهاج النبوي في دعوة الشباب، (رسالة ماجستير، كلية الدعوة والإعلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض: ١٤١١هـ/١٩٩١م).
٢٣. فهمي، محمد بن سيد، العولمة والشباب من منظور اجتماعي، (الإسكندرية: دار الوفاء، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
٢٤. القرشي، خالد بن عبد الله، تربية النبي ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم في ضوء الكتاب والسنة، (مكة المكرمة: دار التربية والتراث، عمان: دار المعالي، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
٢٥. القطان، مناع خليل، مباحث في علوم القرآن، (الرياض: مكتبة المعارف، ط٨، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
٢٦. مسلم بن الحجاج القشيري، الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٤، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
٢٧. منصور، عبد المجيد سيد، والشريبي، زكريا، الشباب بين صراع الأجيال المعاصر والهدى الإسلامي، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢٥هـ).
٢٨. النحلوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، (الرياض: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط١، ١٩٧٩م).
٢٩. الهاشمي، عبد الحميد بن محمد، علم النفس التكويني، (الرياض: دار الهدى، ط٦، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
٣٠. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
٣١. يالجن، مقداد، توجيه المتعلم إلى منهاج التعلم في ضوء التفكير التربوي الإسلامي، (الرياض: دار عالم الكتب، ط٢، ١٤١٦هـ).
٣٢. يالجن، مقداد، جوانب التربية الإسلامية الأساسية، (بيروت: مؤسسة دار الريحاني، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
٣٣. اليوسي، الحسن، زهر الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق: محمد حجي، محمد الأخضر، (المغرب: دار الثقافة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).

حجية القرآن الكريم التربوية

د. صالح بن سليمان البقاوي^١

ملخص البحث:

جاء هذا البحث ليبيّن نماذج من "حجية وبراہین القرآن الكريم التربوية"، ويهدف إلى بيان وإيضاح هذه الشمولية، وخاصة فيما يتعلق بحجية القرآن الكريم في القرن الحادي والعشرين في التربية، وبيان تلك النماذج القوية لهذه الشمولية، حيث مازال القرآن باقياً في صدور الأمة، ومازال صالحاً للعمل والتطبيق، ومازال قادراً على أن يبلغ بالإنسانية ما بلغ بها من قبل، بل ويخرجها من دياجير الظلمات والتخبط.

والمنهج المتبع هنا يجمع بين المناهج: التاريخي والوصفي والتحليلي والاستنباطي. وجاءت مطالب البحث من: ١- تكريم الإنسان. ٢- احترام عقل الإنسان. ٣- الحث على التعلم والتعليم. ٤- مكانة العمل واحترام المهنة. ٥- آداب المجتمع. ٦- المجال الدولي. ٧- اقتران العلم بالعمل. ٨- مراعاة الفطرة البشرية. ٩- الاستخدام التربوي للقصة. وتحت كل مطلب مجموعة من المظاهر المدعمة بالدليل القرآني لإقامة الحجّة والبرهان المؤيد لهذا المحور.

مقدمة:

يوجه بعض الباحثين والمفكرين المنبهرين بالفلسفات التربوية الأخرى، يوجهون العديد من الاتهامات الباطلة للتربية الإسلامية بوصفها أنها قاصرة، وأخروية، ولا تفيء بمتطلبات العصر وواقع العالم، وأنها تشجع على الكسل والتواكل، وأنها بعيدة عن تلبية حاجات المتربي ورغباته، وهي سبب لتخلف المسلمين عن ركب الحضارة إلى غير ذلك من الاتهامات. وهم يرددون أقوال بعض الفلاسفة والمفكرين غير المسلمين والمشككين. "وكان من أهم ما وجه للفكر العربي الإسلامي أنه فكر غيبي، وأنه فكر تراثي، وأنه ينقصه المنهج العلمي، وواجه حملة غير منصفة من أجل تصويره على نحو من أنحاء القصور أو الضعف أو التبعية، وتهدف إلى هدم قيمنا، وقتل مقوماتنا الأساسية، وتشويه ملامح شخصيتنا، وإبرازنا على النحو الذي لا طابع له ولا قيم ولا مقومات"^٢.

ولو أنهم تأملوا وتفكروا وفتشوا في مصادر التربية الإسلامية وخاصة القرآن الكريم لتبين لهم الحق، ووضح أمامهم الطريق، وزالت جميع الإشكالات والران الذي على عقولهم قبل أبصارهم، لو أعمالوا عقولهم وفتشوا عن كنوز وحكم هذا القرآن العظيم، لوجدوا الحق والإجابات الشافية لجميع تساؤلاتهم، والهداية للطريق القويم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠] قال عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

^١ قسم التربية الإسلامية والمقارنة، كلية التربية، جامعة أم القرى، بمكة المكرمة.

^٢ الجندي، أضواء على الفكر العربي الإسلامي، ص ١٨.

أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أمورهم^١. وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وقال ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَعَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ فِيهِ خَبَرَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»^٢. هذا وقد وضح ﷺ أن القرآن الكريم هو المصدر العلمي لحل جميع المشاكل وهو المخرج منها، فقال ﷺ: «الكتاب العزيز الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)، من ابتغى الهدى في غيره فقد أضله الله، ومن ولي هذا الأمر من جبار فحكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراف المستقيم، فيه خير من قبلكم ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، وهو الذي سمعته الجن فلم تنهأ أن قالوا: (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد)، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفتى عجائبه»^٣.

يقوم الباحث بهذه الدراسة ليميط اللثام عن هذه الشبهات والشكوك التي يرددها الكثير سواء من الخصوم أو من أبناء الأمة المنبهرين بغيرهم، وهو يجيب عن إشكالات وتساؤلات البحث التي مدارها على: هل للقرآن حجج وبراهين تربوية تناسب العصر الحديث؟ وما هي تلك النماذج التي نستطيع الاستشهاد بها؟ ولعل أهمية هذا البحث تبين أن القرآن الكريم مصدر عزة المسلمين، وتفوقهم وله أهمية بالغة في شموليته لجميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية والصحية...، وكذلك توضيح نماذج من حجية القرآن الكريم التربوية، فالقيمة التربوية الكبرى أن الله تعالى أنزل هذا الكتاب لهداية الناس إلى ما فيه صلاح حالهم في الدنيا والآخرة، وحفلت آياته بالدليل على ذلك فقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۖ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. واستخدم الباحث في هذا البحث المنهج الأصولي القائم على الوصف والاستنباط وهو "الذي نهجه علماء الإسلام في صياغة أفكارهم وثقافتهم وتصرفاتهم وفق الأصول الشرعية الكلية حتى تأخذ الصفة الدينية التي تستمد شرعيتها من عقيدة التوحيد"^٤.

مصطلحات الدراسة:

حجية القرآن: لغة: الدليل والبرهان^٥. واصطلاحاً: ما دل به على صحة الدعوى. وقيل: الحجة والدليل واحد^٦. والحجية مصدر صناعي، ومعنى حجية القرآن كونه يدل على صحة وحقيقة ما يرشد إليه. والقرآن الكريم حجة؛ لأنه قد ثبت تواتره، وهذا يوجب القطع بصدوره، وثبتت نسبته إلى الله عز وجل. وحجيته بتأكيد الله تعالى على عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله وتأكيد حقيقته، والأمر باتباعه في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج ١، ص ٤٤٥.

^٢ البيهقي، شعب الإيمان، ج ٢، ص ٢٤٧.

^٣ الدارمي، السنن، ج ٢، ص ٢٣٠.

^٤ أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، ص ٤٠٠.

^٥ ابن منظور، لسان العرب، ج ٢، ص ٢٢٨.

^٦ الجرجاني، كتاب التعريفات، ص ٨٢.

بعضهم لبعض ظهيرا» [الإسراء: ٨٨] من هنا نجد شمولية وتكامل التربية في القرآن الكريم وحجيته بذلك، فتربية القرآن الكريم "شاملة لا تعني بمفهومها المألوف، فهي لا تقتصر على المسجد أو المعهد، ولا تختص بالعبادة دون السلوك، أو تهتم بالفرد وتترك المجتمع، أو تعنى بالعقيدة وتهمل العمل، إنما تشمل كل جوانب النفس، وتعمل في كل ميادين الحياة"^١.

نماذج من حجية القرآن الكريم:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم هدى ونوراً ليعلمنا الكتاب والحكمة ويزكينا، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] من هنا نشاهد ونقف على تفسير هذه الآية التي اتضح فيها ما هي التزكية؟ وما هو التعليم؟ وما هي مخرجاتهما؟ وهما نموذج من الحجج التربوية في هذا الكتاب العظيم، وبأسهل العبارات وأفضل الأساليب فيزكيتهم، هو "بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: علم القرآن وعلم السنة، المشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقاً، وأحسنهم هدياً وسمتاً، اهتموا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين، فله عليهم بيعته هذا الرسول ﷺ أكمل نعمة، وأجل منحة"^٢. وهنا نذكر بعض النماذج من حجية القرآن التربوية:

المطلب الأول: تكريم الإنسان

الإنسان هو المخاطب الرئيس في القرآن، والقرآن لأجله نزل، ولا عجب في ذلك، فهو أكرم مخلوق على الله، وقد فضله سبحانه على كثير ممن خلق، يقول عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] "وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأوصياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة"^٣. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [البقرة: ٣٠] "إنه التكريم في أعلى صورته، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة. لقد وهب سر المعرفة، كما وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق. إن ازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة. إن هذا كله بعض أسرار تكريمه"^٤. ومن هنا فإن أجل تكريم كرم الله به الإنسان هو أن الله منحه أدوات التعلم والتعرف على حقائق الأمور، وصفات الأشياء وخصائصها، وذلك ليتابع بحثه العلمي السليم ليكتشف أسرار هذا الكون. ويستفيد من كل هذه الاكتشافات العلمية في كل وقت وعصر، وبما يتجدد من نوازل علمية

^١ شديد، محمد، منهج القرآن في التربية، ص ٨.

^٢ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٥٥٣.

^٣ المرجع السابق، ص ٤٦٣.

^٤ قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٥٧.

واختراعات مستحدثة، في جميع المجالات التي تحكم حياة الإنسان، وتحمله المسؤولية بحيث يكون لديه الاستعداد للخير أو الشر. ومن الواضح مدى التكريم الذي منحه الله سبحانه وتعالى وميزه به عن سائر المخلوقات، وهنا نذكر بعض مظاهر هذا التكريم:

(١) منحه الله العقل والتفكير: وهذه الميزة تميزه عن باقي المخلوقات وقوة تعينه على الإستخلاف، والتمكين، والعقل مناط التكليف والمحاسبة في الإسلام، وقد ذكر القرآن وظائف العقل المختلفة كالتفكير، والتذكر، والتدبير، والرشد، والتفقه، "وبه تميز الإنسان عن الحيوان، فإن عطل الإنسان عقله ولم يستخدمه للوصول إلى العلم وإلى الإيمان، فهو كالحیوان أو أضل سبيلاً" قال تعالى: ﴿رَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ۖ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤]، وقد جاء في تفسير هذه الآيات "رَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ ﴿﴾ هَذَا يَأْسُ عَنْ إِيْمَانِهِمْ، وَإِشَارَةٌ إِلَيْهِ السَّلْبُ أَنْ لَا يَتَأَسَّفَ عَلَيْهِمْ، وَإِعْلَامٌ أَنَّهُمْ فِي الْجَهْلِ بِالْمَنَافِعِ وَقَلَّةِ النَّظْرِ فِي الْعَوَاقِبِ مِثْلُ الْبَهَائِمِ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا مِنَ الْأَنْعَامِ مِنْ حَيْثُ هُمْ فَهَمْ وَتَرَكُوا اسْتِعْمَالَهُ فِيمَا يُخَلِّصُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. وَالْأَنْعَامُ لَا سَبِيلَ لَهَا إِلَى فَهْمِ الْمَصَالِحِ. ﴿﴾ أَرَيْتَ اسْتَفْهَامٌ تَعَجُّبٌ مِنْ جَهْلِ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ. ﴿﴾ وَإِلَهُهُ ﴿﴾ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ لِاتَّخَذَ وَ﴿﴾ هَوَاهُ ﴿﴾ الثَّانِي أَيْ أَقَامَ مَقَامَ الْإِلَهِ الَّذِي يُعْبُدُهُ هَوَاهُ فَهُوَ جَارٍ عَلَى مَا يَكُونُ فِي هَوَاهُ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ إِلَهًا إِلَّا هَوَاهُ، وَادَّعَاءُ الْقَلْبِ لَيْسَ بِجِدِّ إِذْ يُعَدُّهُ مَنْ اتَّخَذَ هَوَاهُ إِلَهُهُ"^١. وفيه توجيه رباني لحجية القرآن الكريم التربوية، أن لا يكون الإنسان كالبهائم التي لا تعقل ولا تهتدي، وفيها زجر لهم بأن يتصفوا بصفاتها الممقوتة، وأنها لا تمتلك القلب الذي تعقل فيه، وكذلك بيان فضل هذا الإنسان حيث كرمه الله بعقله وفضله على تلك البهائم. ويتبين لنا أن مكان العقل هو القلب، وهو أداة من أدوات المعرفة فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وهذا بحق حجة وبرهان في كتاب الله لبيان عظيم مكانة القلب في التعليم والمعرفة والتربية وقبول الحق.

(٢) منحه الله القدرة على التعلم والتعليم: حيث وهبه أدوات التعلم وهي العقل، والفؤاد، والحواس، فالإنسان يولد بلا معرفة، ولا علم ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. لذا وضع ابن عاشور هذه الأدوات فقال: "وذلك أن الطفل حين يولد لم يكن له علم بشيء ثم تأخذ حواسه تنقل الأشياء تدريجاً فجعل الله في الطفل آلات الإدراك وأصول التفكير. فقوله تعالى: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ تفسيره أنه أوجد فيكم إدراك السمع والبصر والعقل، أي كونها في الناس حتى بلغت مبلغ كمالها الذي ينتهي بها إلى علم أشياء كثيرة، كما دلّت عليه مقابله بقوله تعالى: ﴿لا تعلمون شيئاً﴾ أي فعلتم أشياء. ووجه أفراد السمع وجمع الأبصار تقدم عند قوله تعالى: ﴿أمن يملك السمع والأبصار﴾ [يونس: ٣١] وقوله تعالى: ﴿قل رأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ [الأنعام: ٤٦]. و{الأفئدة}: جمع الفؤاد، وأصله القلب. ويطلق كثيراً على العقل وهو المراد هنا. فالسمع

^١ علي وآخرون، التربية الإسلامية المفهومات والتطبيقات، ص ٩٣.

^٢ ابن حبان، البحر المحيط، ج ٨، ص ١١٠.

والبصر أعظم آلات الإدراك إذ بهما إدراك أهم الجزئيات، وهما أقوى الوسائل لإدراك العلوم الضرورية. فالمراد بالسمع: الإحساس الذي به إدراك الأصوات الذي آتته الصمّاخ، وبالإبصار: الإحساس المدرك للذّوات الذي آتته الحدقة. واقتصر عليهما من بين الحواس لأنهما أهمّ، ولأن بهما إدراك دلائل الاعتقاد الحقّ. ثم ذكر بعدهما الأفئدة، أي العقل مقرّ الإدراك كلّ، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتها، وهي العلم بالتصوّرات المفردة " وقال تعالى عن الفؤاد: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] "أي: إن السمع الذي تسمع به -أيها المكلف-، والبصر الذي تبصر به، والفؤاد -أي القلب- الذي تحيا به، كل أولئك الأعضاء ستكون مسئولا عن أفعالها يوم القيامة، وسيقال لك بتأنيب وتوبيخ: لماذا سمعت ما لا يحل لك سماعه، ونظرت إلى ما لا يجوز لك النظر إليه، وسعيت إلى ما لا يصح لك أن تسعى إليه!!"^٢، اهتمام لا يدانيه أو يعادله اهتمام في أي فكر أو ثقافة أو فلسفة قديمة أو حديثة بهذه الأدوات العلمية إلا في القرآن الكريم الذي وضع وجلى للعالم أهميتها واهتمامه بها وجعلها أدوات علم ومعرفة حقيقية فيا لها من حجاج تربوية في هذا الكتاب العظيم؟.

(٣) توضيح حرية الاختيار للإنسان: وذلك بقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] حيث يكون للإنسان حرية الاختيار والإرادة فيما يختار أي طريق شاء، طريق الخير أو طريق الشر "أي: طريقي الخير والشر، قال الإمام: النجد مشهور في الطريق المرتفعة، والمراد بها طريقي الخير والشر؛ وإنما سماهما نجدين، ليشير إلى أن في كل منهما وعورة وصعوبة مسلك فليس الشر بأهون من الخير كما يُظنّ، وإلى أنهما واضحا جليان لا يخفى واحد منهما على سالك، أي: أودعنا في فطرته التمييز بين الخير والشر، وأقمنا له من وجدانه وعقله أعلاماً تدلّه عليهما، ثم وهبناهُ الاختيار، فإليه أن يختار أي: الطريقتين شاء. فالذي وهب الإنسان هذه الآلات، وأودع باطنه تلك القوى، لا يمكن للإنسان أن يفلت من قدرته، ولا يجوز أن يخفى عليه شيء من سريرته"^٣.

(٤) التقوى معيار التفاضل عند الله: قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] هنا حجة في التربية تضاف وهي هذه الآية، ويوضحها التفسير لها "الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا، ولكن الله تعالى عليم خبير"^٤. القرآن يأتي بحجة تربوية أخرى فهو ينظر إلى البشر كلهم ينظرون ويفكرون ويعلمون ويتعلمون، لا يحجر على أحد منهم، فكلهم عباد مطالبون بتحقيق العبودية، فإذا كملت هذه العبودية بلغوا الكرامة والتكريم عند الله.

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٤، ص ٢٣٢.

^٢ سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ج ٨، ص ٣٥٠.

^٣ القاسمي، محاسن التأويل، ج ٩، ص ٤٧٧.

^٤ السعدي، المرجع السابق، ج ٥، ص ٨٠٢.

٥) حسن الخلق والتكوين: قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٥] "أي: أعدل قامة وأحسن صورة، وذلك أنه خلق كل حيوان منكباً على وجهه إلا الإنسان خلقه مديد القامة، يتناول مأكوله بيده، مزيناً بالعقل والتميز"^١. وهذا تفسير بديع وعظيم الفائدة، حيث وضح وبين أن المراد بالتقويم هو السمات النفسية والجسمية والعقلية والخلقية، ولم يقتصره على القوام الخلقي، وهذا يبين نموذجاً من تلك الحجج التربوية لكرامة الإنسان في القرآن الكريم.

٦) أمره سبحانه الملائكة بالسجود لآدم: فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤] "وفي هذه الآية منزع بديع لتعظيم شأن العلم وجملة العلماء بالتعظيم والتبجيل لأن الله لما علم آدم علماً لم يؤهل له الملائكة كان قد جعل آدم نموذجاً للمبدعات والمخترعات والعلوم التي ظهرت في البشر من بعد والتي ستظهر إلى فناء هذا العالم"^٢. وسجود الملائكة لآدم إنما هو سجود تكريم، لا سجود عبادة كما ذكر المفسرون.

المطلب الثاني: احترام عقل الإنسان

الإنسان هو مادة وموضوع التربية، وجاء القرآن الكريم ليكرم عقله كما أكرم جنسه وذاته كما مر معنا، "فإن قيمة المصدر التربوي، يمكن أن تقاس باحترامه لعقل الإنسان لأنه الأداة التي بها يفهم ويتأمل، ويتفكر ويتعلم"^٣. ولقد أشاد القرآن بالعقل وعظمه في عدة مواضع وكرره "ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها علماء النفس، بل هي وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها، وتعتمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص ومناسباته"^٤. ومن تلك الآيات ما يأتي:

١) قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْحَيُّ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْحَيِّثِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:١٠٠] "فأمر أولي الألباب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب، وهم الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير"^٥.

٢) قال تعالى: ﴿لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نُبْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢] أي فقهاً وعلماً. وبه قال شيخ المفسرين الطبري: "وقوله: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يقول تعالى ذكره: أعطيناه حينئذ الفهم والعلم. كما: حدثني المثنى، قال: ثنا أبو حذيفة، قال: ثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: حكما وعلما قال: العقل والعلم قبل النبوة"^٦.

٣) قال تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ۖ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢]. والحكمة: اكتساب العلم النافع والعمل به. وهي: العقل والفهم، وإصابة القول.

^١ البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٨٤٢.

^٢ ابن عاشور، المرجع السابق، ج ١، ص ٤٢٢.

^٣ علي، أصول التربية الإسلامية، ص ٢٧.

^٤ العقاد، التفكير فريضة إسلامية، ص ٥.

^٥ السعدي، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٤٥.

^٦ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٦، ص ٢٦٤.

٤) قال تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]. أي ذوي عقول.

٥) قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٢٧] يقول ابن عاشور: "والقلب: العقل وإدراك الأشياء على ما هي عليه. وإلقاء السمع: مستعار لشدة الإصغاء للقرآن ومواعظ الرسول ﷺ كأنَّ أَسْمَاعَهُمْ طَرَحَتْ فِي ذَلِكَ فَلَا يَشْغَلُهَا شَيْءٌ آخَرَ تَسْمَعُهُ"^١.

٦) قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] أي ويمثل هذا البيان نبين البراهين والحجج لأصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بها.

٧) قال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠] أي عاقلاً. ونجد في المقابل آيات تذكر الذين يجحدون نعمة العقل، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ۗ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۗ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] والقلوب هنا العقول "أُولَئِكَ الَّذِينَ بَهَذِهِ الْأَوْصَافِ الْقَبِيحَةِ كَالْأَنْعَامِ أَي: الْبَهَائِمِ، الَّتِي فَقدت الْعُقُولَ، وَهؤُلاءِ آثَرُوا مَا يَفْنَى عَلَى مَا يَبْقَى، فَسَلَبُوا خَاصِيَةَ الْعُقُلِ. بَلْ هُمْ أَضَلُّ مِنَ الْبَهَائِمِ"^٢. "وقد استخدم القرآن أفضل الأساليب التربوية في التعليم، بدءاً بالإقناع العقلي الإنساني المقرون بإثارة العواطف، وتواصلًا بالإقناع المحسوس وضرب الأمثلة بالأمور المسلمة، وانتهاء باستخدام مجموعة من الأساليب المتنوعة المشوقة كالأسلوب القصصي والاستفهامي والحواري والخبري ونحوه"^٣.

المطلب الثالث: الحث على التعلم والتعليم

يأتي القرآن الكريم مهتماً بالعلم ومبيناً أهميته في حياة الأمة، وهو يوضح جانباً مهماً في إبراز نماذج من حجية القرآن الكريم التربوية، ومما يزيد ويساعد على العلم والتعلم.

١) أهمية بالغة للعلم: فأول آيات نزلت على الرسول ﷺ هي آيات القراءة والعلم والتعلم، "وحسبنا هنا أن القرآن قد بدأ نزوله بآيات تربوية، فيها إشارة إلى أن أهم أهدافه تربية الإنسان بأسلوب حضاري فكري، عن طريق الاطلاع والقراءة والتعلم والملاحظة العلمية لخلق الإنسان منذ كان علقه في رحم الأم"^٤ فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق].

٢) تنويه بمكانة العلماء وفضلهم ورفع درجاتهم فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

٣) السؤال وطلب المزيد من العلم من الله تعالى حيث لم يؤمر بالتزود من أي شيء في الدنيا إلا العلم، فقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۗ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

^١ ابن عاشور، المرجع السابق، ج ٢٦، ص ٣٢٤.

^٢ السعدي، المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٤.

^٣ علي، الأصول الإسلامية للتربية، ص ٣٩.

^٤ النحلوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ٢٤.

٤) حثهم على التأمل والتدبر ليتداركوا علمهم بما أهملوا، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبأ:٩].

٥) الانتفاع بالعلم والتأمل في الأرض، والأنفس والسماء، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾ [الذاريات].

٦) وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر على الحق فقال تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

٧) أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده، وكيف سخرها الله للعباد، وذلكها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها. فقال تعالى: ﴿لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾ [الغاشية].

٨) الحرص على الدعوة لممارسة التعليم والتربية، وعقوبة من يكتم العلم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)﴾ [البقرة]. قال صاحب المنار: "ثم إن العبرة في الآية هي أن حكمها عامٌ وإن كان سببها خاصاً، فكل من يكتم آيات الله وهداياته عن الناس فهو مستحقٌ لهذه اللعنة. ولما كان هذا الوعيد وأشباهه حجةً على الذين لبسوا لباس الدين من المسلمين وانتحلوا الرئاسة لأنفسهم بعلمه، حاولوا التقصي منه فقال بعضهم: إن الكتمان لا يتحقق إلا إذا سئل العالم عن حكم الله تعالى فكتمه، وأخذوا من هذا التأويل قاعدةً هي أن العلماء لا يجب عليهم نشر ما أنزل الله تعالى ودعوه الناس إليه وبيانه لهم، وإنما يجب على العالم أن يجيب إذا سئل عما يعلمه، وزاد بعضهم إذا لم يكن هناك عالمٌ غيره، وإلا كان له أن يجيل على غيره. وهذه القاعدة مسلمة عند أكثر المنتسبين إلى العلم اليوم وقبل اليوم بقرون، وقد ردها أهل العلم الصحيح فقالوا: إن القرآن الكريم لم يكتف بالوعيد على الكتمان، بل أمر ببيان هداية للناس، وبالذعوى إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوعد من يترك هذه الفريضة، وذكر لهم العبر فيما حكاه عن الذين قصروا فيها من قبل".^١ إن الدعوة إلى التعلم والتعليم في كتاب الله العزيز هي حجج تربوية ودعوة إلى التأمل والتدبر والاعتبار والاتعاظ في مخلوقات الله وبديع صنعه سبحانه وتعالى، والتزود والاستفادة من كافة أنواع المعرفة ومجالاتها المتصلة فيه بكل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم على حد سواء، وهذا يعتبر من أهم التطبيقات التربوية للعلم والتعلم في القرآن الكريم.

المطلب الرابع: مكانة العمل واحترام المهنة

^١ رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج ٢، ص ٤١.

كما تقدم معنا أن العلم قيمة رفع القرآن من شأنها، والعلم لا يبد له من مخرجات ونتائج، فالعمل هو ذلك، وهو الترجمة أو التطبيق التربوي والتجسيد العملي لنظريات العلم. ولعل من الأهمية أن نذكر نماذج من تلك الحجج التربوية في القرآن الكريم التي تبرز مكانة العمل واحترام المهنة، والتخصص، ومنها ما يأتي:

(١) أن يكون العمل مناسباً مع قدرات وطاقت الفرد الجسمية والعقلية والذهنية، وألا يكون فيه مشقة أو كلفة على العامل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

(٢) الحرص على إتقان العمل وهو مرتبط بالأمانة، وحسن أداء العمل: قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

(٣) التنوع في العمل والمهن فتختلف باختلاف الأشخاص، والأماكن والبلدان: فهي متنوعة، منها:

(أ) صناعة المعادن والتعدين قال تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَعْدَ مَمَلِكِنَا فَأَوْفَىٰ نَجْمَ الْوَجْدِ وَأَلَمْنَا لَكَ الْمُدُنِ الْأُولَىٰ وَتَعَالَىٰ عَنِ الْغَيْبِ مَا نُلَاقُ﴾ [سبأ: ١٢] والمقصود سيدنا سليمان عليه السلام حيث بين الله تعالى أنه أسال له النحاس كما يسيل الماء، يعمل به ما يشاء، ومن قبله داود عليه السلام حيث ألان الله له الحديد فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۗ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

(ب) صناعة الجلود قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٧٠].

(ت) صناعة المفروشات قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ مَّا رَزَقْنَاهُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

(ث) صناعة المساكن والبناء والتعمير، قال تعالى: ﴿وَكَاثِبُونَ يَبُغُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]. "أي بلغت بكم الفراشة والحذق إلى أن اتخذتم بيوتاً من الجبال الصم الصلاب"^١.

(ج) الزراعة والعمل بها والتكسب منها ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَاءٌ لَهُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

(ح) العمل بجميع مظاهره الفردي والجماعي قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

المطلب الخامس: آداب المجتمع

وهي البناء الأخلاقي، وأمر القرآن بها، ووضع هناك مجموعة من المبادئ الأخلاقية لحماية وصيانة وتكاتف المجتمع مثل:

^١ السعدي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٧٣.

- (١) الأخوة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] "ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين، بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتواد، والتواصل بينهم، كل هذا تأكيد لحقوق بعضهم على بعض".^١
- (٢) الرحمة بين الأزواج قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].
- (٣) عزة المؤمن قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].
- (٤) تحقيق التوحيد، وحماية الأنفس، وطهارة المجتمع، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۗ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].
- (٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].
- (٦) الدعوة الى الخير قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

- (٧) العمل الصالح قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].
- (٨) الشورى قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

المطلب السادس: المجال الدولي

أولاً: الوفاء بالعهد قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا...﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿بلى مَنْ أوفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦] "أي كل من أوفى بعهد الله فأمن بنبيه محمد ﷺ واستقام على دينه، واتقى ما نهى الله عنه من ترك الخيانة والغدر وما إلى ذلك من الحرمات، فإن الله يحبه ويرضى عنه، ومن لم يفعل ذلك فإن الله يبغضه ولا يحبه ويعذبه العذاب الأليم"^٢، وهي مع كل البشر دون استثناء وفيها جانب مهم وكبير بتربية الأمة على الوفاء حتى مع غير أهل الملة.

ثانياً: تحريم الغدر والخيانة: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

^١ المرجع السابق، ص ٥١٦.

^٢ سيد قطاوي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٥١.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧] "إن الله لا يحب من كان من صفته خيانة الناس في أموالهم، وركوب الإثم في ذلك وغيره مما حرمه الله عليه"^١. وقال القرطبي: "روي أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة، أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ويغتال ويغدر ويحتال، فنزلت هذه الآية إلى قوله: {كُفُورٍ}، فوعد فيها سبحانه بالمدافعة، ونهى أفصح نهي عن الخيانة والغدر. وقد مضى في الأنفال التشديد في الغدر، وأنه ينصب للغادر لواء عند استه بقدر غدرته يقال: هذه غدره فلان"^٢. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]. وغيرها من الآيات الكريمة في كتاب الله التي تحذر من الغدر والخيانة، وهي حجج تربوية على الناس جميعاً بأن لا يغدروا أو يخونوا.

ثالثاً: المواثيق: قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٧] وهنا نجد أن المواثيق الدولية محترمة في كتاب الله وبينه التفسير "أي: عهد بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق"^٣ وفي هذا التحذير تنويه بشأن المواثيق والمعاهدات، وأنه لا ينقضها إلا أمر صريح في مخالفته.

رابعاً: العدل: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۗ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] وهذه الآية أبلغ آية في تحقيق العدل وتطبيقه تربوياً حتى مع الخصوم، ويوضحها "يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ كونوا قَوَّامِينَ بالحق، ابتغاء وجه الله، شهداء بالعدل، ولا يحملنكم بعض قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا بين الأعداء والأحباب على درجة سواء، فذلك العدل أقرب لخشية الله، واحذروا أن تجوروا. إن الله خبير بما تعملون، وسيجازيكم به"^٤. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وهذا يوضح لنا جانباً آخر لتحري العدل وتطبيقه في القول والعمل "فَاعْدِلُوا" في قولكم، بمراعاة الصدق فيمن تحبون ومن تكرهون، والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيانه، فإن الميل على من تكرهه بالكلام فيه أو في مقاله من الظلم المحرم. بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبعدها منه. وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين، في لحظه ولفظه"^٥. إن حجج القرآن التربوية لا تتوقف عند حد أو جانب من جوانب الحياة أو المجالات المحلية أو الدولية وما تقدم ما

^١ الطبري، المرجع السابق ج ٥، ص ٢٧٠.

^٢ القرطبي، المرجع السابق، ج ١٢، ص ٦٧.

^٣ السعدي، المرجع السابق، ج ١، ص ١٨٦.

^٤ مجموعة من العلماء، المصحف الميسر، ص ١٠٨.

^٥ السعدي، المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٩.

هو الا نماذج بسيطة من معين الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

المطلب السابع: اقتران العلم بالعمل

وقد جسده عدة آيات في كتاب الله جل وعلا منها: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] "لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى توحيد الله وعبادته وحده وعمل صالحاً وقال: إنني من المسلمين المنقادين لأمر الله وشرعه. وفي الآية حث على الدعوة إلى الله سبحانه، وبيان فضل العلماء الداعين إليه على بصيرة، وفق ما جاء عن رسول الله محمد ﷺ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] وحذر من خطورة التهاون بالعمل والاعتماد فقط على القول، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]. أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتتهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به. وتلك صفة ممقوتة عند الله سبحانه. ومن هنا نستخلص مبدأ اقتران العلم بالعمل بوصفه جزءاً لا يتجزأ من فلسفة وأهداف التربية الإسلامية وحججها القرآنية.

المطلب الثامن: مراعاة الفطرة البشرية

وهنا لا بد من مراعاة حاجات النفس البشرية وتوجيهها وتفريغها في مجراها الصحيح والسليم، ومن مراعاة ذلك في القرآن:

أ) الضبط لا الكبت: فمثلاً طبيعة الميل الى الجنس الاخر، يبيحه الإسلام بالإشباع بالزواج الشرعي، قال تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: ٣٠] "والذين هم حافظون لفروجهم عن كل ما حرم الله عليهم، إلا على أزواجهم وإمائهم، فإنهم غير مؤاخذين"^١. وقال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثَلِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعٍ ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣] وهو في المقابل يحرم ويجرم الزنا فقال تعالى: ﴿لَا تَقْرُبُوا الزِّنَا ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] "ووصف الله الزنى وقبحه بأنه {كَانَ فَاحِشَةً} أي: إنما يستفحش في الشرع والعقل والفطر لتضمنه التحري على الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاصد"^٢. وحرم ذلك لأنه خروج عن الفطرة السوية. وفي المقابل أباح الإسلام التمتع بالزينة والطعام فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وهي تشمل أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكول ومشرب بجميع أنواعه.

^١ مجموعة من العلماء، المصحف الميسر، ص ٤٨٠.

^٢ المرجع السابق، ص ٥٥٩.

^٣ المرجع السابق، ص ٢٨٥.

(ب) التطلع لوعد الله نتيجة عمله الصالح قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۖ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩]. فالمؤمن يريد أن يرى نتيجة عمله ويتطلع إلى ما عند الله من الثواب العظيم ويحصل على الجزاء الموعود.

(ت) حرية الدين ولا إكراه فيها حيث راعى الباري سبحانه عدم إكراه النفوس والضغط عليها، أو قهرها بل قال سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] واختار الله طريق الإقناع العقلي؛ لأن فيه نظرة واقعية للفتنة البشرية.

(ث) التيسير ورفع المشقة والخرج في جميع أحوال البشر، فالإسلام يميل إلى اتباع أيسر السبل في كل أمر من أموره فقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ورفع الحرج عن أصناف من الأمة كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [النور: ٦١]. وهو يقدر ظروف ذوي الاحتياجات الخاصة فرفع عنهم الحرج المشقة فليس عليهم إثم في ترك الأمور الواجبة التي لا يقدرون على القيام بها، كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر الأعمى أو سلامة الأعرج أو صحة المريض.

المطلب التاسع: الاستخدام التربوي للقصة في القرآن

"تستخدم القصة لغرس بعض القيم الدينية والخلقية والسياسية والاجتماعية والعلمية، لدورها وقدرتها على الإقناع العقلي عن طريق المشاركة الوجدانية"^١.

وتتعدد أغراض القصة القرآنية منها: إن الله ينصر أنبيائه ويهلك المكذبين ولتثبيت نبينا محمدا ﷺ وأمته قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] "أي: قلبك ليطمئن ويثبت ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالافتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به"^٢. ومنها بيان قدرة الخالق سبحانه على الخوارق، كقصة خلق آدم، وقصة مولد عيسى، وقصة إبراهيم فقال تعالى فيها: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] وقد أحياء الله بعد موته مائة عام. ومن أغراض القصة: بيان عاقبة الصلاح وعاقبة الشر والفساد، كقصة سد مأرب، وقصة ابني آدم، وقصة صاحب الجنتين، وقصص بني إسرائيل بعد عصيانهم، وقصة أصحاب الأخدود، وأصحاب الكهف وغيرها كثير في القرآن الكريم تأتي كحجج تربوية في القرآن الكريم. وهكذا مما تقدم نجد أن القرآن الكريم يحوي الحجج والبراهين التربوية المناسبة لكل عصر وزمان قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

خاتمة البحث:

^١ عبد الحميد، القيم التربوية في القصص القرآني: قصة سيدنا يوسف، ص ٢٤.

^٢ السعدي، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣٥.

من خلال البحث الحالي تأكدت لنا حجية القرآن الكريم التربوية، وما هذا البحث إلا جزء بسيط لإيضاح نماذج بسيطة من حجية القرآن الكريم التربوية، وهي في مطالب تسعة، بدأت بتكريم الإنسان واحترام عقله، بتنقية هذا العقل من الخرافات وحمايته من المعوقات، وذلك ببحثه على العلم والتعلم، واحترام العمل والمهنة وتنويع التخصص، وهذه هي المطالب الأربعة التي بدأ بها البحث.

ثم انتقل البحث إلى مطالب أخرى الخامس منها يتعلق في آداب المجتمع وبيان حجية القرآن الكريم لها. كالرحمة، والأخوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعزة المؤمن، وتحقيق التوحيد، وإصلاح المجتمع ... إلخ وذلك بذكر الحجج التربوية من كتاب الله الكريم. ثم ذكر هذا البحث المجال الدولي واحترام المواثيق الدولية، والوفاء بالعهد، وتحريم الغدر والخيانة، وجاء المطلب الثامن ليراعي الفطرة البشرية، كضبط الغرائز والحاجات النفسية والفسولوجية، وتوجيهها وصرفها بالطريق الصحيح وبأدلة شرعية من الكتاب الكريم، وتطرق لحرية الدين ولا اكراه فيه مدعماً بآيات القرآن الكريم، وموضحاً التيسير على هذه النفوس البشرية. كل هذا يصب في مبدأ عظيم وهو مراعاة الفروق الفردية. وأخيراً استشهد الباحث بوحدة من أساليب التربية القرآنية، وهي القصة موضحاً بعض أغراض القصة والفوائد منها، ونماذج من هذه القصص المنشورة في كتاب الله الكريم. ويرى الباحث أن الحجج التربوية مبثوثة في ثنايا كتاب الله العظيم، وهي أكثر من أن يقوم بها باحث واحد فقط وبحث محدود بصفحات معينة، بل تحتاج إلى رسائل علمية، وبحوث منظمة ومنتالية، ومراكز متخصصة لأنها تبحث بأشرف وأعظم كتاب وهو كلام الله العزيز الحكيم. وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. ابن حيان، محمد، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ).
٣. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ).
٤. ابن منظور، محمد، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط ٣، ١٤١٤هـ).
٥. أمزيان، محمد، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، (فرجينيا بأمريكا: المعهد العالي للفكر الإسلامي، ١٤١٢هـ).
٦. البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧هـ).
٧. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، شعب الإيمان، (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
٨. الجرجاني، علي، كتاب التعريفات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٣هـ).
٩. الجندي، أنور، أضواء على الفكر العربي الإسلامي، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م).
١٠. الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، السنن، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٧هـ).

١١. رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م).
١٢. السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ).
١٣. سيد طنطاوي، محمد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (القاهرة: دار نضرة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٧م).
١٤. شديد، محمد، منهج القرآن في التربية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ).
١٥. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ).
١٦. عبد الحميد، سعيد، القيم التربوية في القصص القرآني: قصة سيدنا يوسف، رسالة ماجستير، القاهرة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٨٢م.
١٧. عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧م).
١٨. العقاد، عباس محمود، التفكير فريضة إسلامية، (القاهرة: دار الهلال، د.ت).
١٩. علي، سعيد إسماعيل وآخرون، التربية الإسلامية المفهومات والتطبيقات، (الرياض: دار الرشد، ط ٣، ١٤٢٨هـ).
٢٠. علي، سعيد إسماعيل، الأصول الإسلامية للتربية، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٢م).
٢١. علي، سعيد إسماعيل، أصول التربية الإسلامية، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٨م).
٢٢. القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ).
٢٣. قطب، سيد، في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ط ١٧، ١٤١٢هـ).
٢٤. مجموعة من العلماء، المصحف الميسر، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٣١٩هـ).

دور التربية الإسلامية في المحافظة على الهوية الإسلامية للشباب في ظل المتغيرات المعاصرة

د. طلال بن علي مثنى أحمد^١

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى اقتراح تصور منهجي للتعامل مع المتغيرات المعاصرة من منظور تربوي إسلامي للحفاظ على الهوية الإسلامية للشباب، متبعاً المنهج الوصفي، حيث يعتبر هو المنهج الذي يرتبط بظاهرة معاصرة بقصد وصفها وتفسيرها^٢، والمنهج الاستدلالي الذي يعني بالتدليل على كل ما يطرحه الباحث من أفكاره وشواهد، وتوصل البحث إلى أن للمعلومات دوراً كبيراً في حياة المجتمعات والأمم، وأن المجتمع المسلم يعيش في احتكاك دائم مع المجتمعات الأخرى، يؤثر ويتأثر بثقافتها، وأن عملية بناء المجتمعات الحديثة لا تعني تبني الثقافة الغربية، ذلك أن التنمية الذاتية للشعوب يجب أن تأخذ في اعتبارها القيم الثقافية لهذه الشعوب.

مقدمة:

لقد أدت ثورة المعلومات والتغيرات الثقافية والسياسية والاقتصادية في العالم إلى تغيرات ثقافية كبيرة، فثورة الاتصالات والمعلومات، وخاصة القنوات الفضائية، ومن خلال شبكات الإنترنت والبريد الإلكتروني ونمو قطاع الاتصالات المعلوماتي الترفيهي كلها أخذت تشكل وتتحكم في تكوين الأفكار والأذواق والأزياء الثقافية والفنون والقيم الأخلاقية والجمالية، ومن أبلغ ما يعبر عن البعد الثقافي والقيمي لتأثر الثقافة ما صرح به أحد مديري شرك كوكاكولا في مقابلة صحفية معه من أن شركته لا تباع مشروباً وإنما تباع أسلوباً للحياة^٣.

كما شكل الانفتاح الثقافي تحدياً كبيراً على الهوية الثقافية، حيث أدى تداخل حدود الانتماءات الفكرية والثقافية مع أبعاد هوية المجتمع إلى تكوين شكل هلامي في المفاهيم والممارسات انعكس على الحقوق والواجبات، خاصة في ظل التعدد الذي يصل إلى حد التناقض بين رؤى وتيارات الفكر الثقافي والاجتماعي حيال هوية المجتمع والتي أخذت شكل الإقصاء أو التكر من جهة والتهميش والتغيب من جهة أخرى^٤.

ومما سبق تتضح الحاجة لوجود دور تقوم به التربية الإسلامية للمحافظة على الهوية الإسلامية للشباب في ظل المتغيرات المعاصرة، منطلقة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

^١ قسم التربية الإسلامية والمقارنة بكلية التربية في جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

^٢ العساف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، ص ١٨٩.

^٣ العيسري، أثر التغيرات الاجتماعية والثقافية على المناهج الدراسية، (باختصار وتصرف)، ص ٥.

^٤ العامر، أثر الانفتاح الثقافي على مفهوم المواطنة، ص ٢٢.

الهوية الإسلامية للشباب:

سمات الهوية الإسلامية:

اتسمت الهوية الإسلامية بسمات عظيمة اكتسبتها من نسبتها إلى الدين الإسلامي الحنيف الذي اتسم بخصائص عظيمة متمثلة في:

١. الربانية: وتعني أمران هما:

الأول: ربانية الغاية والوجهة أي أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة هي حسن الصلة بالله تعالى والحصول على مرضاته.

الثاني: ربانية المصدر والمنهج أي أن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه منهج رباني، مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم.

٢. الإنسانية: الإسلام دين الإنسانية، فقد حفظ للإنسان حقوقه وأعتقه من عبودية غير الله وكرمه وجعله عبداً لله وحده قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

٣. الشمول: (شمل الزمان، والمكان، والإنسان) يقول عن ذلك الشيخ حسن البنا: "إنها الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة".

٤. الوسطية والتوازن: فوسطية الأمة الإسلامية إنما هي مستمدة من منهجها ونظامها فهو منهج وسط لأمة وسط، منهج الاعتدال والتوازن الذي سلم من الإفراط والتفريط أو من الغلو والتقصير.

٥. الواقعية: تعني مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة ووجود مشاهد، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه، ووجود أسبق وأبقى من وجوده، وهو وجود الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

٦. الوضوح: هو وضوح الأصول والقواعد الإسلامية، ووضوح المصادر والمنابع، ووضوح الأهداف والغايات، ووضوح المنهج والوسائل.

٧. الجمع بين الثبات والمرونة: ويتمثل ذلك في الثبات في الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب، والثبات على الأصول والكليات والمرونة في الفروع والجزئيات، والثبات على القيم الدينية والأخلاق الإسلامية والمرونة في الشؤون الدنيوية والعلمية^١.

وبنظرة فاحصة لهذه الخصائص العامة المذكورة نجد أنها تتوافق مع خصائص ومميزات المبادئ والقيم في التربية الإسلامية "حيث إن التربية الإسلامية ما هي إلا مجموع المبادئ والقيم المستمدة أساساً من مصادر التشريع الإسلامي، فإن سمات ومميزات هذه المبادئ والقيم هي نفسها مميزات وسمات الشريعة الإسلامية"^٢، ومن هذه الخصائص ما يأتي:

^١ القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام، (باختصار).

^٢ خياط، المبادئ والقيم في التربية الإسلامية، ص ٦٢.

الريانية - الإنسانية (الشفقة والرحمة) - العدالة والمساواة - الإيجابية السوية - الشمول والتكامل - التوسط والاعتدال - الاستمرار والتجديد - الوضوح وعدم التناقض مع الدقة والإعجاز - المرونة والثبات - الدعوة للعلم^١.

وباستقراء آيات الذكر الحكيم نجد أن الغاية النهائية للإسلامية هي تحقيق مصالح الخلق في الدنيا والآخرة وذلك بإقامة مجتمع صالح يعبد الله ويعمر الأرض ويحقق الاستخلاف فيها قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۗ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۗ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. ويسخر طاقات الكون في بناء حضارة إنسانية يعيش في ظلها الإنسان، في جو من العدل والأمن والسلام، مع تلبية كاملة لمطالبه الروحية والمادية وعدم إغفال أي عنصر من عناصر شخصيته روحا وعقلا وجسدا، وهذا الهدف النهائي عبرت عنه عدة آيات من القرآن كما دل عليه استقراء مجمل نصوص الشريعة وأحكامها ومن الآيات الدالة على ذلك قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾ [الحديد: ٢٥]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۗ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الحل: ٩٠].

أسس الهوية الإسلامية:

تستند الهوية الإسلامية لأسس متينة متمثلة في اساسين متينين هما:

● رابانية الهوية الإسلامية: فمن نسبة الهوية إلى الإسلام استندت إلى أساس عظيم وهو الريانية، فقد تنزلت معالمها من اللوح المحفوظ، وحمل القرآن الكريم مبادئها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

● حفظ الهوية الإسلامية من التحريف فقد تكفل الله بذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فبتكفل الله سبحانه وتعالى لكتابه الكريم وحفظه من التحريف والتبديل، فقد تكفل بحفظ الهوية الإسلامية من التحريف والتبديل.

مقومات الهوية الإسلامية:

لأي هوية في أي مجتمع بشري مقومات تقوم عليها بمثابة قواعد تستند إليها الأسس التي تقوم عليها، وللحوية الإسلامية مقوماتها الرئيسة هي: العقيدة الإسلامية، التاريخ، الثقافة.

أولا: العقيدة الإسلامية:

فبانتماء الهوية إلى الإسلام ارتبطت به فكريا ومنهجيا ومبادئ وسلوكا، وكما تستمد منه قيمها ومبادئها وتعاليمها، ومن ذلك تنبثق سلوكيات وتوجهات أفراد المجتمع المسلم. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] حيث تعد العقيدة الإسلامية هي القاعدة الرئيسة في المجتمع المسلم، وعليها تستند باقي القواعد الأخرى، حيث

^١ المرجع السابق، ص ٦٢-٨٦ (باختصار).

تحتوي تعاليم الدين على المعتقدات والعبادات والمعاملات، وتعد هذه التعليمات أساساً راسخاً للمجتمع الإسلامي، منها يستمد قوته، حيث "يقيم الدين الإسلامي الحنيف مجتمعاً إسلامياً يتسم بالقوة والتعاون والتكامل والتقدم التربوي والاقتصادي والعلمي والتكنولوجي، ويتميز أعضاؤه بشخصية متميزة سوية قادرة على العمل والإنتاج، وعلى الحب والعطاء، وتكوين علاقات راضية مرضية مع الذات والآخرين، ويكمن مفتاح هذه الشخصية الإسلامية المتمتعة بالصحة النفسية من الإيمان واليقين الكامل بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والالتزام بالأخلاق التزاماً لا إلزاماً، ومراقبة الله سرّاً وعلناً" ^١، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَحَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨]، فهذه الآية شملت الجوانب العقديّة؛ فالإسلام دين ودولة وعبادة وسيادة، واقتصاد ومعاملات وأخلاق، وتربية فردية وتعاون وتكافل اجتماعي، و"الإسلام جاء ليغير البشرية، لا ليغير معتقداتها وتصوراتها ومفهوماتها ومشاعرها فحسب، إنه جاء لينشئ للبشرية واقعاً آخر غير واقع الجاهلية الذي كانت تعيش فيه، والذي يمكن أن ترتد إليه في أي طور من أطوارها، وفي أي تاريخ من حياتها، كما أن الإسلام جاء ليغير الوسائل التي يبنى بها التصور الاعتقادي ويغير بها الحياة" ^٢. ولقد أحدث الإسلام أثراً عظيماً في المجتمع، وفي طبيعة أفراده في صدر الإسلام، وفي ذلك يقول أبو الحسن الندوي: "ثم لا يلبث العالم المتمدن أن يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التي استهانت بقيمتها الأمم المعاصرة، وسخرت منها البلاد المجاورة، لا يلبث أن يرى منها كتلة لم يشاهد التاريخ البشري أحسن منها اتزاناً، كأنها حلقة مفرغة لا يعرف طرفها، أو كالمطر لا يُدرى أوله خير أم آخره؛ كتلة فيها الكفاية التامة في كل ناحية من نواحي الإنسانية، كتلة هي في غنى عن العالم، وليس العالم في غنى عنها، وضعت مدينتها وأسست حكومتها وليس لها عهد بها، لم تضطر إلى أن تستعير رجلاً من أمة، أو تستعين في إدارتها بحكومة، أسست حكومة امتد رواقها على رقعة متسعة في قارتين عظيمتين، وملاّت كل ثغر، وسدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة والقوة والأمانة" ^٣.

أهمية العقيدة للهوية الإسلامية:

لقد خلق الله تعالى البشر وفطرهم على التوحيد، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، كما أخذ الله تعالى على الناس الميثاق وهم في عالم الذر، وأشهدهم على أنفسهم بوحدانيته سبحانه حيث، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

^١ السمالوطي، بناء المجتمع الإسلامي ونظمه، ص ٢١.

^٢ السعيد، التغيير الاجتماعي في حياة الرسول ﷺ، أصوله ووسائله التربوية، ص ١٠٠.

^٣ الندوي، علي الحسن: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الإسكندرية - دار عمر بن الخطاب، ط ٤، ص ١٠٨.

وللعقيدة الإسلامية أهمية بالغة في حياة المسلم، أجملها في النقاط التالية:

١. يعد علم التوحيد من أشرف العلوم بل هو أشرفها، لأنه أساس الدين.
٢. بصلاح العقيدة تصلح باقي أعمال الفرد، فهي الأساس الذي يقوم عليها الدين، وتصلح بصلاحتها الأعمال. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].
٣. العقيدة الإسلامية هي الأساس الذي تقوم عليها سائر تعاليم الشريعة، كما لا يتأتى وجود العقيدة بدون الشريعة، فهما أمران متلازمان، فمن آمن بالعقيدة لا بد أن يعمل بالشريعة، ومن عمل بالشريعة فلا بد أن يربطها بالعقيدة، وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٌ بِقَيْعَةٍ يَخْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].
٤. في العقيدة الإسلامية إجابة شافية للتساؤلات التي شغلت وتشغل إلى الآن عقل الإنسان وتحيره وهي: من أين جاء؟ لماذا جاء؟ إلى أين المصير؟ فقد أجاب القرآن على هذه التساؤلات إجابة شافية واضحة. ففي معرض الإجابة على التساؤل الأول، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُغَهُ أَشْدَّكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. وفي الإجابة على السؤال الثاني قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ١١]. وإجابة السؤال الثالث في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].
٥. تقدم العقيدة الإسلامية للإنسان كل ما يرغب ويتطلع إلى معرفته عن حق الله سبحانه تعالى، وبذلك يبلغ كمال المحبة لله، ويسعى لكمال الإخلاص له سبحانه.

التاريخ:

يعتبر التاريخ لأي أمة ماضيها الذي تستمد منه بقاؤها، وتستعين به لرقى وازدهار حاضرها، وبه تستشرف مستقبلها، فأمة بلا تاريخ تعتبر أمة بلا امتداد وبلا مرجعية، وبالتالي فهي أمة بھوية مهزوزة، وفي حقيقة الأمر أنه لا وجود لأي أمة بلا تاريخ، فلكل أمة تاريخها الذي يحمل في طياته إضاءاته وانطفاءاته، ويستفيد أبنائها من مواقفه وعبره ودروسه، وهناك من الأمم من يكون تاريخها مشرفاً ومشرقاً، يكون معيناً لأبنائها لازدهار حاضرهم وبناء مستقبله، كما أن هناك من الأمم من لا تملك تاريخاً مشرفاً، فتسعى من حين لآخر إلى ترقيع تاريخها، وتأليف أجداد لها، بل تسعى في أحيان أخرى إلى سرقة تاريخ غيرها، وبناء مجدها على تدمير مجد غيرها.

وتاريخ الأمة الإسلامية تاريخ مشرق ومشرف، كما أنه شاهد على أنها أمة ذات هوية قوية ومؤثرة، فتاريخها متصل منذ خلق البشرية لإيمانها بجميع الرسل والأنبياء، ويظهر ذلك من خلال رؤيتنا لمنهج القرآن الكريم في عرض الأحداث التاريخية،

حيث "يثبت أن التاريخ لا يبدأ بالبعثة النبوية في مكة المكرمة؛ ولكنه يعني تاريخ النبوة المتصل بآدم عليه السلام الذي خلق الله منه وزوجه وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، فغرس القرآن الكريم في نفوس المؤمنين أهمية التاريخ، وضرورة الاعتزاز بأحداثه، وما تمخض عنها، وجعلها مصدر تثبيت للأفئدة، وذلك من خلال قصص الأنبياء، ونقاط الالتقاء بين الرسالات، والميثاق الغليظ، والإشهاد على الأنفس"¹، كما تاريخ أمتنا من بعد البعثة الشريفة ذاخر بالإنجازات الحضارية التي خدمت البشرية وانتشلتها من حضيض الجهل والانحطاط إلى مصاف الرقي الحضاري.

الثقافة:

الثقافة في نسقها الإسلامي تعني علوم المجتمع وآدابه وقيمه إلى جانب اللغة المعبر بها، و"الثقافة تشتمل في معناها العام على إطار حياة واحدة يجمع بين طبقات المجتمع جمعاً، توحد معه بينهما مقتضيات مشتركة، وهي تهتم بكل طبقة من طبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها، وما لهذه الوظيفة من شروط خاصة؛ وعلى ذلك فإن الثقافة تتدخل في شؤون الفرد وفي بناء المجتمع، وتعالج القيادة كما تعالج مشكلة الجماهير"²، فقد بدأت الثقافة في حياة الإنسان مع بداية خلقه، حيث بدأ أول عمل جوهري للعقل الإنساني، وبين ذلك مالك بن نبي إذ يقول: "إننا قرأنا وصف الحق تبارك وتعالى للمشهد الذي يدعو فيه عز وجل آدم إلى تسمية الأشياء بأسمائها في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢]، فرمما أخطانا فلم ندرك معنى الآية إلا على أنه يصف لنا مشهداً بسيطاً؛ والأمر على عكس ذلك تماماً، فينبغي أن نرى هنا في تلك الصورة الرمزية أول عمل جوهري للعقل الإنساني حين يسيطر على الأشياء وهو يخلع عليها أسماءها، الأمر الذي لم تستطعه الملائكة"³. وإن امتلاك أفراد المجتمع لثقافة واحدة مهما كان اتساعها، يساعد على وحدة المجتمع، وتماسكه، ويسهل سبل العيش المشترك فيه، والتفاعل بين أفرادها، مما يحقق المصالح العامة والوظائف الحيوية التي تمكن المجتمع الاستقرار ومن تحقيق أهدافه.

كما أن الحراك الثقافي في المجتمع له دور بارز في نمو أفرادها وسعة أفقهم؛ فاهتمام أبناء المجتمع بالثقافة يتأثر بالنشاط الثقافي والحركة العلمية في المجتمع، فالتفاعل والنشاط الثقافي يخلق وعياً وإدراكاً لدى أفراد المجتمع، وهو معيار لمدى ثقافة أفرادها وعلى المجتمع أن يوفر وسائل تنشيط الحراك الثقافي في المجتمع، ويسعى لنشر الوعي العام والثقافة في أكبر عدد من أفرادها، ومن هذه الوسائل:

اللغة فإنها ناقلة لهذه الثقافة وحافظة لها، فتحفظ للأمة وحدتها وترابطها، وتمكن أفرادها من التواصل والتعبير عن تركيبهم الثقافي والقيمي، ومن مكونات الثقافة العلوم والفنون والآداب، وهي أمور تختلف من مجتمع لآخر، وفي المجتمع تنضوي تحت لواء الشريعة، والأمر نفسه ينطبق على العرف والعادة، ف"منها ما أقره الدليل الشرعي وجوباً أو ندباً، أو نفاه تحريماً أو كراهة،

¹ الزكي، الفرق بين الهوية الإسلامية والهويات الأخرى.

² مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص ٧٧، ٧٨.

³ مالك بن نبي، المرجع السابق، ص ٢٢.

كأمر بإزالة النجاسات، أو النهي عن الطواف عرياناً، وما أشبه ذلك، فما حسنه الشرع من ذلك لا يمكن أن يكون قبيحاً، وما قبحه لا يمكن أن يكون حسناً، فلا يمكن أن يقال: إن كشف العورة كان قبيحاً عند نزول التشريع وسيكون حسناً بعد ذلك، ومن العوائد ما لم يقره أو ينفيه الدليل الشرعي، لكنه ثابت لا يتغير ولا يتبدل، كوجود شهوة الطعام والشراب والوقاع، وعادات النظر والكلام والمشى والغضب والنوم، فهذه أسباب لأحكام تترتب عليها، فلا يتعلق بها تحسين ولا تقييح شرعي لذاتها، ولكن باعتبار ذرائعها ومآلاتها، فمن تذرع للأكل بالكسب الحرام فهو قبيح، ومن تذرع له بالحلال فهو حسن، ومن مشى للطاعة فهو حسن، ومن مشى للمعصية فهو قبيح، وهكذا، وقد تكون العادات متبدلة غير ثابتة، فتتبدل أحكامها تبعاً لتبدلها، مثل كشف الرأس قد يكون في زمن أو مكان قبيح لذوي المروءات مسقطاً للعدالة عرفاً، وقد يكون في زمن آخر أو مكان آخر غير قادح في العدالة، فيكون الحكم الشرعي تبعاً في ذلك للعرف والعادة^١.

ومن ذلك نجد أن القوائم التي تركز عليه هوية أي مجتمع هي عقيدته، وتعد هي القاعدة الرئيسة، ومن ثم تاريخها، وثقافتها، وباجتماع هذه المكونات الثلاثة تقوم هوية المجتمع، والهوية الإسلامية تركز على العقيدة الإسلامية بمبادئها وقيمها وتعاليمها السماوية، وعلى التاريخ الإسلامي الناصع، وثقافة المجتمع المسلم، وبالمحافظة على هذه المكونات الثلاثة، نحافظ على قوام الهوية الإسلامية في المجتمع.

المتغيرات المعاصرة:

نعتبر نحن في عصر تكثر فيه المتغيرات المعاصرة والتي لها الأثر الكبير في هوية الشباب، ومن أهم هذه المتغيرات: التسارع المعلوماتي المذهل الذي يتسم به هذا العصر، حيث يشهد عصرنا الحالي تغيرات كبيرة، بدأت من نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين، حيث أحدثت ثورة المعلومات والاتصالات تغيرات جذرية في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة سابقاً، سواء في المجتمعات المتقدمة أم المجتمعات النامية على حد سواء، وإن كانت هذه التغيرات تحدث في الدول المتقدمة بشكل أسرع من الدول النامية، وأصبحت المعلومات تهيمن على جميع نواحي الحياة، وستشهد تكنولوجيا المعلومات تطورات واسعة في المستقبل لتأتي بأكثر مما نعرفه أو نتخيله الآن، وهذه التغيرات "تلعب فيها المعلومات والمعرفة دوراً أكبر بكثير مما سبق في كافة أوجه نشاطات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ويطلق على المجتمع الجديد الناتج عن هذه المتغيرات اسم مجتمع المعلومات، التي تطرح إجمالاً فرصاً وتحديات متباينة أمام العالم بصفة عامة والدول النامية بصفة خاصة"^٢.

والمعلومات التي اتسم بها عصرنا الحالي "ليست بالشيء الملموس أو القابل للقياس، كما هو الحال في المواد التي عُرفت بها عصور سابقة. على أن المعلومات أصبحت شيئاً مهماً بصورة متزايدة بالنسبة لنا"^٣، حيث لا غنى عنها في كل نواحي

^١ القرني، المختصر الوجيز في مقاصد التشريع، ص ٤٠.

^٢ غنيم، استخدامات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لخدمة المعاقين، ص ٢.

^٣ جيتس، المعلومات بعد الانترنت طريق المستقبل، ص ٣٦.

النشاط الإنساني " فالمعلومات عنصر مهم في علاقة الإنسان بخالقه، وعلاقة الإنسان بمجتمعه وبيئته، وعلاقة المجتمعات ببعضها البعض في السياسة والاقتصاد وإدارة المصالح^١، والإعلام، والتربية وغيرها من المجالات.

ولانخفاض تكلفة الاتصالات بشكل ملحوظ في عصرنا الحالي دور كبير في تسهيل الطريق لسيطرة المعلومات وتأثيرها على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية، وفي ذلك يقول بيل جيتس في كتابة المعلومات بعد الانترنت عام ١٩٩٨م: "ثورة المعلومات لم تزل بعد في بدايتها. وستنخفض تكلفة الاتصالات بالقدر نفسه من التسارع الذي انخفضت به أسعار أجهزة الكمبيوتر. وعندما تنخفض هذه التكلفة انخفاضا كافيا وبالترافق مع منجزات أخرى للتقدم التكنولوجي؛ فإن (الطريق السريع للمعلومات) لن يصبح مجرد تعبير إنشائي يتردد على ألسنة المديرين المتحمسين والسياسيين الملتهمي المشاعر، بل سيصبح واقعا وبعيد الأثر شأنه في ذلك شأن (الكهرباء)، ولكي نفهم لماذا ستصبح المعلومات مركزية لهذه الدرجة، فإن من المهم أن نعرف كيف تغير التكنولوجيا الطرق التي نتعامل بها مع المعلومات"^٢.

من أهم مميزات عصر المعلومات مقارنة بعصر الصناعة هو تداول المعلومات في المجتمع في إطار ثورة ثقافية ونشر للمكتبات وتشجيع على القراءة، هذا من الناحية التقليدية، أما إذا نظرنا إليه من الناحية الحديثة فهو إنتاج المعلومات وتداولها مع بروز شبكات المعلومات بما فيها من طرق للتواصل والتواصل التي تسمح بالاتصال المباشر بين البشر في مختلف أنحاء العالم.

إن كل ذلك يدل على إن عصر المعلوماتية الذي أصبح حقيقة واقعة في المجتمعات المتقدمة وما صاحبه من إبداعات بشرية في تقنيات المعلومات والاتصالات المهيمنة بالفضاء، قد وفر فرصا للتواصل بين البشر أكثر مما سبق في العصور الزراعية والصناعية، كما أن أنماط التواصل الجديدة قد بدأت تتضح قسماتها في العديد من المجتمعات النامية ولو بصورة بطيئة إلا أنها سائرة نحو التوسع والتعميم خلال العقود القليلة القادمة.

أهمية المعلومات:

تلعب المعلومات دوراً كبيراً في حياة المجتمعات والأمم وقد عقدت لها هيئة الأمم المتحدة مؤتمريين عالميين على مستوى القمة؛ المؤتمر الأول في جنيف عام ٢٠٠٣م. والثاني في تونس عام ٢٠٠٥م بعنوان القمة العالمية لمجتمع المعلومات، وخرج إعلان جنيف بعدد (٦٧) بنداً كما خرج بعدد من الخطط التنفيذية، وخرج المؤتمر في إعلان تونس بعدد (٤٠) بنداً كلها تؤكد على الالتزام والعمل بقرارات مؤتمر جنيف.

وضمن إعلان جنيف جاء نص البند رقم (٨) كما يأتي: "نعترف بأن التعليم والمعرفة والمعلومات والاتصالات هي بؤرة تقدم البشرية ومساعدتها ورفاهها، وعلاوة على ذلك فإن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تؤثر تأثيراً هائلاً على جميع مظاهر الحياة تقريباً. كما أن سرعة تقدم هذه التكنولوجيا تكشف عن فرص جديدة كلياً لبلوغ مستويات أرفع من التنمية، وقدرة هذه التكنولوجيا على تذليل العديد من العقبات التقليدية، وخصوصاً ما يتعلق باختصار الزمن والمسافات، تجعل من الممكن

^١ عبد الهادي، مجتمع المعلومات بين النظرية والتطبيق، ص ٢٣.

^٢ جيتس، (المرجع السابق)، ص ٣٦.

ولأول مرة في التاريخ، تسخير إمكانات هذه التكنولوجيا لصالح الملايين من الناس في أرجاء المعمورة^١. ولأهمية قرارات إعلان جنيف الخاصة بالمعلومات جاء في الفقرة الأولى والثانية من إعلان تونس ٢٠٠٥م تأكيداً على الالتزام بتلك القرارات ونص الفقرتين:

١. "نحن ممثلي شعوب العالم، وقد اجتمعنا في تونس في الفترة من ١٦-١٨ نوفمبر ٢٠٠٥م في هذه المرحلة الثانية من القمة العالمية لمجتمع المعلومات لنؤكد من جديد دعمنا الثابت لإعلان المبادئ وخطة العمل المعتمدين في المرحلة الأولى من القمة العالمية لمجتمع المعلومات في جنيف في ديسمبر ٢٠٠٣م.

٢. نؤكد من جديد رغبتنا والتزامنا ببناء مجتمع معلومات جامع وذو توجه تنموي، ويضع البشر في صميم اهتمامه، يقوم على أساس أغراض ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي والتعددية والاحترام الكامل والالتزام بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، حتى يتسنى للناس في كل مكان إنشاء المعلومات والمعارف والنفاذ إليها واستعمالها والمشاركة بها وتبادلها، كي يحققوا إمكاناتهم بالكامل ويبلغوا الأهداف والمقاصد الإنمائية المتفق عليها دولياً، بما في ذلك الأهداف الإنمائية للألفية^٢.

ومن الفقرتين السابقتين نجد أن المشاركين في القمة العلمية في جنيف وتونس من ممثلي الدول قد التزموا بعدة قضايا هامة تدل على أهمية المعلومات ودورها الفاعل في تقدم وتطور المجتمعات ومن ذلك:

- التأكيد على أن التعليم والمعرفة والمعلومات والاتصالات هي بؤرة تقدم البشرية ورفاهها.
- التأكيد على أن تكنولوجيا المعلومات تؤثر تأثيراً هائلاً على جميع مظاهر الحياة تقريباً.
- توضيح أن سرعة تقدم التكنولوجي يكشف عن فرص جديدة لمستويات أرفع من التنمية.
- توضيح أن لهذه التكنولوجيا قدرة على تذليل العديد من العقبات التقليدية وخصوصاً ما يتعلق باختصار الزمن والمسافات.

- توضيح أنه من الممكن تسخير إمكانات لتكنولوجيا لصالح الملايين من الناس في أرجاء المعمورة.
- التأكيد على الالتزام ببناء مجتمع معلومات ذي توجه تنموي ويضع البشر في صميم اهتمامه.
- تسهيل إنشاء المعلومات والمعارف واستعمالها والمشاركة بها وتبادلها للإنسان في أي مكان في المعمورة.

الإنسان والمعلومات:

تعد المعلومات بالنسبة للإنسان منذ أن خلقه الله تعالى رفيقة دربه فقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام وكرمه على جميع المخلوقات وهياه للخلافة في الأرض، ومن تلك التهية أن علمه أسماء كل شيء. ومن ذلك الوقت بدأت علاقة الإنسان بالمعلومات، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]. وليبين سبحانه وتعالى للملائكة، مكانة آدم عليه السلام، عرض هذه الأشياء عليهم، قائلاً: ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ

^١ مؤتمر القمة العالمية لمجتمع المعلومات، تقرير مرحلة جنيف، ص ٣.

^٢ مؤتمر القمة العالمية لمجتمع المعلومات، تقرير مرحلة تونس، ص ١.

صَادِقِينَ﴿، فلما لم يتمكنوا من ذلك أجابوا ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]. وفي تفسير الآية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول ابن سعدي: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ أي أسماء الأشياء، وما هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي؛ الألفاظ والمعاني^١. وجاء في تفسير ابن كثير: "قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وسماء وأرض، وسهل، وبحر، وجمل، وحمار، وأشبه ذلك من الأمم وغيرها"^٢. وفي هذه القدرة العظيمة التي ألهمها الله تعالى لأدم عليه السلام في قدرته على التعامل مع المعلومات التي يتلقاها، وسرعة تعلمه وفهمه لها، يقول سيد قطب: "ها نحن أولاء نشهد طرفاً من ذلك السر الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة. سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات. سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها -وهي ألفاظ منطوقة- رموزاً لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة. وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض. ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى، لو لم يوهب للإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، والمشقة في التفاهم والتعامل، حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه"^٣.

فالمعلومات هي رقيقة درب الإنسان، وهو منتج ومستهلك لها، "ويمكن اعتبارها دخلاً ونتاجاً في الوقت نفسه، لقد ظلت المعلومات إلى وقت قريب لصيقاً يصعب فصله عن النشاط المصاحب له، إلى أن أدركنا حقيقة أن المعلومات عنصر قائم بذاته يمكن فصله عن أساليب العمل، أو الأنشطة المولدة أو المستخدمة له. ويرجع الفضل إلى الوسائل الإلكترونية الحديثة في تعميق هذا الاتجاه، واستناداً إلى ذلك يمكن القول إن المعلومات تدين بتعاظم دورها الاجتماعي لإمكان التعامل معها إلكترونياً"^٤.

والمعلومات تتولد بزيادة تعقد المجتمع وتنوع أنشطته وتعددها وينتج عن ذلك زيادة استهلاكه لها "وتعتبر ظاهرة انفجار المعلومات صدى لهذا التعقد والتنوع والتسارع، وهي الظاهرة التي جعلت من المعلومات -التي هي أساساً وسيلتنا لحل المشاكل- مشكلة في حد ذاتها يجب السيطرة عليها"^٥.

^١ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٤٨.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٢٢٢.

^٣ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٩.

^٤ علي، العرب وعصر المعلومات، ص ٤٦.

^٥ علي، المرجع السابق، ص ٤٦.

أوجه الإفادة من المعلومات:

المعلومات هي أساس أي قرار يمكن أن يتخذه الفرد في حياته العامة، أو المسئول في عمله، وبقدر توفر المعلومات الصحيحة والمناسبة، في الوقت المناسب بقدر ما يكون القرار صحيحاً ودقيقاً، كما تعتبر دقة المعلومات وصحتها عنصراً رئيساً، في دقة البحث العلمي وصحة نتائجه.

كما تشكل المعلومات عنصراً مهماً وفعالاً في الجوانب السياسية والعسكرية والأمنية والصناعية والاقتصادية، وفي جوانب التنمية البشرية، والتربية والتعليم والتخطيط، ولقد جاء في خطة العمل في مؤتمر جنيف ٢٠٠٣ في الفقرة ج ٧ المعنونة بـ(تطبيقات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات: فوائد في جميع جوانب الحياة) أنه يمكن أن تدعم تطبيقات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التنمية المستدامة في مجالات الإدارة العامة والأعمال التجارية والتعليم والتدريب والصحة والعمالة والبيئة والزراعة والعلم وفي إطار استراتيجيات الإلكترونيات الوطنية، وينبغي أن يشمل ذلك إجراءات في القطاعات التالية^١:

١. الحكومة الإلكترونية
٢. الأعمال التجارية والإلكترونية
٣. التعليم الإلكتروني
٤. الصحة الإلكترونية
٥. التوظيف الإلكتروني
٦. البيئة الإلكترونية
٧. الزراعة الإلكترونية
٨. العلم الإلكتروني

ولذلك على مختلف قطاعات المجتمع من مؤسسات حكومية وأهلية مواكبة عصر المعلومات، والاستفادة منها، وجعلها من الأولويات.

دور التربية الإسلامية في المحافظة على الهوية الإسلامية:

وللتربية الإسلامية ومعالماً تسترشد بها وتسير بهديها للمحافظة على الهوية الإسلامية للشباب، وتتمثل هذه المعالم بما يأتي:

- غرس حب الفضيلة والعفة في أفراد المجتمع
- نشر الثقافة الإسلامية بين أفراد المجتمع
- الاستقلال والخروج عن التبعية
- التوافق التربوي مع عصر المعلومات

أولاً: غرس حب الفضيلة والعفة في أفراد المجتمع

حث الإسلام على نشر الفضيلة في المجتمع، فدعا إليها وحببها إلى النفوس. ومن أعظم أنواع الفضائل العفة، فهي تقي الإنسان من الوقوع في الآفات والرذائل التي تحط من قدر الإنسان، وتنزل بمكانته، وتنقص من كرامته.. وأول درجات العفة الحياء من الله تعالى، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء». قال: قلنا: يا رسول الله! إنا نستحيي والحمد لله. قال: «ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى،

^١ مؤتمر القمة العالمية لمجتمع المعلومات: ٢٠٠٣م، المرجع السابق، ص ١٨-٢٠ (بتصرف واختصار).

ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء^١. ومن أقرب الأبواب إلى العفة التزام أوامر الله واجتناب نواهيه، قال الله تعالى: ﴿ثَلَّ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذُلِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. كما أمر الله تعالى المؤمنين والمؤمنات بغض البصر؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ * وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

وفي الحديث والآيات السابقة برنامج عملي لإشاعة العفة في المجتمع تتحلى مراميها فيما يأتي:

- البعد عن الشرك وما يؤدي إليه من الأقوال والعمال الظاهرة والباطنة.
- بر الوالدين والإحسان إليهما وإعطاؤهما حقهما من الصلة والعطف والإكرام.
- الإحسان إلى الأبناء بالتربية الحسنة والقدوة الصالحة.
- البعد عن عموم الفواحش صغيرها وكبيرها وظاهرها وباطنها.
- حفظ العقل؛ فلا يدخل عليه ما يذهب وقاره، من أشياء مادية كالمسكرات، أو معنوية كالأفكار الهدامة والمنحرفة والمتطرفة.
- حفظ البطن وما حوى، بتحري الحلال واجتناب الحرام.
- تذكر الموت وأحواله وسكراته و ما بعد الموت؛ فقيامه الإنسان تبدأ من موته وإنزاله إلى القبر.
- احترام حقوق الآخرين وعدم الاعتداء عليهم بالإيذاء مهما قل أو عظم.
- الابتعاد عن التبرج والتبذل والسفور وما يؤدي إليه.
- غرض البصر وحفظ الفرج، والابتعاد عن أي شيء كان من برامج إعلامية وإصدارات أو مجلات أو مواقع تثير شهوة الإنسان.

ففي التقيد بتعاليم الإسلام والتمسك بمبادئه حفاظ على كيان المجتمع ودعم لأركانه الاجتماعية والثقافية والفكرية والنفسية والأمنية ... ولذلك على التربويين العمل على تغيير الواقع الحالي لكثير من المجتمعات الإسلامية بما يساعد على إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]. إلى واقع تشيع فيه العفة والفضيلة، وذلك بتوجيه الفكر والثقافة، حتى تكون

^١ الترمذي، السنن، ج ٨، ص ٤٩٨.

القيم الإسلامية سلوكاً ملموساً بين جميع أفراد المجتمع الواحد، وتكوين الدرع الواقي للإنسان بالقناعة التامة بأهمية قيم الفضيلة والصلاح.

ثانياً: نشر الثقافة بين أفراد المجتمع:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. يقول سيد قطب في معرض حديثه عن الآية الكريمة: "لولا الله ما زكى منهم من أحد، ولا تطهر ولا ارتفع. ولكنه أرسل رسوله ﷺ يطهرهم. يطهر أرواحهم من لوثة الشرك وذنس الجاهلية، ورجس التصورات التي تثقل الروح الإنساني وتظمره. ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات، فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة. والذين لا يطهر الإسلام أرواحهم في جنبات الأرض كلها قديماً وحديثاً يرتكسون في مستنقع آسن وبيء من الشهوات والنزوات تزيي بإنسانية الإنسان، وترفع فوقه الحيوان المحكوم بالفطرة، وهي أنظف كثيراً مما يهبط إليه الناس بدون الإيمان! ويطهر مجتمعهم من الربا والسحت والغش والسلب والنهب.. وهي كلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر، ويلطخ المجتمع والحياة" هكذا تكون حياة الإنسان إذا لم يهتد بالهدى والرشاد، وهذا واجب المثقفين في الأمة وعليهم أن يحملوا هم نشر الثقافة الإسلامية وتوعية أبناء المجتمع الإسلامي ولا يكون ذلك إلا بوضع آليات مناسبة لنشر الثقافة العامة ومن ذلك:

- الاستفادة من خلو ذهن الشباب: فهم في مرحلة عمرية أكثر مرونة من غيرها من المراحل، وهم على استعداد لتقبل الأفكار والآراء التي يقتنعون بها، فخلوا الذهن لديهم يساعدهم على عملية التعاطي الثقافي لكل جديد ومثير، وهنا يأتي دور التربويين في الأمة الإسلامية فعليهم مخاطبة الشباب بخطاب عصري شيق وبقوالب ثقافية جديدة ومثيرة بحيث تثير اهتمامهم، وتتواكب مع مقتضيات العصر، ولا تخرج عن إطار المبادئ والقيم الإسلامية.
- إيجاد النماذج التربوية والقدرات التي تستطيع أن توجه أفكار وعقول الشباب لخدمة دينهم وأمتهم ومجتمعهم، فقد شاب الوسط الإسلامي عادات وتقاليد وأفكار، لا تمتُّ إلى الإسلام بصلة، ونحن نشاهد ما فيه الشباب من ابتعادٍ عن المفاهيم العقدية الصحيحة والقيم الدينية الخالدة، فنجد الشباب يسير بلا هدف ويقلد غيرة بلا وعي، ولا يدل ذلك إلا على فقدانه للقوة التي تأسره، أو جهله بها، وعلى التربويين إيجاد هذه القدرات التي تستطيع أن تدخل في عمق اهتمامات الشباب وتوجه أفكارهم، وتساعدهم على رسم أهدافهم وتحديد غاياتهم.

- إزالة الأفكار المدسوسة في ثقافة الشباب عن ثوابت الدين: فالمجتمعات الغربية في ماضيها القديم وفي العصور الوسطى منها، عانت من تسلط رجال الدين على الحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية والسياسية، وكل نواحي الحياة بمختلف أطيافها، فأعطت صورة سيئة للدين وتسلطه على المجتمع، مما أدى إلى قرار الفصل بين الدين والدنيا، فلا ينظرون إلى الدين والمتدينين بأكثر من أنهم أناس غير واقعيين لا يصلحون لعمارة الأرض، وهذا ما لا ينطبق على الإسلام الذي مجد العلم ودعا

^١ سيد قطب، المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٨.

إليه من أول آية فيه، وأعطى الحرية للعلم والعلماء فأناروا الحياة للمجتمعات من حولهم وأسسوا للحضارة العصرية بعلومهم التي نقلوها لغيرهم.

• بناء الواقع الإسلامي المنشود: فبعد تهيئة الشباب وإيجاد القدوات التي يقتدون بها في أفكارهم وسلوكهم، وبعد إزالة الشوائب عن عقولهم وأفهامهم يأتي دور الإسهام في بناء المجتمع الإسلامي المثقف والمتحضر والوسطي قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. والمجتمع الوسطي هو الذي يأخذ من الدين بلا غلو ولا تطرف ومن الدنيا بلا انحراف وانحلال، ونجد ذلك متجسداً في قول عبد الله بن عمر رضي الله عنه: "واحرث لديناك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".^١

• حماية الإسلام وبنائه الشامخ من الحقد والكيد والحسد: ولا تكون الحماية من هذه الشرور، إلا بوجود بناء ثقافي عام يأخذ من الإسلام وتعاليمه السمحة ومبادئه وقيمه السامية ما يدحض أي شبهة تثار حوله، بسرد البراهين الواضحة والأدلة القاطعة على سمو الإسلام ورفعة قدره، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وإنما المشكلة تكمن في خواء أبناء المسلمين، من الفكر الإسلامي وما فيه من رصيد زاخر يغطي كل مجالات الحياة.

• نشر مبدأ الحوار الحضاري مع الثقافات الأخرى: على أساس إبراز الفكر الإسلامي بشفافية عالية، فالإسلام بامتداده الحضاري كان يقوم بإنقاذ المجتمعات في البلاد التي يفتحها من نير الاستعباد والظلم، فالحضارة الإسلامية في أوج عظمتها ظلت إنسانية التعامل مع جميع الشعوب في البلاد التي فتحتها؛ فلم يسجل أية إساءة لتلك المجتمعات والشعوب، أو انتهاك لحرمتها، وما نحن في العصر الحاضر نجد من يقهر الشعوب ويفرغ محتواها الثقافي والاجتماعي وينشر الرعب فيها تحت ستار نشر الديمقراطية، والمدنية.

كما احتضنت الحضارة الإسلامية أبناء الديانات الأخرى فمنحت الأمن لكل من يعيش في كنفها، وأنهم في ذمة الإسلام، وعلى المسلمين حمايتهم ومنحهم كامل حقوقهم الإنسانية، فعاشوا في رغد وهناء عظيمين في كنف الحضارة الإسلامية.

ثالثاً: الاستقلال والخروج عن التبعية:

إحدى المخاطر العظيمة التي تواجه المجتمعات الضعيفة، تبعيتها لمن هو أقوى منها، وسيرها في فلكه، وتزايد هذه المشكاة كلما استمرت التبعية ولم تتوقف عند حد معين، حتى يفقد ذلك المجتمع هويته ويصبح مجتمعاً ممسوخاً تابعاً لغيره في جميع أموره سواء الاجتماعية أو الثقافية أو السياسية...، ولقد جاء في نص القرآن الكريم ما يوضح سعي الأمم الأخرى لتجريد المجتمع الإسلامي من هويته، وجعله مجتمعاً تابعاً لغيره قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ

^١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦، ص ١٨.

مَلَّتْهُمْ ۖ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ۗ وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۗ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ [البقرة: ١٢٠] ففي الآية الكريمة تحذير واضح من تبعية هذه الأمم والدوران في فلکها والتخلق بأخلاقها وقيمها ومبادئها التي تركز عليها، ومحاولة غزو المجتمع الإسلامي بالثقافات الأخرى، وتكريس قيم ومبادئ تلك المجتمعات في أفراد المجتمع المسلم، ليعد تجن صارخ وتعدّي واضح على خصوصيات المجتمع، وعلى وحدته الفكرية والثقافية والاجتماعية؛ إذ المجتمع الإسلامي بين جنائتين، تتمثل الأولى بالجهود الخارجية لانتهاك الخصوصية الثقافية له، والجهود الداخلية من بعض المخدوعين بتلك الثقافات لتكريس الثقافة الخارجية واستبدال الثقافة المحلية بتلك الأنماط الثقافية.

والغزو الثقافي هو "أن تقوم أمة من الأمم بالسعي لتغيير مناهج التربية والتعليم لدولة من الدول، فتطبقها على أبنائها وأجيالها، فتشوّه بذلك فكرهم، وتمسخ عقولهم، وتخرج بهم إلى الحياة"، فيصبح أبناء تلك الدولة تابعين لثقافة الأمة الغازية، وتعتبر التبعية الثقافية، من أخطر أنواع التبعيات، لأنها تنبع من داخل نفس الإنسان وقناعته، بينما التبعية العسكرية أو السياسية فإنها تكون قهريّة من خارج الإنسان، ومصيرها إلى الزوال، وأمدّها قصير وإن امتد بها الزمن، بينما التبعية النابعة من الداخل تصير الفرد مسخراً لما اعتقد، ويصبح مستعبداً بمحض إرادته.

وتأثر ثقافة المجتمع بإتباعها لغيرها من الثقافات ينسحب بشكل مباشر على التربية والتعليم، فالثقافة مكون رئيس من مكونات التربية وبذلك سيكون التأثير موجهاً مباشرة للمناهج المدرسية والمؤسسات التربوية المختلفة، وهذا يؤدي بالتالي إلى تأثر الأجيال بالثقافات الخارجية، مما يجعل علاج هذا التأثير يحتاج إلى جهد تربوي كبير، وتغيير ثقافي لشريحة عريضة من المجتمع.

وسائل فرض الهيمنة الثقافية:

وأما الوسائل المستخدمة في فرض الهيمنة الثقافية لمجتمع معين على المجتمعات الأخرى فهي متعددة، ونذكر منها على سبيل المثال بعض الوسائل التي تستخدمها الثقافة الغربية لمحاصرة الثقافات الأخرى -ومنها الثقافة الإسلامية العربية- للهيمنة عليها، ومنها:

١. اهتمام الدول الأوروبية بإقامة مؤسسات تؤثر في ثقافة المجتمعات الأخرى.
٢. السعي لغرس فكرة أن الحضارة الغربية تفوق غيرها وأنها النموذج الفعلي للحضارات الأخرى.
٣. نشر الثقافة الغربية بوسائل وأساليب شبيقة (الأفلام الدرامية والبرامج الإعلامية ومواقع الإنترنت).
٤. إقامة مؤسسات تربوية تعليمية ذات ثقافة غربية في المجتمعات المختلفة وخاصة المجتمعات الإسلامية.
٥. التوظيف المتنامي للقنوات الفضائية ومواقع الإنترنت ووسائل الإعلام الأخرى لتشكيل الوعي الثقافي، ببرامج تشير الغرائز، وتخاطب الوجدان.
٦. التأثير على الأطفال بتقديم برامج كرتونية تتسم بالتناقض مع قيم المجتمعات الأصلية وخاصة القيم الإسلامية مثل (مشاهد العنف، والإثارة الجنسية، والمشاهد التي تتعارض مع الحقائق العلمية، ...).

٧. إبراز تفوق الرجل الغربي وقدراته الفائقة، وتكامل صفته، مع إضعاف الشخصيات الأخرى من أية ثقافة أخرى.
 ٨. التأثير على المجتمعات التي تعاني من حاجتها لمعونات اقتصادية وصحية وتعليمية، بفرض أنماط ثقافية، مقابل تقديم هذه المعونات.

وسائل الخروج من التبعية والهيمنة الثقافية الأخرى:

وللخروج من هذه التبعية والتفوق الثقافي والفكري للغرب يلزم المجتمع الإسلامي أن تتكاتف لديهم الجهود لتشكيل درع ثقافي تربوي يحمي المجتمع الإسلامي من الغزو الثقافي الخارجي في ضوء:

١. التنسيق بين المؤسسات والمنظمات التربوية والثقافية المختلفة في المجتمع الإسلامي لتنسيق الجهود، لتقديم البدائل الفكرية وإخراج مواد ثقافية بصورة شيقة ومثيرة.
٢. تسهيل إجراءات التواصل الفكري والثقافي في المجتمعات الإسلامية.
٣. تبادل الخبرات والأعمال العلمية والثقافية والمواد الإعلامية.
٤. تشجيع روح الحوار الهادف بين الشعوب الإسلامية لتحقيق التقارب والتعاون.
٥. إبراز البعد الإسلامي في البرامج الثقافية والإعلامية المختلفة.
٦. التركيز على تثبيت القيم الإسلامية في نفوس أفراد المجتمع الإسلامي.

رابعاً: التوافق التربوي مع عصر المعلومات:

نحن نعيش في عصر يسمى بعصر المعلومات والتحولات والمتغيرات الثقافية والاجتماعية وفهم طبيعة مقتضيات هذا العصر من أهم معالم منهجية التغيير الثقافي؛ فالحقائق الرقمية القائمة اليوم، توضح أن تكنولوجيا المعلومات، أضحت هي الصناعة المؤثرة في شتى الجوانب الحياتية في المجتمعات.

ولقد "أسفرت تكنولوجيا الاتصال وثورة المعلومات عن واقع جديد أصبح يفرض نفسه على عالمنا المعاصر.. ولعل أهم علامات هذا الواقع ومؤشراته: احتكار الدول الغربية لتكنولوجيا الاتصال، وتحكمها في مصادر المعلومات وحرمان دول العالم النامي منها في ظل تدفق غير متوازن بين دول العالم المختلفة.

ولقد ساعدت تكنولوجيا الاتصال والمعلومات على تمهيد الطريق أمام وسائل الإعلام والثقافة الغربية لاختراق المجتمعات النامية وتهديد هويتها وثقافتها"^١.

ولهذا الاختراق المعلوماتي للمجتمعات المختلفة آثار مختلفة، تؤدي إلى ظهور مخاوف لدى التربويين من تلك الآثار، "وتزداد المخاوف يوماً بعد يوم من آثار العولمة الثقافية على الهوية العربية وذلك في ضوء ما يقدم من مضامين مختلفة في الفضائيات العربية والأجنبية، وعلى الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت)"^٢.

^١ سيد رضا، تأثير القنوات الفضائية على الثقافة العربية، مجلة الحرس الوطني، الرياض، العدد ٣٠٨ / في ٢٠٠٧/٢/١م.

^٢ سيد رضا، المرجع السابق.

ولمواجهة ما يدور حولنا من سعي لفرض ثقافة العولمة والتغريب لدى المواطن العربي علينا أن نأخذ في الاعتبار عدة عوامل مهمة منها:

١. المحافظة على الهوية والثقافة العاسلامية بالتفاعل مع الثقافات الأخرى وأخذ ما يفيد هويتنا وثقافتنا ويدعمها في إطار التفاعل بين الثقافات والحضارات المختلفة.
 ٢. الاعتراف بالآخر والتحاور معه ضرورة تفرضها التطورات العالمية المتلاحقة فلا بد من التكامل والتفاعل بين الشعوب والثقافات.
 ٣. التمسك والاحتفاظ بهويتنا وحضاراتنا وتراثنا وقيمنا، خاصة أن الحضارة والثقافة الاسلامية لها مكانتها البارزة في صنع تاريخ الإنسانية.
 ٤. الاهتمام بتوفير بدائل إعلامية ثرية ومتنوعة بشرط أن تطرح ما يتفق وميول واحتياجات وثقافة الإنسان، وأن تعمل على تنمية ثقته واعتزازه بهويته.
 ٥. تعلم مهارات جديدة وقبول أفكار جديدة عن طبيعة العالم والعلاقات الإنسانية، بما يتوافق مع القيم والثوابت الإسلامية.
 ٦. قبول القيم الجديدة والأفكار المستحدثة وتغيير الاتجاهات التي تستلزمها عملية التحديث، بما يتوافق مع القيم والثوابت الإسلامية.
 ٧. عملية بناء المجتمعات الحديثة لا تعني تبني الثقافة الغربية، ذلك أن التنمية الذاتية للشعوب يجب أن تأخذ في اعتبارها القيم الثقافية لهذه الشعوب.
 ٨. تحديث المجتمعات يتحقق في ظل الاحترام المتبادل بين الشعوب والحوار الحضاري.
 ٩. المحافظة على الذاتية الثقافية والابتعاد عن خضوعها للمصالح الأجنبية.
 ١٠. الحرص على روح الثقافة الاسلامية مع الإسهام الكامل في الحوار بين الثقافات.
- وللحفاظ على هويتنا الاسلامية فالتدفق المعلوماتي الهائل، الذي يشهدها العالم اليوم، يحتم علينا عدداً من الأمور التربوية الهامة التي يلزم أن نراعيها لمواكبة التقدم المعلوماتي، ومنها على سبيل المثال:
- إعادة النظر في المناهج التعليمية وتطويرها بحسب مقتضيات العصر.
 - الاستفادة من الفرص التي تتيحها تكنولوجيا المعلومات، في تطوير العملية التعليمية
 - تقبل التغييرات الحادثة عن تطور المعلومات وتكييفها بحسب مبادئ وقيم الإسلام.
 - إعادة وتجديد الأساليب التربوية وطرق التدريس.
 - إعادة هيكلة مؤسساتنا التعليمية.
 - تطوير الحقل التعليمي والنظم التربوية .

- تشجيع البحث العلمي وتطبيق نتائجه.
- إعطاء أهمية بالغة للتعليم التقني والتكنولوجي.
- الاستفادة من الخبرات التي سبقتنا في الدول الغربية ودول جنوب آسيا.
- تشجيع براءات الاختراع والأفكار الإبداعية .
- إدخال مادة المعلومات كمادة مستقلة في مناهجنا الدراسية.

النتائج والتوصيات:

النتائج:

١. للمعلومات دور كبير في حياة المجتمعات والأمم، ولهذا عقدت لها هيئة الأمم المتحدة مؤتمرين عالميين على مستوى القمة؛ المؤتمر الأول كان في جنيف عام ٢٠٠٣م. والثاني في تونس عام ٢٠٠٥م.
٢. المجتمع المسلم يعيش في احتكاك دائم مع المجتمعات الأخرى، يؤثر ويتأثر، وعلى المثقفين العمل ليسير التأثير والتأثر في الاتجاه الإيجابي بما لا يتعارض مع المنهج الإسلامي.
٣. عملية بناء المجتمعات الحديثة لا تعني تبني الثقافة الغربية، ذلك أن التنمية الذاتية للشعوب يجب أن تأخذ في اعتبارها القيم الثقافية لهذه الشعوب.

التوصيات:

- الاستفادة من الفرص التي تتيحها تكنولوجيا المعلومات، في تطوير العملية التعليمية.
- تقبل التغييرات الحادثة عن تطور المعلومات وتكيفها بحسب مبادئ وقيم الإسلام.
- إعادة وتحديد الأساليب التربوية وطرق التدريس.
- إعادة هيكلة مؤسساتنا التعليمية وتطوير الحقل التعليمي والمناهج التعليمية والنظم التربوية.
- تشجيع البحث العلمي وتطبيق نتائجه.
- إعطاء أهمية بالغة للتعليم التقني والتكنولوجي.
- الاستفادة من الخبرات التي سبقتنا في الدول الغربية ودول جنوب آسيا.
- تشجيع براءات الاختراع والأفكار الإبداعية.
- إدخال مادة المعلومات كمادة مستقلة في مناهجنا الدراسية.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م).
٣. بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، (بيروت: دار الفكر المعاصرة، ٢٠٠٠م).

٤. الترمذي، محمد بن عيسى، السنن، (المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، موقع الإسلام).
٥. جيتس، بيل، المعلومات بعد الانترنت طريق المستقبل، ترجمة عبد السلام رضوان، (الكويت: عالم المعرفة ١٩٩٨م).
٦. خياط، محمد جميل، المبادئ والقيم في التربية الإسلامية، (مكة المكرمة: معهد البحوث وإحياء التراث في جامعة أم القرى، ١٤١٦هـ).
٧. الزكي، جمال محمد، مقال: الفرق بين الهوية الإسلامية والهويات الأخرى، (موقع الجمعية الشرعية).
٨. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن اللويحي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
٩. السعيد: علي قطب حسن، التغيير الاجتماعي في حياة الرسول ﷺ، أصوله ووسائله التربوية، (طنطا: جامعة طنطا، كلية التربية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، (رسالة ماجستير غير منشورة).
١٠. السمالوطي، نبيل، بناء المجتمع الإسلامي ونظمه، (جدة: دار الشروق ١٤٠٨هـ).
١١. سيد رضا، علي، تأثير القنوات الفضائية على الثقافة العربية، (الرياض: مجلة الحرس الوطني، العدد ٣٠٨ في ١/٢/٢٠٠٧م).
١٢. القرطبي، محمد بن أحمد أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام البخاري، (الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ).
١٣. العامر، عثمان بن صالح، أثر الانفتاح الثقافي على مفهوم المواطنة، (الباحة: دراسة علمية مقدمة في اللقاء السنوي الثالث عشر لقادة العمل التربوي (غير منشورة) ١٤٢٦هـ).
١٤. عبدالهادي، محمد فتحي، مجتمع المعلومات بين النظرية والتطبيق، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧م).
١٥. العساف، صالح، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٥م).
١٦. علي، نبيل، العرب وعصر المعلومات، (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٤م).
١٧. العيسري، عامر بن محمد، أثر التغييرات الاجتماعية والثقافية على المناهج الدراسية، (مسقط: المؤتمر التربوي الرابع ٢٠٠٤م).
١٨. غنيم، رأفت، استخدامات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات لخدمة المعاقين، (القاهرة: الأمانة الفنية لمجلس وزراء الشؤون الاجتماعية العرب، إدارة التنمية والسياسات الاجتماعية، قطاع الشؤون الاجتماعية، ٢٠٠٧م).
١٩. القرضاوي، يوسف، الخصائص العامة للإسلام، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٨، ١٤١٤هـ).
٢٠. القرني، عوض بن محمد، المختصر الوجيز في مقاصد التشريع (بحث منشور بالإنترنت).
٢١. سيد قطب، في ظلال القرآن، (جدة: دار الشروق، ط ٩، ١٤٠٠هـ).
٢٢. مؤتمر القمة العالمية لمجتمع المعلومات، تقرير مرحلة تونس، (قرطاج، ٢٠٠٥م).
٢٣. مؤتمر القمة العالمية لمجتمع المعلومات، تقرير مرحلة جنيف، (جنيف: ٢٠٠٣م).
٢٤. الندوي، علي الحسيني، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (الإسكندرية: دار عمر بن الخطاب، ط ٤).

رؤية نظرية لتفسير أسباب وقوع الفرد في المشكلات الفردية

دراسة وصفية وفق المنظور الإسلامي

د. حمود بن خميس بن حمد النوفلي*

ملخص البحث:

لقد جاءت هذه الدراسة بعدما اطلع الباحث على كثير من الإحصاءات التي أشارت إلى وقوع كثير من شباب المجتمع في المشكلات السلوكية والانحرافية، لذلك هدفت هذه الدراسة إلى تحديد العوامل الجوهرية التي وردت كثير من الآيات القرآنية في أنها سبب لوقوع الفرد في المشكلات السلوكية، وكذلك معرفة وسائل الدفاع التي يمكن أن تحصن الفرد من الوقوع في الانحراف، وذلك من أجل وضع رؤية نظرية تفسر ذلك. ولقد راجع الباحث مكتبياً كثيراً من النظريات العلمية التي حاولت وضع تفسير علمي لسبب وقوع الإنسان في المشكلات والانحرافات والجرائم المختلفة، وبعد تتبع الباحث لتلك النظريات العلمية، خلص إلى أن معظم تلك النظريات أحادية التفسير، ولا يوجد لديها تفسير يمكن تطبيقه على جميع من يقع في تلك المشكلات السلوكية، وكثيرها - إن لم يكن جميعها - لم تضع في الاعتبار الجانب الديني للمجتمع أو للفرد، كما أنها غربية المنشأ والفكر والعقيدة، وتتبع الكتب والمراجع التي تشخص كل مشكلة من تلك المشكلات لاحظ الباحث التركيز على العوامل الخارجية المسببة لها، بعد ذلك قام الباحث بإجراء دراسة وصفية تحليلية، من خلال استخدام منهج دراسة الحالة، وقام الباحث بتصميم استمارة دراسة حالة كأداة لتلك الدراسة، وتم تحديد (٢٨) حالة سلوكية، ومن ثم قام الباحث بدراسة حالتها لمدة أربعة أشهر، وبعد تحليل تلك الحالات تبين للباحث أن العوامل المحيطة بالفرد لا تؤثر على جميع الأفراد، فليس كل من خرج أو صاحب رفاق سوء أو شلل إجرامية سلك مسلكهم، وليس كل من شاهد القنوات الفضائية انجر في متابعة السيئ منها، وليس كل من استخدم الإنترنت ولج في المواقع الإباحية والممنوعة، وليس كل من يعيش في تفكك أسري يصبح منحرفاً، وليس كل من امتلك هاتفاً نقالاً من المراهقين أساء استخدامه... إلخ. وخلصت الدراسة بعد الاستدلال بالعديد من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية إلى أن الفرد يتعرض بشكل دائم ومستمر لهجوم من (٣) جهات وهي النفس، والشيطان، والعوامل الخارجية (العوامل الأسرية أو الإعلامية أو المجتمعية أو المدرسية)، وأن نجاح الفرد في التصدي لتأثير تلك الجهات مرهون بقوة التحصينات التي يفترض أن يتمتع بها، وهي بالترتيب: الروح الإيمانية، والإرادة وقوة الضبط الذاتي، وقوة الجانب الإدراكي المعرفي، والضبط الاجتماعي الرسمي وغير الرسمي.

مشكلة الدراسة:

لقد دفع الباحث لدراسة هذا الموضوع ما أشارت إليه الإحصاءات الصادرة من المركز الوطني للإحصاء بالسلطنة بأن (٣١%) من الشباب بالسلطنة اتهموا بقضايا مختلفة، وأن (٨٠%) من تلك النسبة اتهموا بجرائم ضد الأشخاص، كما بلغ

* أستاذ مساعد بقسم الاجتماع والعمل الاجتماعي، جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان.

عدد المتهمين في ٢٠١٢م عدد (٤٠٨٣٩) شخص، كما أنه سجلت في عام (٢٠١٢م) عدد (١٢٨٥) جريمة مخدرات قام بها عدد (٢١٧٩) شخص، كما بلغ عدد حالات الإدمان على المخدرات التي أقرت بذلك وسجلت في عام (٢٠١٢م) عدد (٣٦٦٩) حالة، كما أن عدد حالات الإيدز بلغت حتى نهاية (٢٠١٢م) عدد (٢٢٩١) حالة، كما أظهر مسح عالمي لاستخدام التبغ بين الشباب بالسلطنة أن طالبا من كل عشرة طلاب قام بالتدخين، وأن (١٣%) من الذكور، و(٦%) من الإناث تناولوا التبغ الممضوغ، وبالوقوف على مصادر المعرفة التي تكوّن فكر وثقافة الشباب أفادت الإحصاءات المقدمة من المركز الوطني للإحصاء بأن (٩٧%) من الشباب يشاهدون التلفزيون، وبالوقوف على مضمون ما يشاهدونه تبين أن (٧٩%) من الشباب يتابع البرامج والقنوات الرياضية، و(٧٣%) يشاهدون البرامج الفنية والترفيهية، كما أن (٦٢%) يستخدمون الإنترنت.

ولقد سعت كثير من النظريات إلى وضع تفسير علمي لسبب وقوع الإنسان في المشكلات والانحرافات والجرائم المختلفة، وذلك من أجل تحصيل أفراد المجتمع من الوقوع في الانحراف والجريمة، وبعد تتبع النظريات العلمية التي حاولت أن تضع تفسيراً علمياً لذلك، خلصت إلى أن معظم تلك النظريات أحادية التفسير، ولا يوجد لديها تفسير يمكن تطبيقه على جميع من يقع في تلك المشكلات، وكثيرها - إن لم يكن جميعها - لم تضع في الاعتبار الجانب الديني للمجتمع أو للفرد، كما أنها غريبة المنشأ والفكر والعقيدة، وتتبع الكتب والمراجع التي تشخص كل مشكلة من تلك المشكلات لاحظت التركيز على العوامل الخارجية المسببة لها، وبعد تتبع لكثير من الحالات الفردية التي وقعت في تلك الانحرافات والجرائم تبين لي أن العوامل المحيطة بالفرد لا تؤثر على جميع الأفراد، فليس كل من خرج أو صاحب رفاق سوء أو شلل إجرامية سلك مسلكهم، وليس كل من شاهد القنوات الفضائية الجرمية في متابعة السيئ منها، وليس كل من استخدم الإنترنت ولج في المواقع الإباحية والممنوعة، وليس كل من يعيش في تفكك أسري يصبح منحرفاً، وليس كل من امتلك هاتف نقال من المراهقين أساء استخدامه... الخ.

إذن العوامل الأسرية أو الإعلامية أو المجتمعية أو المدرسية ليست هي الأساس الذي نرجع له تفسير المشكلات الانحرافية والجريمة؛ لأنها لا تؤثر في كل أحد، وهذا يشير إلى أن هناك شيئاً آخر يؤدي إلى الوقوع في الانحراف والجريمة من عدمه. لذا تسعى الدراسة الحالية معرفة الجهات التي تدفع الفرد الوقوع في الانحراف، والأساليب التي يحتاج أن يتحصن بها الفرد لمنع تأثير تلك الجهات عليه.

تساؤلات الدراسة:

- ١- ما هي الجهات التي توقع الفرد في الانحراف؟
- ٢- ما هي خطوط الدفاع التي تحول دون تأثير تلك الجهات على الفرد؟
- ٣- ما هي الرؤية النظرية لمساعدة الفرد في التخلص من الانحراف؟

الموجهات النظرية للدراسة:

الاتجاهات السوسولوجية في دراسة الانحراف:

يفسر أنصار هذا الاتجاه، السلوك الإنحرافي برده إلى عوامل ومسببات داخل المجتمع، أو المنطقة التي يعيش فيها الفرد، أو الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها؛ كما يفسرون الانحراف بوصفه انتهاكاً للقيم والمعايير والقواعد المنظمة للسلوك، والأدوار والمراكز التي يشغلها أعضاء المجتمع. كما أن تخلف الخدمات وبرامج الرعاية الموجهة، وضعف درجة الضبط الاجتماعي، والهوة الثقافية، وانخفاض المستوى الاقتصادي والاجتماعي، ووجود جماعات ذات ثقافة جانحة، كل ذلك يساهم في إيجاد السلوك الإنحرافي في المناطق الحضرية. ويضم هذا الاتجاه مجموعة من النظريات منها: نظرية الضبط الاجتماعي، ونظرية الثقافة الفرعية، ونظرية التعلم الاجتماعي، ونظرية التفكك الاجتماعي والجريمة، ونظرية العوامل البيئية والنظرية الطبيعية، والنظرية الاقتصادية الخ^١.

وسوف يستعرض الباحث أهم هذه النظريات على النحو الآتي:

١- النظرية المادية - التاريخية:

تركز الرؤية المادية التاريخية على الشروط الموضوعية- الاقتصادية وعلاقتها بكافة الظواهر، ومن بينها ظواهر الانحراف. وقد اهتم "ماركس وأنجلز" بتوضيح أثر العوامل الاقتصادية في ظهور المشكلات الاجتماعية من خلال طرحهم لنظرية تضم مجموعة من المفاهيم مثل: البناء التحتي، والبناء الفرعي، وقوانين التطور، ودور كل من الصراع الطبقي، والثورة الاجتماعية، والدولة والسلطة السياسية، وديكتاتورية البروليتاريا، والدفاع عن المكاسب الاشتراكية ضد الثورة المضادة الداخلية والخارجية، وربطها بشكل حميم باستراتيجية الثورة وتكتيكها. إن الماركسية-اللينينية تنظر إلى الانحراف على أنه ظاهرة اجتماعية تاريخية، وليدة الظروف الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع، تلك الظروف التي تتسم بالتناقض، والصراع الطبقي^٢.

إن ما يصاحب الفقر يشكل سلسلة من الأسباب التي ربما تؤدي إلى الانحراف، ومن ثم إلى الجريمة؛ ومن ذلك ما يصاحب الفقر أو الدخل المتدني، من ضغوط اجتماعية ونفسية وعوامل خارجية مصاحبة كالجيرة التي تغذي ثقافة الانحراف، والصحة المماثلة لذلك، والأسرة المتصدعة وغيرها من الأسباب المصاحبة^٣.

وترتبط الأوضاع الاقتصادية المتدنية من وجهة نظر المادية التاريخية بمشاكل أخرى كالهجرة، ومشكلات الإسكان الشعبي المتقارب، ومشاكل المواصلات، ونقص الخدمات الاجتماعية الأولية. وهذه الظروف ربما تدفع الإنسان وتجعله أكثر ميلاً لارتكاب جرائم الانحراف لمواجهة الحاجات الناجمة عن هذه المشاكل^٤.

^١ عبد السلام، العنف في المرحلة الثانوية، ص ٢٨-٢٩.

^٢ المحامدة، ندى عبد الحميد، الجوانب السلوكية في الإدارة المدرسية، ص ٢٦-٢٨.

^٣ عباس أبو شامة عبد الحمود، جرائم العنف وسبل مواجهتها في الدول العربية، ص ٣٥.

^٤ حامد، سعيد عبد العال، أساسيات خدمة الفرد، ص ١٩.

وخلاصة القول إن الوضع الاقتصادي للفرد يلعب دوراً كبيراً في تحديد نمط الشخصية وفي مقدار نموها، ومدى انحرافها. ويمكن استخدام مقياس للمستويات الاقتصادية كالذي استخدمه "بورت Burt" حيث وضع بنوداً متدرجة للمستويات الاقتصادية كالعوز (الفقر المدقع) - والفقر - السواء والرفاهية والترف (البذخ) (أحمد وجابر، ٢٠٠٥: ٣٦).

وبالنظر إلى معطيات هذه النظرية نلاحظ، تركيز أصحابها على الجانب المادي فقط، والذي يرون فيه أساس المشكلات كافة، لاسيما الانحراف، وقد أوضحت كثير من الدراسات ومعايشة الواقع لكثير من المجتمعات أن الوضع الاقتصادي والفقر له تأثير واضح في وجود أشكال معينة من الانحراف، وخاصة السرقة والنهب، ورغم ذلك تبقى هذه النظرية قاصرة في تفسير انحراف بعض الطبقات الغنية، والتي لم يؤثر عليها العوز المادي، كما تعجز عن تفسير وجود كثير من الأشخاص الذين يعيشون أوضاعاً مادية صعبة ولم يلجئوا إلى الانحراف في حياتهم وهم نسبة كبيرة، ومن ثم يدلنا ذلك على وجود عوامل أخرى تساعد أو تقلل من سلوك الانحراف، كما أن الدين الإسلامي أهتم بعدالة الحصول على فرص الكسب الحلال، وكفل للمعوزين حقوقاً على الأغنياء كالزكاة والصدقات، وحرّم على المسلم الأخذ من مال غيره وإن كان فقيراً، و توعده بالعقاب في الدنيا وفي الآخرة.

٢- الاتجاه البنائي الوظيفي في تفسير العنف:

يقوم هذا الاتجاه على فكرة تكامل الأجزاء في كل واحد، والاعتماد المتبادل بين العناصر المختلفة للمجتمع الواحد. كما فسّر سلوك الانحراف بأنه نتيجة لاختيار التكامل بين البناء الثقافي والبناء الاجتماعي^١.

٣- نظرية التعلم الاجتماعي:

ترى نظرية التعلم الاجتماعي أن المبدأ الأساسي الذي يحكم نشأة العديد من سلوكياتنا واستمرارها هو: أن كل سلوك يتم تدعيمه في الماضي أو الحاضر سوف يستمر في المستقبل، لاسيما في المواقف المشابهة. والتدعيم قد يكون ذاتياً أو اجتماعياً. كما أنها سلوك متعلم تعززه البيئة غرساً في نفس الإنسان وتعزده وتقويه، بوصفه سلوكاً مكتسباً وليس طبيعياً. وتختلف طرق التعلم من بيئة لأخرى ومن شخص لآخر وفقاً للعناصر الثقافية التي تحتويها تلك البيئة كالحكايات والقصص والأحداث، الخ^٢.

وتعد نظرية التعلم الاجتماعي من أهم النظريات التي اهتمت بتفسير عملية تعلم السلوك من خلال التقليد والمحاكاة، وأن الفضل الأكبر في الاهتمام بموضوع التعلم عن طريق المحاكاة يعود إلى "البرت بانديورا" الذي قدم خلاصة أبحاثه في كتاب يحمل اسم "التعلم الاجتماعي من خلال المحاكاة Social learning Through" عام ١٩٦٢م^٤.

^١ الخولي، العنف في مواقف الحياة اليومية نطاقات وتفاعلات، ص ١١٤.

^٢ فايد، العدوان والاكْتئاب، ص ٣٦.

^٣ آدم، الصحة النفسية للمراهقين، ص ٥٠.

^٤ خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص ٧٧.

وتركز نظرية التعلم الاجتماعي على المحددات البيئية للسلوك، كما أن الشخصية لدى أصحاب هذه النظرية هي محصلة أو نتاج لسلوك الأفراد في بيئة معينة، وليس لبناء أو تكوين فردي^١.

كما تسهم عدة متغيرات في تعلم السلوك الانحرافي خلال مرحلة المراهقة منها: معايشة الخلافات الأسرية، و التفكك الأسري والإهمال؛ والتفاعلات العنيفة بين الوالدين.

وبالنظر في معطيات نظرية التعلم الاجتماعي، يرى الباحث، أنه لا شك أن اكتساب السلوك الانحرافي عن طريق المشاهدة والتقليد هو أمر أثبتته كثير من الدراسات التجريبية التي بحثت في هذا الأمر، ولكن في مقابل ذلك نجد دراسات أخرى تثبت وجود الانحراف بسبب عوامل أخرى منها: الجانب المادي، والجانب النفسي، وغيرها؛ وعلى ذلك، يرى الباحث أن هذه النظرية تستطيع أن تفسر بعضاً من أنماط الانحراف وليس جميعها.

ومن الملاحظ أن نظرية التعلم تؤكد على ما أقره الدين الإسلامي وكافة الديانات السماوية الأخرى، أن الإنسان ولد على الفطرة، وما يكتسبه بعد ذلك هو الذي يحدد نمط سلوكه. وهناك كثير من الأمثلة والأدلة القرآنية والنبوية على أهمية التعلم ودوره في إكساب الفرد سلوكاً ما.

٤ - نظرية التفاعلية الرمزية:

يعود إلى "هربرت بلومر" سنة ١٩٣٧ صك تعبير "التفاعل الرمزي"، ويعود إلى "هربرت ميد" أكثر من الآخرين وضع أساس هذا الاتجاه، رغم أنه لم يطور ما ينطوي عليه من منهجية للدراسات الاجتماعية^٢.

ويشير التفاعل الرمزي - كما يقول بلومر - إلى الخصائص المميزة والفريدة للتفاعل الذي يقع بين "الناس" فالمتفاعلون لا يستجيبون فقط للآخرين، وإنما يؤولون ويعرفون أفعال الآخرين، فالتفاعل الإنساني إذن يتوسطه استعمال الرموز، من خلال تأويل أو تأكيد معنى أفعال أخرى^٣.

ويؤكد "هربرت ميد" وجود أوجه عفوية مباشرة من سلوك الإنسان وتفاعلاته. ويؤكد "ميد" على أن ما تثيره الأفعال أو السلوكيات من إيماءات تتضمن معاني، وهذه المعاني لها دلالة قوية، ويعني "ميد" هنا "اللغة" لغة الإشارات والإيماءات، أو الرموز^٤.

وعلى ذلك فإن التفاعلية الرمزية يمكنها فهم كافة السلوكيات الاجتماعية وتحليلها (فردية كانت أم جماعية-سلبية أم إيجابية) وفقاً لمعاني الأفعال التي يسلكها الأفراد من خلال انطوائها على المعنى^٥.

^١ ثابت، العنف والإيذاء والخبرة الصادمة لدى الأطفال، ص ٤١٠.

^٢ Blumer, Herbert: " Society and Symbolic Interaction", In Human Behavior and Social Process, p١٨٠.

^٣ زايتلن، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، ترجمة محمود عوده وإبراهيم عثمان، ص ٣٧٥.

^٤ كيلوتش، تمهيد من النظرية الاجتماعية، ترجمة محمد سعيد فرج، ص ١٥٣.

^٥ دريدي، العنف لدى التلاميذ في المدارس الثانوية الجزائرية، ص ٧٠.

وبناء على ما سبق، يرى الباحث أن مضمون الفكرة الرئيسية لنظرية التفاعل الرمزي لا يختلف كثيراً عن نظرية التعلم الاجتماعي، من خلال تأثير التفاعل الاجتماعي في إكساب الفرد سلوك العنف، وأن رموز ذلك التفاعل، ومدى وضوحها، ومدى تقبل الفرد لها هو ما يحدد حجم التأثير بتلك التفاعلات الاجتماعية. غير أن ما يميز نظرية التفاعل الرمزي هنا؛ هو التأكيد على أهمية التأويل وفهم معنى الإشارات والإيجاءات المصاحبة للسلوك وأهميتها في تدعيم بعض السلوكيات من خلال عملية التفاعل الاجتماعي.

٥- نظرية الضبط الاجتماعي:

تسلم بأن قواعد المجتمع ومعايره مطلقة ولا تقبل التحيز، وعلى الفرد أن يمثل لهذه القواعد؛ وعلى ذلك فإن أي سلوك يأتيه الفرد يعد مخالفاً، أو عدائياً تجاه المجتمع. ويمكن عرض أهم الأسس التي تركز عليها نظرية الضبط الاجتماعي في فهم سلوك الانحراف وتفسيره على النحو الآتي:

١- يخلق المجتمع مجموعة من القواعد التنظيمية التي تحدد للأفراد أنماط السلوك الاجتماعي والأفعال المقبولة، وغير المقبولة.

٢- تعد التنشئة الاجتماعية أهم الوسائل التي يضعها المجتمع لتحقيق أهدافه الضبطية.

٣- عندما تصاب أدوات الضبط بالضعف يصبح سلوك الأفراد أقرب إلى الانحراف منه إلى التوافق^١.

وتدور نظرية الضبط الاجتماعي حول افتراض مؤداه: أن الدافع للانحراف شيء طبيعي يوجد لدى جميع الأفراد. كما تؤكد النظرية على أن الطاعة والامتثال هما الشيء الذي يجب أن يتعلمه الفرد^٢.

كما ترى نظرية الضبط Control Theory أن الانحراف غريزة إنسانية فطرية تعبر عن نفسها عندما يفشل المجتمع في وضع قيود محكمة على أعضائه. وتعد الأسرة من أهم مصادر الضبط المباشر وغير المباشر^٣، وعندما تفشل الضوابط الرسمية في ضبط سلوك أعضاء المجتمع، يظهر سلوك الانحراف بين هؤلاء الأعضاء، ونجد أن نظرية الضبط تدور حول افتراض رئيسي فحواه أن الناس بطبيعتهم يتسم سلوكهم بالانحراف^٤.

ويرى الباحث أن نظرية الضبط الاجتماعي تركز على العوامل الخارجية أكثر من التركيز على الجوانب الداخلية للفرد متمثلاً في الضبط الذاتي، وهو عنصر لا يمكن إغفاله، إنه بمثابة الرقيب الداخلي الذي يستطيع أن يحجم الغريزة الإنسانية تجاه الانحراف من خلال ما تتسم به الشخصية من رقابة ذاتية. لذا فإن هذه النظرية ركزت على جانب الضبط الخارجي الذي في الحقيقة يكون ضعيفاً أمام إرادة الغريزة الذاتية للفرد، ومن ثم فإن التحايل سواء في العلن أو بالخفاء هو طريق التنصل من ذلك الضبط الاجتماعي.

^١ المرجع السابق، ص ٥٣-٥٤.

^٢ عبد السلام، العنف في المرحلة الثانوية، ص ٢٩-٣٠.

^٣ خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص ٨٢.

^٤ لطفي، الأسرة ومشكلة العنف عند الشباب، ص ١٤-١٥.

٦- نظرية الثقافة الفرعية:

تسعى نظرية الثقافة الفرعية إلى تفسير أشكال معينة من السلوك، وقد تم ذلك من خلال صياغة مفهوم الثقافة الخاصة لفهم هذه الأنماط السلوكية^١.

ويشير مصطلح الثقافة الفرعية إلى أنها " الككل الذي ينطوي على متغيرات ثقافية توجد في أقسام معينة عند شعب بالذات". ولا تتميز الثقافات الفرعية بسمة أو بسمتين منفصلتين، بل إنها تشكل أنساقاً ثقافية متماسكة نسبياً، وتقوم كمجموعة عوامل داخل العالم الأكبر الممثل في الثقافة القومية".

ويمكن للباحث عرض أهم الأسس التي تقوم عليها نظرية الثقافة الفرعية على النحو التالي:

- ١- يعتمد المجتمع على مجموعة من القيم على حساب قيم أخرى.
- ٢- تحدد هذه القيم مجموعة من الأهداف يستطيع الفرد من خلالها الحصول على مركز اجتماعي.
- ٣- تتحقق الوسائل المحسدة لتلك الأهداف-بشكل عام- للطبقة الوسطى دون الطبقة الدنيا.
- ٤- باعتبار نقص الفرص أمام أفراد الطبقة العاملة لتحقيق أهدافها فإن المجتمع بمؤسساته المختلفة ينظر إليهم بشكل سلبي مما يصيبهم بالإحباط؛ وينطبق ذلك على مجتمع المدرسة.
- ٥- عدم تحقيق أهداف الأفراد يؤدي إلى تمردهم وثورتهم ضد قيم الطبقة الوسطى.
- ٦- تؤدي القيم المتشكلة عند الطبقة العاملة إلى بروز قيم خاصة بها تواجه بها قيم الطبقة الوسطى.
- ٧- تتناقل هذه القيم من جيل إلى آخر مما سيشكل ثقافة فرعية خاصة جانحة^٢.

وبالتعليق على رؤية نظرية الثقافة الفرعية، نجد أنها فعلاً أعطت تحليلاً متسلسلاً لتكون ثقافة فرعية داخل الثقافة الأم، سواء عن طريق معاشرة واقع معين، أو عن طريق وسائل الإعلام. ويرى الباحث أن هذه النظرية قد أغفلت بعض الجوانب الذاتية التي عادة ما تجعل من الفرد غير منسجم وغير مستجيب لما تفرضه عليه تلك الثقافة؛ وعلى ذلك فإن الباحث يؤكد على أهمية دور الثقافة الفرعية السائدة في تشكيل الانحراف، ولكن يجب عدم إغفال الخصائص المتعلقة بالشخصية الأخرى.

٧- النظرية الظاهرية:

طور "إدموند هوسرل" رؤية توضح الفعل الإنساني في سياق معاني الفاعلين بدلا من كونه محصلة مؤثرات خارجية، ويقصد "هوسرل" أنه لا يوجد واقع موضوعي خارج عنا قابل للمعرفة، بل إن كل فرد يضع واقعه بتصنيف خبراته الشخصية أو فرزها، ومن ثم فإن ما قد يفسره فرد ما بأنه "مرض" أو "انحراف" قد فسره آخر بأنه عقاب "روحي"، ويفسره ثالث بأنه مجرد سوء حظ وتظهر المعاني المشتركة للواقع عندما تتفق المعاني الذاتية^٣.

^١ دريدي، العنف لدى التلاميذ في المدارس الثانوية الجزائرية، ص ٥١.

^٢ المرجع السابق، ص ٥٢.

^٣ Donneff, o. Mik: (Introduction To Sociology, p ٦٢٢.

إذن تؤكد النظرية على أن سلوك الإنسان في أي لحظة يكون محكوماً بنظريته للعالم الذي يعيش فيه؛ وبناءً على هذا يكون سلوكه فردياً متميزاً، إلا أن هذا لا يعني أن يكون الفرد سلبياً متلقياً للمثيرات بل يكون فعالاً نشطاً مدركاً ومسؤولاً عن أفعاله وتصرفاته، ساعياً إلى إشباع حاجاته^١.

٨- نظرية الدور:

أن نظرية الدور تقوم على أساس أن السلوك الإنساني هو سلوك قائم على التعلم والخبرة، وأن الفرد حينما ينمو في وسط بيئة معينة فإنه يحاول بالضرورة التعايش مع قوانينها وأنظمتها وتقاليدها. تقترب هذه النظرية من نظرية التعلم الاجتماعي. من خلال معطيات هذه النظرية يرى الباحث أن تفسير الانحراف على أنه سلوك نابع عن توقعات دور معين، لا ينطبق إلا على أشكال قليلة من الانحراف، لاسيما التي تميز أحد الجنسين عن الآخر. وبشكل عام، تغفل النظرية تأثير عوامل عديدة يمكن من خلالها تفسير سلوك الانحراف. والتي أثبتتها كثير من الدراسات في مجالات مختلفة، ومن ضمن تلك العوامل ما يتصل منها بالجانب النفسي، والجانب الاجتماعي المتصل بالتنشئة الاجتماعية، وتأثير الثقافة الفرعية، والضبط الاجتماعي، وغيرها من العوامل الاجتماعية الأخرى.

٩- النظرية البيولوجية:

ينطلق أنصار النظرية البيولوجية في تفسير السلوك الانحرافي من أن العامل البيولوجي يعد بعداً أساسياً وعنصراً في تشكيل الشخصية وتحديد السلوك. وقد ساد هذا الاتجاه بين أتباع المدرسة الإيطالية التي أسسها "لومبروزو"، فكان هذا المفكر يعد الانحراف نتيجة لتشويهاً دماغية وعصبية تخل بالعلاقة بين وظائف الإرادة والقيم الخلقية في الدماغ وبين مراكز الغرائز العدوانية^٢، ولقد أكدت على ذلك دراسات أخرى أوضحت أن العدوانية مثلاً تظهر في بعض حالات خبطات الدماغ، والإصابة عند الولادة، والتهاب الدماغ، وأورام المخ عامة، ومن أهم العوامل والمتغيرات البيولوجية التي تركز عليها النظرية، الصفات والجنينات، والمهرمونات المتصلة بالجسم والجهاز العصبي المركزي واللامركزي، والغدد الصماء، والتأثيرات البيوكيميائية، والأنشطة الكهربائية في المخ كما تشكل القوة العضلية عاملاً بيولوجياً آخر في تأثيره على الانحراف^٣.

لقد أشار علماء الكروموسومات إلى وجود اختلال في كروموسومات الجنس عند بعض عتاة المجرمين، حيث يتكون جسمهم من خلايا بها كروموسوم (XY) وليس (XYY) كما هو الحال مع باقي البشر، كما وجد أن الذكور من نمط (XYY) يزداد شيوعهم ١٥ مرة في السجون عن باقي الشعب، ومثل هؤلاء يميلون إلى الطول المفرط، وانخفاض الذكاء، ومن

^١ أحمد، مناهج البحث في التربية وعلم النفس رؤية نقدية، ص ١٠٦-١٠٧.

^٢ مدبولي، ظاهرة جناح الأحداث والعوامل المفسرة لها، ص ٩-١٠.

^٣ إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، ص ١٩٩.

هنا فإن هذا الخليط يجعلهم عرضة لارتكاب الجرائم^١، ولكن أثبتت دراسة على القتلة في بعض السجون أن ٧% منهم مصابون بزيادة في الجين المحدد للذكورة، ولكن تبقى أيضاً نسبة ٩٣% غير المصابة بدون تفسير^٢.

كما لوحظ على صعيد التجارب أن هناك علاقة بين الانزعاج النفسي وإفرازات المعدة، كما لوحظ أن بعض الأمراض - التي هي بعيدة ظاهراً - عن حالات الانفعال - كمرض السكري مثلاً - يمكن أن يكون نتيجة لوضعية متأزمة. الخلاصة يمكن القول إنه لا توجد وراثية للصلاية والقوة بحيث تفرض على صاحبها نموذجاً إجرامياً بشتى المواقف التي يمر بها وكافة المؤثرات التي يقع تحت تأثيرها. إذن لا بد من وجود تفاعل بين الفرد وخصائصه الموروثة، وبين الظروف والبيئة التي يتعرض لها ذلك الفرد.

وتعليقاً على ما سبق؛ يمكن للباحث الإفادة من بعض مقولات النظريات البيولوجية، لاسيما فيما يتعلق بالخلل الدماغي، وعلاقته بحدوث الأمراض العقلية التي تقود إلى تشكيل السلوكيات المنحرفة في التصرفات، ابتداء من الانحراف البسيط إلى التدمير، ولا يواجه هذا الانحراف إلا بالمهدئات، أو بتقييد حركة المختل دماغياً. ولكن ما ينتقد به هذه النظرية أنها لم تستطع تفسير مختلف سلوك الانحراف؛ لأن كثيراً من أشكال الانحراف لا يرتبط بعوامل بيولوجية وإنما بعوامل نفسية، واجتماعية عديدة.

الإجراءات المنهجية للدراسة:

نوع الدراسة: تعد الدراسة الحالية من الدراسات التحليلية الوصفية التي استفادت من نتائج الدراسات السابقة حول النظريات المفسرة للسلوك الانحرافي.

المنهج المستخدم: استخدمت الدراسة منهج دراسة الحالة للحالات الفردية التي لديها سلوك انحرافي.

مجالات الدراسة:

المجال البشري: الحالات السلوكية للطلاب المراهقين في المدارس

المجال المكاني: عينة من مدارس محافظة مسقط

المجال الزمني: استمر الباحث في تحليل الحالات الفردية بالمدارس لعدة سنوات، استمرت من عام ٢٠١٠ حتى

النصف الأول من عام ٢٠١٤م، حيث في كل فصل دراسي يتم دراسة عدة حالات سلوكية للطلاب المراهقين في المدارس، ويتم الوقوف على العوامل والأسباب الذاتية والبيئية التي أدت إلى وقوعهم في السلوك الانحرافي.

عينة الدراسة وأسلوب اختيارها:

نظراً لقيام الباحث بتدريب طلاب الجامعة في المدارس ضمن خطة دراستهم الجامعية، ونظراً لكون دراسة الحالات الفردية للطلاب من ضمن تكاليف التدريب، فقد وجه الباحث طلابه إلى التركيز على دراسة الحالات الفردية السلوكية، وتم تدريبهم

^١ عبد الرحمن، العنف الأسري الأسباب والعلاج، ص ٧٨.

^٢ آدم، الصحة النفسية للمراهقين، ص ٥١.

على تطبيق استمارة دراسة الحالة التي أعدها الباحث، ويستمر الطالب في مقابلة الحالة ومتابعة الظروف الذاتية والأسرية والمدرسية وبيئة الجوار لمدة فصل دراسي، ويتم الاجتماع بالطالب المدرب بعد كل مقابلة يجريها مع الحالة من أجل توجيهه للخطوة التالية، وفي نهاية الفصل يجمع الباحث التسجيلات القصصية للمقابلة، والتسجيلات التلخيصية للحالة بشكل عام، مع الاستمارة المعدة لذلك ليقوم بتحليلها واستخلاص العوامل والأسباب وراء الوقوع في السلوك الانحرافي.

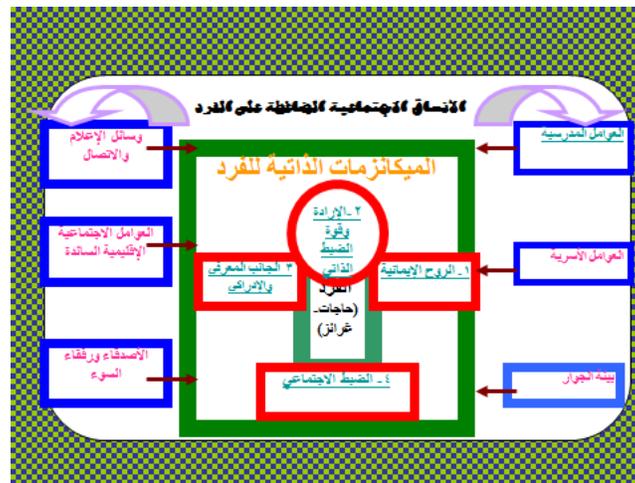
ولقد تم دراسة متعمقة لعدد (٢٨) حالة سلوكية وتم من خلالها التوصل إلى الرؤية النظرية التي خرج بها هذا البحث.

أدوات الدراسة: استمارة دراسة حالة فردية

أسلوب التحليل: اعتمد الباحث على أسلوب التحليل الكيفي للحالات، واستطاع في بعض المؤشرات التوصل إلى

نسبة كمية لمجموع الحالات المدروسة.

الرؤية النظرية للباحث وفق نتائج الدراسة:



بعد بحث لعدد (٢٨) حالة سلوكية، وتعدد نوع السلوك في تلك الحالات الفردية من علاقات غير مشروعة مع الجنس الآخر إلى حالات عنف، وإدمان وسرقة لتحديد السر في الوقوع بالانحرافات من عدمها خلصت إلى أن كل إنسان يتعرض لهجوم يومي من ثلاث جهات، وأن نصره أو هزيمته مرهون بقوة التجهيزات الدفاعية التي يمتلكها (جهاز المناعة غير العضوي)، وهي أربع خطوط دفاع يواجه بها الهجوم من الجهات الثلاث، فإذا ما كانت تلك خطوط الدفاع ضعيفة أو غير موجودة فإنه سوف يخسر المعركة، وذلك الهجوم يظل يومياً، ويزداد خطورة إذا استمر الإنسان في خسارته اليومي للمعركة، الذي سيؤدي به إلى خسارة الدنيا والآخرة.

والآن سوف نتناول تلك الجهات والتي يمكن ترتيبها حسب قوتها كما يلي:

الجهة الأولى "النفس": تتمثل تلك الجبهة في الحاجات والغرائز والدوافع الفطرية الموجودة في كل إنسان، وتحتاج إلى إشباع و تلبية، وهي تدفع الفرد يومياً لإشباعها بأي طريقة، ومن تلك الحاجات والغرائز نجد غريزة حب المال، والغريزة الجنسية، والغريزة العاطفية، والحاجة للأكل أو الشرب، والحاجة لإبراز الذات، وغيرها من الحاجات والغرائز، وقد أطلق عليها "فرويد"

"الهُو"، ووصفها القرآن الكريم بالنفس الأمارة بالسوء، قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي أَنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ١٥٣] وتوصف كذلك بأنها شيطان النفس، ووصف القرآن الكريم ما ينتج عن تلك النفس بـ"الهوى"، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وهي تعد أقوى جبهة تهجم على الإنسان لأنها نابعة من داخل أحشائه، وينتج من إتباعها مرض القلب وهو مرض معنوي وليس عضوي، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، كما أن الله اعتبر تغيير المجتمع بأسره يتم بتغيير النفس أولاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ومعلوم في العلوم العسكرية بأن التصدي للهجوم الخارجي أهون من التصدي للهجوم من الجبهة الداخلية.

والنفس تكون على (٣) حالات: النفس الأمارة بالسوء (أسوء حالات النفس) والتي سبق ذكرها، والنفس اللوامة (تقع في وسط بين الحالتين) وهي التي تلوم صاحبها عند وقوعه في السلوك المخالف لطاعة الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، والنفس المطمئنة (أفضل حالات النفس) وهي التي تتحقق بعلو الروح الإيمانية، وتمكنها من قلب المؤمن، والتي سوف يأتي شرحاً لاحقاً.

ولقد بين تحليل الحالات المدروسة أن (٦٤%) من تلك الحالات يؤنبها الضمير بعد القيام بالفعل، و(٤٦%) من تلك الحالات ينتابها الخوف قبل القيام بالسلوك السيء، وهنا نلاحظ أن النفس اللوامة تخوف صاحبها قبل إقدامه، وتلومه بعد فعلته.

الجبهة الثانية "الشيطان": هذا العدو الخفي لا تتحدث عنه النظريات العلمية، وتتجاهل دوره في تفسير المشكلات الانحرافية، بينما بالرجوع إلى القرآن الكريم نجد بأن الله تعالى حذرنا في آيات كثيرة بلغت حوالي (٥٥) آية ذكرت الشيطان، و(١١) آية ذكرت إبليس، ويحذرنا الله فيها من الهجوم القادم من الشيطان الذي هو قرين لكل إنسان، وقد بين لنا الله كيف نتصرف عندما يهجم علينا الشيطان قال تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، كما حذرنا الله من أن تقع في فتنته ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ولقد نبهنا الله بأن الشيطان عدو لنا يجب أن نحذر من أتباعه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وامرنا الله بالخوف من الله فقط، ولا نخاف من الشيطان، ﴿إِنَّمَا ذُكِرَ الشَّيْطَانُ يَخُوفٌ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، كما أن الله تعالى نبهنا في القرآن بأن الشيطان وعد بإضلال الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَا أَضَلُّنَّهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا مَرْهَمَهُمْ فَلْيُبْتِئِكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْهَمَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]، كما جاء بالقرآن الكريم أن الشيطان سوف يحاول أن يعد ويمني الإنسان بأشياء كثيرة من أجل أن يضلّه ويحرفه عن الخير، قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، كما بين القرآن أن الذين يقعون في مشكلة الخمر والميسر إنما الشيطان هو السبب في ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ

الله ﴿المائدة: ٩١﴾، وذكر القرآن أن الشيطان يزين أعمال الناس قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وغيرها الكثير من الآيات الكريمة التي دلت على خطورة اتباع الشيطان، والخلاصة أن الشيطان عدو يعمل ليلاً ونهاراً في إغواء الإنسان وإيقاعه في الانحراف، ويجب له الممنوع، ويكره له المباح، ويستغل الهجوم القادم من النفس ويتحد معه ويشكلوا جبهة واحدة أحياناً، وهذا العدو يوسوس للإنسان ويغريه ولا ينام عنه لحظة حتى يوقعه في شركه. وعلى المتخصصين في العلوم الاجتماعية، وخاصة في علم الجريمة والانحراف عدم تجاهل هذا العدو عند تفسير الانحراف.

الجبهة الثالثة "العوامل الخارجية": تتمثل هذه الجبهة في الهجوم القادم من العوامل الخارجية المحيطة بالإنسان، والتي تحاول أن تتحد مع العدو الأول "النفس" من أجل أن توجد لها وسائل للإشباع، وتتمثل تلك العوامل في جميع المثيرات والمغريات التي يتم عرضها في القنوات الفضائية أو الإنترنت أو ما يروج له جماعة أصدقاء السوء أو الأماكن التي بها الاختلاط بين الجنسين وغيرها من الأماكن والوسائل التي تغري الإنسان وتثير غرائزه وتحاول أن توفر له الإشباع للحاجات والغرائز التي تدفعها النفس الأمانة بالسوء لإشباعها بأي طريقة. وقد دلت الآية الكريمة على أن الإنسان يفتن في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿أَحْسِبُ النَّاسَ أَنْ يَتَّكِبُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

كما أن الشيطان عندما يعجز عن إغواء الإنسان يستعين بالإنسان ليغوي أخيه الإنسان، ويسمى هؤلاء "شياطين الإنس"، وقد ذكر القرآن ما يدل على أن شياطين من الأنس يسعون إلى إغواء الآخرين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وفي سورة الناس نجد أن الله تعالى ذكر لنا أن الوسوسة تأتي من الناس كذلك، وليست مقصورة على الجن فحسب، قال تعالى: ﴿الَّذِي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾ [الناس: ٥-٦].

فشياطين الإنس تعمل ليل نهار على إفساد البشر، ونشر الرذيلة، وإيقاعهم في الانحراف والجرائم، فهناك من لا عمل له إلا صنع وبيع وترويج الخمر والمخدرات، وهناك من هو متخصص في شحن الإنترنت بالمواقع والمقاطع الإباحية والخليعة، وهناك من يعمل في تجارة البغاء، وهناك من يجمع الشباب من أجل تشكيل عصابات جرمية ... إلخ.

إذن الفرد يعيش ذلك الهجوم من تلك الجهات الداخلية والخارجية، وتزداد خطورتها عندما تتحد مع بعضها لإيقاع هذا الإنسان في برائن الانحراف عن السلوك السوي الذي ارتضاه المجتمع بما حدده الإسلام.

وبعد تحديد الجهات التي تهجم على الفرد يومياً للإيقاع به في الانحراف - وهذا بحمد ذاته مكسب لان تشخيص الداء يعين على تحديد الدواء - ننتقل لتحديد خطوط الدفاع التي يجب أن تكون موجودة لدى كل فرد منا من أجل أن ينتصر في الهجوم القادم إليه من الداخل والخارج، وأن أي ضعف أو تخلخل أو عدم وجود لخطوط الدفاع تلك يؤدي بالإنسان إلى خسران معركته في الدنيا، والذي يترتب عليه خسران الآخرة إذا لم ينتصر قبل فوات الأوان.

وسوف نتناول تلك الخطوط بالترتيب حسب قوتها في مواجهة الجهات التي تم الإشارة إليها:

أولاً: الروح الإيمانية

هي تلك المشاعر الروحية التي يشعر بها الفرد عندما تكون علاقته بخالقه علاقة خوف ورقابة، وخشية من عقابه، وتجنباً لغضبه جل جلاله، والتي يشعر بها الإنسان من خلال السعادة التي تصاحب أداءه للفرائض والشعائر الدينية التي تقره إلى الله، ولقد ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية من الآيات الجلييلة ما يثبت وجود تلك المشاعر لدى المؤمن والمخلص لربه، ولا يستطيع أحد أن يتصور تلك المشاعر ما لم يعيش لحظاتها فيعرف طيب طعمها، وسر قوتها، وفضل سعادتها ونقاوة روحها.

وقد أظهرت الحالات الفردية المدروسة أن (٧٥%) منهم غير ملتزمين بإداء الفرائض والعبادات، رغم أن (٧١%) من تلك الحالات يعترفون بعقوبة ذلك السلوك الانحرافي الذي تمارسه.

وإذا أتينا لتحديد جوانب القوة التي تكوّن وتشكّل الروح الإيمانية في الفرد سنجد بأنها تتمثل في الآتي:

١- الخوف من العقاب والرجاء للثواب الأخروي: ذلك العقاب الذي توعد الله به من خالف أوامره، والثواب الذي وعد الله به من التزم بتلك الأوامر وكف عن نواهيه، فالخوف من العقاب، والرجاء في الثواب له تأثير كبير في صد هجوم النفس والشيطان والعوامل المحيطة، والإنسان مطالب عندما تنزع نفسه إلى الشر أن يستحضر الموت وغصته، والقبر ووحشته، ويوم القيامة وهوله، ونعيم الجنة وعقاب النار.

٢- الحدود والقصاص الديني: كما أن الإسلام أوجد الحدود والقصاص الديني لمن ضعف لديه الخوف والرجاء الأخروي، وبالتالي أصبح العقاب الديني يساهم في ردع الفرد من الوقوع في الانحراف، وتوضح لنا الحكمة من ذلك عندما أمر الإسلام بأن يشهد الناس تنفيذ تلك الأحكام ليعتبر ويرتدع كل من تسول له نفسه اقتراف شيء من ذلك.

٣- الإيمان بالقضاء والقدر: لقد عدّ الله الإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان، وبالتالي فإن المؤمن حقاً لا تحبطه الظروف فتؤدي به إلى الانحراف كالانتقام من نفسه أو أسرته أو مجتمعه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. ولقد دلت الآيات الكريمة على أن الإنسان يجزع من الشر، ويمنع الخير إلا المصلين المحافظين لفروجهم، والموفون لعهودهم وأماناتهم، والذين ينفقون من أموالهم، والذين يصدقون بيوم القيامة، والذين يؤدوا شهاداتهم، والذين يحافظون على أداء صلواتهم، قال تعالى: ﴿أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، إِلَّا الْمَصْلِينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ، ...﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

٤- السكينة والطمأنينة عند أداء الفرائض: تلك الطمأنينة التي يحف الله بها الشخص الذي أدى الفرائض وداوم على ذكر الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، كما قال تعالى: ﴿إِنِ الصَّلَاةُ تَنهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، كما بين الله فضل الزكاة في تطهير وتزكية النفس بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

٥- القيم الإسلامية: جاء الإسلام بقيم حنيئة ترشد المسلم في كل أنماط سلوكه، وتحدد له المباح والمحرم والمكروه والمستحب من السلوك، وتلك القيم كونها جاءت متوافقة مع الفطرة الإنسانية فإنها صالحة لكل زمان ومكان. ويعد هذا الخط من أقوى خطوط الدفاع، وبإمكانه أن يقي الإنسان من الانحراف بدون الحاجة للخطوط الأخرى، لماذا؟ لأن الروح الإيمانية تنبت وتقوى في أهم عضو بالإنسان ألا وهو القلب، فتلك الروح الإيمانية تصقل القلب، وتجعله مطمئن، وقوي مما يدفعه إلى أن يفرز نفس أخرى مقابلة للنفس الأمارة بالسوء، ألا وهي "النفس المطمئنة"، قال تعالى: ﴿يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ [الفجر:٥١]، وهي قادرة على كبح جماح النفس الأمارة بالسوء، وصد الشيطان، والوقوف بثبات وقوة في مواجهة الجبهة الثالثة "العوامل الخارجية".

ولقد جاء في الحديث النبي الشريف عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» رواه البخاري (٥٢)، كما جاءت الآية الكريمة ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ [المطففين:١٤]، وجاء الحديث النبوي ليعين ذلك الران، إذ قال ﷺ: «إن العبد إذا أذنب الذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع وتاب واستغفر صقل، وإن هو عاد زادت حتى تملأ قلبه فذلكم الران»، ثم تلا الآية الكريمة السابق ذكرها.

ونخلص من ذلك بأن الجوانب الخمسة التي تكوّن الروح الإيمانية (الخوف والرجاء من الثواب والعقاب الأخروي- الخوف من الحدود والقصاص الدنيوي- الإيمان بالقضاء والقدر- السكينة والطمأنينة من أثر العبادات والفرائض- القيم الإسلامية الموجهة للسلوك) جميعها تصقل القلب وتجعله صافياً نقياً سليماً، قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصفات:٨٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت:٤٤]، وذلك الصفاء وتلك النقاوة تفرز لنا النفس المطمئنة، وتلك النفس المطمئنة تدحر الهجوم الداخلي (النفس الأمارة بالسوء) والهجوم الخارجي (الشيطان، والعوامل الأخرى)، مما تصبح معه جميع جوارح الإنسان مقيدة منضبطة من أي انحراف في نظر العين، أو في سمع الأذن، أو في بطش اليد، أو في مشي الرجل، أو في قول اللسان، وبالتالي يسلم من الوقوع في أي انحراف يجرمه من سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

وعليه من أراد أن يحصّن نفسه أو يحصّن أبناءه من الهجوم الثلاثي فعليه أن يتزود بهذا الحصن الكافي والوافي بإذن الله، وأن اعرض عن هذا الحصن فالله وعده بمعيشة ضنكا ومشقة قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:١٢٤]، مع العلم بأنه لا يوفق كل إنسان في الحصول على هذا الحصن، قال تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾ [الأنعام:١٢٥].

خط الدفاع الثاني: الإرادة وقوة الضبط الذاتي

الإرادة وقوة الضبط الذاتي هي تلك القيم وقوة العزيمة والقدرة على التصدي للجانب الغريزي لدى الإنسان، وذلك بما يتمتع به الشخص من شخصية ذات إرادة وعزيمة قوية متشعبة بقيم إنسانية تم اكتسابها من خلال التنشئة الاجتماعية للفرد

منذ ولادته، ومن ثم كلما وجدت تلك القيم التي تضبط الذات عن الانجرار وراء شهوات الغرائز، وتقف في وجهها بإرادة ثابتة مستندة على قيم تشربها الفرد طوال حياته، فإن الفرد سوف يستطيع أن يقي نفسه من الوقوع في كثير من المشكلات.

الجوانب التي تكوّن هذا الخط تتمثل في الآتي:

- ١- قيم تشربها الفرد طوال تنشئته الاجتماعية (ليست شرطا دينيا).
- ٢- خبرات حياة أكسبته قوة الإرادة وقوة العزيمة في وجه الغرائز.
- ٣- ظروف الحرمان والقسوة والاعتماد على الذات وبناء الثقة بالنفس - واكتساب القيم الإنسانية، كلها تبني قوة هذا الخط.

ولقد تبين من تحليل الحالات أن (٤٣%) منها حاولت مواجهة القيام بالفعل ولكن إرادتها عجزت عن ذلك، بينما (٥٧%) لم تحاول أصلاً بإرادتها الضعيفة مجابهة تلك الرغبة في القيام بذلك السلوك. كما أن (٧٥%) من الحالات تتمنى أن لا ترجع لفعل ذلك السلوك.

ونلاحظ بأن مكونات هذا الخط تكون المراعاة فيه لجانب ذاتي دينوي فقط، بعكس الخط الأول الذي تكون المراعاة فيه لجانب إلهي وأخروي، كما أنه يختلف في درجة قوته من شخص لآخر، باختلاف تشرب الفرد وتمثله لتلك القيم الإنسانية، وباختلاف خبرات الحياة.

وهذا الخط ينطبق على الأفراد الذين استطاعوا بإرادتهم الذاتية أن يواجهوا الأعداء الثلاثة من الوقوع في الانحراف، وهم قد لا تكون لديهم روح إيمانية، ولكن تلك الإرادة من القوة والثبات استطاعت أن تكبح الانحراف، ويلجأ إلى هذا الخط الأفراد غير المسلمين، أو المسلمين الذين هم غير ملتزمين بتطبيق أوامر الله والكف عنه نواهيه، فمثلاً يوجد في الدول الغربية من هم غير مسلمين ولكن لم يقعوا في الانحراف نتيجة القيم الإنسانية التي تأصلت في نفوسهم عند تنشئتهم، ونتيجة خبرات الحياة أثناء التنشئة الاجتماعية، واستطاعت تلك القيم أن تقيهم من الانحراف، والفرد المسلم كذلك بحاجة إلى هذا الخط، الذي يمنحه قوة الإرادة والضبط الذاتي، والذي يقال عنه في الدارج العام بأن فلان شخصيته قوية، أو فلان لديه قوة عزيمة، تلك الشخصيات هي ما قصدناه في هذا الخط، والذي ذكرت بأن خبرات الحياة هي التي تشكل هذا الخط. فمثلاً الشخص الذي ينشأ مدلاً يستجيب لكل ما تطلبه نفسه، فإنه يجد من الصعوبة بعد ذلك أن يسيطر عليها بعدما تضغط عليه حاجات وغرائز المراهقة، وخاصة الغريزة الجنسية أو العاطفية منها؛ لأن النفس تعودت أن يستجاب لما تطلب، وانتقلت تلك العادة إلى العقل الباطن، وبالتالي يحتاج إلى مجاهدة حتى يسترجع تلك العادة من العقل اللاواعي إلى العقل الواعي، ثم يبدأ مرحلة المجاهدة في الانقطاع عن العادة لمدة لا تقل عن (٢١) يوماً كما يقول العلماء حتى يستطيع أن يتخلص منها بعد ذلك، والباحث يعتقد أن المدة المطلوبة هي (٣٠) يوماً بدليل أن الله فرض على المسلم صيام شهر رمضان (٣٠) يوماً، ومعلوم بأن الصيام هو ترك للعادات السيئة (التدخين مثلاً)، وترك الفواحش... إلخ، وذلك يعد ترويض للنفس لتستطيع أن تتخلص من تلك العادات.

لذا علينا أن نحصن أبنائنا وانفسنا بهذا الخط، وذلك بترويض النفس على كبح هواها، والخروج من مواقف الحياة الصعبة بشخصية وإرادة قوية، وذلك حتى تقوى عزائمنا، وتثبت إرادتنا تجاه تيار العواصف القادم من الأعداء الثلاثة، ويكون خطأ معيناً للروح الإيمانية إذا ما ضعفت في حربها اليومية مع اندفاع النفس الأمانة بالسوء، أو مع إغراءات الشيطان، أو مثيرات العوامل المحيطة بالفرد.

خط الدفاع الثالث: الجانب الإدراكي المعرفي

يتكون هذا الخط من المعارف والثقافة العامة للفرد، بالإضافة إلى القدرات الإدراكية (الفطنة والذكاء) التي يتمتع بها الشخص، كما أن هذا الخط يميّز الأشخاص الذين يتمتعون بثقافة ومعرفة جيدة مضادة للانحراف، كما يتمتعون بقدرات إدراكية قوية تتسم بالفطنة، وبالتالي يكون لديهم القدرة على التمييز بين السلوكيات السوية والسلوكيات الخاطئة، والخير من الشر، بما لديهم من ثقافة ومعرفة، ويكون هذا الخط الدفاعي واضحاً لدى طبقة المثقفين والمتعلمين بشكل أكبر. وهذا واضح في دور المستوى التعليمي والثقافي في تحييد الفرد من الوقوع في الانحراف، فدائماً الإحصاءات تشير إلى أن المجرمين والمنحرفين يكونون من الفئات الأقل مستوى تعليمي، وقل إدراكاً بالعواقب من فعل ذلك السلوك.

ولذلك تجد المراهقين مثلاً تكثر لديهم تلك الانحرافات، بفعل تحكم العاطفة وطغيانها على العقل، تلك الانحرافات التي يندموا عليها عندما يكونوا أكثر وعي ومعرفة، وأكثر نضجاً عقلياً بعد مرحلة المراهقة. فمثلاً الذين لديهم وعي وثقافة معرفية أقل انحرافاً لمساهمة تلك المعارف في صد المثيرات والدوافع الداخلية والخارجية، حتى وإن انعدم أو ضعف لديهم الخط الدفاعي الأول والثاني.

ولقد بين لنا القرآن الكريم فضل العلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقد بين لنا الله أن الذين يعلمون لا يستوون مع الذين لا يعلمون، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، كما بين الله تعالى أن بالعلم يرفع الله الإنسان درجات، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وغيرها من الآيات والاحاديث التي تبين فضل العلم على الإنسان.

لذا فإن الإنسان مطالب بأن يحصن نفسه وأبناءه بالعلم والثقافة والمعرفة التي تشكل الجانب الإدراكي لديهم، فالشخص الذي يعرف خطورة التدخين سوف يرفضه ولن يقبل تجريبه إذا ما عرضه عليه أصدقاء السوء، والشخص الذي يعرف مضار المخدرات وآثارها الصحية والقانونية سوف يرتدع من إتياها، والشخص الذي يعرف بأن الإيدز مرض سببه العلاقة الجنسية غير المشروعة فإنه لن يقدم على الاستجابة لنزعاته وغرائزه، والابن الذي يتم توعيته بأخطار الإنترنت والهاتف النقال سوف يكون أقل عرضة للاستغلال... إلخ.

ولكن علينا أن ندرك بأن هذا الخط أحياناً لا يستطيع أن يواجه الهجوم الثلاثي بنفسه؛ لأن الغرائز التي تدفعها النفس الأمانة بالسوء والشيطان، تجعل العاطفة النابعة من القلب أكثر تحكماً في العقل، وكلما غلبت العاطفة على العقل، كلما

قلت الاستفادة من العلم والإدراك الذي مركزه العقل، وهذا يتوافق مع ما دل عليه الحديث النبوي بأن المضغة (القلب) التي إذا صلحت صلح باقي الأعضاء، وإذا فسدت أفسدت باقي الأعضاء، والعقل من ضمن تلك الأعضاء.

الخط الرابع: الضبط الاجتماعي

الضبط الاجتماعي الرسمي هو ذلك الشعور بالخوف من القوانين والأنظمة الضبطية الموجودة في المجتمع، أما الضبط الاجتماعي غير الرسمي فهو ذلك الشعور بالخوف من الأسرة أو ولي الأمر أو احد المقربين، أو الخوف على السمعة الشخصية من قبل ضغط أفراد المجتمع.

ويعتبر هذا الخط أضعف الخطوط قوة، وذلك لأن مراعاته تتم في العلن فقط، ويستطيع الفرد التنصل منه في إتيان السلوك في الخفاء، وبالتالي يلتزم به الفرد كرهاً فقط وليس طواعيةً، ومتى ما أستطاع أن يبقى بعيداً عن الرقابة المجتمعية أو الأسرية فإنه سيقوم بما تجرّه إليه شهواته ونزواته الذاتية في ظل عدم وجود خطوط الدفاع الثلاثة الأولى.

وهناك مستويان من الضبط الاجتماعي: الرسمي، وغير الرسمي، فالضبط الرسمي يتمثل في المحاكم ومراكز الشرطة والادعاء العام وكل الجهات التي لديها السلطة الضبطية أو العقابية في الدولة، وبالتالي سنجد شخص لم يقع في أي انحراف ليس لقوة إيمانه أو مستواه العلمي أو قوة إرادته وإنما لخوفه من عقاب مؤسسات الضبط الرسمي في الدولة، وكلما كانت وسائل الضبط الرسمية قوية وفاعلة كلما أسهمت في التقليل من الانحراف والجرائم، فالدول التي نقصت لديها هيبة القانون كثرت بها الانحرافات من سرقات وجرائم ... إلخ.

ولقد أتضح من تحليل الحالات أن (٧١%) لا يدركوا العقوبة القانونية لذلك السلوك، وبالتالي نلاحظ بأن عدم معرفتهم ووعيهم بتلك العقوبة (الضبط الرسمي) زاد من استمرارهم في فعل السلوك، لذلك لا فائدة من الضبط الرسمي إن لم يصل ويعلم به الجميع ليصبح واقعياً للفرد من الانحراف.

أما النوع الآخر من الضبط فهو الضبط غير الرسمي، والمتمثل في الخوف من الأب أو ولي الأمر أو ضغط المجتمع، وبالتالي تجد الشخص يبقى سويّاً بسبب خوفه من عقاب والديه أو المقربين منه، أو بسبب خوفه على سمعته وسمعته عائلته، وكلما كانت هيبة ورهبة الأسرة والمجتمع قوية كلما استطاعت أن تمنع الشخص من الوقوع في الانحراف.

ولقد أظهر تحليل الحالات الفردية المدروسة أن (٨٢%) منهم يخافوا من ردة فعل الأهل والأسرة إذا ما علموا بسلوكهم المنحرف، وهذا كما ذكرنا لم يكفي لردعهم كون ما يقوموا به من سلوك لا يعلم به الأهل واستطاعوا الاختباء عن ضبط الأسرة. كما أن (٤٣%) يرون بأن فعلهم لهذا السلوك له تأثير سلبي على الأسرة والأهل، و(٧١%) يرون بأنه يؤثر على المستقبل.

ولكن مع الدور الفاعل لهذا الخط وأهميته في صد الهجوم، إلا أن عيبه كلما استطاع الفرد أن يختبئ عن الضبط الرسمي أو غير الرسمي كلما قام بالسلوك المنحرف، وهذا يختلف عن الخطوط السابقة التي تعمل في السر والعلن، ولكن هذا الخط فعّال في العلن، أما في السر فلا ينفذ صاحبه.

وبهذا نكون قد انتهينا من شرح خطوط الدفاع الأربعة التي تواجه الجبهات الثلاث، والتي كما تبين لنا تختلف في قوتها من خط لآخر، والإنسان المثالي الذي يرغب أن يبقى في مأمن من الانحراف والوقوع في إغراء النفس أو الشيطان، أو تأثير المحفزات الخارجية، عليه أن يحصن نفسه وأبناءه بكل تلك الخطوط الدفاعية وسيكسب خير وسعادة الدنيا ونعيم الآخرة. هذا وأسأل الله جل جلاله أن يساعد هذا التصور في وقاية أفراد المجتمع من الانحراف والجريمة، ويساعد كذلك في عملية تشخيص وعلاج الحالات التي وقعت في تلك الانحرافات، وذلك من خلال عملية تعديل سلوك المنحرف، والتي يجب أن تقوم على إعادة تحصينه بتلك الخطوط حتى يستطيع أن ينشأ فرداً سوياً بالمجتمع.

المصادر والمراجع:

١. إبراهيم، حسنين توفيق، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٢م).
٢. آدم، حاتم محمد، الصحة النفسية للمراهقين، (القاهرة: مؤسسة اقرأ، ٢٠٠٥م).
٣. ثابت، عبد العزيز موسى، العنف والإيذاء والخبرة الصادمة لدى الأطفال، (مكتبة الشارقة، ١٩٩٩م).
٤. جادو، أميمه منير عبد الحميد، العنف المدرسي بين الأسرة والمدرسة والإعلام، (السحاب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م).
٥. حامد، سعيد عبد العال، أساسيات خدمة الفرد، (حلوان: دار المهندس للطباعة، ٢٠٠٧م).
٦. خليفة، عبد اللطيف محمد، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، (القاهرة: دار غريب للنشر، ٢٠٠٣م).
٧. الخولي، محمود سعيد، العنف في مواقف الحياة اليومية نطاقات وتفاعلات، (القاهرة: دار ومكتبة الإسرائ، ٢٠٠٦م).
٨. زابتلن، إرفنج، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، ترجمة محمود عوده وإبراهيم عثمان، (الكويت: منشورات ذات السلاسل، ١٩٨٩م).
٩. عبد الرحمن، علي إسماعيل، العنف الأسري الأسباب والعلاج، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٦م).
١٠. عبد السلام، حمادة، العنف في المرحلة الثانوية، (القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٧م).
١١. فايد، حسين، العدوان والاكثاب، (الإسكندرية: مؤسسة حورس الدولية، ٢٠٠٤م).
١٢. كينلوتش، جراهام: تمهيد من النظرية الاجتماعية، ترجمة محمد سعيد فرج، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠م).
١٣. لال، زكريا بن يحيى، العنف في عالم متغير، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٧م).
١٤. لطفي، طلعت إبراهيم، الأسرة ومشكلة العنف عند الشباب، (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١م).
١٥. المحامدة، ندى عبد الحميد، الجوانب السلوكية في الإدارة المدرسية، (عمان: مكتبة المجتمع العربي، ٢٠٠٥م).
١٦. مدبولي، جلال، ظاهرة جناح الأحداث والعوامل المفسرة لها، (مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٥م).

قائمة الكتب والدراسات الأجنبية:

١٧. Hunter, self-Esteem and Bias.(European Journal of Social Psychology, Vol٢٦,University of Otao New Zealand,١٩٩٦)
١٨. Aziz, Jihad Nasir. Exposure to violence, stress, and resilience among African-American and Latino/Latina high school students; [Ph.D. dissertation].United States -- Pennsylvania: The Pennsylvania State University; ١٩٩٩
١٩. Baughman, John T. The design and assessment of a violence prevention curriculum for at risk high school students; [Ph.D. dissertation].United States -- Texas: Baylor University; ٢٠٠٠

٢٠. Behre, William John. Elementary and middle school teachers' reasoning about intervening in student violence Proquest Dissertations And Theses ; [Ph.D. dissertation].United States -- Michigan: University of Michigan; ١٩٩٨
٢١. Blumenthal, Deborah Rachel. Interadult violence and verbal aggression in the home: Associations with distress, relationship problems, and trauma symptoms in inner-city high school students [Ph.D. dissertation].United States -- Maryland: University of Maryland Baltimore County; ١٩٩٨.
٢٢. Blumer, Herbert:" Society and Symbolic Interaction", In Human Behavior and Social Process, ed. Arnold M. Rose,(Boston :Houghton Mifflin,١٩٦٢.
٢٣. Coleman, Beverly Eugene. School violence and student achievement in reading and mathematics among eighth graders; [Ph.D. dissertation].United States -- Illinois: University of Illinois at Urbana-Champaign; ١٩٩٨.
٢٤. de Voux, Kailas. Perceptions and experiences of school violence and safety: A comparison of risk factors across schools, school personnel and students; [Ph.D. dissertation].United States -- Alabama: Auburn University; ١٩٩٩.
٢٥. Donneff, o. Mik: (Introduction To Sociology, ٤Th ed Nefson,surrey,u.k.١٩٩٧
٢٦. Egger, Sukey Merry Suzanne. Optimism as a factor that promotes resilience in inner-city middle-school students exposed to high levels of community violence; [Ph.D. dissertation].United States -- California: University of California, Los Angeles; ١٩٩٨

عوامل نجاح التربية الإسلامية في زمن التحديات المعاصرة

باي زكوب عبد العالي*

ملخص البحث:

إن البلاد الإسلامية اليوم تمرُّ بمرحلة مخاضٍ عسير في زمن الفضائيات التي اختصرت العالم وحضاراته وأفكاره ورؤاه في قرية كونية؛ وتعقدت الحياة إلى الحدِّ الذي غيَّب دور العوامل التربوية الإسلامية الناجحة في ريادة المجتمعات الإسلامية، تغييباً أحدث فجوة كبيرة بين التيارات الإسلامية؛ فبات كل تيار يملي عوامل مؤدية إلى نجاح التربية الإسلامية من الزاوية التي يراها، مما أدى إلى تبعثر الجهود بدل تكثيفها، واختلاف الآراء والأفكار بدل تقاربها أو اتحادها، وهذا ما جعل أماننا كمرتين العديد من التحديات التي تجعل من موضوع عوامل نجاح التربية الإسلامية أمراً مهماً للغاية، وهي ثلاثة عوامل رئيسة: أولاهما: التلقّي من نبع القرآن وحده والسنة النبوية وحدها، وثانيها: التلقّي للتنفيذ والعمل، وثالثها: العزلة الشعورية بين ماضي المسلم في جاهليّته وحاضره في إسلامه. موظفاً المنهج الاستقرائي والتحليلي.

المحور الأول: مفهوم التربية الإسلامية

أ- المفهوم اللغوي للتربية: لكلمة التربية أصول لغوية ثلاثة:

الأول: ربا: ربا الشيء، يربو ربوا ورباء: زاد ونما. وأربيته: نميته، وربأت الأرض رباءً: زكت وارتفعت^١، فتكون التربية هنا بمعنى النمو والزيادة والزكاة والارتفاع، قال رَبَّكَ: ﴿بِمَحَقِّ اللَّهِ الرَّبَّاءِ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقوله رَبَّكَ: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لَيْرِيُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، وقوله رَبَّكَ أيضاً: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

والثاني: ربّي يربّي، وربّ ولده والصبي يربه ربا، ورببه تربيها وتربة، عن اللحياني: بمعنى ربا. وفي الحديث: لك نعمة تربها أي: تحفظها وتراعيها وتربيها، كما يربي الرجل ولده، ورباه تربية: أحسن القيام عليه، ووليه حتى يفارق الطفولية^٢، والولد: ثقفه وهذبّه وأدّبّه^٣.

فتكون التربية هنا بمعنى التنشئة والرعاية والتأديب، قال رَبَّكَ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُزَكِّكْ فِيْنَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِن عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، وقوله رَبَّكَ أيضاً: ﴿وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

* مساعد تحرير مجلة الإسلام في آسيا، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

^١ انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ٥، ص ٩٤-١٢٦.

^٢ انظر: المرجع السابق، ج ٥، ص ٩٦.

^٣ انظر: جبران مسعود، الرائد معجم لغوي عصري، ج ١، ص ٧١٢.

والثالث: ربُّ يربُّ على وزن مَدَّ يمدُّ بمعنى مَتَّه، وأصلحه، وولَّيه، وتعهَّده، ورأسه وساسه^١، فتكون التربية هنا بمعنى الرياسة والسياسة كقوله ﷺ: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وفسره النبي ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه بأنهم اتبعوهم في تحليل ما حرَّم الله، وتحريم ما أحلَّ الله^٢.

لم ترد كلمة (التربية) بهذا اللفظ في القرآن الكريم، ولا في أحاديث رسول الله ﷺ، ولا في استعمالات السلف رضوان الله عليهم، ولكنها وردت بألفاظ أخرى تدل على معناها. وقد نبّه إلى ذلك محمد منير مرسي بقوله: "تعتبر كلمة التربية بمفهومها الاصطلاحي من الكلمات الحديثة التي ظهرت في السنوات الأخيرة مرتبطةً بحركة التَّجديد التَّربوي في البلاد العربيَّة في الرِّبع الثاني من القرن العشرين؛ ولذلك لا نجد لها استخداماً في المصادر العربيَّة القديمة"^٣.

أما الكلمات التي استخدمت في القرآن، والأحاديث النبويَّة، وفي كتابات السلف للدلالة على معنى التربية فهي كالآتي:

١- الدَّعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر: هي فضيلة إسلامية قرآنية تجعل صاحبها داعية من دعاة الصَّلاح والإصلاح، قال ﷺ: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، عن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجر من أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^٤، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو معقل الترابط بين المؤمنين والمؤمنات حيث قال ﷺ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، ومن استخدم هذا المصطلح ابن تيمية في كتابه: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

٢- الإصلاح: ويعني إصلاح ما أفسده الناس أو التغيير إلى الأفضل، قال ﷺ مخبراً عن شعيب وهو يعظ قومه: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقد بَوَّب البخاري في صحيحه: "باب ما جاء في الإصلاح بين الناس إذا تفسدوا، وقول الله ﷺ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وخروج الإمام

^١ إبراهيم مذكور، المعجم الوسيط، ج ١، ص ٣٣٣.

^٢ الحديث بطوله رواه عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي! اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعتة يقرأ في سورة براءة: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدوهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه». الترمذي، السنن، ج ٥، ص ١٢٢، رقم ٣٠٩٥.

^٣ مرسي، أصول التربية، ص ١٣١.

^٤ مسلم، الصحيح، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، ج ٤، ص ٢٠٦٠، رقم ٢٦٧٤.

إلى المواضع ليصلح بين الناس بأصحابه^١، وممن استخدم هذا المصطلح عبد الحليم بن تيمية في كتابه الموسوم: (السياسة الشرعية في إصلاح الرّاعي والرّعيّة) وكتابه الآخر: (الحسبة في الإسلام).

٣- التّصيحة: ويقصد بها تقديم النصح إلى الآخرين من منطلق أنّ المؤمنين نصحة، أي: ينصح بعضهم بعضاً، قال ﷺ مخبراً عن نوح وهو ينصح قومه: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقوله ﷺ مخبراً عن هود: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقوله ﷺ أيضاً مخبراً عن صالح: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وقد ترجم البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان: "باب قول النبي ﷺ: "الدين التّصيحة: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم". وقوله ﷺ: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^٢، وممن استعمل هذا المصطلح أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في رسالته (لفتة الكبد إلى نصيحة الولد)، والإمام أبو حامد الغزالي في رسالته (أيها الولد)، والحارث المحاسبي في رسالته (سالة المُسترشدين).

٤- التّواصي بالخير: ويأتي بمعنى النصيحة، قال ﷺ: ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

٥- التّزكية: ويقصد به تطهير النفس من مساوئ الأخلاق، وتحليلتها بمحاسن الأخلاق، وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وممن استخدم هذه الكلمة الإمام الرّاغب الأصفهاني في كتابه: (الذريعة إلى مكارم الشريعة).

٦- الأدب: يقصد بالأدب: رياضة النفس بالتعليم والتّهديب على ما ينبغي^٣، وإذا رجعنا إلى كتاب مدارج السالكين للإمام ابن القيم وجدناه قد جعل الأدب منزلة قرآنية من منازل إياك نعبد وإياك نستعين واستشهد على ذلك بقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، قال ابن عباس وغيره: أدبهم وعلّمهم، وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع، فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة، وهي الطّعام الذي يجتمع عليه الناس، وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل. وهو شعبة من الأدب العام^٤.

ولقد وردت كلمة الأدب في بعض أحاديث النبي ﷺ التي منها:

- ما روي عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لأن يؤدب الرجل ولده خيرٌ من أن يتصدق بصاع»^٥.

^١ البخاري، الصحيح، كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس، ج ٢، ص ١٨٤.

^٢ المرجع السابق، ج ١، ص ٢٢.

^٣ مذكور، المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٩.

^٤ ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج ٢، ص ٣٧٩.

^٥ الترمذي، السنن، ج ٤، ص ١١، رقم ١٩٥١.

- وما روي عن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «ما نحل والدٌ ولده أفضل من أدبٍ حسن»^١.
- وما روي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا أولادكم، وأحسنوا أديهم»^٢.
- ونستشف من معاني هذه الأحاديث أن لفظ الأدب يدل على معنى كلمة التربية. ومن استعمل هذا المصطلح الإمام النووي في كتابه: (التيبان في آداب حملة القرآن)، والماوردي في كتابه: (أدب الدنيا والدين).
- ٧- التهذيب: ويأتي بمعنى تركية النفس، جاء في المعجم الوسيط، هدب الصبي: رباه تربية صالحة خالية من الشوائب^٣، وقد استعمل هذا المصطلح ابن مسكويه في كتابه: (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)، كما استخدمه الجاحظ في رسالته (تهذيب الأخلاق).

والحق أنّ كلمة (التأديب) عند قدامى المسلمين كانت ترادف إلى حدّ كبير فيما يعرف عندنا اليوم بـ(التربية). يفهم من هذه المرادفات لكلمة التربية التي تُدوول استخدامها عند السلف رضوان الله عليهم، أنّ التربية الإسلامية هي سياسة النفس الإنسانية بحسن تنشئتها، ورعايتها، وتعهدها، والعمل على إصلاحها، وتأديبها، وتعليمها، والحرص على دعوتها، ونصحها وإرشادها حتى تبلغ أقصى درجات الكمال، وهي: الصالحية، والصدّيقية، والشهادة، وأخيراً درجة النبوة التي أغلقت بمبعث محمد ﷺ، قال ﷺ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، ومع هؤلاء يحشر المرتون الأمناء، يقول ابن باديس: "العلم الصحيح، والخلق المتين، هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان"^٤.

إذن فالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح، والتّصحيح، والتّواصي بالخير، والتّركية، والأدب، والتهذيب لها هدف واحد مشترك وهو التربية، ولأجل هذا أدرجناها تحت مرادفات التربية.

ب- المفهوم الاصطلاحي:

يختلف التعريف الاصطلاحي للتربية باختلاف المنطلقات الفكرية التّاجمة في أغلب الأحيان عن المعتقدات الدّينية والثّقافات المتنوّعة، واختلاف الأزمنة والأمكنة، وتالياً فإنّ هذا الاختلاف في الدّين والفكر والرّزاد الثّقافي والزمان والمكان يؤوّل إلى اختلاف في المصادر والوسائل والأهداف.

يرى الفيلسوف الإسلامي، أبو علي الحسين ابن سينا أنّ التربية هي مساندة ميول الصّبي، ثم توجيهه إلى الصّناعة أو المهنة التي تتفق وميوله^٥، فابن سينا يرى أنّ الطفل لما يولد، يولد بمواهب وميول معيّنة، وعن طريق الملاحظة والتّجربة يمكن التّعريف على هذه الميول والمواهب، ثم توجيه الصّبيّ توجيهاً صحيحاً يتوافق وميوله ومواهبه، وفعلاً فإنّ المطّلع على الحضارة الغربيّة

^١ المرجع السابق، ج ٤، ص ١١٠، رقم ١٩٥٢.

^٢ ابن ماجه، السنن، ج ٣، ص ٢٩٧، رقم ٣٦٧١.

^٣ مذكور، المعجم الوسيط، ج ٢، ص ١٠١٨.

^٤ ابن باديس، في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص ٩٩.

^٥ عميرة، التربية الإسلامية وأثرها في المجتمع، ص ٢٦٥.

اليوم، يجدها أنّها خصّصت مدارس ومعاهد معيّنة تتمّ من خلالها اكتشاف مهارات الأطفال، وتنميتها، وتوجيهها توجيهاً صحيحاً يؤوّل إلى التّجّاح، من هذه المدارس الغربية: روضة الأطفال: الفنون الإبداعية (Kids' Gallery: Creative Art) في هونغ كونغ الصينية، حيث يتحصل الطفل في هذه المدرسة على: التعليم والتعلّم المبكّر، تطوير مهارات الطفل وزرع الثقة في نفسه للظهور أمام الآخرين، تعلّم الطفل فنون الاتصال مع الغير، اعتماد الفنون البصرية كالرّسم، والأشغال اليدوية لخلق أبعاد فنيّة في الطفل، وأخيراً إقامة ورشات العمل من أجل ترسيخ ما يتعلّمه الطفل في المدرسة^١، وغيرها من المدارس، كما تمّ مؤخراً من إنشاء مثل هذه المدارس في بعض البلدان الإسلامية تعتمد المنهج الغربي والقيم الإسلامية لأجل إنشاء طفل متكامل. ومن هذه المدارس: مدرسة الإبداع العلمي الدولية (Intl School of Creative Science) في الإمارات العربيّة المتّحدة، حيث تمّ تقسيم هذه المدرسة إلى أربع مراحل، لكل منها مديرتها الخاص الذي يتولى الإشراف على العملية التربوية والتعليمية ميدانياً: مرحلة الروضة، والمرحلة التأسيسية، والمرحلة الابتدائية العليا، والمرحلة الثانوية^٢، وغير ذلك من المدارس.

كما تحدّث ابن خلدون في مقدّمته عن التربية والتنشئة ولكن مستخدماً في ذلك مصطلحاً: الأدب والتعلّم مستشهداً على ذلك بكلام عمر رضي الله عنه: "من لم يؤدّب الشرع لا أدّبه الله"، وعقّب على قول عمر رضي الله عنه بقوله: حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماً بأن المقدار الذي عيّنه الشرع لذلك أملك له فإنه أعلم بمصلحته، .. والرّحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلّم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها^٣، وقد أكّد الأستاذ الرّاشد هذه التّطريّة الخلدونيّة بقوله: "إنّ من الحقائق السّارية التي ظهرت منذ بداية الحياة الاجتماعية الإنسانية ويغفل عنها البعض أنّ التّقليد والمحاكاة من صفات الإنسان الاجتماعي، وأنّه قابل للتأثر بغيره تأثراً لا يشعر به، حتى إذا بلغ التأثير حدّاً في الكثافة كبيراً تحوّل إلى عقيدة وفكرة ومفهوم ثابت ينقل المتأثر إلى مرحلة تمحيص عقلي لما عند الغير، فيزداد أخذاً لما يوافق عقيدته المتكوّنة، ويرفض ويعاف ما يضادها، إنّ (السمع) و(البصر) هما الأداتان الرئيستان اللتان يتمّ بهما هذا التأثير اللاشعوري، فالشّخص يسمع شيئاً، ويتكرّر لديه هذا السّماع، فينشغل في التفكير بما سمع، حتى يأخذ عليه تفكيره وقتاً يزداد كلّما زاد السّماع، وعن طريق دوام التفكير بما سمعه تتحوّل الأفكار المسموعة إلى عقائد ذاتية عند الشخص يعتنقها ويحملها، وغالباً ما يصل هذا الاعتناق إلى التعبير عنها بنفس الاصطلاحات والكلمات التي سمعها"^٤، وقد استشهد الرّاشد على هذه الظّاهرة التربوية بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنّه قال: "ما من مولودٍ إلاّ يُولدُ على الفِطْرةِ، فأبواه يهودانه ويُنصرّانه

^١ للمعلومات أكثر، يرجى زيارة هذا الموقع: http://www.kidsgallery.com/hongkong/en_contact.php

^٢ للمعلومات أكثر، يرجى زيارة هذا الموقع: <http://www.scs-sharjah.com/arabic/curriculum/index.php>

^٣ ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٤٠.

^٤ الرّاشد، منهجية التربية الدعوية، ص ١٣-١٤.

كَمَا تَتَّحُونَ الْبَهِيمَةَ، هل تجدون فيها من جدعاء، حتى تكونوا تجدعوها^١، وقوله ﷺ أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"^٢.

يرى المفكر الإسلامي سيد قطب في تفسير الظلال أن التربية هي ربط القلوب بالله، وربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله، وإخراج البشرية كلها من حمية الجاهلية، ونعرة العصبية، وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء^٣، ويقول سيد في تعقيبه القيم على سورة التور: "والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وترقى إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة، التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة، والهدف واحد في الشدة واللين، هو تربية الضمائر، واستحاشة المشاعر ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة، حتى تشف وترف، وتتصل بنور الله، وتتداخل الآداب النفسية الفردية، وآداب البيت والأسرة، وآداب الجماعة والقيادة، بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله، متصلة كلها بنور واحد هو نور الله، وهي في صميمها نور وشفافية، وإشراق وطهارة، تربية عناصرها من مصدر النور الأول في السماوات والأرض، نور الله الذي أشرقت به الظلمات في السماوات والأرض، والقلوب والضمائر، والنفوس والأرواح"^٤، كما يؤكد أن التربية إسلامية قائمة أصلاً على أساس العقيدة، والأخلاق الإسلامية، ويجب عدم إضاعة الوقت في فرض التشريع الإسلامي بالقوة، وإنما في إيجاد مجتمع إسلامي له الرغبة والعمل على إقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية^٥، ويرى أن العملية التربوية الناجحة مبنية على أربع خطوات هي:

١. **الخطوة الأولى:** إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، ومدلول العقيدة: هو أن تكون العبودية لله وحده، سواء في الاعتقاد بألوهيته وحده، أو تقدير الشعائر التعبديّة له وحده، أو الخضوع والتحاكم إلى نظامه وشريعته وحدها^٦.

٢. **الخطوة الثانية:** تربية من يستجيبون لهذا الفهم على الأخلاق الإسلامية، وتوعيتهم بدراسة الحركة الإسلامية، وتاريخها، وخط سير الإسلام في التعامل مع كل المعسكرات والمجتمعات البشرية، والعقبات التي كانت في طريقه والتي لا تزال تتزايد بشدة، وبخاصة من المعسكرات الصهيونية والصليبية الاستعمارية^٧.

^١ البخاري، الصحيح، ج ٤، ص ٢٣١، رقم ٦٥٩٩.

^٢ الترمذي، السنن، ج ٤، ص ٣١٦، رقم ٢٣٧٨.

^٣ انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، سورة المائدة، ج ٢، ص ٨٣٩.

^٤ انظر: المرجع السابق، سورة النور، ج ٤، ص ٢٤٨٦.

^٥ استنبط هذا القول من خلال دراستنا التأملية لوثيقة: "لماذا أعدموني" التي كتبها سيد قطب في السجن الحربي بطلب من القضاء العسكري آنذ. انظر: سيد قطب، لماذا أعدموني، ص ١٧-١٨.

^٦ أسُشِفَ هذا القول من خلال دراستنا التأملية لوثيقة: "لماذا أعدموني" التي كتبها سيد قطب في السجن الحربي بطلب من القضاء العسكري آنذ. انظر: المرجع السابق، ص ٢٧-٢٨.

^٧ أسُشِفَ هذا القول من خلال دراستنا التأملية لوثيقة: "لماذا أعدموني" التي كتبها سيد قطب في السجن الحربي بطلب من القضاء العسكري آنذ. انظر: المرجع السابق، ص ٢٧-٢٨.

٣. **الخطوة الثالثة:** تربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة، تربية إسلامية صحيحة، وعدم محاولات فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم، إذ ليست المطالبة بإقامة النظام الإسلامي، وتحكيم الشريعة الإسلامية هو نقطة البدء، ولكن نقطة البدء هي نقل المجتمعات ذاتها -حكماً ومحكومين- عن الطريق السالف إلى المفهومات الإسلامية الصحيحة، وتكوين قاعدة إن لم تشمل المجتمع كلاً فعلى الأقل تشمل عناصر وقطاعات تملك التوجيه والتأثير في اتجاه المجتمع كلاً إلى الرغبة والعمل على إقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية^١.

٤. **الخطوة الرابعة:** إيجاد تنظيم إسلامي جماعي قادر ومؤهل للقيام بالمهام التربوية الإسلامية في المجتمع الإسلامي، على أنه لا يجوز البدء بأي تنظيم إلا بعد وصول الأفراد إلى درجة عالية من فهم العقيدة، ومن الأخذ بالخلق الإسلامي في السلوك والتعامل ومن الوعي الذي تقدم ذكره، وفي الوقت نفسه، ومع المضي في برنامج تربوي كهذا، لابد من حماية التنظيم من الاعتداء عليه من الخارج، وتدميره ووقف نشاطه وتعذيب أفراده، وتشريد بيوتهم وأطفالهم تحت تأثير مخططات ودسائس معادية^٢.

ويرى عبد الرحمن عميره، أنه تكاد تتفق كلمة علماء المسلمين على أن التربية عملية تحقيق النمو المتزن المنسجم لجميع استعدادات الفرد، الجسمية والنفسية والعقلية والخلقية، حتى يصل إلى كماله^٣.

ويقول عبد الحليم محمود عن التربية بأنها الأسلوب الأمثل في التعامل مع الفطرة البشرية توجيهاً مباشراً بالكلمة وغير مباشر بالقوة، وفق منهج خاص ووسائل خاصة، لإحداث تغيير في الإنسان نحو الأمل، وهذا المنهج يلتمس من مصادره، وهي: الكتاب والسنة والسيرة النبوية وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم وما أجمعوا عليه من أمر. وهذا المنهج الرباني شامل متكامل، يعالج كل شعب الحياة البشرية، ولا يحتاج إلى سواه من المناهج^٤.

ويرى عبد الحليم سيد أن التربية بالنسبة للمجتمع المسلم تركيبة حرة لا تتقيّد إلا بما به نص من كتاب الله أو سنة الرسول ﷺ، فالمسلمون هم الذين يحددون غاياتها وأهدافها، وما يتطلبه تحقيقها من وسائل، وهم أيضاً الذين يصممون العمليات التي تحقق هذه الغايات في ضوء فهمهم لنصوص القرآن والسنة التي تحدد طبيعة الإنسان، وتحدد القيم الرفيعة التي ينبغي أن يحققها المجتمع المسلم والمعايير الخلقية التي تحكم سلوك أفرادها، وتضع الإطار العام لما ينبغي وما لا ينبغي فعله للوصول إلى هذه الغايات والتي ينبغي عليها أيضاً المجتمع المسلم كلاً بمؤسسته^٥.

^١ أسُشِفَ هذا القول من خلال دراستنا التأملية لوثيقة: "لماذا أعدموني" التي كتبها سيد قطب في السجن الحربي بطلب من القضاء العسكري آنذا. انظر: المرجع السابق، ص ٢٧-٢٨.

^٢ أسُشِفَ هذا القول من خلال دراستنا التأملية لوثيقة: "لماذا أعدموني" التي كتبها سيد قطب في السجن الحربي بطلب من القضاء العسكري آنذا. انظر: المرجع السابق، ص ٢٧-٢٨.

^٣ عميره، التربية الإسلامية وأثرها في المجتمع، ص ٢٦٦.

^٤ محمود، وسائل التربية عند الإخوان المسلمين: دراسة تحليلية تاريخية، ص ١٥-١٧.

^٥ عبد الحليم سيد، التربية في القرآن والسنة: الغايات والأهداف، ص ١٧.

ويعرفها مقداد ياجن قائلاً: "فهي مجموعة التصورات والمفاهيم والأفكار والأحكام والقيم ذات الحد الأقصى من التجريد والعمومية المنظمة والمرتبطة منطقيًا بموضوع إعداد الإنسان المسلم حسب الأصول الإسلامية، وفي ضوءها يمكن تفسير العمليّات التربوية الإسلامية الهادفة وتبريرها وتقويمها وتوجيهها وترشيدها إلى الأفضل والأحسن باستمرار".^١

وكتيجة حتمية لهذه الدراسة اللغوية والاصطلاحية والقرآنية والحديثية لمفهوم التربية، يمكن القول بأنّ: التربية الإسلامية هي تحقيق العبودية لله، وحفظ الإنسان ورعايته والعناية به، وتتبع حركاته وسكناته منذ الصغر، وتنشئته جسديًا، وروحيًا، ونفسيًا، وعقليًا، وخلقياً وفق منهج ربّانيّ متكامل وشامل لجميع نواحي الحياة، ووسائل ربّانية يقرّرها هذا المنهج، حتى يرتقي الإنسان إلى كماله المطلوب، وهذا المنهج يلتزم من مصادره، وهي: الكتاب والسنة الصحيحة، وتجارب واجتهادات السلف والخلف جميعاً بعد التأكّد من عدم معارضتها للكتاب والسنة، وواقع المعاش.

المحور الثاني: أهميّة التربية الإسلاميّة

لا شك أنّ أهميّة التربية الإسلاميّة تكمن في بناء أجيال قادرة على الحفاظ على البقاء الإسلامي، وذلك عن طريق مواجهة كل مظاهر الانحراف المتمثلة في الاستشراق، والتنصير، والعولمة، والعلمانية التي جاءتنا من الحضارة الغربية عن طريق وسائلها المختلفة كالمطبوعات، والبعثات العلمية والتنصيرية، والراديو، والسينما، والتلفاز، والفيديو، والإنترنت، والقنوات الفضائية، كلّ هذه الوسائل وغيرها أسهمت في انتشار سموم الحضارة الغربية بشكل مذهل، وتمثل هذه السموم في العقائد الكفرية الإلحادية التي لا تؤمن إلا بكل ما هو محسوس، وتألّيه المال وعبادة أصحابه، والانحلال والإباحية والدعوة لممارسة كل رذيلة والتحلل من كل فضيلة، من هنا يمكن القول أنّ الغاية من الترويج للحضارة الغربية، هو خلق ديانة مادية جديدة في أوساط الشعوب الإسلامية تحت غطاء الثقافة والتحضّر، ثمّ إحلالها محلّ الإسلام، وبذلك يسهل على الرجل الأبيض (الغربي) سياسة هذه الأجيال وتذليلها وتهيئتها لتسيير شؤون البلاد والعباد، وتالياً لن تكون هناك أيّة معارضة من قبل هذه الأجيال التي صنعتها الحضارة الغربية، وبالفعل لقد قدر لهذه الأجيال التي هي من صنع الثقافة الغربية من حكم بلاد المسلمين قرابة قرن من الزمان^٢ وإلى الآن.

لقد كان من نتائج تسلل هذا الغزو الثقافي إلى الشعوب الإسلامية أن ولّد الشكوك والوساوس في عقولهم، ثم طبعهم بطابع التبعية الفكرية لأولئك الغزاة المجرمين. وبالتالي انتشر ظاهرة ازدواجية التربية أو ما بات يعرف بتعدّد أو اختلاط التربيّات في المجتمع الإسلامي الواحد، وصار المجتمع المسلم مزيجاً من أشخاص تتنازعهم تربيّات مختلفة علماً أنّ حضّ الإسلام فيها عزيز جداً، ولا شك أنّ ظاهرة اختلاط التربيّات تحدّ كثيراً من تأثير الجهود التربوية، ولذلك لجأ المرثون إلى علاج هذه الظاهرة ووضع الحلول لها، ومن هذه الحلول ما ذكره ابن باديس الجزائري رحمه الله وهو يتحدّث عن استراتيجيته التربوية في بناء الأجيال: "فإننا -والحمد لله- نرثي تلامذتنا على القرآن من أوّل يوم، ونوجّه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم

^١ ياجن، معالم بناء نظرية التربية الإسلامية، ص ١٩.

^٢ أي بعد سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م، التي كانت تعتبر جداراً عازلاً بين ثقافة الأمة الإسلامية وبين الأفكار الغربية عن الأمة الإسلامية، ومنذ ذلك الحين وإلى الآن بدأ الرجل الأبيض يروج لفكرته في رؤيته للكون والخالق والإنسان التي تخالف تماماً رؤية الإسلام في ذلك كله.

رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا، وجهودهم^١، فالقرآن يعتبر هو المصدر الأساسي للتربية، وللتذكير فإنّ السنّة ملازمة للقرآن لكونها شارحة له، بعد ذلك يأتي دور الأسرة، فالمسجد، فالإمام، فالمدرسة، فالمعلم، فالبيئة المحيطة.

إنّ العمليّات التربويّة تحتاج إليها الأفراد والجماعات لأنّها أساس البناء الخلقي الذي هو أساس تكوين المجتمعات وبنائها على أسس وقيم ومبادئ سليمة، بل تقوم التربية بدور فاعل في تنمية المجتمعات أفراد وجماعات اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً وسياسياً، فالعرب قبل الإسلام مثلاً كان مستواهم الأخلاقي في الجزيرة العربيّة يوصف بالتدنيّ الشديّد في شتى الجوانب حتّى وصفهم الصّحابي الجليل جعفر الصّادق رضي الله عنه بقوله: "كنا قوماً أهل جاهليّة، نعبد الأصنام ونقطع الأرحام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونسيء الجوار، و يبطش القوي منّا بالضعيف"^٢، وقد ذكرت لنا أمّ المؤمنين السيّدّة عائشة رضي الله عنها مثلاً عن جوانب التدنيّ الأخلاقي في المجتمع الجاهلي فقالت: "إنّ النكاح في الجاهليّة كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح النَّاس اليوم، يخطب الرّجل إلى الرّجل وليّته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها ونكاح آخر، كان الرّجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها، ولا يمسه حتى يتبيّن حملها من ذلك الرّجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحبّ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح يسمّى نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر، يجتمع الرّهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلّهم فيصيبونها، فإذا حملت ووضعت ومرّ ليل بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحبّت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرّجل، ونكاح رابع يجتمع النَّاس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهنّ البغايا ينصبن على أبواهن الرّيات وتكون علماً، فمن أرادهنّ دخل عليهن، فإذا حملت إحدهنّ ووضعت جمعوا لها ودعوا لها القافّة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتايط به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك"^٣، ولكن بعد أن ترقى العرب في أحضان الإسلام، صاروا كما يصفهم الصّحابيّ نفسه جعفر الصّادق رضي الله عنه: "فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده، ونلح ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والدّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الرّور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصّلاة والرّكاة والصّيام والحجّ من استطاع إليه سبيلاً"^٤، وتقول السيّدّة عائشة رضي الله عنها استكمالاً لحديثها عن نكاح الجاهليّة: "فلما بُعث محمّد ﷺ بالحقّ هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح النَّاس اليوم"^٥، دلّت هذه النصوص على التّقلّة التّوعبيّة

^١ الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج ٢، ص ١٤٢.

^٢ الأثر بطوله أخرجه أحمد في مسنده، ج ٤، ص ٢٦٦، رقم ١٧٤٠.

^٣ الحديث بطوله أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من قال لا نكاح إلا بولي، ج ٣، ص ٣٤٣، رقم ٤٨٣٤.

^٤ أي: النبي محمد ﷺ.

^٥ الحديث بطوله أخرجه أحمد في مسنده، ج ٤، ص ٢٦٦، رقم ١٧٤٠.

^٦ الحديث بطوله أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من قال لا نكاح إلا بولي، ج ٣، ص ٣٤٣، رقم ٤٨٣٤.

الفريدة التي أحدثتها التربية الإسلامية في حياة العرب الذين أسلموا لله رب العالمين واستجابوا لدعوة رسول الله ﷺ، وكانت النتيجة بعد ثلاثة وعشرين حولاً قضاها النبي ﷺ بين مكة والمدينة في إعداد طبقة هائلة من العلماء والدعاة والمجاهدين -رضي الله عنهم جميعاً- الذين أسهموا جميعاً في حمل رسالة الإسلام إلى الناس كافة.

يخطيء من يحصر التربية في شق واحد وهي علاقة الإنسان بربه عن طريق إقامة الشعائر التبعديّة من صلاة وصيام وزكاة وحجّ ونحو ذلك من القربات التي لا شكّ أنّها تقرب العبد إلى ربه عزّوجلّ، ويغفل الشقّ الثاني المتمثّل في العلاقة بين بني آدم بعضهم بعضاً في الحياة، وهذا الفهم السيّء للإسلام أدّى إلى ظهور ازدواجيّة الشخصية في المجتمعات الإسلامية، ونبّه هنا أنّ العبادات تتمثّل في العلاقة بين العبد وربّه، بينما المعاملات تتمثّل في العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان مسلماً كان أو كافراً، ولا يمكن الفصل بينهما البتة، لأنّ حسن المعاملات علامة على قبول العبادات، وسوء المعاملات علامة على عدم قبول العبادات، وهذا ما قرّره القرآن في آية جامعة وردت في الأمر على الصلّاة والحجّ عليها عندما قال: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وما قرّره السنّة أيضاً فيما رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إنّ المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فويت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»، وحاصل معنى الآية والحديث: أنّ المقصد الأسنى للعبادة في الإسلام هي تربيّة النفس الإنسانية تربيّة تؤهلّها إلى ترك المعاصي والمنكرات والمظالم التي من شأنها إقامة البغضاء والحقد والكراهية والحروب والفتن بين بني البشر.

إنّ التربية الإسلاميّة مطلوبة حتى في الأوقات العصيبة مثل الحرب ضدّ الأعداء، فالإسلام ابتداء لا يتمتّى الحرب ولا يدعو إليها، وإذا أدخل في الحرب مدفوعاً فإنّه لا يدخلها لعرض الحياة الدنيا، وإنّما لإعلاء كلمة الله في الأرض، وإقرار منهجه في الحياة بالحكمة والتربية الحسنة، وفي هذا المعنى يقول عبد الله عزّام: "يظهر لنا من مجموع آيات الكتاب الكريم الواردة في القتال، ومن عمل النبيّ نفسه في سننه، ومن السيرة، وتاريخ حروبه، أنّ الإسلام لا يبيح حرب الاعتداء، ولا يحلّ الحرب لعرض الحياة الدنيا، فعند الله مغام كثيرة. أما الغايات الأخرى التي يقاتل من أجلها الناس، كسيادة عنصر على عنصر، أو شعب على شعب، أو استعلاء ملك على ملك، أو طبقة من الطبقات الاجتماعية على طبقة أخرى، أو توسيع رقعة مملكة، أو أغراض حربية أو استراتيجية، أو الأغراض الاقتصادية، أو الاستئثار بالمواد الخام، والأسواق التجارية، أو تمدد المتخلفين عن الحضارة، أو غير ذلك مما تتخذها الدول وسيلة لإشغال الحرب، ونقض العهد، وهدم السلم الدائمة، فليس ذلك كلّ في شيء

^١ مسلم، الصحيح، كتاب البرّ والصلّة والأدب، باب ١٥، ج ٤، ص ١٩٩٧، رقم ٢٥٨١.

^٢ عن أبي النضر، عن كتاب رجل من أسلم، من أصحاب النبي ﷺ يقال له: عبد الله بن أبي أوفى، فكتب إلى عمر بن عبيد الله حين سار إلى الحورية، يخبره، أنّ رسول الله ﷺ كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، ينتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يا أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنّ الجنة تحت ظلال السيوف»، ثم قام النبي ﷺ، وقال: «اللهم، منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم، وانصرنا عليهم». انظر: مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب ٦، ج ٣، ص ١٣٦٢، رقم ١٧٤٢.

مما أباح الإسلام القتال لأجله: ذلك لأن غايات الإسلام إنسانية سامية، يعمّ نفعها الناس جميعاً، ونظرية علوية تقع على البشر جميعاً، كأسرة واحدة متكافلة. والله تعالى ليس ربّ المسلمين وحدهم، بل ربّ العالمين^١، ويقول الأستاذ سيد قطب: "السلم قاعدة، والحرب ضرورة، ضرورة لتحقيق خير البشرية، لا خير أمة ولا خير جنس ولا خير فرد، ضرورة لتحقيق المثل الإنسانية العليا التي جعلها الله غاية الدنيا، ضرورة لتأمين الناس من الضغط، وتأمينهم من الخوف، وتأمينهم من الظلم، وتأمينهم من الضر، ضرورة لتحقيق العدل المطلق في الأرض، فتصبح إذن كلمة الله هي العليا"^٢، قال حمد حسن رقيط: "والإسلام الذي أباح الحرب يوجب على أتباعه أن لا يقاتلوا إلا من اشترك في القتال وأما من تجنب الحرب فلا يحل قتله، وحرم الإسلام كذلك قتل النساء والأطفال والمرضى والشيخوخة والرهبان والعباد والأجراء، وحرم المثلة بل حرم قتل الحيوان وإفساد الزروع والمياه وتلويث الآبار وتتبع الغار وهدم البيوت والإجهاز على الجريح، وإذا تعيّن الحرب على المسلمين فإنهم يقاتلون في سبيل إعلاء كلمة الله لتكون هي العليا. قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ولا يبدأ المسلمون بقتال عدوهم حتى يعرضوا عليهم إما قبول الإسلام فإن أبو فيطالبوا بدفع الجزية فإن أبو قاتلوهم، وفي ذلك مصلحة لعامة المشركين من الناحيتين الدنيوية والأخروية، أما الدنيوية فسوف يتمتع عامة المشركين بعدل المسلمين إذا ظهروا عليهم وسوف يحافظون على حقوقهم وأموالهم، وأما الأخروية فسوف تنتهي لهم سبيل رؤية الإسلام وإمكانية الدخول فيه بعد أن أزال المسلمون حواجز الطواغيت عنهم، وبهذا الموقف الذي ينهجه الإسلام تجاه الحرب تصان المكتسبات الحضارية من الدمار والخراب والفساد.. وينعم الناس بحياة كريمة مطمئنة"^٣.

لذلك كان السلف الصالح يلجأون إلى التربية عندما تواجههم الشدائد، فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه لما جند الأجناد لمواجهة إمبراطورية فارس التي كانت تعدّ الإمبراطورية العظمى في العالم في ذلك الوقت، زوّدهم نصيحته التربوية الخالدة قائلاً لقائد الجند: أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة في الحرب وأقوى المكيدة على العدو وأوصيك ومن معك من الأجناد بأن تكونوا أشد احتراساً عن المعاصي منكم من عدوكم فإن ذنوب الجند أخوف عليكم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله فإن عدونا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم فإن استوتينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة وإلا نتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا واعلموا أن في سيركم عليكم من الله حفظة يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيله ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلم يسلط علينا فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بني إسرائيل إذ عملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيله ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلم يسلط علينا فرب قوم سلط عليهم من هو شر منكم كما تسألونه النصر على عدوكم أسأل الله ذلك لي ولكم"^٤.

^١ عبد الله عزام، الرسالة الخالدة، ص ٩١-٩٥-٩٦.

^٢ سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، ص ٢٣.

^٣ رقيط، التقدم الحضاري في الإسلام، ص ٩٥-٩٦.

^٤ أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ٥، ص ٣٣٦.

لقد نبّه الباحث إلى نموذج واحد من نماذج التربية الإسلامية، وإلا فهناك نماذج أخرى متنوّعة، فعلى سبيل المثال لا الحصر: الالتزام بالأخلاق الحسنة عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجادلة أهل الكتاب وأهل الباطل والتي هي أحسن في قوله **﴿وَعَلَّكَ﴾**: **﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ، وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾** [التحل: ١٢٥، ١٢٦]، ذكر الواحدي في أسباب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما انصرف المشركون عن قتلى أحد، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظرًا ساءه، ورأى حمزة: قد شقَّ بطنه، واضطَّلم أنفه، وجدعت أذناه فقال: "لولا أن تحزن النساء أو تكون سنة بعدي، لتركته حتى بيعته الله تعالى من بطون السباع والطير، لأقتلن مكانه سبعين رجلاً منهم". ثم دعا ببردة فغطى بها وجهه فخرجت رجلاه، فجعل على رجله شيئاً من الإذخر، ثم قدمه وكبر عليه عشراً، ثم جعل يُجاء بالرجل فيوضُّع وحمزة مكانه حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين. فلما دُفِنوا وُفِرغ منهم: نزلت هذه الآية: **﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾** إلى قوله **﴿وَعَلَّكَ﴾**: **﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾** فصبر ولم يُمَثَل بأحد، ويكتفي الباحث هاهنا بذكر هذين النموذجين لضيق الوقت واقتضاء موضوع البحث.

وكتيحية حتمية لهذا المحور نقول: إن التربية الإسلامية الناجحة التي تسهم في خدمة الأمة الإسلامية، وفي الصّلاح والإصلاح المنشودين هي التربية التي لا تتنازل عن ثوابت الأمة الإسلامية ولا تبالي بالمبررات الزائفة، والمساومات المغرية، لأنّ ثوابت الأمة الإسلامية فوق كل اعتبار، وعليها تقوم شخصية الفرد المسلم الملتزم وكيان المجتمع الإسلامي، والتلاعب بهذه الثوابت يعني التلاعب بمصير أمة آمنت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً طيلة أربعة عشر قرناً. إنّ الثوابت هي التي "تتمثّل في العقيدة، والعبادة، والحدود، والأحوال الشخصية، والمتغيّرات تتمثّل في التعازير، والتّظامين السّياسي والإداري، والأحكام المبنية على العرف والعادات والمصلحة، ويخطئ من يقوم بنقل أشياء من دائرة الثوابت ويضعها في المتغيّرات، كما يخطئ ذات الخطأ من يفعل العكس"^١.

هذه جملة من الثوابت الإسلامية التي ينبغي لأيّ مربّ إسلامي أن يراعيها ويقف عند حدودها، والتي لا يجوز له أن يتعدّها أو يتغافل عنها لمجرد ادّعاء كاذب، أو مساومة محتملة، وله في الوقت عينه أن يجتهد ببذل الوسع واستفراغ الطاقة في دائرة المتغيّرات إذا كان أهلاً لذلك، أما إذا انحرفت التربية عن الجادة، فلا يجوز لنا تحميل الإسلام تبعاته.

المحور الثالث: عوامل نجاح التربية الإسلامية

هناك حقيقة تاريخية ينبغي أن نقف أمامها طويلاً وأن نعيها جيّداً، وهي أنّ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية قد عملت عملها في تربية الجماعة المسلمة الأولى، حتى أنشأت جيلاً كاملاً تتمثل فيهم كل صفات الخير كالصدق، والأمانة، والورع، والتقوى، والتضحية، والتجرّد، والتفاني، والإيثار، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم، وحسن الحوار، وغير ذلك، وفي الوقت نفسه كانت الجماعة المسلمة الأولى تتحرّج عن كل صفات الشرّ كأكل الميتة، وعبادة الأصنام، وإتيان الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأكل الرّبا،

^١ ابن العربي، أحكام القرآن، ج ٣، ص ١٧٥.

^٢ نعمان عبد الرزاق السامرائي، الثوابت والمتغيّرات، ص ٣٨، ٣٩.

وقطع الرّحم، والظلم، والفجور، ووآد البنات، والشّدوذ، والغشّ، والكذب، والقتل وغيرها من السلوكات المنحرفة، يقول سيّد قطب عن جيل الصّحابة رضوان الله عليهم: "لقد خرّجت هذه الدّعوة جيلاً من النّاس -جيل الصّحابة رضوان الله عليهم- جيلاً مميّزاً في تاريخ الإسلام كلّه، وفي تاريخ البشريّة جميعه، ثمّ لم تعد تخرج هذا الطّراز مرّة أخرى، نعم وجد أفراد من ذلك الطّراز على مدار التّاريخ، ولكن لم يحدث قط أن تجمّع مثل ذلك العدد الضّخم، في مكان واحد، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدّعوة"^١.

فعلاً إنّ تلك الآيات القرآنية والأحاديث النّبويّة التي عملت عملها في تربية الجماعة المسلمة الأولى، لم تعد تعمل عملها اليوم في تربية هذا الجيل الحاضر رغم أنّ القرآن الموجود معنا اليوم هو نفس القرآن الذي كان بين يدي الصّحابة رضوان الله عليهم، والسنة هي نفسها أيضاً، والإنسان أيضاً هو نفسه الإنسان، ترى ما هي العوامل وراء تفوّق الجيل الأوّل، وانحدار الأجيال التي تليه؟

فالنورد الآن هذه العوامل كما سيأتي:

العامل الأوّل: التلقّي من نبع القرآن وحده والسنة النّبويّة وحدها:

كان الجيل الأوّل يقتصر في استمداد تصوّره للوجود كلّه (الله، الكون، الإنسان)، ثم في استمداد منهج حياته كلّه (النّظام الأخلاقي، النّظام السّياسي، النّظام الاقتصادي، وكل مقوّمات حياته): على كتاب الله وحده، وسنة نبيّه محمد ﷺ وحدها، والتجرّد من كلّ المؤثّرات والإملاءات الخارجيّة، ورواسب الثقافات الأخرى (مثل فلسفة الرّومان وثقافتها، وفلسفة الإغريق ومنطقها، وأساطير الفرس وتصوّراتهم، وإسرائيليات اليهود، ولاهوت النّصارى وغير ذلك من رواسب الثقافات والحضارات العالميّة وقتذاك)، يقول سيّد قطب: "كان التّبع الأوّل الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن، القرآن وحده، فما كان حديث رسول الله ﷺ وهديه إلاّ أثراً من آثار ذلك التّبع، فعائشة رضي الله عنها قالت: "كان خلقه القرآن"^٢، كان القرآن وحده إذن هو التّبع الذي يستقون منه، ويتكيّفون به، ويتخرّجون عليه"^٣، ثم يكشف سيّد قطب عن سبب اقتصار الصّحابة على نبع القرآن وحده فيقول: "ولم يكن ذلك كذلك لأنّه لم يكن للبشريّة يومها حضارة، ولا ثقافة، ولا علم، ولا مؤلفات، ولا دراسات... كلاً! فقد كانت هناك حضارة الرّومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما تزال أوروبا تعيش عليه، أو على امتداده، وكانت هناك محلّفات الحضارة الإغريقيّة ومنطقها وفلسفتها وفتّها، وهو ما يزال ينبوع التّفكير الغربي حتّى اليوم، وكانت هناك حضارة الفرس وفتّها وشعرها وأساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلك، وحضارات أخرى قاصية ودانية: حضارة الهند وحضارة الصين... الخ، وكانت الحضارتان الرّومانية والفارسيّة تحقّان بالجزيرة العربيّة من شمالها ومن جنوبها، كما كانت اليهوديّة والنّصريّة تعيشان في قلب الجزيرة، فلم يكن إذن عن فقر في الحضارات العالميّة والثّقافات العالميّة يقصر ذلك الجيل على كتاب الله وحده في فترة تكونه، وإمّا كان

^١ سيّد قطب، معالم في الطريق، ص ١١.

^٢ كما تقدم.

^٣ سيّد قطب، معالم في الطريق، ص ١٢-١٣.

ذلك عن "تصميم" مرسوم، ونهج مقصود، يدلّ على هذا القصد غضب رسول الله ﷺ وقد رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة من التوراة، وقوله: (إنه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني)"^١، إذن عدم اقتصار الأجيال - وخاصة هذا الجيل الجديد- التي تلت الجيل الأوّل على نبع القرآن والسنة النبويّة وحدهما في استمداد تصوّرها للوجود ثمّ في استمداد كل مقوّمات حياتها هو الذي جعلها تعيش في انحدار موصول، وتيه مجهول.

العامل الثاني: التلقّي للتنفيذ والعمل:

كان الجيل الأوّل عندما يرجع إلى القرآن وإلى سنة النبيّ ﷺ، يرجع إليهما بروح التلقّي للتنفيذ والعمل، لا بروح الدّراسة والمتاع الفكري، يقول سيّد: "إنهم - في الجيل الأوّل- لم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطّلاع، ولا بقصد التذوّق والمتاع، لم يكن أحدهم يتلقّى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلميّة والفقهية محصولاً يملأ به جعبته، إنّما كان يتلقّى القرآن ليتلقّى أمر الله في خاصّة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقّى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقّى الجندي في الميدان "الأمر اليومي" ليعمل به فور تلقّيه!"^٢، ثمّ يبيّن سيّد قطب منهج الجيل الأوّل في التلقّي فيقول: "ومن ثمّ لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة، لأنّه كان يحسّ أنّه إنّما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه"^٣، إذن فمنهج التلقّي للتنفيذ هو الذي صنع الجيل الأوّل، ومنهج التلقّي للدّراسة والمتاع الفكري هو الذي صنع الأجيال - خاصة هذا الجيل الجديد- التي تليه.

العامل الثالث: العزلة الشعوريّة بين ماضي المسلم في جاهليّته وحاضره في إسلامه:

كان الرّجل من الجيل الأوّل حين يدخل في الإسلام يخلع عن نفسه كل رواسب الماضي، ويبدأ حياته الجديدة في ظلّ الإسلام، بعيداً كلّ البعد عن مؤثرات الماضي، ومخلفات الجاهليّة، يقول سيّد: "لقد كان الرّجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهليّة، كان يشعر في اللّحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهليّة، وكان يقف من كل ما عهده في جاهليّته موقف المستريب الشّاك الحذر المتخوّف، الذي يحسّ أنّ كلّ هذا رجس لا يصلح للإسلام! وبهذا الإحساس كان يتلقّى هدي الإسلام الجديد، فإذا غلبته نفسه مرّة، وإذا اجتذبت عاداته مرّة، وإذا ضُغف عن تكاليف الإسلام مرّة، شعر في الحال بالإثم والخطيئة، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهّر ممّا وقع فيه، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهدى القرآني"^٤.

^١ سيّد قطب، معالم في الطريق، ص ١٢-١٣. الحديث قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا باطل، أو تكذبوا بحق، وإنه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني». أحمد، المسند، ج ٢٢، ص ٤٦٨، رقم ١٤٦٣١.

^٢ المرجع السابق، ص ١٤-١٥.

^٣ سيّد قطب، معالم في الطريق، ص ١٤-١٥.

^٤ المرجع السابق، ص ١٦-١٧.

وبعد إيراد هذه العوامل الثلاثة التي ساقها سيّد قطب في كتابه المعالم، نرى أنّ الأمة المسلمة اليوم أحوج ما تكون إليها قبل أيّ وقت مضى للتّهوض التربوي.

الخاتمة:

هذا وقد توصلنا في هذا البحث إلى أنّ التربية الإسلامية هي تحقيق العبودية لله، وحفظ الإنسان ورعايته والعناية به، وتتبع حركاته وسكناته منذ الصّغر، وتنشئته جسدياً، وروحيّاً، ونفسيّاً، وعقليّاً، وخلقيّاً وفق منهج ربّانيّ كامل وشامل لجميع نواحي الحياة، ووسائل ربّانيّة يقرّرها هذا المنهج، حتى يرتقي الإنسان إلى كماله المطلوب، وتوصلنا أيضاً أنّ أهميّة التربيّة الإسلامية تكمن في بناء أجيال قادرة على الحفاظ على البقاء الإسلامي، وذلك عن طريق مواجهة كل مظاهر الانحراف المتمثلة في الاستشراق، والتنصير، والعولمة، والعلمانية التي جاءتنا من الحضارة الغربية عن طريق وسائلها المختلفة، وخلصنا أخيراً إلى ثلاثة عوامل رئيسة لتحقيق نهضة تربوية إسلامية محتلمة وهي:

١- الرجوع إلى التبع الخالص الذي استمدّ منه الجيل الأوّل شؤون حياته كلّها، الرجوع إلى القرآن والسنة اللذين لم تحرفهما كبدات الزّمان، ولا نظرات الإنسان، لنستمدّ منهما نظام الحكم، ونظام الاقتصاد، والتشريعات الجنائية، والتشريعات المدنية، وتشريعات الأسرة، وسائر الأنظمة والتشريعات التي يتضمنها هذا التبع الخالص.

٢- الرجوع إلى التبع الخالص بشعور التلقّي للتنفيذ والعمل، لا بشعور الدّراسة والتّرف الفكري، بله نرجع إليه للاهتمام به في شؤون حياتنا كلّها.

٣- التجردّ الكامل من كل تصوّرات الجاهليّة وضغط المجتمع الجاهلي، والتخلّص من رواسب التّقافات والحضارات العالميّة التي تدعو إلى التمرّد على الله، والحرب على الفطرة، والحرب على القيم والأخلاق، والحرب على قانون الله، وعدم تمكين تلك الجاهليّة مهما كان شكلها في أن تتصرّف أو تتدخل في أيّ شأن من شؤون حياتنا الإسلاميّة.

المصادر والمراجع:

١. ابن باديس، عبد الحميد، في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٥م).
٢. ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، (بيروت: دار القلم، ط ١١، ١٩٩٢م).
٣. ابن عبد البرّ، يوسف بن عبد البرّ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٣م).
٤. ابن العربي، أبو بكر، أحكام القرآن، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٣، ٢٠٠١م).
٥. ابن قيم الجوزية، محمّد بن أبي بكر بن أيّوب بن سعد شمس الدّين، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: بشير محمد عيون، (دمشق: مكتبة دار البيان، ط ١، ١٩٩٩م).
٦. ابن ماجه، أبو عبد الله، السنن، (القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٨م).
٧. ابن منظور، أبو الفضل، لسان العرب، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصاوي العبيدي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٣).

٨. أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠١م).
٩. أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٢م).
١٠. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، الصحيح، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٢م).
١١. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، شعب الإيمان، تحقيق: مختار أحمد التّدوي، (الرياض: مكتبة الرّشد، ط ١، ٢٠٠٣م).
١٢. الترمذي، محمد بن سورة، السنن، (القاهرة: دار الحديث، ط ١، ١٩٩٩م).
١٣. الراشد، محمد أحمد، منهجية التربية الدعوية، (كندا: دار المحراب للنشر والتوزيع ط ٣، ٢٠٠٣م).
١٤. رقيط، حمد حسين، التقدم الحضاري في الإسلام، (بيروت: دار ابن حزم، ط ١، ١٩٩٩م).
١٥. السامرائي، نعمان عبد الرزاق، الثواب والمتغيرات، (السعودية: دار أمية، ط ١، ١٩٩٢م).
١٦. سيد، قطب، في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشروق، ط ١١، ١٩٨٥م).
١٧. سيد، قطب، لماذا رأعدموني، (الشركة السعودية للأبحاث والتسويق).
١٨. سيد، قطب، السلام العالمي والإسلام، (القاهرة: دار الشروق).
١٩. سيد، قطب، السلام العالمي والإسلام، (بيروت: دار الشروق).
٢٠. سيّد، عبد الحليم، التربية في القرآن والسنة: الغايات والأهداف، (القاهرة: عالم الكتب، ط ١، ١٩٩٦م).
٢١. الطالبي، عمّار، ابن باديس حياته وآثاره، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٦٨م).
٢٢. عزام، عبد الله، الرسالة الخالدة، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية).
٢٣. عميره، عبد الرحمن، التربية الإسلامية وأثرها في المجتمع، بحث مقدم لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، (إدارة الثقافة والنشر بالجامعة ١٩٨٤م).
٢٤. محمود، عبد الحليم، وسائل التربية عند الإخوان المسلمين، (المنصورة: دار الوفاء، ط ١، ١٩٨٩م).
٢٥. مدكور، إبراهيم، المعجم الوسيط، (مصر: مجمع اللغة العربية).
٢٦. مرسي، محمد منير، أصول التربية، (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٩م).
٢٧. مسعود، جبران، الرائد معجم لغوي عصري، (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٥، ١٩٨٧م).
٢٨. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
٢٩. ياجن، مقداد، معالم بناء نظرية التربية الإسلامية، (السعودية: دار عالم الكتب، ط ٢، ١٩٩١م).

مشكلات الشباب المسلم المعاصرة وسبل علاجها في ضوء القرآن والسنة المشكلات الدينية والأخلاقية أنموذجاً

د. جمعة أحمد همد آدم^١

ملخص البحث:

معلوم أن الشباب هم عماد الأمة في نهضتها، وصمّام الأمان أمام أعدائها، لذلك اهتم الإسلام بهم، ونوّه بمكانتهم، وأمر برعايتهم، لذلك كان الوقوف على مشكلاتهم وتناولها بالبحث والدراسة من أجل معالجتها والبحث عن حلول مناسبة لها خصوصاً من خلال منظور الوحيين: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، من الأهمية بكان، علماً بأن المشكلات التي تواجه الشباب المسلم اليوم من الجنسين على حدّ سواء، لا يمكن حصرها أو الإحاطة بها، ولكن يمكننا في هذا البحث تناول أبرزها وتبسيط الأضواء عليها، وأبرز هذه المشكلات التي تواجه الشباب المسلم - خصوصاً في هذا العصر - المشكلات الدينية والأخلاقية، ونعني بذلك عدم التزام كثير من الشباب المسلم من الجنسين بتعاليم الإسلام، وقيمه الرفيعة، ولا شك أن ما سوى ذلك من المشكلات تبع لهاتين المشكلتين، وبناء عليه تأتي هذه المشاركة ضمن محور: منظور القرآن والسنة في تسليح المرأة والشباب المسلم لمواجهة التحديات المعاصرة:

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الغرّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد!

معلوم أن الشباب هم عماد الأمة في نهضتها، وصمام الأمان أمام أعدائها الذين يودّون النيل منها، وذلك لما وهبهم الله من الطاقة والاحتمال، والقدرة على البذل والعطاء أكثر من الكبار، وإن كان الكبار يفوقونهم في الخبرة والتجربة، والممارسة العملية في شتى دروب الحياة.

ومرحلة الشباب من المراحل الحسّاسة في حياة الإنسان، تختلط فيها عناصر متناقضة من الضعف والقوة، والجهل والمعرفة، والطيش والرشد، ويغلب عليها الاندفاع العاطفي دون تبصّر في كثير من الأحيان، وهذه المرحلة تحمل معها الكثير من المشاكل التي يعانيتها الشباب المسلم، بالإضافة إلى الكثير من الأحداث والتحديات التي تعصف بالعالم، والتي يروح ضحيتها الشباب في أغلب الأحيان، علماً بأن المشكلات التي تواجه الشباب المسلم اليوم من الجنسين على حدّ سواء، لا يمكن حصرها أو الإحاطة بها، لكثرتها وتشابكها، ولكن يمكننا في هذا البحث تناول أبرزها وتبسيط الأضواء عليه، من باب التنبيه والحث على معالجتها وإيجاد حلول مناسبة لها، خصوصاً من خلال منظور الوحيين: القرآن الكريم والسنة النبوية

^١ كلية أصول الدين، جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية، بروناي دار السلام، gumaa@umissa.edu.bn

الشريفة، وهذه المشكلات تختلف في حجمها وآثارها، كما تتفاوت من مجتمع إلى آخر، حسب الظروف والأحوال التي يعيشها كل مجتمع على حده، ولكن قلّ أن يسلم منها مجتمع، وبالطبع لا يوجد مجتمع ملائكي، ولا مدينة فاضلة، يكون جميع أهلها على قلب رجل واحد في الصلاح والتقوى. وأبرز هذه المشكلات التي تواجه الشباب المسلم - خصوصاً في هذا العصر - المشكلات الدينية والأخلاقية، ونعني بذلك عدم التزام كثير من الشباب المسلم من الجنسين بتعاليم الإسلام، وقيمه الرفيعة، ولا شك أن ما سوى ذلك من المشكلات تبع لهاتين المشكلتين.

التمهيد

تعريفات موجزة بمفردات عنوان الموضوع

أولاً: مفهوم المشكلات

المشكلات جمع مشكلة، وهي اسم فاعل من أشكل، والإشكال هو الالتباس والاختلاط والاشتباه^١، وشكّل الأمر يشكّل شكلاً، أي: التبس^٢، والمشكلة هي المعضلة والعائق غير المعهود في سبيل هدف مرغوب، يشعر الفرد إزاءه بالحيرة والتردد والضيق، مما يدفعه للبحث عن حل للتخلص من هذا الضيق وبلوغ الهدف، والمشكلة شيء نسبي فما يعده الطفل مشكلة قد لا يكون مشكلة عند الكبير^٣

ثانياً: مفهوم الشباب

ذكر علماء اللغة تعريفات عدة لمصطلح الشباب. منها أنه: "الفتاء والحداثة، وهو جمع شاب، وكذا الشبان"^٤، ومنها أنه: المرحلة العمرية من عمر الإنسان، التي تبدأ من بداية سنّ البلوغ إلى بداية سنّ الرشد، ولها خصائصها وسماتها المميزة^٥. وذكر بعضهم أنه مفهومٌ يتناول من تتراوح أعمارهم ما بين خمس عشرة سنة، إلى خمس وعشرين سنة^٦. وقد ذهب بعضهم إلى أن فترة الشباب تنقسم إلى مرحلتين: مرحلة الشباب الأولى، وتمتد من بداية الحلم حتى سن الرشد عند الحادية والعشرين. والمرحلة الثانية هي مرحلة الرشد، وتمتد من سن الحادية والعشرين حتى الثلاثين^٧. وهذا التعريف الأخير الذي حدد الفترة الزمنية للشباب من الحلم حتى سن الثلاثين عاماً هو المعتمد، علماً بأن مفهوم الشباب يشمل الجنسين معاً.

ولا شك أن مفهوم الشباب يشير إلى فئة خاصة من المجتمع، تتميز بالنشاط والفاعلية، وليس هناك اتفاق حول مفهوم الشباب بين الباحثين، كما اتضح قبل قليل؛ فالبعض يعتبر الشباب فترة زمنية، والبعض الآخر ينظر إلى أن مرحلة الشباب

^١ الزعبلاوي، النحاة والقياس، ص ٣٠٣.

^٢ الجوهري، مختار الصحاح، ج ١، ص ٣٥٤.

^٣ ويكيبيديا الموسوعة الحرة على الرابط <http://ar.wikipedia.org/wiki/%>

^٤ ابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص ١٠؛ والجوهري، مختار الصحاح، ج ١، ص ٣٥٤؛ والفيزوآبادي، القاموس المحيط، ص ٨٧٥.

^٥ خياط، مبادئ تربية الشباب في ضوء قصة أصحاب الكهف وتطبيقاتها التربوية في الاسرة المسلمة، ص ٢٣.

^٦ منصور، توجيه وإرشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ، ص ٢٨.

^٧ شبير، مشكلات الشباب والمنهج الإسلامي في علاجها مع دراسة ميدانية عن مشكلات الشباب في المجتمع السعودي، ص ٢٤.

ظاهرة اجتماعية، ويرى آخرون أنها مجموعة من الظواهر النفسية، والنضج الجنسي والجسمي والعقلي، والمفهوم الذي يتبادر إلى الذهن ويلقى قبولاً هو أن الشباب مرحلة زمنية عمرية، كما ذكرنا، على الرغم من أنه قد اختلف أيضاً في تحديد مدتها الزمنية.

ثالثاً: مفهوم العلاج

العلاج هو مزاولة الشيء ومغالبته ومدافعته، وعالج الشيء معالجةً وعلاجاً: زاوله، والمعالج هو المداوي^١. والعلاج هو مجموعة من الأعمال التي يتم اتخاذها للتخفيف عن المريض، وهو أيضاً الوسيلة التي تؤدي إلى الشفاء من المرض أو الحد من أخطاره، أو التخفيف من آلامه سواءً بتسكينها أو بالقضاء عليها^٢. ويمكن أن نستخلص - مما سبق - مفهوم العلاج فيما نحن بصدد الحديث عنه بأنه مغالبة ومدافعة لمشكلات الشباب بهدف القضاء عليها أو الحماية منها أو التخفيف من آثارها، وذلك بدراسة هذه المشكلات والتعريف بها، والبحث عن جذورها وأسبابها، ومن ثم محاولة إيجاد حلول مناسبة لها، من خلال منظور القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

المبحث الأول

مكانة الشباب في الإسلام

عني الإسلام بمرحلة عمر الشباب عناية خاصة، لأنهم عماد حضارة الأمم، وسر نهضتها؛ وقد نوه القرآن الكريم بالشباب الذين ءامنوا، وأثنى عليهم وكافهم على ذلك بزيادة الهدى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. وفئة الشباب على مدار التاريخ هم في الغالب أكثر الناس تأثراً وأسرعهم استجابة، وأتباع نبينا ﷺ جُلهم كانوا من الشباب، فقد آمن به أبو بكر الصديق ﷺ وكان عمره نحواً من ثمان وثلاثين سنة، وعمر بن الخطاب ﷺ أسلم ولم يبلغ الثلاثين من عمره، وكذلك علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود، وسعيد بن زيد، ومصعب بن عمير، والأرقم بن أبي الأرقم، وخباب بن الأرت وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين. وقد اهتم صلى الله عليه وسلم بالشباب اهتماماً خاصاً، لمكانتهم في الإسلام، وحسن بلائهم وتضحيتهم في سبيل نشره، وعلو شأنه، ولا عجب في ذلك فهم الذين أيده ونصروه ونشروا دعوته، وتحملوا في سبيل ذلك المشاق طلباً لمرضاة الله سبحانه وتعالى والدار الآخرة.

ومن عنايته صلى الله عليه وسلم بعنصر الشباب أنه كان يخصصهم بالوصايا العظيمة التي تنير طريقهم، وتركي نفوسهم وتقربهم من ربهم عز وجل وتبعدهم من الوقوع في الفواحش والمنكرات، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»^٣. ومن ذلك وصيته صلى الله عليه وسلم لابن عباس ﷺ الذي يروي: "كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: «يَا غُلَامُ! إِنِّي

^١ ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ٢٤٩.

^٢ مبارك، التداوي والمسؤولية الطبية في الشريعة الإسلامية، ص ٧٦؛ وقايد، المسؤولية الجنائية للأطباء دراسة مقارنة في الشريعة والقانون، ص ٦٨.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٥٠٦٦.

أَعْلَمَكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظِ اللَّهَ؛ يَحْفَظَكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ؛ تَجِدُهُ مُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتِ؛ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ؛ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ، وَأَعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، زُفَعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَعَتِ الصُّحُفُ»^١.

وكان صلى الله عليه وسلم يوصيهم بالوصايا التي توظف فيهم مراقبة الله تعالى، لأن الشباب من أكثر الناس عرضةً للوقوع في المعاصي والشهوات، وذلك بسبب قوة دافع الشهوة عندهم، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بحلق حسن»^٢. وبهذه الوصايا النافعة، والرعاية الشاملة، ربّاهم صلى الله عليه وسلم على العقّة والفضيلة، وملاً قلوبهم بالحكمة والإيمان، وأذكى فيهم روح الشجاعة والفداء من أجل رفعة دينهم وأمتهم، ولقد كانت وصيته الأولى صلى الله عليه وسلم في العناية بالشباب وتربيتهم، تقوم على غرس الوازع الديني في نفوسهم منذ الصغر، وتعويدهم الصلّاة، التي هي صلة بين العبد وربّه، ليشبّوا على الطهارة، وفي ذلك يقول ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»^٣. ولمّا تربّى الشباب هذه التربية الإسلامية، على يد النبي صلى الله عليه وسلم قاموا في الإسلام بأعمال بطولية، فداءً لدينهم وأمتهم، وقد حفظها لهم التاريخ، ومن ذلك على سبيل المثال ما قام به عليّ بن أبي طالب ﷺ - أول من أسلم من الشباب، حيث يروي له التاريخ دوره في الهجرة النبوية، عندما نام على فراش النبي ﷺ، وعندما قتل أعتى عُتاة المشركين يوم الخندق وهو عمرو بن وُدّ الذي ما صارح أحداً إلا صرعه، ومنه ما كان من عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقد كان مثلاً يحتذى في العلم والحكمة، حتى كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُجلّسه مع كبار الصحابة وهو أصغر من أبنائهم، وذلك لمكانته العلمية ومنزلته الفقهية. إلى غير ذلك من صور الشباب المسلم المشرقة، والمصاييح المضيئة على مرّ عصور الإسلام، الذين أعزّ الله بهم دينه، وأعلى بهم كلمته، وشرح صدورهم لنيل مرضاته، والجهاد في سبيل نشر دينه.

وهكذا تظهر لنا أهمية الشباب ومكانتهم في الإسلام، ودورهم في رفعة الأمة، والدفاع عنها وعن مكتسباتها، يعقوبهم الفتية، وسواعدهم القوية، ومعلوم أن الشباب قوة بين ضعفين، ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة، فالطفولة تأخذ ولا تعطي، والشيخوخة في حاجة إلى عناية ورعاية، فلم يبق من يزود عن الإسلام غيرهم، بعد الله تعالى.

المبحث الثاني

أسباب المشكلات الدينية والأخلاقية لدى الشباب

لا شك أن هناك جملة من العوامل والأسباب أدّت بالشباب إلى الوقوع في هذه المشكلات القائمة على عدم التزام كثير منهم بتعاليم الإسلام، ولا بد لنا قبل البحث عن الحلول الناجحة لهذه المشكلات، علينا أولاً أن نشخص الداء بالبحث عن جذوره وأسبابه وآثاره، لأن معرفة هذه الأمور تعد تمهيداً ومدخلاً لمعالجتها ومكافحتها والقضاء عليها. ويمكننا أن نقول من

^١ أخرجه الترمذي في سننه، ج ٤، ص ٦٦٧، وقال: حسن صحيح.

^٢ أخرجه الترمذي في سننه، ج ٤، ص ٣٥٥.

^٣ أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٤٩٥.

خلال الواقع والمعاشة اليومية لأحوال الشباب إن معظم مشكلات الشباب الدينية والأخلاقية من بينها تنشأ للأسباب الآتية:

أولاً: تراجع دور الأسرة عن القيام بواجبها

ومعلوم أن الأسرة تعتبر بمثابة الركيزة الأساسية في رعاية الشباب وإصلاحهم، لأنها حجر الزاوية في العملية التربوية، و عليها مسؤولية كبيرة في حماية الأبناء من السلوك المنحرف منذ الصغر، وذلك بتنشئة الأبناء على العقيدة الصحيحة، والأخلاق الكريمة. وقد تراجع دور الأسرة عن القيام بواجبها نحو الأبناء أمر واضح، وإلا لما أصبح الشباب فريسة سهلة لوسائل الإعلام الهدامة التي تعمل متعمدة على تغيير المفاهيم إلى اتجاه معاكس للإسلام، فقد انشغلت الأسرة بالبحث عن لقمة العيش، والعمل خارج البيت طول النهار، بالإضافة إلى خروج الأم للعمل بدعوى المساعدة في تخفيف أعباء المعيشة، ولا شك أن هذا مما أفسح المجال لوسائل الإعلام الهدامة لتقوم بإفساد الشباب وطمس هويتهم الدينية والأخلاقية، من خلال ما تبثه من أفلام ومسلسلات عبر وسائلها المختلفة، والموجهة مباشرة إلى الشباب. يضاف إلى ذلك عدم التزام الأسرة في نفسها بتعاليم الإسلام، فإذا لم تكن الأسرة ملتزمة بتعاليم الإسلام، ومتعايشة مع قيمه ومفاهيمه، فإن الشباب سيعاني الفراغ العقدي، والجفاف الروحي، والانحلال الأخلاقي، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فدور الأسرة في تشكيل شخصية الشباب الدينية والأخلاقية لا يخفى على أحد، وبحسب طبيعتها وتمسكها بالدين تتكون صورة الدين في ذهنه.

ثانياً: ضعف الوازع الديني

ونعني بالوازع الديني الشعور القلبي بمخافة الله عز وجل ومراقبته، وهو ينبع بالأساس من الإيمان بالله وباليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، ولا يخفى أن إيمان المسلم بالله وباليوم الآخر هو الباعث الحقيقي على فعل الخيرات واجتناب المنكرات من الأقوال والأفعال والسلوكيات، وديننا الحنيف شامل لكل تفاصيل الحياة، حيث يحكم جميع تصرفاتنا وسلوكياتنا، وينظم لذلك أحكاماً يرتب عليها ثواباً أو عقاباً في الآخرة، وضعف الوازع الديني معني به الشباب المتدينين أو المنحدر من أسرة دينية، لكن عدم استشعارهم مراقبة الله دليل على أن الدين لم يلامس شغاف قلوبهم، ولم يتركز في نفوسهم كوعي ومناعة، وإتماً هو مجرد فرائض وواجبات يتلقونها من الأسرة أو المدرسة بالتلقين، أو هو مجرد التقليد بطريقة جامدة دون أن يكون لها أثر ملموس في واقع حياتهم.

ثالثاً: غياب دور أئمة المساجد في توجيه الشباب

إن المساجد هي بيوت الله في الأرض، ودورها أكبر من تأدية العبادة فحسب، وأئمة المساجد هم قلب الأمة النابض، ولا يخفى دورهم في توجيه المجتمع والإسهام في تقويم إعوجاجه، وذلك لما لهم من سلطة دينية، ومكانة اجتماعية مرموقة، وهذا لا يشك في دورهم من أداء دور كبير في توجيه الشباب المسلم، وتقويم سلوكهم المنحرف بالطرق السليمة، متبوعين في ذلك هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في معالجة الأخطاء، ومناقشتهم بكل رفق، وإيجاد الحلول السليمة التي تُعيد إليهم رشدهم، دون تعنيفهم والقسوة عليهم، لأن القسوة والعنف لن يزيدا فيهم إلا النفور والتمرد، ومعلوم أن من أساليب التربية

الإسلامية الوعظ الطيب والإرشاد المؤثر بالكلمة الصادقة التي تخاطب الوجدان مباشرة، وقد جاء التوجيه الرباني بذلك في القرآن الكريم، بقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].
ومن الملاحظ تراجع هذا الدور في الكثير من مساجد المسلمين، وذلك بغياب حلقة الوصل بين الشباب وأئمة المساجد، التي تتمثل في الدروس العلمية، وحلقات تحفيظ القرآن، والمسابقات الدينية التي يمكن أن تقام في بيوت الله بطريقة جاذبة للشباب من الجنسين، ملء أوقات فراغهم بما يفيدهم في دينهم وديناهم.

رابعاً: غياب القدوة الحسنة والصحة الصالحة

الصحة الصالحة والقدوة الحسنة لهما دور كبير في تربية الشباب وتقويم سلوكهم، ولا شك أن الشباب المسلم اليوم في أمس الحاجة أن يرى قادة مخلصين، وعلماء عاملين، ودعاة صادقين، يكونون لهم نموذجاً حياً لكي يقتدوا بهم؛ لأن التأثير بالأفعال أبلغ من التأثير بالكلام، وقد جاء في القرآن الكريم على لسان شعيب عليه السلام قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَأَكُمُ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وتتشدد حاجة الشباب إلى الأسوة الحسنة خصوصاً في عصر العولمة، وزمن الانفتاح والمتغيرات، الذي صارت فيه البيئة هي العالم كله، بما فيه من اختلاف في الديانات والثقافات، حيث أصبح العالم ينساب بعضه على بعض، بلا حدود ولا قيود تقف في وجه انتقال المعلومات. وعدم وجود هذه القدوات لاشك مما يدفع الشباب إلى أخذ القدوة من شخصيات فارغة من نجوم وسائل الإعلام الهدامة، كلاعبي كرة القدم والممثلين والممثلات البعيدين عن مفاهيم الإسلام وتعاليمه، وهذا أمر مشاهد لدى الكثير من الشباب المسلم، وهو ما يعرف بثقافة التقليد الأعمى دون تبصّر، ويتربّ على ذلك الصحة السيئة، وهي من أخطر المشكلات التي تواجه الشاب المسلم من الجنسين على حدّ سواء، فالصاحب ساحب، وهو سلاح ذو حدّين، فإما أن يأخذ بصاحبه ويسحبه إلى برّ الأمان إن كان صالحاً، وإما أن يسحبه ويغرقه في بحر الظلمات إن كان طالحاً. وقد قال صلى الله عليه وسلم في ذلك: «الْمَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدَكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^١.

ولأهمية دور الصحاب في التأثير على صاحبه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا»^٢. وقد حدّر القرآن الكريم من مصاحبة الأشرار، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تِرِيْدَ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمَنْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. فالصحة السيئة وبال في الدنيا، وندم في الآخرة كما قال الله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، وبعد هذا لا يكون المرء من المبالغين في الكلام، إن قال إن كافة المنكرات والمفاسد التي يقع فيها الشباب المسلم اليوم إنما هي من نتائج الصحة السيئة.

^١ أخرجه أبو داود في سننه، ج ٤، ص ٢٦١، رقم ٤٨٣٣، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج ٢، ص ٦٣٣، رقم ٩٢٧.

^٢ الألباني، صحيح سنن الترمذي، ج ٢، ص ٢٨٥، وصحيح سنن أبي داود، ج ٣، ص ٩١٧.

خامساً: الفراغ وعدم المسؤولية

إنَّ الفراغ وعدم المسؤولية أمران يعانیهما كثير من الشباب المسلم الذين يضيِّعون أوقاتهم في اللهو واللعب، بدعوى قتل الوقت!!، وكأن الوقت عدوهم الأول الذي يجب التخلص منه، بالجلوس على المقاهي والطرقات بدون داعٍ، أو النوم نهاراً والسهر واللعب ليلاً، عاكسين بذلك النواميس الكونية؛ والفطرة الإنسانية، حيث جعل الله الليل لباساً والنهار معاشاً، ومعلوم أن كل إنسان مسؤول عن وقته، في أي شيء قضاه، ولهذا قال ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمَلَ فِيهِ»^١. وقد بين هذا الحديث أن الشباب مسؤول عن عمره مرتين: مرة عن جملة عمره بصفة عامة، ومرة عن فترة شبابه بصفة خاصة، لأن مرحلة الشباب هي مرحلة البذل والعطاء أكثر من غيرها من مراحل عمر الإنسان، فكيف يكون المرء فارغاً في الفترة الذهبية من عمره!!؟، وقد قال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَعْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^٢.

ولا شك أن هذه المشكلات تسبب للشباب أمراضاً نفسية وسلوكية خطيرة، تنعكس على المجتمع بأسره، لأن الشباب من أهم فئات المجتمع، فإذا أصيب الشباب بهذه الأمراض النفسية والسلوكية التي من أخطر آثارها الضيق والانفعال لأنفاه الأسباب، فلا يمكن أن يكون المجتمع بمعزل عن ذلك، بل له النصيب الأوفر من ذلك، لأن المجتمع بكافة فئاته ومؤسساته هو السبب الرئيس في حدوث تلك المشكلات، لأنه لم يقد بدوره في القيام بما يجب تجاه الشباب، وذلك بملء فراغهم، وتربيتهم التربية السليمة، وتنشئتهم على الأخلاق الحميدة والخصال الكريمة، وتوجيههم الوجهة الصحيحة منذ الصغر، فلا ينبغي أن نوجه اللوم إلى الشباب وحدهم، وقد تركنا لهم الحبل على الغارب، يفعلون ما يشاؤون دون رقيب أو حسيب من قبل فئات المجتمع ومؤسساته التربوية بصفة خاصة، والأسر بصفة أخص، فاللوم يجب أن يوجه أولاً إلى المجتمع بكافة فئاته ومؤسساته، لأن الكثير منها تخلى عن مسؤولياته تجاه الشباب، ولو قام كلٌّ منها بما يليه لكان واقع الشباب أفضل من ما هو عليه الآن.

ولا شك أن الشباب المسلم فيه خير كثير، ولا ينقطع خيره، لذا لا ينبغي لأحد أن يحكم على الشباب جميعاً بعدم التزامهم بالدين، وفقدتهم الخلق الحسن، وعدم التمسك بالقيم، أو الفساد أو نحو ذلك من الأحكام التعميمية الجائرة التي تشعر باليأس والإحباط والقنوط، وقد جاء النهي عن ذلك، ففي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»^٣. وقد روي هذا الحديث بضم الكاف وبفتحها، ومعنى الضم في "أهلكهم"، أي أسرعهم وأشدهم هلاكاً، لغروره بنفسه، وإعجابه بعمله، واحتقاره لغيره، ومعنى الفتح في "أهلكهم" أي أنه الذي تسبب -هو وأمثاله- في هلاكهم، بالاستعلاء عليهم، وتيئيسهم من روح الله^٤. قال الإمام النووي: "وهذا النهي لمن قال ذلك، عجباً

^١ أخرجه الترمذي في سننه، ج ٢ ص ٦٧، وهو للألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ٩٤٦.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه، ج ١١، ص ٢٢٩، رقم ٦٤١٢.

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه، ج ٤، ص ٢٠٢٤، رقم ٢٦٢٣.

^٤ محمد، أحاديث الطائفة الظاهرة، ص ٤٣.

بنفسه، وتصاغراً للناس، وارتفاعاً عليهم، فهذا هو الحرام. وأما من قاله لما يرى في الناس من نقص في أمر دينهم، وقاله تنزاً عليهم، وعلى الدين، فلا بأس به^١.

ومقصودنا من كل ذلك التنبيه على الأخطاء والسلوكيات المنحرفة التي يقع فيها بعض الشباب، من أجل معالجتها وفق منظور القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

المبحث الثالث

سبل حلّ مشكلات الشباب

معلوم أن دين الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وقد جاء لإسعاد البشرية جمعاء، وفي تطبيق تعاليمه السمحة حل للكثير من المشكلات التي يعانيها المجتمع المسلم بصفة عامة، ومجتمع الشباب بصفة خاصة، وبعد أن قمنا في المبحث السابق بتشخيص الداء، وذلك بذكر أهم أسبابه وآثاره حان الوقت للبحث عن حلول مناسبة لهذه المشكلات، من خلال منظور القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويمكن أن تتم معالجة مشكلات الشباب الدينية والأخلاقية من خلال القيام بالأمور الآتية:

أولاً: تفعيل دور الأسرة

لا شك أن الأسرة تعد بمثابة الركيزة الأساسية في عملية تربية الشباب على التمسك بتعاليم الإسلام وقيمه الرفيعة، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهمية دور الأسرة في تكوين شخصية الأولاد الدينية والأخلاقية منذ الصغر فقال: «كل مؤلود يُولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^٢. وقد اهتم الإسلام بنقاء الأسرة وطهارتها منذ اللحظة التي يفكر فيها الرجل في بناء الأسرة، إذ حدّد الإسلام أسس اختيار الزوجة الصالحة، وهذا كله يؤكّد خطورة دور الأسرة في التنشئة الخلقية وتهذيب السلوك واكتساب القيم لدى الأولاد منذ الصغر، لأن التربية الأولى لها أثرها البين في تكوين شخصية الطفل مدى الحياة، وأهم الواجبات الدينية للأسرة نحو الأولاد تتمثل - أولاً - في تعليمهم الصلاة وحثّهم عليها إذا بلغوا سبع سنين، وتعليمهم القرآن الكريم، وتعليم البنات الحشمة من خلال العناية بالملابس الساترة لمنذ الصغر، وتعاهدتهم - بنين وبنات - بالعناية والرعاية، وتوجيههم بالرفق واللين إذا أخطؤوا، وتزويجهم إذا كبروا، وأن تكون الأسرة قدوة حسنة لأولادها في التمسك بالقيم الحميدة، والأخلاق النبيلة المستمدة من القرآن والسنة، ومن أفضل ما يتركه المسلم في هذه الدنيا ولد صالح يدعو له، وبتفعيل دور الأسرة التربوي والقيام بواجبها ذلك وفق هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ورعايتهم دينياً وأخلاقياً، يصلح الشباب ويصلح حال المجتمع بأسرة، وبالتأكيد هناك عوامل خارجية كثيرة تؤثر في سلوك الشباب وتمسكهم بتعاليم الإسلام، لكن مع ذلك يبقى العامل الأسري من أهم العوامل في حمية الشباب وصيانتهم من الانحراف عن الجادة.

^١ العثيمين، شرح رياض الصالحين، ج ٦، ص ٢٨١.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه، ج ٣، ص ٢٨١، رقم ١٣٥٨؛ ومسلم في صحيحه، ج ٤، ص ٢٠٤٧، رقم ٢٦٥٨.

ثانياً: تفعيل دور مؤسسات المجتمع

معلوم أن عملية تربية الشباب على تعاليم الإسلام وقيمه الرفيعة عملية جماعية، لا يمكن أن تقوم بها الأسرة وحدها، فلا بد من تضافر كافة الجهود في ذلك، ولا يخفى في ذلك دور مؤسسات المجتمع المختلفة في غرس قيم الفضيلة على الشباب، وأولها المدرسة التي تعدُّ من أهم وأبرز المؤسسات الاجتماعية التربوية التي أنشأها المجتمع للعناية بالأولاد، وتربيتهم، وتهيئتهم، وإعدادهم للحياة، و تقوم في عصرنا الحاضر بدور كبير في التعليم والتربية، ويجب أن يُفعل دورها في التربية على أخلاق الإسلام السمحة، وأن تهتم بالجوانب السلوكية للطلاب، وأن يكون المعلم قدوة حسنة لطلابه، وأن يعاملهم برحمة ورفق كأهم أبنائه، وكذلك المسجد له دور كبير في عملية تربية الشباب وتقويم سلوكهم، حيث يعد من أهم المؤسسات الاجتماعية، لا سيما وأن المسجد لم يكن في المجتمع المسلم الأول مجرد مكان لأداء العبادات فقط، بل كان جامعاً لأداء العبادات، وجامعةً للتعليم وتخريج العلماء والفقهاء والأمراء، ومعهداً لطلب العلم ونشر الدعوة الإسلامية، ومنتدًى للثقافة ونشر الوعي بين الناس، إلى غير ذلك من الوظائف الاجتماعية المختلفة التي كان يقوم بها المسجد؛ فما أحوجنا في هذا العصر إلى تفعيل دور المسجد ليكون جامعاً وجامعةً، ومكاناً لاجتماع المسلمين، ولم شملهم بعد شتاتٍ، وتوحيد صفهم بعد تفرق، ورعاية شبابهم، وتربية أبنائهم، وهو أفضل مكان للتربية، لأنه أطهر بقعة، وأقدس محلٍّ يمكن أن تتم فيه تربية الشباب، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من عظيم الأجر وحزيل الثواب، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبوهريرة رضي الله عنه: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^١.

ثالثاً: تقوية الوازع الديني لدى الشباب

ضعف الوازع الديني لدى الشباب من الأسباب الرئيسة في انحرافهم عن الجادة، وعدم التزام الكثير منهم بالأخلاق الإسلامية ظاهرة لا تخطئها العين في كلِّ مكان، بدءاً بترك الصلاة والتهاون بشعائر الإسلام، وتعاطي المسكرات والمخدرات، والتعدّي على الحرمات، والتمرد على الوالدين، وعدم احترام المعلم وتوقيره، يضاف إلى ذلك التراشق بالألفاظ النابية فيما بينهم، وفي أحيان كثيرة مع من هو أكبر منهم سناً! ومن ذلك أيضاً ظاهرة تبرج الفتيات المسلمات، والتشبه بنساء الكفار في الهيئة والملبس، ولا يمكن أن يعالج هذا الانحراف في السلوك والأخلاق والتهاون بفرائض الإسلام إلا بتقوية الوازع الديني لدى الشباب، وتعمير وجدانهم بتعاليم الدين، وتقوية صلّتهم بالله تعالى، وحضهم على استشعار مراقبته دائماً، وذلك بتعليمهم أمور الدين، ورفع الجهل عنهم، وبوضع كثير من نصوص الوحيين في برامجهم الدراسية، التي تعظم الله في قلوبهم، وتحبب إليهم طاعته وترهبهم من معصيته، وتقذف في قلوبهم اليقين بأن هذا هو سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، وأن مفارقتها سبب شقاء الدارين، ومعلوم أن المناهج الدراسية في جميع بلاد المسلمين تحوي الكثير من المواد الدينية، بالإضافة إلى كثافة الأنشطة الدينية في الكثير من المجتمعات الإسلامية، ولكن هذا وحده قد لا يكون كافياً لزيادة الإيمان وتقويته؛ لأن زيادة

^١ أخرجه ابن ماجه في سننه، ج ١، ص ٨٢، رقم ٢٢٥.

الإيمان وضعفه ليست مرتبطة فقط بزيادة المعلومات المحفوظة لدى المتعلم، وهذا أمر معلوم ويلاحظه كل أحد لدى عامة المسلمين فضلاً عن الشباب، خصوصاً مع طريقة التعليم الحالية التي تعتمد على التلقين والحفظ، والمناهج الدراسية التي تعتمد غالباً على الكم، دون العناية بالكيف الذي هو التربية السلوكية والتهذيب الأخلاقي، لأن زيادة الإيمان في قلب المسلم تحتاج إلى عوامل كثيرة ولا يكفي في ذلك مجرد التلقين والحفظ لنصوص الوحيين بصورة جامدة، دون مراعاة للنواحي التطبيقية في واقع الحياة لما يتم حفظه وتعليمه، يضاف إلى ذلك ضرورة تحلّي المعنيين بأمر التعليم عموماً بالأخلاق الحسنة، وأساتذة العلوم الدينية بصفة أخص، حتى يكونوا قدوة حسنة لطلابهم، فضلاً عن التجديد في طريقة التعليم، ومراعاة تناسب المعلومات الدينية مع سنّ المتلقّي ومستوى إدراكه، والعناية بسهولة وصول المعلومة إليه في عصر التقنية.

رابعاً: إصلاح وسائل الإعلام

وسائل الإعلام على اختلاف أنواعها تعد من أهم وأبرز الوسائط في عصرنا الحاضر، بل أكثرها تأثيراً على الشباب من الجنسين على حدّ سواء، حيث تُقدم برامج مختلفة وثقافات متنوعة من خلال وسائلها الجماهيرية المختلفة كالإذاعة، والتلفزيون، والصحافة، وشبكة الإنترنت، وغيرها من الوسائل الأخرى التي تُخاطب من خلالها جميع الفئات، ومختلف الأعمار، وتدخل كل بيت، وتصل إلى كل مكان، بالإضافة إلى قدرتها الفائقة على جذب اهتمام الناس بصفة عامة، والشباب على وجه الخصوص، وهذا يعني أهمية إصلاحها، واستثمارها في الخير، وتسخيرها لخدمة الشباب لا لإغوائهم والعبث بعقولهم من خلال ما تبثه من برامج مخلة بالأداب والأخلاق الإسلامية، وذلك بإسناد مهمة الإشراف عليها لأهل الصلاح والدين، الذين تتوافر فيهم الكفاءة العلمية والمهارية، لبث كل ما يخدم المجتمع المسلم في دينه ودينه، وتجنّب ما يسبب الإضرار به وبشبابه، الذين هم عماد الأمة، وعمودها الفقري في البناء والتنمية، ولا بد في ذلك من تضافر كافة الجهود الفردية والجماعية لإصلاح أوضاع الشباب المسلم، ولم يعد من السهل لدى الشباب الصمود أمام هذه المغريات التي يموج بها العصر، دون أن يكون هناك من يقوم على رعايتهم وتوجيههم وفق هدي دينهم الحنيف، الذي جاء يحمل للبشرية جمعاء سعادة الدنيا والآخرة.

الخاتمة:

وفي ختام هذا الموضوع أرجو تلخيص ما ورد فيه على وجه الإجمال؛ فقد تناولت أبرز تلك المشكلات، وهي المشكلات الدينية والأخلاقية، وبحثت عن أسبابها وآثارها وسبل علاجها في ضوء القرآن والسنة النبوية، ولا أدعي أنني أوفيت الموضوع حقّه، ولكن هذا ما منّ الله به، ثم ما وسعه الجهد، وتوصّل إليه الفهم.

وفيما يلي أخصّ أبرز النقاط التي توصلت إليها نتائج هذا البحث:

- ١- إن دين الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وقد جاء لإسعاد البشرية جمعاء، وفي تطبيق تعاليمه السمحة حل للكثير من المشكلات التي يعانها المجتمع المسلم عموماً، ومجتمع الشباب بصفة خاصة.
- ٢- إن الأسرة تعتبر الركيزة الأساسية في رعاية الشباب وإصلاحهم، وعليها مسؤولية كبيرة في حماية الأبناء من السلوك المنحرف منذ الصغر، وبحسب طبيعة تمسك الأسرة في نفسها بالدين تتكون صورة الدين في ذهن أبنائها.

- ٣- إن الشباب من أسرع الناس استجابةً للتمسك بتعاليم الإسلام، وهم مع ذلك من أسرع الناس انفلاتاً منها؛ وذلك بسبب رقة مشاعرهم، واندفاع عاطفتهم، وكثرة المثيرات والمغريات حولهم، وهذا يتطلب الوقوف على مشكلاتهم المختلفة، وتناولها بالدراسة والبحث، لمعرفة أسبابها وآثارها، ومن ثم البحث عن مواجهتها وسبل علاجها.
- ٤- إن أغلب وسائل الإعلام الحديثة على اختلاف أنواعها، لها دور كبير في صرف الشباب عن جادة الطريق، وذلك بما تبثه من برامج مخلة بالآداب والأخلاق الإسلامية، وهذا يتطلب السعي في إصلاحها، لخطورة دورها، وشدة تأثيرها على الشباب.
- ٥- إن الشباب المسلم فيه خير كثير، ولا ينبغي لنا أن نحكم عليهم جميعاً بعدم التزامهم بالدين، وفقدتهم الخلق الحسن، أو بالفساد، أو نحو ذلك من الأحكام الجائرة التي تشعر باليأس والإحباط والتقنوط.
- كما أوصي بضرورة ما يأتي:

- ١- تضافر كافة الجهود الفردية والجماعية لإصلاح أوضاع الشباب، والإسهام في حل مشكلاتهم؛ إذ لم يعد من السهل لدى الشباب الصمود أمام المغريات والتحديات التي يواجها العالم، دون أن يكون هناك من يقوم على رعايتهم وتوجيههم.
- ٢- استغلال التقنية الحديثة - خصوصاً شبكات الإنترنت - في نشر الوعي الديني لدى الشباب، وربطهم من خلالها بالعلماء العاملين، والدعاة المخلصين، المعروفين بالوسطية والاعتدال، وحب الخير للآخرين.
- ٣- تفعيل دور كافة مؤسسات المجتمع للقيام بواجبها نحو الشباب، بدءاً بالأسرة، ثم المسجد والمدرسة، ومروراً بالجامعة وغيرها من مؤسسات المجتمع المختلفة؛ إذ لو قام كلُّ بما يليه لكان حال الشباب أفضل مما هو عليه اليوم.

المصادر والمراجع:

١. ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، السنن، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي).
٢. ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، وغيره، (القاهرة: دار المعارف، د.ت.).
٣. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (صيدا: المكتبة العصرية).
٤. الألباني، محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، (الرياض: مكتبة المعارف، د.ت.).
٥. البخاري، محمد بن إسماعيل، الصحيح، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢ هـ).
٦. الترمذي، محمد بن عيسى بن سؤرة، السنن، تحقيق: بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨ م).
٧. الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، (بيروت - صيدا: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، ط ٥، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م).
٨. الزعبلوي، صلاح الدين، النحاة والقياس، مجلة التراث العربي، العدد ٣٢، السنة الثامنة، ١٩٨٨ م.

٩. شبير، وليد شلاش، مشكلات الشباب والمنهج الإسلامي في علاجها مع دراسة ميدانية عن مشكلات الشباب في المجتمع السعودي، رسالة ماجستير، (القاهرة: معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٨٥م).
١٠. العثيمين، محمد بن صالح العثيمين، شرح رياض الصالحين، (الرياض: دار الوطن للنشر، ١٤٢٦هـ).
١١. عفانة، حسام الدين بن موسى محمد، أحاديث الطائفة الظاهرة، (بيت المقدس: ط١، ٢٠٠٢م).
١٢. الفيروزآبادي، مجدالدين أبوظاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٨، ٢٠٠٥م).
١٣. قايد، د. محمد أسامة عبدالله، المسؤولية الجنائية للأطباء دراسة مقارنة في الشريعة والقانون، (القاهرة: دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٩٠م).
١٤. مبارك، قيس آل الشيخ، التداوي والمسؤولية الطبية في الشريعة الإسلامية، (بيروت: الريان، ط٢، ١٩٩٧م).
١٥. مسلم، ابن الحجاج أبو الحسن النيسابوري، الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
١٦. منصور، عبد المجيد سيد، توجيه وإرشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ، (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ١٩١٩م).

منظور القرآن والسنة في تسليح المرأة والشباب المسلم لمواجهة التحديات المعاصرة

د. يوسف موسى علي عبد الله أبو عليقة^١

ملخص البحث:

أنَّ الخطر الحضاري الذي تُعاني منه الأمة الإسلاميَّة اليوم، والناتج عن خراب شخصيَّتها ودوبانها، في خضم التطور الأوربي وخضوعها بوسائل شتى لبلاد الكفَّار والتبعية والانقياد والخضوع لهم بأيِّ شكلٍ من الأشكال، ليس بسبب الفقر في القيم الإسلاميَّة؛ بل إن المشكلة تكمن في الجهل بتلك القيم والعجز عن التمسُّك بها، وعدم القدرة على تنزيلها على الواقع. وبناءً على ما تركز عليه مشكلة البحث، وإدراكاً لما في التشبُّه بالكفَّار من مخاطر على عقيدة المسلم - المرأة والشباب - وخلقه وشخصيَّته، ونظراً لما نتج عنه من آثارٍ سيِّئة في حياة المسلمين؛ الأمر الذي يستوجب من الباحثين وضع دراسة علميَّة جادَّة تُساعد على التقليل من حدِّتها هذه الظاهرة، حيث تكمن أهمية البحث في بيان خُطورة تقليد الكفَّار وآثاره السلبِيَّة على أجيال أمتنا الإسلاميَّة، وأضراره الخطيرة على عقيدتهم وأخلاقهم. من هنا كان الهدف من الحث يكمن في وضع رؤية لحماية المرأة والشباب المسلم من الوقوع في هاوية التقليد، كما يسعى الى السعي في وضع صيغة توضح أهمية الإسلام وخصائصه ومزاياه. وللوصول إلى هذه الأهداف وغيرها استخدم، المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج التاريخي الاستقرائي.

مقدمة:

إنَّ الحمدَ لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يضلِّل فلا هادي له، وأشهَدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهَدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله. وبعد! فلا ريب في أن لكل دين سماوي بناءً وأساساً يضبط أحوال الناس، وبناء أي دين هو التشريعات المتعددة التي تنظم علاقة الإنسان بنفسه، وخالقه، والكون الذي يحيط به، أما بناؤه فهو العقيدة التي تنبثق عنها تلك التشريعات، وأساسه الإلزام الأخلاقي.

فالله سبحانه تعالي خلق الإنسان وميزه بالعقل، وزوده بغريزة أخلاقية تسمي البصيرة وهي التي تساعد علي التفرقة بين خيرية الاعمال وشريرتها، وتساعد على تحصيل النافع ودفع الضار عنه، كما يستطيع بها الإنسان أن يصدر أحكاماً يقيم بها السلوك الأخلاقي بأنواعه.

بالتالي ظل الإلزام الأخلاقي معياراً لمدى تحضر المجتمع وتقدمه. بل هو الأساس الذي يحفظ لمجتمعاتنا العربيَّة والاسلامية تلاحمها وانسجامها، وتحفظ انضباط الفرد في تعامله مع مجتمعه المحدود وأتمته الواسعة.

^١ عضو هيئة التدريس كلية الآداب والعلوم، جامعة الجبل الغربي - طرابلس - ليبيا: yma1969@yahoo.com

من هنا يمكن القول بأنه إذا صحت العقيدة، حسنت الأخلاق تبعاً لذلك؛ فالعقيدة الصحيحة هي التي تحمل صاحبها على مكارم الأخلاق، وتردعه عن مساوئها. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنَهُمْ خَلْقًا، وَإِنَّ حَسْنَ الْخَلْقِ لِيَبْلُغَ دَرَجَةَ الصُّومِ وَالصَّلَاةِ». هذا الحديث وغيره يدل دلالة قاطعة على أن المجتمعات تصلح بصلاح أفرادها. ولقد أدرك أعداء الإسلام قيمة مكارم الأخلاق على شباب الأمة الإسلامية، وأدركوا معه السبب الذي يبلغون به؛ فوضعوا مخططاتهم، وكرسوا جهودهم، ووجهوا وسائل اعلامهم، من اجل القضاء على القيم الاسلامية؛ فأصبح شبابنا المسلم يواجه تحديات متنوعة، تهدف إلى إضعاف إيمانهم وإذابة شخصياتهم.

ومادام الشباب في جميع الأطوار وفي كل الأقطار هم عماد الحضارة، وسر نهضتها؛ كان لزاماً علينا بيان التحديات التي تواجه هذا الجيل، والمتمثلة في التحدي العقائدي الذي يشكل معارضة وهدماً لما يتلقاه الشاب من ولي أمره أو معلمه من تربية إيمانية، أساسها الوصايا النبوية التي تحفظ للشباب إيمانهم وترعى أخلاقهم، ومن هذه الوصايا الإيمانية وصيته ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^١.

من خلال التركيز على مثل هذه الوصايا الفضلى في التربية؛ تطهر القلوب من الخبث، وتنقى العقول من الأوهام والأباطيل، وهذا ما تكفله العقيدة الإسلامية لشبابنا المسلم. قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

المبحث الأول: تصحيح عقيدة الشباب المسلم

تعرض الإسلام ورسوله الكريم ﷺ منذ زمن طويل لهجوم عنيف من قبل خصومه وأعدائه، ذوي الأقلام الحاقدة، والأفكار الهدامة، وأصحاب العقول المريضة التي اهتمت بإثارة الشبهات، واستنفرت العالم للهجوم على الإسلام ونبيه. ولا يزال التربص بالأمة الإسلامية ورجالها مستمراً في مخطط يهودي يمتاز ب"التعصب والعداء، والمهارة في الاتهام"^٢، ويستهدف استئصال دين الإسلام واجتثاث أصوله، وتقويض بنيانه، وذلك بمحاولة التشكيك في أصالة الدين والرسالة والنبوة وإخضاع حياة النبي ﷺ لعلوم التربية والسيكولوجيا في محاولة للنيل منها، والطعن فيها؛ من خلال البحث عن ثغرات وتناقضات مفتراه على الدين الإسلامي في محاولة منهم لتشويهه، وتفسيره بمنظور بشري عاجز، رغبة منهم في إطفاء نوره. والله متم نوره ولو كره الكافرون: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

ولما للأمة الإسلامية من مكانة عظيمة بين الامم، ودليله قوله قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ فلقد حاول أعداء الله أن يفسدوا عقيدة شبابها المسلم بشتى الطرق، فسعوا إلى نشر سمومهم عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، وشوهوا المفاهيم الأخلاقية التي أساسها الإيمان،

^١ أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، ج ٤، ص ٣٥٥، وقال: حديث حسن صحيح.

^٢ شوقي أبو خليل، فيليب حتي، ص ٤٠.

وتاجروا بعقول الشباب المسلم، فتحجراً بعض ضعاف النفوس من أبناء أمتنا على الانفلات من التكاليف الشرعية، فاقتروا المعاصي والمنكرات؛ فتفتشت بينهم رُوح التواكل والتفاعس عن البناء والتشييد؛ فحلف ذلك ركوداً علمياً وفكرياً، أنتج الخلافات السياسية والصراعات المذهبية بين صفوف أبناء الأمة المسلمة؛ أضعف قواهم، وأوهن عزائمهم، فتداعى عليها الأمم الكافرة من كلِّ حذب وصوب، وهو ما أخبرنا عنه الصادق المصدوق عليه السلام في حديث ثوبان رضي الله عنه: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا». فقال قائل: «أَوْ مِنْ قَلَّةٍ نَحْنُ يَوْمئِذٍ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: «حُبُّ الدنْيَا، وكرَاهِيَةُ المَوْتِ»^١. بل قد حذرنا الله سبحانه وتعالى منهم قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وإنما أكد على إن الولاية لا تكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

من هنا كان من الواجب علينا نحو ابناءنا تصحيح عقيدتهم وتوعيتهم من الخطر المحقق بهم الذي صرح به كثير من القادة الغربيين، في مناسبات مختلفة أنهم يريدون أن يشبوا لليهود انهاء روح العداء بينهم وبين العرب، فهذا مثلاً الرئيس الأمريكي (بوش) في مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١م يؤكد على: "إن غرض المؤتمر ليس إنهاء الحرب بين الطرفين، وإنما إنهاء العداوة"^٢، وهو ما أكد عليه شامير في نفس المؤتمر بقوله: "لا بد من تغيير ثقافتكم العدائية نحو اليهود، فعلى مراحل تنتهي كل شعارات العداء لليهود؟ بل ينتهي حتى كل ما يثير العداء دينياً"^٣. وهذا -لا شك- مناف لقلوبه تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وما كان نداء الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات إلا لأنه يعلم أن هدف أعداء الله في الأمة الإسلامية، هو القضاء على الإسلام باعتباره شريعة ونظام حكم وحياء، وتفتيت الوحدة بين أبناء الأمة الواحدة، وإثارة الفتنة بين المسلمين، وإضعاف دولهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزِدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنَّ اسْتِطَاعُوا...﴾ [البقرة: ٢١٧].

^١ أخرجه أبو داود في السنن (مع عون المعبود)، كتاب الملاحم، باب تداعي الأمم على الإسلام، ج ١١، ص ٤٠٤، رقم ٤٢٧٦.

^٢ سفر الحوالي، القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى، ص ٧٣.

^٣ المرجع السابق نفسه، ص ٧٩.

فتداعى عليكم الأمم الكافرة من كل حذب وصوب، تغزوكم بأفكارها الهدامة للقلوب والعقول، من خلال سيطرتها على منابع الفكر والثقافة؛ ومناهج التعليم والثقافة ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة، فراحت تزرع في قلوب أبناء الأمة الإسلامية بذوراً ثقافة الانحلال الغربي من مناهجه وثقافته المستوردة التي لا تمت إلى الأخلاق بصلة. وذلك عملاً بوصية لويس التاسع ملك فرنسا عند هزيمة حملته الصليبية قائلاً: "إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا تقاتلوهم بالسلاح وحده - فقد هُزمت أمامهم في معركة السلاح- ولكن حاربوهم في عقيدتهم فهي مكن القوة فيهم"، ولقد وعى قومه هذه النصيحة فبدأوا بالغزو الفكري، وسخروا جهودهم من أجل تفرغ هذه الحضارة من محتواها، وامتصاص ما فيها من مصادر القوة والإيمان، وذلك عن طريق: "صبغ الثقافة الإسلامية بصبغة غربية، وإخراجها عن طابعها الإسلامي الخالص، واحتوائها على نحو يجعلها تفقد ذاتها وكيانها"^٢.

ذلك أن أخطر ما يخشاه الكفار اليوم أن ترجع الأمة الإسلامية كما كانت، رائدة الحضارة البشرية بشئ من مناجيها؛ فتضافرت جهودهم، وتشابكت أيديهم لكسر شوكة المسلمين، وأزاحت الأمة الإسلامية عن موقعها بين الحضارات الأخرى، فأصبحت مُعظَم شعوبها بالشلل الفكري، والانحزام، وضعف الإرادة، وخور العزيمة؛ فكان التحلُّف المادي والحضاري نتيجة هذه هجمة شرسة على ثوابت الأمة؛ سواءً أكانت أصولاً عقديّة، أم أخلاقية سلوكية، أم سياسية واقتصادية.

بالتالي فإننا بحاجة إلى أن نذكر أبناء أمتنا الإسلامية، بمجد أجدادهم، وإرثهم العظيم، حتى نحفزهم على حذو السلف، ونؤكد لهم أن هذه الأمة التي بزغت فيها شمس الإسلام، حتى عمت حضارتهم من الأندلس غرباً إلى الصين شرقاً، قد غربت وأمتطى ركب حضارتها أقوام آخريين تنكروا لصنيع سلفهم في ركب الحضارة من العلماء والفلاسفة والفقهاء العرب والمسلمين، وجردهم من كل القيم الفاضلة، وهو افتراء مقصود مبرمج من ورائه هدم الإسلام وقيمه العليا، لما له من الصلة المتينة بهوية الأمة الإسلامية؛ ذلك لأن هدم قيم الإسلام من أخطر الحركات، وأهم الموضوعات التي تشغل هموم أبناء الأمة الإسلامية فرادى وجماعات، وتمس حياتهم واستقرارهم مساً جوهرياً.

المبحث الثاني: تحيين الشباب بالكتاب والسنة

تعددت الآيات القرآنية التي تدل دلالة قاطعة على أنّ الله سبحانه وتعالى قد نهي عن طاعة الكافرين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]. وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ﴾، [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِن أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ

^١ محمد قطب، واقعا المعاصر، ص ١٩٦.

^٢ أنور الجندي، شبهات التغريب، ص ٣٦.

يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ... ﴿[الأنعام: ١١٦]﴾. وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءُوبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

بل لقد نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم أمورهم، وأهم أعمالهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنَتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]. ومن هنا يتبين لنا حرمة تولية الكفار لأعمال المسلمين التي يتمكنون بواسطتها من الاطلاع على أحوال المسلمين وأسرارهم، ويكيدون لهم بإلحاق الضرر بهم.

وإدراكاً لخطورة التشبه بالكفار وتقليدهم، وخطر ذلك على عقيدتهم وأخلاقهم، فقد نهى النبي ﷺ من بداية الدعوة عن التشبه بالكفار لما له من آثار سلبية على الأمة الإسلامية، فقال ﷺ: «مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^١ وقد فسر هذا الحديث الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- فقال: "ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد، والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم وعاداتهم، وغير ذلك من أمورهم"^٢ كحلق اللحية، وإطالة الشوارب، والرطانة بلغتهم إلا عند الحاجة، وفي هيئة اللباس، والأكل والشرب، وهو ما أكدته أيضاً سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين التي أجمع الفقهاء عليها بمخالفتهم وترك التشبه بهم، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْيَهُودَ لَا يَصْبِغُونَ فِخَالِقُهُمْ»^٣، وقال أيضاً: «خَالِقُوا الْمُشْرِكِينَ؛ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَوْفِرُوا اللَّحْيَ»^٤.

والجدير بالذكر أن الإسلام لم يَنْهَنَا عن شيءٍ من خصائص الكفار إلا عَوْضَنَا خيراً منه؛ وهو ما يوضحه الإمام ابن القيم بقوله: "فَعَوْضُ عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَذَانِ عَنِ النَّاقُوسِ وَالطَّنْبُورِ، كَمَا عَوْضَهُمْ دُعَاءُ الاسْتِخَارَةِ عَنِ الاسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ، وَعَوْضَهُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَنِ السَّبْتِ وَالْأَحَدِ، وَعَوْضَهُمُ الْجِهَادَ عَنِ السِّيَاحَةِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ، وَعَوْضَهُمُ بَعِيدَ الْفِطْرِ وَالنَّحْرِ عَنِ أَعْيَادِ الْمُشْرِكِينَ، وَعَوْضَهُمُ بِالْمَسَاجِدِ عَنِ الْكِنَائِسِ وَالْبَيْعِ وَالْمَشَاهِدِ، وَعَوْضَهُمُ بِمَا سَنَّهُ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ عَنِ كُلِّ بَدْعَةٍ وَضَالَلَةٍ"^٥.

رغم أن شرعنا الحنيف سمح بدخول وإقامة الكفار في سائر الديار الإسلامية كأهل الذمة، أو المستأمنين، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

^١ أخرجه أبو داود في السنن مع عون المعبود، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، ج ١١، ص ٧٤، رقم ٤٠١٢.

^٢ ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج ١، ص ١٤٨.

^٣ أخرجه البخاري، الصحيح مع فتح الباري، ج ٢، ص ٣٧؛ ومسلم، الصحيح بشرح النووي، ج ٣، ص ١٣٠.

^٤ أخرجه البخاري، الصحيح مع فتح الباري، كتاب اللباس، باب تقليم الأظفار، ج ١٠، ص ٣٦١، رقم ٥٨٩٢؛ ومسلم، الصحيح بشرح النووي، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، ج ٣، ص ١٥١، رقم ٢٦٠ واللفظ له.

^٥ ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ج ٢، ص ٧١٨.

إلا أنه منعهم من الإساءة لشعائر الإسلام، ولرسوله بإهانةٍ أو طعن، أو تحريف أو تكذيب، ومنعهم عن كل ما فيه ضررٌ للمسلمين في دينهم وديناهم؛ كالتظاهر بالمنكرات التي يستحلونها وأقروا عليها بموجب عقد الذمة أو الأمان، وكما قد يغري بعض شباب المسلمين بتناوله تشبُّهًا بالكفار.

من هنا فإن شرعنا الحنيف اهتم بقضية التشبُّه بالكفار، ونهى عن موالاتهم، وحرّم التشبه بكل ما هو من خصائصهم، ومن عاداتهم وعبادتهم وسمتهم وأخلاقهم. فقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لاشك أن هذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى حرم إقامة المسلم بين الكفار وفي بلادهم إذا كان يستطيع الهجرة إلى غيرها من بلاد المسلمين، ولم يمنح العذر، إلا للمستضعفين الذين لا يستطيعون الهجرة، أو من كان في إقامته مصلحة دينية كالدعوة إلى الله ونشر الإسلام في بلادهم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا* إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا* فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

يتضح من خلال هذه الآيات وغيرها أن الله سبحانه وتعالى قد شرع تدايير لتكوين شخصية المسلم، الشخصية التي تعتد بنفسها، وتعتز بدينها، وتنتمي إلى أمّتها بمشاعرها وأحاسيسها، كما شرع من التدايير ما يتكفل بصيانة هذه الشخصية -بعد تكوينها- من الانصياع والدوبان، والتأثر بالكفار، فأوجب على المسلمين مفاصلة الكفار في المشاعر والعواطف طبقاً لمبدأ الموااة في الله والمعادة في الله؛ لأنّ ذلك أعمون على مجانبة الكفار^١؛ لأنّه يحول دون الركون إليهم وموادّتهم، فضلاً عن التشبُّه بهم، كما أوجب على المسلمين مخالفة الكفار في المظاهر والأشكال؛ لأنّ الموافقة في ذلك ذريعة إلى الموافقة في المقاصد والأعمال^٢.

والجدير بالذكر أن نهي النبي ﷺ عن أماكن الفتن جاء مطابقاً لنهي الله سبحانه وتعالى، فحذر من السفر والعيش في بلاد الكفار لغير حاجة، وعندما تكون الحاجة والضرورة للسفر؛ كالعلاج والتجارة والتعليم، فيجوز بقدر الحاجة. وامثالاً للنهي الوارد في الشريعة يجب أن نحذر شبابنا المسلم من الفتن التي يحتمل أن يواجهونها في أسفارهم، ونؤكد لهم أنه لا بد للمسافر أن يكون مظهرًا لدينه وبلاده، وأن يكون معتزًا بإسلامه، مبتعداً عن مواطن الشرّ، حذراً من دسائس الأعداء

^١ ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أهل الجحيم، ص ٨٠.

^٢ ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج ٣، ص ١٦٩.

ومكائدهم، ونناصحهم أنه لا نجاة لهم من تلك الفتن إلا بالتمسك بالكتاب والسنة لسلامة عقيدتهم، مصداقاً لقوله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي؛ فإنه من يعش منكم فسيري اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»^١، لقوله ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة نبيه»^٢.

لم يكتف النبي ﷺ لتحسين إيمان الشباب في إطار مواجهة التحديات العقائدية للشباب بالحث على التمسك بالكتب والسنة، وبالتحذير من أماكن الفتن، والتحذير من الخوض في الشبه، بل أضاف إلى ذلك حثهم على التحصن بالعمل الصالح، لما فيه من النفع الكبير لسلامة عقائدهم، وتجاوز التحديات التي تواجههم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال، فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»^٣.

نستنتج من هذا أن التشبه بالكفار يؤدي إلى ضعف الإيمان عند الشباب المسلم، وضعف الرابطة الدينيّة، وانحسار المفهوم الشامل للعبادة، وحصنها في أداء الشعائر التعبديّة فقط، وقيام حركات علميّة تدعو استيراد النظم والمناهج والنظريّات التربويّة الغربيّة إلى البلاد الإسلاميّة، وإلى تطوير المعاهد الإسلاميّة لتساير نمط التعليم الغربي؛ وهذا أدى بدوره إلى ظهور دعوات للارتقاء في أحضان الثقافة الغربيّة وحضارتهم المشبوهة، فضعت قيم الإسلاميّة الاخلاقية، ورحّحت الرذيلة عندهم على الفضيلة، فقامت دعوات مشبوهة في بعض الأقطار الإسلاميّة تُطالب بتحرير المرأة، وتدعو إلى نبذ الحجاب، ومنع الطلاق، ومُحاربة تعدّد الزوجات، والمطالبة بمُشاركة المرأة في الشُّؤون العامّة، ومساواتها بالرجل. وما هذه غلا حركات ماسونية لمحاربة الإسلام وأهّامه بالجمود والتعقيد، لإضعاف الدول الإسلاميّة، وتجزئتها إلى دُوِيّلات لا حول لها ولا قوّة.

المبحث الثالث: التحذير من تقليد الغرب

لاشك أن هناك هجمة شرسة غربية حاقدة على ثوابت الأمة، وما أكثر الثوابت المهتدة، سواءً أكانت أصولاً عقديّة؛ كالولاء، والبراء، أو أخلاقية سلوكية، أو اقتصادية تجارية، أو سياسية؛ وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

^١ أخرجه الترمذي في السنن، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتنب البدع، ج ٥، ص ٤٤ وقال: "حسن صحيح"؛ وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ج ١، ص ١٥، ١٦.

^٢ رواه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، النهي عن القول بالقدر، ص ٦٤٨، رقم ١٦١٩؛ والترمذي في السنن، كتاب المناقب، مناقب أهل بيت النبي ﷺ، ج ٥، ص ٦٦٣. وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي، ج ٣، ص ٢٢٦: "صحيح".

^٣ أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، ج ١، ص ١١٠.

ولا شك كذلك في أن تلك الهجمة الشرسة أثرت في بعض شبابنا المصاب بمشاشة الاعتقاد، فلا عجب أن تجد بعض هؤلاء الشباب المائع يوالي أعداء الله، يدعوا إلى الحداثة، والعولمة، التي رَوَّج لها دعاة الغرب وعملاؤهم؛ بالمقولات الرنانة، البراقة، لصالح الغرب واليهود، ومن ذلك: أنّ العولمة تبشر بالازدهار الاقتصادي، والتنمية، والرفاهية لكل الأمم. إلا أن هذه الدعوة جاءت مخيبة للآمال، وزائفة؛ فسرعان ما اكتشف الباحثون والمفكرون أن تلك المقولات ما هي إلا شعارات جوفاء استهلاكية؛ حيث يؤكد محمد حسن رسمي: "إنّ العولمة طوفان كاسح ونظام العولمة في حد ذاته يدعم الأقوياء، ويطحن الضعفاء، ويضحك الأ أصحاب، ويكي الضعفاء".^١

وحدّر منها رئيس وزراء ماليزيا الأسبق مهاتير محمد، في مؤتمر وزراء خارجية دول منظمة المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في كوالالمبور في السابع والعشرين من يونيو ٢٠٠٠م حين قال: "إن منظمة التجارة العالمية تسمح للدول الغنية بابتلاع الدول الفقيرة". بل وحدّر منها بعض القادة الغربيين، فقد جاء في كلمة للرئيس الفرنسي جاك شيراك التي ألقاها بمناسبة اليوم الوطني الفرنسي (١٤ يوليو ٢٠٠٠م)، ما يؤكد على المخاطر الجدية للعولمة لمقدرات الشعوب، حيث قال: "إنّ العولمة بحاجة إلى ضبط؛ لأنها تنتج شروخاً اجتماعية كبيرة، وإن كانت عامل تقدم فهي تثير أيضاً مخاطر جدية ينبغي التفكير فيها جيداً، ومن هذه المخاطر ثلاثة: أولها أنها تزيد ظاهرة الإقصاء الاجتماعي. وثانيها: أنها تنمي الجريمة العالمية. وثالثها: أنها تهدد أنظمتنا الاقتصادية".^٢

فاعلموا يا شباب أمتنا المحيدة، أن العولمة نظام يزيل الحواجز التي تقف حائلاً دون الثقافة الرأسمالية المادية، والغزو الفكري، الذي يستهدف تفتيت وحدة الأمة، وإثارة النعرات الطائفية، وإثارة الحروب والفتن داخل الدولة الواحدة. ليس هذا فحسب، بل تحاول إحداث تجزئة داخلية في كل قطر عربي أو بلد إسلامي، حتى ينشغلوا بأنفسهم، وينسوا تماماً أنهم أمة إسلامية واحدة، والله سبحانه وتعالى ينهانا عن ذلك في قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولاشك إن اليهود دعاة العولمة من أعظم أعداء الإسلام وأهله؛ والله سبحانه اعلم بهم حين قال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢]، وقد وصفهم الله سبحانه في كتابه بأنهم سماعون للكذب، أكالون للسحت، يأخذون الربا وقد نھوا عنه، قال تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

اعلموا يا شباب أمتنا الإسلامية؛ أن غاية اليهود والذين اشركوا من العولمة؛ لم تكن إلا بعثرة الشعوب المسلمة وتفرقتها، والقضاء على مقومات الوحدة والتضامن بينها، وتفرغ عقول أبناء الأمة الإسلامية من مضامينها الحقيقية حتى تبقى عاجزة عن تحقيق آمالها وأمانيتها، ولتصبح تلك العقول أداة طيعة في خدمة المخططات الاستعمارية الغربية.

^١ محمد حسن رسمي، مع العولمة، صحيفة الأهرام، ١٦/٠٩/٢٠٠١.

^٢ محمد السّمّاك، مستقبل الصحافة العربية في ظل العولمة، ص ٦٣.

اعلموا يا شباب أمتنا الإسلامية؛ أن غاية اليهود المثلى إشاعة ما يسمى بأدب وثقافة الجنس التي حرمها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الرِّئَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] لما يترتب على ذلك من انتشار الرذيلة والجريمة والعنف في المجتمعات الإنسانية.

فالعولمة التي نادى بها الغرب المسيحي، لاشك أنها تجيز الشذوذ الجنسي والعلاقات الجنسية الآثمة بين الرجل والمرأة، بل بين الرجل والرجل. وقد وجدت أخيراً جماعات الشواذ جنسياً في كثير من البلدان العربية. وقد ساهم في هذا الجانب شبكات الاتصال الحديثة، والقنوات الفضائية، وبرامج الإعلانات والدعايات الغربية، وهي مصحوبة بالثقافة الجنسية التي تخدش الحياء والمروءة والكرامة الإنسانية.

اعلموا يا شباب أمتنا الإسلامية؛ أن التحديات الخطيرة الذي تواجهكم اليوم تكمن في خفايا طبي الكلمات البراقة الآتية: الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وانتشار الجمعيات الأهلية المدعومة غربياً، التي تقوم بمحاربة الهوية الثقافية الإسلامية، وإثارة الشبه والشكوك حول النظم والتشريعات الإسلامية، وخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين المرأة والرجل وقضايا المرأة المسلمة، وتطالب بعضها جهاراً نهاراً بالحكومات الإسلامية، بإصدار القوانين وفق مواثيق الأمم المتحدة المتعلقة بحقوق الإنسان بعيداً عن النظم والتشريعات الإسلامية؛ من أجل تنفيذ مخططاتهم لإخراج المرأة المسلمة من الأخلاق الإسلامية، وتمردها على أحكام الشريعة الربانية. فأنشئت الجمعيات والمنظمات الأهلية النسائية العلمانية، والاتفاقيات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، والمؤتمرات العالمية للتعليم والمرأة؛ وهو ما يوضحه عماد الدين خليل بقوله: "تسعى العولمة -النظام العالمي الجديد- إلى تعميم السياسات المتعلقة بالطفل، والمرأة، والأسرة، وكفالة حقوقهم في الظاهر، إلا أنّ الواقع -أو الغاية من ذلك- هو إفساد وتفكيك الأفراد واختراق وعيهم، وإفساد المرأة والمتاجرة بها، واستغلالها في الإثارة والإشباع الجنسي، وبالتالي إشاعة الفاحشة في المجتمع، وبالمقابل تعميم فكرة تحديد النسل، وتعقيم النساء، وتأمين هذه السياسات وتقنينها بواسطة المؤتمرات ذات العلاقة: (مؤتمر حقوق الطفل)، (مؤتمر المرأة في بكين)، (مؤتمر السكان)، وما تخرج به هذه المؤتمرات من قرارات وتوصيات واتفاقيات تأخذ صفة الدولية، ومن ثمّ الإلزامية في التنفيذ والتطبيق... وما تلبث آثار ذلك أن تبدو واضحة للعيان في الواقع الاجتماعي استسلاماً وسلبية فردية، وتفككاً أسرياً واجتماعياً، وإجباطات عامة، وشلل تام لدور المجتمع الذي تحول إلى قطيع مسير ومنقاد لشهوته وغرائزه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، متحللاً من أي التزامات أسرية واجتماعية، إلا في إطار ما يلي رغبته وشهواته وغرائزه"¹.

ولبيان هذا الجانب الخطير المدمر للحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي، نستعرض وثيقة مؤتمر الأمم المتحدة المسمى: المؤتمر الدولي للسكان والتنمية الذي عقد في القاهرة من ١٣/٥ سبتمبر عام ١٩٩٤م؛ حيث إن من الأمور التي ركزت عليها هذه الوثيقة تكمن في:

١- الفرد هو الأساس، ومصالحه ورغبته هي المعيار، لا الدين ولا الأمة، ولا العائلة، ولا التقاليد، ولا العرف. ومن حق

¹ عماد الدين خليل، تحديات النظام العالمي الجديد - شبكة المعلومات الدولية - موقع الإسلام على الطريق.

الفرد التخلص من القيود التي تفرض من جانب تلك الجهات.

٢- ممارسة الجنس دون أن تفترض وجود زواج، وعن ممارسة الجنس بين المراهقين دون أن تستهجنه، والمهم في نظر الوثيقة ألا تؤدي هذه الممارسة إلى الوقوع في الأمراض، والواجب توعية المراهقين وتقديم النصائح المتعلقة بممارسة الجنس ومنع الحمل، وتوفير منتهى السرية لهم، واحترام حقهم في الاحتفاظ بنشاطهم الجنسي سرّاً عن الجميع.

٣- استهجان الوثيقة للزواج المبكر لأنه يؤدي إلى زيادة معدل المواليد.

٤- لا تدين الوثيقة الإجهاض حتى ولو لم يكن ثمة خطر على صحة الأم، المهم أن يكون الإجهاض آمناً لا يهدد حياة الأم. "إنّ الإجهاض الذي تدعو إليه منظمة الأمم المتحدة من خلال مؤتمرها هذا، صلته وثيقة بالإباحية للجنس، المستقطبة للقيود والالتزامات، دونما شرع أو قواعد أمرة ضابطة، وعلينا الوعي بأنّ الحديث عن الإجهاض في هذا المؤتمر لم يكن حديثاً عن كونه حكماً، أو فتوى لحالة أو حالات معينة وإنّما كان الحديث عنه بحسبانه سياسة عامة، مما يعني أنّ الإجهاض بهذا المعنى إسناد للإباحية"^١.

٥- استهجنّت الوثيقة الأمومة المبكرة -دون أن تميز بين ما إذا كانت هذه الأمومة قد حدثت في نطاق الزواج الشرعي أم خارجه- لأنها في نظرها تزيد من معدلات النمو، وتقيّد المرأة من العمل والمساهمة في الإنتاج.

٦- استخدمت الوثيقة لفظ "قرنين" بدلاً من زوجين، فلفظ قرنين أكثر حياداً، لأنّه لا يفترض وجود رباط قانوني معين. وهذا الحياد يجعل الشذوذ الجنسي، والعلاقات الجنسية دون زواج أمراً جائزاً ومقبولاً.

٧- المساواة بين المرأة والرجل: تدعو الوثيقة إلى المساواة التامة بين الطرفين، وحثت المرأة على إلغاء الفوارق الطبيعية بينها وبين الرجل، ومن ذلك: اشتراك الرجل في الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال أسوة بالنساء، دون النظر إلى اختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الرجال والنساء.^٢

اعلموا يا شباب أمتنا الإسلامية أن أصل دين الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

اعلموا يا شباب أمتنا الإسلامية أن الإسلام عقيدة استعلاء، من أحص خصائصها أنها تبعث في نفس المؤمن بها إحساس العزة من غير كبر، وشعور الاطمئنان في غير تواكل. فما أحوج شباب أمتنا الإسلامية اليوم إلى من يرد عليهم إيمانهم بهذا الدين الذي يحملون اسمه ويجهلون كنهه، ويأخذونه بالورثة أكثر مما يتخذونه بالمعرفة، وإخراجها من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿... قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وما أحوجهم لمن يرد عليهم إيمانهم بأنفسهم، وثقتهم بعلمائهم، ورجاءهم في مستقبلهم؛ ويؤكد لهم أن الحضارة الإسلامية بعقيدتها، وشريعتهها، ونظام أخلاقها، وإنجازاتها التاريخية، هي النقيض الوحيد لما يعرف بفلسفة العولمة الغربية،

^١ الحسيني سلمان جاد، وثيقة مؤتمر السكان والتنمية، رؤية شرعية، ص ٧٢.

^٢ جلال أمين، العولمة، ص ١٣٣-١٣٨؛ والإسلام والعولمة، ص ١٢١؛ والحسيني سلمان جاد، مرجع سابق، ص ٥٥-٧٠.

ودينها، وأنظمتها، وقيمها الهابطة في هذه الدنيا التي نعيش فيها. ونؤكد لهم أنه مهما عقدوا من مؤتمرات، وندوات علمية، ونشروا من صحف، ومجلات؛ لن يضرؤكم ولن ينقصوا من دينكم شيئاً، وهو حفظ إلهي، قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذى وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُؤلُّوكُمْ الأذبارَ ثُمَّ لا يُنصرون﴾ [آل عمران: ١١١].

ولكن أخطر ما نخشاه اليوم على شباب أمتنا الإسلامية؛ هو التشكيك في المعتقدات الدينية وطمس المقدسات لدى الشعوب المسلمة لصالح الفكر المادي اللاديني الغربي، أو إحلال الفلسفة المادية الغربية محل العقيدة الإسلامية؛ فقد حاول أعداء الإسلام تغيير المناهج التربوية في الدول العربية لتحقيق الأهداف التالية:

أ- طمس روح العداء والكرهية تجاه اليهود، وتجفيف منابع ومصادر الصحة الإسلامية التي تحمل روح العداء لإسرائيل.
ب- الإقرار بوجود اليهود والسماح بتدفق الأفكار والأدبيات الإسرائيلية داخل العالم العربي وإيجاد علاقات إنسانية وطبيعية وتلقائية بين اليهود وشعوب المنطقة.

ج- تغريب وتغييب الإنسان المسلم، وعزله عن مجتمعه، والتشكيك في جميع قناعاته الدينية، وهويته الثقافية.

د- محاربة الجماعات الإسلامية الجهادية، والتخويف المستمر منها، وتشويه الجهاد الإسلامي، ونعته بالإرهاب.

النتائج:

١- أن تشبه المسلم بالغير من شأنه أن يؤدي إلى تلاشي شخصيته وذوبانها في شخصية المشبه به من الكفار؛ ولهذا كان من حكمة التشريع الإسلامي أن حرم على الشاب المسلم التشبه بالكفار في خصائصهم، وحذر منه؛ حرصاً على تمييز كيان الأمة الإسلامية ذاتيتها.

٢- أكد المشرع الإسلامي على ضرورة شحذ روح الاعتزاز بالنفس لدى شبابنا المسلم؛ لما له من آثار فعالة في تقوية إرادته وشد عزيمته، وجعله سباقاً في مواطن، ويتطلع إلى الإمامة وقيادة الآخرين، وجعله يعتز بنفسه، فأبى تبعية الآخرين والسير على خطاهم.

٣- أن المنهج الإسلامي لم يقتصر على تحصين شخصية الشاب المسلم من التأثر بالكفار، بل سعى أيضاً إلى تحصين البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها؛ منع دخول الكفار مطلقاً إلى الحرمين الشريفين؛ لما لهذه الأماكن من أهمية خاصة في قلوب المؤمنين، وسمح بدخولهم والاستيطان في سائر الديار الإسلامية الأخرى، سواء كانت إقامتهم إقامة مؤقتة كأهل الذمة، أو كانت إقامة مؤقتة كالمستأمنين، وذلك تلبية لمطالب الحياة البشرية القائمة على التعاون وتبادل المنافع، وطبقاً لطبيعة دين الإسلام الدعوية التي تقتضي التعلُّل بين الأمم والشعوب الأخرى لإبلاغ دعوة الإسلام إليها.

٤- أن الشرع الإسلامي أجاز للمسلمين في حالة السلم التعامل مع الكفار جملةً وفي غير مجال العبادات التي تفتقر إلى النية، وذلك بثلاثة شروط وضوابط: ألا يترتب على التعامل بين المسلم والكافر مذلة المسلم. ألا يؤدي التعامل إلى ولاية الكافر على المسلم. ألا يكون التعامل فيها موالة للكافر، ولا تشبه به.

التوصيات:

يُوصي الباحث بما يأتي:

- ١- مواصلة البحث والدراسة في تسليح الشباب المسلم لمواجهة التحديات المعاصرة من خلال اتباع المنهج الإسلامي في بناء روح الاعتزاز بالنفس لدى المسلم.
- ٢- ومواصلة البحث والدراسة في مجال التأصيل والتوجيه الإسلامي للعلوم والآداب وإقامتها على نهج الإسلام المعتدل؛ لأنّ ذلك هو السبيل الوحيد للوصول إلى تحطيم قيود التبعية الفكرية والثقافية الموجهة إلى أبناء الشعوب الإسلامية.
- ٣- ضرورة دعم مراكز البحوث في الدول الإسلامية، وتوثيق العلاقات العلمية بين جامعات الدول الإسلامية للوصول إلى التكامل العلمي والثقافي في التخصصات التي يحتاج إليها المسلمون.

المصادر و المراجع:

١. ابن القيم، أعلام الموقعين عن رب العالمين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م).
٢. ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أهل الجحيم، تحقيق ناصر عبدالكريم العقل، (ط١، ١٤٠٤هـ).
٣. ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، السنن، (إسطنبول: المكتبة الإسلامية د-ت).
٤. الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن أبي داود، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ).
٥. الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن الترمذي، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٨هـ).
٦. أنور الجندي، شبهات التغريب، (القاهرة: دار الاعتصام للطباعة والنشر، ١٩٨٨م).
٧. البخاري، محمد بن إسماعيل، الصحيح، (القاهرة: المطبعة السلفية، ط١، ١٤٠٠هـ).
٨. جلال أمين، العولمة، (القاهرة: دار المعارف سلسلة أقرأ، ١٩٩٨م).
٩. الحسيني سلمان جاد، وثيقة مؤتمر السكان والتنمية، رؤية شرعية، كتاب الأمة عدد ٥٣، السنة السادسة- جمادى الأولى ١٤١٧هـ.
١٠. شوقي أبو خليل، فيليب حتي، (بيروت: دار الفكر المعاصر، ط١، ١٩٨٥م).
١١. عماد الدين خليل، تحديات النظام العالمي الجديد، شبكة المعلومات الدولية-موقع الإسلام على الطريق.
١٢. محمد السمّك، مستقبل الصحافة العربية في ظل العولمة، (لندن: مجلة الحوادث، عدد ٢٣١٠، ٢٠٠١/٣/٩).
١٣. محمد حسن رسمي، مع العولمة، (صحيفة الأهرام ٢٠٠١م/٩/١٦).
١٤. محمد قطب، واقعنا المعاصر، (مؤسسة المدينة للصحافة. الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ).
١٥. مسلم بن الحجاج النيسابوري، الصحيح، (الرياض: إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٠هـ).
١٦. النووي: محيي الدين يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، (بيروت: دار إحياء التراث، د-ت).

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في توجيه الشباب

د. محمد عادل خان^١

ملخص البحث:

يحاول هذا البحث بيان منهج رسول الله ﷺ في تربية الشباب في زمانه المبارك؛ لأن الشباب قوة قاهرة لكل المجتمع، وهم المحرك الفعال في كل مكان وزمان، لذلك نرى رسول الله ﷺ يعلمهم ويربيهم مع كل أهمية واهتمام، والشباب كذلك يجبون مجالس رسول الله ﷺ، ويلازمونها ليلاً ونهاراً لتربيتهم علي المنهج المعتدل المتوازن، ونحن اليوم في حاجة ماسة إلى مثل هذا المنهج القويم.

معنى الشباب:

قال الإمام الثعالبي في فقه اللغة: "إن الشباب جمع شاب، وهو ما بين الثلاثين والأربعين^٢، ولنعم ما قيل: "إن الشباب ليس في قدرة الجسد ولا في قوة الشهوة، وإنما الشباب في صلابة العزيمة وحماسة الروح". وهذه الجملة تستحق أن تكتب بماء الذهب، فإنها لم يقيد الشباب بحد من العمر، ولم تعني القوى الجسمية، بل اعتبرت الشباب من الحيثية المعنوية بأنه قوة روحية ونشاط فكري، والصلابة والعزيمة.

اهتمام الإسلام بالشباب:

والتاريخ الإسلامي مليء ببطولات شيوخ كبار، كانوا يحملون همم الشبان وصلابتهم، فالشباب إذا لم يحمل قوة في الروح ونشاطاً وحماساً في العمل كان بمثابة عضو معطل في الجسد.

ولقد اختار الله أنصار الأنبياء شباباً، لأنهم أتقى قلباً، وأصدق مثلاً، وأنقى سلوكاً، ومن هنا كان الإسلام قد اهتم بالشباب، وكانت عنايته به كبيرة، فقد ورد في تاريخ الخليفة الخياط أن أبا حمزة الشاري يوم أن وصل مكة المكرمة ومعه جيشه، وقف أهل مكة في وجهه وقالوا له: "هؤلاء أصحابك من الشباب"، فقال لهم: "تعيروني بأصحابي، وتزعمون أنهم شباب، نعم والله شباب، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً؟ هم والله شباب مكتملون، عمية عن الباطل أعينهم، ثقيلة إلى الشر أرجلهم"، وظل أبو حمزة يعدد لهم محاسن وفضائل أصحابه وعلاقتهم بالله وكتابه وسنة^٣.

الشباب هم مستقبل الأمة المنير:

الشباب هم سلام، ترتقي بها الأمة إلى الرقي والازدهار، هم أساس الدين وبنائه القيم، يبنى عليه قصر الإسلام ويشاد حصنه، هم قادة الغد وأمل المستقبل المنير المستضيء، ورمز حضارة وتمدن، وسر مجده وشرف وكرامة، لقد اهتم الإسلام اهتماماً

^١ الأستاذ المساعد في قسم الدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. dradil@iiium.edu.my

^٢ الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ص ٧٨.

^٣ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ج ١، ص ٣٢٥.

بالغابوتوجيههم السديد وتربيتهم والرفق بهم في التعليم، يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: «أوصيكم بالشباب خيراً، فإنهم أرق أفئدة، ألا وإن الله بعثني بالحنيفية السمحة، فحالفني الشباب وحالفني الشيوخ». وقال عليه الصلاة والسلام: «اغتنم خمسا قبل خمس؛ شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل مرضك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك»^١، وأهل الجنة لا يدخلونها إلا وهم شباب، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «أهل الجنة شباب مرد كحل، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم»^٢.

ثناء القرآن على الشباب المحافظين على دينهم:

ويذكر القرآن قصة شعبة مؤمنين، الذين آووا إلى الكهف، حفاظاً على إيمانهم واستقامتهم على طريق الهدى والحق، حيث قال جلّ وعلا: ﴿إِذْ هُمْ نِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزَدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣-١٤]، وكان الآية تجبّد هؤلاء الفتية على إيمانهم بالله في عهد الفتوة، أو كأنها من جهة مظهر لأسلوب القرآن الكريم، على أنه لم يهمل جانب الثناء على الشباب والفتية إذا استقاموا على طريق الحق، وغادروا مواطن الفتن، حفاظاً على إيمانهم وعقيدتهم.

قد تربى في أحضان النبي عليه الصلاة والسلام جيل مؤمن وملتزم بمفاهيم وقيم الإسلام، والغالب في هذا الجيل كان شريحة الشباب. فهم أسرع الناس استجابةً وتأثراً، وأكثرهم تفاعلاً مع كل جديد وحديث. وكان للشباب دورٌ رئيسي في الملازمة بمجالس الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ودعم ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، والدعوة إليه، والذود عن حماه، كما كانت للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم عناية بالغة برعاية الشباب وتربيتهم وتجهيزهم للخوض في غمار المعارك وتحمل المسؤوليات الضخمة.

ونريد هنا أن نلقي نظرة عابرة على تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع الشباب على أنه كيف كان يرثيهم على النهج المعتدل المتوازن.

تربية النبي صلى الله عليه وسلم الشباب بالتوازن بين العقل والعاطفة والروح والجسد:

إن النبي صلى الله عليه وسلم ربّى الشباب على التربية المعتدلة بين عاطفتهم وعقلهم، وروحهم وجسدهم، وعلمهم وعملهم. وهذا التوازن الدقيق هو المنهج السليم في التربية، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقف ضد كل توجيه خارج عن الاعتدال والوسطية، أو تفكير خاطئ، أو ممارسة سلبية.

من ذلك ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس للناس ووصف يوم القيامة، ولم يزداهم على التخويف، فرقّ الناس وبكوا، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون، واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل، ولا يقربوا النساء ولا الطيب، ويلبسوا المسوح^٣، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا في الأرض، ويترهبوا ويخصوا المذاكير، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه

^١ المتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأعمال، ج ١٥، ص ٨٧٩.

^٢ أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة الجنة، باب ما في صفة ثياب أهل الجنة، رقم ٢٥٤٢.

^٣ المسح بكسر الميم وسكون السين: الثوب من الشعر. والجمع: مسوح.

وسلم، فأتى منزل عثمان فلم يجده، فقال لامرأته: «أحق ما بلغني؟»، فكرهت أن يكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تبتدئ على زوجها فقالت: "يا رسول الله! إن كان أخبرك عثمان فقد صدقك"، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتى عثمان منزله فأخبرته زوجته بذلك، فأتى هو وأصحابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «ألم أنبأ أنكم اتفقتم؟»، فقالوا: "ما أردنا إلا الخير"، فقال صلى الله عليه وسلم: «إني لم أؤمر بذلك»، ثم قال: «إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أصوم وأفطر، و أقوم وأنام، و أكل اللحم والدسم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، ثم جمع الناس وخطبهم، وقال: «ما بال قوم حرموا النساء والطيب والنوم وشهوات الدنيا! وأما أنا فلست آمركم أن تكونوا قسسة ورهبانا، إنه ليس في ديني ترك النساء واللحم، واتخاذ الصوامع، إن سياحة أمتي في الصوم، ورهبانيتها الجهاد، وعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وحجوا واعمروا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا شهر رمضان، واستقيموا يستقم لكم، فإنما هلك من قبلكم بالثشديد، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديارات^١ والصوامع^٢».

هذه الرواية تدلّ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحثّ أصحابه بالجمع بين الدين والدنيا وينهاهم عن الانصراف عن الدنيا وترك الطيبات من المأكّل والمشرب والمنكح والمسكن.

رفق النبي صلى الله عليه وسلم بالشباب:

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعاشر الشباب برفق، ويعاملهم بلين، وذلك مما جعل قلوب الشباب تهوي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد مدح القرآن الكريم تعامل النبي صلى الله عليه وسلم، مع الناس باللين والرفق، يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩-١٦٠].

وكان يلقن أصحابه بلين ورفق وقال: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنَزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»^٣. وقال أيضاً: «إياكم والتعمق في الدين، فإن الله قد جعله سهلاً، فخذوا منه ما تطبقون، فإن الله يحب ما دام من عمل صالح، وإن كان يسيراً»^٤. وقال: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»^٥.

^١ الديارات: جمع دير، وهو معبد النصراني.

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ١٠، ص ٥١٢.

^٣ رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، برقم ٢٥٩٣؛ وأبو داود في سننه، الجهاد، باب ما جاء في الهجرة برقم ٢٤٧٨.

^٤ ابن بشران البغدادي، أمالي ابن بشران، ج ١، ص ٤٩، وانظر أيضاً: المتقي الهندي، كنز العمال، ص ٣٥، برقم ٥٣٥٢.

^٥ رواه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذاعرض الدمى وغيره بسب النبي ﷺ ولم يصرح، برقم ٦٩٢٧؛ ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، برقم ٢٥٩٣.

والذي يتصفح كتب سيرة النبي ﷺ يجد أمثلة كثيرة تدل على رفقه صلى الله عليه وسلم بالشباب، وإيكم من ذلك نبذة:

روى الترمذي وأبوداود وابن ماجه عن سلمة بن صخر البياضي رضي الله عنه قال: "كنت رجلاً قد أُوتيتُ من جماع النساء ما لم يُوتَ غيري، فلما دخل رمضان تظاهرتُ من امرأتي حتى يَنْسَلِخَ رمضان، فَرَقاً من أن أُصِيبَ منها في ليلي، فأَتَابَع في ذلك إلى أن يُدْرِكَنِي النهار، وأنا لا أقدر أن أنزِعَ، فبينما هي تُخَدِمُنِي ذاتَ ليلة، إذ تَكْشَفَ منها شيء، فوثبتُ عليها، فلما أصبحتُ غدوت على قومي، فأخبرتهم خبري، فقلت: "انطلقوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بأمرِي"، فقالوا: "لا والله، لا نفعل، نَتَخَوَّفُ أن ينزل فينا قرآن، أو يقول فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَقَالَةَ يَبْقَى علينا عازها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك"، قال: "فخرجت، فأتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته خبري، فقال: «أنتَ بذاك؟» قلت: "أنا بذاك"، قال: «أنتَ بذاك؟» قلت: "أنا بذاك"، قال: «أنتَ بذاك؟» قلت: "أنا بذاك، وها أنذا، فأَمْضِ في حكم الله، فإني صابر لذلك"، قال: «أَعْتِق رِقَبَةً»، قال: فضربتُ صفحةً عُقِّي بيدي، فقلت: والذي بعثك بالحق نبياً، ما أَصْبَحْتُ أملك غيرها، قال: «فَصُمْ شهرين»، قلت: يا رسول الله! وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام، قال: «فأطعمم ستين مسكيناً»، قلت: والذي بعثك بالحق، لقد بَتْنَا لَيْلَتَنَا هذه وَحْشَى، ما لنا عشاء، قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق، فقل له فليدفعها إليك، فأطعمم عنك منها وسقاً ستين مسكيناً، ثم اسْتَعِنْ بساتره عليك وعلى عيالك»، قال: "فرجعتُ إلى قومي، فقلت: "وجدتُ عندكم الصِّيْقَ وسوءَ الرأي، ووجدتُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم السَّعَةَ والبركة، وأمر لي بصدقتكم، فادْفَعُوهَا إليّ، فدفعوها إليّ"¹.

وقد روى معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه فقال: "بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: "يرحمك الله"، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: "واشكَلُ أميَّاه، ما شأنكم تنظرون إليّ؟"، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم. فلما رأيتهم يُصَمِّتُونِي، لكني سكتُ فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمِّي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرتني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»².

قال الإمام النووي تعليقاً على هذا الحديث الشريف: "فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به ورفقه بالجاهل وأفته بأمته وشفقته عليهم، وفيه التحلُّقُ بخلقه ﷺ في الرِّفْقِ بالجاهل وحسن تعليمه واللُّطف به وتقريب الصَّواب إلى فهمه"³.

وروى مالك بن الحويرث رضي الله عنه، قال: "أتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ونحن شبَّبةٌ مُتقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلةً، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رحيماً رقيقاً، وظنُّنا أنَّنا قد اشتقنا أهلنا، فسألنا عَمَّنْ تركنا من أهلنا؟

¹ رواه أبو داود في الطلاق، باب في الظهار، برقم ٢٢١٣؛ والترمذي في الطلاق، باب ما جاء في كفارة الظهار، برقم ١٢٠٠.

² أخرجه مسلم في كتاب الصلاة باب تحريم الكلام في الصلاة، برقم ٣٦٩٠.

³ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ٥، ص ٢٠.

فأخبرناه، فقال: «ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلموهم ومروهم فليصلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلاة كذا في حين كذا، وإذا حضرت الصلاة فليؤدّن لكم أحدكم، وليؤمّكم أكبركم». وللبخاري «وصلوا كما رأيتوني أصلي»^١.

تعليم النبي صلى الله عليه وسلم الشباب بالتدرّج في الأحكام والشرائع:

قال العلامة أبو فتّاح أبو غدة: "ومن دأبه عليه السلام في ثانيا تعليم الشباب أنه كان يراعي التدرّج، فكان يقدّم الأهم فالأهم، ويعلم شيئاً فشيئاً، نجماً نجماً، ليكون أقرب تناولاً، وأثبت على الفؤاد حفظاً وفهماً"^٢.

وروى ابن ماجه عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَحْنُ فِتْيَانُ حِزَاوَرَةَ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا"^٣.

وروى البخاري ومسلم، واللفظ له، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا فُخِّذَ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^٤.

قال العلامة عبد الفتّاح أبو غدة: "ومن فوائد هذا الحديث الكثيرة:

البدء بالأهم فالأهم في الدعوة والتعليم، إذ المطالبة بجميع الشرائع مرة واحدة توجب التنفير، وكذا إلقاء جميع العلوم على المتعلم دفعة واحدة يؤدي إلى تضييع الكل.

قال الإمام البخاري في صحيحه: "يقال "الرباني" الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره"^٥.

وقال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري": "المراد بصغار العلم ما وَضَحَ مِنْ مَسَائِلِهِ، وَبِكِبَارِهِ مَا دَقَّ مِنْهَا، وَقِيلَ: يَعْلَمُهُمْ جَزَائِيَّاتِهِ قَبْلَ كَلِّيَّاتِهِ أَوْ فُرُوعِهِ قَبْلَ أَصُولِهِ أَوْ مَقْدَمَاتِهِ قَبْلَ مَقَاصِدِهِ"^٦.

وروى ابن عبد البر عن يونس ابن يزيد قال: "قال لي ابن شهاب: "يا يونس! لا تُكَايِرِ الْعِلْمَ فَإِنَّ الْعِلْمَ أَوْدِيَةٌ، فَأُيِّهَا أَخَذْتَ فِيهِ قَطْعَ بَكَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ، وَلَكِنْ خُذْهُ مَعَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ جُمْلَةً، فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً، وَلَكِنْ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ مَعَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي"^٧.

^١ رواه البخاري في الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، برقم ٦٠٠٨؛ ومسلم، في المساجد، باب من أحق بالإمامة برقم ٦٧٤.

^٢ أبو غدة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٧٧.

^٣ وأبو غدة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٧٧.

^٤ رواه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، برقم ٤٣٤٧؛ ومسلم في الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، برقم ١٩.

^٥ البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، ص ١٧.

^٦ ابن حجر، فتح الباري، ج ١، ص ١٦٢.

^٧ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج ١، ص ٣١. وانظر أيضاً: أبو غدة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٧٧.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن محمد بن فضيل، عن عطاء، عن أبي عبد الرحمن قال: "حدثنا من كان يُقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أنهم كانوا يقترون من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: "فعلمنا العلم والعمل"^١.

رعاية النبي صلى الله عليه وسلم في التربية بما يلائم منزلة الشباب:

وكان صلى الله عليه وسلم يراعي الفروق الفردية بين المتعلمين من الشباب، وكان يخاطب كل واحد بقدر عقله وفهمه وبما يهّمه ويُناسب منزلته، كما أفاده الإمام عبد الفتاح أبو غدة^٢.

روى أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ -وهو رديفه على الرّحل-: «يا معاذ»، قال: "ليبيك يا رسول الله وسعديك"، قال: «يا معاذ!»، قال: "ليبيك يا رسول الله وسعديك"، قال: «يا معاذ»، قال: "ليبيك يا رسول الله وسعديك"، قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صادقاً من قلبه إلا حَرّمه الله على النار»، قال: "يا رسول الله، أفلا أُخبر به النَّاس فيستبشرون؟"، قال: «لا، إِذَا يَتَكَلَّمُوا»^٣.

"وهذا الحديث أصلٌ عظيمٌ في باب التعليم، أن يراعي المعلم مقدار عقل الطالب وفهمه، فيعطيه ما يتحمّله عقله، ويمسك عنه ما وراء ذلك.

قال الإمام الغزالي في "إحياء علوم الدين": "من وظائف المعلم أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يجذب عليه عقله، اقتداءً في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم، حيث قال: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلّمهم على قدر عقولهم، فليث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها»، وقال صلى الله عليه وسلم: «ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم». ولا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد، هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه، ولذلك قيل: "كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه"، حتى تسلم منه ويتنفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار"^٤.

"وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَوَتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمْ﴾ تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق. المتعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق، بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم

^١ أحمد بن حنبل، المسند، ج ٣٨، ص ٤٤٦، رقم ٢٣٤٨٢. وانظر أيضاً: أبو غدة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٧٨.

^٢ أبو غدة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٨١.

^٣ رواه البخاري في التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ لأُمَّته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، برقم ٧٣٧١؛ ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، برقم ٢٦٤٥. وانظر أيضاً: أبو غدة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٨١.

^٤ أبو غدة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٨٣. وانظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٥٧.

الأمانة في الصناعات التي هم بصدددها ويملاً قلوبهم من الرغبة والرغبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبهة فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك^١.

وروى عبد الله بن عمرو، قال: كنا عند النبي ﷺ، فجاء شاب فقال: "يا رسول الله، أقبل وأنا صائم؟" قال: «لا»، فجاء شيخ فقال: "أقبل وأنا صائم؟" قال: «نعم»، قال: فنظر بعضنا إلى بعض، فقال رسول الله ﷺ: «قد علمت لم نظر بعضكم إلى بعض، إن الشيخ يملك نفسه»^٢.

وكان غرضه ﷺ أن الشيخ قلما يفضي به التقبيل بالوقوع في الجماع حتى يفسد صومه، والشباب أحياناً التقبيل يوجب عليه الجماع فيتسبب ذلك إلى إفساد صومه، لذلك أجاز النبي صلى الله عليه وسلم التقبيل للشيخ ونهى عنه الشاب في حالة الصوم.

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه: "أن رجلاً قال: "يا رسول الله! إن أبواب الخير كثيرة، ولا أستطيع القيام بكُلِّها، فأخبرني بشيء أتشبَّت به، ولا تُكثِّر عليَّ فأنسى" - وفي رواية: "إن شرائع الإسلام قد كثُرت، وأنا قد كُثِرْتُ، فأخبرني بشيء أتشبَّت به، ولا تُكثِّر عليَّ فأنسى" - قال: «لا يزال لسائلك رطباً بذكر الله تعالى»^٣.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟" قال: «الصلاة لميقاتها»، قلت: "ثم أيُّ؟" قال: «بِرِّ الوالدين»، قلت: "ثم أيُّ؟" قال: «الجهاد في سبيل الله»، قال: "حدَّثني بهنَّ، ولو استزدته لزداني"^٤.

تعليمه صلى الله عليه وسلم بالمحادثة:

ويرى المطلع على سيرة محمد العربي صلى الله عليه وسلم أنه كان يختار طريق المحادثة والسؤال والاستجواب ليستأصل جذور الباطل من نفس المخاطب الذي يستحسنه. في ذلك ما رواه أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله! ائذن لي بالزنا"، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: "مه، مه"، فقال: «ادنه»، فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: «أتحبُّه لأمك؟» قال: «لا»، والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا النَّاس يحبُّونه لأُمَّهاتهم»، قال: «أفتحبُّه لابنتك؟» قال: «لا»، والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: «ولا النَّاس يحبُّونه لبَناتهم»، قال: «أفتحبُّه لأختك؟» قال: «لا»، والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا النَّاس يحبُّونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبُّه لعمَّتك؟» قال: «لا»، والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا النَّاس يحبُّونه لعمَّاتهم»، قال: «أفتحبُّه لخالتك؟» قال: «لا»، والله جعلني الله فداءك، قال: «ولا النَّاس

^١ أبوغدة، العلامة الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٨٤. وانظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٥٨.

^٢ أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٦٧٣٨. وانظر أيضاً: أبوغدة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ٨٥.

^٣ أخرجه الترمذي في الدعوات، باب فضل الذكر، رقم ٣٣٧٢.

^٤ أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم ٥٢٧؛ ومسلم في الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم ٨٥؛ والترمذي في البر والصلة، رقم ١٨٩٩.

يُحِبُّونَهُ لِحَالَتِهِمْ»، قال: "فوضع يده عليه وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»، قال: "فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء"^١.

يقول عبد الفتاح أبوغدة رحمه الله: "فانظر، كيف استأصل النبي صلى الله عليه وسلم من نفس الفتى تعلقه بالزنى، عن طريق المحادثة والمحكمة النفسية والموازنة العقلية، دون أن يذكر له الآيات الواردة في تحريم الزنى والوعيد للزاني والزانية، نظراً منه أن هذا أقلع للباطل - في ذلك الوقت - من قلب الشاب بحسب تصوّره وإدراكه، وفي هذا إرشادٌ للدعاة أن يلجؤوا إلى العقل في بعض الأحيان وبعض الناس إذا كانت الحال تستدعي ذلك، كحال هذا الشاب الذي طهّر النبي صلى الله عليه وسلم قلبه من الزنى بتلك المحكمة العقلية الهادية"^٢.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعني أنه لا يستبيح الزنا إلا من رضي أن يزني بأمه أو أخته أو عمته أو خالته، ثم عالج هذا الأمر بالزواج المبكر في حديث علقمة بن قيس حيث قال: "كنتُ أمشي مع عبد الله بن مسعود بنى، فلقيه عثمان، فقام معه يحدّثه، فقال له عثمان: "يا أبا عبد الرحمن! ألا نزوِّجك جاريةً شابةً، لعلها تذكرك بعض ما مضى من زمانك؟"، قال: فقال عبد الله: "لئن قلت ذلك لقد قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»"^٣. وفي رواية قال: «كُنَّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم شباباً لا نجد شيئاً، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج...»"^٤.

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في إثارة ذكاء المتعلمين:

وأحيانا كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل أصحابه عن أمر يعرفه هو بنفسه، وإنما يتساءلهم لإثارة ذكاءهم واختبار علمهم. وفي ذلك روى عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-: قال: "بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس، إذ أتني بجمارٍ نخلة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنَّ من الشجرِ شجرة لها بركةٌ كبركة المسلم، لا يسقط ورقها، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وإنها مثل المسلم، فحدّثوني ماهي؟»، فوقع الناس في شجر البوادي، فقال القوم: "هي شجرة كذا، هي شجرة كذا، ووقع في قلبي أنها النخلة، فجعلت أريد أن أقولها، فإذا أسنان القوم، فأهاب أن أتكلم وأنا غلام شاب، ثم التفتُ فإذا أنا عاشر عشرٍ، وأنا أحدثهم أصغر القوم، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فسكتُ، فلما لم يتكلموا قالوا: "حدثنا ما هي يا رسول الله؟"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هي النخلة»، فلما قمنا قلتُ لعمَرَ: "يا أبتاه، والله لقد كان وقع

^١ أخرجه أحمد في مسنده، برقم ٢٢٢١١.

^٢ أبوغدة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص ١٠١.

^٣ رواه البخاري في كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، برقم ١٩٠٥؛ ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، برقم ١٤٠٠.

^٤ أخرجه الترمذي، في النكاح، باب ما جاء في فضل التزويج والحث عليه، برقم ١٠٨١.

في نفسي أنها النخلة"، فقال: "ما منعك أن تتكلم؟"، فقال: "لم أركم تكلمون، فكرهت أن أتكلم، أو أقول شيئاً"، فقال عمر: "لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا".^١

إجابته صلى الله عليه وسلم عن أسئلة الشباب بما يثليج صدورهم:

كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقدمون عليه أنواعا من المسائل والشبهات لينالوا منه إجابة، فكان يجيب كل واحد عن سؤاله بما يثليج صدورهم.

وفي ذلك ما رواه أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه، قال: "قلت: يا نبي الله، إنا بأرض قوم أهل كتاب، أفأكل في آنتيهم؟ وبأرض صيد، أصيد بقوسي، وبكلي الذي ليس بمعلم، وبكلي المعلم، فما يصلح لي؟"، قال: «أما ما ذكرت من أنك بأرض أهل الكتاب، فلا تأكلوا في آنتيهم، إلا أن تجدوا بذا، فأغسلوها وكلوا فيها. وأما ما ذكرت من أنك بأرض صيد، فما صدت بقوسك فذكرت الله فكل، وما صدت بكلك المعلم فذكرت الله فكل، وما صدت بكلك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل».^٢

غضبه في التعليم:

وإذا تجاوز أحد من أصحابه في النقاش والبحث إلى ما لا ينبغي الخوض فيه، غضب صلى الله عليه وآله وسلم لأجله غضبة شديدة. وفي ذلك ما رواه عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما قال: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنا يفقا في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: «بهذا أمرتم، أو لهذا خلقتهم؟»، تضربون القرآن ببعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم»، قال: "فقال عبد الله بن عمرو: "ما غبطت نفسي بمجلس تخلف في فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفني عنه".^٣

وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر، فعضب، حتى احمر وجهه، حتى كأنما فقيء في وجنتيه الرمان، فقال: «أبهذا أمرتم؟»، أم «بهذا أرسلت إليكم؟»، إنما أهلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم، عزمت عليكم، أن لا تنازعوا فيه».^٤

واليوم عندما يتأمل الدعاة في واقع الشباب، يجدون أن هناك فجوات ومواطن خلل لديهم، لا بد من معالجتها وتسديدها، وفي معاملة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع الشباب والاختيار بطرق حكيمة في تعليمه صلى الله عليه وآله وسلم إياهم وإصلاح قلوبهم وتشجيعهم نماذج رائعة ودروس قيمة لدعاة اليوم، فشباب العصر الحاضر يهملون جانب العبادة،

^١ رواه البخاري في العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر...، برقم ٦٢؛ ومسلم في المناقن، باب مثل المؤمن مثل النخلة، برقم ٢٨١١.

^٢ رواه البخاري في الصيد، باب صيد القوس، برقم ٥٤٧٨؛ ومسلم في الصيد، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع...، برقم ١٩٣٢.

^٣ أخرجه ابن ماجه في سننه، في المقدمة، في باب القدر، برقم ٨٥.

^٤ أخرجه الترمذي في القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، برقم ٢١٣٤.

ويفرطون في حقوق الله وحقوق العباد، وضعفاء في العلم الشرعي، فالدعاة والمصلحون لو سلكوا طرق النقدي في إصلاح نفوسهم وإمالتها إلى الطاعات فرمما لا تغني من شيء، وتذهب محاولتهم سدى، فالكثير من الأهداف والمقاصد لا يرتجى تحقيقها بطريق النقد، بل بطريق غير طريق النقد. وللحديث عن أهمية الشيء أثر في النفوس، وذلك يشحذ الهمة على التأسى والاقتداء.

وفي ذلك ما رواه عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - قال: "كان الرجل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصّها على النبي صلى الله عليه وسلم، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصّها على النبي صلى الله عليه وسلم، وكنتُ غلاماً شاباً عزباً، أنام في المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيتُ في المنام كأنّ ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: "أعوذ بالله من النار"، - ولمسلم في أخرى: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، ثلاث مرّات-، فلقيهما ملك آخر، فقال لي: "لم تُرْعَ"، فقصصتها على حفصة، فقصصتها حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل»^١.

وعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: "استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن عنده، فبينما أحدهما يسب صاحبه مغضباً، قد احمرّ وجهه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد، لو قال: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" ذهب عنه ما يجد»، فانطلق إليه رجل، فقال له: "تعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، فقال: "أيرى بي بأس؟ أجنون أنا؟ اذهب"^٢.

تربية النبي صلى الله عليه وسلم بالقصص:

القصة مرغوب فيها لدى الناس، وهي تترك أثراً قوياً في النفوس، وانطلاقاً من هنا جاءت أقاصيص وروايات كثيرة في القرآن الكريم، ولذلك استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المنهج.

وفي ذلك قصة شاب من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قصة خباب بن الأرت رضي الله عنه، قد آذاه المشركون وبلغت به الشدة كل مبلغ، يقول خباب بن الأرت رضي الله عنه: "شكّونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسّد بُردة له في ظل الكعبة، فقلنا: "ألا تستنصر لنا؟، ألا تدعو لنا؟"، فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّى الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^٣.

^١ أخرجه البخاري في التعبير، باب الأمن وذهاب الروح في المنام، برقم ٧٠٢٨؛ ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عمر، برقم ٢٤٧٨، و ٢٤٧٩.

^٢ رواه البخاري في الأدب، باب الحذر من الغضب، برقم ٦٠٤٨؛ ومسلم في البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، برقم ٢٦١٠.

^٣ رواه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم ٣٦١٢.

تولية النبي ﷺ الشباب على مناصب ومسؤوليات:

وكان تكوين الرجال خصيصاً تكوين الشباب سمة بارزة من سيرته النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم في مراحل القوة، وعندهم الاقتدار على الإنتاج والعطاء والعزم الصارم على التضحية والتفدية، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يمنح الشباب الثقة بالنفس حتى قلدتهم مناصب هامة، وولاهم أموراً عظيمة ومسؤوليات كبيرة، على الرغم من وجود كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

فهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول: «ما رأيتُ بمكةً أحداً أحسن لميةً ولا أرقَّ حُلَّةً ولا أنعم نعمةً من مصعب بن عمير»^١.

استعمل رسول الله ﷺ مصعباً على المدينة وكان في ريعان شبابه وكان يأتي الأنصار في دورهم وقبائلهم فيدعوهم إلى الإسلام ويقراً عليهم القرآن فيسلم الرجل والرجلان حتى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار كلها والعوالي إلا دوراً من أوس، وكان مصعب يُقرئهم القرآن ويعلمهم، فكتب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يجمع بهم، فأذن له وكتب إليه: «انظر من اليوم الذي يجهر فيه اليهود لسببتهم فإذا زالت الشمس فاذلف إلى الله فيه بركتين واخطب»، فجمع بهم مصعب بن عمير في دار سعد بن خيثمة وهم اثنا عشر رجلاً، وما ذبح لهم يومئذٍ إلا شاة، فهو أول من جمع في الإسلام جمعة^٢.

وهذا عناب بن أسيد رضي الله عنه، قال ابن سعد استعمله رسول الله ﷺ على أهل مكة يصلي بهم، وهو في عنفوان شبابه، وخلف معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري يعلمان الناس السنن والتفقه في الدين، وقال لعتاب: «أتدري على ما استعملتُك؟». قال: «الله ورسوله أعلم». قال: «استعملتُك على أهل الله». فأقام عتابٌ للناس الحجَّ تلك السنة^٣. وقال ابن الأثير الجزري: كان عمره لما استعمله رسول الله ﷺ نيفاً وعشرين سنة، فأقام للناس الحج وهي سنة ثمان، وحج المشركون على ما كانوا، وحج أبو بكر ﷺ سنة تسع، فقيل: «كان أبو بكر أول أمير في الإسلام»، وقيل: «بل كان عتاب»^٤.

خلاصة البحث:

من هذه النماذج من مشكاة النبوة، يتضح لنا رفق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشباب، وتعامله معهم بكل لطف ودماثة، وهذا من أسباب نجاح الدعوة، واستقطاب الشباب لرسالة الإسلام. وهذا مايتوجب أن يتحلَّى به الدعاة والمعلمون والعلماء إذا ما أرادوا استقطاب الشباب، والتأثير فيهم، واستمالة قلوبهم نحو الدين، ومنهج الإسلام.

^١ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٨٦.

^٢ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٨٧-٨٨.

^٣ ابن سعد، الجزء المتمم لطبقات ابن سعد [الطبقة الرابعة من الصحابة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك]، ج ١، ص ١٥٧.

^٤ ابن الأثير الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٣، ص ٥٤٩.

وفي هذا العصر الذي نعيش فيه، عصر الشهوات والمادية، عصفت الإلحاد والإضلال، تحيط مخاطر بالشباب المسلمين من كل صوب، تفسد عقيدتهم وروحهم وعاطفتهم الإسلامية، ولذلك يتوجب على الدعاة والمصلحين والأساتذة والمعلمين أن يقوموا بدورهم الريادي في إصلاح الشباب المسلمين، وأن يتعاملوا معهم تعامل النبي صلى الله عليه وسلم به في مواقف فردية واجتماعية، وروحية وعقدية.

وبما أن موجات الإلحاد من الغرب محدقة بالشباب المسلمين، لذلك لا بد من توجيههم إلى الإيمان والعقيدة الصافية التي تمسك بها أصحاب النبي ﷺ والسلف الصالح، حتى لاتعمل سيول الإلحاد على إبعادهم عن دينهم وثقافتهم، ولا بد من كسب مواهبهم وصلحياتهم نحو التقدم واللاقي في جميع مجالات الحياة، كما كان النبي ﷺ يعمل على كسب مواهب الشباب وشحنها بطاقة الإيمان والعقيدة، ليكونوا قادة الغد وأمل المستقبل.

والله هو موفق، وصلى الله على النبي الأمي، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المصادر والمراجع:

١. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
٢. ابن بشران البغدادي، أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن عبد الله، أمالي ابن بشران، (الرياض: دار الوطن، ط ١، ١٤١٨هـ).
٣. ابن حجر، أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري، (بيروت: دارالمعرفة، ١٤٧٩هـ).
٤. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري، البغدادي، الجزء المتمم لطبقات ابن سعد [الطبقة الرابعة من الصحابة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك]، (الطائف: مكتبة الصديق، ١٤١٦هـ).
٥. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري، البغدادي، الطبقات الكبرى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
٦. ابن عبد البر، يوسف ابن عبد الله بن محمد ابن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، (المملكة العربية السعودية: دار ابن جوزي، ط ١، ١٤١٤هـ).
٧. ابن ماجه، السنن.
٨. أبو داود، السنن.
٩. أبوغدة، عبد الفتاح، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، (حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط ٢، ١٩٩٧م).
١٠. أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، المسند، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ).
١١. البخاري، محمد بن إسماعيل، الصحيح، (الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤١٩هـ).
١٢. الترمذي، السنن.
١٣. الثعالبي، عبد الملك بن محمد، فقه اللغة وسر العربية، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٢٢هـ).
١٤. خليفة بن خياط بن خليفة أبو عمرو العصفري البصري الشيباني، تاريخ خليفة بن خياط، (بيروت: دار القلم).
١٥. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٣٠هـ).

١٦. الغزالي، أبو حامد محمد، إحياء علوم الدين، (بيروت، دار المعرفة).
١٧. المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأعمال، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠١هـ).
١٨. مسلم، الصحيح.
١٩. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف الدمشقي، شرح صحيح مسلم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢هـ).

٢ - محور

تنوع الأجناس والأديان
من منظور القرآن والسنة

الأسس الشرعية لمعاملة غير المسلمين في الإسلام

نصارى مصر نموذجاً

د. رضا عويس حسن سرور^١

ملخص البحث:

منذ بدء الدعوة الإسلامية، والمسلمون يعيشون بين الأمم غير المسلمة، فمن كفار قريش إلى يهود المدينة المنورة، إلى القبائل العربية المجاورة من النصارى وجد المسلمون أنفسهم أمام واقع معاش، وقضايا لا بد من حسمها. غير أن الإسلام لم يترك الأمر مجرد الاجتهاد، أو التأثير بمبدأ الإحسان أو الإساءة، بل شرع حقوق غير المسلمين، وضمن تنفيذها في المجتمع الإسلامي، حيث إنه في الالتزام بها التزام بتعاليم الإسلام وشرائعه. فلقد وضع الإسلام الأساس في التعامل، والموقف من هؤلاء وغيرهم، وما يقومون به من أنشطة في إطار تنظيم هذه العلاقة عبر ما أرساه من أسس للتسامح الفكري أولاً مع غير المسلمين من آيات وأحاديث اهتمت بهذا الشأن، ثم تلا ذلك مجموعة من الاجتهادات الفقهية لعلماء الأمة، وأخيراً برزت هذه الأسس كواقع معاش لا يقبل الاختلاف في نسبة وقوعه، أو الاضطراب بين الصورة المثالية و الواقعية. ولم يترك علماء المسلمين صغيرة ولا كبيرة تخص غير المسلمين -وبخاصة أهل الكتاب- في بلاد الإسلام إلا بينها وأزالوا اللبس عما يتعلق بها من أحكام.

المبحث الأول

الأساس الشرعي لتسامح المسلمين

إن أساس النظرة المتسامحة التي تسود المسلمين تجاه مخالفيهم في الدين ترجع إلى تلك المبادئ العامة، والأسس الأصيلة التي غرسها الإسلام في نفوس أتباعه وقلوبهم، ومن أهم هذه الأسس:

١- اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان أيًا كان دينه، أو جنسه، أو لونه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية.

ومن الأمثلة العملية على ذلك ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله أن جنازة مرت على النبي ﷺ فقام لها واقفًا، فقيل له: يا رسول الله إنها جنازة يهودي! فقال: «أليست نفسًا؟!». بلى، بلى ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان، فما أروع الموقف، وما أروع التفسير والتعليل.

^١ الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين، جامعة الإنسانية بماليزيا، ووكيل كلية أصول الدين للشؤون الأكاديمية بها.

- ٢- اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى، الذي منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨].
والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب، كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة، علم الناس ذلك أو جهلوه، ولهذا لا يفكر المسلم يومًا أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين.
- ٣- إن المسلم ليس مكلّفًا أن يحاسب الكافرين على كفرهم، أو يعاقب الضالين على ضلالتهم، فهذا ليس إليه، وليس موعده هذه الدنيا، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب، وجزاؤهم إليه في يوم الدين، قال تعالى يخاطب رسوله في شأن أهل الكتاب ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى:١٥].
وبهذا يستريح ضمير المسلم، ولا يجد في نفسه أي أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكفار، وبين مطالبته برهم، والإقساط إليهم، وإقرارهم على ما يرونه من دين واعتقاد.
- ٤- إيمان المسلم أن الله يأمر بالعدل، ويحب القسط، ويدعو إلى مكارم الأخلاق، ولو مع المشركين، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين، ولو كان الظلم من مسلم لكافر قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢].
إن سماحة الإسلام مع غير المسلمين سماحة لم يعرف التاريخ لها مثيل، وخصوصًا إذا كانوا أهل كتاب، وبالأخص إذا كانوا مواطنين في دار الإسلام، ولا سيما إذا استعربوا وتكلموا بلغة القرآن^١. ويضيف الدكتور محمد عمارة أن الإسلام يؤمن بأن أصل الناس جميعًا واحد، وأن أباهم واحد، وأن المسلمين يعرفون أن الأصل هو تنوع وتعدد البشرية في اللغات والقوميات، والأجناس والألوان فيقول:
- "إن الرؤية الإسلامية الفكرية والعقدية، والتي تجسدت في تاريخنا الحضاري واقعًا معاشًا عبر القرون ترى أن الأصل والسنة، والقاعدة والقانون هو التنوع والتمايز والاختلاف، فالواحدة والأحادية فقط للذات الإلهية، ومن عدا وما عدا الذات الإلهية يقوم على التعدد والاختلاف، ذلك هو القانون التكويني الذي يسود ويحكم كل عوالم المخلوقات، في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وفي الأفكار والفلسفات والأيدولوجيات.
- وهذه الصورة الإسلامية للوجود بعوالمه المختلفة، والقائمة على التنوع والتعدد والاختلاف والتعايش والتعارف لم تقف عند الموقف النظري الذي يعترف بالآخر على مضض، والذي يضيق بواقع التعدد والاختلاف مع التسليم بواقعه ووجوده، وإنما تبلغ هذه الصورة -في التحضر والرقي- حد العدل والإنصاف لهذا الآخر على اختلاف ألوان هذا الآخر.

^١ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، ج ١، ص ١٤٤، رقم ١٢٤٩؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، ج ٢، ص ٦٦١، رقم ٩٦٠، بلفظ مقارب.

^٢ القرضاوي، الأقليات الدينية والحل الإسلامي، ص ٤٢-٤٥.

فقانون الإيمان لدى كل ملة غير ملة الإسلام لا يكتمل إلا بإنكار كل الآخرين وتكفيرهم، والإسلام وحده هو الذي لا يكتمل إلا إذا آمن أصحابه بكل النبوات والرسالات، بل ولا يكتمل هذا الإيمان الإسلامي إلا إذا مكّن المسلمون أهل تلك الشرائع والملل من إقامة عقائدهم المخالفة للإسلام، بل والتي تنكر وتجدد هذا الإسلام!!¹.

وهكذا غرس الإسلام في نفوس أصحابه أن الناس أحرار فيما يعتقدون ويختارون، وأن هذه إرادة الله في التنوع والاختلاف بين البشر، وهي آية من آيات الله الكونية. كما عمل الإسلام على ألا يرغم المسيحيين على أمر يخالف دينهم حتى ولو كان محرماً في الإسلام ومباحاً عندهم أو العكس.

فالإسلام ذو شعب أربع: عقيدة، وعبادة، وأخلاق، وشريعة. فأما العقيدة والعبادة فلا يفرضهما الإسلام على أحد، وفي ذلك نزلت آيتان صريحتان حاسمتان من كتاب الله: إحداهما مكية والأخرى مدنية، في الأولى يقول تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وفي الثانية يقول سبحانه وتعالى في أسلوب جازم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وجاء عن الصحابة في أهل الذمة: "اتركوهم وما يدينون".

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين، واليهود والنصارى يؤدون عباداتهم، ويقيمون شعائرتهم في حرية وأمان، كما هو منصوص عليه في العهود التي كتبت في عهد أبي بكر وعمر، مثل عهد الصلح بين الفاروق وأهل إيلياء (القدس).

أما شعبة الأخلاق فهي - في أصولها - لا تختلف بين الأديان السماوية بعضها وبعض، فجميعها تدعو إلى العدل والرحمة والإحسان والمحبة والعفاف والشجاعة والسخاء - إلا ما وضعه اليهود في التلمود من خروج على الأديان والأخلاق جميعاً. بقيت شعبة الشريعة بالمعنى الخاص: معنى القانون، الذي ينظم علائق الناس بعضهم ببعض، علاقة الفرد بأتمته، وعلاقته بالمجتمع، وعلاقته بالدولة.

فأما العلاقات الأسرية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ونحو ذلك، فهم مخيروا بين الاحتكام إلى دينهم والاحتكام إلى شرعنا، ولا يجبرون على شرع الإسلام. باعتبار هذه الأحوال الشخصية - كما تسمى - مما له علاقة مباشرة بالدين، ومساس به، فمن اختار منهم نظام الإسلام في الموارث مثلاً - كما في بعض البلاد العربية - فله ذلك، ومن لم يرد فهو وما يختار. وأما ما عدا ذلك من التشريعات المدنية والتجارية والإدارية ونحوها فشأنهم في ذلك كشأنهم في أية تشريعات أخرى تقتبس من الغرب أو الشرق، وترتضيها الأغلبية.

وفي العقوبات قرر الفقهاء: أن الحدود لا تقام عليهم إلا فيما يعتقدون تحريمه كالسرقة والزنا، لا فيما يعتقدون حله كشرب الخمر، ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصة يتحكمون إليها إن شاءوا، وإلا لجأوا إلى القضاء الإسلامي، كما سجل ذلك التاريخ.

وهذه قمة في التسامح لا مثيل لها، ألا يضيق عليهم حتى في شئ أحلّ لهم، وحرمه الإسلام تحريماً قطعياً، مع أن المباحات لا حرج في تركها ديناً، ولا خلقاً، بل يجذب تركها إذا كان فيه إيذاء للآخرين¹

¹ عمارة، محمد عمارة في المسألة القبطية حقائق وأوهام، ص ٣٢-٣٣ باختصار شديد.

وبهذا يكون الإسلام قد أسس لهذه السماحة مع غير المسلمين جميعًا. ثم جاء الفقهاء والعلماء المعاصرون فتحدثوا عن حقوق هؤلاء، وواجباتهم داخل المجتمع الإسلامي، وهذا موضوع المبحث القادم.

المبحث الثاني

موقف الفقهاء والعلماء

لقد ذهب الفقه الإسلامي مدى أبعد في هذا الاتجاه، فلم يكتف الفقهاء بتقرير المساواة بين المسلمين وغيرهم، بل زاد على ذلك أن أعطى غير المسلمين الحق في مباشرة التصرفات التي تتعارض مع أحكام الإسلام، ما دامت شرائعهم تسمح بها. وإباحة الخمر وتربية الخنازير هما أبرز مثالين على ذلك.

وقد أراد الفقهاء فيما بعد أن يضعوا دستورًا عامًا للعهود التي يعقدها الحكام المسلمون مع أهل الذمة لا يتعداه المعاهدون، ويتضح من خلال هذه العهود مدى التسامح الذي حققه المشرعون من أئمة المسلمين مع الذميين.

جاء في العهد الذي وضعه الإمام الشافعي لمن أراد من الأمراء أن يكتب كتاب صلح مع النصراني ما يجب عليه اشتراطه، وما يجب عليه إعطاؤهم من حقوق، حتى يوفي لهم بذمة الله وذمة رسوله:

"هذا كتاب كتبه عبد الله فلان أمير المؤمنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة كذا وكذا لفلان بن فلان النصراني من بني فلان الساكن بلد كذا، وأهل النصرانية من أهل بلد كذا إنك سألتني أن أؤمنك وأهل النصرانية من أهل بلد كذا، وأعقد لك ولهم ما يعقد لأهل الذمة على ما أعطيتني وشرطت لك ولهم، وعليك وعليهم، فأجبتك إلى أن عقدت لك ولهم علي وعلى جميع المسلمين الأمان ما استقمت واستقاموا بجميع ما أخذنا عليكم، وذلك أن يجري عليكم حكم الإسلام لا حكم خلافه بحال يلزمكموه، ولا يكون لكم أن تمتنعوا منه في شيء رأينا نلزمكم به، وعلى أن أحدًا منكم إن ذكر محمدًا ﷺ، أو كتاب الله عز وجل، أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به، فقد برئت منه ذمة الله، ثم ذمة أمير المؤمنين وجميع المسلمين، ونقض ما أعطي عليه الأمان، وحل لأمر المؤمنين ماله ودمه كما تحل أموال أهل الحرب ودمائهم.

وعلى أن أحدًا من رجالكم إن أصاب مسلمة بزنا، أو اسم نكاح، أو قطع الطريق على مسلم، أو فتن مسلمًا عن دينه، أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال، أو دلالة على عورة المسلمين وإيواء لعيونهم، فقد نقض عهده وأحل دمه وماله، وإن نال مسلمًا بما دون هذا في ماله أو عرضه، أو نال به من على مسلم منعه من كافر له عهد، أو أمان لزمه فيه الحكم.

وعلى أن نتبع أفعالكم في كل ما جرى بينكم وبين مسلم، فما كان لا يحل لمسلم مما لكم فيه فعل رددناه وعاقبناكم عليه، وذلك أن تبعوا مسلمًا بيعًا حرامًا عندنا من خمر، أو خنزير، أو دم ميتة، أو غيره ونبتل البيع بينكم فيه، ونأخذ ثمنه منكم إن أعطاكموه، ولا نرده عليكم إن كان قائمًا ونهريقه إن كان خمرًا، أو دمًا ونحرقه إن كان ميتة، وإن استهلكه لم نجعل عليه فيه شيئًا ونعاقبكم عليه، وعلى أن لا تسقوه، أو تطعموه محرّمًا أو تزوجوه بشهود منكم، أو بنكاح فاسد عندنا.

¹ القرضاوي، الأقليات الدينية والحل الإسلامي، ص ١٣-١٨ باختصار شديد.

وما بايعتم به كافراً منكم، أو من غيركم لم تتبعكم فيه، ولم نسألكم عنه ما تراضيتم به. وإذا أراد البائع منكم، أو المبتاع نقض البيع وأتانا طالباً له فإن كان منتقضاً عندنا نقضناه، وإن كان جائزاً أجزناه إلا أنه إذا قبض المبيع وفات لم يردده؛ لأنه بيع بين مشركين مضى.

ومن جاءنا منكم، أو من غيركم من أهل الكفر يحاكمكم أجريناكم على حكم الإسلام، ومن لم يأتنا لم نعرض لكم فيما بينكم وبينه. وإذا قتلتم مسلماً، أو معاهداً منكم، أو من غيركم خطأ فالدية على عواقلكم كما تكون على عواقل المسلمين، وعواقلكم قرباتكم من قبل آبائكم، وإن قتل منكم رجل لا قرابة له فالدية عليه في ماله، وإذا قتل عمداً فعليه القصاص إلا أن تشاء ورثته دية فيأخذونها حالة. ومن سرق منكم فرفعه المسروق إلى الحاكم قطعه إذا سرق ما يجب فيه القطع وغرم، ومن قذف فكان للمقذوف حد حد له، وإن لم يكن حد عزر حتى تكون أحكام الإسلام جارية عليكم بهذه المعاني فيما سمينا، ولم نسّم.

وعلى أن ليس لكم أن تظهروا في شيء من أمصار المسلمين الصليب، ولا تعلنوا بالشرك، ولا تبناو كنيسة، ولا موضع مجتمع لصلاتكم، ولا تضربوا بناقوس، ولا تظهروا قولكم بالشرك في عيسى ابن مريم، ولا في غيره لأحد من المسلمين. وأن يؤدي كل بالغ من أحرار رجالكم غير مغلوب على عقله جزية رأسه ديناراً مثقالاً جيداً في رأس كل سنة لا يكون له أن يغيب عن بلده حتى يؤديه، أو يقيم به من يؤديه عنه لا شيء عليه من جزية رقبته إلى رأس السنة، ومن افتقر منكم فجزيته عليه حتى تؤدي عنه وليس الفقر بدافع عنكم شيئاً، ولا ناقض لدمتكم عن ما به فمتى وجدنا عندكم شيئاً أخذتم به، ولا شيء عليكم في أموالكم سوى جزيتكم ما أقمتم في بلادكم واختلقتم ببلاد المسلمين غير تجار وليس لكم دخول مكة بحال.

وإن اختلقتم بتجارة -على أن تؤدوا من جميع تجاراتكم العشر إلى المسلمين- فلكم دخول جميع بلاد المسلمين إلا مكة، والمقام بجميع بلاد المسلمين كما شئتم إلا الحجاز فليس لكم المقام ببلد منها إلا ثلاث ليال حتى تظعنوا منه. وعلى من أنبت الشعر تحت ثيابه، أو احتلم، أو استكمل خمس عشرة سنة قبل ذلك، فهذه الشروط لازمة له إن رضيها فإن لم يرضها فلا عقد له.

ولا جزية على أبنائكم الصغار، ولا صبي غير بالغ ومغلوب على عقله، ولا مملوك، فإذا أفاق المغلوب على عقله، وبلغ الصبي، وعتق المملوك منكم فدان دينكم، فعليه جزيتكم، والشرط عليكم وعلى من رضيته، ومن سخطه منكم نبذنا إليه. ولكم أن نمنعكم وما يحل ملكه عندنا لكم ممن أرادكم من مسلم، أو غيره بظلم بما نمنع به أنفسنا وأموالنا، ونحكم لكم فيه على من جرى حكمنا عليه بما نحكم به في أموالنا، وما يلزم المحكوم في أنفسكم فليس علينا أن نمنع لكم شيئاً ملكتموه محرماً من دم، ولا ميتة، ولا خمر، ولا خنزير، كما نمنع ما يحل ملكه، ولا نعرض لكم فيه إلا أنا لا ندعكم تظهرونه في أمصار المسلمين، فما ناله منه مسلم، أو غيره لم نغرمه ثمنه؛ لأنه محرم، ولا ثمن لمحرم، ونزجره عن العرض لكم فيه، فإن عاد أدب بغير غرامة في شيء منه.

وعليكم الوفاء بجميع ما أخذنا عليكم، وأن لا تغشوا مسلمًا، ولا تظاهروا عدوهم عليهم بقول، ولا فعل، وعهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من الوفاء بالميثاق ولكم عهد الله وميثاقه، وذمة فلان أمير المؤمنين، وذمة المسلمين بالوفاء لكم، وعلى من بلغ من أبنائكم ما عليكم بما أعطيناكم ما وفيتهم بجميع ما شرطنا عليكم، فإن غيرتم أو بدلتم فذمة الله ثم ذمة فلان أمير المؤمنين والمسلمين بريئة منكم، ومن غاب عن كتابنا ممن أعطيناه ما فيه فرضيه إذا بلغه فهذه الشروط لازمة له ولنا فيه، ومن لم يرض نبذنا إليه^١.

وقد قدم هذا العهد العديد من الأسس التي تقوم عليها العلاقة بين المسلمين والنصارى، فبين أنهم مقيدون في تعاملهم معهم بأحكام الإسلام، فلا مجال للتعسف والهوى.

وتبرأ ذمة المسلمين من عهدهم إن خان هؤلاء العهد معهم، بأن يتجهجوا على القرآن الكريم، أو النبي ﷺ، أو الدين الإسلامي، وعندها للمسلمين أن يجاروهم، ويأخذوهم بالقسوة؛ لأنهم يعيشون بين المسلمين وخطرتهم أشد. وكذلك إذا اعتدوا على أعراض المسلمات، أو قطعوا الطريق، أو ردوا مسلمًا عن دينه، أو ساعدوا أعداء المسلمين المحاربين لهم بالمال، أو بالتجنس، أو بالإيواء. والدولة الإسلامية مكلفة بأن تحميهم وأمواهم من عدوان المسلمين وغيرهم، وأن تعاملهم كما تعامل المسلمين لأنهم من الرعية.

وهذه أسس عادلة سمحة في العلاقة بين المسلمين وبين النصارى أو غيرهم في بلاد الإسلام، تكفل لهم أن يعيشوا أحرار العقيدة والنفس في بلاد المسلمين، وأن يطمئنوا على أرواحهم وأمواهم، وأن يمارسوا ما شاءوا من أنشطة ما لم تضر بالمسلمين، حتى يعيشوا في الوطن الواحد إخوة متعاونين متحدين.

وقد تجلت هذه السماحة بعد ذلك في مواقف كثير من الأئمة والفقهاء في الدفاع عن أهل الذمة، واعتبار أعراضهم وحرمتهم كحرمات المسلمين، فقد ذكر الإمام الفقيه الأصولي المحقق شهاب الدين القرافي معنى البر الذي أمر الله به المسلمين في شأنهم فذكر من ذلك:

"الرفق بضعيفهم، وسدّ خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وكساء عاريهم، ولين القول لهم -على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة- واحتمال إذابتهم في الجوار -مع القدرة على إزالته- لطفًا منا بهم، لا خوفًا ولا طمعًا، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم، في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أمواهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم"^٢.

١ الشافعي، كتاب الأم، ج ٤، ص ٢٠٠.

٢ القرافي، أنوار البروق في أنواء الفروق، ج ٣، ص ١٥.

وأشار الشيخ محمد الغزالي إلى أحقية أن يكون للنصارى حزب مثلما يطالب المسلمون بإنشاء حزب سياسي لهم، بشرط ألا يكون المقصود بالتحزب هنا التعصب، وتحريش الناس بعضهم ببعض باسم الدين^١.

وأمام مناداة البعض بالتبرؤ من غير المسلمين، وعدم موالاتهم، حرر الشيخ القرضاوي هذه المسألة بصورة واضحة حيث يقول في أخوة المواطنين من غير المسلمين: "ولكن الإخوان يفرقون بين هؤلاء - من لا يجوز موالاتهم - وبين مواطنيهم، الذين يعيشون في دار الإسلام، وهم من أهل البلاد الأصليين، وقد دخل الإسلام عليهم وهم فيها، أعطاهم الذمة والأمان أن يعيشوا مع المسلمين، وفي ظل حكمهم، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم، إلا ما اقتضاه التميز الديني.

فهؤلاء لم ينه الله تعالى عن برهم والإقساط إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَهُمْ يَخْرُجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحة: ٨].

فهؤلاء - إذا كانوا من أهل وطنك - لك أن تقول: هم إخواننا، أي إخواننا في الوطن، كما أن المسلمين - حيثما كانوا - هم إخواننا في الدين. والفقهاء يقولون عن أهل الذمة: هم من أهل الدار، أي دار الإسلام. فالأخوة ليست دينية فقط كالتي بين أهل الإيمان بعضهم وبعض، وهي التي جاء فيها قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. بل هناك أخوة قومية، وأخوة وطنية، وأخوة بشرية.

والقرآن الكريم يحدثنا في قصص الرسل مع أقوامهم الذين كذبوهم وكفروا بهم فيقول: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٦١].

كيف أثبت الله الأخوة لهؤلاء الرسل مع أقوامهم مع تكذيبهم لهم وكفرهم بهم؟ لأنهم كانوا منهم، فهم إخوتهم من هذه الناحية، فهي أخوة قومية، ولذا قال عن شعيب في نفس السورة: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧] وذلك أنه لم يكن منهم، وإنما كان من مدين، ولذا قال في سورة أخرى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وإذا أثبت القرآن هذه الأخوة القومية بين الرسل وأقوامهم، فلا حرج أن نثبت أخوة وطنية بين المسلمين ومواطنيهم من الأقباط في مصر، أو أمثالهم في البلاد الإسلامية الأخرى^٢.

ومراعاة تلك الاعتبارات، والسير على هذه المناهج التي وضعها فقهاء وعلماء الأمة يصبح أمراً طبيعياً أن ننهي إلى أنه علينا ألا نحرم إخواننا النصارى مما كسبوه حقاً لهم، ولا نثير أنفسهم، ونحن بذلك نقوي روح الإخاء والمودة بين أبناء الأمة ونزيدها. هذا ما أكدته الإسلام بصفة عامة بين المسلمين وغير المسلمين، وهذا ما وضعه كذلك الفقهاء والعلماء. أما في حالة نصارى مصر فلهم كل ما سبق بالإضافة إلى الخصوصية التي حباهم بها النبي ﷺ كما سيتضح في المبحث التالي:

١ السميع، الإسلاميون حوارات حول المستقبل، ص ٢٥ .

٢ القرضاوي، الإخوان المسلمون سبعون عاماً في الدعوة والتربية والجهاد، ص ١٤٩ .

المبحث الثالث

الوصية بأقباط مصر خاصة

لقد دعا النبي ﷺ إلى الحفاظ على حقوق الذميين، وحفظ أرواحهم، وعدم ظلمهم، فقال كما روى أبو داود والبيهقي في السنن: «من ظلم معاهدًا، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة»^١. وقال: «من آذى ذميًّا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله»^٢.

وأما أقباط مصر فلهم شأن خاص، ومنزلة متميزة، فقد أوصى بهم رسول الله ﷺ وصية خاصة، يعيها عقل كل مسلم، ويضعها في السويداء من قلبه. فقد روت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال: «الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله»^٣. وفي حديث آخر عن أبي عبد الرحمن الحبلي -عبد الله بن يزيد- وعمرو بن حريث، أن رسول الله ﷺ قال: «فاستوصوا بهم خيرًا، فإنهم قوة لكم، وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله»^٤ يعني قبط مصر.

وقد صدقَّ الواقع التاريخي ما نبأ به الرسول ﷺ فقد رحب الأقباط بالمسلمين الفاتحين، وفتحوا لهم صدورهم، رغم أن الروم الذين كانوا يحكمونهم كانوا نصارى مثلهم، ودخل الأقباط في دين الله أفواجًا، حتى إن بعض ولاية بني أمية فرض الجزية على من أسلم منهم، لكثرة من اعتنق الإسلام. فأصبحت مصر بوابة الإسلام إلى إفريقيا كلها، وغدا أهلها عُدَّة وأعوانًا في سبيل الله.

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا» وفي رواية: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط» القيراط: جزء من أجزاء الدرهم والدينار وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به، بل هم لا يزالون كذلك بالنسبة للمساحة والصاغة وغيرها، وكل شيء قابل لأن يقسم إلى ٢٤ قيراطًا، «فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا»، أو قال: «ذمة وصهرًا»^٥.

١ أخرجه أبو داود في سننه، ج ٣، ص ١٧٠، رقم ٣٠٥٢؛ والبيهقي في السنن الكبرى، ج ٩، ص ٢٠٥، رقم ١٨٥١١. قال ابن القطان: وسكت عنه وما مثله صحيح للجهل بأحوال هؤلاء الأبناء. ابن القطان، بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام، ج ٢، ص ٥٩٩.

٢ أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، لا أصل له بهذا اللفظ، لا عند الطبراني ولا عند غيره. وإنما أصل الحديث من آذى مسلمًا فقد ورد عن أنس بن مالك قال: بينا رسول الله ﷺ يخطب إذ جاء رجل يتخطى رقاب الناس حتى جلس قريبًا من النبي ﷺ فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: «ما منعك يا فلان أن تجمع؟» قال: يا رسول الله، قد حرصت أن أضع نفسي بالمكان الذي ترى. قال: «قد رأيتك تخطي رقاب الناس تؤذيهم. من آذى مسلمًا فقد...» الألباني، غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، ج ١، ص ٢٦٩.

٣ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ج ٢٣، ص ٢٦٥، رقم ٥٦١؛ والهيتمي، مجمع الزوائد، ج ١٠، ص ٦٣، وقال: رجاله رجال الصحيح.

٤ أخرجه ابن حبان في صحيحه، ج ١٥، ص ٦٩، رقم ٦٦٧٧؛ وأبو يعلى في مسنده، ج ٣، ص ٥١، رقم ١٤٧٣؛ والهيتمي، مجمع الزوائد، ج ١٠، ص ٦٤، وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

٥ أخرجه مسلم في صحيحه، ج ٤، ص ١٩٧٠، رقم ٢٥٤٣؛ وأحمد في مسنده، ج ٥، ص ١٧٣، رقم ٢١٥٦٠، عن أبي ذر.

قال العلماء: الرحم التي لهم: كون هاجر أم إسماعيل عليه السلام منهم، والصحراء: كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ منهم^١.

ولا غرو أن ذكر الإمام النووي هذا الحديث في كتابه "رياض الصالحين" في باب: "بر الوالدين وصلة الأرحام" إشارة إلى هذه الرحم التي أمر الله ورسوله بها أن توصل بين المسلمين وبين أهل مصر، حتى قبل أن يسلموا. وعن كعب بن مالك الأنصاري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا فُتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم دماً ورحماً» وفي رواية: «إن لهم ذمة ورحماً» يعني أن أم إسماعيل منهم^٢. وعند الزهري: "الرحم" بأن أم إسماعيل منهم.

والرسول يجعل للقبط هنا من الحقوق أكثر مما لغيرهم، فلهم الذمة أي: عهد الله ورسوله وعهد جماعة المسلمين وهو عهد جدير أن يُرعى ويُصان. ولهم رحم ودم وقرابة ليست لغيرهم، فقد كانت هاجر أم إسماعيل أبي العرب المستعربة منهم، بالإضافة إلى مارية القبطية التي أنجب منها ﷺ ابنه إبراهيم^٣.

وأهل الذمة من أهل الكتاب لهم وضع خاص، والعرب منهم لهم وضع أخص، لاستعراهم وذوبانهم في أمة العرب، وتكلمهم بلغة القرآن، وتشريهم الثقافة الإسلامية، واشتراكهم في الموارث الثقافية والحضارية للمسلمين بصورة أكبر من غيرهم، فهم مسلمون بالحضارة والثقافة، وإن كانوا مسيحيين بالعقيدة الطقوس. والحقوق التي قررها الإسلام ليست مجرد حبر على ورق، بل هي حقوق مقدسة قررتها شريعة الله، فلا يملك أحد من الناس أن ييطلها، وهي حقوق تحوطها وتحرسها ضمانات متعددة: ضمانة العقيدة في ضمير كل فرد مسلم، يتعبد بامثال أمر الله، واجتناب نهيهِ، وضمان الضمير الإسلامي العام، الذي يتمثل في المجتمع كله، وخصوصاً الفقهاء والأصلاء من حراس الشريعة، والقضاة العدول الأقوياء، الذين رأينا منهم من حكم على الأمراء والخلفاء لحساب من ظلم من أهل الذمة^٤.

ومن قبل هذه الضمانات التي بينها العلماء فقد عاش الصحابة ذلك مع رسول الله ﷺ، وعایش التابعون نفس المعاملة مع الصحابة، وانتقل الأمر من جيل إلى جيل حتى يومنا هذا فسجلت أروع الأمثلة كما سيتضح في المبحث التالي:

المبحث الرابع

نماذج عملية لتطبيق أسس التسامح مع النصارى

لقد أظهر النبي ﷺ وصحابته الكرام وخلفاؤه من بعده سماحة الإسلام بما عقده من صلح مع البلاد التي فتحوها، فقد كانوا كراماً، فأقروهم على عقائدهم وشرائعهم الدينية، وأوصوا برعايتهم والحفاظ على أموالهم. "فقد عقد النبي ﷺ معاهدة مع قبيلة تغلب سنة ٩ هـ - وكان الإسلام قد قوي ودانت به العرب - أباح لهم فيها البقاء على نصرانيتهم. وصالح نصارى

١ النووي، رياض الصالحين، حديث رقم ٣٣٤.

٢ قال الحاكم في مسنده، ج ٢، ص ٦٠٣، رقم ٤٠٣٢: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح، ج ١٠، ص ٦٣.

٣ القضاوي، الأقليات الدينية والحل الإسلامي، ص ٤٤-٤٧.

٤ المرجع السابق، ص ٣٢.

نجران، وتركهم أحرارًا في دينهم. ووجه عماله إلى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على نصرانيته، وكذلك فعل مع النصارى واليهود جميعًا في بلاد العرب"^١.

وذكر ابن إسحاق في السيرة أن وفد نصارى نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة دخلوا عليه مسجده بعد العصر، فكانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم"^٢.

كل هذه السماحة بينما رفض قساوسة دير سانت كاترين بسيناء - وهم من الروم الأرثوذكس - أن يصلي بابا الفاتيكان - يوحنا بولس الثاني - داخل الدير - عند زيارته له في فبراير سنة ٢٠٠٠م - لأنه - في نظرهم - غير مؤمن"^٣.

"وكان عليه الصلاة والسلام يحضر ولائم أهل الكتاب، ويغشى مجالسهم، ويواسيهم في مصائبهم، ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التي يتبادلها المجتمعون في جماعة يحكمها قانون واحد، وتشغل مكانًا مشتركًا، فقد كان يقترض منهم نقودًا، ويرهنهم متاعًا، ولم يكن ذلك عجزًا من أصحابه عن إقراضه، فإن بعضهم كان ثريًا، وكلهم يتلهف على أن يقرض رسول الله ﷺ بل كان يفعل ذلك تعليمًا للأمة، وتثبيتًا عمليًا لما يدعو إليه من سلام ووثام، وتدليلًا على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيه من غير دينهم"^٤.

واقتردى به المسلمون من بعده من الخلفاء والأمراء مما لا يتسع المجال لذكره، وأكتفي ببعض الإشارات الدالة على التمسك بمثل هذه المعاملة من بعده ﷺ حتى وقتنا هذا.

"ففي خلافة أبي بكر الصديق رضوان الله عليه، عاهد خالد بن الوليد رضي الله عنه أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصرًا يتحصنون فيه، وعلى ألا يمنعوا من ضرب نواقيسهم، أو إخراج الصلبان في يوم عيدهم. على ألا يعينوا كافرًا على مسلم، ولا يتجسسوا للكفار على المسلمين. ونص في المعاهدة على أن الجزية يعفى منها الشيخ الذي عجز عن العمل، أو أصابته عاهة، أو كان غنيًا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، وليس ذلك فحسب، بل يعال هو وأولاده من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الإسلام"^٥.

ومن التطبيقات التي مارست فيها الدولة الإسلامية المسؤولية الكاملة عن حماية أهل الذمة موقف شيخ الإسلام ابن تيمية "حينما سيطر التتار على الشام، وذهب الإمام ليكلم قائد التتر - قطلوشاه - في إطلاق سراح الأسرى المسلمين، وأبي أن يسمح له بإطلاق سراح أهل الذمة، فقال الشيخ العالم: لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من اليهود والنصارى فهم

١ الحوفي، سماحة الإسلام، ص ١٧٤.

٢ ابن هشام، مختصر سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٥٤-٣٥٥؛ والصالحي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج ٦، ص ٦٤٢.

٣ عمارة، محمد عمارة في المسألة القبطية حقائق وأوهام، ص ٣٠.

٤ الحوفي، سماحة الإسلام، ص ١٨٤.

٥ المرجع السابق، ص ١٧٥. وللمزيد من النماذج، راجع نفس المرجع، ص ١٧٤-١٨١.

أهل ذمتنا، ولا ندع أسيراً لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة، فلما رأى إصراره وتشدده في أمر أهل الذمة من اليهود والنصارى أطلقهم له"^١.

كذلك سلكت التطبيقات الإسلامية باب المصاهرة والزواج بين المسلمين وبين الكتابيات المحصنات؛ لتحقيق أعلى درجات التلاحم بين غير المسلمين وبين المسلمين في بناء الأمة الواحدة.. فزواج المسلم من الكتابية يُدخل ذويها من غير المسلمين في دائرة "أولي الأرحام" عند المسلمين، وتلك قمة التلاحم والاندماج.. وعنها يقول الإمام محمد عبده: "أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية، نصرانية أو يهودية، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها، وهي منه بمنزلة البعض من الكل، وألزم له من الظل، وصاحبته في العز والذل، والترحال والحل، بهجة قلبه، وريحانة نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه.. لم يفرق الدين في حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية، ولم تخرج الزوجة الكتابية، باختلافها في العقيدة مع زوجها، من حكم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، فلها حظها من المودة ونصيبتها من الرحمة وهي كما هي، وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها لباس له. أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة، وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة، على ما عهد في طبيعة البشر؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأحوالهم وذوي القرى لوالدتهم. أيغيب عنك ما يستحكم من روابط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يُعهد عند من سبق، ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه؟"^٢.

وهكذا ضرب المسلمون من لدن رسول الله ﷺ وحتى الآن قمة التسامح مع أهل الكتاب، والسماح لهم بممارسة كافة أنشطتهم الدينية والاجتماعية وغيرها داخل الدول الإسلامية التي يعيشون فيها، ولو حاولنا تتبع ما كتبه علماء المسلمين في هذه النقطة لما وسعنا المقام. ولذلك أكتفي هنا في إجمال موقف المسلمين من النصارى وأنشطتهم بما ذكره المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمان حول معاملة غير المسلمين في الإسلام، حيث ذكر أن الإسلام أعطاهم كامل الحرية فقال:

" أما هذه الحرية فيمكن النظر إليها من زاويتين:

الأولى: مادية، وتدخّل في نطاق الحرية المدنية والاقتصادية، وأبرز مظاهرها:

- ١- ضمان النفس والعرض والدم والمال إلا بحق.
- ٢- حرمة المسكن، فلا يدخل إلا برضا صاحبه، ولا يفتش فضلاً عن أن يمس أو يهاجم إلا بإذن القانون. وترتبط هذه الحرمة بحرية الإقامة مع المسلمين في أحيائهم، أو في أحياء خاصة بهم.
- ٣- حرية التنقل داخل الوطن، للسياحة، أو العمل، أو غيرهما، وكذا مغادرته، والعودة إليه، بما في ذلك السفر لزيارة الأماكن المقدسة أنى وجدت في الخارج. ولا تتعرض هذه الحرية لأي مانع إلا بما يتعارض والمصلحة العامة.

١ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٣.

٢ عمارة، الإسلام والأقليات الماضي والحاضر والمستقبل، ص ١٧-١٨.

٤- حق التملك الناتج عن الكسب المشروع مع المسلمين أو غيرهم، إلا فيما يجرمه الإسلام، كالاحتراف أو الاتجار في الخمر، أو لحم الخنزير فيشترط فيه أن يتم بين غير المسلمين.

الثانية: معنوية، ومن أهمها:

- ١- ممارسة العقيدة في طقوسها، وشعائرها، ومختلف مواسمها، ومظاهرها الاحتفالية، مع الإقرار بأيام العطل والأعياد، والسماح بإقامة أماكن العبادة، والسهر عليها بالمحافظة والصيانة والتنظيم، وكذا احترام العادات والأعراف، بدءاً من متعلقات الولادة إلى الزواج والطلاق، وما إلى ذلك من التقاليد. ويدخل في ذلك حق تكوين الهيئات المشرفة على الشؤون الدينية بما فيها، وما يتصل بالقضاء المتخصص في الأحوال الشخصية، والنظر في النزاعات العقدية لغير المسلمين. فقد ورد أنه "إذا تشاجروا في دينهم واختلفوا في معتقدهم لم يعارضوا فيه، ولم يكشفوا عنه، وإذا تنازعا في حق وارتفعوا فيه إلى حاكمهم لم يمنعوا منه"^١.
- ٢- مزاولة التعليم والتربية الدينية للأبناء في مؤسسات خاصة لمن شاء، على ألا يكون في ذلك ما يتعارض مع سياسة التعليم الإسلامي وفلسفته، مما قد يتعارض مع دستور الدولة ونظامها العام. ويدخل في ذلك إمكان إقامة تلك المؤسسات وتسييرها، ومثلها المؤسسات الاجتماعية كملاجئ العجزة، ودور الأيتام، وما إليها بكل ما تتطلب من أوقاف، أو تبرعات تساعد على ذلك.

٣- حق إبداء الرأي والتفكير، مع ما يتضمنان من إمكان الاجتماع وتكوين الجمعيات والانضمام إلى جماعات، ما لم يكن بذلك مس بأمن الدولة، أو انتهاك لمشاعر المواطنين المسلمين. ويدخل في ذلك حق الاحتجاج والتظلم بكتابة العرائض، وتقديم الشكاوى، والدفاع عن الحقوق، وإبداء الملاحظات والانتقادات التي تتيحها نصوص القانون. وفي هذا الإطار يمكن السماح بصحيفة أو مجلة، أو ما إليهما لنشر الأخبار المتعلقة بالأقلية غير المسلمة، وكذا تخصيص برامج إذاعية، أو تلفازية -وفق خطة الإعلام الوطني- لمتابعة نشاط هذه الأقلية، حتى لا يبقى طي السر والكتمان، وما ينشأ عنهما من تدبير أو تفكير قد لا يسايران الخط العام، إن لم يعارضاه.

ولعلنا في غير ما حاجة إلى الحديث عن الحرية السياسية التي تدخل في هذا الإطار، بكل ما يرتبط بها من تشكيل الأحزاب، والانخراط فيها، وكذا التعبير عن المواقف والبرامج، والمشاركة في الانتخابات، وما إليها مما يتفق ودستور الدولة والقانون العام"^٢.

وقد بلغ الاهتمام بالنصارى في مصر مبلغاً كبيراً، حتى اهتم العلماء بما يعترض عليه النصارى من ألفاظ أطلقت عليهم في بلاد الإسلام فغيروها تطبيقاً لخاطرهم، وتمثيلاً للتسامح الفعلي معهم، فعندما أعلن النصارى أنهم يغضبون لإطلاق لفظ أهل الذمة عليهم في مصر -مع أنه لفظ إسلامي أصيل- كتب الأستاذ خالد محمد خالد كتابه: "مواطنون لا رعايا"، وتبعه

١ الفراء، الأحكام السلطانية، ص ١٦٠-١٦١.

٢ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية مؤسسة آل البيت، معاملة غير المسلمين في الإسلام، ج ٢، ص ٦٤٤-٦٤٥.

الأستاذ فهمي هويدي في كتابه: "مواطنون لا ذميون" وما كل ذلك إلا لأجل النصارى الذين يعيشون في مصر، والذين لم يرض لهم العلماء حتى ولو كلمة تعكر صفوهم، أو تجرح مشاعرهم.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد...

فأحسب أنه قد تبين لنا بعد هذه الدراسة الموثقة، المستمدة من شريعة الإسلام وتاريخه أن التسامح الإسلامي مع النصارى في مصر حقيقة ثابتة، شهدت بها نصوص الوحي من الكتاب والسنة، وشهد بها التاريخ الناصع منذ عهد الخلفاء الراشدين، ومن بعدهم من الأمويين والعباسيين والمماليك، وغيرهم في شتى أقطار الإسلام، وشهد بها الواقع الحالي في مصر من بناء مهول للكنائس لم يعهد في أي عصر مضى، ومن نفوذ فحج للكنيسة ورجالها.

نحن دعاة تسامح، ليس مما تجود به أنفسنا فحسب، ولكن لأن ديننا يأمرنا به، ويدعونا إليه، ويرينا عليه، لكن ليس معنى التسامح أن نقبل الدنية في ديننا، أو أن نتنازل عنه إرضاءً لأحد كائنًا من كان، ونحن لا نلزم أحدًا بترك دينه حتى يأمرنا بترك ديننا أو التخلي عن شريعتنا.

وبهذا يتضح أن الإسلام لا يعترض على أي من الأنشطة النصرانية، مهما بلغ حجمها ما دامت في إطار الشرعية، بحيث إنهما لا تؤذي مشاعر المسلمين، ولا تعتمد الإساءة إليهم، ولا تتعرض لمقدساتهم، ولا تطعن في القرآن أو السنة، ولا تعين غير المسلمين عليهم، ولا تحاول إضعاف شوكتهم، أو تغيير هويتهم، أو انتقاص حقوقهم، وكل هذا شريطة ألا تكون هذه الأنشطة داعية إلى فرقة، أو تحزب على أساس طائفي بغض.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الفاسي، بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام، تحقيق دكتور الحسين آيت سعيد، (الرياض: دار طيبة، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
٣. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
٤. ابن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، (مصر: مؤسسة قرطبة، د.ت).
٥. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، مختصر سيرة ابن هشام، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
٦. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر، د.ت).

٧. أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، المسند، تحقيق حسين سليم أسد، (دمشق: دار المأمون للتراث، ط ١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).
٨. أبو يعلى الفراء، القاضي محمد بن حسين الفراء الحنبلي، الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه المرجوم محمد حامد الفقي، (بيروت: منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة دار الكتب العلمية، د. ط، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م).
٩. الألباني، محمد ناصر الدين الألباني، غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٥هـ).
١٠. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق دكتور مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، ط ٣، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).
١١. البلاذري، فتوح البلدان، بدون.
١٢. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، (مكة المكرمة: دار الباز، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).
١٣. الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م).
١٤. الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله، كتاب الأم، (بيروت: دار المعرفة، ط ٢، ١٣٩٣هـ).
١٥. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، (الموصل: مكتبة الزهراء، ط ٢، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م).
١٦. عبد المنعم أحمد بركة، المستشار الدكتور عبد المنعم أحمد بركة نائب رئيس محكمة النقض، الإسلام والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين في عصور التاريخ الإسلامي وفي العصر الحديث، (مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٠م).
١٧. عمارة، محمد، الإسلام والأقليات الماضية والحاضر والمستقبل، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط ١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م).
١٨. عمارة، محمد، دكتور محمد عمارة في المسألة القبطية حقائق وأوهام، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط ٢، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م).
١٩. عمرو عبد السمیع، الإسلاميون حوارات حول المستقبل، (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د. ط، ١٩٩٢م).
٢٠. القرافي، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي، أنوار البروق في أنواء الفروق، تحقيق خليل المنصور، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م).
٢١. القرضاوي، د. يوسف، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، (القاهرة: مكتبة وهبة، د. ط، ١٩٩٢م).
٢٢. القرضاوي، د. يوسف، الإخوان المسلمون سبعون عامًا في الدعوة والتربية والجهاد، (القاهرة: مكتبة وهبة، د. ط، ١٩٩٩م).
٢٣. القرضاوي، د. يوسف، الأقليات الدينية والحل الإسلامي، سلسلة رسائل ترشيد الصحوة (٧)، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).
٢٤. الجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، معاملة غير المسلمين في الإسلام، (عمان: مؤسسة آل البيت، د. ط، ١٩٨٩م).
٢٥. الصالحی، محمد بن يوسف الشامي، سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق إبراهيم التريزي، وعبد الكريم العزباوي، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، د. ط، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م).
٢٦. مسلم، ابن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت).

٢٧. النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، (بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م).
٢٨. الهيثمي، علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ).

الأسس والمنطلقات الإسلامية لمواجهة التحديات المعاصرة

أحمد باكر صالح الباكري*^١

ملخص البحث:

من المعلوم للخَاصِّ والعَامِ، أن ما تمرُّ به أمةُ الإسلامِ في هذا الزَّمانِ من محن، وما يُعانيه أفرادُها وأبنائها من صعوباتٍ في التعاملِ مع واقعهم المحيط، بسببِ ما يُواجهونه من التَّحدياتِ المعاصرة، على صعيدي المعرفة والسلوك. وإنَّ التعاملَ مع هذه التحدياتِ مبنيٌّ على إدراكها وفهمها، ورسمِ الطريقِ المناسبةِ لاستيعابها... ومن تمَّ العملِ الميدانيِّ الجادَّ لمواجهةِها وعلاجها. وفي هذه الورقاتِ تُوصِّفُ لأهمِّ التَّحدياتِ التي تواجهُ الفردَ المسلمَ اليومَ، ومحاولةً لرسمِ الطريقِ لحلِّها.

تمهيدٌ: في أهميَّةِ العملِ على مواجهةِ التَّحدياتِ المعاصرة

حَفِظَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الدِّينَ وَبَارَكَهُ وَجَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَدْيَانِ، وَجَعَلَهُ مَحْتَوِيًّا عَلَى أَصُولٍ وَقَوَاعِدَ تُهَيِّئُهُ لِيَكُونَ صَالِحًا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ. وَلَكِنَّ اللهُ تَعَالَى كَمَا حَفِظَ هَذَا الدِّينَ فِي نَصِّهِ الْأَصْلِيِّ (الْكِتَابِ الْعَزِيزِ) وَتَكَفَّلَ بِذَلِكَ وَلَمْ يَكُلِّهِ لِأَحَدٍ، فَإِنَّهُ جَعَلَ الْفَهْمَ عَنْهُ وَتَوْضِيحَ أَحْكَامِ شَرْعِهِ وَتَنْزِيلَهَا عَلَى الْوَاقِعِ مَهْمَةً الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَحْفَظُونَ حُدُودَهُ وَيَبْلُغُونَ أَحْكَامَهُ.

ومن ضمن هذه المهمة الموكولة للعلماء مهمة استيعاب إشكاليات الواقع المعيش، وطرق التواصل والتفاعل معه، ومحاولة رنطه بالمفاهيم الشرعية وتطبيقها عليه، ومن ثم استخلاص الحكم الشرعي في التفاعل والتعامل معه.

وقد قام العلماء الراسخون من سلف الأمة الصالح بالمهمة خير قيام، وذلك بمواجهتهم للتحديات التي واجهتهم كل في مجاله وحسب طبيعة عصره. ومن الأمتلّة على ذلك:

أ- جُهودُ علماء العقيدة في مواجهة البدع، فقد ظهرت في أواخر عصر الخلافة الراشدة وبعدها بعض مظاهر الانحراف الفكري، دعت العلماء (وعلى رأسهم الصحابة الكرام) إلى مواجهتها والتصدي لها.

١- فمن ذلك ما وقع للإمام عليّ عليه السلام مع الخوارج^٢، فقد ظهر أولئك القوم في أيام فتنة أهل الشام (معركة صفين)، ونادوا بشعارهم الشهير (لا حكم إلا لله)، فكان من الإمام عليّ توجيههم ونصحهم وتذكيرهم، وكان منه -بعد يأسه من

* أستاذ مشارك بكلية الشريعة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٢ الخوارج: حوالي عشرين فرقة، تجمعهم ثلاثة أصول: (تكفير علي وعثمان والحكمين، والتكفير بالكبائر، والخروج على الإمام الجائر)، انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ج ١، ص ٧٢. ومما يساعده على نشوء مثل هذا الفكر الضالّ ظهور اتجاه ما يُسمى بالتعامل مع الدليل مباشرة من دون اعتبار فهم أهل العلم، مما يؤدي للجرأة على العلماء بل التقلت التام، وبالتالي عدم الإعدار عند الاختلاف بل الرمي بالائتاهم مباشرة كالتبديع والتفسيق وأحياناً التّكفير.

هَدَايَتِهِمْ - قَاتَلَهُمْ وَإِرَاحَهُ الْأُمَّةِ مِنْهُمْ، وَهَكَذَا نَرَى عِنْدَهُ ﷺ مَعَالِمَ فِي التَّعَامُلِ مَعَ تَحَدِّيَاتِ عَاصِرَتِهِ، انْتَقَلَ فِيهَا مِنَ اللَّيْنِ إِلَى الشَّدَةِ، وَمِنَ التَّوَجِيهِ وَالنَّصْحِ إِلَى الْحَسْمِ وَالتَّعَامُلِ الْقَانُونِيِّ^١.

٢- وَمِنْهُ مَا وَقَعَ لِابْنِ عُمَرَ ﷺ مَعَ الْقَدَرِيَّةِ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ^٢ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: "كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدْرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجَهَنِيِّ، فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمَيْرِيِّ حَاجِّينَ أَوْ مُعْتَمِرِينَ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدْرِ، فَوَفَّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاسْتَنْفَتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلْنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَفَقَّهُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ -، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَاقَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أُتْفَ، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أَوْلِيكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ! لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أَحَدٍ دَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ... " الْحَدِيث.

٣- وَمِنْهُ مَنَازِرَةُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ لِمُنْكَرِي خَبَرِ الْآحَادِ فِي الْأَحْكَامِ، وَمَنَازِرَتُهُ لِحَفْصِ الْفَرْدِ فِي الْقَدْرِ، وَكِلَاهُمَا تَعْبِيرٌ عَنِ الْمَوَاجَهَةِ الْفِكْرِيَّةِ لِلتَّحَدِّيِ الَّذِي وَاجَهَهُ الْإِمَامُ حِينَئِذٍ^٣.

٤- وَمِنْهُ وَفَقَةُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ الصَّارِمَةِ الْوَاتِقَةَ ضِدَّ مَنْ قَالُوا بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، فِي أَخْبَارِ شَهِيرَةَ مُسْتَفِيضَةٍ عَنْهُ، يَعْرِفُهَا الْجَمِيعُ.

ب- جُهُودُ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ فِي التَّصَدِّيِ لِلْوَضْعِ وَالْوَضَاعِينِ

فَقَدْ ابْتَدَأَ الْوَضْعُ فِي الْحَدِيثِ يَفْشُو وَيَنْتَشِرُ فِي أَوَاسِطِ وَنَهَائِيَةِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ، وَكَانَتْ لَهُ دَوَافِعُ مُتَعَدِّدَةٌ: مِنْ زُنْدَقَةِ وَكْفَرٍ، وَمِنْ حُبِّ شُهْرَةٍ وَتَدْلِيْسٍ، وَمِنْ عَقْلِيَّةٍ وَجَهْلٍ.

فَظَهَرَ الْكَذِبُ وَاخْتَلَطَتْ الْأَخْبَارُ وَدَلَّسَ النَّاسُ، فَقَيَّضَ اللَّهُ لِلْحَدِيثِ نَفْرًا مِنَ الْمُخْلِصِينَ بَيْنُوا صَحِيحَهُ مِنْ سَقِيمِهِ، وَنَاسِخَهُ مِنْ مَنْسُوخِهِ، وَفَضَّحَ اللَّهُ بِهِمُ الْكَذِبَةَ وَالْمَفْتَرِينَ، وَدَحَضَ بِهِمْ أَقَاوِيلَ الْمُتَقَوِّلِينَ.

فَلَمَّا انْتَصَرَ الرَّجَالُ لِمَذَاهِبِهِمْ تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ فِي الرَّجَالِ وَبَيَّنُّوا أَحْوَالَهُمْ، وَصَنَعُوا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ عَجَائِبَ يَكِلُّ الذَّهْنَ عَنِ تَصَوُّرِهَا، وَيَحْتَارُ فِي فَهْمِهَا وَاسْتِعَايَجِهَا، قَالَ الْبُرْهَانُ الْبُقَاعِي: "قَالَ شَيْخُنَا [ابن حجر] فِي خُطْبَةٍ كَتَبَهَا "لِسَانِ الْمِيزَانِ": وَقَدْ

١ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣٠٨، ٣١٢ وغيره من كتب التاريخ.

٢ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والقدر، ج ١، ص ٢٨، رقم ١٠٢.

٣ انظر: نقاشة لمنكر حديث الآحاد في كتابه الرسالة، باب خبر الواحد، ص ٣٦٩ فما بعدها. وانظر: خير مناقشته لحفص الفرد في ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٢، ص ٩٨.

٤ قال بخلق القرآن: المعتزلة والإباضية والزيدية والإمامية، ونفاة أهل السنة والأشاعرة والماتريدية والمفوضة. انظر: الجديد، العقيدة السلفية في كلام رب البرية، ص ٧٧-٢٨٥.

حكى القاضي عبد الله بن عيسى بن هبة عن شيخ من الخوارج أنه سمعه يقول بعد ما تاب: إن هذه الأحاديث دينٌ فانظروا عمن تأخذون دينكم فإننا كنا إذا هوبنا أمراً صيرناه حديثاً^١.

ولمَّا كذبوا في اللّقاء والعصريّة استعمل العلماء لهم الضبط في عدّ السنين، فبيئوا الطبقات وتعاصر الرجال، ولم يدعوا في الكذب والتدليس مطمعا لطامع.. قال الإمام الحافظ ابن جماعة: قال سُفيانُ الثوري: لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ^٢.

وكانت لهم في كلِّ ميدانٍ جولات، وفي كلِّ ساحةٍ صولات، حتى استقام الأمر وانصلح الحال وحفظت السنة ودونت الدواوين.

وهذه الجهود القوية المخلصة من السلف الصالح وعلماء الأمة تدلنا على ما كانوا يتمتعون به من فهمٍ لمهمتهم العظيمة، وما كانوا يتحلون به من صبرٍ واحتمالٍ في سبيلِ تأديتها على أكمل وجهٍ وأتم حال.

وإنه لينبغي أن تكون هذه السيرة العطرة لعلماء الأمة المخلصين نبراساً وسراجاً لكل من يأتي بعدهم، لكي تستمر مسيرة العلم والإرشاد وتبين الحق والخير.. ولتكون الأمة قادرة على مواجهة ما يعرض لها من تحديات كبيرة في هذا الزمن، ليسير أبنائها على بصيرة من أمرهم ورشدٍ من رأيهم.

ومن هذا الباب فإننا ينبغي أن نعمل على توصيفٍ جادٍ حقيقيٍّ لما يواجهنا من مشكلاتٍ معاصرة، وعلى رسمٍ منهجٍ واضحٍ نسلكه لحلها وعلاجها.

وهذا هو جوهر المنطلق الإسلامي لمواجهة التحديات.. الرصد الدقيق، والحل العميق.

ومن هنا جاء هذا البحث الموجه إلى النخب العلمية والثقافية، والأساتذة المرين، وصناع الفكر والقرار، لتكون لهم رؤية واضحة وعمل جاد في سبيل الإصلاح والتوجيه، واستيعاب روح العصر وإشكالاته.

القسم الأول: وصفٌ مجملٌ لأهم ما يواجه أفراد الأمة من تحدياتٍ معاصرةٍ

يُمكن -أولاً- أن نُقسّم التحديات التي تواجه الأمة إلى نوعين: الأول: نوع متعلق بالمعرفة. الثاني: نوع متعلق بالشؤون.

وهذا التقسيم منقسّم الشهير للفتن إلى: فتن الشبهات، وفتن الشهوات.

قال ابن القيم: والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد^٣.

^١ البقاعي، التكت الوفيّة، ج ٩، ص ٥٤.

^٢ ابن جماعة، المنهل الرّوي، ص ١٤١.

^٣ ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصادب الشيطان، ج ١، ص ١٢.

ويمكن أن تُقسّم التّوَع الأوّل (التّحدّيات المعرفيّة) إلى قسمين: الأوّل: تحدّيات الغايات والمحتوى. الثّاني: تحدّيات الوسائل والأدوات. وتحت كلّ منهما أقسامٌ وطبقات. ويبنّى التّوَع الثّاني (التّحدّيات السّلوكيّة).

التّوَع الأوّل: التّحدّيات المعرفيّة

ويمكن أن نرصد تحته شطرين من التّحدّيات:

الشطّر الأوّل: تحدّيات الغايات والمحتوى. وتحت ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: ما يتعلّق بمناقشة حجّة النصوص الشرعيّة (وعلى رأسها القرآن)، ومدى إلزامها للإنسان وضرورتها لحياته، وهذا القسم يتبدّى في مظهرين من التّحدّي:

أ- مظهر يُناقش الأسس المعرفيّة القبليّة التي يثوم على الإيمان بها مفهوم حجّة النصوص الشرعيّة، مُتدرّجًا من أفسى أنواع الرّفص (الإلحاد التام والكفر بالله) إلى أنواع أخفّ ك(اللاأدرية، والرّبوبيّة [أي: اللادينيّة أو اللاوحيّة])^١ مُمتدًا إلى أنواع تقترب كثيرًا ك(الرّفص النّاشئ عن اتّباع دين سماويّ آخر يدعي أنه الأصوب).

ب- مظهر يُناقش الأسس المعرفيّة التي تُحايط الإيمان بالدين الإسلاميّ معترفًا بوحيايّته ومصدره الإلهي، في الوقت الذي تناقش فيه إشكاليّة إلزام إنسان العصر الحاليّ بأحكام الوحي السّابقة (مدرسة الأرخنة التامة للوحي)^٢.

ويمكن أن نرصد في هذا الاتجاه حاليًا موجة (الملاحدين الجدد) في الغرب بزعامة (ريتشارد دوكنز) و(دانييل دانيت) وأمثالهما وأتباع هذه الموجة في بلاد الإسلام، وموجة (التاريخانيين)^٣ أمثال (محمّد أركون) و(محمّد شحرور)^٤ وللكلام عن مُلابسات نشوءهما وتطورهما سياقٌ يخصّه.

الطبقة الثّانية: ما يتعلّق بمناقشة مدى صلاحية الأدوات الثّرانيّة الشرعيّة (علم أصول الفقه وقواعد تفسير دلالات النصوص) لفهم النصّ، وترى تحت هذه الطبقة نوعين من الطرح:

أ- نوع لا يحسب حسابًا لاتساق التّأويل مع مُراد المتكلّم، بحيث يفصلُ الكلام عن مراد قائله تمامًا، تأثرًا ببعض المدارس الحدائيّة العدميّة (كمدرسة موت المؤلّف)^٥.

١ الرّبوبيّة: الإيمان بالرّب دون الإيمان بالنبوات والأديان. واللاأدرية: التوقف والشك في كلّ شيء وادعاء الجهل التام بكلّ ما يتعلّق بشؤون الغيب.

٢ الأرخنة: مصطلح يقصد به (منع تعديّة الأحكام المتعلّقة بمن معيّن إلى غيره إلا بتعدلاتٍ عليها تتناسب والزمن المنقول إليه)، وهذا فالتقائلون بالأرخنة يدعون أنّ الدين الإسلاميّ [وغيره من الموروثات] ليس إلا نتاج تجربة مجتمعيّة تفاعل فيها الفكر مع الحاجة البشريّة، وهم في هذا قسمان، وسأبي التوضيح في حاشية قادمة.

٣ التاريخانيّة أو التاريخانيّة الجديدة (New Historicism): منهج أدبيّ وصفي تبلور في حفل النقد الحدائيّ فيما بين عام ١٩٧٠م إلى ١٩٩٠م، رسالته: لزوم مراعاة الظروف والسّياقات الزمنيّة والتاريخيّة للنصّ قبل تعديته لواقعٍ آخر، انظر: تدابير التاريخانيّة لفرانسوا هارتوغ، ترجمة د. بدر الدين عروديكي.

٤ مع التّحفظ على كلا الموقفين، فموقف أركون ليس واضحًا تمامًا، فأحيانًا يدعي أن مهمته تقريب دين المسلمين إليهم كما في كتاباته عن (الإسلاميات التطبيقية) وأحيانًا تراه في موقف مُناقض تمامًا، وموقف صاحبه ليس بأوضح منه.

٥ نتاج من نتاجات فلسفات "الموت" العدميّة [فلسفات النّهائيات (= the ends)]، تدعي عدم احتياج العمليّة التّحاطبيّة لافتراض مراد القائل باعتبار أنّ النصّ منغلّق على ذاته يستمد منها وإليها، وبالتالي يصيرُ النصّ غايةً للتّلدّ لا وسيلةً لفهمه، وهذه الفكرة هي المحضن الأمّ الذي نشأت في أحضانهِ "النبويّة"، ومصطلح موت

المؤلّف مصطلح باري (=منسوبٌ إلى رولان بازت) انظر: النظرية الأدبية المعاصرة، ص ١٣٠.

ب- ونوعٌ لا يصلُ إلى علوِّ السابق، غيرَ أنه يرى تعدُّد مُراداتِ المتكلم، بحيثُ يكونُ الكلامُ صالحًا لمراتبِ تأويليةٍ مختلفة، ويجعلُ الحاكمَ فيها التجرِبةَ الإنسانيَّةَ وصورَةَ الحياة، ويستخدمُ لمقارنةِ دلالاتِ النصوصِ منهجًا هرميوطيقياً^١ (=تأويلياً)، وهذه هي (مدرسةُ البنيوية) أو (التشريحية) [=التفكيكية].

الطبقةُ الثالثة: ما يتعلَّقُ بمناقشةِ مدى صلاحيةِ بعضِ الأحكامِ الشرعيةِ (وعلى رأسها الحدودُ، وأحكامُ المرأة، ومسألةُ الحرية) للواقعِ المعاصر، ومدى إكباتيةِ تأويلها.. إمَّا (في إطارِ القواعدِ الشرعيةِ الكلية)، أو (في إطارِ التجرِبةِ الإنسانيةِ العقلانية) بحسبِ مُنطلقاتِ طارِحِ الإشكالات، (مدرسةُ الأرخنةِ الجزئية)^٢.

هَذَا رصْدٌ جَمَلٌ لأهمِّ مظاهرِ تحدياتِ المضمونِ والغاياتِ، وتحت كلِّ بندٍ مما سبقَ تفرِعاتٍ ومساائل، ولكلِّ بابٍ منها سياقٌ خاصٌّ به، وتفصيلٌ طويلٌ يحتويه.

الشَطْرُ الثَّانِي: تَحَدِّياتُ الوَسَائِلِ والأدواتِ

التَحَدِّياتُ المتعلِّقةُ بهذا البابِ نَوْعَانِ:

١- نوعٌ يتعلَّقُ بالوسائلِ من حيثُ علاقتها بالمضمونِ

وتبرُّزُ في هذا المجالِ عدَّةُ تحدياتٍ:

الأوَّلُ: تحَدِّي الإِتِّقان، وهو مجموعةٌ من الصُّعوباتِ التي تواجهُ المتعاملَ بهذه الأدواتِ في عرضِ مادَّةٍ علميةٍ متقنة، في الوقتِ الذي تتطلبُ منه كثيرٌ من هذه الأدواتِ السُّرعةَ والتزامنَ مع الحدث، فرمًا لم يكنَ تعليقُهُ أو وصفُهُ أو حُكْمُهُ مُتَقَنَّاً (لأنَّ السُّرعةَ سحبتْ من رصيدِ الإِتِّقان)، وربما إذا أتقنَ فاتتتهُ فرصةُ التفاعلِ السريعِ من خلالِ هذه التقنيَّة.

الثَّانِي: تحَدِّي الموضوعية، وهو ما يتعلَّقُ بقدرةِ المتعاملِ مع هذه الأدواتِ على إنتاجِ عملٍ علميٍّ رصينٍ متقنٍ بعيدٍ عن التَّحَيُّرِ، في الوقتِ الذي يتفاعلُ فيه لحظياً مع أحداثٍ ووقائعٍ تواجهُهُ، ويكُونُ له -بلا شكَّ- رأيٌ في كلِّ حدَثٍ منها، فرمًا كانَ لرأيه هذا أثرٌ في تحيُّزِهِ لطرفٍ أو رأيٍ -خاصَّةً عندَ حوضِهِ في نقاشٍ مع من يخالفُهُ الرأي- فيكونُ هذا عاملاً يسحبُ من رصيدِ الموضوعيةِ والأمانةِ.

^١ الهرميوطيقاً (=التأويلية)، نسقٌ فكريٌّ متعلق بعلمية الفهم والإفهام يدعي إعطاء مفاتيح لفهم النصوص تفوق في جودتها ودقة نتائجها الأدوات التراثية أو اللغوية الجردة المعروفة، فهي تحاول (إعادة بناء الخبرة الذهنية للمتكلم) من خلال سياقات الكلام وقراءة منطق الحدث، و(البنيوية والتفكيكية) مدرستان تنتميان لهذا السياق الفكري ذاته.

^٢ القائلون بأرخنة النصوص قسمان: أ- من يدعي أنَّ الدينَ من حيثُ هو ليسَ إلا نتاجَ تجرِبةٍ بشرية، والحقائق التي وردت في الوحي ليست حقائق في حاقٍ الخارج ونفس الأمر بل هي حقيقة بالنسبة إلى من ادعاها ورأها مفيدة، فالنصُّ أصلاً متموضعٌ في (الرَّمكان)، وهذا يعني أنَّه محكومٌ به لا حاكمٌ عليه! وبالتالي ينبغي أن يعاد إنتاج الأفكار والتصورات عن الكون الإنسان والحياة مع كلِّ تجرِبةٍ بشريةٍ وتطورٍ جديدٍ، وبالتالي أيضاً فالوحيُّ كُله لا حاجةٌ إليه اليومَ للاختلافِ الكليِّ في طبيعة الحضارة والسياسِ الإنساني (وهذه مدرسة الأرخنة التامة). ب- من يتفق مع المؤمنين في أصل الحاجة إلى المرشد السماوي، ويرفض ادعاء الاختلاف الجذري للحقائق باعتبار رفضه للنسبية المطلقة أولاً، وباعتبار إيمانه بوجود مشتركات إنسانية لا تختلف في جميع مراحل التطور البشري، وبالتالي فلا بد من وجود نسبة من الحقائق الثابتة، مع تغيير لبعض الأحكام التي لها تعلق شديد بالتطور الزمني (مدرسة الأرخنة الجزئية) وهكذا يُردُّ النصُّ إلى ما هو بشري وعقلي وتاريخي، بحيث يُصبح مجرد نصٍّ من إنتاج العقل العربي، انظر: الحوار أفقا للفكر، ص ١٦٠-١٦١.

٢- ونوعٌ يتعلّق بالوسائلِ من حيثُ علاقتها بالملقي والمتلقّي ونرى في هذا المجال عدّة تحدّياتٍ:

الأوّل: تحدّي الإثارة، ونقصُ هذا التحديّ تحوّل الإثارة الإعلامية - في واقعنا - من وسيلةٍ إلى غاية، وبالتالي جعلها هدفًا رئيسًا ولو على حسابِ ضميرِ الملقي وفائدة المتلقّي !
فالمسلم لا ينبغي أن تكون الإثارة عنده هدفًا يحرف من أجله وجه الحقيقة، ويضيع فائدة السامع، بل يضعها في مكانها الصحيح وهو كونها وسيلة.

الثاني: تحدّي الكسوة، ونعني به القدرة على إنتاج عملٍ دعويٍّ أو علميٍّ متقنٍ من ناحية صورته، بحيث يكون جذابًا للمتلقّي واضحًا له، قريبًا من مستوى تعليمه وطريقة تفكيره، والتحدّي هنا يكمن في نقطتين:
الأولى: عدم انحصار وسائل التأثير وأساليبه، وعدم توقّفها عند مرحلة معيّنة (التطوير).
الثانية: اختلاف طبائع الناس وتنوع أمزجتهم، وتباين ثقافتهم ومستويات تعليمهم، (الشمول).
هذا رصدٌ محمّلٌ لأهمّ مظاهر تحديات الوسائل والأدوات، وتحت كل بندٍ مما سبق تفرّعات ومسايل وتفصيلٌ طويلٌ.

النوع الثاني: التحديات السلوكية

يمكن أن نلخص التحديات السلوكية في جانبين: أحدهما شخصي والآخر اجتماعي.
فالجانب الشخصي: يتعلّق بما يُبث اليوم في القنوات الهدامة والمجلات الهابطة من مشاهدٍ وصورٍ وإغراءاتٍ، تدعو للزينة وتُحارب الفضيلة، وترى الشرف والالتزام عارًا والفجور والفسوق فخرًا ورفعةً، وهذا جانبٌ أشيعٌ بحثًا وكتابةً، وكثر الكلام فيه في وسائل الإعلام وغيرها.

والجانب الاجتماعي: يتعلّق بالضغوط الاجتماعية التي تُصعب الالتزام بالأخلاق والقيم الإسلامية، وهو ناشئٌ عن الاحتكاك - المباشر وغير المباشر - بثقافاتٍ وأعرافٍ مختلفّةٍ عن الأعراف الإسلامية، وبالتالي التأثير بنمط حياتها وطريقة عيشها، وهذا جانبٌ يحتاج دراساتٍ مستقلةً واعيةً، ومن الواضح أنه يستقي من رافدين:

الأوّل: الجانب الشخصي، فله تأثيرٌ كبيرٌ في توجيه سلوك الشخص - وبالتالي - سلوك الجماعة، ولهذا فالجانب الأوّل من مكونات الثاني.

الثاني: الجانب التواصلية (وهو المعبر عنه بالاحتكاك)، وهو سلاحٌ ذو حدين، يمكن استخدامه في الاستفادة من التجارب السابقة المتنوعة، ويمكن الوقوع بسببه تحت تأثير ما نشير إليه من التحديات الاجتماعية وضغوطها.
وهذا الجانب يزيد من خطورته في زماننا الوسائل المتطورة الحديثة للاتصالات والمواصلات، والتي غاب عنها الرقيب وأطلق من أسر الحدود، وصار الضامن للالتزام هو الضمير الحي والفكر الواعي فقط.
ولنتقل الآن إلى رسم المنهاج المناسب ووضع القواعد اللازمة لمواجهة هذه التحديات.

القسم الثاني: المنهج الملائم لمواجهة كل واحد من التحديات السابقة

أولاً: تحديات المعرفة

إِذَا قَسَمْنَا التَّحَدِّيَاتِ -أولياً- إِلَى (غَائِيَّة) وَ (وَسَلِيَّة) فَإِنَّا نَسْتَبِقُ بِالْقَوْلِ: (التَّحَدِّيَاتُ الغَائِيَّةُ المضمونيَّة طريقيُّ مَواجهَتَها المحتوى الفكريُّ السليم، والتَّحَدِّيَاتُ الوَسَلِيَّةُ والأدوائيَّة طريقيُّ مَواجهَتَها الشكلُ المنتظمُ والوسائلُ المتطورةُ معَ مراعاةِ تناسبِها معَ الغاية).

ولكنَّ للتفصيل الذي يزيدُ العُرضَ دقَّةً نقولُ:

١- تحدياتُ الغايةِ والمحتوى ثلاثُ طبقاتٍ كما مرَّ معك:

أ- طبقةٌ تتعلقُ بمناقشةِ حُجِّيَّةِ النصوصِ الشرعيَّةِ أساساً، وهذه معناها: عدمُ التسليم -منذُ البدايَّة- بأيَّةِ مُصادراتٍ علميَّةٍ أو فكريَّةٍ داخلِ الإطارِ الإسلامي، وبالتالي فالنقاشُ سيكونُ في مُربِّعٍ آخر هو إطارُ المصادراتِ الإنسانيَّةِ المتفقِ عليها، ك(حقائق) العِلْمِ التجريبيِّ الثابتة، و(القواعد) العَقْلِيَّةِ الأُولِيَّة، أو -في حالةِ الجدالِ والنقاشِ- إطارُ المصادراتِ المشتركةِ بينَ المسلمِ وبينَ المُحاورِ له من حيثُ أنَّها تُلزمُهُ (ولو لم تكنُ تلزمُ المسلمَ بالضرورة).

وبالتالي -أيضاً- فالمضمونُ الذي يُواجهُهُ هذا النوعُ من التحديات لا بُدَّ أن يتعلَّقَ أصالةً بالحقائقِ الإسلاميَّةِ من حيثُ أدلتها الثابتة بالعقلِ والعِلْمِ (وهما مشتركٌ إنسانيٌّ علميٌّ).^١

ويجدُ هذا النوعُ من البحثِ والنقاشِ أصوله في الكتابِ العزيزِ.

فأمَّا الكتابُ، فقد حثَّ على استخدامِ العقلِ والعِلْمِ مراراً وتكراراً ودَمَّ من لا يستخديمونه قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٨]، وَقَالَ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤، ٧٦ وآل عمران:٦٥ ونحو ١٠ مواضع أخرى]، وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

وقَدْ أَلَزَمَ المُخَالِفَ بما يُؤمِنُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩]، وَقَالَ: ﴿قُلْ قد جاءكم رسلٌ من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾ [آل عمران:١٨٣].

وَأَلَزَمَهُ بما يراهُ وَيُشاهدُهُ، فَقَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ﴾ (٥٨) أأنتم تخفونهُ أم نحن الخائفون (٥٩) نحنُ قدَرنا بينكم الموتَ وما نحنُ بمسبوقين (٦٠) على أن نُبدلَ أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون (٦١) ولقد علمتمُ النشأةَ الأولى فلو لا تدكرون (٦٢) أفرايتُمْ ما تحزبون (٦٣) أنتم تزرعونهُ أم نحنُ الزارعون (٦٤) لو نشاءُ جعلناه حطاماً فظلمتمُ فمكّهون (٦٥) إنا لمُعزمون (٦٦) بل نحنُ محزمون... ﴿ [الواقعة].

وأما تصرُّفُ العلماءِ على مرِّ العصورِ فشاهدٌ قويٌّ، وأوضحُ ذلكُ كُتُبُ حُجَّةِ الإسلامِ الإمامِ الغزاليِّ في (تهافتِ الفلاسفة)، و(القسطاسِ المستقيم) وغيرهما، وكُتُبُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيمية، فقد ردَّ في كُتُبِهِ على أهلِ الفلاسفةِ والإحاديِّ وأهلِ

^١ يُعنى ب(المصادرات) المسائل المتفق عليها أثناء البحث والتداول، والتي لا تُبهرن بل تُؤخذ كمتلمات.

^٢ إلا عند من طبع الله على بصره وبصيرته من المؤمنين بالنسبية الحضرة، أو السوفسطائيين الجدد، فلا كلام مع مثل هؤلاء؛ لأنه لا حاصل لهم ولا مضمون.

الكتابتين بالعقل والعلم، ومن راجع كتابه (درء تعارض العقل والنقل)، وكتابه (الجواب الصحيح) وجد ذلك بوضوح. وأما في الواقع المعاصر فقد كتب الأستاذ (سلطان العميري) كتاب (الحّد الأرسطوي، جذوره الفلسفية وأثاره العملية)، وهو من الكتب المؤسسة لبيان جانب معرفي مهم، يتعلّق بارتباط العقيدة الإسلامية بالمعطى العقلي والمنطقي اليوناني.

ب- طبقة تتعلّق بمناقشة مدى صلاحية الأدوات التراثية الشرعية لفهم النصّ، وهذه معناها: عدم التسليم بصلاحية علم أصول الفقه¹ و(قواعد تفسير دلالات النصوص) لفهم النصّ الديني (القرآن أساساً والسنة تبعاً).

ومناقشة هذا الادعاء إما أن تكون إيجابية أو سلبية، فالإيجابية معناها (إثبات صلاحية هذه العلوم لفهم النصوص وتبرير مصادراتها معرفياً)، والسلبية معناها (إثبات عدم صلاحية أيّ منهج بديل لفهم النصّ فهماً صحيحاً).

وبالتالي فالمضمون الذي يواجهه هذا النوع من التحدّيات لا بُدّ أن يتعلّق أصالةً بالحقائق الإسلامية من حيث مُشتملاتها اللغوية والدلالية، ومناقشة علاقة كلٍّ من (الدال) و(المستدل) ب(المدلول = المطلوب)، ولكلّ جانبٍ من هذا الحلّ حاجة ماسةً إلى مشروعٍ علميٍّ، وهو ما يحتاج وصفاً دقيقاً وعملاً جاداً!²

وقد بدّل علماء أصول الفقه وعلماء العقيدة جهوداً كبيرةً في هذا الباب، تمتد من كلامهم حول (منشأ اللغات) وقواعد (الوضع والاستعمال والحمل)، إلى كلامهم حول (الحقيقة والمجاز) و(النصّ والظاهر والمؤول).

فنبين أنّ المضمون الذي يواجهه هذا النوع من التحدّيات لا بُدّ أن يتعلّق أصالةً بعلوم الدلالات اللغوية والعرفية والشرعية، التي أصولها في المنطق، وفروعها في علم الأصول ومقاصد الشريعة³.

ج- طبقة تتعلّق بمناقشة مدى صلاحية بعض الأحكام الشرعية (وعلى رأسها الحدود، وأحكام المرأة، ومسألة الحرية) للواقع المعاصر، ومدى إمكانية تأويلها⁴.

وهذه الطبقة من الإشكالات من أهمّ التحدّيات، وهي تطرّح نوعين من الأسئلة:

النوع الأول: الأسئلة الباحثة في مناخ (مدى تأثر أحكام النصّ بأحوال العباد).

وهذا جانبٌ تمتّ دراسته كثيراً عند الفقهاء والأصوليين، وتجّد أمثلة تأسيسيه في أبواب مثل (الأهلية وأنواعها وعوارضها)، و(تغير الأحكام بتغير الأزمان)، و(دوران الحكم مع العلة) و(توجهات الخطاب وتعلقاته).

النوع الثاني: الأسئلة الباحثة في مناخ (مدى مرونة الأحكام الشرعية للتغير [سواءً بتغير التعطيل أو تغير التحويل]).

¹ لا بُدّ من الإشارة إلى وجود تيارات معيّنة داخل البيت الإسلامي حرّمت علم أصول الفقه في بعض الأزمان، واعتبرته منقداً للتلاعب بمعاني النصوص كما عند الأخبارية من الشيعة، وتيارات أخرى تُقلل منه ولا تهتم به كعص أهل الحديث مثلاً.

² علاقة الدال بالمدلول تدرسهما علوم الدلالة، وما نشأ على ضفافها من المناهج البنوية والتفكيكية، وعلاقة المستدل (=الإنسان) بالمدلول تدرسه علوم النفس والاجتماع الفلسفية، وعلوم اللغات (=الألسنيّات الحديثة)، وجمع الفرعين ما يُسمّى اليوم ب(الهرمنيوطيقا الحديثة). ولا بُدّ اليوم من استئثار جهود علماء الإسلام لتكوين علمٍ إسلاميٍّ جديدٍ يُعنى بالجواب عن هذه الإشكالات، يكون امتداداً لأبواب الدلالات في علم الأصول، وللاستاذ محمد يونس علي محاولة رائدة في الباب في دراساته الجادة حول المقاربة الأصولية / الألسنيّة، وعلى رأسها كتابه **علم الخطاب الإسلامي**.

³ مع مراعاة الرّبط بين هذا السياق وبين السياق العالمي السابق ذكره (علوم النفس الفلسفية والألسنيّات الحديثة).

⁴ نقصد بالطبع التأويل الذي يكون من داخل المنظومة الاستدلالية الإسلامية، حيث اعتبرنا هذه الطبقة أعلى من سابقتها.

وهذا أيضًا جانبٌ مهمٌّ، وجُدُورُهُ عندَ الأصوليين هي:

التفرقة (أولًا) بينَ (أحكامِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَأحكامِ التَّبْلِيغِ) وللإمامِ القرافيِّ فيها كتابٌ^١.

والتفرقة (ثانيًا) بينَ (الحُكْمِ التَّعْبُدِيِّ والمَعْلَلِ)، وأفضل من تناوله الشاطبي في الموافقات^٢.

والتفرقة (ثالثًا) بينَ الخلافِ المَعْتَبَرِ وغيرِ المَعْتَبَرِ، ووضع الضوابطِ التَّامَّةِ في هذا المجال، وهو كسابقه^٣.

والكلام في هذه الطبقة الأخيرة من التحديات له أهميةٌ كُبرى، وذلك للأسباب التالية:

الأول: أنه ينطلق من مُسَلِّماتٍ علمية وفكرية وعقدية إسلامية، بحيث لا يُشكك في المسلّمات التأسيسية القبلية (= ما

يتعلّق بحجة الوحي)، ولا في المسلّمات الاستدلالية البعدية (= قواعد تفسير النصوص = فهم السلف = علم الأصول)، بل

يتحرّك في نطاق الأسس المعرفية الإسلامية / السُّنِّيَّة، وهذا أدعى لقبوله ومحاولة تفهمه.

الثاني: أنه متجدّد بتجدد مشكلات العصر ونوازلِه ومسائلِه، ومُتأثِّر باختلافِ مُعطياته بيئته وثقافته وزمانًا ومكانًا.

الثالث: أن له جُدُورًا أصيلةً في التراث، كالحلقات العقدية الفرعية، والحلقات الفقهية وما يُبني عليه من الخلافات في

تفسير القرآن وشرح الأحاديث.

وعلى ما سبق فالطرح المعاصر حول (قضية الحرية) و(حقوق المرأة)، ونحوهما موضع بحثٍ خصٍ من حيث إمكانية

تطبيق ما يُصاغ من النظرياتِ عليه، وللأستاذ العميري كتابٌ مهمٌ حول الحرية، يدور في هذا الفلك^٤.

ثانيًا: تحديات السلوك:

لا شك أن تحديات السلوك تُواجه بالتربية الصحيحة، هذا أصلٌ مؤسس.

ولكن علينا أن نفهم أن الإشكال السلوكي غالبًا ما يكون مركبًا من إشكال معرفي وإشكال نفسي واقعي.

ولذا فعلاجه يكون بمعجونٍ من العلم والعمل = (المعرفة والسلوك).

العلم: بتقدّم وجبات فكرية معرفية مناسبة حول كل إشكال يتمّ طرحه.

والعمل: بتقدّم منظومة متكاملة من الأعمال والنشاطات التي تُربي في الإنسان الوازع الداخلي، مع مراعاة مسألة القدوة

والتصحيح التطبيقي.

وهذا يستدعي أيضًا تأهيل المربين وبيئتهم ضرورته، والمربون كثر، وعلى رأسهم الوالدان والمعلمون.

والتأهيل الذي يلقاه الوالدان والمعلمون هو - بلا شك - من أهمّ عوامل نجاح العملية التربوية، وبالتالي عملية المحافظة على

الجيل من ما يُصادمه من تحديات أخلاقية وسلوكية.

^١ وهو الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، مطبوع.

^٢ الشاطبي، الموافقات، ج ٢، ص ٥١٨.

^٣ انظر: الزركشي، البحر المحيط، ج ٦، ص ٤١٦-٤٣٠.

^٤ وهو قضاءات الحرّية، مطبوع.

وهذا التأهيل في جوانب عديدة، من أهمها: كَيْفِيَّةُ غَرْسِ الْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وترسيخها، وفنون التعامل مع الأبناء ومُشكلاتهم، وطرق المحافظة على الحُصُوصِيَّةِ في زمنِ العولمة والدوبان في المحيط، وهكذا. ولكلِّ واحدٍ من هذه المجالاتِ سياقٌ يُحْصُ الكَلامُ فيه.

النتائج والتوصيات:

(١) النتائج:

- ١- تواجه الأمة الإسلامية اليوم تحديات كبيرة، على جانبي المعرفة والسلوك.
- ٢- التحديات المعرفية منها ما يتعلق بالمضمون ومنها ما يتعلق بالشكل والأدوات.
- ٣- التحديات السلوكية منها ما يتعلق بالفرد ومنها ما يتعلق بالجمتمع، ولكليهما تأثير في الآخر.
- ٤- المطلوب (إجمالاً) لمواجهة أيّ تحدٍّ هو التوصيف الدقيق والعمل المنضبط السليم.

(٢) التوصيات:

- ١- من المهم قبل حل أيّ مشكلة فهمها واستيعابها، ولهذا فيُفْتَرَحُ إنشاءً مرصداً فكرياً يغطي جوانب التحديات المعاصرة، وليكن هذا العرض الموجز السابق ورقة عمل تأسيسية في هذا المشروع.
- ٢- لا بُدَّ لتحسين شباب الأمة فكرياً من تعليمهم العلوم المعيارية المؤسسة للفكر، نحو (المنطق) و(آداب البحث والمناظرة)، ولا بأس للمتمكن منهم في العقائد من دراسة كلام أهل العلم الموثوقين في (علم الكلام).
- ٣- من الأولويات الحالية إعداد الوسائل المناسبة وتوفير الطرق والأساليب الحديثة لنشر العلم والفكر السليم، فالناس اليوم يحبون تقدم المعلومة بصورة صحيحة جذابة، والقراء أيضاً قلّة قليلة في هذا الزمان، ولذا لزم استخدام الوسائل التقنية الحديثة في هذا الباب. من المستحسن إعطاء دورات مكثفة حول كيفية استخدام الأدوات الحديثة، وتوظيفها في هذا المجال.
- ٤- التركيز على إعداد المرين من والدين ومعلمين، بحيث يكونون قادرين على إنشاء ثقافة أخلاقية صحيحة، وتمكين من الحفاظ على شباب الجيل كيلا ينزلق في منزلق الشهوات والفن، والله أعلم.

المصادر والمراجع:

١. ابن تيمية، عبد الحليم، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تحقيق علي حسن بن ناصر (الرياض، دار العاصمة، ط ٢ عام ١٤١٩هـ).
٢. ابن تيمية، عبد الحليم، دَرءُ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّفْلِ، (الرياض: نَشْرُ جَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ، ط ٢، ١٤١١هـ).
٣. ابن جماعة، بدر الدين، المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي، (دمشق: دار الفكر، ط ٢، ١٤٠٦هـ).
٤. ابن حزم، التَّقْرِيبُ لِحَدِّ الْمَنْطِقِ وَالْمَدْحَلُ إِلَيْهِ، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار مكتبة الحياة، ط ١، ١٩٩٩م).
٥. ابن قيم الجوزية، إغاثة اللفهان من مصاديد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، (الرياض: مكتبة المعارف).

٦. ابن كثير، البداية والنهاية، (دمشق: دار إحياء التراث، ط ١، ١٤٠٨هـ).
٧. البقاعي، التُّكْتُ الوفيّة بما في شرح الألفيّة، تحقيق: ماهر ياسين الفحل (الرياض: مكتبة الرُّشد، ط ١، ١٤٢٨هـ).
٨. الجديع، عبد الله بن يوسف، العقيدة السلفية في كلام رب البرية، (الرياض: دار الصمعي، ط ٢، ١٤١٥هـ).
٩. حسام الدين حامد، خطة معرفية للعمل في ملف الإلحاد، (نشر بمجلة حراس الشريعة، العدد الرابع، ١٤٣٤هـ، ضمن إصدارات مركز نماء).
١٠. ديفيد كارتر، النظرية الأدبية، ترجمة باسل المسالمة، (دمشق: دار التكوين، ط ١، عام ٢٠١١م).
١١. الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٨هـ).
١٢. رُولان بارت، لذة النَّصِّ، ترجمة د. منذر عياشي، (طبع مركز الإنماء الحضاري باتفاق مع دار لوسوي باريس، ضمن الأعمال الكاملة لبارت، الطبعة ١ عام ١٩٩٢م).
١٣. الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، (دمشق: دار الكتي، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
١٤. السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، (الرياض: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤١٣هـ).
١٥. الشاطبي، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن، (الأردن: دار ابن عفان، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
١٦. الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق أحمد شاکر (مصر: مكتبة الحلبي، ط ١، ١٣٥٨هـ - ١٩٤٠م).
١٧. صولدان، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة وتقديم: جابر عصفور، (طبع دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة ١ عام ١٩٩١م).
١٨. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ).
١٩. طه عبد الرحمن، الحوار أفقا للفكر، (الرياض: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط ١، عام ٢٠١٣هـ).
٢٠. العميري، سلطان، إشكالية الإغذار بالجهل، (طبع مركز نماء للبحوث، ٢٠١٢م).
٢١. العميري، سلطان، الحدّ الأرسطي، رسالة مقدّمة لنيل الماجستير في العقيدة من جامعة أم القرى، (دار الميمان للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ).
٢٢. العميري، سلطان، فضاءات الحرّيّة، (طبع المركز العربي للدراسات الإنسانية، ٢١٠٣م).
٢٣. الغزالي، أبو حامد، القسطاسُ المستقيم، تحقيق محمود بيجو، (دمشق: المطبعة العلمية، ط ١، ١٩٩٣م).
٢٤. الغزالي، أبو حامد، تهاوت الفلاسفة، تحقيق: سليمان دنيا، (دار المعارف، ط ٨، عام ١٩٧٢م).
٢٥. فرانسوا هارتوغ، تدابير التاريخانية، ترجمة: بدر الدين عرودكي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ٢٠١٠م).
٢٦. محمد محمد يونس علي، علمُ التخاطب الإسلامي، (المدار الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٦م).
٢٧. مسلم، الصحيح، (بيروت: دار الجليل، د. ط. مصورة من النسخة التركية المطبوعة في إستانبول سنة ١٣٣٤هـ).

التعامل مع غير المسلمين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

د. عبد الله بن مسلم الأحمدي^١

ملخص البحث:

في عصرنا هذا أصبح المسلمون يختلطون بغير المسلمين أكثر من أي وقت مضى، الأمر الذي يُوجِّب على المسلمين أن يتعرفوا على موقف الإسلام من العلاقة بغير المسلمين. والبحث يلقي الضوء على بعض الأحكام والأخلاق في التعامل مع غير المسلمين، من خلال أوثق المصادر (القرآن الكريم والسنة النبوية). فهو (أي البحث) قائم على الدليل، وليس على العصبية والهوى والمزاج الشخصي. وقد أظهر البحث أن الأصل في أن علاقة المسلمين بغيرهم علاقة سلم للأدلة القوية الصريحة. وأن من روعة الإسلام دعوة غير المسلمين للإسلام بالموعظة الحسنة دون إرغامهم على اعتناقه. والتشديد على عدم ظلمهم إن ظلوا على دينهم، ورغم ذلك أباح التعامل معهم في البيع والشراء والتأجير ونحو ذلك. وأن من روعة الإسلام دعوته كذلك المطالبة بحفظ عهدهم وحرمة دمائهم وأعراضهم وأمواهم والترغيب في الرفق بهم واللين لهم ومعاملتهم بالحسنى كما دعا الإسلام إلى جميل الأخلاق معهم، فأباح إلقاء تحية الإسلام إليهم، ولم يمنع مزاملتهم في العمل، ولم يحرم تهنئتهم في الأعياد والاحتفالات ومجاملتهم في المناسبات الدنيوية بغير ارتكاب محرم. وحث على برهم وصلتهم خصوصاً الوالدين، وأجاز تعزيتهم واتباع جنازتهم وأمر في مخاطبتهم بحسن الكلام ولينه، ومراعاة منزلة المخاطبين. وهكذا نرى أن البشرية لم تعرف للإسلام نظيراً في حسن معاملته للمخالفين له في العقيدة والفكر.

المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل الله، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه.

أما بعد! فإن دين الإسلام هو دين الله الكامل الذي قال الله فيه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة 3]، والعدل والإحسان من مقاصد ومظاهر الإسلام ومبدأ من مبادئه السمحة، ولذلك كان على المسلم أن يعامل غير المسلمين بالعدل والإحسان والبر، ودعوته بفقته وحكمته وبصيرة.

وما من شك في أن موضوعاً كهذا من الأهمية بمكان، فبسبب الخلل في فهم هذه العلاقة كثر الطاعنون في دين الإسلام، وشمر المشككون لتشويه حقيقة هذا الدين المشرقة. والأدلة من الكتاب والسنة على التعامل مع غير المسلمين واضحة تحكم أمور التعامل فهي مبنية على أسس سليمة قائمة على الإحسان والحق والعدل، دونما حرج أو عنت. لكن هناك خلط عند

^١ الأستاذ المساعد في علوم العقيدة والفرق والأديان والمذاهب المعاصرة، قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الجوف.

كثير من طلبة العلم فضلا عن عوام المسلمين في الجمع بين تحريم مودة الكفار، وبين ما ورد في الكتاب والسنة جواز التعامل مع غير المسلمين بالتوسط والعدل والبر والإحسان، مما أوقع بعض المسلمين في حيرة عن كيفية التعامل مع غير المسلمين. فالمشكلة في ظن أن البر والإحسان إلى غير المسلمين يعارض تحريم مودتهم: ففريق غلا في الإفراط، وظنوا أن البراءة من الكافرين، تقتضي ظلمهم، واستباحة أموالهم، ودماءهم. وفريق غلا في التفريط، فهاجموا عقيدة البراءة من غير المسلمين، وطالبوا بإلغائها، لأنها -بزعمهم- تؤصل ثقافة الكراهية لغير المسلمين، وتؤجج نار التطرف والغلو، ودين الله وسط بين الغالين الذين عطلوا نصوص البر والإحسان والعدل مع غير المسلمين، وبين الجافين الذي عطلوا نصوص البراءة من الكافرين، وبالغوا في أعمال نصوص البر والإحسان إلى غير المسلمين إلى حد التميع للدين^١، والحق فيه التفصيل بالترق بين مودة الكافر والإحسان إليه.

مدخل: الأصل في التعامل مع غير المسلمين

هذه القضية تعتبر من أهم القضايا التي شأها الكثير من الالتباس لدى كثير من المسلمين في هذا العصر. مع كثرة النصوص الواردة من الكتاب والسنة التي جاءت موضحة ومبينة لهذه القضية، ومع أن أهل العلم اختلفوا إلى قولين مشهورين:

القول الأول: أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هي الحرب:

وعليه الجمهور^٢، واستدلوا بنصوص كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وجه الدلالة في ذلك: أن الله تعالى أمر المسلمين بأن يقاتلوا غير المسلمين حتى يسلموا أو يعطوا الجزية أمرا مطلقا غير مقيد^٣، وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَدِّثْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقوله تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتْرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وجه الدلالة في ذلك: أن الله تعالى نهى في كتابه الكريم عن اتخاذ الكافرين أولياء، وفي هذا دليل على أن لا تكون بين المسلمين وغيرهم محالفة أو موالاة^٤.

^١ ينظر: العتيبي، الفرق والبيان بين مودة الكافر والإحسان إليه دراسة عقديّة في ضوء الكتاب والسنة.

[http://www.riyadhalelm.com/researches/1/63_frq_byan.pdf]

^٢ ينظر: ابن الهمام، شرح فتح القدير، ج ٤، ص ٢٨٢؛ وابن عبد البر، الكافي، ص ٢٠٨؛ والشيرازي، المهذب، ج ٢، ص ٢٥٩؛ وابن المفلح، الفروع، ج ٦، ص ٢٥٣؛ والمرادي، الإنصاف.

^٣ ينظر: عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية، ص ١٧.

^٤ ينظر: أبو السعود، التفسير، ج ١، ص ٣٧٣.

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى»^١.

وجه الدلالة في ذلك: أن أصحاب هذا القول أسسوا قواعدهم على أساس أن غير المسلمين إذا دعوا إلى الإسلام، وأقيمت عليهم الحجة، وأزيلت عنهم الشبهة، كان إعراضهم عن الإسلام وإصرارهم على الكفر إيدان المسلمين بالحرب، فيجب على أهل الإسلام أن يرغموهم على الحق قسراً^٢.

القول الثاني: أن الأصل في العلاقة بين في علاقة المسلمين بغيرهم هي السلم، ومن قال بذلك الثوري والأوزاعي والكمال بن الهمام وابن تيمية وابن القيم^٣، وأغلب الفقهاء المتأخرين والمعاصرين^٤. واستدلوا بنصوص كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجنات: ١٤]. فالآية الأولى تدعو إلى الأمر بالعفو والصفح، فدل على أنه الأصل، وأما الآية الثانية فدللت على البر والعدل للكفار إذا اعتزلوا المسلمين ولم يقاتلوهم، أما الآية الأخيرة فإنها تدعو إلى العفو عن الكفار.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط؛ فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذمة ورحماً أو قال ذمة وصهراً»^٥، قال النووي: «أما الذمة فهي الحرمة والحق وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم^٦، وعن عبد الرحمن بن عائذ رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا بعث بعثاً قال: «تألفوا الناس وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين أحب إلي من أن تقتلوا رجالهم وتأتوني بنسائهم»^٧.

^١ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم ٢٥؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم ٢٢.

^٢ ينظر: عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية، ص ١٨.

^٣ ينظر: محمد علي سليم الهواري، طبيعة علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية)، م ١٢، ص ٣٧٩ وما بعدها، العدد الثاني، يونيو ٢٠١١ م.

^٤ ينظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ١١، ص ٢٨٠؛ وأحمد شلبي، العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، ص ٢٥؛ وأبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، ص ٤٧-٤٨؛ وعبد الوهاب خلاف، نظام الدولة الإسلامية في الشؤون الدستورية، ص ٧٧، ومحمد أحمد باناجه، المبادئ الأساسية للعلاقات الدولية والدبلوماسية، ص ١٤-١٥، والزحيلي، مقومات السلم وقضايا العصر، ص ٨٩-٩٠؛ وعبد الله غوسة، الحرب في الفقه الإسلامي، ص ١٣٦؛ وعبد الله بن زيد آل محمود، الجهاد المشروع في الإسلام، ص ٢٦-٢٧.

^٥ مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، برقم ٢٥٤٣.

^٦ النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٦، ص ٩٧.

^٧ عزاه البوصيري في إتحاف الخيرة، ج ٦، ص ٣٣٢؛ وابن حجر في المطالب العلية، ج ٢، ص ١٦٦ مراسلاً لمسدد والحوارث.

وقالوا: إن الكفر ليس موجبا للقتل، بدلالة أن جمهور الفقهاء ذهبوا إلى تحريم قتل النساء والصبيان والشيخوخة ونحوهم أثناء المعركة؛ لأنهم ليسوا من أهل القتال، ولو كان الكفر وحده سببا للقتل لشملهم القتل أيضا^١.

المذهب الراجح:

في الواقع أن المذهب القائل بأن العلاقة بين المسلمين وغيرهم علاقة حرب لا علاقة سلام لم تسلم أدلتهم من المناقشة، ولم يسلم لهم الاستدلال بها، وقد أجاب أصحاب القول الثاني عن الأدلة التي استدلت بها أصحاب القول الأول بإجابات كثيرة ليس هذا مجال بسطها فالأصل في ذلك: قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لكن نشير إلى جملة منها، ففي قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [التوبة: ٢٩]. فالآية نزلت في اليهود والنصارى^٢، وهناك صفات مذكورة في الآية كاشفات عن حقيقة العدو، وليست منشئة للحكم بقتالهم، فلو كان القتال موجه الكفر لوجب على المسلمين الاستمرار بالقتال حتى يبيدوا الكفار عن أحرهم^٣، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿بِخَبْرٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مِنْكَ قَبْلًا يَا رَبُّ إِنَّا كُنَّا بِمَا نَعْبُدُ عُصَايَا لَكَ فَأَنْزَلْتَنَا فَخُورًا﴾ [يوسف: ٢٣]، ثم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، دليل على أن الأمر بالقتال موجه الكفر غير مراد^٤. أما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] فالآية صريحة في أن الدافع للقتال هو رد العدوان، فقوله تعالى: كما، تفيد التعليل، يقول ابن عطية: "وإنما معنى الآية الحض على قتالهم والتحزب عليهم وجمع الكلمة، ثم قيدها بقوله: ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم"^٥. وأما الاستدلال بآيات النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء كقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٢٩]، فلا دليل فيه صريح على القتال، إنما المقصود النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء وذلك بمناصرتهم ومحالفتهم ضد المسلمين، قال السعدي: "هذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن موالاته الكافرين بالحب والناصره والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين"^٦.

^١ ينظر: المطعني، سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقة الإنسانية، ص ١٦٨.

^٢ ينظر: الخازن، التفسير، ج ٣، ص ٣٥٠.

^٣ ينظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ١٠، ص ٣٤٩.

^٤ ينظر: عبد العظيم، سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله، ص ١٧٠ وخلاف، السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية، ص ١٨.

^٥ ينظر: ابن عطية، تفسير القرآن الكريم، ج ٣، ص ٣٥٢.

^٦ ينظر: السعدي، تفسير القرآن الكريم، ص ١٢٧. "والولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد. وقد قيل: إن الولي سمي وليا من موالاته للطاعات، أي متابعتها لها، والأول أصح". وابن تيمية، الفرقان، ص ٩.

أما الاستدلال بقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس..»^١، فالمشهور من قول العلماء أنه خاص بمشركي العرب وليس عاما لجميع الناس، قال ابن الهمام: "وقتل الكفار الذين لم يسلموا وهم من مشركي العرب"، وقال السندي في حاشيته على سنن النسائي: "ثم لا بد من حمل الحديث على مشركي العرب"^٢. فالراجح والعلم عند الله أن القائلين بأن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم علاقة سلم فأدلتها قوية وصريحة وبعيدة عن التهوين والمناقشة.

الفصل الأول

بعض الأحكام الشرعية في القرآن الكريم والسنة النبوية في التعامل مع غير المسلمين المتفق عليها

المبحث الأول: دعوتهم إلى الله تعالى

الدعوة إلى الله تعالى تحتل مكانة مهمة في دين الإسلام، فهي تبليغ لرسالة الله تعالى إلى البشر، لئلا يكون لهم عذر عند الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، والإسلام دين خاطب الله به البشرية جميعا، وأتباعه يدعون غيرهم إليه فلا يمنعهم كفرهم وشركهم من دعوتهم إليه قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمُورًا﴾ [التوبة: ٦]. ففي قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمُورًا﴾ أي استأمنك فأمنه^٣: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي القرآن الكريم، أو أومر الإسلام ونواهيته^٤، ويقول سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، ففي قوله: أي: من بعثت إليهم من الأمة قاطبة، فحذف المفعول للتعميم^٥. ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام وإلى الإيمان بالله تعالى وطاعته^٦.

يقول ابن القيم: "جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق. فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه: يدعى بطريق الحكمة. والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر: يدعى بالموعظة الحسنة. وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. والمعاند الجاحد: يجادل بالتي هي أحسن"^٧.

المبحث الثاني: عدم ظلمهم

من سماحة هذا الدين وعدله مع مخالفه عدم الظلم، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، قال الطبري: "ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله

^١ ينظر: ملا علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج ٦، ص ٧٤.

^٢ السندي، الحاشية على النسائي، ج ٢، ص ٤٥٧.

^٣ ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٠، ص ١١٧.

^٤ ينظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج ٦، ص ٣٢٢٣.

^٥ أبو السعود، تفسير القرآن الكريم، ج ٥، ص ١٥١؛ وابن عطية، تفسير القرآن الكريم، ج ٣، ص ٤٤٢.

^٦ ينظر: القشيري، لطائف الإشارات، ج ٢، ص ٢٢٩.

^٧ ينظر: ابن القيم، التفسير القيم، ص ٣٥٩.

شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدّي، واعملوا فيه بأمرى. وأما قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾، فإنه يقول: ولا يحملنكم عداوة قوم على ألا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة^١. ويقول القرطبي: "وقد دلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه^٢. ويقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، فالحق هو المطلوب في الحكم سواء كان المحكوم عليه يهوديا أو مجوسيا، أو مسلما حنيفيا^٣. وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وفي رواية: "لى أن يوحدوا الله"، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^٤. في رواية: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا فإنه ليس دونها حجاب»^٥، قال العلامة صالح الفوزان: "واتق دعوة المظلوم) هذه وصية هامة، يجب على الراعي والأمير وكل مسلم أن يحذر من دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب، أي دعوة المظلوم مستحابة، حتى ولو كان كافرا... فالمظلوم ترفع دعوته إلى الله عز وجل، والله جل وعلا يجيب دعوة المظلوم"^٦. وكان هذا الصنيع من المسلمين تجاه مخالفهم محل تقدير ومحبة لهم، فقد كتب نصارى الشام في صدر الإسلام سنة ١٣هـ إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه يقولون: "يا معشر المسلمين! أنتم أحب إلينا من الروم؛ وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا"^٧.

المبحث الثالث: التعامل معهم في البيع والشراء والتأجير ونحو ذلك

لقد كان من هديه ﷺ التعامل مع غير المسلمين في البيع والشراء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "إن النبي ﷺ اشترى طعاما من يهودي إلى أجل ورهنه درعا حديد"^٨. قال النووي: "فيه جواز معاملة أهل الذمة، والحكم بثبوت أملاكهم على باقي ما في أيديهم"^٩.

^١ ينظر: الطبري، التفسير، ج ١٠، ص ٩٠.

^٢ ينظر: القرطبي، التفسير، ج ٦، ص ١١٠.

^٣ ينظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٥، ص ٣٢٣.

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن...، برقم ٤٣٤٧؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، برقم ١٩.

^٥ أخرجه أحمد في مسنده، ج ٢، ص ٣٦٧. وقال المنذري في الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ١٨٧: "رواه أحمد بإسناد حسن".

^٦ ينظر: صالح الفوزان، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، ج ١، ص ١١٠.

^٧ ينظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٩؛ وتوماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٣؛ وأبو يوسف، كتاب الخراج، ص ١٣٩.

^٨ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستقراض وأداء الديون، باب من اشترى بالدين وليس عنده ثمنه أو ليس بحضرتة، برقم ٢٢٥؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، برقم ١٦٠٣.

وقد يستشكل البعض رهن رسول الله ﷺ درعه عند رجل يهودي، والصحابة رضي الله عنهم يقدونه ﷺ بأرواحهم، خصوصا الموسرين منهم. فكان الصنيع ذلك منه ﷺ ليعلم الناس أن الإسلام يميز التعامل مع أهل الذمة إذا لم يكن محرما. وتوفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير^٣.

أما من ناحية التأجير فقد أستأجر رسول الله ﷺ عبد الله بن أرقط، وكان مشركا يدلله على الطريق للهجرة إلى المدينة المنورة^٥.

وقد عامل رسول الله ﷺ يهود خيبر على شطر ما يخرج منها من ثمر وزرع، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: "أعطى رسول الله ﷺ خيبر اليهود، أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها"^٦.

وعن سليمان بن يسار، أن رسول الله ﷺ كان يبعث عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إلى خيبر فيحرص بينه، وبين يهود خيبر، قال: فجمعوا له حليا من حلي نساءهم، فقالوا له: هذا لك، وخفف عنا، وتجاوز في القسم، فقال عبد الله بن رواحة: "يا معشر اليهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلي، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، فأما ما عرضتم من الرشوة، فإنها سحت، وإنما لا نأكلها"، فقالوا: "بهذا قامت السموات والأرض"^٧.

المبحث الرابع: حفظ عهدهم، وحرمة دمائهم وأعراضهم وأموالهم

إن الله تعالى أمر بحفظ العهود والمواثيق بصفة عامة يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا ءَلَيْمَنَ بَعَدَ تَوَكُّيدَهَا﴾ [النحل: ٩١]، وخص عهود غير المسلمين فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُواكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ ءَعْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]. قال الطبري: "الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه، فإن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته"^٨. وقال السعدي: "فهؤلاء أتموا لهم عهدهم إلى مدتهم، قلَّتْ، أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء"^٩.

^١ ينظر: النووي، شرحه على مسلم، ج ١١، ص ٤٠.

^٢ ينظر: النووي، شرحه على مسلم، ج ١١، ص ٤٠.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، برقم ٢٧٥٩.

^٤ قال القسطلاني والزرقاني في المواهب اللدنية وشرحها، ج ١، ص ٣٣٩: "عبد الله بن أرقط -بالقاف مصغرا-، وسماه ابن إسحاق في رواية "عبد بن أرقط"، وفي رواية الأموي عنه: "أرقط" بالبدال بدل الطاء، وبالطاء أشهر.. وهو أي: الرجل الذي أستأجره على دين قريش، من عبده الأوثان، لا من أهل الكتاب، ومع ذلك سخره الله لهما ليقضي الله أمره، وهذا من جملة الرواية، ولم يعرف له إسلام، هكذا جزم به الحافظ عبد الغني المقدسي في سيرته، وتبعه النووي. وقال السهيلي: "لم يكن إذ ذاك مسلما، ولا وجدنا من طريق صحيح انه أسلم بعد"، ولا يعترض بأن الواقدي ذكر أنه أسلم؛ لأنه قيد بصحيح، وضعف الواقدي معلوم خصوصا مع الانفراد، وكأنه سلفُ الذهبي في عده صحابيا. وقد قال في (الإصابة): لم أر من ذكره في الصحابة إلا الذهبي في التجريد."

^٥ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، برقم ٣٩٠٥.

^٦ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب مشاركة الذمي والمشركين في المزارعة، برقم ٢٤٩٩.

^٧ مالك، الموطأ، ج ٢، ص ٧٠٣.

^٨ ينظر: الطبري، التفسير، ج ١٤، ص ١٣٢.

^٩ ينظر: السعدي، التفسير، ص ٣٢٨.

بل جعل الله تعالى الوفاء بالعهد مقدم على نصرته المسلمين، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن لَّكْرٍ مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]، قال ابن عطية: "إن استدعى هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا نصركم على قوم من الكفرة فواجب عليكم نصرهم، إلا إن استنصروكم على قوم كفار قد عاهدتموهم أنتم وواثقتموهم على ترك الحرب، فلا تنصروهم عليهم؛ لأن ذلك عذر ونقض للميثاق وترك لحفظ العهد والوفاء به".^١

فالأصل أنه لا يجوز الغدر بالكفار بعد الأمان سواء بدم أو مال أو عرض وهذا متفق عليه بين المسلمين، قال تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفُوا إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ فَأَجْعَلِ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]، وقد أضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة في الوفاء بالعهد مع الكفار، فعن حذيفة بن اليمان، قال: "ما منعتني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل^٢ قال: فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ، فأخبرناه الخبر، فقال: «انصرفا، نفى لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»^٣. أما عن حرمة دم غير المسلم فقد شدد الإسلام على تحريم قتل النفس المحرمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ومن قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن رجعها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»^٤. وفي لفظ: «من قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وإن رجعها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»^٥. قال ابن حجر: "والمراد به من له عهد مع المسلمين سواء كان بعقد جزية أو هُدنة من سلطان أو أمان من مسلم"^٦. وقال رسول الله ﷺ: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً»^٧.

^١ ينظر: ابن عطية، التفسير، ج ٢، ص ٥٥٥.

^٢ والد حذيفة، واليمان لقب له، هو حَسْبِل بضم الحاء، وفتح السين المهملة، وباللام بن جابر بن أسيد ابن غطفان العبسي، حليف بني عبد الأشهل، وذلك لأنه أصاب في قومه دماً فهرب إلى المدينة فحالف بني عبد الأشهل، فسماه قومه اليمان لأنه حالف اليمانية يعنون الأنصار. شهد أحداً مع رسول الله ﷺ فأصابه المسلمون في المعركة فقتلوه يظنونه من المشركين ولا يدرون، وحذيفة بصيح: أبي أبي، ولم يُسمع فتصدَّق حذيفة بدينه على من أصابه، ويقال: إن الذي قتله عتبة بن مسعود. ينظر: خليفة، التاريخ، ص ٦٩؛ وابن عبد البر، الاستيعاب على هامش الإصابة، ج ١، ص ٣٦٥؛ وابن الجوزي، تليح فهم أهل الأثر، ص ١٨١؛ وابن الأثير، أسد الغابة، ج ٢، ص ١٦؛ وابن حجر، الإصابة، ج ١، ص ٣٣١.

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، برقم ٤٧٤٠.

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب اثم من قتل ذمياً بغير جرم، برقم ٦٥١٦.

^٥ أخرجه النسائي في سننه، برقم ٤٧٥٠.

^٦ ابن حجر العسقلاني، الفتح، ج ١٢، ص ٢٥٩.

^٧ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، برقم ٦٨٦٢.

وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما مبيناً أن قتل النفس الحُرمة وِرْطَة عظمى: "إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفكُ الدم الحرام بغير حله".^١

وكذلك حرم الإسلام استباحة أموال غير المسلمين فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أداها الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»، فلفظ (الناس) عام، يشمل عموم الناس مسلمهم وغير ذلك.

المبحث الخامس: مشروعية الرفق واللين لهم ومعاملتهم بالحسنى

إن من سماحة هذا الدين معاملة غير المسلمين بالرفق واللين، وهما سمة عامة في كل أمور التشريع الإسلامي، فقد كان هدي النبي صلى الله عليه وسلم أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه.^٢

يخاطب فيها النبي صلى الله عليه وسلم بها عائشة أم المؤمنين، عندما دخلوا اليهود على النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: السَّام عليك، قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: عليكم السَّام واللعنة، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرِّفْقَ في الأمر كلِّه»، فقلت: يا رسول الله! ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد قلتُ: وعليكم». وفي رواية بنحوه، وفيه: «إن الله رفيق يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأمر كلِّه». وفي رواية: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد قلتُ: وعليكم» ولم يذكر الواو. أخرجه البخاري ومسلم. وللبخاري: "أن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: السَّام عليك، فقال: وعليكم، فقالت عائشة: السَّام عليكم، ولعنكم الله، وغضب عليكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة عليك بالرفق، وإيَّاكِ والعُفْوَ والفُحْشَ»، قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «أو لم تسمعي ما قلتُ؟ رَدَدْتُ عليهم، فَيَسْتَجَابُ لي فيهم، ولا يستجاب [لهم] في». ولمسلم قال: "أتى النبي صلى الله عليه وسلم ناس من اليهود، فقالوا: السَّام عليك يا أبا القاسم، قال: وعليكم، قالت عائشة: بل عليكم السَّام والدَّامُ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة! لا تكوني فاحشة»، فقالت: أما سمعت ما قالوا؟ فقال: «أو ليس قد رَدَدْتُ عليهم الذي قالوا؟ قلتُ: وعليكم»، وفي أخرى نحوه، غير أنه قال: "فَقَطِنتُ بهم عائشة، فَسَبَّتهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مهلاً يا عائشة، فإن الله لا يُحِبُّ الفُحْشَ ولا التَّفَحُّشَ». وزاد: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَكُ يَمَانٍ مِّنْ مَّجِيكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُونَهَا فَيَنْسُ﴾ [المجادلة: ٨].^٤ بل بلغ النبي صلى الله عليه وسلم برفقه بعدائه أن سامح كفار قريش مع ما قاموا به من أذيته وطرده وهو في بالغ قوته،

^١ أخرجه البخاري في صحيحه موقوفاً، ج ٢، ص ٩، رقم ٦٨٦٣.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافه، رقم ٢٣٨٧.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "يسروا ولا تعسروا"، برقم ٦١٢٦؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مبادئه صلى الله عليه وسلم للأثام، رقم ٢٣٢٧.

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة السلام، كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين، وباب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يستجاب لنا في اليهود ولا يستجاب لهم فينا»، رقم ٦٤٠١؛ ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام...، رقم ٢١٦٥؛ والترمذي في سننه، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في التسليم على أهل الذمة، رقم ٢٧٠٢.

فقال ﷺ لهم بعد أن فتح مكة ودانت له جميع الرقاب: «ما تظنون أي فاعل بكم»، فقالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^١.

فالأصل في المعاملة الإحسان قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨١]، ولفظ الناس يشمل جميع الناس، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. والقول الحسن: هو التلطف في القول وعدم الغلظة والمجاملة في الخطاب.

وحدث الله الأنبياء عليهم السلام بالرفق واللين في بيان الحق لهم، فقال تعالى مخبرا عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيَنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

مودة غير المسلم تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- ١) قسم ينقض الإيمان ويطله، كمودة الكافر لكفره.
- ٢) قسم ينقص الإيمان، ولا يطله، كمودة الكافر لغرض دنيوي.
- ٣) قسم مباح، وهو المودة الطبيعية الفطرية، كمودة الزوج لزوجته الكتابية، والقريب لقريبه.

الفصل الثاني

بعض الأخلاق الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية مع غير المسلمين

المبحث الأول: إلقاء تحية الإسلام إليهم

إن من سماحة الإسلام مع غير المسلمين أنه أباح إلقاء السلام عليهم، فقد روى أسامة بن زيد رضي الله عنهما إن النبي ﷺ مر بمجلس فيه اختلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، فسلم عليهم النبي ﷺ^٢، يقول الإمام الطحاوي: "فذهب قوم إلى أنه لا بأس أن يتبدأ أهل الكفر بالإسلام، واستدلوا في ذلك بهذا الحديث"^٣.

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأبي الدرداء رضي الله عنه، وفضالة بن عبيد رضي الله عنه أنهم كانوا يبدؤون أهل الذمة بالسلام، وكتب ابن مسعود رضي الله عنه إلى رجل من أهل الذمة: "السلام عليك"^٤، وذكر النووي في شرحه لمسلم عن ابن عباس رضي الله عنه، وأبي أمامة رضي الله عنه، وابن محيريز الجمحي رضي الله عنه: "جواز ابتداء اليهود والنصارى بالسلام، ثم قال: "وهو وجه لبعض أصحابنا"^٥، وجاء في التمهيد:

^١ أخرجه ابن هشام في سيرته، ج ٤، ص ٥٤؛ والطبري في تاريخه، ج ٣، ص ٦٠؛ والبيهقي في السنن الكبرى، ج ٩، ص ١١٨.

^٢ أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم في مجلس فيه اختلاط من المسلمين والمشركين، رقم ٥٨٩٩؛ ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب من وعاء النبي ﷺ، وصره على أذى المنافقين.

^٣ الطحاوي، شرح معاني الآثار، ج ٤، ص ٣٤١.

^٤ ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد، ج ١٧، ص ٩١.

^٥ النووي، شرحه على مسلم، ج ١٤، ص ١٤٤.

"أن أبا أمامة الباهلي يسلم على كل من لقي من مسلم وذمي"^١، وقيل لمحمد بن كعب القرظي: "إن عمر بن عبد العزيز سئل عن ابتداء أهل الذمة، فقال: لا أرى بأساً أن نبداهم السلام"^٢، وروى البيهقي: أن أبا أمامة كان يقول: "إن الله عز وجل جعل السلام تحية لأمتنا وأماناً لأهل ذمتنا"^٣، وأما حديث سهيل عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»^٤، فقد كان ذلك لأسباب خاصة اقتضاها ما كان بينهم وبين المسلمين من الحروب، وكانوا المعتدين فيها، فقد روي عن عقبه بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني راكب غدا إلى يهود فلا تبدؤوهم بالسلام، فإذا سلموا عليكم فقولوا: وعليكم»^٥، فيظهر هنا أنه نهاهم أن يبدؤوهم بالسلام؛ لأن السلام تأمين وما كان يجب أن يؤمنهم وهو غير آمن منهم لما تكرر من غدرهم ونكثهم للعهد معهم، فكان ترك السلام عليهم تخويفاً لهم^٦.

أو أن تحريف اليهود سبباً في النهي عن بدئهم بالسلام، ومن المعروف أن الشيء يزول بزوال سببه؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة..."^٧، أو يكون المقصود: ليس عليكم أن تبدؤوهم كما تضعون بالمسلمين، يعني ليس له نفس درجة الاستحباب لبدء المسلمين بالسلام^٨.

وأما الرد على غير المسلم، فواجب، يقول الطبري: "واجب كل مسلم رد تحية الكافر بأحسن من تحيته، وقد أمر الله تعالى برد الأحسن والمثل"^٩، من غير تمييز منه بين الموجب رد الأحسن من تحيته عليه والمردود عليه مثلها"^{١٠}.

المبحث الثاني: مخالطتهم في العمل

نعم يجوز مخالطة ومشاركة غير المسلمين في العمل -إذا كان ليس محرماً- مع حسن معاشرتهم والتعامل معهم برفق لعموم قول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]، وليروا من المسلمين صورة صادقة للإسلام، ربما تكون سبباً في اعتناقهم الإسلام.

^١ ابن عبد البر، التمهيد، ج ١٧، ص ٩١.

^٢ ابن عبد البر، التمهيد، ج ١٧، ص ٩٢.

^٣ البيهقي، شعب الإيمان، الباب الحادي والستون، ج ٦، ص ٤٣٦.

^٤ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، رقم ٥٧٨٩.

^٥ أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب رد السلام على أهل الذمة، رقم ٣٦٨٩.

^٦ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٥، ص ٣٥٦.

^٧ سبق تخريجه.

^٨ ينظر: ابن عبد البر، التمهيد، ج ٧، ص ٩٣.

^٩ يقصد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾.

^{١٠} الطبري، التفسير، ج ٨، ص ٥٨٨.

لكن لا ينبغي أن تؤدي زمالة العمل مع غير المسلمين إلى اتخاذهم أولياء نأنس إليهم ونفرض إليهم بدخائل نفوسنا، ونبوح لهم بأسرارنا، لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨] بل تجوز المشاركة في السكن أو المجاورة فيه، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

يقول القرطبي: "الوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلماً كان أو كافراً وهو الصحيح"^١، والصحابة رضي الله عنهم لم يمنعوا أنفسهم من مجاورة غير المسلمين، فقد روى عبد الله بن عمرو أنه ذبح له شاة فجعل يقول لغلامه: "أهديت لجارنا اليهودي، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^٢، بل ويجوز العمل عند غير المسلمين، إذا كان العمل غير محرم، فعن كعب بن عجرة قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فرأيتُه متغيراً، قال: قلت: بأمي أنت وأمي مالي أراك متغيراً؟ قال: «ما دخل جوفي ما يدخل جوف ذات كبد منذ ثلاث». قال: فذهبت فإذا يهودي يسقي إبلًا له، فسقيت له على كل دلو بتمرة، فجمعت تمرًا؛ فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم^٣، ولا يعد مخالطة غير المسلمين ومشاركتهم في السكن، داخل في نطاق النهي عن موالاة الكافرين، "إذ النهي عن موالاة الكافرين يقصد به النهي عن مخالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، كما يقصد به النهي عن الرضا بما هم فيه من كفر، إذ أن مناصرة الكافرين على المسلمين فيها ضرر بالغ بالمسلمين، وإضعاف لقوة الجماعة المؤمنة، كما أن الرضى بالكفر كفر يحظره الإسلام ويمنعه، أما الموالاة بمعنى المسالمة والمعاشرة الجميلة، والمعاملة بالحسنى وتبادل المصالح، فهذا مما دعا إليه الإسلام"^٤.

المبحث الثالث: التهنة في الأعياد والاحتفالات

أباح الإسلام تهنة غير المسلمين في المناسبات، والاحتفالات الدنيوية كتهنتهم بالزواج، أو ولادة مولود، أو قدوم مسافر، أو شفاء مريض - لكن هناك ضوابط لهذه التهنة، فليست تهنة بلا قيود قائمة على الهوى، بل هي محاطة بإطار الشياء، يقول الإمام ابن القيم: "ولكن ليحذر الوقوع فيما يقع فيه الجهال من الألفاظ التي تدل على رضاه بدينه، كما يقول أحدهم: متعك الله بدينك، أو يقول: أعزك الله أو أكرمك الله، إلا أن يقول: أكرمك الله بالإسلام وأعزك به، ونحو ذلك فهذا من التهنة بالأمر المشتركة"^٥، وإذا كان غير المسلم يجامل المسلم ويهنته من مثل هذه الأمور، فلا ينبغي للمسلم أن يكون أقل من غيره، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، والله تعالى يقول: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ نَبَرُّوهُمْ وَنُقَسِّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

^١ القرطبي، التفسير، ج ٥، ص ١٨٤.

^٢ رواه البخاري في الأدب المفرد، باب يبدأ بالجار، رقم ١٠٥.

^٣ أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٧١٥٧. وذكره السيوطي في جامع الأحاديث، ونسبه للطبراني، رقم ٤٠٩٤٠.

^٤ السيد سابق، فقه السنة، ج ٢، ص ٦٠٤.

^٥ ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٤٤١.

[المتحنة: ٨]، ومن البر بهم مجاملتهم في المناسبات الدنيوية ما دام لا يرتكب فيها محرماً، وربما يكون هذا السلوك من عوامل هداية هؤلاء، لكن المحرم هنا التهنة بأعياد دينية تمثل عقيدتهم، فلا نشاركهم فيها ولا نهنئهم بها.

يقول ابن القيم: "أما التهنة بشعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق، مثل: أن يهنئهم بصومهم، فيقول: عيد مبارك عليك، أو تهنأ بهذا العيد ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر، فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب"^١.

المبحث الرابع: بر الوالدين وصلة الأرحام

الله تعالى أوجب بر الوالدين بالمعروف والإحسان إليهم، ولو كانا كافرين، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ٤]، يقول ابن كثير: "وصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي تحسن إليهما"^٢ وزاد الألوسي الأمر بياناً فقال: "أي: صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم والمروءة كإطعامهما وكسائهما، وعدم جفائهما، وانتهارهما، وعيادتهما إذا مرضا، وذكر "في الدنيا" لتهوين أمر الصحبة والإشارة إلى أنها من أيام قلائل وشيكة الإنقضاء، فلا يضر تحمل مشقتها لقلّة أيامها وسرعة انصرامها"^٣، بل بلغ من جمال الإسلام أن سمح للابن المسلم إذا طلب منه والداه الكافران أن يذهب بهما إلى الكنيسة، لعجزهما، أن يذهب بهما، بل ويعطيها ما ينفقان في أعيادهما^٤.

ورغب الإسلام في صلة الرحم الكافرة، فعن أسماء بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنهما- قالت: "قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت علي وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك»^٥، قولها: "راغبة" أي: راغبة عن الإسلام وكارهة له، قال النووي: "وفيه جواز صلة القريب المشرك"^٦، و الصحابة الكرام ﷺ كانوا يصلون أقاربهم المشركين، فعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه رأى حلة سراء^٧، يعني تباع عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها للناس يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك فقال رسول الله ﷺ: «إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة»، ثم جاءت رسول الله ﷺ منها حلة فأعطى عمر بن الخطاب ﷺ منها حلة فقال

^١ ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٤٤١.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٣٢٧.

^٣ الألوسي، التفسير، ج ١٥، ص ٤٣٩.

^٤ ينظر: الأبي الأزهرى، الثمر الداني في تقريب المعاني، ج ١، ص ٦٧١؛ والعدوي، الحاشية على شرح كفاية الطالب، ج ٨، ص ١٢.

^٥ أخرجه البخاري في الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج، رقم ٥٦٣٥.

^٦ النووي، شرحه على مسلم، ج ٧، ص ٨٩.

^٧ قوله: "سراء" أي: حرير أو ثياب مختلفة الألوان. ينظر: النووي، شرحه على مسلم، ج ٤، ص ٣٨.

عمر: كسوتينها يا رسول الله وقد قلت في حلة عطارد^١ ما قلت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أكسكها لتلبسها، فكساها عمر أحياناً له مشركاً بمكة^٢»^٣.

قال النووي: "وفيه دليل لجواز صلة الأقارب الكفار، والإحسان إليهم وجواز الهدية إلى الكافر"^٤، فالنبي ﷺ أوصى بصلة الرحم الكافرة البعيدة، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون إرضاً يذكر فيها القيروط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً^٥»، فالقيروط: جزء من أجزاء الدينار والدرهم وأهل مصر يكثرون من استعماله، وقوله: (ذمة ورحماً) أما الذمة فهي الحرمة، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وفي رواية: (ذمة وصهر) أما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم... والله أعلم.

المبحث الخامس: عيادة مرضاهم

شرع الإسلام عيادة المرضى غير المسلمين، فقد سئل ابن تيمية عن زيارة المسلم للمريض النصراني، فأجاب بأنه لا بأس بعيادته، فإنه قد يكون من ذلك مصلحة لتأليفه على الإسلام^٦، والنبي ﷺ عاد عمه أبا طالب في مرضه الذي مات فيه، فعن ابن المسيب عن أبيه، أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبا جهل، فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: "يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب"، فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «لاستغفرن لك ما لم أنه عنه» فنزلت: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]^٧، فالنبي ﷺ زاره وهو في المرض بمرحلة لم يدخل الغرغرة بدليل المحاورة التي دارت بينه وبين عمه، وأما قوله "لما حضرته الوفاة" أي قربت وفاته وظهرت علامتها وذلك قبل النزاع والغرغرة^٨، فهذا تعليم من النبي ﷺ لأمته، أن يزوروا المريض المسلم وغير المسلم، لأن المرض حالة إنسانية يستوي فيها الجميع، والمريض يحتاج إلى من يزوره ويخفف عنه ويشد من أزره ويطمئنه.

فعن أنس رضي الله عنه قال: "كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلم» فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم رضي الله عنه، فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه

^١ قوله: حلة عطارد، بائع الحلة وهو ابن حاجب بن زرارة التميمي. ينظر: النووي، شرحه على مسلم، ج ١٤.

^٢ قوله: "فكساها عمر أحياناً له"، أي أعطاها له ليتنفع بها أيضاً ولا يلزم لبسها. ينظر: العظيم آبادي، عون المعبود، ج ٣، ص ١٩٣.

^٣ أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب يلبس أحسن ما يجد، رقم ٨٤٦؛ ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة، رقم ٢٠٦٨.

^٤ النووي، شرحه على مسلم، ج ١٤، ص ٣٨.

^٥ أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، رقم ٦٦٥٧.

^٦ ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ج ٣، ص ٥.

^٧ أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم ٣٨٨٤، وكتاب التفسير باب قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، رقم ٤٧٧٢.

^٨ بدر الدين العيني، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، ج ١٧، ص ١٨.

من النار»^١، يقول الإمام بدر الدين العيني عند شرحه لهذا الحديث: "وفيه جواز عيادة أهل الذمة، لا سيما إذا كان الذمي جاراً له، لأن فيه إظهار محاسن الإسلام، وزيادة التآلف بهم ليرغبوا في الإسلام"^٢.

المبحث السابع: تعزيتهم واتباع جنازتهم

قال جمهور العلماء بجواز تعزية غير المسلم؛ لأنه من البر الذي لم ينه عنه، يقول الإمام النووي: "ومن تعزية المسلم بالكافر يقول له: أعظم الله أجر وأخلف عليك وألهمك الصبر، ويجوز للمسلم أن يعزي الذمي، بقريبه الذمي فيقول: أخلف الله عليك ولا نقص عددك"^٣، وأمر النبي ﷺ علياً أن يشهد جنازة عمه أبي طالب. فعن عبد الله السلمي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما توفي أبو طالب، أتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن عمك الشيخ قد مات، فقال لي: «أذهب فواره ثم لا تحدث شيئاً حتى تأتيني»، فاغتسلت ثم أتيتها، فدعا لي بدعوات ما يسرني بها حمر النعم"^٤، جاء في شرح سنن أبي داود، بعد ذكر هذا الحديث: فهذا يدل على أن القريب المشرك إذا مات، فإنه يجب على أقربائه من المسلمين أن يواروه^٥، هذا ويجرم على المسلم أن يشارك في شيء من طقوسهم الدينية.

روي عن إبراهيم النخعي أنه قال: "توفيت أم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وهي نصرانية، فتبعها أصحاب رسول الله ﷺ تكريماً للحارث، ولم يصلوا عليها"^٦، وروي أن ثابت بن قيس بن شماس جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: "إن أمه توفيت وهي نصرانية، وهو يجب أن يحضرها، فقال له النبي ﷺ اركب دابتك وسر أمامها، فإنك إذا كنت أمامها لم تكن معها"^٧، وعن عبد الله بن شريك قال: سأل رجلاً ابن عمر فقال: إن أمي توفيت وهي نصرانية فأشهد دفنها، فقال له ابن عمر: "امش أمامها فأنت لست معها"^٨، بل وأباح الإسلام زيارة قبر غير المسلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا

^١ أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصل علىه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ رقم ١٣٥٦.

^٢ بدر الدين العيني، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، ج ٨، ص ١٧٥؛ وملا علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج ٣، ص ١١٤٥؛ والشوكاني، نيل الأوطار، ج ٨، ص ٧٧.

^٣ النووي، روضة الطالبين وعمدة المتقين، ص ٣، ص ١٤٥.

^٤ أخرجه النسائي في كتاب الطهارة، باب الغسل من مواراة المشرك، رقم ١٩٠ (وقال الألباني: صحيح)؛ والبيهقي في السنن الكبرى، باب الغسل من غسل الميت، رقم ١٥٠٨.

^٥ عبد المحسن العباد، شرح سنن أبي داود، ج ١٧، ص ١٠٤.

^٦ أبو يوسف القاضي، الآثار، ج ١، ص ٤٠٧.

^٧ بدر الدين العيني، شرح سنن أبي داود، ج ٦، ص ١١٠.

^٨ عبد الرزاق، المصنف، من اتباع المسلم جنازة الكافر، ج ٦، ص ٣٧، رقم ٩٩٢٧.

القبور فإنها تذكر بالموت^١، يقول النووي معقباً على هذا الحديث: "فيه جواز زيارة المشركين في الحياة وزيارة قبورهم بعد الوفاة"^٢.

المبحث السابع: مخاطبتهم

الأصل في مخاطبة غير المسلمين، حسن الكلام ولينه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، يقول الطبري: "﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالجميل من القول"^٣، ولقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. يقول ابن كثير: "﴿وَجَدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب"^٤، ولقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون، يقول البغوي: "دارياه وارفقا معه، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - لا تعنفا من قولكما. وقال السدي وعكرمة: كنياه فقولا: يا أبا العباس، وقيل: يا أبا الوليد^٥، والنبي ﷺ كان يخاطب غير المسلمين باللين من القول، تأليفاً لقلوبهم وتحفيزاً لإسلامهم، فقد روي أن النبي ﷺ قال لرجل نصراني «أسلم أبا الحارث» فقال النصراني: "قد أسلمت"^٦.

قال ابن القيم: "روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لرجل نصراني: أسلم يا أبا حسان أسلم تسلم"^٧. والنبي ﷺ كان يخاطب أعدائه بالحجة وعدم الإساءة وحسن الاستماع، فهذا عتبة بن ربيعة -المشرك- جاء إلى النبي ﷺ ليعرفه عن الإسلام فقال: "اسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، فقال النبي ﷺ: «يا أبا الوليد أسمع» حتى إذا فرغ عتبة قال له النبي ﷺ: «أفرغت يا أبا الوليد»؟ قال: نعم، قال: «اسمع مني» قال: أفعل" الحديث^٨. وكان من هديه ﷺ في خطابه لغير المسلمين مراعاة منزلتهم، وهذا واضح جلي في مكاتبة ﷺ لملوك وزعماء العالم يدعوهم إلى الإسلام، فهذا كتابه ﷺ إلى هرقل: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى»^٩، وهذا كتابه إلى كسرى ملك الامبراطورية الفارسية: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس: سلام على من اتبع الهدى»^{١٠}، وهذا كتابه إلى النجاشي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك

^١ أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ به عز وجل في زيارة قبر أمه، رقم ١٦٢٢.

^٢ المصدر السابق نفسه.

^٣ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٦١٣.

^٤ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٦١٣.

^٥ البغوي، التفسير، ج ٥، ص ١٧٤.

^٦ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، باب هل يعاد اليهودي أو يعرض عليه الإسلام؟ ج ١٠، ص ٣١٥، رقم ١٩٢١٩.

^٧ ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ج ٣، ص ١٣٢١.

^٨ ينظر: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ج ١، ص ٧٣؛ وأبو نعيم، دلائل النبوة، ج ١، ص ٣١٣؛ وابن كثير، السيرة النبوية، ج ١، ص ٥٠٣.

^٩ الألويسي، التفسير.

^{١٠} ينظر: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ج ١، ص ٧٣؛ وأبو نعيم، دلائل النبوة، ج ١، ص ٣١٣؛ وابن كثير، السيرة النبوية، ج ١، ص ٥٠٣.

الحبشة، أسلم أنت»^١، هكذا ترى الرفق من القول ومراعاة منزلة المخاطبين، وكان لهذا الأسلوب أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام وإظهار الود من البعض الآخر.

الخاتمة:

المسائل التي اقتضت على ذكرها تعتبر من أهم المسائل التي تتعلق بكيفية التعامل مع غير المسلمين، ففي الأحكام الشرعية تجد الإنصاف ومراعاة جلب المصالح ودفع المضار وحماية الحريات والمنع من الظلم والاعتداء وحماية الأموال والأعراض.

وفي الأخلاق تجد الأصل فيه حسن المعاملة والسماحة والبر والعدل، فالإسلام دين عالمي موجه إلى البشرية كلها، ورسالته تدعو للتعايش الإيجابي بين جميع البشر المبني على التسامح والمعاملة الحسنة.

المصادر والمراجع:

١. آل محمود، عبد الله بن زيد، **الجهاد المشروع في الإسلام**، (بيروت: مؤسسة الرسالة).
٢. الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ).
٣. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم عز الدين، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق: علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
٤. ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار، **السيرة النبوية**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).
٥. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الدمشقي، **الفتاوى الكبرى**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ).
٦. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الدمشقي، **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، (دمشق: مكتبة دار البيان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
٧. ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، **تلقيح فهوم أهل الأثر من عيون التاريخ والبر**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٧٥م).
٨. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: عادل أحمد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ).
٩. ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر).
١٠. ابن حجر العسقلاني، **المطالب العالمية بزوائد المسانيد الثمانية**، (دار العاصمة ودار الغيث، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
١١. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م).

^١ بهان الحلبي، السيرة الحلبية من سيرة الأمين المأمون، ج ٣، ص ٢٩٣.

١٢. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد الجاوي، (بيروت: دار الجليل، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- ١- ابن عبد البر، الكافي من فقه أهل المدينة، (الرياض مكتبة الرياض الحديثة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).
١٣. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
١٤. ابن القيم، محمد بن أبو بكر بن أيوب، أحكام أهل الذمة، (الدمام: رمادي للنشر، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
١٥. ابن القيم، التفسير القيم، (بيروت: دار الهلال، ١٤١٠هـ).
١٦. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ).
١٧. ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٥هـ/١٩٧٦م).
١٨. ابن المفلح، محمد بن مفلح شمس الدين المقدسي، الفروع، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (مؤسسة الرسالة ودار المؤيد، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
١٩. ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، أبو محمد جمال الدين، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الديبيري، (مصر: مصطفى الباي الحلبي، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).
٢٠. ابن الهمام، محمد بن عبد الواحد كمال الدين، فتح القدير، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
٢١. أبو إسحاق الشيرازي، إبراهيم بن علي، المهذب من فقه الإمام الشافعي، (بيروت: دار الكتب العلمية).
٢٢. أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى، زهرة التفاسير، (القاهرة: دار الفكر العربي، بدون تاريخ).
٢٣. أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، (القاهرة: دار الفكر العربي، ٢١٠ هـ).
٢٤. أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا كتاب رب العالمين، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
٢٥. أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن موسى الأصبهاني، دلائل النبوة، (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
٢٦. أبو يوسف القاضي، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، الآثار، (بيروت: دار الكتب العلمية).
٢٧. أبو يوسف القاضي، الخراج، (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد، القاهرة: المطبعة السلفية).
٢٨. الأبي الأزهري، صالح عبد السميع، الثمر الداني في تقريب المعاني، (مصطفى الحلبي، ١٣٣٨هـ).
٢٩. باناحة، محمد أحمد، المبادئ الأساسية للعلاقات الدولية والدبلوماسية، (بيروت: مؤسسة الرسالة).
٣٠. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، الأدب المفرد، تحقيق: محمد ناصر الألباني، (دار الصديق، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
٣١. البخاري، الصحيح، (بيروت: دار ابن كثير).
٣٢. برهان الحلبي، علي، السيرة الحلبية من سيرة الأمين المأمون، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٠هـ).
٣٣. البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين، معالم التنزيل (تفسير البغوي)، (دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٣٤. البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، (بيروت: مؤسسة المعارف).
٣٥. البوصيري، أحمد بن أبو بكر إسماعيل، إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، (الرياض: دار الوطن للنشر، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
٣٦. البيهقي، أحمد بن الحسين علي بن موسى أبو بكر، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
٣٧. البيهقي، شعب الإيمان، (الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
٣٨. الترمذي، محمد بن عيسى، السنن، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).
٣٩. توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة وتعليق د. حسن إبراهيم حسن د. عبد المجيد عابدين د. إسماعيل النحراوي، (مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١م).
٤٠. الخازن، علا الدين علي بن إبراهيم، لباب التأويل من معاني التنزيل (تفسير الخازن)، (بيروت: دار الكتب العلمية).
٤١. خلاف، عبد الوهاب، السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية، (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٥٠هـ).
٤٢. خلاف، عبد الوهاب، نظام الدولة الإسلامية في الشؤون الدستورية،
٤٣. خليفة بن خياط أبو عمرو الشيباني، الطبقات، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، (دمشق وبيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧م).
٤٤. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كتاب المنان (تفسير السعدي)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
٤٥. السندي، محمد بن عبد الهادي أبو الحسن نور الدين، حاشية السندي على سنن النسائي، (حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط ٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
٤٦. السيد سابق، فقه السنة، (القاهرة: الفتح للإعلام العربي).
٤٧. السيوطي، جلال الدين، جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير، (بيروت: دار الفكر).
- ٤٨.
٤٩. شلبي، أحمد، العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، العلاقات الدولية من الفكر الإسلامي د. أحمد شلبي - مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٨م.
٥٠. الشوكاني، نيل الأوطار، نيل الأوطار من أسوار منتقى الأخبار محمد بن علي الشوكاني دار الحديث - مصر - ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
٥١. صالح الفوزان، صالح بن فوزان الفوزان، إغاثة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
٥٢. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الأوسط، (القاهرة: دار الحرمين، ١٤١٥هـ/١٤١٥هـ).
٥٣. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ).
٥٤. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
٥٥. الطحاوي، أحمد بن سلامة، شرح معاني الآثار، تحقيق: محمد النجار ومحمد سيد جاد المولى ويوسف عبد الرحمن المرعشلي، (عالم الكتب، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
٥٦. العباد، عبد المحسن حمد، شرح سنن أبي داوود، (هذا صوتيات لم أقف له على طبعة).

٥٧. عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المصنف، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ).
٥٨. عبد الله غوشة، الحرب في الفقه الإسلامي، (الأردن: وزارة الأوقاف).
٥٩. العتيبي، الفرق والبيان بين مودة الكافر والإحسان إليه دراسة عقديّة في ضوء الكتاب والسنة.
٦٠. العدوي، أبو الحسين علي بن أحمد، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، (بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
٦١. العظيم آبادي، محمد أشرف بن أمير علي حيدر، عون المعبود في شرح سنن أبي داود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ).
٦٢. العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد الحنفي، شرح سنن أبي داود، (الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
٦٣. العيني، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
٦٤. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).
٦٥. القسطلاني والزرقاني، المواهب اللدنية وشرحها، (بيروت: دار الكتب العلمية).
٦٦. القشيري، عبد الكريم بن هوزن، لطائف الإشارات، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)..
٦٧. مالك، ابن أنس بن مالك بن عامر الأصحبي المدني، الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م).
٦٨. محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار)، (الهيئة المصرية للكتاب).
٦٩. المرادي، علي بن سليمان، الأنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، تحقيق: محمد حامد الفقي.
٧٠. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، الصحيح، (بيروت: دار الجيل).
٧١. المطعني، د. عبد العظيم، سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقة الإنسانية (منهاجاً وسيرةً)، (مكتبة وهبة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
٧٢. ملا علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
٧٣. المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله زكي الدين، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ).
٧٤. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، السنن، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
٧٥. النووي، روضة الطالبين وعمدة المتقين، روضة الطالبين وعمدة المتقين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي تحقيق: زهير الشاويش المكتب الإسلامي بيروت - دمشق - عمان ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
٧٦. النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
٧٧. الهواري، محمد علي سليم، طبيعة علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية)، ١٢م، العدد الثاني، يونيو ٢٠١١م.
٧٨. وهبة الزحيلي، مقومات السلم وقضايا العصر بين النظرية والتطبيق، (الرياض: مركز النشر الدولي، ط ١).

[http://www.riyadhalelm.com/researches/1/63_frq_byan.pdf]

التعايش بين الأديان وفق المنهج الإسلامي

د. ليلي بنت محمد بن سليمان العقيل^١

ملخص البحث:

إن موضوع التعايش من الموضوعات المهمة التي يكثر تناولها في وسائل الإعلام والاتصال، وقد عقدت له العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والملتقيات الفكرية، وهو من الموضوعات التي ما زالت تشغل بال المجتمعات من نماذج التعايش التي وصفها القرآن بالإنسانية. ويهدف هذا البحث لإبراز فضائل الإسلام، وبيان الظروف التي هيأها الإسلام للتعايش بين المسلمين وغير المسلمين وفق المنهج القرآني، والكشف عن نماذج وأمثلة من القرآن الكريم تدعو فيها إلى التعايش السلمي بين الأديان، وبيان أن هناك قيما مشتركة ونقاط اتفاق بين هذه الأديان تتمثل في: أن الأديان السماوية فطرية تتضمن مبادئ وعقائد مشتركة مستمدة من جوهر واحد وهو إرشاد الإنسان إلى طريق واحد يحقق لها إنسانيتها. والانضباط في السلوك والدعوة إلى العمل واحترام العلاقات الإنسانية التي تدعو جميع الأديان لها، وإلى السلام والعيش في وئام. واستخدم فيه المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي.

المقدمة:

الحمد لله الذي خلقنا من عدم، وأسبغ علينا النعم، سبحانه علمنا من جهالة، وهدانا من ضلالة، وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأنعم علينا بنعمة الإسلام وكفى بها نعمة. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله.

وبعد! فمن المعلوم أن الإنسان هو ابن بيئته التي أنشأته وأقلمته، وهي التي توفر له احتياجاته الأساسية، لذلك لا يمثل التنوع بين الناس أفراداً وجماعات؛ انحرافاً أو شذوذاً، بل هي من طبيعتهم البشرية، ومن أصل خلقتهم الآدمية، بل هي من آيات الله ونعمه التي امتن بها عليهم في القرآن فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوَانِكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

فمن الطبيعي أن تتنوع الطبائع والأمزجة، وليكن تنوع إيجابي فيه ثراء وخصوبة يدفع إلى الاضطلاع بالمسؤوليات، وإلى جعل الوفاء بالحاجات النفسية، والعقلية، وغيرها واقعاً مرئياً.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ٢٢]. ومن خلال هذه الآية الكريمة نلاحظ أن الغاية من اختلاف الناس إلى شعوب

^١ الأستاذ المشارك بقسم الدراسات الإسلامية في كلية الآداب بجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن، المملكة العربية السعودية.

وقبائل، وتنوعهم إلى ثقافات إنما هو للتعارف لا للتناكر، وللتعايش لا للاقتتال، وللتعاون لا للتطاحن، وبات واضحاً أن أهمية التعايش بين الأديان بات ضرورياً ضرورة الوجود نفسه.

كما أنه يقتضي التسليم اعتقاداً، وسلوكاً، وممارسة بأنه إذا كان لهؤلاء وجود فلأولئك وجود، وإذا كان لهؤلاء دين له حرمة فلأولئك دين له الحرمة نفسها، وإذا كان لهؤلاء خصوصية ثقافية لا ترضى الانتهاك فلأولئك خصوصية ثقافية لا تقبل المس أبداً، لذلك كان الحوار والتعايش بين الأديان ضرورة ملحة لتستمر الحياة الإنسانية.

ومن الجدير بالذكر أن هناك قيماً مشتركة ونقاط اتفاق بين هذه الأديان تتمثل في:

- ١- أن الأديان السماوية فطرية تتضمن مبادئ وعقائد مشتركة مستمدة من جوهر واحد وهو إرشاد الإنسان إلى طريق واحد يحقق لها إنسانيتها.
- ٢- الانضباط في السلوك والدعوة إلى العمل واحترام العلاقات الإنسانية كلها من الأمور التي تدعو جميع الأديان لها، وإلى السلام والعيش في وئام.

المبحث الأول

مفهوم التعايش بين الأديان

التعايش في اللغة:

مشتق من العيش، والعيش الحياة^١. وفي المعجم الوسيط: تعايشوا: عاشوا على الألفة والمودة، ومنه التعايش السلمي، وعاشه: عاش معه. والعيش معناه: الحياة وما تكون به الحياة من المطعم والمشرب والدخل^٢.

التعايش في الاصطلاح:

يقصد به العيش المتبادل مع الآخرين القائم على المسالمة والمهادنة. وهو من المصطلحات الحديثة التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، وهو مصطلح يراد به حالة السلم التي تعيش فيها دول ذات أنظمة اجتماعية، أو عقائد سياسية متباينة^٣.

وإذا دققنا في مدلولات مصطلح التعايش (Coexistence) الذي شاع في هذا العصر، نجد أن البحث في مدلول هذا المصطلح يقودنا إلى جملة من المعاني محملة بمفاهيم تتضارب فيما بينها، ولكن يمكن تصنيفها إلى مستويات ثلاثة:

المستوى الأول: سياسي أيديولوجي يحمل معنى الحد من الصراع، أو العمل على احتوائه، أو التحكم في إدارة هذا الصراع بما يفتح قنوات الاتصال.

المستوى الثاني: اقتصادي يرمز إلى علاقات التعاون بين الحكومات والشعوب فيما له صلة بالمسائل القانونية، والاقتصادية، والتجارية، من قريب أو بعيد.

١ انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، ج ٢، ص ١١٧؛ والفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج ٢، ص ٤٠٩، مادة (عيش).

٢ مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٦٣٩.

٣ انظر: أحمد الصويان، الحوار أصوله المنهجية، ص ٧.

المستوى الثالث: ديني، ثقافي، حضاري وهو الأحداث ويشمل تحديداً معنى التعايش الديني أو التعايش الحضاري، والمراد به: أن تلتقي إرادة أهل الأديان السماوية في العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام العالم، وحتى تعيش الإنسانية في جو من الإخاء والتعاون على ما فيه الخير الذي يعم بين البشر جميعاً، وهذا هو المعنى الشامل العام في معنى التعايش^١.

المطلب الأول: أسس وخصائص التعايش:

١- أسس التعايش:

إن التعايش بين الأديان لابد أن يقوم على أسس راسخة، تكون بمثابة الانطلاق إليه، وهي:
الأساس الأول: القناعة التامة، والإرادة الحرة، والرغبة المشتركة بين أهل الأديان السماوية للتعايش، بمعنى أن تكون هذه الرغبة، والإرادة والقناعة نابعة من الذات، من غير أي تأثير خارجي عن الذات، كالضغوط المفروضة عليهم، مهما كان شأنها ومهما كانت أسبابها.

الأساس الثاني: التفاهم والاتفاق المشترك على أهداف التعايش وغاياته التي تخدم الإنسانية كلها، وتحقيق مصالحها العليا، وعلى رأسها السلم العالمي، والأمن، والأمان ما يحول بينها وبين نشوء النزاعات والحروب المختلفة فضلاً عن دفع الجور والظلم والاضطهاد، وردع الاعتداء على الشعوب والجماعات والأفراد الذي يصدر عن بعض السياسات التي تخترق حقوق الإنسان.

الأساس الثالث: التعاون المشترك من قبل أهل الأديان كلها والعمل الجاد، للوصول إلى تحقيق النتائج المرضية الحسنة، والأهداف السياسية للتعايش وهذا لا يتم غالباً إلا بناءً على وضع مخطط تنفيذي يشترك فيه الجميع للوصول إلى المطلب الأسمى.

الأساس الرابع: الاحترام المتبادل بين أهل الأديان كلها، ومنح الثقة لبعضهم البعض، من أجل الاستمرارية والتمكن من تحقيق أهداف التعايش وأغراضه، بحيث لو حدث أي خلاف فيما بينهم فليحتكموا إلى ما التزموا فيه من القدر المشترك الديني أو القانوني المستوحى من جميع الأديان كلها، وهي القيم العظمى والمثل العليا التي اجتمعت عليها إرادة المجتمع الدولي^٢.

٢- خصائص التعايش:

التعايش بين الأديان من منظور شرعي له خصائص كثيرة، من أبرزها ما يأتي:

١- أنه مرتبط بالوازع الديني، وبمراقبة الله عز وجل، وأن المسلم يمارسه بدافع التقوى والإيمان بالله عز وجل قال

تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۗ اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

١ انظر: ناصر العقل، الاتجاهات العقلانية الحديثة، ص ٤٧٠؛ وسعد الصبي، حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ص ٢٥-٢٦.

٢ انظر: عبد الله الفاضل، مفهوم التعايش في الإسلام، ص ٤٧-٤٨؛ وهيوكتسكل، التعايش السلمي، ص ٣١.

٢- أن مصدره الوحي الإلهي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن نصوصه مقدسة فلا مجال للتلاعب بها من قبل البشر كيف شاءوا، لأجل ذلك فإن التعايش من منظور الشرع عبادة من أجل العبادات^١.

المطلب الثاني: مقومات وثمرات التعايش:

١- مقومات التعايش:

لتحقيق التعايش بين الأديان مقومات عديدة، من أبرزها ما يأتي:

- ١- التحلي بفهم المجتمع، ومعرفة ما فيه من اختلافات ثقافية، واجتماعية، بين أفراد.
- ٢- يتحقق التعايش عندما يشعر الجميع بأنهم أبناء وطن واحد، وأن عليهم أن يعملوا على رفعتة وتطويره وتنميته تنمية شاملة للجوانب الروحية والمادية.
- ٣- الاعتراف بالآخر، ولا سيما اعتراف الطرف الأخير غير المسلمين بالمسلمين، مع استصحاب المسلمين للفوارق الجوهرية والموضوعية بين دين الإسلام المحكم المحفوظ، وغيرها من الأديان المحرفة المبدلة^٢.

٢- ثمرات التعايش:

للتعايش بين أفراد المجتمع فوائد عديدة سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية، ومن أبرز فوائده ما يأتي:

- ١- أنه سبب لتحقيق المصالح المشتركة لجميع أفراد المجتمع على اختلاف أديانهم وأعرافهم.
- ٢- أنه سبب لتحقيق الأمن والاستقرار في المجتمع.
- ٣- أنه سبب لتنمية المجتمعات وتطويرها سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً.
- ٤- أنه سبب لنشر الدعوة بين أفراد المجتمع بسبب اختلاط غير المسلمين بالمسلمين، وتفهمهم لطبيعة الإسلام السمحة، ومعرفتهم بمبادئه العظيمة التي تظهر بوضوح في حرص المسلم على حسن التعامل، واحترام الجيران، ومساعدة الآخرين والتسامح مع جميع أفراد المجتمع^٣.

المبحث الثاني

التعايش في ضوء القرآن الكريم

إن المتأمل في القرآن الكريم يجد أنه دعا إلى التعايش والتسامح بين جميع البشر، فيكفي أن تقرأ النداءات القرآنية المبدوءة بيايها الناس، فهو ليس مقصوداً على اتباعه، أو المؤمنين به فقط؛ بل يمد يد التواصل للجميع، ويعترف بالأمم السابقة ويتواصل معها بالحوار والمجادلة والتي هي أحسن، ويذكر محاسنهم ومزاياهم ولا يبغضهم حقهم بل يأمر نبيه ﷺ أن يفتح معهم باب النقاش والحوار.

١ انظر: أسامة أحمد، مفهوم التعايش الإسلامي، ص ٥٠.

٢ انظر: خالد القاسم، الحوار مع أهل الكتاب، ص ١٨.

٣ انظر: عبد الله الفاضل، مفهوم التعايش في الإسلام، ص ٢٤٩؛ والأديان والسلام العالمي، ص ٦٨.

المطلب الأول: دلائل من القرآن على مشروعية التعايش بين الأديان:

من المعلوم أنه لم ترد لفظة التعايش في القرآن صريحة، ولكن جاءت مصطلحات ربما تكون أوسع معنى، وأشمل تعاملاً من مصطلح التعايش.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، فلفظ التعارف ليس مقصوراً على الاسم والقبيلة، إنما هو خطاب للبشرية بالمعنى الواسع في تبادل المعارف والعلوم والمحسن والفضائل.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ۗ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۗ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

التعاون على الخير والمصلحة، مفهوم شرعي ناصع، متفق عليه، سواء مع الموافق أو المخالف؛ لأنه تعاون على معنى صحيح، وهو البر والتقوى، وليس الإثم والعدوان.

وذلك المفهوم التعاوني والتعاري في غاية التبشير للناس، وتقديم أفضل القيم التي ترفع بني الإنسان، وتقرهم من هداية الله بدينه العظيم الإسلام. فقد أمر الله في هذه الآية بالعدل، وخص -بمزيد تأكيده- على العدل مع المخالفين الذين قد يظلمهم المرء بسبب الاختلاف. قال القرطبي: "ودلت الآية أيضاً على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والإسترقاق، وأن المثلة بهم غير جائزة، وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك فليس لنا أن نقتلهم بمثله قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم".^١

وقال البيضاوي: "لا يملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم، فتعدوا عليهم بإرتكاب ما لا يحل كمثله وقذف، وقتل نساء وصبية ونقض عهد، تشفياً مما في قلوبكم" ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي العدل أقرب للتقوى".^٢

كما أن الله عز وجل أخبر أن اختلاف البشر في شرائعهم هو أيضاً واقع بمشيئة الله تعالى ومرتبطة بحكمته قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ ۗ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۗ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فذلك الاعتراف بالاختلاف والتعدد يحمل في داخله معرفة ضرورة بوجود الشر والخطأ المحافية لقيم الفضيلة والأخلاق والتقوى.

قال ابن كثير عن قول الله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وأرائهم... قال الحسن البصري: الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك، فمن رحم ربك غير مختلف.^١

١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ص ٢٤٧.

٢ البيضاوي، التفسير، ج ١، ص ٣٦١.

المطلب الثاني: التعامل مع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي وفق المنهج الإسلامي:

التعايش بين المسلمين وغير المسلمين المسلمين مشروع، والنصوص التي تدل على مشروعيته كثيرة، وليس أبلغ وأوفى بالقصد من الآية الكريمة: فيها دلالة على عمق مبدأ التعايش في مفهوم الإسلام، ذلك أن المساحة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب مساحة واسعة.

ويمكن لنا أن نستنبط من هذه الآية الكريمة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤] القاعدة الشرعية التي تحدد موقف الإسلام من التعايش بين الأديان.

إن كلمة "سواء" التي أمر الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ بأن يدعو أهل الكتاب إليها يأتي بيانها المفصل في ثلاثة أمور رئيسة، هي: إن كانت تدور حول التوحيد، والإقرار بالربوبية والألوهية لله ﷻ فإن الحس المؤمن يستمد منها معاني وإشارات ذات علاقة بواقع الناس في معاشهم وحياتهم، وهي:

أولاً: ألا نعبد إلا الله. ثانياً: ولا نشرك به شيئاً. ثالثاً: ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

فهذه الآية هي القاعدة الذهبية للتعايش بين الأديان؛ لأنها تدعو إلى إفراد الله بالعبودية، وإلى عدم الإشراك به، وإلى رفض الطغيان والجبروت والكبرياء وفرض الهيمنة.

وذلك بأن يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، يستوحون منهم التعاليم والمبادئ، أو يخشونهم، أو يخضعون لما يملكونه من قوة باطشة مما يؤدي إلى خلل في الكيان الإنساني، وإلى الفوضى في العالم^٢.

فدين الإسلام يعتبر اليهود والنصارى أهل ديانة سماوية، حتى وإن لم يكن هذا الاعتبار متبادلاً. وعلى الرغم من أن عدم الإيمان بنبوّة محمد ﷺ هو أمر عظيم وشأن خطير، بل هو أمر فارق؛ فإن الإسلام استوعب هذا الخلاف، لا بالتهوين من أمره أو المهادنة العقيدية له، ولكن بما رسمه في باب المعاملات من تعاليم تسمح بالتواصل والتراحم رغم اختلاف المعتقد.

فقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ • إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة: ٨-٩] ففي الآية حث على الإحسان والبر بغير المسلمين، الذين لم يقاتلوا المسلمين، أو يتآمروا على قتلهم.

والإحسان المذكور في هذه الآية يكون بالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وكساء عاريهم، ولين القول لهم، واحتمال أذيتهم في الجوار لطفاً منا بهم؛ لا خوفاً وتعظيماً، والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة،

١ انظر: ابن كثير، التفسير، ج ٢، ص ٢٨٤.

٢ انظر: الصويان، الحوار أصوله المنهجية، ص ١١٤.

ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم وديناهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم، وعيالهم، وأعراضهم، وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانون على دفع الظلم عنهم^١.

ومن الآيات الدالة على التعايش مع غير المسلمين قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۚ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ۚ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥]. والآية أحلت طعام أهل الكتاب ونساءهم، وهما أمران يستلزمان التعايش والتساكن. وقال تعالى في التعامل مع الوالدين إذا كان كافرين وكان الولد مسلماً: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۗ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [نجم:١٥]، أي صاحبهما صحبة إحسان بالمعروف، والبعد عن الإساءة إليهما بالقول أو الفعل^٢ والحرص على طاعتهم، وتقديمهما على كل شيء إلا طاعة الله ورسوله فإنهما مقدمتان على كل شيء.

كما أن الإسلام وضع ضمانات لغير المسلمين المسلمين الذين يقيمون في المجتمع الإسلامي؛ فإن الله عز وجل بعث نبيه ﷺ رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وقد أمر ﷺ المسلمين أن يتصفوا بصفة الرحمة في تعاملهم فيما بينهم ومع غيرهم بل وحتى مع الحيوان فقال ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»^٣.

وكلمة (الناس) لفظة عامة تشمل كل أحد، دون اعتبار لجنس أو دين. قال ابن بطال: "فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق فيدخل المؤمن والكافر والبهائم والمملوك فيها وغير المملوك"^٤.

فحث الإسلام المؤمنين وألزمهم بالإحسان والبر في معاملة من لا يعتدي على المسلمين فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

ولعل سورة الكافرون كانت نبراساً لتأصيل التعايش، وخاصة الآية الكريمة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِي﴾ [الكافرون:٦] فهذا اعتراف من القرآن الكريم بوجود أديان أخرى، ولذا لا بد من وجود علاقة تربطنا مع أهل الأديان مبنية على التسامح^٥.

المبحث الثالث

أنواع التعايش

المطلب الأول: التعايش المشروع:

إن معنى التعايش المشروع هو قبول التصالح الديني والوجود والحوار في الاتفاق، على جملة من الأخلاق الإنسانية التي تتيح فرصة لتبادل الحوار والإقناع.

١ انظر: القراني، الفروق، ج٣، ص٢١؛ والرازي، مفاتيح الغيب، ج٨، ص٣٢٤.

٢ انظر: البغوي، التفسير، ج٥، ص٢٤١؛ والسعدي، التفسير، ج٤، ص٩٨.

٣ أخرجه البخاري في صحيحه، ج٨، ص٦٤٧.

٤ انظر: المباركفوري، تحفة الأحمدي، ج٦، ص٤٣.

٥ انظر: أسامة أحمد، مفهوم التعايش الإسلامي، ص٧٢.

فالإسلام يدعو إلى التعايش المشروع مع غير المسلمين وفق الحكمة واللين والمعروف سواءً في ذلك التعامل في الخطاب، أو في مطلق التصرف، وفق الضوابط الشرعية^١.

ولقد نصت النصوص من القرآن في الدراسة السابقة على هذا المفهوم؛ لأنها وسيلة من وسائل دعوة غير المسلمين للإسلام، ويبنى معهم في حالات السلم على البر والتسامح والتعامل الحسن، وتأمين مصالحهم الدنيوية، وتمكينهم من المشاركة في خدمة المجتمع والمحافظة على أمنه واستقراره، وتمكينهم من العمل على تطويره ورفعته وتنميته^٢.

ولابد من وضع ثلاثة مبادئ للتعايش والحوار، وهي:

أولاً: الإتفاق على استبعاد كل كلمة تخدش عظمة الله ﷻ.

ثانياً: الإتفاق على أن الله يختار رسله من أهل الصدق والأمانة والكياسة.

ثالثاً: ما وجدناه متوافقاً في ديننا نرد إليه ما اختلف فيه، وبذلك يمكن وضع قاعدة مشتركة بين الأديان.

وبذلك نصل إلى نتائج تدعم التعايش بين الأديان وفق الهوية الإسلامية، وأن يشمل التعايش بين الأديان العمل المشترك لمحاربة الإلحاد، والانحلال الخلقي، وتفكك الأسرة، والقضاء على أسباب التوتر والاضطراب حبل الأمن والسلام، وإنصاف المظلومين في الأرض جميعاً دون استثناء^٣.

المطلب الثاني: التعايش الممنوع:

والمراد به المفهوم السلبي للتعايش، بمعنى التنازل عن العقيدة، أو تقديم نصف عقيدة، أو بعض دين وهذا مرفوض تحت أي مسمى جاء به، قال تعالى: ﴿أَفْتُونُونِ يَبْغِضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

ومن مظاهر التعايش الممنوع الدعوة إلى ما يسمى بوحدة الأديان، وكذا الدعوة لبناء المساجد والكنائس ونحوها من أماكن العبادة في محيط واحد، في الجامعات، والمطارات، والساحات العامة.

ومن مظاهر التعايش الممنوع أيضاً -وهو من أشد أنواع المحرمات- مبادلة الكفار الحب والمودة ومشاركتهم في أعيادهم الدينية، وهي أعياد غير مشروعة، لا يرضاها الله عز وجل؛ لأنها إما أن تكون مبتدعة في دينهم، وإما أن تكون منسوخة بالإسلام، وإقامتها والمشاركة فيها توجب سرور قلوب غير المسلمين بما هم عليه من الباطل.

ومن التعايش الممنوع، تمكين غير المسلمين في دار الإسلام من وسائل الإعلام لبث البرامج الدينية الخاصة بهم في المجتمعات الإسلامية^٤.

وقد نبه الإمام القرافي على أمور كثيرة تدخل في باب التعايش الممنوع، ومن أبرزها: إخلاء المجالس لهم عند قدومهم، ونداؤهم بالأسماء العظيمة ونحو ذلك^١.

١ انظر: عبدالله الطريقي، التساهل مع غير المسلمين مظاهره وآثاره، ص ٧-٨.

٢ انظر: العلياني، أهمية الجهاد، ص ٤٤٩؛ ومصطفى الخالدي، التبشير والاستعمار، ص ٢٥٧.

٣ انظر: هيوكتسكل، التعايش السلمي، ص ١٥٤.

٤ انظر: محمد القحطاني، الولاء والبراء، ص ٣٤٦.

الخاتمة:

أستطيع أن أخص أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث المختصر فيما يأتي:

أولاً: أن الإسلام دين يدعو للتعايش، والتقارب، ويرفض التعصب، والغلو، والتطرف سواء كان مع ذات الإنسان أو مع الآخرين.

ثانياً: أن المرجع في فهم قضايا التعايش بين المسلمين وغيرهم تستند على نصوص الوحي الإلهي الكتاب والسنة، وفهمها فهماً صحيحاً لا لبس فيه.

ثالثاً: أثبت البحث صلاحية المنهج الإسلامي لتحقيق التعايش بين أفراد المجتمع، حتى مع اختلاف أديانهم، وأعرافهم، وثقافتهم.

رابعاً: أن التعايش الذي يروج له بعض الليبراليين لا ينسجم في الغالب مع قيم الإسلام ومبادئه، وهم يهدفون إلى تجميع الدين، ونشر ما يضاد العقيدة، والشريعة الإسلامية.

خامساً: التعايش بمنظور الشريعة الإسلامية وسيلة مهمة من وسائل تطوير المجتمعات، وتنميتها تنمية شاملة للجوانب المادية، والروحية.

أما عن التوصيات فهي كالآتي:

أولاً: على كل المسلمين أن يكونوا صورة حقيقة للإسلام، وأن يأخذوا تعاليم الإسلام كلها بجد، وأن يظهروا لجميع المجتمعات ما يجب أن يكون عليه المسلم من خلال أسلوب حياته، لأهمية ذلك في نشر القيم، والمبادئ الإسلامية، وبذلك يكون التعايش مع غير المسلمين وسيلة من وسائل الدعوة.

ثانياً: على المسلمين جميعاً تحقيق الوحدة فيما بينهم وإذابة خلافاتهم بالعودة الصادقة لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثالثاً: ضرورة الاستفادة من أجواء التعايش في نشر الدعوة بين المجتمعات.

رابعاً: ضرورة تخصيص المجتمعات الإسلامية بالعقيدة الصحيحة، وبما علم من الدين بالضرورة، وبما أجمع عليه المسلمون في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين.

هذا والله أعلم وأحكم، سبحانه اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

المصادر والمراجع:

١. ابن فارس، مقاييس اللغة، (بيروت: مؤسسة الرسالة).
٢. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٣. أسامة أحمد، مفهوم التعايش الإسلامي، (دار الحديث).
٤. البغوي، معالم التنزيل، (القاهرة: دار طيبة، ط ٤، ١٧٤١٧هـ/١٩٩٧م).
٥. البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
٦. خالد القاسم، الحوار مع أهل الكتاب: أسسه ومناهجه، (بدون أي بيان).
٧. الخالدي، مصطفى، وعمر فروخ، التبشير والاستعمار، (مصر: دار الكتب المصرية).
٨. دون مؤلف، الأديان والسلام العالمي، (دون مكان النشر والناشر وسنته، ط ١).
٩. الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
١٠. سعد الصيني، حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، (دون أي بيان).
١١. السعدي، عبدالرحمن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: محمد زهري البخاري، (الرياض: مكتبة الخلفاء للكتاب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
١٢. الصويان، أحمد، الحوار أصوله المنهجية، (بيروت: دار الفكر).
١٣. الطريقي، عبد الله، التساهل مع غير المسلمين مظاهره وآثاره، (دون مكان النشر والناشر وسنته، ط ١).
١٤. العقل، ناصر، الاتجاهات العقلانية الحديثة، (بيروت: مكتبة لبنان).
١٥. العلياني، أهمية الجهاد، (مصر: دار الكتب المصرية).
١٦. الفاضل، عبدالله، مفهوم التعايش في الإسلام، (بيروت: دار الفكر، ط ٢).
١٧. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، دار الريان للتراث، ط ٣١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
١٨. القحطاني، محمد سعيد، الولاء والبراء، (الرياض: دار العبيكان).
١٩. القرابي، الفروق، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
٢٠. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
٢١. المباركفوري، تحفة الأحوزي، (بيروت: دار المعرفة).
٢٢. هيوكتسكل، التعايش السلمي، (دون مكان النشر والناشر وسنته، ط ١).

التعددية السياسية والحزبية من منظور إسلامي

أ. د. الفاتح عبد الله عبد السلام^١

ملخص البحث:

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن سؤال مقصدي مفاده: هل يتسع الإسلام لتعدد الأحزاب السياسية؟ تبدأ الدراسة بتعريف الحزب في اللغة ثم تنتقل بعد ذلك لتحديد المعنى الاصطلاحي للمفهوم. تنتقل الدراسة بعد ذلك لمناقشة مفهوم التعددية الحزبية على الصعيد العلماني الغربي. تتناول الدراسة بعد ذلك مجموعة الأصول والقواعد الكلية في حكم العمل السياسي الإسلامي مثل سيادة الشرع، السلطة للأمة، سيادة القضاء، صيانة الحقوق والحريات العامة، الحسبة، والشورى. ثم تنتقل الدراسة إلى استعراض عدد من المناهج لتأصيل التعددية في الفكر الإسلامي مثل المنهج التاريخي، المنهج الأصولي، المنهج الحقوقي، المنهج السياسي في تأصيل التعددية السياسية. تلتفت الدراسة بعدها إلى مناقشة أطروحات المدارس الفكرية الإسلامية المختلفة حول إشكالية التعددية السياسية، والتي تتلخص في ثلاثة اتجاهات رئيسية هي: الأول والذي يرى حرمة إنشاء الأحزاب السياسية ويفرض مبدئ التعددية الحزبية والسياسية، والاتجاه الثاني والذي يرى ويؤيد مشروعية التعددية الحزبية والسياسية دون قيد أو شرط، والاتجاه الثالث والذي يرى مشروعية التعددية الحزبية السياسية بشروط منضبطة وفي إطار الالتزام بسيادة الشريعة. حيث تتبنى هذه الدراسة هذا الاتجاه الأخير. حيث يصبح خيار هذه الورقة هو اختيار التعددية السياسية بعد تهذيبها، وإعادة صياغتها بما يلائم مقاصد الشريعة بحيث يصير ذلك الخيار هو النموذج المقترح للعمل السياسي للدولة الإسلامية.

تمهيد:

ثمة سؤال هام يتردّد على صعيد الفكر السياسي الإسلامي المعاصر ومفاده: هل يتسع الإسلام لتعدد الأحزاب السياسية؟ وأياً كان الدافع لطرح هذا السؤال فلا مندوحة من محاولة الإجابة عليه باعتباره جزءاً من البلاغ الواجب للدين، وباباً من أبواب إقامة الحجّة على المرجفين والمرتابين ممن يدعون أنّ الإسلام السياسي حليفٌ للدكتاتورية والقهر وأنّه لا مكان فيه للتعددية والمعارضة السياسيّة.

وتحاول هذه الدراسة الإجابة عن هذا السؤال المفصلي، ونرجو أنّ تكون تمهيداً لدراسات أعمق وأشمل تعتمد في تحليلها على فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد وأن تكون فاتحة خير لتحريك الهمم واستنهاض العزائم للنظر في هذه المسألة الشائكة بهدف تدبّر أبعادها ومآلاتها لبلورة اجتهاد فقهيّ راشد إزاءها.

^١ قسم العلوم السياسية، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

ومما يحقّرنّا لإجراء هذه الدراسة أنّ الفكر الإسلامي المعاصر يمرّ اليوم بدورة معرفيّة جديدة تسعى نحو توجيهه لتناول مشكلات الحضارة وعمليات النهوض الحضاري لهذه الأمة. وفي إطار هذه الدورة المعرفية الجديدة نلاحظ تحوّلًا منهجيًا في الفكر الإسلامي المعاصر من الإطلاقيّة والقطعية إلى التّسبيّة، وهذا تطوّر هامّ يضمن لهذا الفكر الحيويّة والنمو والانفتاح على الأفكار والنظريات والمناهج في مظانها المختلفة. ومنطلقنا هنا أنّ هناك نسيبة من الحق والصواب في تلك الفلسفات والمذاهب والمناهج غير الإسلاميّة، وبحدود تلك النسبة من الحقّ والخطأ تتخلف وتتفق معها. وهناك إشارات عديدة في القرآن الكريم تدعونا للانفتاح على رأي الآخرين، والتعامل معه بإيجابيّة وشفافيّة ووعي وأخذ ما هو حسنٌ فيه. خذ مثلاً الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

ففي هذه الآية توجيه بالانفتاح على أفكار الآخرين والتعامل معها بقلب مفتوح والإفادة مما هو حسنٌ فيها. والمعيار القرآني في أخذ الأحسن هو الوحي ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾. وثانيًا العقل ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ومن جملة القضايا التي يحاول الفكر الإسلامي المعاصر أن يوطّر لها على هذه القاعدة النسيبة قضية الديمقراطيّة، والتعدديّة الحزبيّة. ونلاحظ أنّه وحتى وقت قريب، كان التعاطي مع هذه المفاهيم سلبياً ومتحفظاً. كما نلاحظ أنّ أكثرية الحركات الإسلاميّة كانت تقف من مبدأ التعدديّة السياسيّة سواءً في الرؤى الفكرية أو في الأوعية التنظيميّة موقف الرّفص العدائي أو الريبة الشديدة، أو الشكّ في شرعيّتها أو في ضرورتها وجدواها^١.

بيد أننا نلاحظ وفي خلال الحقبة الأخيرة تحوّلًا إيجابيًا في الفكر الإسلامي الحركي من قضايا "الديمقراطيّة" و"التعدديّة الحزبيّة"، وهناك إدراك الآن أنّ للنظام الإسلامي مشروع الحضاري الخاص به والذي يتضمّن منطلقاته ومبانيه وأهدافه وغاياته ووسائله، وهو بهذه الصفة يختلف عن المشاريع الحضاريّة الأخرى والتي افرزت ضمن ما افرزت الديمقراطيّة والتعدديّة الحزبيّة. غير أنّ تلك الخصوصيات لا تعني التقاطع المطلق بين النظام الإسلامي والنظم الأخرى أو وجود تضادّ كامل بينهما بل أنّ هناك بعض مجالات الالتقاء سواءً في الوسائل أو النتائج، كما أنّ هناك مجالات أخرى تمثّل نقاط اقتران. ونقاط الالتقاء هذه لا تعني أنّ النظام الإسلامي هو نظام ديمقراطي، وإنّ حاول بعض المسلمين المتغربين ادّعاء ذلك متدريين بأنّ الإسلام والديمقراطيّة يكمل أحدهم الآخر. ولعل من أبرز مجالات الالتقاء بين الأنظمة الديمقراطيّة الغربيّة والنظام السياسي على مستوى أساليب ممارسة السّلطة: المفهوم العام للجمهوريّة، الفصل بين السّلطات، سيادة القانون، الالتزام بالحقوق والحريّات العامة، ومنح الأمة دورها في المشاركة السياسيّة. وبمثلما تشترك الديمقراطيّة مع الإسلام -على مستوى النظام السياسي- في مجال آليات استخدام السّلطة، فإنّ هناك الكثير من نقاط الافتراق والتقاطع وخاصة الفوارق الأساسيّة في المنطلقات والمباني الفكرية وفي مقدّماتها بشريّة النظام الديمقراطيّ وكونه مجرد تجربة بشريّة في أفكاره ومضامينه وأساليب تطبيقه، السيادة فيه والحاكميّة فيه ليست لله تعالى. ومن هذا الفارق الأساس تتفرّع العديد من الفوارق الأخرى بين النظامين.

١ د. محمد عمارة، الحركة الإسلامية، رؤية مستقبلية، أوراق النقد الذاتي.

كان هذا التمهيد ضروريًا لوضع المفاهيم في إطارها النظري الصحيح؛ حيث تنتقل الدراسة الآن لتعريف الحزب في اللغة ومن ثمّ تحديد المعنى الاصطلاحي للمفهوم، تتبع ذلك بمناقشة مفهوم التعددية الحزبية على الصعيد العلمي الغربي ثمّ نتناول بالتحليل والتّمييز مواقف المدارس الإسلامية المختلفة من هذا المفهوم.

في اللغة عرّف ابن منظور في "لسان العرب" الحزب بأنّه: جماعة من النَّاس، والجمع أحزاب، والأحزاب: جنود الكفّار، تألّبوا وتظاهروا على حرب النبي ﷺ^١. ولا يختلف تعريف الفيروز آبادي في "القاموس المحيط" عن تعريف ابن منظور.^٢ أمّا أحمد بن فارس زكريا فيورد في "معجم مقاييس اللغة" بأنّ الحزب هو: تجمّع الشيء... فمن ذلك الحزب الجماعة والنّاس. والطائفة من كلّ شيءٍ حزب.^٣ هذه العاريف تتفق على الحزب المفرد بأنّه جماعةٌ من النَّاس من التعاريف غير تحديد لهويّتها وطبيعتها وتتفق كذلك على الجمع في الأحزاب الذين تألّبوا وتأمروا على حزب النبي ﷺ. ولهذا الأمر دلالةٌ خاصة إذ أنّ اسم الأحزاب أطلق لأول مرة في التاريخ الإسلاميّ على أول حلف يتفق فيه الكفّار على محاربة الرسول ﷺ. وهذه الدلالة ترتبط بفلسفة هذا الموقف بعيداً عن الجانب اللغويّ،^٤ هذا الأمر يفسر لنا أنّ كلمة الأحزاب "مكروهة عند المسلم أصلاً ووقعها بغيضٌ لدى حسنه وسمعه لأنها ارتبطت بمن آذوا الرسول ﷺ وحاربوه.^٥

أمّا في القرآن الكريم فقد وردت كلمة الحزب "في عشرين موضعاً، في ثلاثة عشرة سورة. ثمان بصيغة المفرد، وواحدة بصيغة المثني، وأحد عشرة مرة بصيغة الجمع"^٦. وبالتّعرض لاستخدامات "الحزب" في القرآن الكريم تتّضح لنا مجموعة من الملاحظات:

أولاً: استخدم القرآن الكريم لفظة الحزب تارة للمدح مثل "حزب الله" وتارة للذّم مثل حزب الشيطان" وتارة بشكل مطلق مثل قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

ثانياً: أنّ آيات الذّم تفوق عددياً آيات المدح.

ثالثاً: ما وردت كلمة الأحزاب بصيغة الجمع إلّا وكانت للذّم، وما وردت للمدح إلّا بالصيغة المفردة. فالصيغة الأولى وردت في قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]. أمّا الصيغة الثانية فوردت في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] كذلك جاءت كلمة "حزب" للذّم بصيغة المفرد كقوله تعالى ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]. وقد استدّل بعض المفكرين

^١ ابن منظور، لسان العرب، ص ٤٨١.

^٢ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ٩٤.

^٣ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص ٥٥.

^٤ الفنجري، الحرية والأحزاب السياسية، ص ٢٣٩.

^٥ فاروق عبد السلام، الإسلام والأحزاب السياسية، ص ٤١.

^٦ زكي الميلاد، التعددية الحزبية في الفكر الإسلامي، التاصيل، الأنماط، النحول، الكلمة، ص ٢٢.

المسلمين من هذا أنّ القرآن الكريم يرفض التعددية الحزبية وفكرة الأحزاب، وهو قولٌ فيه شططٌ وافتئاتٌ على نحو ما سنرى لاحقاً في هذه الدراسة.

رابعاً وأخيراً: نلاحظ أنّ هنالك تقصيراً من جانب المفسرين المعاصرين إذ أنّ أغلبهم لم يتوفّر بالشرح والتحليل المفهومي لتعبير "حزب" أو "أحزاب" كما وردت في الآيات القرآنية والتي أشرنا إلى بعضها آنفاً، ممّا أحدث نوعاً من البلبلة والتشويش والتناقض، ولحسم الأمر نرى أنّ الأمر يحتاج على تحقيق معرّفِي.

بشكل مجمل، يمكننا القول إنّ التعددية في جوهرها ومعناها هي إقرارٌ بحق الاختلاف والتعايش السلمي في إطار من الحرية والاختلاف والتنوع. وبهذا المعنى فالتعددية حقيقة فطرية واقعة وسنة كونية ونعمة إلهية. وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

واضحٌ من هاتين الآيتين الكريميتين وغيرهما أنّ القرآن الكريم يميز مبدأ التعددية ويعتبره من نعم الله تعالى على البشر، وشرطاً من شروط الاجتماع الإنساني، ولو كان العلم والعمل والموهبة والطباع واحدةً لما تكوّن وتأسّس الاجتماع الإنساني. والتعددية في محتواها السياسي هي إقرارٌ واعترافٌ بوجود التنوع الاجتماعي والثقافي، وبأن هذا التنوع يترتب عليه اختلافٌ في المصالح أو خلاف على الأولويات حيث تصبح التعددية السياسية هنا هي الإطار المقنن للتعامل مع هذا الاختلاف بحيث لا يتحوّل هذا إلى صراع يهدّد سلامة الدولة وتماسك المجتمع.^١

والتعددية في محتواها السياسي بهذا المعنى تتأسس على قواعد ترتضيها وتحترمها وتصونها كلّ القوى والتشكيلات السياسية والاجتماعية في الأمة مع اشتراط أنّ تكون هذه القواعد نصّاً وروحاً وتطبيقاً غير مخالفة شرع الإسلام.^٢ ومتى ما أدّت التعددية على الفرقة والتناحر والتنابد، وجب لجمها ومنعها.^٣

وقبل بذل أيّ محاولة للتأصيل لمشروعية التعددية السياسية من منظور إسلامي، يقتضينا الحال النظر إلى هذا المفهوم من منظوره العلماني الغربي حتى تستقيم المقارنة بين المنظورين.

باستعراضاً لأبرز الأدبيات الغربية التي تناولت مفهوم الحزب والحزبية، نجد أنّها تتفق على تعريف الحزب بأنه: طائفة متّحدة من الناس تعمل بمختلف الوسائل الديمقراطية للفوز بالحكم بقصد تنفيذ برنامج سياسيّ معيّن.^٤

ويبرز لنا هذا التعريف عدداً من المقومات الأساسية في تكوين الأحزاب:

أولاً: أنّ الحزب تكتلٌ بشريٌّ ألفت بين أجزائه وحدة الانتماء إلى برنامج سياسيّ معيّن.

^١ انظر، الحوار الذين أجرته مطبوعة "العام" مع د. محمد عمارة، لندن، السنة الثامنة، (العدد ٣٩٩، ٥ أكتوبر)، ص ١٩٩.

^٢ د. سعد الدين إبراهيم (محرر)، التعددية السياسية والديمقراطية في الوطن العربي.

^٣ د. عبد العزيز الخياط، التعددية من وجهة نظر إسلامية، اللواء، السنة الحادية والعشرون، العدد ١٠١٦-٢١، (الأردن، أكتوبر، ١٩٩٢م).

^٤ انظر، التعددية السياسية في الدولة الإسلامية، ص ٢.

ثانياً: الالتزام بالديمقراطية كمنهاج للعمل وذلك بإعلان برنامجه السياسي وحشد الأنصار حوله تمهيداً للفوز باصواتهم والحصول على الأغلبية التي تمكن الحزب من وضع برنامجه الإنتخابي موضع التنفيذ. ويستبعد هذا الشرط الأحزاب الشمولية كالأحزاب الشيوعية والفاشية والنظم السياسية التي تقوم على مبدأ الحزب الواحد والتي لا تسمح قانوناً بوجود أحزاب معارضة.

ثالثاً: الوصول إلى السلطة لتنفيذ برنامج سياسي محدد مع الاعتراف بمبدأ تداول السلطة بشكل سلمي عبر صناديق الاقتراع. وهذا الشرط يستبعد الحركات الانقلابية المسلحة أو تلك التي تعتمد العنف وسيلة من وسائل التغيير. جاءت العلمانية "Secularism"، والتي انتهت إليها المجتمعات الغربية المعاصرة تنويجاً لنضال طويل ضد طغيان وتسلب الكنيسة، كما جاءت الديمقراطية تنويجاً لنضال طويل ضد طغيان الملوك والحكام. وقد اقترن هذان المعنيان في الصيحة التي أطلقتها الثورة الفرنسية في مواجهة الطغيان الكنسي وطغيان البيوت الحاكمة: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس^١. إنَّ الطغيان الكنسي الذي مارسه الكنيسة على قلوب الناس وعقولهم والاستبداد السياسي الذي مارسه البيوت الحاكمة على إرادات الناس وحرّياتهم تمخض في النهاية عن تحولات بالغة العمق أدت إلى فصل الدولة عن الدين تحريراً لعقل الإنسان وفكره من الأوهام الكنسية ونقل السيادة إلى الأمة إنهاءً للاستبداد السياسي الذي كان يمارسه الملوك في تحالف مع رجال الدين وإطلاق الحرية الفردية.

وإذا كانت سيادة الأمة هي التعبير النظري لانتقال السلطة إلى الأمة، فإن ترجمة ذلك من الناحية العلمية تمثل في إرساء الديمقراطية والخضوع لما تقرره الأغلبية مع التسليم بحق الأقلية في المعارضة ضمن إطار قانوني ودستوري يكفل تداول السلطة وانتقالها سلمياً لذلك التكتل الذي يحظى بثقة الأغلبية.

إن البحث في الأصول الفكرية للأنظمة الديمقراطية يوضح أنّ تطبيقها في أرض الواقع قد أفرز أشكالاً متباينة تفاوتت بين الديمقراطية المباشرة التي يباشر الشعب خلالها حكم نفسه بنفسه إلى الديمقراطية النيابية أو البرلمانية التي يختار الشعب فيها برلماناً يمارس السيادة نيابية عن الشعب إلى الديمقراطية شبه المباشرة وهي تلك التي تزواج بين البرلمان المنتخب ومشاركة الشعب في بعض أعمال التشريع ومظاهر الحكم^٢.

يبد أنّ هذه الأنواع المختلفة لتحليلات الديمقراطية ترجع في جذرها الفلسفي إلى أصول عامة يمكن إيجازها في الآتي.
أولاً: سيادة الشعب: والسيادة هي الحاكمة العليا للشعب وهو السلطة العليا والتي لا تساويها أو تسمو عليها سلطة أخرى. ومثل انتصار الديمقراطية تفازع هذا الحق كل من الملوك ورجال الكنيسة باسم الحق الإلهي وانتهت تلك الحقبة بعد أن

^١ المرجع السابق، ص ٣.

^٢ هناك العديد من المصادر الغربية والتي تناولت الأصول الفكرية للديمقراطية، راجع على سبيل المثال،

University of Chicago Press, 1956.R. A Dahl, A Preface to Democratic Theory, Chicago -

Chatty and Windus, 1973. M. I Finley, *Democracy Ancient and Modern*, London -

Blackwell Publishers, 1996. D. Held, *Models of Democracy*, London -

أطاحت الثورة الفرنسية بكلتا الفريقين وأرجعت الحق في السيادة إلى مجمع الشعب. باختصار، جاءت نظرية سيادة الشعب بمثابة ردّ فعل عنيف للطغيان الكنسي الذي فرض وصايته على العقول والضمائر باسم الكهنوت فجاء ردّ الفعل في هذه النظرية تأليها للإرادة البشرية.

ثانياً: مبدأ المشروعية: ويُراد بذلك سيادة القانون وخضوع الشعب له حكماً ومحكومين. لقد تبلور هذا المبدأ بعد فضّ الاشتباك بين شخص الحاكم وشخصية الدولة وانتقال السيادة من الحاكم إلى الشعب وتثبيت حقّ الشعب في الرقابة على الحكومة بل وإسقاطها عند الاقتضاء. ومن الكواجح التي استخدمتها الدولة للمحافظة على هذا المبدأ جمود الدساتير والفصل بين السلطات "Separation of powers"، والرقابة القضائية "Judicial Review".

ثالثاً: حماية حقوق المواطنين والحريات العامة: إن حماية الحقوق والحريات العامة هي الغاية التي تنشدها الديمقراطية بمختلف صورها وأنماطها والتي من أجلها انتزعت السيادة من البابوات والملوك، وانتقلت إلى مجاميع الشعب. وفي سبيل حمايتها كان مبدأ المشروعية الذي أخضع الجميع لسيادة القانون. لقد بشر فلاسفة القرن الثامن عشر وفي مقدمتهم توماس هوبز وجون لوك وجان جاك روسو ومنتسكيو وغيرهم بمبدأ المصلحة الفردية والحريّة الشخصية وجعلوا منها الغاية الأسمى للإنسان، وجعلوا من الدولة القيم على تأمين هذه المصلحة. وفي سعيهم للتأصيل لهذه النظرية، زعم هؤلاء الفلاسفة أنّ الإنسان في حياته الفطرية الأولى كان يتمتع بحقوق وحريات مطلقة قبل بمحض اختصاره وعن طريق عقد اجتماعي "Social Contract"، التنازل عن جزء منها من أجل إقامة سلطة عامة تتولى مهمة صون هذه الحقوق، وأردفوا ان مناط هذه الحقوق مبدأ هامان: الحرية والمساواة حيث يندرج تحت الأول الحرية الشخصية والسياسية والاقتصادية، ويندرج تحت المبدأ الثاني المساواة أمام القانون، والمساواة أمام القضاء، والمساواة في ملء الوظائف العامة والمساواة في دفع الضرائب.

الديمقراطية بهذا الفهم تسير في خطّ متواز مع الفكر السياسي الإسلامي حيناً ويتقاطعان ويتلاقحان حيناً آخر. ولعلّ من أهمّ الانتقادات التي يوجهها الفقه السياسي الإسلامي للأصول الفكرية للأنظمة الديمقراطية الغربية الآتي:

أولاً: تأليه الإرادة العامة للشعب: قلنا سابقاً أنّ الديمقراطية تقرر أنّ السيادة العليا هي للشعب وهي بهذا المعنى تتناقض تناقضاً أساسياً مع الإسلام والذي يقرّر في وضوح أنّ السيادة العليا والسلطة المطلقة إنما هي لله عزّ وجلّ لا ينازعه فيها كائناً من كان. ودونك الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] فسطة الله عزّ وجلّ لا تحدّها سلطة ولا تقيد إرادته إرادة، ويعتبر القانون هو المعبر عن إرادته، كما تعتبر إرادته معيار الحقيقة المطلقة.

ثانياً: آفة التسوية المطلقة بين الكافة في عملية التصويت وإهدار أهلية الاختيار: المنطق الديمقراطي يبني على مبدأ صوت واحد لكلّ ناخبٍ "One man, one vote"، إذ أنّه يقوم على التسوية بين الكافة في عملية التصويت وهو بالتالي لا يفرّق بين من يعلم ومن لا يعلم، ويبقى بالتالي اختيار الجاهل الأمي كاختيار الإمام المجتهد سواءً بسواء. وهذه التسوية تناقض الوحي والعقل. ومنهجها يقف في تناقض صارخ مع قول المولى عزّ وجلّ: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القم: ٣٥-٣٦]. وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

[الزم: ٩]. ما نسوقه من مبررات لا يجب أن يؤخذ على أن الإسلام ضد المساواة لكن التسوية بين العلم والجهل، وبين التقوى والفجور لأمر تأباه المساواة ذاتها والتفرقة المذمومة والتي خاصمها الإسلام دون هوادة هي تلك التي تقوم على اللون أو النسب أو الجاه. أما التفرقة على أساس العلم والخبرة فهذا ما لا تستقيم الحياة السوية بدونه ولا ينازع في هذا إلا مكابر.

ثالثاً: أن الأغلبية التي تسعى للديمقراطية لكي تسود وتفرض سيادتها إنما هي قلة لا تمثل الشعب تمثيلاً صادقاً: تظهر الدراسات الإحصائية المعتمدة أن نسبة من يشاركون في العملية الانتخابية لا تتعدى العشرين بالمائة من نسبة من يحق لهم التصويت وهي أقلية ضئيلة إذا ما قيست بالعدد الكلي للسكان. والنتيجة أن الأمر يؤول في النهاية إلى أن تكون السلطة الحقيقة بيد قلة قادرة على التأثير بواسطة سلطان المال أو السيطرة على وسائل الاتصال الجمعي، وتكمن خطورة الأمر في أن هذه القلة تستطيع تمرير خياراتها وأهوائها باسم الأغلبية مما يكشف زيف الديمقراطية.

رابعاً: مشكلة الالتزام الحزبي: تقوم النظم الديمقراطية على نظام تعدد الأحزاب "Multi-Party System"، والأحزاب كما رأينا قبلاً، هي تكتلات سياسية تجمع بينها وحدة الانتماء إلى برنامج سياسي معين للوصول إلى السلطة من أجل تنفيذه. إن من أبرز آفات هذا النظام مشكلة الالتزام الحزبي والتي تعني التزام حظّ الحزب والدفاع عنه في الأجهزة التشريعية وغيرها حتى ولو تعارض ذلك مع القناعات والمعتقدات الشخصية للنواب الأمر الذي يعني عملياً أن النائب يمكنه أن يقف في أروقة البرلمان مدافعاً ومنافحاً عن أمرٍ لا يعتقد بل قد يدافع عن أمرٍ يعتقد خطله وخطأه.

إن ما منحته الديمقراطية من مكاسب للشعب كمبدأ مشروعية الدولة وخضوع كافة أجهزتها للقانون، وصيانة الحقوق والحريات العامة من المعلوم بالضرورة ولا ينازع في مثله عاقل. لقد قرر الإسلام هذه الحقوق الأساسية قبل أن يعرف العالم الديمقراطية بقرون عديدة وجعل الالتزام بها أمراً واجب الاتباع وليس مجرد منحة يبذلها أولي الأمر متى أرادوا وينقضون عليها متى شاءوا.

مما سبق، يكفي إبراز أهم أوجه السلبات والعيوب في التعددية الحزبية في أنها تركز تشردم الأمة من خلال عملية التنافس الحزبي وتكون نتيجة كل ذلك التنازع والشقاق وإشاعة الأحقاد والضغائن. كذلك تؤدي الحزبية إلى تبديد جهود الدولة، وتشتت قواها وذلك بانقسام الناس إلى مؤيدين ومعارضين يسعى كل فريق إلى التريّص بالآخر بغية إضعافه، وتبدو هذه الصورة أكثر في الدول النامية حديثة الاستقلال.

من ناحية أخرى، تتمتع التعددية السياسية بعدد من المميزات والمبررات يأتي في مقدمتها أن الأحزاب السياسية تلعب دور المدارس للشعوب وذلك من خلال دورها في توجيه الرأي العام، وتعميق الوعي السياسي لدى الجماهير عبر ما تطرحه من مشاكل الشعوب على بساط البحث والحوار وما تقترحه من حلول مما يساعد على بلورة الاتجاهات المختلفة الأمر الذي يمكن أفراد الشعب من المشاركة في المسائل العامة. كذلك يعتبر الحزب بمثابة المدرسة التي تتلقى فيها النخبة دروساً وتدريباً هامة تعينهم على تولي السلطة إذا ظفر الحزب بتأييد أغلبية الناخبين.

أيضاً، تعتبر الأحزاب همزة وصل بين الحاكم والمحكومين؛ فالآراء والمقترحات التي يثمرها هذا النظام لا بد وأن تصل إلى قنوات اتخاذ القرار فيتعرف الحاكم من خلالها على نبض الشعب وآماله وطموحاته.

إن التعددية السياسية بما تتيحه من وجود معارضة قانونية وعلنية يمارس من خلالها المعارضون حقهم القانوني وسعيهم المشروع في أن ينال برنامجهم ثقة الناخب وبالتالي الوصول إلى سدة الحكم يُعدُّ صمام أمان للمجتمع وعاملاً أساسياً من عوامل استقرار الحياة السياسية يحول دون تفجر أعمال العنف التي تهدد أمن المجتمع وتعصف باستقراره.

وأخيراً فالتعددية السياسية أثمر إيجابياً في توجيه الرأي العام أثناء عملية الانتخابات الدورية وذلك بما تقوم به من استشفاف لتطلعات ورغبات الأفراد والعمل على بلورتها في صورة اتجاهات عامة ترفع إلى أولي الأمر توطئة لدراستها لاتخاذ القرارات المناسبة بشأنها.

تلکم كانت أهم المنطلقات الفلسفية والفكرية للتعددية السياسية الغربية ومناقشة لأهم إيجابياتها ونقائصها. وكان أمر نقاش هذه المسائل ضرورياً حتى يتمهد السبيل للحديث عن التعددية السياسية في المذهبية الإسلامية. لكن، وقيل أن ندلف إلى مجال الحديث عن التعددية السياسية في ميزان الشريعة الإسلامية، لا بد من التوطئة لذلك بإلمامة سريعة عن الأصول الكلية التي تحكم العمل السياسي من المنظور الإسلامي.

هنالك مجموعة من الأصول والقواعد الكلية تحكم العمل السياسي الإسلامي يمكن إيجازها في الآتي:

أولاً: سيادة الشرع: رأينا أنّ المشروعية التي تستند عليها الديمقراطية مستودعها الإدارة الشعبية. أمّا في المذهبية الإسلامية فالسيادة لله سبحانه وتعالى من خلال تطبيق شريعته. ولقد انعقد إجماع الفقهاء على أنه لا دين إلا ما أوجبه الله ولا شرع إلا ما شرعه. ومن جادل في هذه البديهية، فقد خلع رتبة الإسلام. وهناك العديد من الآيات المحكمات التي تجلي هذه الحقيقة مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. ويترتب على قبول هذه المبادئ الكلية خضوع الجميع في الدولة المسلمة للشريعة، ونزع الشريعة عن كل عمل يتعارض مع الشريعة.

ثانياً: السلطة للأمة: إذا كانت الحجّة القاطعة والحكم الأعلى هو الشرع، فإن السلطة في التولية والرقابة والعزل للأمة لا ينافيها هذا الحقّ أحد طالما تمّ تطبيق ذلك في إطار سيادة الشريعة. والسياسة الشرعية ترى أنّ تولية أولي الأمر تنعقد بأحد وجهين: الاختيار بواسطة أهل الحل والعقد أو العهد من قبل الإمام السابق وإن كان الوجه الثاني "العهد" عند المحققين لا يعود أن يكون إلا مجرد ترشيح يفوض الأمر في تأكيده أو إغائه للأمة ويقيم الوجه الأول وهو الاختيار بواسطة أهل الحلّ والعقد هو السبيل الأوحد لانعقاد الإمارة.

ثالثاً: سيادة القضاء: القضاء في الدولة المسلمة له حرمة خاصة واختصاصه الشرع وحماه بسياج متين من الحماية لضمان استقلاله. والقضاة مستقلون لا سلطان عليهم إلا لشرع الله تعالى. ولا يحلّ لحاكم أو سلطة تنفيذية أن تنال من سلطة الهيئة

القضائية ترغيباً أو ترهيباً. وألزم الشرع الدولة بسنّ كل ما ما يلزم من النظم بما يكفل للقضاء حرمة وللقضاة استقلالهم وينأى بهم عن نزوات السياسة وأهواء الحكام.

رابعاً: صيانة الحقوق والحريات العامة: تصنّف الشريعة على أنّ مقاصد أحكامها للمكلفين خمسة: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ العرض، وقد كفلت الشريعة ما يحقّق هذه المقاصد بل نجدها قد ارتفعت بها إلى مستوى الحرمات وأحاطتها بسياجٍ من الحماية.^١ أمّا عن الحرّية والمساواة فإنّ الشريعة لم تهملها واعتبرت ذلك الأمر من القيم الرفيعة. تأمّل قول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب مخاطباً واليه على مصر عمرو بن العاص: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟" وقيل ذلك، تأمّل قول الرسول ﷺ في ردّه على من أتاه يتشعّع في أمر السيدة المخزومية ليدراً عنها حدّ السرقة: "وأيّم الله لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرت لقطع محمّد يدها".^٢

خامساً: الحسبة: الحسبة في الشريعة هي الأمر بالمعروف متى ظهر تركه، والنهي عن المنكر متى ظهر فعله.^٣ وبالحسبة يُصان الدّين وتقُدّس احكامه. وقد أورد الماوردي في كتابه المشهور "الأحكام السلطانية" أن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدّين وسياسة الدنيا به. كما أورد ابن خلدون في مقدمته نفس المبادئ. ولا تقتصر الحسبة على أوّلي الأمر فقط، بل تنصرف إلى كونها ولاية عامّة بذلتها الشريعة للكافة، أوجبتها عليهم حتى يتعاضد العمل الشعبي مع الرسمي على حفظ الدّين وصيانتهم من عبث العابثين والمفسدين. وبهذا المعنى تكون الحسبة صمام أمن للمجتمع تحول دون طغيان أوّلي الأمر ودون فساد الرعيّة وتظل الأمة معصومة من الزلّل.

سادساً: الشورى: اعتبر الثقات هذا الأمر من أمّ الأصول الكلّية في سياسة الحكم في الدولة المسلمة حيث قرّروا أن الأمة هي وحدها مصدر السلطة. تأمّل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] فنص الآية يوحي بأنّ الشورى أمرٌ أساسٌ للجماعة كلّها بل ذهب بعض الفقهاء إلى حدّ إجازة عزل الحاكم الذي يتعاس عن استشارة أهل العلم والدّين. وبعيداً عن الجدل الفقهيّ الذي دار حول مدى وجوب الشورى ومدى الالتزام بنتيجتها فإن من المقرر في قواعد السياسة الشرعية أن البيعة عقدٌ بين الأمة والإمام يوجب على الإمام القيام على حراسة الدين وسياسة الدنيا به ويوجب على الأمة لقاء ذلك الالتزام بواجب الطاعة والنصرة. فإذا اشترطت الأمة لنفسها في ذلك العقد التزام الحاكم أو الوالي بالشورى أصبحت الشورى ملزمة بمقتضى العقد مهما كانت نتيجة الجدل الفقهي الدائر في هذه المسألة. وإذا ما أخلّ الحاكم بالتزامه سقط ما وجب على الأمة بمقتضى عقد البيعة من الطاعة والنصرة.

^١ انظر، الشاطبي، الموافقات.

^٢ حديث متفقٌ عليه.

^٣ انظر، ابن تيمية، كتاب الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية.

هذه، إذن هي الأصول والقواعد الكلية للمذهبية الإسلامية وهي بهذه الصفة ثابتة لا يرد عليها نسخٌ ولا تغيير، لكن أساليب ووسائل وضع هذه القيم والأصول موضوع التنفيذ وحسن قيام الأمة بتطبيقها هو المتغيّر الذي يتفاوت بتفاوت الزمان والمكان والأحوال. وعليه، فقد تركت الشريعة مساحة واسعة للاجتهاد المتجدد، ويستطيع العقل الإسلامي المبدع أن يختار من الخبرات الإنسانية المتجددة ما يلائم الواقع الإسلامي وبما لا يتعارض مع روح الشريعة.

على أرضية الأصول والقواعد الكلية للفكر السياسي الإسلامي، يمكننا الآن أن نؤصل لمشروعية التعددية في الإسلام، وسنستخدم عددًا من المناهج لتأصيل التعددية في الفكر الإسلامي، ويأتي في مقدمة هذه المناهج المنهج التاريخي، المنهج الأصولي، المنهج الحقوقي، وأخيرًا المنهج السياسي.

أولاً: المنهج التاريخي: هنالك من المفكرين المسلمين المعاصرين من حاول قراءة مسألة التعددية الحزبية والسياسية في إطارها التاريخي على ضوء التراث الفكري والسياسي عند المسلمين. ويكتسب المنهج التاريخي في هذا السياق أهمية خاصة في كونه تأسيسًا للتجربة الإسلامية والأولى بأصالتها التشريعية واجتهاداتها البشرية باعتبار أن هذه التجربة تمثل نموذجًا يقتدي به في جوهره ومضامينه.

باستقراء المنهج التاريخي يبرز اتجاهان: الاتجاه الأول، ويرى أنّ المسلمين في تاريخهم لم يعرفوا الحزبية بمعناها المعاصر ولم يمارسوها في حياتهم الاجتماعية والسياسية، وبناءً على هذا يقولون أنّ روح الشريعة ترفض الحزبية.¹ فأصول الحكم مقررة في كتاب الله وفي سنة رسوله. ويقتصر واجب الحاكم على وضع تلك السياسات العامة موضع التنفيذ. ويقول دعاة هذا الاتجاه أن الخلاف بين المسلمين في تلك الحقبة لم يكن يتعدى الخلاف حول الوسائل دون أن يمتد إلى الغايات أو الفلسفة العامة للحكم؛ لذلك لم تنهض ضرورة للأحزاب.

الاتجاه الثاني: يرى أنه كان هناك جذرٌ تاريخيٌ للتعددية الحزبية والسياسية في حياة المسلمين في صدر الإسلام. ويرى رواد هذا الاتجاه أنّ الأدلة على مشروعية التعددية السياسية في الإسلام تجد لها شواهد أولية وصورًا جنينية وتجارب بسيطة في الحياة السياسية والاجتماعية لمجتمع النبوة في صدر الإسلام.²

ويسوق هذا النفر مجموعة من البراهين والشواهد الدالة على ممارسة التعددية الحزبية في حياة المسلمين الأوائل بشكل يوحى بوجود كتل وتجمعات بينها تمايز في الآراء والمواقف. فيذكر د. محمد عمارة مثلاً هيئة "المهاجرين الأولين" والتي من وجهة نظره قد مارست في عهد النبوة والخلافة الراشدة كل ما يمارسه التنظيم السياسي في مجتمع المدينة.³

¹ فاروق عبد السلام، الإسلام والأحزاب السياسية، ص ٢٩.

² من أبرز من يمثل هذا الاتجاه د. محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان، ضرورات لا حقوق، ص ١٠٠.

³ المصدر السابق، ص ١٠٨.

ويستطرد د. محمد عمارة ويورد شاهداً آخر وهو "هيئة النقباء الإثني عشر" والتي تكونت بالاختيار من الأنصار الذين عقدوا مع الرسول ﷺ عقد تأسيس الدولة الإسلامية في بيعة العقبة. ويرى أنّ هذه الهيئة كانت عبارة عن تنظيم ذي اختصاصات دستورية في حياة الدولة الإسلامية الوليدة^١.

ويرى كاتب آخر أنّ التعددية السياسية بدأت يوم السقيفة فكان للمهاجرين رأي، وكان للأنصار رأي مخالف، وكان لمناصري علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رأي ثالث، وانتصر واحد من هذه المواقف الثلاثة بالحكم. ثم طويت القضية مؤقتاً لتتفجر من جديد بعيد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث ظهرت التعددية بصورة مختلفة فيها العنف والسبب يعود إلى عدم تقنين تنظيم تلك التعددية^٢.

إنّ الأحزاب السياسية كما تفهم اليوم وجدت منذ القرن الأوّل من تاريخ الإسلام وإن كانت بصيغة بسيطة تعكس مستوى التطور الفكري والسياسي لتلك الفترة، ويستشهد بأنّ الفرق الإسلامية لم تكن مجرد مدارس فكرية فحسب بل كانت أحزاباً سياسية بالمعنى المتداول اليوم للمفهوم إذ كانت لها مبادئ معينة ولها نشاط وفيها نظام ثمّ إننا نجدتها تجتهد وتسعى حتى يتحقق النصر لمبادئها في صورة منهاج للحكم^٣. ويوافق هذا الرأي مفكّر آخر ويرى أنّ الفرق الكلامية كانت في الواقع تنظيمات سياسية تميّزت في "المقالات" أيّ "النظريات"، وفي الوسائل التي اعتمدها لوضع "مقالاتها" موضع التنفيذ. فللخارج مقالات ومنهج لتحقيق تلك المقالات، وكذلك الحال عند المعتزلة وعند الشيعة بفصائلها المختلفة المعتدلة منها والمغالية، العلنية منها والسريّة^٤. ودارت أطروحات تلك المذاهب الفكرية والسياسية حول مسألة الخلافة وتصور الحلّ الإسلامي للخروج من الوضع الحرج الذي آلت إليه الأمة الإسلامية آنذاك^٥.

ثانياً: المنهج الأصولي في تأصيل التعددية السياسية: المنهج الأصولي أو منهج علم أصول الفقه هو المستند الأساس في التشريع الإسلامي لأنّه منهج البحث العلمي الدقيق للخوض في مسائل الشريعة الإسلامية والذي لا غني عن الرجوع إليه في أيّ محاولة للتأصيل^٦. ونحن في محاولتنا لتأسيس قاعدة علمية للتعددية الحزبية والسياسية كان من الضروري أن نركز على المنهج الأصولي في تأصيل التعددية الحزبية والسياسية في الفكر الإسلامي. ومن المسائل الهامة التي بحثها العلماء في علم أصول الفقه المسألة المعروفة وهي "هل الحقّ واحد أم متعدّد؟" وهي أمراً لصيق الصلّة بالاجتهاد وما يوجبه من اختلاف المجتهدين. وفي الإجابة على هذا السؤال، انقسم الفقهاء إلى ثلاث فرق: فرقة تقول أنّ الحقّ واحد في حقيقته وهو لا يتعدد. وهذا القول ينفي

^١ د. محمد عمارة، الإسلام والتعددية الحزبية، (الكويت، العربي، عدد ٤٠٣).

^٢ انظر، "العام" (لندن) السنة الثامنة، العدد ٤٠٣، نوفمبر ١٩٩١م، حوار مع الشيخ أحمد الشامي.

^٣ د. ضياء الدين، النظريات السياسية الإسلامية، ص ٥١.

^٤ د. محمد عمارة، الإسلام والتعددية الحزبية.

^٥ د. عبد الحميد متولي، مبادئ نظم الحكم في الإسلام، ص ١٣٤.

^٦ انظر، الشافعي، الرسالة. وانظر، أبو حامد الغزالي، المستصفي.

في أساسه مشروعية الاجتهاد؛ لأنه يستوجب أن يكون العلماء على رأيٍ واحدٍ يتفقون عليه ولا يختلفون. هذا القول ممكنٌ وواقعٌ في المسائل القطعية، وبشكل عام، فإن معظم الفقهاء لم يأخذوا بهذا القول.

القول الثاني: أن الحقّ متعدّد في حقيقة ذاته وينبني على هذا القول أن كلّ اقوال العلماء على حقّ حتى لو بان بينهم التناقض. وهذا منطقٌ باطلٌ إذ لم يقل أحدٌ من العلماء أن الحقّ متعدد في ذاته؛ لأنّ ادّعاء ذلك يعني التناقض والاضطراب والفوضى في الشريعة الإسلامية.

القول الثالث والأخير: يقول أنّ الحقّ واحدٌ في حقيقته وطبيعته لا يقبل التعدّد، وقد اختص الله تعالى بهذا العلم. أيضًا يمكن القول بأنّ الحقّ في وجوده العلمي متعدّد وليس هناك تناقضاً في ذلك، فكل مجتهد من حقّه أن يجتهد في معرفة واكتشاف الحقّ، وقد يصيب وقد يخطئ. ويستتبع من هذا جواز تعددية الجماعات وأنّه لا يحقّ لجماعة أن تقول عن نفسها إنّها على حقّ وغيرها على ضلال بعد تثبيت القاعدة الأصولية. وهذا القول الثالث والأخير هو المختار والأقرب إلى الحقيقة. من جهة أخرى، فإن إقرار الفقهاء قديماً وحديثاً بالفرق والمذاهب الإسلامية هو إقرارٌ بشريّة وحقّ الاجتهاد في الإسلام، والذي يقول بتعددية المذاهب الإسلامية من باب أولى أن يقول بالتعددية الحزبية والسياسية. وهذا القول هو مركز الكثير من الفقهاء والذي على أساسه يؤسسون اعترافهم بالتعددية السياسية؛ حيث أشار هؤلاء إلى أنّ من حقّ الأمة الواحدة أن تتعدد رؤاها وتصوراتها، فكما أن فقه العبادات والمعاملات قد يتعدد، يرى هذا النفر من الفقهاء أن يتعدد الفقه السياسي.¹ ويزيد هذا النفر من الفقهاء القول بأنّ الأمة الإسلامية منذ البداية قد ارتضت الخلاف في الفروع ولم تقبل الاختلاف في الأصول، وأن التعددية السياسية تدخل في إطار الاختلاف في الفروع وبالتالي تظلّ من ذلك النوع المقبول من الاختلاف. وعلمياً، نجد أنّ أغلب من قال بالتعددية الحزبية والسياسية من منظور إسلامي قد انطلق من اعتبارها نوعاً من الاختلاف في الفروع وهو أمرٌ جائزٌ في التشريع الإسلامي.²

ثالثاً: المنهج الحقوقي في تأصيل التعددية الحزبية: يعبر هذا المنهج عن تلك الحقوق الفطرية والطبيعية التي توافق عليها الناس في إطار خصوصيات مجتمعاتهم؛ لذلك فإن الفلسفات والمذاهب والعقائد الاجتماعية والسياسية أولت اهتماماً كبيراً لقضايا الحقوق الإنسانية بل أننا لا نكاد نتصور فلسفةً أو مذهباً من غير نظرية في الحقوق يؤسّس عليها مشروعيتها الاجتماعية. والإسلام الذي جاء كأقرب الرسالات والفلسفات إلى احترام الإنسان كان الأقرب إلى حقوقه الفطرية والطبيعية وما يتأسّس عليها من حقوق شاملة اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية.

أمّا عن تأصيل التعددية الحزبية والسياسية في نظام الحقوق فنلاحظ أن الحرّية ضرورةً إسلاميةً ملزمة كفلها الإسلام للإنسان والعلاقة بين العبودية لله (سبحانه وتعالى) والحرّية علاقة وطيدة. فالعبودية إلى الله ترشد الحرّية وتحميها بإرادة صلبة هي خشية الله وليس خشية الناس. وإذا كانت الحرّية في تشريع الإسلام تمثل أصلاً مقرّراً حتى في نطاق العقيدة انطلاقاً من

¹ انظر، في هذا الشأن رأي الشيخ أحمد الشامي، "العالم"، (لندن)، العدد ٤٠٣، مصدر سابق.

² "المسلمون" (لندن) السنة الثامنة، العدد ٤١٣، يناير ١٩٩٣م. حوار حول التعددية الحزبية.

قاعدة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فهل يجوز بعد ذلك أن يقال أن تعاليم الإسلام تحجّر على الناس آراءهم السياسية والاجتماعية؟؟ كلاً... وكما يقول أحد المفكرين المعاصرين إنّ الحُرّيّة السياسية في اصطلاحنا المعاصر ليست إلاّ فرعاً لأصلٍ إسلاميٍّ عامٍّ هو حرّيّة الإنسان من حيث هو إنسان^١.

إذا كان الإسلام يقول بالتعددية الفكرية انطلاقاً من قاعدة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فمن باب أولى أن يقول بالتعددية الحزبية والسياسية لأن الأولى هي الأصل والثانية فرع لها.

من الثابت أن من الحريات المكفولة للإنسان حرية التجمعات والاجتماعات، والتجمع يتم إما لطلب منفعة أو لدفع ضرر، ولا حقّ للدولة في منع التجمع. والأحزاب في المحصلة النهائية ما هي إلاّ شكل من أشكال التجمعات التي تختلف باختلاف المهام والوظائف.

رابعاً: المنهج السياسي في تأصيل التعددية الحزبية: نعني بهذا منح التعددية الحزبية مرتكزات سياسية تدعم بها وتأسس عليها. ولهذا المنهج عدة مرتكزات يأتي في مقدمتها:

أولاً: أنّ الاعتراف بالآخر وحق المعارضة المنظمة والمنضبطة هو شرط لازم وقاعدة للتعايش والتفاهم السلمي. وإذا أنكرت الاعتراف وحبسته عن الآخرين؛ فعلوا بك ذات الشيء، والنتيجة هي القطيعة والخصام والذي يمكن أن يتطور من حرب كلامية إلى صراع عنيف تستخدم فيه أدوات الحرب وتسقط الضحايا وتسيل الدماء. إذن، من شروط التعددية الحزبية أن يعترف كلّ طرف بالآخر من غير وصاية ومن غير مصادرة رأي ولا محاربة موقف.

ثانياً: أن تتشكل التعددية الحزبية والسياسية على أرضية صلبة من القواسم المشتركة التي تلتقي على المصالح العليا وعلى الحق العام وأن لا تخرق هذه المصالح العليا للمجتمع أو يتمّ التنكر لها تحت أيّ غطاء أو مبرر، الأمر الذي يكفل وحدة الأمة وأمنها.

ثالثاً: أنّ التعددية الحزبية في صورتها المثلى هي تعددية في البرامج والمشاريع التي تخدم وتدفع المجتمع للأمام، في هذا التخصص قد نجد مجموعة تولى جل اهتمامها بالمسائل الاجتماعية في بعدها الاقتصادي مثلاً تحت مسمى "العدالة الاجتماعية"، وقد نجد مجموعة أخرى تولى اهتمامها بتطوير الواقع السياسي للمجتمع بالتركيز أكثر على الديمقراطية، وتوسيع قاعدة المشاركة. بينما نجد مجموعة ثالثة تولى عناية خاصة لقضايا حقوق الإنسان والمساواة أو قضايا العمل الثقافي أو قضايا التعليم أو النهوض بوضع المرأة في المجتمع أو وضع الأقليات وغير ذلك من القضايا المحورية. والتعددية بهذه الصيغة من التنوع والتخصص والتكامل تعتبر حالة حضارية متقدمة ترفع المجتمع وتدفع به نحو المزيد من التطور والنهوض والحراك. وهذه الصيغة مما يقترحه ويفضّله بعض الفقهاء المحدثين، وفي مقدّماتهم الدكتور يوسف القرضاوي^٢.

^١ فهمي هويدي، "الإسلام والديمقراطية"، المستقبل العربي، السنة الخامسة عشرة، العدد ١٦٦، (بيروت، ديسمبر ١٩٩٢م)، ص ١١.

^٢ القرضاوي، أين الخلل؟ ص ٣٨.

هذه هي المناهج الرئيسية الأربعة التي تناولت تأصيل ظاهرة التعددية الحزبية والسياسية في الإسلام، ويقتضينا الأمر الآن الالتفات إلى مناقشة أطروحات المدارس الفكرية الإسلامية المختلفة حول إشكالية التعددية السياسية. ويمكننا في هذا الشأن التمييز بين ثلاثة اتجاهات رئيسية هي:

الاتجاه الأول: الذي يرى حرمة إنشاء الأحزاب السياسية ويفرض على أساس مبدئي التعددية الحزبية والسياسية. ويمثل هذا الاتجاه على سبيل المثال سيد قطب.

الاتجاه الثاني: والذي يرى ويؤيد مشروعية التعددية الحزبية والسياسية دون قيد أو شرط. ويمثل هذا الاتجاه على سبيل المثال حسن حنفي ومحمد عابد الجابري.

الاتجاه الثالث: الذي يرى مشروعية التعددية السياسية بشروط منضبطة وفي إطار الالتزام بسيادة الشريعة، وعدم الخروج على أصولها الثانية. ويمثل هذا الاتجاه على سبيل المثال راشد الغنوشي.

دعاة الاتجاه الأول والذي يقول بعدم مشروعية التعددية السياسية بينون موقفهم على قاعدة أن نظام تعدد الأحزاب لا سبيل له في المجتمع الإسلامي، ولا تتسع له المذهبية الإسلامية لما يخزقه من الأصول والقواعد ولما يفضي إليه من المآلات السالبة وأنّ منعه يعتبر من باب سدّ الذرائع. وفي باب الاستدلال على موقفهم يسوقون مجموعة من الأدلة يمكن إيجازها في الآتي:

أ. أن الأحزاب لم تذكر في القرآن الكريم والسنة في غالب الأمر إلا مقترنة بالذم والوعيد، واقتصر استخدام هذا المفهوم في معرض الإشارة إلى أعداء الدين، وأنه لم يشار إلى جماعة المسلمين بتعبير "الأحزاب" إلا بصيغة المفرد على أنهم "حزب الله". وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وغيرها من الايات المحكمات، ففي الأمثلة التي سقناها نهي عن التفرق في الدين وأمر بالاعتصام بعروة الإسلام الوثقى. أيضاً، وردت العديد من الأحاديث النبوية فيها أمرٌ صريحٌ بلزوم الجماعة، ونهي صريحٌ عن الفرقة. ويتخذ أصحاب هذا الاتجاه من هذه الأدلة ما يؤكد على النهي المطلق لقيام الأحزاب التي تشرذم الأمة وتجعلها شيعاً متنافرة.

ب. الكوايح التي تنهى عن التنافس في طلب الإمارة تتوعد من يفعل ذلك بالخذلان وسوء العاقبة ويقول أنصار هذا الاتجاه أنّ نظام تعدد الأحزاب في سداده ولحمته قائمٌ على التنافس من أجل الوصول إلى سدة الحكم ومنازعة السلطة القائمة، وعليه يجب سدّ ذلك الباب.

ج. نظام الأحزاب يقوم على تركية النفس والطعن في الآخرين، ونعني بذلك أنّ من قواعد التنافس الحزبي هذه الحملات الانتخابية التي يقوم فيها مرشحو الأحزاب المختلفة يزكون فيها أنفسهم ويقدمون في مصداقية وذم منافسيهم مما يدخل في

باب الطعن والغيبة، ومن الأدلة التي يسوقونها ناهية عن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»^١.
 د. انعدام السوابق التاريخية: مع أنّ دولة الخلافة حكمت لفترات طويلة إلا أنّ سجلها خلى تمامًا من وجود أحزاب بالمعنى المعاصر لهذا المفهوم. فكان هذا بمثابة إجماع الأمة على ترك هذا الأمر. وأمّا الفرق التي انشقت في جماعة المسلمين فما هي إلاّ ظواهر مرضية اضعفت من بينة المجتمع الإسلامي وفارق بها أصحابها الجماعة بما تحزبوا عليه من البدع ومنازعتهم الأئمة والخروج عليهم.

هـ. خطأ القياس على تعدد الأحزاب العلمانية: تقوم الأحزاب العلمانية على مبدأ فصل الدين عن السياسة وعدم مزج الأمرين. وفي المواقف السياسية التي تنفصم عن الدين فإنها تخلو من الحماس والغيرة التي يبعثها البعد الديني ويكون المجال فسيحًا لتبادل الآراء والتهاون والتنازل، وبمضاهاة الأمر في حالة الأحزاب التي تنشأ في المجتمع الإسلام نجد فروقات واضحة حيث لا يمكن فصل الدين عن السياسة. فالدين لا يسمح بالتهاون والتنازل في الأمور المبدئية بل يثير نزعات التحمس والثبات عليه والدفاع عنه. الخلاصة أن التعددية في الإسلام تفضي إلى روح المرح والفتن لكن التعدد في النظم العلمانية لا يؤدي إلى هذه النتيجة.

و. فشل تجارب التعددية الحزبية في أغلب الدول الإسلامية: تدلّ التجربة التاريخية الماثلة للتعددية الحزبية في الدول الإسلامية على فشل هذه التجربة فشلاً ذريعاً. فالأحزاب تتنكر لكل التعهدات التي تقطعها للناخبين لقاء الفوز بأصواتهم حال وصولها للسلطة. وفي حال وجودها في صفوف المعارضة، نجدها لا تألوا جهداً في إثارة الإحن والضغائن والفتن. كما أنّ هذه الأحزاب تفتقر إلى المؤسسية في هياكلها وتنظيماتها وقراراتها فوقيّة لا تمثل إرادة قواعدها. فلا خير فيها حاكمة ولا خير فيها معارضة.

هذه خلاصة الأدلة والأسانيد التي ذهب إليها القائلون بعدم مشروعية التعددية الحزبية والسياسية في الدولة المسلمة. ومن أبرز المنافحين والمدافعين عن هذا الاتجاه الراحل سيّد قطب، والداعية الإسلامي فتحي يكن^٢. ولنقف الآن وقفة تأمل ومناقشة لأسانيد وبراهين هذا الاتجاه ومعظمها مما يسهل دحضه. فالقول بأن الأحزاب لم تذكر في القرآن الكريم إلاّ مقتزنة بالذم والوعيد، فيه خلطٌ واضح، فالمفهوم الحديث للحزب السياسي يختلف عن المفهوم القديم للحزب الذي ورد ذكره في القرآن الكريم على سبيل الذم؛ لأنّ المفهوم الحديث للحزب هو مجموعة متألّفة من الناس يجمع بينهم وحدة الاتجاه السياسي وهو بذلك أشبه ما يكون بالمذهب الفقهي. أمّا الأحزاب بمفهومها القديم والذي ذمّه القرآن الكريم فهي تكتلات عشائرية أو قبلية تؤلّف بينها العصبية الجاهلية وتجمع بينها وحدة الالتقاء لمحاربة الإسلام والكيد لأهله وبنيه، ومن هنا جاء ذم القرآن لها.

^١ الترمذي، السنن، ج ٤، ص ٣٥٠، رقم ١٩٧٧ وقال: "حسن غريب".

^٢ فتحي يكن، أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، ص ٧١.

أما بالنسبة للأدلة التي تنهى عن طلب الإمارة فلا تنازع في هذا وطلب الولاية مكروهٌ وما فيها من المغارم أضعاف ما فيها من المغانم. المتأمل في هذه الأدلة يستطيع أن يقيد المنع الوارد فيها بمن طلب ذلك لمصلحة شخصية. أما من طلبها لمصلحة إقامة الدين وتحقيق ما يصلح حال المسلمين مع كونه أهلاً لها وقاصداً إلى الحق والعدل فهو خارجٌ عن دائرة هذه التصوص، فمن المعروف أن يوسف عليه السلام قد طلب الولاية من عزيز مصر؛ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح، ورأى في طلب الولاية فرضاً متعيناً عليه. وهكذا الحكم اليوم لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق، حق له أن يسأل ذلك ويخبر بصفاته التي تؤهله من العلم والكفاية.

أما الأدلة التي تنهى عن تزكية النفس بما تتضمنه من النهي عن الدعاية الانتخابية للأحزاب السياسية فلا يخفى أن هذا النهي يستثنى منه مما تدعو إليه الحاجة حيث قال يوسف عليه السلام لعزير مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ [يوسف: ٥٥]. وقال القرطبي في تفسيره للآية إنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علمٍ وفضلٍ^١. وقال الجصاص في أحكام القرآن بذات الشيء وأنه ليس من المحذور من تزكية النفس في قوله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾. وبناءً على ما تقدم، فإنه إذا بقيت الدعاية الانتخابية للأحزاب في حدود القصد، ولم تتجاوز ذلك إلى الكذب والتشهير بالآخرين فهي مما تتسع له قواعد السياسة الشرعية. أما ما تضمنه التنافس الحزبي من التشهير وتتبع عورات الخصوم السياسيين، وكشف عوراتهم وإشاعتها على الملأ باسم حرية النقد والتعبير، فللشرع ان يردع هذه الممارسات غير المسؤولة.

أما الاحتجاج بأنه لا توجد سابقة تاريخية للأحزاب السياسية في الدولة المسلمة فأمرٌ لا يعتد به؛ لأن الضرورة تقتضينا التفريق بين الثوابت والمتغيرات في هذا الشأن. فالثوابت مثل سيادة الشريعة وسلطة الأمة والشورى فكلها تقع في باب الأصول التي لا يمكن التفريط فيها. أما الأساليب والوسائل التي يتوصل بها لوضع هذه الثوابت موضع التنفيذ فقد تركتها الشريعة عفواً للمسلمين ليتولوا أمر ترتيبها بما يتفق وتغير الزمان والمكان والأحوال والعبرة فيها بتحقيقها لمصلحة الأمة مع عدم اصطدامها مع الأصول الثابتة.

أما الادعاء بأن التعددية السياسية في الدولة الإسلامية ستفضي إلى الهرج والتقاتل والفوضى نظراً لامتزاج المواقف السياسية بالدين، فأمرٌ فيه نظر لأن التعددية التي نتحدث عنها هي تلك التي تدور في فلك الالتزام بسيادة الشريعة والإقرار القاطع بالأصول الثابتة من الشريعة وفي هذه الحالة لا يكون الاختلاف بين الأحزاب محدوداً وفي موارد الاجتهاد ومجالات الشورى فحسب، والأصل أن الإطار الذي يحكم موقف كل حزب تجاه الأحزاب الأخرى هو القول المأثور "ما نحن عليه صوابٌ يحتمل الخطأ وما عليه غيرنا خطأ يحتمل الصواب". والنتيجة أن التهاجر والاختلاف ليس النتيجة الحتمية للتعددية متى ما أرسيت أرضية صلبة لأدب الاختلاف.

وأخيراً، فإن الاحتجاج بفشل التجارب الحزبية في المجتمعات الإسلامية يسهل الرد عليه. فالملاحظ أن هذه الأحزاب بالجملة علمانية التوجه، وقلما قام أحدها على مبدأ تحكيم الشريعة. الأمر الآخر أن التجارب الحزبية في دول العالم الثالث

^١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن.

جاءت مخيبة للآمال سواء كانت هذه المجتمعات إسلامية أو غير ذلك ولا دخل لفشل هذه التجارب بالدين. لكن المحكّ الرئيس هنا هو درجة التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمع، فكلما زادت درجة هذا التطور انعكس ذلك إيجابياً على التجربة الحزبية والانعكاس صحيح.

خلاصة نقاشنا أن أدلة الاتجاه الرافض لمشروعية التعددية السياسية والحزبية في الدول الإسلامية لا تخلو جميعها من الضعف وبوسع المشروع الحضاري الإسلامي أن يقدم لنا نموذجاً لممارسة حزبية صحية ومسؤولة تغيب فيها الكثير من السلبيات والتهم التي وجهت للتعددية.

الاتجاه الثاني: هو يقول بإباحة التعددية السياسية بإطلاق. لا يقف أصحاب هذا الاتجاه عند حدود التعددية الملتزمة والمتقيدة بضوابط الشريعة، بل يفتحون الباب أمام كافة التيارات المذهبية والفكرية لتتبوأ مكانها في الساحة السياسية. وهذا يفتح الباب أمام الأحزاب الملحدة والعلمانية والقومية والوطنية للتواجد الشرعي. بمعنى آخر، فإنّ دعاة هذا الاتجاه يرون أنّ المذهبية الإسلامية تستوعب إطلاق التعددية إلى أبعد مدى. وحجة هؤلاء أنّ المذهبية الإسلامية كانت من السماحة والمرونة بحيث أنها استوعبت المجوس وعبدة الأصنام كما استوعبت اليهود والنصارى، وقياساً على هذه المرونة الفائقة بإمكانها استيعاب كلّ ألوان الطيف السياسي من علمانيين وغيرهم إذ أنهم لن يكونوا أشدّ كفرًا من المجوس واليهود والنصارى. وحتّهم في ذلك الصحيفة التي عقدها الرسول ﷺ مع أهل المدينة من مسلمين ويهود ومن دخل في ذلك العهد، ويعتبرون ذلك الدّستور الفريد عبرة ومنهاجًا وسابقة لها دلالتها الحضارية التي تشهد بمدى مرونة الإطار السياسي في الدّولة المسلمة. ولعل في مقدمة المدافعين عن هذا الاتجاه الشيخ علي عبد الرازق، والذي كتب في الثلاثينيات من القرن العشرين كتابًا سماه "الإسلام وأصول الحكم" ادّعى فيه أنّ الإسلام دينٌ ورسالة، وليس دولة، وأنّ الرسول ﷺ نبيٌّ داعية وليس رجل دولة. وقد استعدت أفكار الشيخ عبد الرازق الأزهر عليه والذي رأى في أفكاره مروقًا على الدين، وقام الأزهر بفصل الشيخ عبد الرازق من تلك المؤسسة الدّينية العريقة. كما يندرج في هذا الباب العديد من العلمانيين المعاصرين من المسلمين المنبهرين بالحضارة الغربية.

ما هي بواعث هذا الاتجاه المتطرّف؟

هنالك مجموعة احتمالات ربّما كانت وراء هذا الاتجاه كان الدّفاع عن الإسلام في مواجهة من يتهمونهم بالآحادية والتّسلط واحدًا من هذه البواعث. الاحتمال الثاني هو استمالة العناصر العلمانية في هذه المرحلة حتى تكفّ بأسها عن المشروع الإسلامي مع إلتباس في بعض المفاهيم أدى إلى نوع من الخلط عند رواد هذا الاتجاه. الاحتمال الرابع والأخير هو تأثير تيارات التغريب على عقول ومشاعر بعض المسلمين خصوصًا الذين درسوا في الغرب وتأثروا بثقافته.

إذا نظرنا إلى موقف الفكر الإسلامي المعاصر في مواجهة هذا التيار وصيغة العلاقة التي ينبغي أن تسود معه، نجد أن هنالك ثلاثة تيارات:

١. خيار التّصادم والصراع.

٢. خيار المقاطعة والانغلاق.

٣. خيار الحوار والتعايش.

يبدو أنّ الخيار الأخير هو الأمثل لأن الإسلام يرتكز على قاعدة قوّة المنطق لا منطق القوّة والمجادلة والتي هي أحسن. ويرى بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين أن هنالك تطوراً في حركيّة الفكر الإسلامي الحديث في التحول من التصادم والصراع وبالتالي المقاطعة والانغلاق إلى الحوار والتعايش بل التفاهم والتنسيق بين بعض الكتل والجماعات الإسلامية وكتل وجماعات علمانية. وأن هذه الأخيرة ليست كلّها مستعصية على الاستجابة للدعوة الإسلامية، فإذا أحسن الإسلاميون التّعامل معها وحددت بعض القواسم المشتركة، استطاع أصحاب المشروع الإسلامي بحسن الحوار والمناظرة والبعد عن الوصاية والاستعلاء والجدل الفقهي والعقديّ مع هؤلاء تحويل الكثير من أفراد التّخبة العلمانية من الانحياز ضدّ الإسلام إلى الحياد، ومن الحياد إلى المناصرة والانتماء الفكري للإسلام^١.

على أيّة حال، فإنه لا توجد تعددية مطلقة في الواقع لا في الدولة الإسلامية ولا في الدّول العلمانية لأنه ما من دولة أو مجتمع إلا وقد شرعت بعض القيود للحريات السياسية وأقامت بعض المبادئ والمقومات الأساسيّة للمجتمع، وقد تضيق أو تتسع دائرة هذه القيود وقد تتفاوت من دولة إلى أخرى، إلا أنّ القاسم المشترك الأعظم هو وجود إطار يجب أن تتقيّد به هذه التعدديّة^٢.

الاتجاه الثالث والأخير: هو الذي يرى ويؤيّد مشروعية التعددية الحزبية والسياسية بشرط الالتزام بسيادة الشريعة وعدم الخروج على أصولها الثابتة. ويغلب هذا الاتجاه على الباحثين المعاصرين. وربما كانت بواعثه هي واقع الاستبداد الذي تعيشه بلاد المسلمين وفتنة الحرية التي تزهو بها مجتمعات الغرب العلمانية، وقد يقول البعض إنّها الهزيمة النفسية أمام مغريات الحضارة الغربية، وقد يدافع البعض أنّه التجديد في الوسائل والأساليب لاستيعاب متغيرات العصر. وأياً كانت البواعث لهذا الاتجاه، فإنه قد اضحى حقيقة واقعة وتكاد أغلب الأدبيات الحديثة في النّظام السياسي الإسلامي تنحو هذا المنحى وتتلّمس له التّخرجات الشرعية التي تسلكه في منظومة المفاهيم السياسية الإسلامية.

وينطبق معظم القائلين بمشروعية التعددية السياسية في إطار الإسلام من عدد من المرتكزات يأتي في مقدمتها:

أولاً: السياسة الشرعيّة: والسياسة الشرعيّة يمكن تعريفها بإجازة بأحكام تدبير الشؤون العامة للدولة الإسلامية بما يحقق المصالح ويدفع المضار، وأن يتمّ كل ذلك في إطار الشريعة وأصولها الكلية. وبسبب اختلاف الأزمنة والأمكنة والظروف، فقد استجدّت أمور كثيرة لم تكن معلومة لدى السلف لم يقطع فيها الرسول ﷺ برأي ولا نزل بها وحياً. إنّ تدبير شؤون الحكم وعقد السلطات العامة في الدولة وتنظيم العلاقة بينهما وتمكين الأمة من ممارسة حقّها في السلطة وتدبير أنظمة الشورى

^١ د. طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، ص ٥٥.

^٢ د. أحمد كمال أبو الجهد، رؤية إسلامية معاصرة، إعلان مبادئ، ص ٥٧.

والحسبة، كل ذلك من مسائل السياسة الشرعية التي لا يشترط فيها أن تكون على مثال سابق، بل الذي يشترط هو ألا تخرج عن قوانين الشريعة وأن تتحقق بها المصلحة.

ثانياً: الأصل في العقود والمعاملات الإباحة حتى يأتي ما يدل على التحريم: ممن انتصر لهذا الرأي من أهل العلم والفضل شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى. فإذا استخلصنا صياغة لتعددية حزبية منضبطة تحقق المصلحة وتصور الأمة من جور الحكام، وتحفظ للأمة حقها في الرقابة والحسبة، وتم كل ذلك في إطار القواعد الكلية للشريعة فمما لا حرمة فيه، وعلى مدعي المنع إقامة الحجة والدليل.

ثالثاً: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب: إذا استصحبنا هذه القاعدة وطبقناها في مجال الحكم والسياسة لوجدنا أن الشريعة تأمرنا بجملة من المبادئ الكلية يتوقف القيام بها في حاضرنا على التعددية السياسية. ولنضرب بعض الأمثلة لذلك. فالشورى مثلاً لا مرأى لها من قواعد الشريعة الكلية ولا سبيل - في اعتقادنا - لتحقيقها وتطبيقها في واقعنا الراهن إلا عن طريق التعددية السياسية. فمجال الشورى في باب الحكم يتمثل في عملية تداول السلطة والرقابة عليها وفي كلا الأمرين تلعب التعددية الحزبية والسياسية دوراً محورياً.

رابعاً: قاعدة الذرائع والنظر إلى المآلات: بالإمكان النظر إلى التعددية السياسية كذريعة إلى منع الاستبداد من ناحية وإلى منع الاضطراب والثورات المسلحة من ناحية أخرى. وذلك بما تشيعه من الاستقرار النسبي في الأوضاع السياسية، وبما تتيح للمعارضة السياسية من المشاركة في السلطة لإنفاذ برامجها واختياراتها السياسية والوسائل أو الذرائع تأخذ حكم المقاصد أو الغايات حلاً وحرمة. وإلى الذين يوازنون بين المفسدة التي قد تصحب التعددية عليهم أن يوازنوا ذلك والمفاسد التي تترتب على المعارضة السريّة، ثم عليهم أن يوازنوا بين المفاسد المتوهمة في التعددية السياسية بالمصالح التي تنجم عنها من إتاحة الفرصة للخبرات لتشري العمل السياسي، وتعميق الوعي السياسي لدى العامة، وصيانة الحريات، ومنع التسلّط، وإشاعة الاستقرار السياسي في أوساط المجتمع.

خامساً: صيانة الحقوق والحريات العامة: تعتبر الأحزاب والإطارات الفعالة التي تتيح للأفراد والجماعات ممارسة حقوقهم وحرياتهم العامة، وتحول بالتالي دون استبداد الحكام بالسلطة أو التّطاؤل على حقوق المواطنين. هذا لا يعني أن التعددية الحزبية هي السبيل الأوحّد الذي لا نتصوّر غيره لصيانة الحقوق والحريات العامة، ولكنها الإطار الأكثر فعالية لتحقيق ذلك. فإذا لم تصطدم بحكم في الشريعة، ولم تتضمن مفسدة تربو على ما يمكن أن تحققه من مصلحة أصبح القول بمشروعيتها هو القول المتعين.

سادساً: السوابق التاريخية: يستشهد بعض الذين يقولون بمشروعية التعددية السياسية بأن التاريخ الإسلامي قد شهد هذه التعددية في صورة الفرق الإسلامية كالحوارج والمعتزلة والشيعة والمرجئة ونحوهم. وإذا أمعنا النظر في هذه الفرق لوجدنا أنها تكتلات سياسية في أصلها تحزبت حول اختيارات وبرامج سياسية وإن كانت قد كسبت تحزبها السياسي بصيغة الاختلاف المذهبي الديني.

فبعد وفاة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، انتقلت الخلافة إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ودخل الخلاف في الرأي في المجتمع الإسلامي مرحلة جديدة، واكتسبت المعارضة الفكرية وجودها المادي وتجسدت في أشكال تنظيمية واضحة المعالم. فالذين خرجوا يطالبون بالثأر لمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه من بني أمية كوّنوا فيما بعد التيار السني المحافظ. أما الذين ناصروا علياً كرم الله وجهه فقد كوّنوا التيار الشيعي الثوري. بين هذين التيارين برز التيار الخارجي الذي رفض الفعل الأموي كليا مع رفضهم في ذات الوقت لموقف الإمام علي وخرجوا على الاثنان وكونوا فرقة الخوارج. والتيار الرابع الذي اعتزل الصراع بين الفئتين السابقتين في صورته المادية واهتمّ بدلاً عن ذلك بالقضايا الفكرية كون تيار المعتزلة. أما الفرقة الخامسة والأخيرة فقد رأت إرجاء الحكم على المتخاصمين وترك أمر الحكم بشأنهم إلى الله سبحانه وتعالى، وكوّنت هذه الجماعة تيار المرجئة. ومع أنّ هذه المواقف الخمسة المتميزة من قضية استمرار الخلافة بعد عثمان رضي الله عنه تطوّرت لتأخذ الصيغة الدينية البحتة، إلا أنّها كانت تعبّر عن خيارات سياسية واضحة.

سابعاً: البدائل المعاصرة: ينادي مناصرو التعددية السياسية أنّ البدائل لها هذه الأنظمة التسلطية الشمولية التي صادرت الحريات وكمّمت الأفواه وغيّبت وعي الأمة، ولم تجن من ورائها الأمة إلا التكبّات والفواجع. ففقيض وبدل التعددية السياسية هي أنظمة الحزب الواحد الذي يملك ويحكم ويسوم الشعب سوء العذاب. وإذا كان للتعددية بعض المثالب، فإن للأحادية مثالب ادهى وأمرّ. وإذا كان لنا أن نختار فإن مبنّى ومبتغى الشريعة تحقيق اكمل المصلحتين بتفويت أدناهما ودفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما.

الخاتمة:

حاولت هذه الدراسة الإجابة عن سؤال مفصلي وهام مفاده هل يتسع الإسلام للتعددية السياسية؟ بدأت الدراسة بتعريف الحزب في اللغة ثم انتقلت بعد ذلك لتحديد المعنى الاصطلاحي للمفهوم. انتقلت الدراسة بعد ذلك لمناقشة مفهوم التعددية الحزبية على الصعيد العلماني الغربي. تناولت الدراسة كذلك مجموعة الأصول والقواعد الكلية التي تحكم العمل السياسي الإسلامي. ثم انتقلت الدراسة إلى استعراض عدد من المناهج لتأصيل التعددية في الفكر الإسلامي. على هذه الأرضية تناولت الدراسة بالتمحيص والتحليل أطروحات المدارس الفكرية الإسلامية المختلفة حول إشكالية التعددية السياسية حيث ميّزت بين ثلاثة اتجاهات رئيسية:

الاتجاه الأول: يرى حرمة إنشاء الأحزاب السياسية ورفضها على أساس مبدئي.

الاتجاه الثاني: يرى ويؤيد مشروعية التعددية الحزبية دون قيد أو شرط.

الاتجاه الثالث: يرى مشروعية التعددية الحزبية بشروط منضبطة وفي إطار الالتزام بسيادة الشريعة وعدم الخروج على أصولها الثابتة. وتبنت الدراسة هذا الاتجاه الأخير.

وبناءً على ما تقدم، يصبح اختيار التعددية السياسية بعد تهذيبها، وإعادة صياغتها بما يلائم مقاصد الشريعة هي النموذج المقترح للعمل السياسي للدولة الإسلامية، ونحن في بداية الحقبة الثانية من ألفية جديدة وقرن جديد.

المصادر والمراجع:

١. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: كتاب الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية، (امستردام: منشورات مسجد توحيد، ١٩٩٠م).
٢. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، (مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٩٨٣م).
٣. ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.).
٤. أبو المجد، أحمد كمال، رؤية إسلامية معاصرة: إعلان مبادئ، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٢م).
٥. الحياط، عبد العزيز، التعددية من وجهة نظر إسلامية، اللواء، السنة الحادية والعشرون، العدد ١٠١٦-٢١، (الأردن: أكتوبر، ١٩٩٢م).
٦. زكي الميلاد، التعددية الحزبية في الفكر الإسلامي: التأصيل، الأنماط، التحول، الكلمة: (العدد ٢، السنة الأولى، شتاء ١٩٩٤م).
٧. سعد الدين إبراهيم (محرر)، التعددية السياسية والديمقراطية في الوطن العربي، (عمان: منتدى الفكر العربي، د.ت.).
٨. الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات، تحقيق: عبد الله دراز، (بيروت: دار المعرفة، د.ت.).
٩. الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة، (القاهرة: دار التراث، ١٩٩٩م).
١٠. ضياء الدين، النظريات السياسية الإسلامية، (القاهرة: دار المعارف، د.ت.).
١١. عبد الحميد متولي: مبادئ نظم الحكم في الإسلام، (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٤م).
١٢. العلواني، طه جابر، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، (واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١م).
١٣. الغزالي، أبو حامد، المستصفى، (دمشق: دار الفكر، د.ت.).
١٤. فاروق عبد السلام، الإسلام والأحزاب السياسية، (القاهرة: مكتب قلوب، ١٩٨٧م).
١٥. فتحي يكن، أبعديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م).
١٦. الفنحري، أحمد شوقي، الحرية والأحزاب السياسية، (القاهرة: مكتبة قلوب، ١٩٨٧م).
١٧. فهمي هويدي، "الإسلام والديمقراطية"، المستقبل العربي، السنة الخامسة عشرة، العدد ١٦٦، (بيروت: ديسمبر ١٩٩٢م).
١٨. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م).
١٩. القرضاوي، يوسف، أين الخلل؟ (تونس: مكتبة الجديد، ١٩٨٨م).
٢٠. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٧م).
٢١. محمد عمارة، الإسلام والتعددية الحزبية، (الكويت: العربي، عدد ٤٠٣).
٢٢. محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان، ضرورات لا حقوق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (الكويت: ١٩٨٥م).
٢٣. محمد عمارة، الحركة الإسلامية، رؤية مستقبلية: أوراق النقد الذاتي، تحرير وتقديم د. عبد الله النفيسي، (الكويت).

الفروق المهمة بين حفظ التوراة والإنجيل وحفظ السنة

د. فواز بن سالم القشامي*

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى الردّ على من زعم أنّ حفظ الأحاديث هو من باب حفظ التوراة والإنجيل، فكما أنّه قد دخل التوراة والإنجيل التحريف، ولا نعرف وجه الصواب من الخطأ؛ فكذلك السنة النبوية. وإثبات الفروق بين حفظ التوراة والإنجيل وبين حفظ السنة المنزلة على سيد المرسلين ﷺ.

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده كتاباً يُتلى، وأوحى على لسانه من البيان ما أوحى، وأكرم هذه الأمة دون غيرها بحفظ ما أنزل إليها، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. وضمّن لها حفظه غصّاً طرياً، فتناقلته الأمة جيلاً بعد جيل، وزمناً بعد زمنٍ لا يُدخاله الباطل بحيث لا يعرف الصواب، ولو حاول أهل الباطل الإتيان بمثل القرآن، أو الدسّ في حديث النبي العدنان ﷺ، فإنّ ذلك زائل، والحق باقٍ ومعلوم، وقد هيا سبحانه لذلك أئمة حنفاء، وحفاظاً أوفياء، جمعوا القرآن ونقلوه، وحفظوا السنة وبلغوها، فبقي هذا الدين بتمامه وكمالته محفوظاً من الزيادة والنقص، والتحريف والتصحيح. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً سيد الأولين والآخرين، صلى الله عليه وعلى أصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً. أمّا بعد!

فقد تكلم بعض المُحدّثين في حفظ أحاديث سيّد المرسلين ﷺ، وثبوت المرويات، وشكك في مكانة الصحيحين خاصّة، وخطّ من منزلتهما، بل جزم بوجود الموضوع فيهما -فضلاً عن الضعيف- في كلامٍ طويلٍ ممّا قال، فسلك في ذلك مسلك الزنادقة والمبتدعة حين طعنوا في السنة جملة وتفصيلاً، ذلك أمّا كانت هي البيان، والأصل الثاني بعد القرآن، فاجترّ ما لا كنه غيره، وكرّر ما ذكره، فأقولهم مدوّنة عبر التاريخ، وشبهاتهم التي أشكلوا بها على السنة قد أجاب عنها أهل العلم والفضل أعظم جواب وأظهره، فذكر هذا المتأخّر طرفاً من تلك الشبهات، وأرى عليهم فذكر ما لم يذكره ممّا يعلم بطلانه، فوافقهم في الطعن وزاد عليه في الأدلّة، وكان ممّا أثاره من الشبهات: "أنّ حفظ الأحاديث النبوية إنّما هو بمنزلة حفظ الكتب السماوية

* الأستاذ المساعد بكلية الشريعة والأنظمة بجامعة الطائف.

¹ ذكر ذلك كلاً: د. عدنان إبراهيم في خطبة جمعة -على اليوتيوب- بعنوان (مشكلتي مع البخاري). والمذكور هو: خطيب بمسجد الشورى بالعاصمة النمساوية فيينا، ورئيس جمعية لقاء الحضارات بها، فلسطيني الأصل ولد بغزة عام ١٩٦٦م، له الكثير من الخطب والمحاضرات واللقاءات المتلفزة. تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في مدارس الأوتروا ليغادره إلى يوغسلافيا حيث درس الطب في جامعتها. وبسبب ظروف الحرب الأهلية هناك، انتقل إلى فيينا بالنمسا أوائل التسعينيات، حيث واصل دراسة الطب بجامعتها. أهد بحسب موقعه بالفيسبوك، وموقع ويكيبيديا.

السابقة، فكما أنَّ الكتب السابقة قد دخلها التحريف والتبديل فكذا الحال ههنا، وصرَّح بأنَّ التوراة والإنجيل قد دخلهما التحريف، وكذا الأحاديث ... إلى آخر ما قال من الكلام".

وسيكون الكلام بتوفيق الله تعالى في هذا البحث عن إثبات الفروق بين حفظ التوراة والإنجيل من جانب، وبين حفظ السنة النبوية من جانب آخر، وهل حفظ الأحاديث راجع إلى حفظ القرآن ومتصل به، أم مشابه لحفظ التوراة والإنجيل وقابل للتحريف. أمَّا القرآن فهو كما قال الله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

فالقرآن نزل إكراماً، وحفظ إعجازاً، ثمَّ يُرفع^١ كعلامة لنهاية الدنيا، وإشارة إلى عدم قدرة البشر مع هذا الكتاب في نزوله، ولا في الإتيان بمثله، ولا في تحريفه، ولا في طمسه وإطفاء نور الله الذي أنار الدنيا، فالله هو الذي أنزل القرآن بأمره، وهو الذي حفظه بأمره، وهو الذي يرفعه بأمره، فالخلق أمام القرآن كلام الملك الديان ضعفاء عاجزون لا يستطيعون منعه، ولا دفعه، ولا رفعه، وليس لهم معه سوى الإيمان به، أو الكفر.

ولولا تيسير الله تعالى له لما أطاقه البشر، فعند البخاري تعليقاً: قال مجاهد: ﴿يسرنا﴾ هونا قراءته^٢.

وقد ذكر كثير من أهل التفسير عند قوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا الذكر﴾ أي: يسرنا حفظه^٣، قال شيخ مشايخنا الشيخ السعدي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم^٤.

المبحث الأول: بيان خطأ هذه المقارنة

يعلم كل مسلم أنَّ مقام التوراة التي - كتبها الله تعالى بيده لنبيه موسى^٥، وكذا الإنجيل الموحى لنبي الله عيسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، أن تُقرنا مع القرآن كلام الرحمن، لا مع السنة النبوية - وإن كانت وحيًا - بحكم أنَّهما جميعاً من كلام الله، وليست من أقوال الرسل الكرام، فالتوراة ليست من أقوال النبي الكريم موسى، وكذا الإنجيل ليس من أقوال نبي الله عيسى بن مريم، ومعلوم أنَّ القرآن ليس من ألفاظ نبينا محمدٍ عليهم جميعاً صلوات ربي وسلامه.

^١ كما في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، مرفوعاً: «يدرس الإسلام ... وفيه - وليسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ...». رواه ابن ماجه برقم ٤٠٤٩، والحاكم، ج ٤، ص ٤٧٣، وينظر: الألباني، السلسلة الصحيحة، فقد صححه برقم ٨٧.

^٢ البخاري، الصحيح، باب ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾، رقم ٣٠٢، ووصله ابن حجر في تعليق التعليق، فقال: أمَّا قول مجاهد، فقال الفريابي في تفسيره: حدثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد ... فذكره. وذكر السيوطي في الدر المنثور، ج ١٤، ص ٧٧، عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لولا أن الله يسره على لسان آدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله. وعزه لابن أبي حاتم - وليس في المطبوع .. ولا بن مردويه، وللبهقي - كما في الأسماء والصفات برقم ٥٧٢ وسنده ضعيف جداً فيه: جوير بن سعيد، وهو متروك.

^٣ ينظر: القرطبي، التفسير، وابن عطية، المحرر الوجيز، والسعدي. وبخصوص حفظ القرآن ينظر: العبيد، جمع القرآن الكريم حفظاً وكتابةً؛ ومحمد شرعي أبو زيد، جمع القرآن في مراحل التاريخ من العصر النبوي إلى العصر الحديث.

^٤ ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٨٤.

^٥ حديث أبي هريرة: «أنَّ الله تعالى كتب التوراة بيده»، عند مسلم، رقم ٦٩١٢.

فهذه كتبٌ منزلة من عند الله تعالى بألفاظها. وليست هي ممَّا أوحى الله لأنبيائه، فعبروا عنها بألفاظهم. ولذا قرنها الله تعالى بالقرآن في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ووصفهما بما وصف به القرآن من الإنزال، والهدى، والنور.

فقال سبحانه ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

وقال سبحانه عن كتابه: ﴿لَمْ تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٢].

وقال عن التوراة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وفي سياق هذه الآيات قال عن عيسى، وعن كتابه

الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

وفي آية أخرى قال سبحانه: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ

بَلِّغُوا رَحْمَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]. في آيات كثيرات، واضحات بينات.

وهذا أمرٌ ظاهرٌ متقررٌ، وإنما ذكرته لبيان خطأ القائل في أصل قوله، فما يكون بعد ذلك من النتائج فهو خطأ.

والعلماء قد فرقوا بين الحديث النبوي، والحديث القدسي، كما فرقوا بينهما وبين القرآن، وهي جميعها متلقاة عن الرسول

ﷺ، فمن باب أولى أن يقع الفرق بين السنة النبوية وبين كتابي التوراة والإنجيل، خاصة مع اختلاف الرسل الكرام، لساناً،

وزماناً، ومكاناً. فإذا وقعت هذه الفروق جاز أن تختلف في حفظها.

وإن قيل: إنما قرنت بهما لبيان كون السنة وحياً كما أن التوراة والإنجيل وحي.

قلنا: فلم لم يجعل السنة مثل القرآن، وكلاهما وحي، فيشملها ما شمل القرآن من الحفظ والصيانة؟

ثم كيف تكون السنة التي أوحاها الله لنبيه ﷺ، ووكل إليه التعبير عنها بلفظه كمثل التوراة التي كتبها الله بيده الكريمة؟

ولماذا لم يلتزم هذا القائل بأن السنة كالتوراة والإنجيل في التعبد بهما، فتكون السنة متعبداً بها وتكون جزءاً من الدين،

فيلزم حفظها من الضياع وإلأ ضاع جزء من الدين؟

وفي هذا دليل لنا على أنه لا بُدَّ من حفظ هذا القدر من الدين، ويقائه إلى آخر الدهر، فهل حفظها الله كما حفظ

القرآن؟ أم حفظت بفعل أهل العلم فيكون حفظ البشر كحفظ الله؟

ومن جهة أخرى، فإن حفظ الكتب السماوية السابقة إنما وُكِّل إلى الناس ليحفظوها، ولم يتكفل الله تعالى بحفظها؛

لأنها كتبٌ وقتيةٌ نزلت لأمة مخصوصة في زمن مخصوص، ولأنه قد مضى في سابق علمه سبحانه يبعث أنبياء بعدد، فإن وقع في

^١ نقل القرطبي عن قتادة وثابت البناني قولهما: حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلاً أو تنقص منه حقاً، فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظاً، وقال في غيره:

﴿بِمَا اسْتُخْفِطُوا﴾، القرطبي، التفسير، ج ١٠، ص ٥٠. ثم قال القرطبي: أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله، عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبي

الحسن علي بن خلف بن معزور الكومي التلمساني قال: قرئ على الشيخة العاملة فخر النساء شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج الدينوري - وذلك بمنزلها بدار

السلام في آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسائة - قيل لها: أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طراد بن محمد الزيني قراءة عليه

شيء منها - أي: الكتب السابقة - تحريف، أو تحديف، أو ضياع قام النبي التالي مقام النبي السابق، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فكان حفظ الدين منوطاً باتصال النبوة لا ببقاء الكتب^١، حتى إذا انقضى الأنبياء، وختموا بسيد الأصفياء عليه وعليهم صلوات رب الأرض والسماء وسلامه، فلم يكن بعده نبي ولا رسول، كانت الحججة في الدين مستلزمة لحفظه من الضياع والنقص، والتبديل والتحريف، حتى تستمر الحججة، ويبلغ الناس في آخر أزمانهم ما بلغ أولهم زمن نزول الوحي، ومن هنا نفهم حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: «من سرّه أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^٢.

وهكذا استمرّ الوحي غضاً طرياً يسمعه الآخر كما سمعه الأول، استمرّ مخاطباً التالي بما خاطب به السابق، صالحاً لكل زمان ومكان، وشاملاً لكل شؤون الحياة، ومتضمناً من دلائل الإعجاز، والأسرار ما يدعو الكافر للإيمان، والمؤمن ليزداد إيماناً، ومن كرمه ولطفه سبحانه أن جعل كل شريعة تأتي أيسر وأخف من الشريعة السابقة لها، فاجتمع في هذه الشريعة الغراء كمال اليسر، مع دوام البقاء إلى أن يرفع الكتاب، ويقضي على الدنيا بالفناء.

يقول ابن تيمية: وأن ما بعث الله به نبيه محمداً ﷺ من الكتاب والحكمة يجمع مصالح العباد في المعاش، والمعاد على أكمل وجه؛ فإنه ﷺ خاتم النبيين، ولا نبي بعده، وقد جمع الله في شريعته ما فرقه شرائع من قبله من الكمال؛ إذ ليس بعده

وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمئة، أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا أبو علي عيسى بن محمد بن أحمد بن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح المعروف بالطوماري، حدثنا الحسين بن فهم، قال: سمعت يحيى بن أكنم يقول: كان للمأمون - وهو أمير إذ ذاك - مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي، حسن الثوب، حسن الوجه، طيب الرائحة، قال: فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، قال: فلما أن تقوض المجلس دعاه المأمون، فقال له: إسرائيلي؟ قال: نعم. قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع، ووعده. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف. قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً، قال: فتكلم على الفقه فأحسن الكلام، فلما تقوض المجلس دعاه المأمون، وقال: ألسنت صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك، فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت مع ما ترائي حسن الخط، فعمدت إلى التوراة، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشترت مني، وعمدت إلى الإنجيل، فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشترت مني، وعمدت إلى القرآن، فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموها فلم يشتروها، فعملت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي. قال يحيى بن أكنم: فحججت تلك السنة، فلقيت سفيان بن عيينة، فذكرت له الخبر فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله عز وجل. قال قلت: في أي موضع؟ قال: في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع".

^١ روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس ؓ في قوله: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾. وإنما قالوا: هو ابن الله من أجل أن عزيزاً كان في أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم، يعملون بما شاء الله أن يعملوا، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق... وأنساهم التوراة، ونسخها من صدورهم... حتى نسوا التوراة، ونسخت من صدورهم، وفيهم عزيز. فمكتوا ما شاء الله أن يكتبوا بعد ما نسخت التوراة من صدورهم، وكان عزيز قبل من علمائهم، فدعا عزيز الله وابتهل إليه أن يرد إليه الذي نسخ من صدره من التوراة. فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله، نزل نور من الله فدخل جوفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذن في قومه فقال: يا قوم قد آتاني الله التوراة، وردّها إلي، فعلق يعلمهم، فمكتوا ما شاء الله وهو يعلمهم... فقالوا: والله ما أوتي عزيز هذا إلا إنّه ابن الله. الطبري، التفسير، ج ١١، ص ٤٠٩، رقم ٣١٠.

^٢ رواه ابن حبان في صحيحه، برقم ٣٤٠٣، ٣٤٠٤.

نبي فكمل به الأمر كما كمل به الدين. فكتابه أفضل الكتب، وشرعه أفضل الشرائع، ومنهاجه أفضل المناهج، وأتمته خير الأمم^١.

المبحث الثاني: ذكر الفروق بين حفظ التوراة والإنجيل، وحفظ السنة النبوية:

الفرق الأول: تكفل الله تعالى بحفظ ذكره المنزل على عبده المصطفى، ورسوله المجتبي محمد ﷺ، وليس في القرآن ولا في السنة أن الله تعالى تكفل بشيء من ذلك فيما سبق من الرسالات، والنبوات.

بل إن القرآن نصّ نصّاً صريحاً على استحفاظ بني إسرائيل لكتاب موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿وَالرَّبَّائِيُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: ٤٤]. قال شيخ مشايخنا الشيخ الأمين الشنقيطي: "أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الأخبار والرهبان استحفظوا كتاب الله يعني استودعوه، وطلب منهم حفظه، ولم يبين هنا هل امتثلوا الأمر في ذلك وحفظوه، أو لم يمتثلوا الأمر في ذلك وضيعوه؟ ولكنه بين في مواضع أخر أنهم لم يمتثلوا الأمر، ولم يحفظوا ما استحفظوه، بل حرفوه وبدلوه عمداً كقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦، والمائدة: ١٣].^٢

فالتوراة والإنجيل كذلك هي ممّا وكل الله تعالى حفظهما للناس، فلم يقوموا بهما، ودخل عليهما الدخل، ووقع فيهما التحريف.

سئل القاضي إسماعيل بن إسحاق: ما بال التوراة والإنجيل زيد فيهما ونقص منهما بخلاف القرآن؟ فقال: إن الله جل ثناؤه وكل حفظ التوراة والإنجيل إلى أهل الكتاب، فقال: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وتولى حفظ القرآن بنفسه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].^٣

والذي في القرآن والسنة هو إثبات التحريف والتبديل، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال في معرض كلامه عن سؤال أهل الكتاب: وقد حدّثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً^٤.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمناً قليلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

أمّا الوحي المنزل على هذه الأمة، فقد تكفل الحفيظ سبحانه بحفظه، فحفظ ذكره المنزل على محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. والذكر وإن كان المقصود به أصالة القرآن فإن أهل العلم يدخلون السنة فيه، ذلك أمّا شارحة للقرآن، ومبيّنة له فلا انفكاك بينهما، ولا امتثال لما جاء في القرآن إلاّ باتباع ما جاء عن النبي العدنان ﷺ.

^١ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٣٣، ص ١٥٩.

^٢ الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج ١، ص ٤٠٤.

^٣ أبو طاهر السلفي، المشيخة البغدادية، برقم ١٨٧١.

^٤ البخاري، الصحيح، برقم ٢٦٨٥.

وفي حديث المقدم بن معد يكرب الكندي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^١.

ويلزم من أخرج السنة من الذكر - الموعود بالحفظ - أن يدخل فيه ما كان منها شرحاً، أو بياناً لبعض الآيات، ذلك أنه لا يكتمل الحفظ إذا حُفظ اللفظ، وتحرف المعنى.

فكل أمرٍ أو نهي كان في القرآن عاماً، أو مجملاً، أو محتاجاً لبيانٍ فنطق النبي ﷺ بتفصيل ذلك أو بيانه، فإن حفظ هذا القول عنه ﷺ، تابع لحفظ القرآن.

وكل حديث فيه شرحٌ لما أُجمل في القرآن، أو كان فيه توضيحٌ لم أشكل، أو زيادة بيان، ونحو ذلك فهذا كله حفظه تبع لحفظ القرآن. ويتوسّع الأمر إلى ما تُسخ من القرآن وأشارت إليه السنة.

فلا سواء بين حفظ التوراة والإنجيل من جانب، وحفظ السنة من الجانب الآخر^٢.

نعم.. لا سواء بين ما ثبت فيه التحريف والتبديل، وما هو داخل في الذكر الموعود بالحفظ.

الفرق الثاني: أن الأمة اختصت دون الأمم بالإسناد، ونقل الثقة عن الثقة إلى من نزل عليه الوحي ﷺ، ولم يكن ذلك غيرها من الأمم.

قال محمد بن حاتم بن المظفر (ت ٣٧٩هـ): "إن الله أكرم هذه الأمة وفضلها وشرفها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناداً، وإنما هو صحفٌ في أيديهم، وخلطوا بكتبهم أخبارهم، فليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل، وبين ما أخفوه بكتبهم من الأخبار عن غير الثقات، وهذه الأمة إنما ينص الحديث عن الثقة المعروف في زمانه المشهور بالصدق والأمانة والضبط عن مثله حتى تنتهي أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ والأضبط والأطول مجالسة يميزونه ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبون الحديث من أكثر من عشرين وجهاً حتى يهدّبوه من الغلط والخلل، ويحفظون حروفه ويعدها عدداً، فهذا من أعظم نعم الله على هذه الأمة فنستوزع الله شكر هذه النعمة"^٣.

^١ رواه أحمد في مسنده، برقم ١٧٢١٣.

^٢ والسُر في حفظ الذكر لأنه آخر وحي نزل من السماء، فلا وحي بعده، ولا شريعة أخرى، فإذا ضيعة البشر في زمن من الأزمان، لم تكن الحجة قائمة على من بعدهم، لعدم وصول الحق إليهم، ولعدم قدرتهم على معرفة الشريعة، لذا تكفل الله تعالى بحفظ ذكره المنزل كتاباً وسنة ذلك أن السنة شارحة للقرآن ومبيّنة له فلا انفكاك بينهما، وأما اختصاص القرآن الكريم بحفظ ألفاظه وحروفه، فأنه معجزة النبي ﷺ، الخالدة، المتحدّية بها، الملية بالإعجاز، ولأنه يقرأ به في الصلاة، ولم تحفظ السنة كذلك، لبيان فضل العلماء، وفتح بابٍ من الخير بل أبوابٍ في حفظها ونشرها بين الناس، وإبراز جهود العلماء، وفيه ابتلاء واختبار للأمة جمعاء.

^٣ السخاوي، فتح المغيث، ج ٣، ص ٣. وقال الحاكم (ت ٤٠٥هـ) في المستدرک، ج ١، ص ٢: "فإن الله تعالى ذكره أنعم على هذه الأمة باصطفائه بصحبة نبيه صلى الله عليه وعلى آله أخبار خلقه في عصره، وهم الصحابة النجباء، البررة الأتقياء، لزموه في الشدة والرخاء، حتى حفظوا عنه ما شرع لأمته بأمر الله تعالى ذكره، ثم نقلوه إلى أتباعهم، ثم كذلك عصرنا بعد عصر إلى عصرنا هذا، وهو هذه الأسانيد المنقولة إلينا بنقل العدل عن العدل، وهي كرامة من الله لهذه الأمة حصهم بها دون سائر الأمم". وقال ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) في الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٢، ص ٦٨: "والثالث ما نقله الثقة عن الثقة كذلك حتى يبلغ إلى النبي ﷺ، يخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبره ونسبه، وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان، على أن أكثر ما جاء هذا الجيء فإنه منقول نقل الكوف، إما إلى رسول الله ﷺ من طرق جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وإما إلى الصحاب، وإما إلى التابع، وإما إلى إمام أخذ عن التابع، يعرف ذلك من

وهذا الإسناد الذي نُقلت به السنة هو الذي نُقل به القرآن.

فالسنة منقولة بالإسناد بخلاف التوراة والإنجيل! وليس عند اليهود ولا النصارى إسنادٌ إلى النبيين الكريمين موسى وعيسى - علي نبينا وعليهما صلوات الله وسلامه - فأمكن من خلال الإسناد معرفة الصحيح من السقيم، والمقبول من المردود. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

والطعن في سند الحديث مستلزم للطعن في نقل القرآن، فالصحابا - ومن بعدهم - الذين امثلوا قوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»^١. فنقلوا القرآن، امثلوا أيضاً قوله ﷺ: «نضر الله امرأً سمع مقالتي فحفظها فرب مبلغ أوعى من سامع»^٢. قال الخطيب: فأما الأحاديث المسندة إلى النبي ﷺ فهي أصل الشريعة، ومنها تستفاد الأحكام، وما اتصل منها سنده، وثبتت عدالة رجاله فلا خلاف بين العلماء أن قبوله واجب، والعمل به لازم، والرد له آثم^٣.

فإن كان سرُّ حفظ القرآن أنه منقول بالإسناد جيلاً عن جيلٍ فكذا السنة النبوية نقلت بذات الأسانيد التي نقل بها القرآن، وإن كان السرُّ أن القرآن وحىٌ فكذا هي السنة وحى، وإن كان السرُّ أن القرآن متعبَّدٌ به فكذا السنة متعبَّدٌ بها، وإنما حفظ القرآن بحرفه ولفظه لأنه هكذا نزل، وهكذا تكلم به الله، ولذا ترتَّب الثواب على قرآته لذاته، وأما السنة فكانت وحياً أبان عنها النبي ﷺ بلفظه، وقد أعطاه ربه جوامع الكلم، وأحاط بلسان العرب، فترحص العلماء في روايته بالمعنى لأنه لفظ بشرٍ لا قول رب البشر، وهذا أوَّل إذن لرواية الحديث بالمعنى^٤.

الفرق الثالث: وهو من الفروق الجوهرية بين التوراة والإنجيل، التي يسميها أهلها (الكتاب المقدس)، وبين السنة النبوية، وهو: أن الكتاب المقدس عندهم مذبذبون به عن غير أهلها، فقد مضت عليه قرون طويلة لا يطلع عليه أحد سوى الأحرار، والكهان، والقساوسة، ويحرم على غيرهم النظر فيه، أو اقتناؤه، بخلاف السنة فهي مبثوثة عند كل أحد، محفوظة في الأمة عند العالم، وغير العالم، والكبير والصغير، والحُرَّ والعبد، والذكر والأنثى، مدونةٌ في آلاف المصنفات، وهذا الانتشار يضعف احتمال الكذب فيها والتحريف، بخلاف التوراة والإنجيل التي اختصَّ بها الأحرار والرهبان، فلا يطلع عليها أحد!

كان من أهل المعرفة بهذا الشأن، والحمد لله رب العالمين، وهذا نقل خص الله تعالى به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها، وبناه عندهم غضا جديداً". ثم نقل هذا الكلام ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) في مقدمته، ص ٤٢ في معرض حديثه عن جمع الحديث وكتابته وتطريقه، فقال: "إبقاء سلسلة العنقة المتصلة بأشرف البشر ﷺ، فهي من خصائص هذه الأمة". وقال العلائي في مجموع رسائل الحافظ، ج ٣، ص ٢٠٤: "فالإسناد خصيصة من خصائص هذه الأمة، وفضيلة يمتُّ الله عز وجل عليهم بها النعمة، به عُرف الصحيح من السقيم، وصان الله دينه عن قول كلِّ أقاليم، وليس لمن قبل هذه الأمة غير صحف اختلط مُنكرها بمقبولها، واشتبه صحيحها بمعلوها، فلا تميز عند أحد منهم بين ما جاءت به أنبياءهم المرسلون وبين ما أدخل في ذلك وألحق به الغواة المبطون".

^١ البخاري، الصحيح، رقم ٣٤٦١.

^٢ أحمد، المسند، رقم ١٦٧٣٨.

^٣ الخطيب البغدادي، الجامع، ج ٢، ص ٢٧٨.

^٤ وإن قيل إن السرُّ في حفظ القرآن أنه كلام الرحمن. قيل: فلماذا تحرفت التوراة، وهي كلامه الذي كتب بيده سبحانه؟

فكان من الممكن أن يتواطعوا على التحريف، والتبديل ونحو ذلك^١، أو على الأقل فإن قلة عدد من يعرفها يلزم عنه زيادة احتمال وقوع الخطأ فيها.

قال الإمام الشافعي: وإن كانت الحجة تثبت بخبر الواحد فخير اثنين أكثر، وهو لا يزيد بها إلا ثبوتاً^٢.

وعند مسلم من حديث عياض المحاشي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، قال: ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا... ومما قال: وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»^٣. وهذا الحديث دال على قلة من يعلم التوراة والإنجيل.

قال ابن جبير: لم يُستظهر من كتب الله سوى القرآن^٤. والحفظ لاشك أحد طرق نقل الحديث، وفيه جواب على الذين يطعنون في تدوين السنة، فهي محفوظة تماماً.

ومن أسباب عدم إظهار التوراة والإنجيل هو ما يوجد فيهما من الإشارات الواضحات لتوحيد رب الأرض والسموات، وما فيهما من البشارات الأكيدات في مبعث النبي ﷺ، وهو ما يدعو من يقرأ فيهما إلى الإيمان بالله والتصديق بمحمد ﷺ. الفرق الرابع: وهو من أهم الفروق، ذلك أن ما تحرف من التوراة، والإنجيل محال معرفة صوابه، بخلاف الأحاديث التي وقع فيها خطأ أو غلط، فإنه من اليسر بمكان أن نعرف موطن الخطأ، وأيضاً أن نعرف وجه الصواب. ذلك أن الأحاديث مروية بالأسانيد المتصلة، فإذا جمعت طرق الحديث، أمكن معرفة الصواب من الخطأ، والصحيح من الضعيف.

وعن علي بن المديني، قال: الباب إذا لم تجمع طرقه لم يتبين خطؤه^٥.

وليس كلامي ههنا عن كيفية معرفة صحيح الحديث من ضعيفه، فلذلك طرق متعددة^٦، وإنما المراد من الكلام كيفية معرفة الصواب عند الاختلاف^٧، وهذا لا يتأتى إلا بجمع الطرق، ومعرفة الاتصال والعدالة والضبط، وعدم الشذوذ والعلة، وهي الشروط التي اشتراطها أهل الحديث لمعرفة الحديث الصحيح، فبجمع الطرق يظهر إن كان في الحديث علة أو شذوذ، ومعرفة الاتصال والعدالة والضبط هي تمام الشروط الخمسة المتفق عليها لقبول الأخبار.

^١ وهو ما نصت شريعتنا على إثبات وقوعه، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلًا لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ وغيرها من الآيات والأحاديث.

^٢ الشافعي، الرسالة، ص ٤٣٣.

^٣ مسلم، الصحيح، رقم ٧٣٨٦.

^٤ ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٥، ص ٢١٥.

^٥ الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج ٤، ص ٣٨٩.

^٦ باختلال أحد شروط القبول.

^٧ وذلك حين يروى الحديث من طرق متعددة رواها ثقات.

فإن نسب أحد من الناس إلى النبي ﷺ حديثاً كان من الممكن معرفة صحته من عدمها، بخلاف ما ينسب إلى الكتب السابقة، خاصة مع انقطاع الأسانيد، واختلاف النسخ، وتباعد الأزمان.

الفرق الخامس: أن الأديان السابقة منسوخة بخلاف هذا الدين، والحديث لا شك أنه جزء من الدين، فكيف يُعامل ما هو منسوخ مثل معاملة ما هو باقٍ وغير منسوخ؟

فحفظ السنة والدين عموماً مرتبطٌ بحفظ القرآن، فبقاء الكتاب العزيز بين الناس تكون حجة الله تعالى قائمة، ودين الله معمولٌ به، حتى إذا رُفِعَ القرآن بدأ الدين في الانتهاء حتى لا يقال: الله، الله^١.

ومن هذا الباب نفهم حديث: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقْتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»^٢. فقد ظل دينهم محفوظاً أو على الأقل ما تقوم به الحجة، ويُنجي العمل به من دينهم ظل محفوظاً إلى زمن النبي ﷺ، وبعده لم يكن فيما عندهم حجة فكان بقاءه كاملاً لا معنى له، فزال ما بقي من احتمال حفظه كما سيزول حفظ الأحاديث والدين كله عند رفع القرآن، لأنه لا قوام للسنة دون القرآن، والله أعلم.

فلا سواء بين حفظ كتب أديانٍ منسوخةٍ، وحفظ أحاديث نبي تكفل الله تعالى بحفظ دينه إلى قيام الساعة. وأخيراً: لا أدري هل يقصد هذا المتحدث بمساواته بين التوراة والإنجيل من جهة، والسنة النبوية من جهة أخرى: عدم الاحتجاج بالسنة لوجود التحريف فيها! كما أنه لا يُجْتَجَح بالتوراة والإنجيل لوجود التحريف فيهما؟ أو يقصد عدم نسبتها إلى النبي ﷺ، لاحتمال الكذب فيها.

إن قال بذلك فقد آل أمرُهُ إلى إنكار السنة!

وإن قال: بل هنالك أحاديث صحيحة وأخرى باطلة، لكنها مختلطة لا تتميز، كما هو حال التوراة والإنجيل ليس كل ما فيهما باطل ولا العكس، ولا نجزم بصحة شيء أو ضعفه. قلنا: رجع الأمر إلى ما سبق، لأننا إذا لم نُمَيِّز الصحيح من الضعيف لم يشرع العمل بالجميع.

وإن قال: يمكن التمييز بين الضعيف والباطل، قلنا: ها قد أثبت فرقا بينهما، فلا قياس لأحدهما على الآخر. وإن قصد أن مراده إثبات وقوع الخطأ في بعض الأحاديث أو تعمّد بعض الكذابين الكذب على رسول الله ﷺ.

قلنا له: فماذا كان؟

أليس قد حاول مسيلمة قديماً - وتبعه على ذلك آخرون - أن يأتي بمثل القرآن، وأن يكذب على الرحمن سبحانه؟ فظهر كذبهم، وزال قولهم، وبقي القرآن محفوظاً مصوناً مقدساً، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

^١ عند مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»، رقم ٣٩٢.

^٢ مسلم في صحيحه، رقم ٧٣٨٦.

وكذا الحال في الأحاديث، فكم حاول كذاب، وسعى زنديق للوضع في أحاديث النبي ﷺ، والكذب عليه، فلم يفلحوا، ولم ينجحوا، ولن يستطيعوا، ذلك أن العلماء زَيَّفوا السليم من البهرج، والصحيح من الضعيف، ونخلوا السنة نخلاً، ودَقَّقوا فيها لفظاً وحرفاً، كتابةً ورسماً، جوهرًا ومعنى، ومن نظر في جهود العلماء في كتابة الحديث وتوثيقه وتخريجه على المسانيد والكتب والأبواب وغير ذلك، ومن نظر في مؤلفاتهم في القواعد والضوابط التي يعرف بها المقبول من المردود رأى شيئاً عظيماً من الحيلة والاحتراز عن وقوع الخطأ فضلاً عن وقوع المكذوب.

فلا يوجد حديث مكذوب في حقيقته أجمع العلماء على صحته، كما أنه لا يوجد حديث صحيح في نسبه يجمع العلماء على الحكم بوضعه. يقول الذهبي: ولكن هذا الدين مؤيد محفوظ من الله تعالى، لم يجتمع علماؤه على ضلالة، لا عمداً ولا خطأ، فلا يجتمع اثنان على توثيق ضعيف، ولا على تضعيف ثقة^١.

فإن كان كذلك في حق الرواة فهو في الأحاديث أكد، وأعظم، وأولى.

أم تُرى هذا المتكلم يتكلم ولا يعي ما يقول؟ أو لا يدري ما الذي يترتب على قوله؟

إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

الخلاصة:

إن المقارنة بين حفظ الأحاديث وحفظ الكتابين الكريمين التوراة والإنجيل مقارنة غير صحيحة، ونتائجها خطيرة ذلك أنها تفضي إلى الشك في السنة النبوية بجمليتها، ومن نظر في الفروق السابقة علم أن هذه المقارنة باطلة، وأن الواجب النظر إلى الأحاديث باعتبارها الأصل الثاني بعد القرآن الكريم، وتعظيمها، والعمل بها، والرجوع إلى قول أهل الحديث في معرفة الصحيح من الضعيف، فهم أهل الاختصاص، وهم الذين خالطوا الحديث قروناً طويلة، وتبعوا طرقه؛ العالي منها والنازل، والمشهور والمغمور، فوجب المصير إلى قولهم عند الاتفاق.

والله تعالى أعلم وأحكم، وصلى الله وسلم على عبده محمد وآله وصحبه والتابعين.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم (الرياض).
٣. ابن جرير، محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، اعتنى بتحقيقه وفهرسته مكتب التحقيق والإعداد العلمي في دار الأعلام، (بيروت: دار الأعلام، ط ١، ٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
٤. ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع، تحقيق: الدكتور محمد علي شونمر، والدكتور خالص آي دمير، (بيروت: دار ابن حزم، ط ١، ٤٣٣هـ/٢٠١٢م).

^١ محمد بن أحمد الذهبي، الموقظة في علم مصطلح الحديث، ص ٨٤.

٥. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **تغليق التعليق على صحيح البخاري**، دراسة وتحقيق: سعيد عبدالرحمن موسى القزفي، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م).
٦. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، وضع حواشيه: أحمد شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م).
٧. ابن سعدي، عبدالرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن**، تحقيق: عبدالرحمن اللويحق، (الرياض: مجلة البيان).
٨. ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري، **علوم الحديث**، تحقيق: نور الدين عتر، (دمشق: دار الفكر، ط٣، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢ م).
٩. ابن عطية، أبو محمد عبدالحق بن غالب الإشبيلي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافعي محمد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م).
١٠. ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، **السنن**، تحقيق: محمد فؤاد عيد الباقي، (بيروت: د. ط، د. ت).
١١. أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، **المسند**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٩ هـ).
١٢. البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح**، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م).
١٣. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، **الأسماء والصفات**، تحقيق: عبدالله الحاشدي، (جدة: مكتبة السواداي، ط١، ١٤١٢ هـ/١٩٩٣ م).
١٤. الحاكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن البيهقي، **المستدرک علی الصحيحین**، (بيروت: دار المعرفة).
١٥. الخطيب، أبو بكر علي بن ثابت، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق: الدكتور محمد عجاج الخطيب، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٤ هـ/١٩٩٤ م).
١٦. الذهبي، محمد بن أحمد، **الموقظة**، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط٤، ١٤٢٠ هـ).
١٧. السخاوي، محمد بن عبدالرحمن، **فتح المغيثة بشرح ألفية الحديث**، تحقيق: الدكتور عبدالكريم الخضير، والدكتور محمد بن عبد الله آل فهيد، (الرياض: مكتبة دار المنهاج، ط٢، ١٤٢٨ هـ/٢٠٠٨ م).
١٨. الشنقيطي، محمد الأمين، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، (بيروت: عالم الكتب د. ط، د. ت).
١٩. العلائي، خليل بن كيكليدي، **مجموع رسائل الحافظ العلائي**، (القاهرة، ط١، ١٤٣٠ هـ/٢٠٠٩ م).
٢٠. القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: الدكتور عبدالله التركي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٧ هـ/٢٠٠٦ م).
٢١. مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، **الصحيح**، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، (الرياض: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م).

المادة المعرفية والمنهجية لدراسة الأديان في القرآن الكريم

د. بدران مسعود بن لحسن¹

ملخص البحث:

ينطلق هذا البحث من أساس معرفي ومنهجي أن القرآن الكريم والسنة النبوية مصدران للإسلام، ومنبعان لتصورات المسلم ومفاهيمه ومناهجه في الدين والعلم والحياة، ولهذا فإنهما يمثلان منبع استمداد لدراسة مختلف الظواهر والقضايا والأفكار والأحداث، وفي هذا السياق فإن في العصر الحديث توسعت دراسة الأديان في الفكر الغربي كثيرا، وتناولت قضايا عديدة تتعلق بمفهوم الدين، ونشأته، وتاريخه، ونصوصه المقدسة، والتعددية والتنوع الديني، والحوار والتعايش، وغيرها من المسائل المتعلقة بالدين مفردا وجمعاً.

ولهذا فإن إشكالية البحث هي تناول منظور القرآن الكريم في دراسة موضوع الدين؛ أي المادة المعرفية والمنهجية التي جاء بها القرآن، وتشكل زادا معرفيا ومنهجيا للباحث المسلم في دراسة الدين وقضاياها المذكورة آنفا، وما هي الصورة التي قدمها القرآن عن الدين، وما هي تحدياته لمفهوم الدين، ونشأة العقيدة الدينية، وظهور التعددية الدينية، واختلافات العقائد، وكذلك الرموز الدينية والشعائر والطقوس، وما ينشأ عن ذلك من حوار وتدافع وتعايش واختلاف.

ويهدف البحث من تناول هذه الإشكالية بالدراسة إلى وضع إطار منهجي قرآني لموضوع دراسة الدين ومقارنة الأديان، واستنباط القواعد المنهجية التي يزودنا بها القرآن لدراسة الأديان، وكذلك تحقيق تأصيل قرآني لمسائل الاختلاف والتعددية الدينية والتعايش وتحقيق إنسانية الإنسان.

وقد اعتمد البحث في إنجاز هذه الورقة على المنهج الاستقرائي لآيات القرآن الكريم والمفاهيم الواردة فيه، ثم المنهج التحليلي لتلك النصوص المستقرة للخروج بتصوير تكاملي للمادة المعرفية القرآنية في الموضوع، واتساق منهجي له وفق ما ثبت في القرآن من شبكة مفاهيم ونواظم منهجية.

ومن النتائج التي توصلت إليها هذه الورقة أنها أكدت مركزية القرآن في إنتاج المعرفة عموما والمعرفة المتعلقة بدراسة الأديان بوجه خاص، وكذلك أن هناك كثافة في المادة المعرفية المتعلقة بدراسة الأديان في القرآن الكريم تمثلت على سبيل المثال في قصص الأنبياء، وفي ذكره كبرى الأديان والاعتقادات التي تدين بها البشرية، مع ذكر تفاصيل الاعتقادات، أما القواعد المنهجية في القرآن لدراسة الأديان فتمثلت أولا في التأكيد على أن دين الله واحد، وثانيا أن الإسلام دين الأنبياء جميعا، وثالثا أن التجربة الدينية متعددة تاريخيا ﴿لا إكراه في الدين﴾، أما رابعا فقد وضع القرآن منهجية التصديق والهيمنة لتكون أداة لنقد الأديان والمحافظة على ما صح منها وتوجيهها نحو التصحيح في ما خرجت فيه عن دين الله الواحد، وخامسا تأكيد فطرية التدين (الزرعة نحو التدين) وإلهية الحقيقة الخارجية (الدين). وهذا ما يزود الباحث المسلم في الأديان بمادة معرفية كثيفة

¹ قسم مقارنة الأديان، كلية الدراسات الإسلامية، جامعة حمد بن خليفة؛ مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع، الدوحة، قطر.

تسمح له بدراسة الأديان مستخدماً تلك القواعد المنهجية مما يحقق له الاقتدار العلمي، والرؤية الشمولية، والتمييز بين الدين الواحد من عند باعتباره حقيقة خارجية وبين الدين باعتباره تجربة تاريخية متعددة من خلال الممارسات البشرية. والله أعلم.

تمهيد في طرح الإشكال:

الدعوى الأساسية لهذه الورقة البحثية هي أن ما نواجهه من إشكالات وأزمات، كامن في الابتعاد عن القرآن الكريم في المجال المعرفي والإنتاج العلمي بخاصة، وأن القرآن الكريم هو الأساس الأبرز لمصادر المعرفة، وأنه معيار صواب الآراء والأفكار أو عدمها، والمصدر الرئيسي للقواعد الثابتة والشاملة لجميع العلوم الدينية، وجميع تحركات الإنسان وتوجهاته، نحو السعادة والهداية^١.

ولهذا فإن إشكالية البحث هي تناول منظور القرآن الكريم في دراسة موضوع الدين؛ أي المادة المعرفية والمنهجية التي جاء بها القرآن وتشكل زادا معرفياً ومنهجياً للباحث المسلم في دراسة الدين وقضاياها المذكورة آنفاً، وما هي الصورة التي قدمها القرآن عن الدين، وما هي تحدياته لمفهوم الدين، ونشأة العقيدة الدينية، وظهور التعددية الدينية، واختلافات العقائد، وكذلك الرموز الدينية والشعائر والطقوس، وما ينشأ عن ذلك من حوار وتدافع وتعايش واختلاف.

وذلك يقتضي الحديث عن موضوع مركزية القرآن في إنتاج المعرفة، ثم تناول البحث في قسمين مهمين؛ أحدهما المادة المعرفية في القرآن الكريم لدراسة الدين، وهذه تتضمن مركزية القرآن في إنتاج المعرفة عموماً، وكثافة المادة القرآنية التي تتعلق بالأديان. أما القسم الآخر فهو المؤشرات المنهجية التي يمكن استمدادها من القرآن الكريم في دراسة الأديان؛ ذلك أننا بقرائنا للقرآن يمكن أن نستنبط منه مجموعة قواعد ناظمة لدراسة الأديان توفر لنا قواعد مهمة لتحقيق موضوعية الدراسة، معتمدين في ذلك منهجاً استقرائياً لآيات القرآن المتعلقة بالموضوع، ومنهجاً تحليلياً مستنبطين به القواعد المنهجية التي وضعها القرآن لدراسة الأديان.

١. مركزية القرآن في إنتاج المعرفة:

إن القرآن والسنة مصدران للإسلام لتشكيل التصورات والمفاهيم والقيم كليهما وجزئياً، ومنبعان للمسلم في بناء مفاهيمه ومناهجه في الدين والعلم والحياة، ولهذا فإنهما يمثلان منبع استمداد لا ينضب لدراسة مختلف الظواهر والقضايا والأفكار والأحداث. فمنه نستمد الرؤية، والمنهج، والمقاصد التي يتناولها القرآن، ومختلف العلوم التي تستمد من القرآن إما بطريق مباشر؛ أي ما يتعلق منها بسنن الهداية، وإما بطريق غير مباشر؛ أي سنن الآفاق والأنفس والتاريخ. إنها رؤية تجعل القرآن مركز اهتمام شامل ومتعدد الجوانب؛ لأن القرآن "جامع لمصالح الدنيا والدين، وموثق شديد العرى من الحق المتين، والحاوي

^١ ميرزائي، فلسفة مرجعية القرآن المعرفية، ص ١٣-١٤.

لكليات العلوم ومعاهد استنباطها، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها، طمعا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع، وتفصيل من مكارم الأخلاق، كان يلوح أنموذج من جميعها في خلال تدبره، أو مطالعة كلام مفسره^١. وهو كتاب الله الجامع لخيري الدنيا والآخرة، ومنبع الحق والهداية، ومصدر العلوم على تنوعها، ومستمد الكليات في التشريع وفي العلم والأخلاق. وبالنظر في القرآن وتدبره نولد منه نماذج معرفية ومنهجية وعملية.

فهو ليس كتابا دينيا بالمفهوم الضيق للدين، وإنما هو كتاب هداية ورحمة وتبيان لكل شيء. ذلك أنه منبع للمعاني والمفاهيم والتصورات، والقيم والآداب، والأحكام والقصص، ومقاصده شاملة لمختلف جوانب الفكر والعمل، ومبثوثة في كل آياته^٢.

وينبغي أن يأخذ القرآن مركز الاهتمام والاشتغال في تشكيل التصورات، وتحديد الرؤية، وبناء المناهج والمفاهيم، وفي مباشرة عملية التجديد الفكري والعلمي، والإصلاح التربوي والاجتماعي، بغية "التوصل إلى الوعي الحضاري العمراني بالقرآن"^٣. لأن القرآن منبع الهداية ومصدر الصواب لهذه الأمة؛ منه يتكون الإنسان السوي والمجتمع السوي في كل زمان ومكان.

وعندما يتعامل المسلم مع القرآن والسنة تعاملًا حسنًا، فإنه يصل إلى فهم حسن للقضايا الكبرى التي تشغل بال الإنسان في كل مكان؛ قضية الخالق سبحانه، والخلق والكون والحياة والهدف منها، ودور الإنسان في هذه الحياة، ومصيره بعدها، ويصل المسلم أيضا إلى فهم حسن للمشكلات الحياتية والحضارية التي يعاني منها العالم الإسلامي في وقتنا الحاضر^٤.

إن القرآن الذي نزل إلى العالمين على امتداد الزمان والمكان، لا بد وأن يبقى مفتوحاً للأجيال تنهل منه على اختلاف بيئاتها وأزمانها، وإن من الأخطاء الكبيرة وبدايات الانحراف في الفهم والاستمداد، أن نعمد إلى محاصرة الوحي بأفهامنا، فلا نسمح له بالامتداد إلا بمقدار ما تسمح به عقولنا ومداركنا، فنحرم عقولا أخرى من حظها في الفهم، ونصادر حقها في الرأي والاجتهاد^٥.

وعلينا أن نعمل على أن يسترجع القرآن مكانه؛ تدبراً وتفكيراً واستنباطاً واستقراءً، وذلك يمثل استدعاءً للقرآن العظيم للساحة الثقافية، وإنهاء حالة الهجر والفصام بينه وبين العقل المسلم، وجعله المصدر الأول والأهم للمسلم المعاصر، كما كان كذلك عند

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٥.

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٨.

^٣ الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، ص ٣. من تصدير الشيخ طه جابر العلواني.

^٤ إسماعيل، كيف نتعامل مع القرآن والسنة، ص ٨١.

^٥ شبّار، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، ص ١١.

السلف، يرجع إليه ليستقي منه العلم والمعرفة السليمة في نظرتة إلى الإنسان والحياة والوجود، في الفطرة الإنسانية والاجتماعية، وفي قضايا الفرد والأسرة والمجتمع والعلاقات والنظم^١.

فالقرآن "أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم. قال الله تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ [النحل: ٨٩]. فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية"^٢.

ومعرفيا ومنهجيا، ينبغي أن نفك الارتباط بين القرآن وبين بعض المحاولات التي أغرقته في تصورات لاهوتية كلامية، جعلت منه كتاباً طقوسياً بعيداً عن صياغة الحياة، لنسترجع المبادرة بالقرآن ونستدعيه لصياغة تصور جديد، هذا التصور هو عدّه أن مدار مقاصد القرآن هو الإنسان وصلاح الإنسان.

إن كل شؤون الإنسان يشملها القرآن باستيعابه الشامل لمختلف دوائر حياة الإنسان، ولمختلف أبعاد شخصيته. وعليه، فإننا بتأملنا لمختلف الدوائر والأبعاد ندرك أن القرآن يكون منبعاً لنا في تأسيس مختلف المعارف المتعلقة بصلاح الإنسان؛ فردا وجماعة وعمرانا.

وهذا يجعل من القرآن مركزيا ومهيما في التأسيس لعلم العقيدة، وعلم الأخلاق، وعلم الأدب وتهذيب النفوس، ومناهج التفكير، وعلم النفس، وعلم الشعائر أو العبادات، وعلم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية^٣، وفي تأسيس الفقه الجماعي، أو فقه الشؤون العامة التي تهتم بالوجود الاجتماعي للفرد في وسط جماعة؛ أي فقه الشأن العام^٤، وعلم العمران وعلم الاجتماع^٥.

وهذا بدوره يجعل من القرآن منبعاً للعلوم الاجتماعية والعمرانية، ومختلف حقول المعرفة التي تؤسس للتحضر الإنساني والعمران البشري. وهو تأكيد للخط الخلدوني في التركيز على فقه العمران والاجتماع، وتأسيس مهم للبحث الاجتماعي على أسس قرآنية تستدعي القرآن مؤسسا وموجها للنظر الاجتماعي.

فصلاح الإنسان في دوائره الفردية والجماعية والعمرانية هو مقصد القرآن الأعلى. وهذا الفهم للقرآن والنظر إليه بهذه المركزية وهذه الشمولية يجعل من القرآن مرجعا يستقى منه، لا مرجعا للتبرير لآراء الحزبية، ويجعلنا نفتقر إلى القرآن ليعطينها من جواهره المكونة ويحدد لنا المقاصد التي في ضوئها نجتهد ونعمل، ولا يفتقر إلينا القرآن للاحتجاج لها والبرهنة على صحته من خلال ما أنجزه الإنسان، أو نجعل منه مرجع تسويغ لآرائنا ومقاصدنا بعد أن نكون قد حددناها بعيدا عن القرآن.

^١ الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، مرجع سابق، ص ١. من تصدير الشيخ طه جابر العلواني.

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٣٨.

^٣ نفس المصدر.

^٤ أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، ص ٧٦-٨٣.

^٥ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٣٨.

ولذلك على من أراد فهم القرآن وتفسيره والأخذ منه أن يخضع للقرآن ومقاصده، ليستطيع أن ينتفع به، لا أن يحدد مقاصد لنفسه، ثم يأتي للقرآن طالباً التبرير له، فيقع في التجزيء. ولهذا، فإن على متدبر القرآن - كما يذكر العلامة ابن عاشور - أن "يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن"، التي توجه منهجياً لتأسيس لعلوم ومعارف يتوسل بها إلى تحقيق المقصد الأعلى، وتشكل المحاور الكبرى التي تحوي مختلف المعارف التي تأتي من فيض القرآن وتتصل به من قريب أو من بعيد.

وهذا ما يؤكد على صلة مختلف العلوم بالقرآن الكريم؛ ذلك أنه ليس كتاباً للعلوم بالمعنى الأكاديمي، وإنما القرآن ينظم علاقته بالعلوم في مستويات أربعة؛ فمنها ما هو مستمد مباشرة من القرآن كتاريخ الأنبياء والأمم وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة، ومنها علوم تزيد المفسر علماً كالحكمة والهيأة وخواص المخلوقات، ومنها علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق، ومنها علوم لا علاقة لها بالقرآن إما لبطلانها كالميثولوجيا، وإما لأنها لا تعين على خدمته^١.

ونفهم من هذا كله أن القرآن يشكل مرجعية للعلوم الدينية وغير الدينية. فالقرآن يقوم بدور مرجعي في هندسة بناء المعرفة، مما يجعلها ذات أصول مشتركة وتتجه إلى تحقيق أهداف متضافرة. ذلك أن التشطبي المشهود في المعرفة في العالم الإسلامي والإشكالات المتعددة ناتجة عن استبعاد القرآن الكريم عن مسار الإنتاج المعرفي وعن هيمنته على إنتاج المعرفة. ولذلك - وخاصة في مجال العلوم المرتبطة بالدين - أن يكون القرآن المصدر الأعلى ويكون معيار صواب الآراء والأفكار، والمصدر الرئيس للقواعد الثابتة لجميع المعارف، وجميع مناشط الإنسان لتحقيق الهداية والاستخلاف، والناظم لمختلف أفرع المعرفة.

فالقرآن منبع استمداد لا ينضب لدراسة مختلف الظواهر والقضايا والأفكار والأحداث، وفي هذا السياق فإن في العصر الحديث توسعت دراسة الأديان في الفكر الغربي كثيراً وتناولت قضايا عديدة تتعلق بمفهوم الدين، ونشأته، وتاريخه، ونصوصه المقدسة، والتعددية والتنوع الديني، والحوار والتعايش وغيرها من المسائل المتعلقة بالدين مفرداً وجمعاً، مما يقتضي منا بحثاً في القرآن الكريم لنؤسس لدراسة الأديان من خلال اكتشاف المادة المعرفية المتعلقة بالأديان في القرآن الكريم، وكذلك استخراج القواعد المنهجية الضابطة لدراستنا للأديان.

٢. كثافة المادة المعرفية في القرآن في دراسة الأديان:

إن القرآن الذي يتبوأ مقام المصدرية المعرفية والمنهجية لمختلف العلوم، و﴿يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: ٩] في مختلف المجالات، يجعلنا في سياق هذا البحث المتعلق بالمادة المعرفية والمنهجية في القرآن لدراسة الأديان، نؤكد أن المتأمل في القرآن والسنة يتأكد له أمران: أولهما أن قصص الأنبياء أو ما نسميه القصة القرآنية المتعلقة بالملل والنحل والأديان - أو بعبارة

^١ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٣٩.

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٤٥.

أدق بالرسالات الالهية والانحرافات البشرية- استغرقت جانباً كبيراً من آيات القرآن الكريم. وثانيهما: غطت كتب السنة - وفي مقدمتها صحيحا البخاري ومسلم- الحديث عن الأنبياء وبيان فضلهم، وبدئ الوحي، وبدء الخلق، ومسائل كثيرة في هذا الجانب^١.

كما أن هناك في القرآن مئات الآيات حول الأديان والمذاهب الدينية المختلفة ؛ ففي بعضها تعرض نواحي تاريخية، وفي بعضها مسائل عقدية، وفي بعضها تناقش قضايا منهجية، وفي بعضها تتناول القضايا الاجتماعية في الأديان بأوسع معانيها، وفي البعض الآخر تقدم تقارير محددة عن كثير من المسائل التي تعتبر في صميم ما يعرف بفلسفة الدين وعلم الاجتماع الديني وتاريخ الأديان والدين المقارن، وتأتي السنة الشريفة في جانبها القولي والعملية لتلقي مزيداً من الضوء نظرياً وتطبيقياً على المهدي القرآني^٢.

ونجد هذه الكثافة في المادة المعرفية القرآنية المتعلقة بدراسة الأديان في موضوعات عديدة؛ منها قصص الأنبياء، وذكر أنواع الاعتقادات، على سبيل المثال لا الحصر.

٢. ١. قصص الأنبياء:

يمثل القصص القرآني جزءاً غير يسير من القرآن الكريم، فهو يبلغ قرابة الثمانية أجزاء من القرآن^٣. وإن المساحة التي شغلتها القصة القرآنية من كتاب الله كانت مساحة واسعة، ولا يقل الحيز الذي شغله من كتاب الله تعالى عن الربع إن لم يزد قليلاً.

ولا عجب، لأن القصة القرآنية لم تأت لتقرر هدفاً واحداً، بل إن هذا القصص كانت له أهدافه الكثيرة وغاياته المتعددة، وإذا أردنا أن نفصل، فإننا نجد أن القصص القرآني جاء ليعمق العقيدة في النفوس ويصير بها العقول، ويحيي بها القلوب، ويسلك لتلك القضية المهمة الخطيرة أحسن الطرق، هذه العقيدة بأسسها الكبرى؛ الألوهية والرسالة واليوم الآخر، فلقد ركزت القصة القرآنية في مقام الألوهية على وحدانية الله، وعدله، وقدرته، وحكمته، وحبّه، وودادته لعباده، وفي مجال الرسالة ركزت القصة القرآنية على الصفات الخيرة للأنبياء، ليكون للناس فيهم أسوة، وبهم قدوة فهم وإن كانوا بشراً إلا أنهم أكرموا بالوحي والرسالة، أما عند الحدث عن اليوم الآخر، وما يكون فيه من أحداث ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ [طه: ١٥]، فقد ذكرت القصة القرآنية ذلك كله بالدليل القاطع، والبرهان الساطع منتزعاً من النفس تارة، ومن الآفاق تارة، وتسلك لذلك كله الترغيب تارة والترهيب أخرى^٤. إضافة إلى المسائل الأخرى التي بلغت القصة القرآنية مما يتعلق بالانسان وسموه وتكريمه ورسالته في الحياة وعمارته للكون... إلخ.

^١ سمك، مدخل لدراسة الأديان، ص ٦.

^٢ ميرا، في علم الدين المقارن مقالات في المنهج، ص ١٩٧.

^٣ عباس، القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته، ص ١٠.

^٤ فضل عباس، القصة القرآنية.

ومن بين القصص القرآني نجد قصص الأنبياء. ولقد ذكر القرآن الكريم طائفة من الرسل والأنبياء، في مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدِينَا وَنُوحًا هَدِينَا مِنْ قَبْلِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦]، وذكر أنبياء آخرين هم آدم وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل ومحمد عليهم الصلاة والسلام في آيات أخرى. بل اشار القرآن إلى ان هناك انبياء كثير لم يذكرهم بأسمائهم لحكمة يعلمها الله سبحانه، في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا قَدْ قُصِّصْنَا عَنْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصِصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

٢. ٢. أنواع الاعتقادات وما يطرأ عليها:

القرآن كتاب أنزله الله لهداية البشرية، وهو خاتم الكتب السماوية، وهو كتاب دعوة وهداية، لهذا ذكر الله عز وجل فيه اعتقادات الناس السابقة والمتزامنة مع نزوله، لأن ذلك وسيلة من وسائل دعوة أصحاب الأديان، فإن عرض ما هم عليه من الباطل وبيان أوجه بطلانه مع عرض الحق والتركيز على مميزاته، وأوجه رجحانه، كل ذلك مما ينير الأذهان التي غلفها التقليد، والجهل، والهوى، ويفتح أمامها آفاق المعرفة السليمة من أجل المقارنة والموازنة ثم الإيمان عن اقتناع ويقين^١. وإذا نظرنا في القرآن نجد أنه حوى من ذلك الشيء الكثير، فمن ذلك أن الله عز وجل قد حصر الأديان التي عليها الناس في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]. فالقرآن ذكر الأنواع الكبرى للاعتقادات (الأديان)، أو بتعبير العامري: "الأديان الستة التي لها خطط وممالك"^٢.

بل هناك آيتان كذلك ذكرتا هذه الاعتقادات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

كما أن هناك آيات قرآنية كثيرة تتكلم عن الكتب السماوية السابقة التي يجب الإيمان بها؛ قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]، و﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩]، ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ [الإسراء: ٥٠].

وفي القرآن تفصيل لمحتويات تلك الكتب من شرائع وعقائد وغيرها، وبخاصة عقيدة التوحيد التي جاء بها الأنبياء جميعا. فلا تكاد تخلوا قصة من قصص الأنبياء إلا وفيها تأكيد على وحدة الدين الذي جاء به الانبياء، ووحدة الرسالة.

^١ الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص ١٥٥.

^٢ العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، ص ١٢١.

كما أن القرآن فصل في ذكر ونقد التحريف الذي لحق بالكتب والرسالات السماوية، وحفظ القرآن لها، خاصة ما انزل على سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام، عاملاً فيها منهجية التصديق والهيمنة التي سيأتي بيانها في النقاط الموالية.

٣. القواعد المنهجية لدراسة الأديان في القرآن الكريم

٣. ١. معاني لفظة الدين في القرآن الكريم (حقيقة خارجية وتجربة تاريخية وميثاق):

يقدم القرآن بنائية مفاهيمية دقيقة؛ فكل مصطلح يدل على مفهوم محدد، وكل مفهوم يدل على الرؤية الكلية للقرآن. وفي هذا السياق فإن تحديد مفهوم الدين في الاستعمال القرآني من الأهمية بمكان، لأنه يستعيد للقرآن هيئته المعرفية ومصدرته ومركزيته المنهجية. فإننا نجد أن القرآن فسح له مساحة واسعة في آياته، ووفر له مادة معرفية مكثفة تنبئ عن خطورته وأهميته. وهي من الألفاظ الأساسية والمفتاحية في القرآن الكريم.

وقد تكرر لفظ (الدين) في القرآن بكثافة^١، وبمعاني متعددة، ومدلولات مختلفة، وفي سياقات متعددة ومختلفة، وفي السور المكية والمدنية؛ فهو الطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، أى الخضوع له وحده دون سواه. وهو أصل المعنى، ودنّت له أى أطعته. وهو الجزاء والمكافأة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصفات: ٥٣]، أى: مجزؤون. يقال دانه ديناً، أى جازاه، ويقال: كما تدين تدان أى كما تجازي تجازى بحسب ما عملت. وهو الحساب، ومنه قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. وهو السلطان والملك، وقد دنّته ديناً، ملكته، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦]، أى: غير مملوكين. وهو القضاء والحكم والملك، وبه فُسّر قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]، أى: في حكمه وقضائه. ويطلق ويراد به الإسلام، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَعَبَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، يعنى الإسلام، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]^٢.

من الناحية اللغوية فإن المعاني أعلاه، وبالرجوع إلى قواميس اللغة ومعاجمها نجد أن لمادة "دين" مترادفات ومعاني لفظية من الكثرة بحيث أنك يصعب عليك الخروج من خلالها بمفهوم للدين، لكن لو نظرنا في اشتقاق هذه الكلمة ووجوه تصنيفها نرى من وراء هذا الاختلاف الظاهر تقارباً شديداً، وصلة تامة في جوهر المعنى. وهذه المعاني الكثيرة تعود في نهاية الأمر إلى ثلاثة معان تكاد تكون متلازمة. بل نجد أن التفاوت اليسير بين هذه المعاني الثلاثة مردّه في الحقيقة إلى أن الكلمة التي يراد شرحها ليست كلمة واحدة، بل ثلاث كلمات، أو بعبارة أدق أنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب.

فكلمة "دين": تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه: "دانه يدينه"، وتارة من فعل متعد باللام: "دان له"، وتارة متعد بالباء: "دان به". وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التي تعطىها الصيغة. ولذلك فإن خلاصة المعاني اللغوية كما يذكر الشيخ دراز أن كلمة الدين في اللغة العربية تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له. فإذا وصف بها

^١ عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٣٤٠-٣٤١.

^٢ ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ١٦٨-١٧١؛ دراز، الدين، ص ٢٩؛ المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، ص ١٠٧-١١٨.

الطرف الأول كانت خضوعاً وانقياداً. وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمراً وسلطاناً، وحكماً وإلزاماً. وإذا نظر بها على الرباط بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة، أو المظهر الذي يعبر عنها^١.
فمادة "دين" تدور كلها على معنى لزوم الانقياد (إلزام الانقياد، التزام الانقياد، المبدأ الذي يلتزم الانقياد له). فالاستعمال الأول، الدين إلزام وانقياد، وفي الاستعمال الثاني الدين التزام الانقياد، وفي الاستعمال الثالث الدين هو المبدأ الذي يلتزم الانقياد له.

أي أن الدين من جهة المتدين حالة نفسية (تجربة) هي الخضوع والانقياد، ومن ناحية المضمون الدين هو تلك الحقيقة الخارجية التي يمكن الرجوع إليها في العادات الخارجية أو الآثار الخالدة، أو الروايات المأثورة، ومعناها جملة المبادئ التي تدين بها أمة من الأمم، اعتقاداً أو عملاً^٢.

فإذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية "التدين"، فالدين: الاعتقاد بوجود ذات - أو ذات- غيبية علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدير للشؤون التي تعني الانسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد؛ أي الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة. وإذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حقيقة خارجية: هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها^٣.

وإذا نظرنا إلى استعمالات الدين في القرآن، وإلى التحليل الذي قام به الشيخ دراز، فإننا نجد أن الدين في منظور القرآن الكريم له معنيان من جاهة الحقيقة الخارجية ومن جهة التجربة التاريخية؛ فمن جهة الحقيقة الخارجية فإن الدين هو مضمون الدين؛ أي ذلك الشرع أو تلك المجموعة من القوانين والعقائد والقواعد التي يعتقد بها المتدين وترسم له طريق العبادة. أما من جهة التجربة التاريخية أي الحالة النفسية للمتدين فإن الدين (التدين) ممارسة بشرية وخضوع وتمجيد وتقديس لمعبود ما. وهو ما ينبهنا إلى أنه في الاستعمال القرآني هناك معنيان عامان: معنى المعتقد والمنهج الذي يتخذه الإنسان في هذه الحياة، يفسر به الوجود، ويشكل به نظرة وتصوراً عن الخالق والكون والحياة، وهذا ينظر إليه من ناحيته الإنسانية العملية، أي تلك الممارسة العملية (التدين)، سواء كان هذا الدين إنكاراً أو إقراراً بوجود الخالق وتحقق وعده أم لا. أما المعنى الثاني فهو بالنظر إلى حقيقة هذا المنهج، ووضعه، وفي هذا يصير هناك دينان فقط؛ دين الحق ودين الضلالة، أو بعبارة أخرى دين الله الإسلام، وغيره من الاعتقادات التي تخالفه مهما كانت.

ونفهم مما سبق أن القرآن يعتبر ما يُتخذ من أفكار أو معتقدات أو خرافات منهجاً للحياة ديناً بالمعنى العام، وإن كانت غير مقبولة عند الله، وذلك أنها تتوفر فيها تلك الجوانب الثلاثة التي أشرنا إليها سلفاً، وهي الخضوع والاعتقاد والمعتقد

^١ دراز، الدين، ص ٢٩-٣١.

^٢ دراز، الدين، ص ٣٢.

^٣ دراز، الدين، ص ٤٧ وما بعدها.

نفسه. فهناك إذن جانبان للدين؛ باعتباره وضعاً إلهياً جاء به الأنبياء جميعاً، وهو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وباعتبار الواقع الإنساني فإن الدين هو كل منهج يتوفر فيه الجانب النفسي الذي يحمل الناس على التقيد به بما يحمله من وعود وتصورات، وبما يتوفر فيه من تعاليم، هذا إذا نظرنا إلى الدين كمنهج للحياة وتشريع يلتزمه الناس. بمعنى أنه من حيث الممارسة التاريخية فقد مارس البشر أفراداً ومجموعات أنواعاً متعددة من التدين، ولهذا فالقرآن يعالج التعددية الدينية أي تعدد التجارب الدينية، ويشير إلى وجودها تاريخياً، دون اعتراف بحقيقتها وتطابقها مع المعطى الإلهي ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

٣. ٢. الإسلام هو الدين الحق وهو دين الله الواحد: (وحدة الحقيقة الخارجية):

إن التأمل في القرآن الكريم يجد أنه يعتبر الإسلام هو الدين الحق^١، وهو دين الله الواحد^٢، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، و﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، و﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، و﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده؛ ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهو الذي لا يقبل سواه ديناً؛ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ويعتبر القرآن الإسلام دين الأنبياء جميعاً، أساسه الدعوة إلى توحيد الله، ولذلك هتف به الانبياء جميعاً، وانتسب إليه جميع الموحدين. فهو الذي أمر الله به إبراهيم عليه السلام فاستجاب له طائعاً مسلماً، واتبعه أبناؤه من بعده يعقوب عليه السلام وبنوه، ﴿وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

وهو الذي قال به نوح عليه السلام من قبل؛ ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وهو دين موسى عليه السلام أعلن عنه وهو يخاطب قومه، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. ويعتبر الحلقة الأخيرة في سلسلة الرسالات الإلهية؛ ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ونبيه خاتم النبيين في سلسلة خط النبوة الذي لم

^١ ميرا، في علم الدين المقارن، ص ٣٩.

^٢ جود، علم الملل ومناهج العلماء فيه، ص ٧٠.

ينقطع منذ أن بدأ إلى أن اكتمل مع محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وفي السنة نجد نصوصاً تعتبر دين الله واحد ورسالة الأنبياء واحدة ومتكاملة، فيُشَبَّه النبوة كلها بالبناء المكتمل: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاً وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»^١.

قال القرطبي: "ولا خلاف أن الله تعالى لم يغير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنما خالف بينها في الفروع حسبما علمه سبحانه"^٢. وعليه، فإنه لا يقبل شرعية أي دين من حيث الحقيقة، إنما الشرعية الحقة للإسلام فقط، الذي أرسل به محمد صلى الله عليه وسلم خاتماً لما سبقه، ومصداقاً له، ومهيماً عليه، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولكن هذا الموقف لا يمنع الإسلام من التسليم بالوجود الفعلي للأديان المختلفة، بمعنى أنه يؤمن بواقعية التعدد الذي لا يريد محوه بالقوة والاكراه، لأنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، و﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينُ﴾ [الكافرون: ٦]. ومن هنا كان حديث القرآن الكريم عن الحقوق والواجبات لأهل الأديان الأخرى، وبيان السنة المطهرة لها. والتسليم بالوجود الفعلي للأديان الأخرى وعدم إلزام الناس بالتخلي عنها بالاكراه، لا يعني إضفاء الشرعية عليها، بل إن مقارنة ذلك بالتصريح القرآني ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، مع المطالبة القرآنية بالصدع بالحق الذي هو الإسلام ﴿قُلْ أَنْدَعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأْمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، كل ذلك يوصلنا إلى نتيجة جلية مفادها أن الاتجاه القرآني العام في موقفه من الأديان الأخرى اتجاه نقدي علمي.

لكن هذا الاتجاه النقدي لا يعني في منطلق القرآن الكريم الحط من شأن الأديان الأخرى، بمعنى شن الحرب عليها وإذلال أصحابها، بل نقد أسسها ومضامينها وشعاراتها في ما خالفت فيه الدين الحق، لأن منظور القرآن ان الدين واحد، وما اختلف فيه من الحق، لا بد فيه من النقد والمراجعة والتمحيص، ليرجع إلى أصله (دين الحق).

صحيح أن القرآن يرد على مقالاتهم، ويحكم بضلال توجهاتهم، وانهميار أسس بناء عقائدهم، وانحراف مبادئهم. لكن هذا كله يبينه القرآن الكريم في إطار المنطق العلمي والحجج الموضوعية، وهذا ما يقتضيه واجب الدعوة.

وإن أثر أولئك بعد هذا البيان الاستمرار في تقليد أهواءهم، فإن الإسلام يتركهم أحراراً ليتحملوا مسؤولية اختيارهم أمام الله، مطالباً المسلمين بالجهار بالإسلام.

^١ أخرجه البخاري في صحيحه، ص ٨٧٣، رقم ٣٥٣٤.

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦، ص ١٦٤.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٩-٢٠]، و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، و﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانُوا أُولِي عِلْمٍ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤-١٠٥]، و﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ... فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٣-١٥].

فاتجاه القرآن النقدي ملازم لمنظوره في التبليغ ﴿لا إكراه في الدين﴾، وإيمانه بضرورة الاقتناع والاقناع، ولاستعداده للتعايش السلمي مع أهل الأديان الأخرى^١.

٣. ٣. منهجية التصديق والهيمنة:

ويعزز هذا ما قدمه القرآن نفسه من مناهج للتعامل مع أهل الأديان الأخرى. وهي مناهج تأخذ بالرفق بأيدي التائبين والمنحرفين إلى الصراط المستقيم إن كانوا مستعدين لذلك. فالقرآن الكريم لم يحدد للمسلمين اتجاههم فقط، بل دلهم على مناهج يسلكونها - في إطار المنطق العلمي والحرية الفكرية - للتوصل إلى أهدافهم، ويطبقون من خلالها نقدهم ودراساتهم^٢. كما أن معيار التوحيد الذي وضعه القرآن للحكم من خلاله على الأديان واعتبار الإسلام هو الدين الحق معيارا عاما مجردا يمكن تعميمه وتطبيقه دون تحيز. فالصحة مرتبطة بدرجة التمسك بالتوحيد الصحيح، والخطأ أو الزيف يتحدد في درجة البعد عن التوحيد الصحيح.

وفي الوقت نفسه اعتمد الإسلام مبدأ التصحيح، فالأديان قابلة للتصحيح، وللعودة إلى التوحيد في صورته الصحيحة. ولا يوجد دين باطل بالأصالة أو بالفطرة، فالأخطاء التي وقعت للأديان أخطاء بشرية يمكن معالجتها. وحركة التصحيح حركة مستمرة قد تحدث بدوافع داخلية أي من داخل الدين ذاته استجابة لعوامل الفطرة السليمة والعقل السليم، أو بدوافع خارجية نتيجة التأثير بدين آخر. فالانتقال من الباطل إلى الحق ممكن، والانتقال من الحقيقة النسبية إلى الحقيقة المطلقة ممكن^٣.

^١ ميرا، في علم الدين المقارن، ص ٤١.

^٢ نفس المصدر.

^٣ حسن، تاريخ الأديان، ص ٣٤-٣٥.

فالأديان في حالة تصحيح مستمر لذاتها، وفي سعيها للحقيقة تصلح من نفسها وتقبل النقد والتصحيح، بصرف النظر عن مصدره داخليا كان أو خارجياً. لهذا كثرت حركات الإصلاح في تاريخ الأديان بهدف تصحيح الأوضاع الدينية^١. ولهذا اعتبر القرآن حركة الرسالات النبوية سلسلة متكاملة جاءت لتصحيح الدين الواحد الذي طرأت عليه التبدلات بفعل التجربة الانسانية والتغير التاريخي.

ويكون ذلك التصحيح المستمر عن طريق منهجية التصديق والهيمنة التي ذكرها القرآن الكريم؛ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفي تفسير هذه الآية نجد أن الهيمنة القرآنية على بقية الكتب الدينية تحمل معاني: أن القرآن عالٍ ومرتفع عليها، وشاهد، وحافظ لتراث النبوة، ومؤمناً عليه، وهو ما ذكره القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيب بأن القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب، وأمين عليها^٢.

وتكمن منهجية التصديق والهيمنة القرآنية في كونها أساساً مهماً في أغلب عمليات المراجعة والتقويم، كما أنها سبيل قويم لممارسة الحوار والتدافع مع مختلف العقائد، وهي كذلك مرجع في وزن كل التصورات والعقائد الإيمانية والسلوكيات الأخلاقية الذاتية أو الغيرية، لاختزانها إمكانية الإحاطة بجوانب الصواب والاختلاف، فتزكي الصالح وتدفع الطالح، وتثبت النافع وتمحو دفعا الزيد الغث الضار.

فعمليات المراجعة العقديّة التي جاء القرآن بتأسيسها من خلال نصوصه، كانت دعامة نقدية للعقل الإنساني ومعارفه الغيبية على وجه الخصوص، وقد دافعت عن التصورات القرآنية المستجدة ببرهانية صارمة، كما دفعت بعض عقائد السابقين من أهل الكتاب المحرفة^٣.

فبالتصديق يعيد القرآن المجيد تراث النبيين وكتبهم الموحاة إلى حالة الصدق التي نزلت بها بعد تنقيتها من كل ما قد شابها من تغيير وتحريف أو مؤثرات إنسانية، وبالهيمنة وضع القرآن تراث النبوات الخالص بين آياته وجعله في حمايته ليكون الدين الواحد لله الواحد. ولئلا يتعرض مرة أخرى إلى التدخل البشري^٤.

كما أن منهجية التصديق والهيمنة في القرآن المجيد لها وجهتان؛ الوجهة الأولى: إزاء الكتب السالفة؛ فهناك تصديق لما صحّ من هذه الكتب ثم هيمنة عليها في تكامل تامّ معها. والوجهة الثانية: إزاء ما يمور ويعتلج في حياة الناس وارتفاقاتهم من

^١ حسن، تاريخ الأديان، ص ٣٤-٣٥.

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٨، ص ٣٤-٣٧.

^٣ بناصر، حاجتنا لمفاهيم جديدة لتقويم العقل المسلم: مفهوم التصديق والهيمنة، ينظر:

<http://benaceur.arabblogs.com/archive/2008/9/677620.html>

^٤ العلواني، مفاهيم الفقه والعرف، جريدة الأهرام، الاثنين ٤ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢١ مايو ٢٠٠٧م، السنة ١٣١، عدد ٤٣٩٩٥.

ممارسات وما هو مستقر فيها من أعراف. والتصديق في هذه الوجهة عبارة عن إقرار الصالح من كل ذلك بالسكوت عنه أو الثناء عليه، وتغيير الطالح بالحديث عنه وكشف مساوئه^١.

إن التصديق القرآني لم يبلغ كل عقائد وقيينات السابقين، بل تعامل معها على أساس أن في بعضها ما يستحق التنويه كما أن فيها ما يمكن أن يتبعه المومنون؛ ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى: ١٨-١٩]، و﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل﴾ [المائدة: ٣٤]، كما أكد على أن فيها ما حرف وبدل، وانتهكت فيه شريعة النص الأصلي أو الكلام الإلهي كما حدث مع بني إسرائيل بقولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة: ٢٠]، وكذلك ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ [البقرة: ٧٧]، و﴿يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به﴾ [المائدة: ١٤]، فوجب تجنبها ومدافعتها لأنها لا تتأسس على شرعية نسبتها إلى الله على أية حال.

فتصديق عيسى عليه السلام لما بين يديه من الكتاب: ﴿مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦]، إنما هو تصديق بالتوراة، وشرعيته ورسالته مكملته لشرعية موسى عليه السلام فيما احتواه الإنجيل من وصايا، وهما امتداد لشرعية إسرائيل التي انحرف عن أغلبها بنو إسرائيل لطول الأمد عليهم ومعاندتهم لرسولهم، وأما تصديق المسيحية فقد كان بالعهد القديم والعهد الجديد ولا يصح الإيمان المسيحي إلا بالجمع بينهما، وبدورها الديانة الإسلامية لخاتميتها -أو باعتبارها عهدا أخيرا كما يسميه بعضهم، فقد صدقت وهيمنت على كل الشرائع السماوية السابقة؛ ﴿مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه﴾ [المائدة: ٥٠].

وواقع الهيمنة القرآنية وقوتها تكمن في الإبقاء على الأصلح والاعتراف به، مع تجديد في بعض الفروع أو التأسيس لبعض الأصول أو رفع الغل والمشقة ونسخ ما كان يضييق به صدر المؤمنين من الأحكام؛ ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾ [الحج: ٧٦]، ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة: ١٤٢]، ثم لأنها عقيدة خاتمة ومتممة، فلا ينبغي لها الإفراط والتشدد، ولا التفريط والإخلال، فهي شريعة الديمومة والامتداد، وهي شريعة الوسط لأمة عالمية تمتاز بالوسطية وبالخيرية والخاتمية، فوجب أن تستمر إلى آخر الزمان وتتعالى عن النقصان أو الزيادة والتحريف، مصدقة ومهيمنة، تجمع العقيدة والشريعة، والأخلاق والقيم^٢.

٣. ٤. تنوع التجربة الدينية واختلافها ﴿لا إكراه في الدين﴾:

إن تصميم القرآن على أن الحقيقة الخارجية واحدة في أصلها، وأنها دين الانبياء جميعا، وتوفيره لمنهجية التصديق لتراث الانبياء، والهيمنة على ما بقي منها، يمنح الباحث في الأديان القدرة على ممارسة النقد لأنواع التدين الأخرى، ويفسح المجال لضابط منهجي آخر فيما يتعلق بالتدين، وهو أن التجربة التاريخية تثبت أن هناك تديانات شتى، واختلافات كثيرة في طرائق التدين، وهذا تبعا لحقيقة الاختلاف الواقع بين الناس، باعتباره سنة من سنن الله في الوجود الانساني. والقرآن يؤكد حقيقة

^١ عبادي، من مكونات المنهج النقدي في القرآن الكريم: التصديق والهيمنة. <http://www.alquran.ma/Article.aspx?C=5562>.

^٢ بناصر، مفهوم التصديق والهيمنة، مرجع سابق؛ حمد، أستمولوجية المعرفة الكونية إسلامية المعرفة والمنهج، ص ٢١٠.

قانون الاختلاف في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، و﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، و﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا افْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ولعلنا نستشف من هذه الآيات أن الاختلاف قانون إنساني في مختلف أبعاده الفكرية والاجتماعية والدينية وغيرها، "فأخبر سبحانه أنهم لا يزالون مختلفين أبداً"^١.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن الآيات تتحدث عن واقع إنساني لا تنفك عنه الإنسانية منذ أن أوجدها الله تعالى وحدث بينها الاختلاف، ولا يزال، كما ذهب إلى ذلك القرطبي^٢. أما الطبري فيرى أنه لا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم^٣. في حين يذهب ابن كثير إلى أن الله تعالى يخبرنا أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران، ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم^٤. ويرى الرازي أن المراد افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال^٥. كما يؤكد ذلك ابن عاشور بقوله: "إن جعلهم أمة واحدة في الدين منتفية، أي منتف دوامها على الوحدة في الدين وإن كانوا قد وجدوا في أول النشأة متفقين فلم يلبثوا حتى طرأ الاختلاف"^٦.

ومع تأكيد القرآن على أن دين الله واحد، وأنه دين الأنبياء جميعاً، فإنه يبين أيضاً حقيقة الاختلاف الواقع بين الناس باعتباره حقيقة تاريخية واقعة، وليس إقراراً لتلك الاختلافات في صحتها، ولهذا فإن القرآن يضع منهجية التصديق والهيمنة لتصحيح الاختلافات وتحقيق دخول الناس في إخلاص العبودية لله والاستقامة على دين الحق؛ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الصف: ٩]، ولكن بلا إكراه للناس أن يؤمنوا؛ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان وزوده بالقدرة على الاختيار ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، فلا يُكْرَهُ أحد على الإيمان بشيء؛ لأنه ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، من خلال سلسلة النبوة التي لم تنقطع من أول نبي إلى خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

هذا الاختلاف الإنساني في القناعات والآراء والديانات يعترف القرآن بوجوده حقيقة في الواقع، بغض النظر عن أن هذا الاختلاف محمود أو مذموم، ولهذا فإن القرآن يضع قاعدة مهمة في شأن التعامل مع الاختلاف الديني وهي عدم الإكراه.

^١ الشاطبي، الاعتصام، ج ٢، ص ١٦٥.

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٣، ص ٤٠٤-٤٠٦؛ ج ١١، ص ٢٣٤-٢٣٦.

^٣ الطبري، جامع البيان، ج ٧، ص ١٤٢-١٤٣.

^٤ ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٤٢٣.

^٥ الرازي، التفسير، ج ١٨، ص ٧٦.

^٦ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٧، ص ٢١٥.

فإذا كان القرآن وضع قاعدة التصديق والهيمنة، فإنه وضع أيضا قاعدة منهجية هي عدم الإكراه في الدين؛ لأن الدين يبني على الاقتناع والحقيقة، وليس على الإكراه أو المجاملة؛ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وهذا ما يفسح المجال للتعددية الدينية أمام الناس، والتعايش بينهم، دون تلفيق بين الأديان، ودون محاولة دمج أحدها في الآخر، أو إكراه أتباع أحدها على تبني ما لم يقتنعوا به، ويوم القيامة يتحملون مسؤوليتهم أمام الله ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٣. ٥. نشأة الدين ومنبع التدين:

يقول مالك بن نبي: "في ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها. والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني، قانونا خاصا بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية، حول مركز واحد، يخطف سنه الأبصار، وهو حافل بالأسرار إلى الأبد".^١

لعل هذا النص يذكرنا بأن الدين أمر فطري في الانسان بمعنييه الاثنين السابقي الذكر؛ فهو من حيث أنه حقيقة خارجية أوحى به الله منذ خلق قادم، بل منذ عالم الدر، ومن حيث هو تجربة تاريخية فإن البشرية لا تنفك عن التدين منذ فجر التاريخ إلى اليوم.

وبتأمل الآيات والأحاديث النبوية نجد أن الفطرة شكلت في البداية أساساً لإقامة مجتمع التوحيد، وكان الإنسان -ممثلاً في الجماعة الإنسانية كلها- يمارس خلافة الله على الأرض وفقاً لذلك؛ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فاتجاه الإنسان الفطري نحو التدين، اتجاه تكويني ذاتي، وجد مع الإنسان منذ بداية وجوده على هذه الأرض. وهذا الاتجاه يفسر قوة الدفع الأصلية والنزوع الذاتي، في تكوين الإنسان نحو التعبد والتقديس والاتجاه نحو مقدس عظيم، يعبر الإنسان عن شعوره، وأحاسيسه التعبدية نحوه .. هذه الأحاسيس التي ما تلبث أن تنمو وتتحوّل في نفس الإنسان إلى تصور لوجود هذه الحقيقة المطلقة الكبرى تصوراً يصاحبه شوق إلى البحث عن هذه الحقيقة التي تملأ نفس الإنسان، وتشده إليها، والإحساس بغنى هذه الحقيقة وقدرتها على ملء كل أبعاد الفراغ، وأحاسيس النقص في نفسه، واستعلائها على أبعاد

^١ بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص ٣٠٠.

^٢ الصدر، الإسلام يقود الحياة، ص ١٥٤.

العالم وأطره التي ينزع إلى اجتيازها، وتخليد وجوده فيما بعدها.. فهذا العالم لا يستطيع أن يخاطب جانب الامتداد المطلق في نفس الإنسان، أو يكون بديلاً عن تلك الحقيقة التي تتجه إليها ذاته^١.

لذلك فهو ينزع دوماً إلى الاتجاه إلى حقيقة أسمى من هذا العالم المحسوس، ويشعر بقدرة تلك الحقيقة على ملء هذا الإحساس الفطري الذي يلح عليه بوعي وبدون وعي منه^٢. تلك الأحاسيس حقائق علمية أيدتها الأبحاث، والدراسات النفسية، كما تؤيدها الحقائق الوجدانية، والألفاظ اللغوية التي وضعها الإنسان للتعبير عن هذه المعاني والأحاسيس الفطرية^٣. ومن جهة أخرى فإنه يقوم في ذهن الإنسان تساؤل وجودي بصفة فطرية، فما يبدأ في التعامل مع البيئة الكونية تعاملًا عقلياً حتى يرد على خاطره سؤال ذو ثلاثة نقاط أساسية: مأتى العالم، ومصيره، وحقيقة حركته فيما بين المأتى والمصير^٤. ولهذا فإن الإيمان بالله الواحد ورفض كل ألوان الشرك والطاغوت، ووحدة الهدف والمصلحة والمسير، معالم الفطرة الإنسانية، وأي شرك وجبروت، وأي تناقض وتفرق فهو انحراف عن الفطرة^٥.

فالقرآن الكريم يعرض الدين، ليس على أنه تشريع فقط، بل على أنه سنة موضوعية من سنن التاريخ، وقانون داخل في صميم تركيب الإنسان وفطرته، بل هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا يمكن تبديلها، ولا يمكن أن تنتزع من الإنسان لأنها جزء من أجزائه التي تقومه، فالدين ليس مقولة حضارية مكتسبة يمكن إعطاؤها ويمكن الاستغناء عنها، فهو لا يمكن أن ينفك عن خلق الله ما دام الإنسان إنساناً، فالدين يعتبر سنة لهذا الإنسان^٦. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

خاتمة:

في الختام نجد أن هذه الورقة أكدت مركزية القرآن في إنتاج المعرفة عموماً والمعرفة المتعلقة بدراسة الأديان بوجه خاص، وكذلك التأكيد على كثافة المادة المعرفية المتعلقة بدراسة الأديان في القرآن الكريم متمثلة على سبيل المثال في قصص الأنبياء، وفي ذكره كبرى الأديان والاعتقادات التي تدين بها البشرية، مع ذكر تفاصيل الاعتقادات، أما القواعد المنهجية في القرآن لدراسة الأديان فتمثلت أولاً في التأكيد على أن دين الله واحد، وثانياً أن الإسلام دين الانبياء جميعاً، وثالثاً أن التجربة الدينية متعددة تاريخياً (لا إكراه في الدين)، أما رابعاً فقد وضع القرآن منهجية التصديق والهيمنة لتكون أداة لنقد الأديان والمحافظة

^١ الفقيه، الإنسان والدين، ص ١١.

^٢ نفس المصدر.

^٣ الفقيه، الإنسان والدين، ص ١٢.

^٤ النجار، خلافة الإنسان، ص ٢٣.

^٥ الصدر، الإسلام يقود الحياة، ص ١٥٤.

^٦ الصدر، السنن التاريخية في القرآن، ص ٩٠-٩١.

على ما صح منها وتوجيهها نحو التصحيح في ما خرجت فيه عن دين الله الواحد، وخامسا تأكيد فطرية التدين (النزعة نحو التدين) وإلهية الحقيقة الخارجية (الدين). وهذا ما يزود الباحث المسلم في الأديان بمادة معرفية كثيفة تسمح له بدراسة الأديان مستخدما تلك القواعد المنهجية مما يحقق له الاقتدار العلمي، والرؤية الشمولية، والتمييز بين الدين الواحد من عند باعتباره حقيقة خارجية وبين الدين باعتباره تجربة تاريخية متعددة من خلال الممارسات البشرية. والله أعلم.

المصادر والمراجع

١. ابن كثير، إسماعيل، تفسير ابن كثير، (دار طيبة: ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م).
٢. ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط ١، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م).
٣. أبو سليمان، عبد الحميد، أزمة العقل المسلم، (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٣، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م).
٤. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧ م).
٥. إسماعيل، صلاح، كيف نتعامل مع القرآن والسنة، في عارف، نصر محمد، قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر، (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤١٨ هـ / ١٩٨٧ م).
٦. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، (دمشق: دار ابن كثير، ط ١، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م).
٧. بن ناصر، يوسف محمد حاجتنا لمفاهيم جديدة لتقويم العقل المسلم: مفهوم التصديق والهيمنة. انظر: <http://benaceur.arabblogs.com/archive/2008/9/677620.htm>
٨. بن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٨ م).
٩. جود، أحمد عبد الله، علم الملل ومناهج العلماء فيه، (الرياض: دار الفضيلة، ط ١، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م).
١٠. حسن، محمد خليفة، تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنة، (الدوحة: مركز القضاوي للوسطية، ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م).
١١. حمد، أبو القاسم حاج، إبستمولوجية المعرفة الكونية، (بيروت: دار الهادي، ط ١، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م).
١٢. الخلف، سعود بن عبد العزيز، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، (الرياض: دار اضواء السلف، ط ٥، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م).
١٣. دراز، محمد عبد الله، الدين، (الكويت: دار القلم).
١٤. الرازي، فخر الدين، تفسير الرازي (التفسير الكبير)، (دار الكتب العلمية، ط ٢).
١٥. سمك، عبد الله علي، مدخل لدراسة الأديان، (مكة المكرمة: دار الدراسات العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٣ م).
١٦. الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الاعتصام، (دار الفكر، د.ت.).
١٧. شبار، سعيد، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٧ م).
١٨. الصدر، محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن، (دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م).
١٩. الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري (جامع البيان)، (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط ٣).
٢٠. العامري، أبو الحسن، الإعلام بمناقب الإسلام، (الرياض: دار الأصاله، ط ١، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م).
٢١. عبادي، أحمد، من مكونات المنهج النقدي في القرآن الكريم: التصديق والهيمنة. أنظر:
٢٢. <http://www.alquran.ma/Article.aspx?C=5562>

٢٣. عباس، فضل حسن، القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته، (عمان: دار الفرقان، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
٢٤. عباس، فضل حسن، القصة القرآنية. انظر موقع ملتقى التفسير: <http://vb.tafsir.net/tafsir21910/#.VCqDvfmSyV0>
٢٥. عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (القاهرة: دار الحديث: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
٢٦. العلواني، طه جابر، تقديم، في بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، إشراف: علي جمعة محمد وسيف الدين عبد الفتاح، (القاهرة: دار السلام، ط١، القاهرة: دار السلام، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).
٢٧. مفاهيم الفقه والعرف، جريدة الأهرام، الاثنين، ٤ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/٢١ مايو ٢٠٠٧م، السنة ١٣١، عدد ٤٣٩٩٥.
٢٨. الغزالي، محمد، كيف نتعامل مع القرآن، (هيروندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م).
٢٩. الفقيه، محمد جواد، الإنسان والدين، (بيروت: دار الأضواء، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
٣٠. القرطبي، أبو بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).
٣١. المودودي، أبو الأعلى، المصطلحات الأربعة في القرآن، (القاهرة: دار التراث العربي، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
٣٢. ميرا، دين محمد محمد، في علم الدين المقارن مقالات في المنهج، (القاهرة: دار البصائر، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
٣٣. ميرزائي، نجف علي، فلسفة مرجعية القرآن المعرفية، ترجمة: دلال عباس، (بيروت: مركز الحضارة، ط١، ٢٠٠٨م).

المرتكزات المنهجية للاتجاه الليبرالي في التعامل مع السنة النبوية دراسة استقرائية تحليلية لآراء الكتاب الإندونيسيين¹

د. زهر الفتى صالحين*

ملخص البحث:

تهدف هذه الورقة إلى بيان أن الليبرالية متشعبة المعنى ومتعددة الجوانب، وذلك لأنها لم تبلور على يد مفكر واحد، بل أسهم عدة مفكرين في إعطاء شكلها وميزاتها، لكن الجميع اتفقوا على أن هذا المذهب يتركز على أهمية الفرد وضرورة تحرره من كل أنواع السيطرة والاستبداد. ونشأ هذا المذهب في عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان ظهوره في أوله متجهاً نحو التحرر من الانضباط السياسي والاقتصادي السائد في العصور الوسطى بأوروبا، مما أدى إلى انتفاضة الشعوب، وثورة الجماهير، وبخاصة الطبقة الوسطى، منادين بالحرية والإخاء والمساواة، ثم تبلور بعد ذلك فأصبح إطاراً غربياً في النظرة إلى الوجود وفلسفة العلم. ولم تكن الليبرالية بشتى مجالاتها-السياسية والاقتصادية والثقافية- حبيسة أسوار أوروبا، بل تسلت إلى باقي دول العالم -بما في ذلك العالم الإسلامي- عبر ما تملكه الدول الغربية من قوة سياسية واقتصادية وعسكرية وإعلامية. ومما ساعد انتشار هذا المذهب إعجاب بعض أبناء المسلمين به -خاصة هؤلاء الذين تربوا على أيدي المستشرقين- على حد تصورهم أن نهضة الغرب وقوة حضارته المادية كانت بسبب اعتناقه هذا المذهب الفلسفي، ومن ثم ذهبوا إلى استيراد هذا المذهب وتطبيقه في الإسلام، وذلك من خلال نقد تراثه (النصوص الشرعية) ليلائم مع القيم الغربية. ومن خلال استقراءنا وتحليلنا لكتابات رواد الاتجاه الليبرالي في إندونيسيا حول السنة توصلنا إلى عدد من مرتكزاتهم المنهجية البعيدة عن الموضوعية والتي تتمثل في: الانتقائية وفقاً لأغراض مسبقة، والاعتماد على الأقوال الشاذة وإخفاء الجوانب الصحيحة وتجاهلها، والمنهج المادي التجريبي، والمنهج التاريخي التطوري، وتعطيل النصوص باسم المصالح والمقاصد، والاعتماد على المصادر أو المراجع غير الأصلية.

المقدمة:

إن الحديث عن منهج الاتجاه الليبرالي في التعامل مع السنة النبوية لا يمكن أن ينفك عما أثير حول النصوص الشرعية عامة (القرآن والسنة) من النقد، فإن من القضايا المثارة في الفكر الإسلامي الحديث والتي أخذت حيزاً لا بأس به من الدراسة والتحليل قضية نقد النصوص الشرعية مؤسسا على معطيات الواقع الإنساني بمستجداته التقدمية، وأوضاعه وقيمه الجديدة. وقد كانت هذه القضية محورا رئيسا عند أصحاب الاتجاه الليبرالي الذي يتسم بالتحرر من كل قيد أو سلطة دينية كانت أو أخلاقية،

¹ يشكر الباحث أستاذي الأستاذ الدكتور محمد أبو الليث الخيرابادي (أستاذ الحديث وعلومه في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا) على ما قام به من تعديلات في البحث حتى خرج بهذه الصورة الصحيحة.

* محاضر في كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية الحكومية فونوروغو جاوا الشرقية إندونيسيا.

بحيث يجعل روح العصر محور القياس، على معنى أن تشتق أفهام لتلك النصوص تخالف الأفهام القائمة على خصوصية ظروف النزول، وتتأسس على مراعاة الأوضاع الواقعية للإنسان المعاصر.

وقد تبنى هذا الاتجاه من يسمون بالحدائين^١ عربياً وعجمياً؛ كما يظهر من خلال كتاباتهم تارةً باسم "القراءات المعاصرة"، وأخرى باسم "القراءات الجديدة"، تلك الكتابات التي دعت صراحة إلى تبني النظريات والمناهج الفلسفية التي ظهرت في الغرب، لفهم التراث الإسلامي عموماً، والنصوص الشرعية خصوصاً، زاعمة أنه لا سبيل إلى تصحيح مسار الفكر الإسلامي كي يواكب الحياة المعاصرة إلا بتبني تلك النظريات والمناهج المستوردة^٢.

والواقع أن هناك العديد من الدراسات التي تابعت حركة النقد هذه، ودرست أفكارها وتوجهاتها في العالم العربي وفي أماكن مختلفة من العالم الإسلامي، في حين لم تحظ هذه الحركة الناقدة للسنة النبوية في أطراف العالم الإسلامي بنفس الاهتمام. وقد يعود ذلك إلى أن المنطقة العربية هي مهد الإسلام، والعرب هم أهل اللغة التي نزلت بها نصوص الشريعة، فمن السهل عليهم أن يكتشفوا زيف تلك الدراسات الناقدة للسنة النبوية، فتكثر فيهم الدراسات العلمية النقدية المدافعة عن السنة النبوية الشريفة^٣، أما في أطراف العالم الإسلامي فالأمر مختلف كثيراً.

ففي إندونيسيا - التي تعد أكبر دول العالم الإسلامي - مثلاً، يرى بعض أبنائها - وبخاصة هؤلاء الذين تربوا على أيدي المستشرقين - أن ما جاء به الاتجاه الليبرالي من آراء حول القضايا الدينية عامة والقضايا الحديثة خاصة من المسلمات العلمية التي لا بد من احتضانها ونشرها، ومحاولة تفعيلها في أرض الواقع، بل أصبح بعضهم دعاة لهذا الاتجاه ومروجين لأفكاره.

^١ الحدائين اسم الفاعل من المصدر "الحدائة" المعبر عنه بالإنجليزية بـ modernism، وهو لغة بمعنى "الآن" أو "هذه اللحظة". وأما معناه الاصطلاحي فهو اتجاه فكري يشكل ثورة على كل سلطة دينية أو قيم أخلاقية مما لا يتماشى مع روح العصر بمعيار العقل المحض. ونشأت حركة الحدائة في ساحة الديانة النصرانية الكاثوليكية في أواخر القرن التاسع عشر قبل الحرب العالمية الأولى. وأما الهدف من هذه الحركة فهو جعل النصرانية الكاثوليكية ديانة تتفق مع متطلبات العصر في شتى مجالاتها. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، قام أصحاب هذه الحركة بنقد كتبهم المقدسة. انظر:

Berard L Marthaler and others, *New Catholic Encyclopedia*, p. 752; and Donald M Borchert and others (editor), *Encyclopedia of Philosophy*, vol. 6, p.316.

^٢ ومن تلك الكتابات: شحور، الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة؛ وشحور أيضاً، دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع؛ ونصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن؛ ومحمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح؛ ومحمد أركون أيضاً، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، أما كتابات الإندونيسيين في هذا المنوال، فمنها:

Jalaluddin Rakhmat, *Islam Aktual* (الإسلام الواقعي); Nurcholis Madjid and others, *Fiqh Lintas Agama* (الفقه عبر الأديان); Aksin Wijaya, *Menggugat Otentitas Wahyu* (وتفكيك تاريخ القرآن); Muhibbin Noor, *Kritik Kesahihan Hadis Imam Bukhari: Telaah Kritis atas Kitab al-Jami' al-Shahih* (وتقد صحح البخاري); Forum Kajian Kitab Kuning (FK3) منتدى دراسة (وجه الجديد لعلاقة الزوجين: قراءة نقدية لكتاب "عقود اللجين")، *Wajah Baru Relasi Suami-Istri: Telaah Kitab 'Uqud al-Lujayn'*, (كتب التراث).

^٣ إن كان لابد من ذكر تلك الدراسات، فعلى سبيل المثال: عبد المنعم صالح العلي، دفاع عن أبي هريرة؛ ومحمد محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون؛ ومصطفى حسيني السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي؛ ومحمد مصطفى الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه؛ ومحمد محمد أبو شهبة، دفاع عن السنة ورد شبهة المستشرقين والكتاب المعاصرين؛ وسالم علي البهنساوي، السنة المفترى عليه؛ ومكي الشامي، السنة النبوية ومطاعن المبتدعة فيها؛ والأمين الصادق الأمين، موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية.

وستقوم هذه الدراسة ببيان المرتكزات المنهجية لرواد الاتجاه الليبرالي في إندونيسيا في التعامل مع السنة-التي هي جزء من النصوص الشرعية- حتى يتمكن المرء من فهم طبيعة اهتمام الليبراليين بالسنة النبوية، والحصول على صورة كلية لدراساتهم في هذا المجال، وبالتالي يمكنه أن يرد على كثير من الشبهات الجزئية المبنية عليها. وسيتم تناول ذلك في مبحثين، حيث يعرف في المبحث الأول بالاتجاه الليبرالي وتاريخه، ويعرض في المبحث الثاني تلك المرتكزات المنهجية.

المبحث الأول: الاتجاه الليبرالي تعريفه وتاريخه:

١. تعريف الاتجاه الليبرالي

الاتجاه الليبرالي مركب من كلمتين إحداهما "الاتجاه" موصوفة، والأخرى "الليبرالي" صفة لها. فالالاتجاه مصدر من اتجه على وزن اُفْتَعَلَ أي اوتجه، صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها - (ايتجه) وأبدلت منها التاء (اتتجه) وأدغمت (اتَّجه)، وكذلك كلمة بَجَّة أو بَجَّة من كلمة بَجَّة بحدف ألف الوصل وإحدى التاءين، كما أنشد ذلك أبو زيد لزيد بن حُصَيْن: "فَصَرْتُ له القبيلة إذ بَجَّهْنَا وما ضاقَتْ بشدَّته ذِراعي" والأصمعي يرويهِ بَجَّهْنَا، كلها تتضمن معنى: ذهب، وأقبل، وقصد، وولَّى^١. نرى أن المعنى الأقرب من بين تلك المعاني هو كلمة "ذهب"، هنا يمكن أن يقال بأن المراد بالاتجاه هو المذهب الذي يتمثل في الآراء والأفكار.

وأما الليبرالي فهو كلمة أجنبية معربة أصلها Liberty في الإنجليزية أو Liberte في الفرنسية، يرجع جذور كل منهما إلى اللغة اللاتينية liberare بمعنى استقل أو تحرر^٢. وإذا أضفنا إلى "الليبرالي" كلمة "الاتجاه" فإنه يمكن أن يقال بأنه المذهب الحر. هذا من حيث معناها اللغوي، أما من حيث السياق الذي يستخدم هذا المصطلح - وهو الذي نعنيه في هذا البحث - فهو متشعب المعنى ومتعدد الجوانب، وذلك لأن الليبرالية - التي اشتقت منها كلمة الليبرالي - كمنظريّة في السياسة والاقتصاد والاجتماع لم تتبلور على يد مفكر واحد، بل أسهم عدة مفكرين في إعطاء شكلها ومميزاتها، ومن ثم فهي - كما يقول القرضاوي - من المصطلحات التي تدل على مفاهيم عقائدية ليس لها مدلول واحد محدد، لهذا تفسر في بلد بما لا تفسر به في بلد آخر، وتفهم عند فيلسوف بما لا تفهم به عند غيره، وتطبق في مرحلة بما لا تطبق به في أخرى^٣.

فقد عرف المفكر اليهودي هاليفي (١٠٧٥ - ١١٤١)^٤ الليبرالية بأنها: "الاستقلال عن العلل الخارجية، فتكون أجناسها: الحرية المادية والحرية المدنية أو السياسية، والحرية النفسية والحرية الميتافيزيقية (الدينية)^١، وعرفها صاحب المعجم الفلسفي بأنها:

^١ انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ١١٣٠؛ ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ٥٥٦؛ الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣٦، ص ٥٣٨؛ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج ٢، ص ١٠١٥.

^٢ انظر: Sir William Smith and Sir John Lockwood, *Chambers Murray Latin-English Dictionary*, p.400.

جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، ج ١، ص ٤٦١.

^٣ يوسف القرضاوي، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، ص ٥٠-٥١.

^٤ هو يهودا هاليفي، يهودي أندلسي، اشتهر بكتابه "خوارزمي" أو "كتاب البرهان والحجة دفاعاً عن العقيدة المهترقة". اتخذ هاليفي من حكاية ملك الخرز الوثني الذي قيل إنه تحول إلى اليهودية نحو سنة ٧٤٠ دعوى لتفضيلها على الديانتين المسيحية والإسلامية، ويزعم أن الملك قد استدعى ثلاثة من العلماء المسيحيين والمسلمين واليهود، وأن كلا منهم عرض عقيدته عليه، فاختار الملك من بينها اليهودية ديناً له. انظر: عبد المنعم الحنفي، الموسوعة الفلسفية، ص ٤٩٦.

"مذهب يقوم على حرية الفرد واستقلاله، ومنحه أكبر قسط من الضمانات ضد أي تعسف"^١، ثم استنبط لالاند (١٨٦٧-١٩٦٤)^٢ - بعد أن ذكر أقوال الفلاسفة حول الليبرالية- بأنها تتضمن معاني: "احترام استقلال الآخر، تسامح، ثقة في الآثار الحميدة للحرية"^٣. وقريب من هذا المعنى يقول الدكتور جميل صليبا: "القول بوجود احترام استقلال الأفراد، أو القول بضرورة التسامح في شؤونهم، أو القول بوجود الثقة بما ينشأ عن نظام الحرية من النتائج المسعدة"^٤.

نرى من خلال ما سبق من التعريفات، أن الليبرالية هي عملية انكفاء على الداخل (النفس)، وعملية انفتاح تجاه القوانين التي تشرعها النفس، فالانكفاء على الداخل تمرد وهروب من كل ما هو خارجي، والانفتاح طاعة للقوانين التي تشرعها النفس من الداخل، وهو ما اختصره الفيلسوف ج. لاشلييه J. Lachelier (1832-1918) في قوله: "الليبرالية هي الانفلات المطلق"^٥، فجوهر الليبرالية إذن التركيز على أهمية الفرد، وضرورة تحرره من كل أنواع السيطرة والاستبداد.

وقد حاول الدكتور عبد الرحمن بن صمايل السلمي وضع تعريف شامل لليبرالية، فيقول: "هي مذهب فكري يركز على الحرية الفردية، ويرى وجوب احترام الأفراد، ويعتقد أن الوظيفة الأساسية للدولة هي حماية حريات المواطنين مثل حرية التفكير، والتعبير، والملكية الخاصة، والحرية الشخصية وغيرها"^٦.

وهذا التعريف على الرغم من شموله إلا أنه غير مانع لمذهب فلسفي تغير مفهومه مع السنين بسبب التقلبات الفكرية والسياسية والاجتماعية، والرأي الذي تطمئن إليه النفس في تعريف هذا المصطلح -أي الليبرالية- هو تعريفه بحسب المجال الذي يعرف من خلاله، نعرفها على النحو التالي: الليبرالية السياسية، والليبرالية الاقتصادية، والليبرالية الثقافية ... وهكذا. وهذا ما ذهب إليه كثير من أصحاب المعاجم والموسوعات أمثال لالاند والبلبكي وجميل صليبا، وذلك لأن لكل مجال من مجالات الليبرالية له مميزاته وسماته قد يختلف بعضه بعضا، كما أنها مرت بعدة مراحل تتميز كل مرحلة بما لا تتميز به في مرحلة أخرى.

وفي ضوء ما سبق، يمكننا أن نأتي إلى ما نعنيه بالاتجاه الليبرالي في هذا الدراسة فهو المذهب الفكري الذي يركز على حقوق الأفراد في التعامل مع السنة من حيث معالجة قضاياها وفهم معانيها حسب مراكز الفكر الليبرالي التي تتصف بالحرية

^١ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، ج٢، ص٧٣٢.

^٢ مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، ص١٧٥.

^٣ أندري لالاند، فرنسي، تخرج من مدرسة المعلمين العليا، وكان أستاذا للفلسفة بجامعة بارس والجامعة المصرية. من أهم مؤلفاته: "المعجم الاصطلاحي والنقدي للفلسفة" (Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie)، و"نظريات في الاستقراء والتجريب (Les Theories de L'Induction et de L'Experimentation)، و"موسوعة لالاند الفاسفية". عبد المنعم الحنفي، الموسوعة الفلسفية، ص٣٩٢.

^٤ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج٢، ص٧٢٦.

^٥ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج١، ص٤٦٦.

^٦ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج٢، ص٧٣٢.

^٧ السلمي، الليبرالية وموقف الإسلام منها، ص٣.

والفردية والعقلانية والنسبية دون مراعاة قواعد الدين الثابتة التي أرساها كل من القرآن والسنة، ثم فصلها العلماء المتخصصون. ومن أشهر شعار رواد هذا الاتجاه هو "هم رجال، ونحن رجال".

٢. تأريخ الاتجاه الليبرالي

إن الليبرالية من حيث اللفظ لم تكن متداولة في بداية ظهورها في أوروبا إلا من حيث المعنى أو الفكرة، يقول الأستاذ وضاح نصر: "إن الليبرالية في الفكر السياسي الغربي الحديث نشأت وتطورت في القرن السابع عشر، وذلك على الرغم من أن لفظي ليبرالي وليبرالية لم تكونا متداولتين قبل القرن التاسع عشر^١. فأول استعمال للفظ الليبرالي - كما ذكره لالاند- هو الحزب الأسباني الذي أراد نحو ١٨١٠م أن يدخل في أسبانيا من الطراز الإنكليزي^٢.

وأما من حيث الفكرة، فالفكر الليبرالي - كما هو الملاحظ - يستخدم في بداية الأمر في الإطار السياسي، ثم امتدت الفكرة بعد ذلك إلى ما هو أبعد منه، فأصبحت فلسفة اجتماعية شاملة ترتبط بتوجهات محددة في فلسفة العلم والقيم الاجتماعية والاقتصادية والدينية، إضافة إلى السياسية، حيث أسهم عدة مفكرين في تطويرها وإعطاء شكلها المتميز لها، والتي يرجع سبب ظهورها إلى الأوضاع الدينية والاجتماعية الظالمة السائدة في العصور الوسطى بأوروبا، مما أدى إلى انتفاضة الشعوب، وثورة الجماهير، وبخاصة الطبقة الوسطى، منادين إلى الحرية والإخاء والمساواة، وقد ظهر ذلك في الثورة الإنجليزية عام ١٦٨٨م، والأمريكية عام ١٧٧٥م، والفرنسية عام ١٧٨٩م، وأدت هذه الثورات إلى قيام حكومات تعتمد على دساتير تقدر حق الإنسان في الحرية الشخصية بأوسع دوائرها، دون التزام تجاه شيء، إلا القوانين المصاغة أصلاً لحماية الحريات الشخصية^٣.

ثم لم تكن الليبرالية بشتى مجالاتها حبيسة أسوار أوروبا، لكنها تسللت إلى باقي دول العالم الإسلامي خلال الاستعمار الغربي الذي بلغ قمته إبان القرن الثامن عشر، ابتداءً من انتقال بعض ولايات الدولة العثمانية إلى روسيا سنة ١٧٧٤ بعد اتفاق كوجوك كينرجي (Kutchuk Kainardji) ومرورا باحتلال نيبوليون على الدولة المصرية سنة ١٧٩٨م وانتهاء بسقوط كثير من الدول الإسلامية تحت الحملات الغربية في أوائل القرن العشرين^٤، حيث تعد الحملة الفرنسية على مصر أول عقد لدخول الليبرالية إلى العالم الإسلامي حتى عدَّ ألبريت حوراني (Albert Hourani) فترة ما بين ١٧٩٨ حتى ١٩٣٩ بالعصر الليبرالي في الفكر العرب^٥. يقول فارح مسرحي:

"كان من نتائج الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م حدوث إجماع لدى المفكرين العرب والمسلمين على ضرورة إعادة قراءة التراث الإسلامي فقد ارتبطت كتاباتهم منذ ما دعي بالنهضة العربية بمقياس الغرب تقدمه وتأخرنا عقلايته

^١ الموسوعة الفلسفية العربية، ج٢، ص١١٥٦.

^٢ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج٢، ص٧٢٦.

^٣ انظر: يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها.

^٤ Albert Hourani, *Pemikiran Liberal di Dunia Arab* (Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939), translated into Indoensia by: Suparno and others, p.67.

^٥ المرجع نفسه، مقدمة الكتاب.

وغيباتنا علمه وجهلنا... ونظرا لكونهم نظروا إلى ثقافتهم السائدة نظرة سلبية فقد رجعوا إلى الثقافة الكلاسيكية العربية الإسلامية وركزوا جهودهم منذ ذلك الوقت على إحيائها، مر قرن من الزمن على الإرهاصات الأولى للفكر العربي الحديث ولا تزال مسألة إعادة قراءة التراث مطروحة بجدّة، فأركون يعلن أن مهمة نقد التراث لا بد منها إذا أريد للمسلمين أن يتحرروا فعلا؛ والجابري يرى أن أزمة الابداع لا يمكن تجاوزها إلا بالعمل على إعادة قراءة تراثنا قراءة نقدية معاصرة؛ ونصر حامد أبو زيد يؤكد على ضرورة إدراك البعد التاريخي للتراث من خلال إنجاز وعي علمي بالتراث يضعه في سياقه التاريخي¹.

إذن، هناك اتجاه ليبرالي في العالم الإسلامي من خلال قراءة تراثه باعتباره موضوعا ينطبق عليه ما سار عليه الغرب من مراحل انتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث؛ أي أنه إذا كان للعالم الإسلامي أو للمجتمعات الإسلامية أن تدخل في العصر الحديث فعليه السير على تلك المراحل بكل ما تحمل من أفكار ومواقف بغض النظر عن عدم صلاحيتها في ميزان الفكر الإسلامي، وعلى أية حال فقد قام بعض الحداثيين بنقد تراثهم الإسلامي حيث تجاوز هذا النقد دائرة الأصول الدينية، مما أدى إلى تلقيهم بالليبراليين بل العلمانيين، ومن هؤلاء وأمثالهم تسلسل الفكر الليبرالي إلى بعض المفكرين الإندونيسيين.

المبحث الثاني: المرتكزات المنهجية لرواد الاتجاه الليبرالي في إندونيسيا في التعامل مع السنة

يتناول هذا المبحث المرتكزات المنهجية لرواد الاتجاه الليبرالي في إندونيسيا في التعامل مع السنة، ويمكن إيجاز تلك المرتكزات

فيما يلي:

١. الانتقائية وفقا لأغراض مسبقة

من المعروف علميا أن الباحث المخلص والمنصف لا بد أن يتجرد عن كل هوى وميل شخصي فيما يريد البحث عنه ويتابع النصوص والمراجع الموثوق بها، فما أدت إليه بعد المقارنة والتحصيص كان هو النتيجة المحتمة التي ينبغي عليه اعتقادها. لكن الناظر إلى منهج رواد الاتجاه الليبرالي يجد أن أغلبهم يبيتون في أذهانهم فكرة معينة ثم يلجؤون إلى تصديده الأدلة لإثباتها، فنراهم -حيناً- وضعوا النصوص في غير موضعها وحملوها ما لم تحتمل وما لا تطيقه ألفاظها ولا تدل عليه معانيها، كما نراهم -في كثير من الأحيان- قاموا بتجزئة النصوص ونقلها نقلا مشوها، وعرضها عرضا مبتورا. وبالجملة، عندما يبحثون عن الأدلة لا تهمهم صحتها كما لا يهتمهم طريقة نقلها بقدر ما يهتمهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم.

مثل ما فعله الكاتب عبد المقسط-أحد الليبراليين الإندونيسيين-- عندما يزعم أن جميع الأديان سواسية كأسنان المشط، لا فضل بين دين وآخر، مستدلا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

يقول الكاتب تدعيما لزعمه: "بإمعان النظر للآية السابقة، تبين لنا أنها لا تدل على الأمر بدخول الإسلام لكل من اليهود والنصارى والصابئين [ليكونوا سالمين في دنياهم وأخرهم]، بل بناء على ظاهر الآية، فإن المؤمنين -أي المسلمين الذين استقاموا على إيمانهم- واليهود والنصارى والصابئين، هؤلاء جميعا ما داموا يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون عملا صالحا

¹ فارح مسرحي، الحداثة في فكر محمد أركون، ص ٨٧.

حتى ولو لم يؤمنوا - أي اليهود والنصارى والصابئين - برسالة محمد ﷺ [فلهم أجرهم عند ربهم، فالقول باشتراط الإيمان - أي الإيمان برسالة محمد ﷺ - لهؤلاء (اليهود والنصارى والصابئين) هو قول المفسرين وليس قول القرآن]¹.
ثم قال الكاتب مستطردا بعد ذلك: "حتى رشيد رضا أيضا قال بعدم اشتراط اليهود والنصارى والصابئين ليؤمنوا بالنبي محمد ﷺ"، وفي ذلك قال رشيد رضا: "لا إشكال في عدم اشتراط الايمان ﷺ لأن الكلام في معاملته تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبي ووحه بخصوصها"².

نلمح من كلام الكاتب أن فكرة التعددية الدينية قد باتت في ذهنه، ثم أخذ يصطاد ما يؤيد تلك الفكرة من الأدلة أو الآراء بغض النظر عن صحتها أو تماثلها في ميزان العلم، متجاهلا في نفس الوقت سياق الآية وغيرها من الآيات التي تثبت أحقية الإسلام³، دع عنك عن الأحاديث النبوية⁴، كما ارتكب الكاتب جريمة أخرى عندما انتقى كلام رشيد رضا بما تلمي إليه هواه، مع أن الناظر إلى كلام رشيد رضا بكامله لن يتفق إلى ما ذهب إليه الكاتب⁵.

٢. الاعتماد على الأقوال الشاذة وإخفاء الجوانب الصحيحة وتجاهلها

يعتمد بعض رواد الاتجاه الليبرالي على الأقوال الشاذة وتغييب النظرة الكلية في الحكم على الأشياء وفي التعامل مع بعض القضايا، وخاصة عند الحديث عن الأمور الفقهية، فهم يميلون إلى رأي دون اعتبار بقية الآراء كالميل إلى مذهب وإغفال البقية، أو عدم الالتفات إلى المشهور والمتفق عليه من الآراء والتكيز على ما شذ منها، ويظهر هذا الاعتماد أيضا في تمسكهم بحديث واحد وإعراضهم عن طائفة من الأحاديث بغية تحقيق أغراض معينة.

¹ Abdul Moqsih Ghazali, *Argumen Pluralisme Agama: Membangun Toleransi Berbasis Al-Qur'an* (بناء التسامح) حجج التعددية الدينية: بناء التسامح (على أساس القرآن p. 246).

فالكاتب في الأصل رسالة الدكتوراه، قدمها صاحبها للحصول على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن في جامعة "شريف حداية الله" الإسلامية الحكومية بجاكرتا عام ٢٠٠٨م. فالعيب لا يوجه إلى صاحب الرسالة فحسب، بل موجه أيضا إلى المشرف والممتحنين للرسالة، إذ كيف منح هؤلاء النجاح لصاحب الرسالة دون نقد ما كتب فيها.

² المرجع نفسه.

³ منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

⁴ منها: رواية جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا فإنكم إما أن تصدقوا باطل أو تكذبوا بحق فإنه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني». رواه أحمد في مسنده، (القاهرة: مؤسسة القرطبية، د.ت)، ج ٣، ص ٣٣٨؛ ورواية أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، ج ١، ص ٨٤.

⁵ انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ١، ص ١١٢.

مثل ما فعله الشيخ حسين محمد -أحد علماء جمعية نخضة العلماء- عندما أثار قضية إمامة المرأة على الرجل في الصلاة من جديد قائلاً بأن القضية لم تكن موضع اتفاق بين العلماء، حيث ذهب الجمهور إلى عدم جواز إمامة المرأة على الرجل، بخلاف أبي ثور والطبري والمزني الذين ذهبوا إلى الجواز¹.

لكن المؤسف في منهج المؤلف هو أنه قدّم حديثاً واحداً ضعيفاً لمذهب الجمهور دون غيره من الأحاديث أو الأدلة، ألا وهو رواية ابن ماجه عن جابر عن النبي ﷺ قال: «لا تؤمن امرأة رجلاً ولا يؤم أعرابي مهاجراً ولا يؤم فاجر مؤمناً»². وفي مقابل ذلك، قدم المؤلف حديثاً واحداً أيضاً في إثبات صحة مذهب المخالفين دون الالتفات إلى النظرة الكلية للحديث، ألا وهو رواية أبي داود عن أم ورقة بنت عبد الله بن نوفل الأنصارية أن النبي ﷺ لما غزا بدرًا قالت: قلت له: يا رسول الله! ائذن لي في الغزو معك أمرض مرضاكم لعل الله أن يرزقني شهادة؟ قال: «قري في بيتك فإن الله تعالى يرزقك الشهادة». قال: فكانت تسمى الشهيدة، قال: وكانت قد قرأت القرآن فاستأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في دارها مؤذناً فأذن لها قال وكانت قد دبرت غلاماً لها وجارية. وفي رواية عن عبد الرحمن بن خلاد قال: وكان رسول الله ﷺ يزورها في بيتها وجعل لها مؤذناً يؤذن لها وأمرها أن تؤم أهل دارها. قال عبد الرحمن: فأنا رأيت مؤذنها شيخاً كبيراً³.

ثم حاول بعد ذلك أن يلفت النظرة بأن استنباط الحكم لمذهب الجمهور في هذه القضية منوط بالعلة وهي خوف الفتنة، بمعنى إذا زالت العلة تغير الحكم من المنع إلى الجواز، وليس من قبيل العبادات المحضة التي لا مجال للرأي فيها، ثم زاد المؤلف حجته بأن استنباط الجمهور في هذه المسألة مصبوغ بصبغة التحيز الجنسي للذكور⁴.

٣. المنهج المادي التجريبي

يقوم هذا المنهج على أساس المادة بمعنى أنها هي الحقيقة الوحيدة، وأن الوجود ومظاهره وعملياته يمكن تفسيرها كمظاهر أو نتائج للمادة. كما يقوم أيضاً على أساس الواقع بمعنى أن الحقيقة لا بد أن تكون مطابقة للواقع، وأن عالم الفكر أو الذات إنما هو نتاج عالم الموضوع، ومن ثم رفض هذا المنهج كل ما يتعلق بالمثالية أو ما وراء الطبيعة بما في ذلك الإيمان بالله⁵. وبالجملة، لا يؤمن هذا المنهج إلا بما تدركه الحواس، وبما يمكن تحقيقه من خلال المنظور البشري البحث. وعلى هذا، فلا سبيل إلى المعرفة -عند صاحب هذا المنهج- إلا عن طريق الحس والعقل، فالأمر يختلف بالنسبة نحن المسلمين بأننا نعتقد أن ثمة طريقاً آخر بالإضافة إلى ما سبق -الحس والعقل- ألا وهو الوحي.

¹ Husein Muhammad, *Fiqh Perempuan* (فقه المرأة)، 29-38.

² هذا جزء من حديث طويل رواه ابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة، باب في فرض صلاة الجمعة، ج ١، ص ٣٤٣.

³ Husein Muhammad, *Fiqh Perempuan* (فقه المرأة)، p. 30-31.

⁴ Husein Muhammad, *Fiqh Perempuan* (فقه المرأة)، p. 38.

⁵ انظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، ج ٦، ص ٢١١؛ عبد الحميد الكردي، نظرية المعرفة بين الفلسفة والقرآن، ص ١٣١؛ وأيضاً

Robert P. Gwinn and others, *The New Encyclopedia Britannica* vol.7, p. 929-930.

فالأمر الذي ينبغي التنبه له هو أن استخدام المنهج المادي التحريبي قد أدى بسالكه - خاصة رواد الاتجاه الليبرالي في إندونيسيا - إلى نتائج لا يمكن التسليم بها في المنظور الإسلامي، ولعل من أهم تلك النتائج ما يلي¹:

١. تجاهل طبيعة الحديث الشريف في كونه وحيا من عند الله عز وجل، الأمر الذي يطبعه بطابع العصمة، مما أدى إلى دراسة الحديث ونقده دون اعتبار لهذه العصمة. ومثال ذلك: رد الدكتور محب النور - في رسالته الدكتوراه - حديث: «الكمأة من المن، وماءها شفاء للعين...»²، لمخالفته - حسب زعمه - علم الطب، وهو في هذا النقد قلد نقد أحمد أمين في "ضحى الإسلام"، والغريب في منهج صاحب الرسالة، أنه وافق على نقد أحمد أمين للحديث السابق دون أدنى إثبات أو دليل بأن الحديث يخالف علم الطب. وفي ذلك يقول صاحب الرسالة: "أقول بالصراحة بأي ما أجريت أيّ بحث معلميّ للثبوت أن الحديث مخالف لعلم الطب، لكنني على يقين بأن أحمد أمين قد أجرى البحث المعلمي لهذه القضية"³.

٢. رد الأحاديث التي تتعلق بالنبوءات والإخبار عما سيحدث في المستقبل من حوادث وفتن، لكون مثل هذه الأمور لا يمكن أن تصدر عن البشر، مما أدى إلى القول بأن مثل هذه الأحاديث من وضع الأجيال اللاحقة. مثال ذلك: ما طرحه الدكتور محب النور أيضا - في رسالته الدكتوراه - أن من شروط الحديث الصحيح هو أن لا يخالف الحديث ظروف النبي، كأن يتضمن الحديث على نبوءات مثل حدوث فرق حدث فيما بعد، أو يتضمن قضايا سياسية بشيء من التفصيل⁴.

لعل صاحب الرسالة تأثر بالمفكر الباكستاني فضل الرحمن حين أثار نفس القضية، وذلك عندما وافق على نقد فضل الرحمن على بعض أحاديث البخاري التي تتعلق بالنبوءات مثل أحاديث الفتن، بأنها مصبوغة بصبغة سياسية⁵ وليس من كلام النبي ﷺ. فكان الرجلين - فضل الرحمن وصاحب الرسالة - نسيا أو تناسا أن النبي ﷺ موحى إليه، فما دام الله تعالى العلام الغيوب قد أوحى رسوله، فلا مانع أن يخبر ما حدث وما سيحدث لحكمة من الحكم اقتضت إرادة الله تعالى ذلك. وعلى أية حال، ليس كل الأحاديث من هذا القبيل موضوعة - كما زعمه الرجلان، بل منها صحيحة، ومنها موضوعة؛ لأن العبرة في قبول الحديث أو رده في توفر شروط الصحة أو عدم توفرها وليست في عين الخبر.

¹ ذكر الدكتور فتح الدين بيانوني خمس نتائج بالنسبة للمستشرقين الذين اعتمدوا على المنهج المادي في دراسة السنة النبوية، أما الأربعة منها فقد ذكرناها، وهي واقعة أيضا بالنسبة لرواد الاتجاه الليبرالي في إندونيسيا. أما النتيجة الأخرى وهي: الزعم بأن الأحاديث التي تتعلق باليوم الآخر والجنة والنار، والمواعظ، إنما هي أحاديث اقتبست مما جاء في الكتب السماوية السابقة، فحسب علمي لم يكن ثمة أحد من المثقفين الإندونيسيين من أتى بذلك الزعم. انظر: فتح الدين بيانوني، "مركزات المستشرقين في دراسة علم الحديث والسنة النبوية: دراسة استقرائية تحليلية"، مجلة التجديد المحكمة الصادرة من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ص ٩٥-١٢٨.

² رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾، ج ٦، ص ١٨؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة ومداوة العين بها، ج ٣، ص ١٦٩.

³ Muhibbin Noor, *Kritik Kesahihan Hadis Imam al-Bukhari*, (نقد صحيح الإمام البخاري)، p. 35.

⁴ See: Fazlur Rahman, *Islamic Methodology in History*, p.53- 58.

⁵ See: Muhibbin Noor, *Kritik Kesahihan Hadis Imam al-Bukhari*, (نقد صحيح الإمام البخاري)، p.27.

٣. رد الأحاديث التي تتحدث عن المعجزات؛ لأن ما تتحدث عنه يحتاج إلى قدرات خارقة لا يمتلكها البشر. مثال ذلك: حديث شق صدر النبي ﷺ، والذي أنكره أولي الأبصار عبد الله^١ محتجا بما احتج به الدكتور حسين هيكل حين قال - بعد أن ساق رواية شق الصدر: " وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من هذا الحادث أن حياة محمد كانت كلها حياة إنسانية، وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من الخوارق، وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة النبي العربي كل ما لا يدخل في معروف العقل ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر في خلق الله وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا، غير متفق مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون أن ليس لهم قلوب يعقلون بها"^٢.

٤. رد بعض الأصول والتشريعات الإسلامية إلى أصول يهودية، ومسيحية، ووثنية أو غيرها من الأمم السابقة. مثال ذلك: ما أثاره أولي الأبصار أيضا في مقاله الشهير "Menyegarkan Kembali Pemahaman Islam" (إنعاش فهم الإسلام)، ومما قاله الرجل: "قبل كل شيء أنا أعتبر الدين الإسلامي ككائن حي، ذلك الدين الذي نمت وتماشى مع مقتضيات الحياة الإنسانية، ليس الإسلام شيئا منقوشا تم نحتته في القرن السابع الهجري، ثم عدّه "كتمثال جميل" لا يتطرق إليه أي تغيير أو تطور، ففي هذه الآونة أرى هناك اتجاهها قويا يحاول تجميد (تعاليم) الإسلام، ومن ثم لقد حان الوقت للمعارضة على هذه المحاولة"^٣.

ثم قدم أولي الأبصار شروطا أربعة من أجل تقدم الإسلام - حسب زعمه-، ومن تلك الشروط هو: "أولا: تقدم جوهر الإسلام لا صورته، ذلك الجوهر الذي يتماشى ومتطلبات الحياة الإنسانية. ثانيا: تجريد الإسلام من عناصر الثقافة العربية... ومن ثم فلا طاعة لأمثال: الحجاب، وقطع اليد للشارق (القصاص)، والرحم، وإعفاء اللحية، والجبّة لأنها من نتاج الثقافة العربية، وليست من الإسلام..."^٤.

وقد مال إلى نفس الاتجاه زميل أولي الأبصار وهو عبد المقسط حين رفض حد الرجم للزاني المحصن - كما سبق - زاعما ب: "أن الحد من شرائع من قبلنا، فالعلماء اختلفوا في قبول شرع من قبلنا، فمنهم من رفضوا شرع من قبلنا ليكون دليل الحكم في شريعتنا، ومن ثم رفضوا حد الرجم كما رفضوا التوبة بقتل النفس كما فعل اليهود"^٥.

^١ وفي ذلك قال أولي الأبصار: وقد أعجبني حسين محمد بكتابه "حياة محمد" لاعتماده على منهج تدريجي وتطوري ومعقول في كتابة السيرة. وهو - على سبيل المثال - دعا إلى إعادة النظر حول قصة شق صدر النبي بطريقة معقولة غير ما سلكها ابن إسحق ثم ابن هشام اللذان رأيا النبي رؤية مدحية محتفيا جوانب إنسانية النبي. انظر:

Ulil Absar Abdalla, "Wahyu Progresif" in *Wajah Liberal Islam di Indonesia*, (الوجه الليبرالي للإسلام في إندونيسيا)، p. 75

^٢ محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ١٢٨-١٢٩.

^٣ Ulil Abshar Abdalla, "Menyegarkan Kembali Pemahaman Islam" (إنعاش فهم الإسلام) in daily newspaper *Kompas*, 18 September 2002.

^٤ المرجع نفسه.

^٥ المرجع نفسه.

٤. المنهج التاريخي التطوري

تعود جذور هذا المنهج إلى فلسفة التاريخ أو التاريخية - كما سماه البعض، تلك الفلسفة القائلة بأن الأمور الحاضرة ناشئة عن التطور التاريخي. أو المذهب القائل بأن اللغة والحق والأخلاق ناشئة عن إبداع جماعي، لا شعوري ولا إرادي، وأن هذه الأمور قد بلغت الآن نهايتها. وإنك لا تستطيع أن تبدل نتائجها بالقصد، ولا أن تفهمها على حقيقتها إلا بدراسة تاريخها^١. هذه التاريخية التي قال بها فلاسفة التنوير الغربي خلال حركة الإصلاح الديني، دعا المتغربون من أبناء المسلمين - بمن فيهم الإندونيسيون - إلى تطبيقها على السنة النبوية، فهم يريدون أن تبقى السنة حبيسة لما سموه الظروف الموضوعية التاريخية، ولا يتعداها إلى ظروف جديدة.

فالسنة في نظر هؤلاء تختلف عن الحديث بالرغم من أن بينهما - أي السنة والحديث - معنى مشتركاً، يقول نور خالص مجيد (Nurcholis Madjid) (١٩٣٩-٢٠٠٥م): "إن فهم النبي للوحي - والذي تمثل في تصرفاته - هو الذي يكون "عادة" أو سنة نبوية، أما الحديث فهو الخبر الشفوي المروي عما سببه النبي^٢ أو ما فعله أو ما فعله غيره وسكت عنه النبي دليل موافقته، ذلك هو التعريف الأصلي للحديث، والذي أصبح أوسع وأشمل مما قبله في هذه الآونة، على الرغم من ذلك لا يشمل الحديث شمولية السنة نفسها"^٣.

وبعبارة أوضح، أكد فضل الرحمن الباكستاني (١٩١٩-١٩٨٨) - أستاذ نور خالص مجيد - هذا الفرق بين الحديث والسنة قائلاً: "إن الحديث هو الخبر الشفوي المروي ثم المدون فيما بعد، في حين أن السنة في الاستعمال الشائع عند جمهور المسلمين الأوائل ترتبط بفعل النبي، سواء تكرر هذا الفعل، أو فعل مرة واحدة مدة حياته، حيث توارث هذا الفعل الجليل الذي بعده، فتتصف السنة بذلك بالحيوية، إلا أن هذه السنة الحية أصبحت ميتة بتدوين الأحاديث النبوية والذي بدأ في القرن الثاني، فأصبح مفهوم السنة هو تلك الأحاديث المدونة في الكتب الحديثية والتي هي السنة الميتة^٤. وبعد أن نبّه نور خالص مجيد أن ثمة فرقاً بين السنة والحديث، دعا كل من يخوض في استنباط الأحكام الشرعية - سواء كانت من القرآن أم السنة - إلى أن يضع نصب عينيه القاعدة الأصولية القائلة بأن "الأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان"، ومن أجل تفعيل هذه القاعدة لا بد من إدراك المقصد من التشريع حتى يتماشى الحكم المستنبط مع روح العصر^٥. وإذا ربطنا

^١ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج ١، ص ٢٢٩؛ يوسف كرم وآخرون، المعجم الفلسفي، ص ٣٣.

^٢ هكذا تعبير الرجل، فلعله أراد بذلك - أي ما سببه النبي - هو ما صدر من النبي من قول، إذ سياق كلامه يدل على ذلك. فتعريف الحديث عنده إذن نفس تعريف العلماء - كما سيأتي - وهو ما صدر من النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

^٣ Nurcholis Madjid, "Pergeseran Pengertian 'Sunnah' ke 'Hadits': Implikasinya dalam Pengembangan Syari'ah" (تطور مفهوم السنة - تفعيل الأحكام الشرعية في الواقع المعاش عبر) in *Kontekstualisasi Doktrin Islam dalam Sejarah* (السنة إلى الحديث وما ترتب عليه من تطوير [أحكام] الشرعية (التاريخ), Edited by: Budhy Munawar Rachman, p. 208.

^٤ Fazlur Rahman, *Islam*, translated into Indonesia by Ahsin Muhammad, p.65; and his *Islamic Methodology in History* (Indonesian version) translated by Anas Mahyuddin p.19, 58.

^٥ Nurcholis Madjid, "Pergeseran Pengertian 'Sunnah' ke 'Hadits': Implikasinya dalam Pengembangan Syari'ah" (تطور مفهوم السنة إلى) in *Kontekstualisasi Doktrin Islam Dalam Sejarah*, p. 113. (الحديث وما ترتب عليه من تطوير [أحكام] الشرعية)

دعوة نور خالص هذه بما قبله من موت السنة، نجد كأن نور خالص مجيد أراد أن يقول: من أجل إحياء السنة الميتة حتى تتطور مع مواكبة الحياة المعاصرة لا بد من استحضر روحها، وهي مقصد التشريع انطلاقاً من القاعدة القائلة بأن الأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان.

فالسؤال المطروح بعد ذلك: أي نوع من الأحكام الشرعية قابلة للتغيير، هل جميع الأحكام الشرعية ثوابتها ومتغيراتها؟ إن كان المراد بذلك فنحن لا نوافق؛ إذ الأحكام الشرعية منها ما هو ثابت عام دائم، لا مجال فيه للتغيير والاختلاف مهما دار الفلك وتغيرت الظروف والأحوال، ومنها ما هو قابل للتغيير حسب اقتضاء المصلحة.

لكن المتتبع لبعض أقوال نور خالص في بعض القضايا الدينية، يجد أن الرجل أراد بالأحكام القابلة للتغيير - كما سبق - جميع الأحكام الشرعية ثوابتها ومتغيراتها، مثل رأيه هو وزملائه - في موضع آخر - بجواز نكاح المسلمة بغير المسلم سواء كان من اليهود أو النصرى أو غيرها، محتجين بأن هذه المسألة قابلة للاجتهاد، وأن الظروف التي جعلت حرمة ذلك النكاح قد زالت في العصر الراهن، فأصبح حلالاً بعد أن كان حراماً.

هكذا، ففكرة تاريخية السنة التي قال بها نور خالص مجيد في حقيقة الأمر تقتضي تطور الإسلام نفسه، بمعنى أن الإسلام الذي طبقه النبي ﷺ - تبعاً لهذه الفكرة - هو تطبيق إنسان عاش في مرحلة تاريخية وموقع جغرافي، لهما خصوصيتهم الثقافية والبيئية والاقتصادية، حيث يقبل هذا التطبيق للتغيير والتبديل تبعاً لتغير الظروف الموضوعية التاريخية. من هنا، صدر ما اصطلح عليه بالإسلام التطوري (Islam Progressive)، الذي قال به ليبرالي آخر وهو أولي الأبصار عبد الله (Ulil Abshar Abdalla)، ومن ثم جاء تعريفه للسنة النبوية مصبوغة بصبغة تاريخية، يقول الرجل: "إن النبي في اجتهاده محكوم بالظروف الاجتماعية والسياسية التي أحاطته، فالإسلام الذي طبقه النبي في عصره لا يعني أكثر من احتمال أولي لتفاعل الإسلام مع التطور التاريخي الذي يستمر ويختلف من عصر إلى عصر، فالإسلام لا بد أن يتماشى مع العصر الذي يعيش فيه".¹

ومن هذا المنطلق اكتسبت السنة قيمتها التاريخية، وظهر دور الرسول "كالأسوة الحسنة أي القدوة العملية التي يحتذي بها العرب عملياً في حالة الغياب النظري لوعي المنهج"²، ويعد الالتزام بالسنة بمفهومها المتعارف عليه بين علماء المسلمين قديماً وحديثاً تشويهاً للتاريخ والتطور، وقفزاً على بعدي الزمان والمكان، وضرباً من الخيال الذي يعيش في فراغ لا علاقة له بالواقع والحياة.

¹ Ulil Absar Abdalla, "Menyegarkan Kembali Pemahaman Islam" (إنعاش فهم الإسلام) in daily newspaper Kompas, 18 September 2002.

² حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، ج ٢، ص ٤٨٧، ٤٨٨.

٥. تعطيل النصوص باسم المصالح والمقاصد

تَجَرَّأَ بعض رواد الاتجاه الليبرالي على نصوص الشرع التي جاء بها الوحي المعصوم في القرآن الكريم، والسنة النبوية، فردوها بلا مبالاة، وجمدوها بلا أثارة من علم أو هدى، إلا اتباعاً لهوى أنفسهم، أو أهواء الآخرين، ممن يريدون أن يفتنواهم عن بعض ما أنزل الله إليهم من الحق باسم رعاية مصالح العباد حيناً، أو مقاصد الشريعة حيناً آخر^١.

أراد هؤلاء الرواد -تحت ستار المقاصد- إلغاء الفقه الإسلامي كله، وإلغاء أصول الفقه كله، والاكتفاء بالمقاصد، كما يفسرونها هم تفسيرهم الفضفاض؛ لأعطاء المشروعية الإسلامية لكل ما تريده تيارات التغريب الليبرالي أو التغريب الماركسي، أو تيارات الحداثة وما بعد الحداثة. فكلها يمكن أن تبرر -شرعاً وإسلامياً- باسم مقاصد الشريعة، معنى هذا: أن نخدم أحكام الشرع باسم الشرع نفسه^٢.

يمكن -تحت غطاء هذه الفلسفة- أن نغير أحكام الأسرة خاصة الأحكام المصبوغة بصبغة التحيز للذكور (gender bias) على رأيهم، كما يقول أحدهم: "إن كثيراً من الأحكام الفقهية التي تتعلق بالأحوال الشخصية مصبوغة بصبغة التحيز إلى الذكور؛ وفي فقه المناكحات -مثلاً- استحق الزوج الحقوق أكثر بالنسبة للزوجة، وكذلك الأمر في فقه الموارث الذي قرر بأن للذكر مثل حظ الأنثيين، وأيضاً في فقه السياسة الذي حدد بل سد مشاركة المرأة في السياسة"^٣.

ومن ثم رد هؤلاء بكل العجلة بعض الأحاديث التي تحط شأن المرأة -حسب زعمهم-، أو تأويلها تأويلاً يتمشى والأغراض التي تصبو إليها هواهم، مثل ما فعلته الباحثة عناية رحمنية -أحدى رواد الحركة النسوية- حديث النبي ﷺ: «لو كنت امرأة لأحد أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق»^٤ لقد خرجت الباحثة الحديث بأنه ورد في سنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجه، ومسند أحمد، كما أنها صورت شجرة السند للحديث، فبينت الصحابة الذين رووه، وهم: معاذ بن جبل، وأبو هريرة، وعائشة، وقيس بن سعد رضي الله عنهم^٥.

لكن الغريب في منهج الباحثة، أنها خرجت ودرست سند أبي داود فقط دون غيره من الإسناد أو الطرق^٦، ثم حكمت على الحديث -بعد دراسة سنده- بأنه ضعيف، إذ فيه حصين بن عبد الرحمن وشريك بن عبد الله اللذان قال عنهما العلماء بأتهما سيء الحفظ^٧.

^١ انظر: القرضاوي، دراسة في فقه مقاصد الشريعة بين المقاصد الكلية والنصوص الجزئية، ص ٨٥.

^٢ المرجع نفسه، ص ٨٦.

^٣ Nasaruddin Umar, *Argumen Kesetaraan Gender Perspektif Al-Qur'an* (المساواة بين الجنسين من منظور القرآن)، Jakarta: Paramadina, 2001), p.95-119.

^٤ رواه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في حق الزوج على المرأة، ج ٢، ص ٢٠٩.

^٥ Inayah Rohmaniyah, "Penghambaan Istri Pada Suami" (تعبيد الزوجة للزوج) in *Perempuan Tertindas?* (هل المرأة مقهورة؟)، p.111

والحقيقة أن الحديث صحيح كما حكم عليه الألباني بعد أن خرجه من عدة الطرق^٣، لكن الباحثة أصرت بأن الحديث ضعيف سندا ومتنا، إذ فيه الطعن على مروءة المرأة، فالعلاقة بين الزوج والزوجة - كما تقول الباحثة - "لا بد أن تبنى على روح المعاشرة بالمعروف، ولا تكون بينهما هوة كالهوة بين السيد وعبيده أو بين المخدوم وخادمه، بل التحبب والتعاون والتناصر هي القنطرة الوحيدة لكي تتمتع المرأة بجنتها بنفسها"^٤.

ومثال آخر يأتي من كتاب "Fiqh Lintas Agama" (الفقه عبر الأديان) عند ما رفضوا حديث: «لا تبدووا اليهود ولا النصراني بالسلام»^٥ لأنه لا تتفق - في نظرهم - مع مبادئ الإسلام كدين متسامح^٦. والغريب في منهجهم أنهم رفضوا هذا الحديث بالطعن في الصحابي الجليل راوي الحديث وهو أبو هريرة حيث نقلوا في هذا الطعن ما كتبه فاطمة مرنيسي^٧ كما أشاروا إليه في هامش الكتاب.

٦. الاعتماد على المصادر أو المراجع غير الأصلية

من العيوب المنهجية التي سلكها رواد الاتجاه الليبرالي في التعامل مع السنة خاصة والدراسات الإسلامية عامة، اعتمادهم على المصادر أو المراجع غير الأصلية وغير الموثوقة سواء كانت ما كتبه المستشرقون أو الحدائثيون عربا كانوا أو عجماء. ومن تلك المصادر أو المراجع:

- "فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام" لأحمد أمين، و"Islamic Methodology in History" للمفكر الباكستاني، والتي اعتمد عليها الدكتور محب النور في نقد البخاري عبر رسالته الدكتوراه بعنوان "Kritik Kesahihan Hadis Imam Bukhari" (نقد صحيح البخاري).
- "Women and Islam" (المرأة والإسلام)، و "The Veil and the Male Elite"، و "The Forgotten Queen of Islam" كلها لفاطمة مرنيسي، و"Qur'an and Women" القرآن والمرأة، لأمينة الودود، و "The Right of Woman in Islam" (حقوق المرأة في الإسلام) لأصغار علي أنجينير وغيرها من الكتب التي اعتمد عليها مؤلفو كتاب

^١ عللت الباحثة بأن رواية ابن ماجه لهذا الحديث قد قامت بدراسة سنده احدى الباحثات، فبينت أنه ضعيف، إذ فيه علي بن زيد وهو ضعيف. أما رواية أحمد، ففي إسناده أيضا علي بن زيد. لكن يجاب على هذا التعليل، بأن أحمد روى هذا الحديث من طريق آخر كما تبين ذلك في شجرة الإسناد التي صورتها الباحثة، وهو عن إسماعيل، عن أيوب، عن القاسم الشيبان، عن معاذ بن جبل، فلم لم تلتفت إليه الباحثة، كما لم تلتفت إلى طريق الترمذي؟

^٢ Inayah Rohmaniyah, "Penghambaan Istri Pada Suami" (تعبد الزوجة للزوج) in *Perempuan Tertindas?* (هل المرأة مقهورة؟)، p.111.

^٣ انظر: محمد ناصر الدين الألباني، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ج٧، ص٥٤-٥٨.

^٤ Inayah Rohmaniyah, "Penghambaan Istri Pada Suami" (تعبد الزوجة للزوج) in *Perempuan Tertindas?* (هل المرأة مقهورة؟)، p.118.

^٥ رواه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، ج٤، ص١٠٧.

^٦ See: Nurcholish Madjid and others, *Fiqh Lintas Agama* (الفقه عبر الأديان)، p.68-71.

^٧ د. فاطمة مرنيسي، مغربية الجنسية، من مواليد ١٩٤٠م، كاتبة روائية وعالمة اجتماع (سوسيولوجية) ونسوية علمانية الاتجاه. تحتم كتاباتها بالإسلام والمرأة وتحليل تطور الفكر الإسلامي والتطورات الحديثة. بالموازاة مع علمها في الكتابة تفرد كفاحا في إطار المجتمع المدني من أجل المساواة وحقوق النساء، حيث أسست القوافل المدنية وتجمع "نساء، عائلات، أطفال". حصلت على الدكتوراه في أمربطا سنة ١٩٨٣م. انظر: www.wikipedia.org

"Perempuan Tertindas?" (هل المرأة مقهورة؟)¹، كما اعتمد مؤلفو كتاب "Fiqh Lintas Agama" (الفقه عبر الأديان) على كتاب "Women and Islam" (المرأة والإسلام) لفاطمة مرنيسي حين انتقدوا على أبي هريرة²، كما اعتمدوا على باقي كتب الحديثين³ في تحطيم الأحكام الشرعية.

- "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة" للدكتور محمد شحرور، والذي تأثر به أولي الأبصار في تحديد موقفه من السنة.
- "The Attitudes of the Imamis-Shi'I to the Companions of the Prophet" (موقف الشيعة الإمامية من الصحابة)، و"Some Imami Shi'I Views on the Shahabah" (آراء الشيعة الإمامية حول الصحابة)، و"Zaydi Views on the Companions of the Prophet" (آراء الشيعة الزيدية حول الصحابة)، كلها للمستشرق إيتان كحلبروك (Etan Kohlberg)، والتي أثر موقف الدكتور فؤاد جبالي -أحد المدرسين في الجامعة الإسلامية الحكومية بجاكرتا- من عدالة الصحابة في رسالته الدكتوراه⁴ حيث دعا إلى إعادة النظر حول القاعدة القائلة بأمر الصحابة كلهم عدول.

تلك هي نموذج لبعض المصادر والمراجع التي اعتمدها رواد الاتجاه الليبرالي في ترويج أفكارهم، فمن المعلوم لدي دارس العلوم الإسلامية أن معظم تلك الكتب -إن لم يكن جميعها- قد أثارت ضجة في ساحة الفكر الإسلامي، وتصدى بعض علماء المسلمين الذين يغرون على هذا الدين وسنة نبيه لمحاولات هؤلاء المستشرقين والمتغربين من أبناء المسلمين وفضحها وكشفها للناس على حقيقتها.

لكن المؤسف في منهج رواد الاتجاه الليبرالي، أنهم نقلوا ما في تلك الكتب من أفكار وآراء دون أدنى نقد، بل اعتبروها ضالته، فكثيرا ما تسعفهم في تأييد مزاعمهم، وتحقيق أهدافهم، بينما لا تسعفهم ولا تقنعهم الكتب أو المؤلفات الناقدة لها والكاشفة لزيغها، ولم يعودوا ليقوموا ل"القاعدة بأن العلم يؤخذ من أهله" وزنا، فكأهم قالوا: "هم رجال ونحن رجال". تلك أهم المرتكزات المنهجية لرواد الاتجاه الليبرالي في إندونيسيا في التعامل مع السنة حسب اطلاع الباحث واستقرائه، والتي لا تختلف كثيرا عن منهج المستشرقين أو الحديثيين -إن لم تكن نفسها- في دراسة الإسلام عامة أو السنة خاصة، ذلك المنهج البعيد عن الموضوعية والأمانة العلمية بكل معاني الكلمة.

¹ See: Hamim Ilyas, *Perempuan Tertindas?* (هل المرأة مقهورة؟), p.105, 114, 170, 202, 204, 285

² See: Nurcholis Madjid and others, *Fiqh Lintas Agama* (الفقه عبر الأديان), p. 70-71.

³ أمثال: نصر حامد أبو زيد، محمد أركون، حسن حنفي، عبيد الجابري، فريد إيساك، وميلاد حنا وغيرهم.

⁴ عنوان الرسالة هو "The Companions of the Prophet: A Study of Geographical Distribution and Political Alignments" (الصحابة: تفرقهم الجغرافي وانتماءاتهم السياسية)، تم تقديمها ومناقشتها وحصل بها صاحبها على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي بالمعهد للدراسات الإسلامية جامعة ماكجيل مونتريال كندا ٢٠٠٣. ثم ترجمت الرسالة إلى اللغة الإندونيسية فأصبح كتابا بعنوان: Sahabat Nabi: Siapa? Keman? Dan Bagaimana (الصحابة: من هم؟ إلى أين؟ وكيف؟) قامت بطباعتها طباعة ميزان (Mizan) عام ٢٠١٠م.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أن ما سبق تفصيله حول منهج الاتجاه الليبرالي يمثل أسسا رئيسية للتعامل مع السنة النبوية عامة، ولا يستلزم أن كل صاحب الاتجاه الليبرالي ينطلق من جميع تلك المناهج، فربما تحرر بعض رواد هذا الاتجاه منها أو من كثير منها، فالحكم هنا إذن للمجموع وليس للجميع.

الخاتمة

يمكن تلخيص نتائج البحث فيما يلي:

١. إن الليبرالية كمذهب في شتى مجالاتها -سياسية أو اقتصادية أو ثقافية- متشعبة المعنى ومتعددة الجوانب، وذلك لأنها لم تتبلور على يد مفكر واحد، بل أسهم عدة مفكرين في إعطاء شكلها وميزاتها، لكن الجميع اتفقوا على أن هذا المذهب يتركز على أهمية الفرد وضرورة تحرره من كل أنواع السيطرة والاستبداد.
٢. نشأ هذا المذهب في عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان ظهوره في أوله متجها نحو التحرر من الانضباط السياسي والاقتصادي السائد في العصور الوسطى بأوروبا، مما أدى إلى انتفاضة الشعوب، وثورة الجماهير، وبخاصة الطبقة الوسطى، منادين بالحرية والإخاء والمساواة، ثم تبلور بعد ذلك فأصبح إطارا غربيا في النظرة إلى الوجود وفلسفة العلم.
٣. لم تكن الليبرالية بشتى مجالاتها-السياسية والاقتصادية والثقافية- حبيسة أسوار أوروبا، بل تسللت إلى باقي دول العالم-بما في ذلك العالم الإسلامي-عبر ما تملكه الدول الغربية من قوة سياسية واقتصادية وعسكرية وإعلامية.
٤. ومما ساعد انتشار هذا المذهب إعجاب بعض أبناء المسلمين به -خاصة هؤلاء الذين تربوا على أيدي المستشرقين-على حد تصورهم أن نهضة الغرب وقوة حضارته المادية كانت بسبب اعتناقه هذا المذهب الفلسفي، ومن ثم ذهبوا إلى استيراد هذا المذهب وتطبيقه في الإسلام، وذلك من خلال نقد تراثه (النصوص الشرعية) ليلائم مع القيم الغربية.
٥. من خلال استقراءنا وتحليلنا لكتابات رواد الاتجاه الليبرالي في إندونيسيا حول السنة توصل البحث إلى عدد من مرتكزاتهم المنهجية البعيدة عن الموضوعية والتي تتمثل في: الانتقائية وفقا لأغراض مسبقة، والاعتماد على الأقوال الشاذة وإخفاء الجوانب الصحيحة وتجاهلها، والمنهج المادي التجريبي، والمنهج التاريخي التطوري، وتعطيل النصوص باسم المصالح والمقاصد، والاعتماد على المصادر أو المراجع غير الأصلية.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، (د.م: دار الدعوة، د.ت.).
٣. ابن صمايل السلمي، عبد الرحمن، الليبرالية وموقف الإسلام منها، رسالة الدكتوراه قدمها صاحبها في كلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى سنة ١٤٢٦هـ.
٤. ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجه (بيروت: دار الفكر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٥. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٤م).
٦. أبوداود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، (الرياض: بيت الأفكار الدولية، د.ط.).
٧. أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، (القاهرة: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
٨. الأعظمي، محمد مصطفى، دراسات في الحديث النبوي، (الرياض: شركة الطباعة العربية السعودية، ٣، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).
٩. الألباني، محمد ناصر الدين، إرواء الغليل، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
١٠. الأمين، الصادق، موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، (الرياض: مكتبة الرشد، ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
١١. البخاري، محمد بن إسماعيل بن المغيرة، صحيح البخاري، (المدينة المنورة: دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ).
١٢. بيانوني، فتح الدين، "مركزات المستشرقين في دراسة علم الحديث والسنة النبوية: دراسة استقرائية تحليلية"، مجلة التجديد المحكمة الصادرة من الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا.
١٣. جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١، ١٩٧١م).
١٤. حاج حمد، محمد أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية، (بيروت: دار ابن حزم، ٢، ١٩٩٦م).
١٥. الحنفي، عبد المنعم، الموسوعة الفلسفية، (بيروت: دار ابن زيدون، ١، د. ت).
١٦. رشيد رضا، محمد، تفسير المنار، (القاهرة: دار المنار، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م).
١٧. الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (د. م: دار الهداية).
١٨. السباعي، مصطفى حسيني، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، د.ت).
١٩. شحرور، محمد، الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، (دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢، ١٩٩٠م).
٢٠. صالح العلي، عبد المنعم، دفاع عن أبي هريرة، (بيروت: دار الشروق، ١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).
٢١. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥م).
٢٢. القرضاوي، يوسف، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، (القاهرة: مكتبة وهبة، ٦، ٢٠٠٦م).
٢٣. القرضاوي، دراسة في فقه مقاصد الشريعة بين المقاصد الكلية والنصوص الجزئية، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥م).
٢٤. الكردي، عبد الحميد، نظرية المعرفة بين الفلسفة والقرآن، (الرياض: مكتبة المؤيد، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
٢٥. لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، (بيروت: منشورات عويدات، ٢، ٢٠٠١).
٢٦. مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، (القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٧٩م).
٢٧. محمد حسين هيكل، حياة محمد، (القاهرة: دار المعارف، د.ت).
٢٨. مسرحي، فارح، الحداثة في فكر محمد أركون، (القاهرة: الدار العربية للعلوم - ناشرون، ١، ٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ).
٢٩. مسلم، أبو الحسين الحجاج، صحيح مسلم، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٢م).
٣٠. مكّي الشامي، السنة النبوية ومطاعن المبتدعة فيها، (عمان: دار عمار للنشر والتوزيع، ١، ١٩٩٩م).
٣١. يوسف كرم وآخرون، المعجم الفلسفي، (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٦م).
٣٢. يوسف، جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، (بيروت: دار النهضة العربية، ٢، ١٩٨٧م).

باللغة الأجنبية

1. Abdalla, Ulil Absar, “Wahyu Progresif” in *Wajah Liberal Islam di Indonesia*, (الوجه الليبرالي للإسلام في إندونيسيا) (Jakarta: Jaringan Islam Liberal, 2002).
2. Abdalla, Ulil Abshar, “Menyegarkan Kembali Pemahaman Islam” (إنعاش فهم الإسلام) in daily newspaper *Kompas*, 18 September 2002.
3. Borchert, Donald M and others (editor), *Encyclopedia of Philosophy*, (USA: Tomson Gale, 2006).
4. Ghazali, Abdul Moqsih, *Argumen Pluralisme Agama: Membangun Toleransi Berbasis Al-Qur’an* (حجج التعددية الدينية: بناء التسامح على أساس القرآن) (Jakarta: KataKita, 2009).
5. Gwinn, Robert P. and others, *The New Encyclopedia Britanica* (Chicago: The University of Chicago, 10th Edition, 1902–1903).
6. Hourani, Albert, *Pemikiran Liberal di Dunia Arab* (Arabic Thought in the Liberal Age 1798–1939), translated into Indonesia by: Suparno and others, (Bandung: Mizan, 2004).
7. Jabali, Fuad, *Sahabat Nabi: Siapa? Kemana? Dan Bagaimana?*, (الصحابة: من هم؟ إلى أين؟ وكيف) (Bandung: Mizan, 2010).
8. Madjid, Nurcholis and others, *Fiqh Lintas Agama* (الفقه عبر الأديان) (Jakarta: Paramadina, 2004).
9. Madjid, Nurcholis, “Pergeseran Pengertian ‘Sunnah’ ke ‘Hadits’: Implikasinya dalam Pengembangan Syari’ah” (تطور مفهوم السنة إلى الحديث وما ترتب عليه من تطوير [أحكام] الشريعة) in *Kontekstualisasi Doktrin Islam dalam Sejarah* (تفعيل الأحكام الشرعية في الواقع المعاش عبر التاريخ), Edited by: Budhy Munawar Rachman (Jakarta: Yayasan Paramadina, 2006).
10. Marthaler, Berard L and others, *New Catholic Encyclopedia*, (USA: Tomson Gale, 2nd Edition, 2003).
11. Muhammad, Husein, *Fiqh Perempuan* (فقه المرأة) (Yogyakarta: LKiS, 2001).
12. Noor, Muhibbin, *Kritik Kesahihan Hadis Imam Bukhari: Telaah Kritis atas Kitab al-Jami’ al-Shahih* (نقد صحيح البخاري) (Yogyakarta: Penerbit Waqtu, 2003).
13. Rahman, Fazlur, *Islamic Methodology in History* (Indonesian version) translated by Anas Mahyuddin (Bandung: Pustaka, 1995).
14. Rahman, Fazlur, *Islamic Methodology in History*, (Karachi: Central Institute of Islamic Research, 1965).
15. Smith, Sir William and Lockwood, Sir John, *Chambers Murray Latin-English Dictionary*, (London: University Press Cambridge, 2000).
16. Umar, Nasaruddin, *Argumen Kesetaraan Gender Perspektif Al-Qur’an* (المساواة بين الجنسين من منظور القرآن) (Jakarta: Paramadina, 2001).

النظرة القرآنية للاختلاف الديني

الأسس القرآنية في التعامل مع المخالف الديني في المجال الدعوي والأخلاقي والاجتماعي

يوسف عطية حسن كليبي*

ملخص البحث:

تناولت هذه الدراسة بيان النظرة القرآنية في التعامل مع المخالف بالمعتقد من غير المسلمين، وتحدثت عن السنة الإلهية في الاختلاف، وأن التنوع الديني جزءاً من هذه السنة الإلهية، كما تناولت الدراسة الأسس القرآنية في التعامل مع غير المسلمين في الجانب الدعوي والأخلاقي والاجتماعي. تتبع مشكلة الدراسة من وجود فكر بين بعض الجماعات الإسلامية المتشددة يعامل غير المسلمين على خلاف التوجيه القرآني، فناقضت في تعاملها مع غير المسلمين هذه التوجيهات، فأكرهت وقتلت وهجرت من هم غير المسلمين لاعتقادها أن عملها هذا هو من لب الدين، فأردت من هذه الدراسة تسليط الضوء على التوجيهات القرآنية في التعامل مع غير المسلمين، وبيان أن هذه الأعمال مناقضة للتوجيه القرآني في التعامل مع غير المسلمين. وتهدف الدراسة لبيان النظرة القرآنية الصحيحة في التعامل مع غير المسلمين، وإزالة الشوائب عن النظرة القرآنية في التعامل مع غير المسلمين، ودحض الافتراءات الموجهة للقرآن الكريم في تعامله مع غير المسلمين، وبيان الوجه الحقيقي المبني على السماحة والوسطية في تعامل القرآن مع المخالف الديني. واتبعت في دراستي المنهج الاستقرائي لجمع الآيات القرآنية التي تحوي توجيه قرآني في التعامل مع غير المسلمين، كما اتبعت المنهج التفسيري التحليلي لتفسير وتحليل هذه الشواهد القرآنية.

المقدمة:

القرآن الكريم هو كلام الله الخالد ومعجزة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، القرآن الكريم هو المنهج الرباني الذي فيه صلاحنا وإصلاحنا، فالقرآن الكريم ليس مجرد كلام نتعبد الله تعالى بتلاوته، إنما هو كلام فيه سر الحياة، وهو الطريق نحو اكتشاف نواميس الكون، وفيه القواعد المنظمة لعلاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان بما يحيط به من مخلوقات، كما أن فيه توجيهات ربانية منظمة لعلاقة الإنسان بالإنسان، إضافة لما حوته السنة المطهرة من توجيهات نبوية تبين أسس وقواعد التعامل مع غير المسلمين، وعند الوقوف على المنظومة العامة للتعامل مع غير المسلمين يجب إعمال المصدرين التشريعيين في فهم هذه القواعد، لكنني هنا أحاول الوقوف على النظرة القرآنية للمخالف الديني تماشياً مع عنوان الدراسة.

إن الاختلاف سنة من سنن الله تعالى، ومن فروع هذه السنة هو الاختلاف الديني المعتدي، والقرآن الكريم لم يغفل هذا المكون الإنساني فوضع لنا عدداً من الأسس والقواعد القرآنية المنظمة لتعاملنا مع هذا المخالف الديني، وهذه القواعد هي

* طالب دكتوراة في الشريعة الإسلامية في الجامعة الوطنية الماليزية.

من أرقى وأرفع القواعد المنظمة للتعامل البشري كونها من عند عليم خبير يعلم غرائزنا وميولنا، فمؤكد أنها تحوي الصلاح والإصلاح والخير للبشرية جمعاء، ومهما اجتهد الإنسان في وضع قواعد تنظم علاقته بغيره فإنه لن يصل إلى ما أقره القرآن الكريم من هذه القواعد، فالعقل البشري مهما وصل من العلم والتقدم إلا أنه يبقى قاصراً عن إدراك أسرار الأشياء وكينونتها، من أجل ذلك أرشدنا القرآن الكريم لبعض هذه القواعد وأمرنا بالسير عليها ليتحقق مقصود الشارع الحكيم.

لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى جملة من القواعد المنظمة لتعاملنا مع المخالف في المعتقد الديني في شتى المجالات، ومن هذه المجالات المجال الدعوي، والمجال الأخلاقي، والمجال الاجتماعي.

إن المجال الدعوي وما يرافقه من أسلوب دعوي أمر أرسى قواعده القرآن الكريم، ولم يترك الأمر دون ضابط يحكم هذا المجال، فخط لنا القرآن الكريم قواعد دعوية وجب استحضارها عند دعوة المخالف الديني، وبالتأكيد فإن التزام هذه القواعد سترافقه آثار طيبة على الإسلام والمجتمع بأسره.

كما أن القرآن الكريم خط لنا ضوابط أخلاقية مع المخالف الديني، وحث على أعمال المنظومة الأخلاقية مع جميع البشر بغض النظر عن جنسهم أو لونهم أو معتقدهم الديني، وكان لهذا الأمر الرباني آثار طيبة على الإسلام والمجتمع بأسره. وأخيراً فإن القرآن الكريم قد اهتم بالبعد الاجتماعي مع المخالف الديني، ووضع لنا قواعد وضوابط تضبط العلاقات الاجتماعية مع هذا المخالف، وكل هذه القواعد الاجتماعية تحقق في المحصلة استقرار المجتمع بجميع مكوناته، وتحقق النظرة الإنسانية في التعامل البشري التي دعا إليها الإسلام وكفلها.

تحاول هذه الدراسة الوقوف على نظرة القرآن الكريم للمخالف الديني، من خلال بيان النظرة القرآنية لسنة الاختلاف وعلاقتها بالاختلاف الديني، كما أنها تقف على بعض القواعد القرآنية التي تضبط التعامل مع المخالف الديني في المجال الدعوي والأخلاقي والاجتماعي، مع الإقرار أن هناك مجالات عدة يمكن الوقوف عليها واستخراج القواعد القرآنية الضابطة للتعامل مع المخالف الديني.

القرآن الكريم وإقراره سنة الاختلاف:

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن جعل كل ما في هذا الكون مبنياً على الاختلاف سواء أكان بشراً أم جماداً أم حيواناً، وجعل سبحانه الاختلاف سنة كونية من سننه لحكمة عظيمة جليلة، فلو نظر الواحد منا إلى الحيوانات لوجدناها مختلفة في أشكالها وألوانها ومأكلاتها، وكذلك في الجمادات حتى أنه ليجد في الذرة اختلاف متحصل في النيوترونات والإلكترونات، وأما بالنسبة للإنسان فتظهر هذه السنة من خلال اللون والشكل واللغة والمعتقد والثقافة، وهذا الاختلاف عامل بناء للأمم وظاهرة صحية في المجتمع، إن أحسن التعامل معه.

إن الواحدية لا تكون إلا لله تعالى، وإن الاختلاف سنة كونية أودعها الله تعالى في جميع مخلوقاته، وهي فطرة فطر الله الناس عليها، فالله تعالى هو الواحد الذي لا ثاني له وما سواه سبحانه فمن طبيعته التنوع والاختلاف، وقد أثبت العلم أنه ليس في الموجودات فرد أو عنصر لا يتجزأ، فكان الاختلاف موجوداً في كل شيء^١.

لقد أوجد الله الاختلاف وجعله سنة كونية في كل شيء، ولو شاء الله تعالى لجعل البشر متفقين، لكنه جل شأنه لحكمة عظيمة أوجد هذا الاختلاف، يقول جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وقد فسر بعض أهل التفسير الاختلاف المقصود بالآية الكريمة أن الله تعالى خلق الناس مختلفين في الأديان بين مسلمين ويهود ونصارى ومجوس، وأن الناجين هم أهل الحق والإيمان من المسلمين، وقال بعضهم: وللاختلاف خلقهم^٢.

لقد عد الله تعالى اختلاف البشر من حيث اللون واللسان آية على عظيم صنعه جل شأنه، ومدعاة للتأمل والتفكير، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّغَاتِ لَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، واختلاف الألسنة يتبعه اختلاف التفكير والمنطق كون اللسان هو المفصح عما يجول في الخاطر، وأداة التعبير عما يفكر فيه الإنسان، فاختلاف اللسان من حيث اللغة يصاحبه اختلاف المنطق والتفكير البشري، واعتبره سبحانه وتعالى آية على عظيم خلقه.

وأخبر الله تعالى بالاختلاف الحاصل في الأجناس والأعراق، وجعل ذلك سبباً للتعارف والتألف لا للتناحر والتباغض، وأكد على مساواتهم أمام الله تعالى وأن ميزان الخيرية عنده جل شأنه هو التقوى، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأقر الله تعالى وجود الاختلاف الفكري والمعتقدي بين البشر، وأن هذا الاختلاف حاصل بأمر الله تعالى، وأنه لو شاء تعالى لجعل الناس جميعاً على فكر ومعتقد واحد، لكنه تعالى جعل الاختلاف من أجل الابتلاء والاختبار، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، وجاء في تفسير القرطبي في معرض تفسيره لهذه الآية: "أي لجعل شريعتكم واحدة فكنتم على الحق؛ فبين أنه أراد بالاختلاف إيمان قوم وكفر قوم، ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾، في الكلام حذف تتعلق به لام كي؛ أي ولكن جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم، والابتلاء الاختبار"^٣.

^١ البناء، جمال، التعددية في مجتمع إسلامي، ص ٦؛ والمغشي، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي والوضعي، ص ٢٥٣؛ المصري، النظام الحزبي في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية، ص ٤٦.

^٢ ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٢٠٩٣؛ والطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٢، ص ٦٣٢؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٣٦٢.

^٣ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٦، ص ٢١١.

إن اختلاف الناس في معتقدتهم الديني أمر تابع لهذه السنة الإلهية ومحقق لسر من أسرارها، فوجودنا على هذه الأرض هو محض ابتلاء واختبار، يقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ويبين القرطبي من خلال هذه الآية أن وجودنا على هذه الأرض هو للاختبار والابتلاء، وأن الله تعالى هو المتكفل بحساب الناس يوم القيامة، حيث قال: "أي لا تهم يا محمد للدنيا وأهلها، فإنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها؛ فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم؛ فلا يعظم عليك كفرهم فإنما نجازيهم".^١

إن الله تعالى خلقنا على هذه البسيطة للاختبار، والاختبار هذا يتطلب شرطاً ضرورياً يتمثل بجرية الاختيار في الحياة الدنيا، وهذا متفق مع نظرة الإسلام إلى دار الحياة الدنيا في كونها دار اختيار لا دار إجبار، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، فهذه الآية تقرر قاعدة عظيمة في كون الاختلاف الديني أمر حتمي وهو سنة إلهية، ولا ينبغي لنا إكراه الناس على تغيير معتقدتهم الديني وإجبارهم على ذلك، إنما علينا التبليغ والدعوة بالتي هي أحسن ومن شاء فليؤمن وشاء فليكفر، وفي حال تدخل المسلمون في إجبار الناس حتى يكونوا مسلمين، فهذا مخالف لسنة الله تعالى في وجودنا على هذه الأرض، والمتمثلة بالاختبار والمتحصلة بالاختيار.

إن المجتمع الإسلامي قائم على العقيدة الربانية ولكنه ليس بمعزل عن الاختلاف الحاصل في المعتقد الديني، وليس من الصحيح حظر الآخر والمخالف في المعتقد، بل يجب استيعابه داخل المجتمع الإسلامي وتنظيم أسس التعامل معه. إن هذا الاختلاف والتنوع إنما هو ظاهرة صحية مجتمعية، ووظيفتنا كمسلمين تبليغ الدعوة وتفهم الناس قواعد ديننا الحكيم وإقامة الحجة عليهم، فمن شاء بعدها الإسلام فله ذلك ومن آثر البقاء على معتقده فله ذلك ويتحمل بعدها نتائج قراره، وأمره إلى الله تعالى، فهو الذي يحاسب الناس على معتقدتهم وليس البشر، فالمسلمون دعاة لا قضاة، ولا يمنع ذلك التعايش معهم بسلم وأمان، يقول جمال البنا: "من هذا نفهم إن ما تطرق إلى بعض الأذهان من وجود مجتمع إسلامي أحادي الطبيعة لأنه يدين بالتوحيد، إنما هو لبس وهم بل مفارقة؛ لأن الإيمان بتوحيد الله يستتبع التعددية فيما سواه، وإن هذه التعددية تصبح أمراً لازماً بحكم الواحدية الإلهية... وفي الوقت نفسه فإن الله تعالى هو الذي أراد هذه التعددية، ووضع لها آلياتها حتى لا يتطرق الخلل إلى هذه التعددية، وبهذا نجد التوحيد الخالص بالنسبة لله تعالى، والتعددية بالنسبة للمجتمع".^٢

إن الاختلاف ظاهرة صحية سليمة لأي مجتمع حتى في الاختلاف الديني، ولكن هذا الاختلاف قد نحسن تطويعه ليكون عنصر بناء وارتقاء في المجتمع، وذلك إذا ما تعاملنا مع المخالف وفق ضوابط الشرع المتمثلة بقبوله ابتداءً ودعوته بالتي هي أحسن، ومعاملته وفق النظرة الإنسانية والإسلامية الحسنة المبنية على البر والقسط، والوقوف على الأرضية المشتركة فيما بيننا، والتي أهمها الشراكة في الإنسانية واحترامها، عند ذلك يكون الاختلاف عامل بناء وتكامل، في المقابل قد يكون الاختلاف الديني شراً ووبالاً على المجتمع بأسره وذلك جراء ما اقترفت أيدينا وعقولنا، فمتى وجد الفكر الإقصائي الضيق

^١ المرجع السابق، ج ١٠، ص ٣٥٤.

^٢ البنا، التعددية في مجتمع إسلامي، ص ٩.

الناظر للأمور بجدية تامة ولا يقبل إلا نفسه ومن على هواه، فهنا تتولد لدى المجتمع بأسره الضغينة وإضرار الشر والسوء، وقد تتحول إلى تطبيق عملي يهلك كل من يحيط به، والأدهى من ذلك ممارسة هذا الفكر عملياً باسم الدين، واستشعار معية الله في تنفيذ فكره التطرفي.

غير المسلمين والدعوة للإسلام من نظرة قرآنية:

لقد جاء الإسلام مخاطباً البشرية جمعاء للدخول فيه، فهو عام للناس كافة وليس لعرق أو جنس معين، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وهذه الخصيصة تتطلب الدعوة إلى هذا الدين لإقامة الحججة على كل من بلغته هذه الدعوة، بحيث لا يكون له عذر أمام الله تعالى، وقد أوجد الله تعالى أسس عامة تنظم هذه الدعوة بحيث تحقق مقاصدها وتنظم سيرها.

١- الأسلوب الدعوي:

إن أول الأسس القرآنية في دعوة غير المسلمين تتمثل في أسلوب الدعوة إلى هذا الدين، فقد بين الله تعالى أساليب الدعوة إلى الإسلام، فقال سبحانه وتعالى في آية جامعة مانعة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، لقد حصرت هذه الآية العظيمة أساليب الدعوة إلى الله بطرق ثلاث، الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة والتي هي أحسن^١، ويبين الصابوني هذه الأساليب وفق الفهم القرآني، فيقول: "أي ادع يا محمد الناس إلى دين الله وشريعته القدسية بالأسلوب الحكيم، واللفظ واللين، بما يؤثر فيهم وينجع، لا بالزجر والتأنيب والقسوة والشدة، ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن، ومن طرق المناظرة والمجادلة بالحجج والبراهين، والرفق واللين"^٢. لقد سبق الإسلام في إقراره هذا الأسلوب الدعوي كل الأفكار والمذاهب الوضعية، فخط أساليب الدعوة وحصرها بطرق أخلاقية لا يوجد لها نظير، فالدعوة وفق أسلوب حكيم مبني على اللطف واللين والموعظة بالحسنى دون تهديد ووعيد، والمجادلة الفكرية وفق الأسس الصحيحة للمجادلة، كلها طرق أخلاقية تراعي الجانب الإنساني، وهذا الأسلوب مفقود في كثير من الأفكار والمذاهب الوضعية التي تسعى لاستمالة الناس بأي وسيلة كانت، بطرق أخلاقية قائمة على الاقتناع أم لا.

إن أسلوب المجادلة والتي هي أحسن، وأسلوب الدعوة باللطف واللين مبدآن قرآنيان أساسيان في الدعوة إلى الله تعالى، حيث نجد التركيز عليهما في أكثر من موضع في الكتاب العزيز، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فهي دعوة إلى المجادلة بالحسنى بعيداً عن الإكراه والتهديد، وأما أسلوب اللطف واللين نجد في أمر الله تعالى لسيدنا موسى وهارون- عليهما السلام- حيث أرشدهما إلى الأسلوب القويم في دعوة فرعون، فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

^١ ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج ١٢، ص ١٨٧.

^٢ الصابوني، صفوة التفاسير، ج ٢، ص ١٣٧.

لقد نص القرآن الكريم على مبدأ عظيم في الدعوة إلى الله تعالى، والمتمثل بأن لا إكراه في الدين، فاعتناق الإسلام يكون بكامل الإرادة ونابع من اقتناع تام دون تخويف أو تهديد، يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فهذه الآية تؤكد على احترام الإسلام وتأكيده على حرية الاعتقاد، وأن الأمر الرباني لنا هو بالدعوة إلى الله دون إجبار، وأن السبيل لدخول الإسلام هو الاختيار المبني على الاقتناع التام، وهذا المبدأ يتفق مع سنة الله في خلقنا والمتمثلة بالاختبار، والاختبار هذا يتأتى من خلال حرية الاختيار، يقول الرازي في معرض تفسيره لهذه الآية: "أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكن والاختيار، ... إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الإقامة على الكفر إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء، إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان"^١. إن الإكراه على اعتناق الإسلام أمر رفضه القرآن الكريم جملةً وتفصيلاً، وجعل الطريق لاعتناق الإسلام هي الدعوة الموصلة للاعتناق التام، وأخبر الله تعالى أن واجبنا الدعوة والتي هي أحسن وأن النتائج أمرها إلى الله تعالى، ومن شاء أن يؤمن فله ذلك، ومن رفض فله ذلك وحسابه على الله، يقول تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وبعد إقامة الحجة عليهم بالدعوة وفق منهج وأوامر الله تعالى فهم أمام خياران، إما أن يسلموا فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإما أن يصروا على كفرهم، فعندئذ لا يسعنا إلا أن نقول ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، إن هذه الأسس القرآنية في الدعوة إلى دين الله هي الطريق الأنجع لنشر الدين، كيف لا وهي من لدن حكيم خبير؟ فهذه الأساليب وما تحويه من خلق رفيع تعد من أهم المؤثرات في إقناع الآخرين، فتفتتح قلوبهم وعقولهم لسماع كلام الله، فتكون سبيلاً للدخول في الإسلام، فالرفق والإحسان في الدعوة إلى الله تراعي الفطرة الإنسانية، فالنفس تحترم وتحسن لمن يعاملها برفق ولين، وتأنف ممن يغلظ عليها ويدعوها بحزم وشددة، فيجب علينا أن نضع هذه الأسس الدعوية أمام ناظرينا، وأن نتمثلها في مسيرتنا الدعوية إلى الله تعالى.

غير المسلمين والتعامل الأخلاقي من نظرة قرآنية:

من ميزة الإسلام أنه يقوم على الأخلاق الحميدة ويعززها وينبذ الأخلاق السيئة ويجارها، فالمنظومة الأخلاقية في الإسلام جزء أساسي متكامل من المنظومة الإسلامية العامة حث عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة، ووعدهم الله من يلتزمها بالأجر الكبير، وتوعد الله من يخالفها بالعقاب يوم القيامة.

إن المنظومة الأخلاقية بكل ما تحتويه هذه المنظومة من أخلاق كالصدق والإحسان والعدل والأمانة وعدم بداءة اللسان هي أمر رباني وجب التزامه، ومن مميزات المنظومة الأخلاقية في الإسلام أنها غير مقصورة على المسلمين، بمعنى أن هذه الأخلاق يجب التمسك بها وإعمالها مع المسلم وغير المسلم، فهي أخلاق عابرة للأجناس والحدود والمخالفين، فالأمانة مثلاً يجب أن يتحلى به المسلم مع جميع البشر، فلا تكون الخيانة حراماً مع المسلمين حلالاً مع الكافرين.

^١ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج٧، ص١٥.

لقد تناولت الآيات القرآنية بعضاً من القيم الأخلاقية وأمرت بالتزامها مع غير المسلمين، وبينت أن الاختلاف الديني لا يكون حائلاً دون إعمالها معهم، وهنا أحاول الوقوف على بعض هذه النصوص، ويمكن إجمالها بالآتي:

١- العدل:

دلت جملة النصوص الشرعية على إعلاء قيمة العدل، ودعت إليه مهما كانت الأحوال والظروف، ونهت عن الظلم وتوعدت مرتكبه بأشد العقوبات في الدنيا والآخرة، ويكفي أن يكون أحد أسماء الله الحسنى هو العدل، واعتبر الله تعالى أن أحد أسباب إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية هو لتحقيق العدل، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فالعدل قيمة وخلق إسلامي ومقصد شرعي تواترت النصوص على إثباته، واعتبره محمد عماره المقصد الأول للشريعة الإسلامية، وعده ضرورة وفريضة واجبة لا يمكن التنازل عنها^١.

لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى إقامة العدل حتى مع الكافرين، وأن الاختلاف الديني لا يكون سبباً لمنع معاملتهم وفق قواعد وضوابط العدل، ولا يكون سبباً للظلم والجور، وأن معتقدهم الباطل مردّه إلى الله هو المتكفل بحسابهم عليه لا البشر، وحذرنا جل شأنه من أن نجعل الاختلاف المعتقدي سبباً للظلم، فقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، يقول القرطبي في معرض تفسيره لهذه الآية: "ودلت الآية أيضاً على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه"^٢، فالعدل مقصد إسلامي عام يشمل عموم الناس ولا يقتصر تطبيقه بين المسلمين فحسب، وإنسانية الإنسان تكفل له المعاملة وفق معيار العدل والقسط بغض النظر عن الاختلافات بين البشر، يقول محمد عمارة: "إن وجوب فريضة العدل الإسلامية على الكافة وعمومها وشمولها يتعدى بها نطاق الأولياء، فنجدها واجبة العموم بصرف النظر عن العقائد والشرائع الدينية التي يدين بها من لهم الحق فيها، الأمر الذي يجعلها فريضة إنسانية وضرورة بشرية تجب على الإنسان للإنسان"^٣.

العدل باعتباره قيمة إنسانية وأخلاقية من أهم القيم التي أولاهها القرآن الكريم اهتماماً بالغاً، فقد أمر به بين البشر أجمعين، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

إن التوجيه القرآني نحو إقامة العدل بين جميع البشر بغض النظر عن معتقدهم الديني، واعتبار العدل أحد مقومات الشخصية الإسلامية، وأنه عمل وخلق نتعبه الله به، هو أحد المؤثرات على قلوب وعقول غير المسلمين، فقد يكون سبباً لدخول بعضهم في الإسلام، وهناك شواهد عدة من التاريخ الإسلامي تؤكد هذا الأمر^٤.

^١ عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق، ص ٦٢-٦٣.

^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٦: ص ١١٠.

^٣ عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق، ص ٦٦.

^٤ من أمثلة ذلك ما حدث بين الخليفة علي - رضي الله عنه - مع اليهودي الذي سرق درع الخليفة، فأنكر اليهودي أن يكون هذا الدع للخليفة، فنقلوا خصومتهم للقاضي شريح، ولم يستطع الخليفة إثبات أن الدرع له، فحكم بالدرع لليهودي مع علم القاضي بصدق علي رضي الله عنه وكذب اليهودي، فكان هذه الحادثة الأثر البالغ على اليهودي فأعلن إسلامه بين يدي علي كرم الله وجهه. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨: ص ٥.

٢- عدم السبب وبذاءة اللسان:

المنظومة الأخلاقية منظومة ضابطة لجميع الحواس، فتهذبها من الوقوع في التجاوزات، والأخلاق من أهم ما يميز الإنسان المسلم بحيث تجعله علم بين الناس، ومن الأخلاق التي أرشد إليها القرآن الكريم في التعامل مع غير المسلمين حفظ اللسان عن السباب والشتيم.

إن تبني الإنسان لمعتقد ما قد يقوده نحو شن الهجوم اللفظي نحو المخالف، فنحن الله تعالى لهذا الأمر، ودعانا إلى عدم الانجرار نحو السب والشتيم في دعوتنا للغير، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وهذا الأمر يقع فيه كثير ممن يدعون إلى أفكارهم المذهبية والوضعية فتراهم يشنون أغلظ الشتائم على من يخالفهم المعتقد، والله تعالى أراد لمن يحمل أعباء الدعوة التحلي بالأخلاق الحميدة ولا ينجر لمستنقع الشتائم، فهو منزل لا يليق بما يدعو إليه الإسلام، ففسير الإسلام إنسان تمثل أخلاق القرآن وجعلها تهذب كل حواسه ومن أهمها اللسان.

٣- الصدق:

إن الصدق من الأخلاق الإسلامية التي أمر الله تعالى بها عبادة واعتبر الكذب من علامات النفاق، والصدق وعدم الكذب خلق إسلامي عام لا يميز بين مسلم وكافر، فيجب قول الصدق مع الجميع مهما كانت الظروف والمآلات. لقد تحدثت آيات عدة عن اتصاف بعض الأنبياء بالصدق مع أقوامهم الكافرة- مع الإقرار أن جميع الأنبياء بدون استثناء صادقين- وفي هذا دلالة على التزام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الصدق مع قوهم من الكافرين، وبالتالي هذا أمر لنا لاعتماد الصدق وعدم الكذب مع من يخالفونا المعتقد، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

وقوله تعالى ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

إن الصدق في القول وعدم الكذب مع جميع البشر هو أحد أسباب زرع الثقة وأخذ صورة إيجابية عن الصادق، وهذا له تأثير على غير المسلم، فعندما يرى صدق المسلم في كلامه وتعامله وشتى جوانبه ويعلم أن صدقه هذا نابع من أمر ديني مأمور به يتعبد الله به، فقد يكون هذا الأمر أحد المؤثرات في غير المسلمين للإعجاب بهذا الدين ومن ثم دخوله.

٤- الأمانة:

من الأخلاق الإسلامية التي أشار القرآن الكريم إلى وجوب إعمالها دون تمييز بين الناس في معتقدتهم الديني هي الأمانة، والأمانة هي على خلاف الخيانة، فهي تشمل الأمانة في المعاملات، والأمانة في أداء الأمانات، والأمانة في النصح...

يقول تعالى مخاطباً المسلمين في وجوب الوفاء بأماناتهم مع جميع الناس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾

[النساء: ٥٨]، فهذه الآية أمرت بأداء الأمانات إلى أهلها ولم تميز بين أصحابها في المعتقد، وينقل ابن كثير تفسير ابن عباس لكلمة (أهلها) فيقول: "هي مبهمة للبر والفاجر"، ويذكر الصابوني أن الآية جاءت مخاطبة جميع المكلفين بوجوب إعطاء الأمانات

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٣٣٨.

لأصحابها دون تمييز، فيقول: "الخطاب عام لجميع المكلفين، كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالدمم سواءً كانت حقوق الله أو العباد"^١.

ويقول تعالى في موضع آخر واصفاً المؤمنون بأنهم مؤدون لأماناتهم وموفون بعهدهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، وهذه الصفة جاءت مطلقة عن التقييد بصنف من الناس، فبينت أن صفة المؤمن بأنه يؤدي الأمانة لكل من ائتمنه وفيه بالعهد، فيكون غير المسلمين مشمولين بهذا الحكم من وجوب أداء الأمانة لهم والوفاء بالعهد معهم، وهذه ما طبقه رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام عند هجرته من مكة للمدينة، فكلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه برد أمانات قريش التي أودعوها عنده^٢.

أخيراً فإن المنظومة الأخلاقية بكل ما تحويه تمثل ميزة للإسلام والمسلمين، وهي سمة يتميز بها المسلم تجعله يتفوق على جميع أقرانه المخالفين، وتدل على عظم هذا الدين، وأنه من عند عزيز حكيم، فيجب علينا كمسلمين أن نلتزم هذا الأمر القرآني في تعاملنا مع المسمين وغير المسلمين، فنكون خير سفير لخير دين، كما أن الحفاظ على أعمال المنظومة الأخلاقية مع غير المسلمين له أثر واضح على تفكير ونفسية غير المسلمين، وتجعلهم يأخذوا صورة طيبة عن الإسلام مما قد يؤثر فيهم فيدخلون في دين الله تعالى.

غير المسلمين والعلاقة الاجتماعية من نظرة قرآنية:

تعتبر العلاقة الاجتماعية في مجتمع ما من أهم عوامل نهضة المجتمع وترسيخ أسسه وفق منهج التكامل والبناء والتطور، فمتى كانت العلاقات الاجتماعية قوية ومبنية على التعاون والشراكة فهي عنصر مهم في تحسين المجتمع وتطوره، وإذا كانت العلاقات الاجتماعية واهية أو متصدعة وقائمة على عدم الثقة والحذر، فإن ذلك عنصر من عناصر التصدع المجتمعي، وبالتالي يقود إلى انهيار في الجبهة الداخلية.

ولما كان من الصعب بل من المستحيل إيجاد مجتمع إسلامي خالي من المخالفين في المعتقد الديني، فإن الإسلام وضع قواعد عامة تضبط التعامل مع هذا المخالف الديني من حيث العلاقات الاجتماعية، ولم يترك الأمر لأهواء الناس ورغباتها، والقرآن الكريم في مواضع عدة ذكر بعض هذه القواعد الضابطة للعلاقة الاجتماعية مع غير المسلمين والتي يمكن إجمالها بالآتي:

١- في الزواج:

إن الزواج هو الطريق الأولى لإنشاء اللبنة الأساسية في المجتمع والمتمثلة بالأسرة، والله تعالى أباح لنا الزواج بالكتايبات ولم يجعل الاختلاف الديني عائقاً في تزوج المسلم من غير المسلمة من أهل الكتاب، يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ

^١ الصابوني، صفوة التفاسير، ج ١، ص ٢٦١.

^٢ الغزالي، فقه السيرة، ص ٤١٧.

قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿المائدة: ٥﴾.

فهذه الآية تحبر بحكم شرعي اجتماعي مفاده جواز الاقتران بغير المسلمة، والتي من تبعاتها إنجاب الأطفال وتشكيل أسرة، ووجود حالة من المودة والرحمة بين الأزواج حتى ولو كانت الزوجة كتابية^١، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَحَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، كل هذه مبادئ عامة تؤسس لإيجاد مجتمع يسوده المحبة والرحمة، ويكون من القوة بمكان بحيث يصعب النخر فيه أو هدمه.

٢- في الأسرة:

إن إباحة الله تعالى للمسلم بالزواج من كتابية معناه وجود أسرة وأبناء، وأن أحد أعمدة هذه الأسرة وهي الأم لا تدين بالإسلام، فهل كفر الأم مدعاة لبغض الأبناء لأهمهم وهجرانها، كما أنه قد يكون الابن مسلماً لأبوين كافرين، فما هو التوجيه القرآني للتعامل مع الأبوين الكافرين؟

لقد أخبر الله تعالى في محكم التنزيل أن كفر الوالدين لا يستتبع بغضهما وعصيانهما وهجرانها فيما لا معصية لله فيه، إنما للأبوين الحق في المحبة والطاعة والقول اللين، والمعاملة الحسنة وكل ما فيه معنى البر والإحسان كل ذلك مشروط بغير معصية الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

لقد وضعت هذه الآية قاعدة عامة في التعامل مع الوالدين الكافرين، فأمرت ببرهما وحسن معاملتهما ومصاحبتهما بالمعروف، وذلك لأنهما سبب وجوده، فكيف يسيء الإنسان لمن كان في سبب وجوده؟ يقول ابن كثير: "فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق"^٢، وهذه المبدأ في التعامل من أهم المبادئ الكفيلة في حماية الأسرة من الانهيار والتصدع الاجتماعي، كما أنها تنقل الصورة الحقيقية للإسلام وتبين مدى تأثير الإسلام في تهذيب الثقافة الأسرية عند المسلم مما قد يكون لها الأثر في دخول الوالدين في الإسلام، وهذا الجو المبني على البر والإحسان يخلق جواً عاماً من قبل الوالدين غير المسلمين للسمع عن الإسلام، حيث يروا ما أحدثه هذا الدين على ابنهم من خلال السلوك العملي.

٣- في التكافل الاجتماعي:

يقوم مبدأ التكافل الاجتماعي على وجود حالة من التعاون بين مكونات المجتمع بحيث يحسن الغني للفقير، ويتحمل الغني جزءاً من أعباء الفقر على الفقراء والمساكين، ومن أحد أعمدة التكافل الاجتماعي هي التصديق على الفقراء وسد حاجتهم، والإسلام عندما أمر الأغنياء بتقديم يد العون للفقراء لم يميز بين فقير مسلم وغير مسلم، بل جعل الفقر هو الأساس في تقديم المساعدة، وجعل هذه الصدقة من باب الحق على الغني للفقير، وأخبر الله تعالى بالأجر العظيم لمن يتصدق

^١ القرضاوي، من فقه الدولة في الإسلام، ص ١٩٧.

^٢ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٢٦٤.

على الفقير، فقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]، فالله تعالى امتدح المسلم الذي يقدم جزءاً من ماله للفقراء والمعوزين، ولم تفرق الآية بين الفقير المسلم وغيره، فهي مطلقة عن التقييد بنوع ديانة الفقير والمعوز.

ويقول تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِنَّ السَّبِيلَ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، وفي هذه الآية يعدد الله تعالى الأصناف المستحقة للزكاة وعدد منها الفقراء والمساكين، وجاء اللفظ بصيغة مطلقة عن التقييد فلم تذكر ديانة الفقراء والمساكين، فتشمل كل من اتصف بالفقر أو المسكنة بغض النظر عن ديانته ممن لم تثبت عداوتهم للمسلمين^١.

يقول الإمام السرخسي: "إن المقصود سد خلة المحتاج ودفع حاجته بفعل هو قرينة المؤدي، وهذا المقصود حاصل بالصرف إلى أهل الذمة، فإن التصدق عليهم قرينة بدليل التطوعات لأننا لم ننه عن المبرة لمن لا يقاتلنا"^٢. ويقول ابن عابدين: "ولا شك أن التصدق على أهل الذمة قرينة، حتى جاز إن يدفع إليهم صدقة الفطر والكفارات"^٣.

لقد فهم الصحابة رضوان الله عنهم مقصود الله تعالى فترجموا آياته ممارسة عملية، فهذا الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى هذا؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وأخذه إلى منزله فوضع له بشي في المنزل، وأرسل إلى خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضرباه ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذه عند الهرم ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾^٤.

كما حث القرآن الكريم على إطعام الطعام للمسكين واليتيم والأسير وإن كان من غير المسلمين فقال تعالى ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، ومن المعلوم أن هذه الآية نزلت في حق الأسرى المشركين الذين وقعوا في يد المسلمين فامتدح الله من ساعدتهم من المسلمين.

وينقل ابن كثير عن ابن عباس في معرض تفسيره لهذه الآية أنها نزلت بحق المشركين الذين وقعوا أسرى بيد المسلمين، فيقول: "كان أسراهم يومئذ مشركين، ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، وهكذا قال سعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة"^٥. لقد أسس الإسلام منهجاً متكاملًا من التكافل الاجتماعي بين مواطني الدولة مع اختلاف معتقداتهم الدينية، وعاملهم بصورة قل نظيرها بين الأمم،

^١ اختلف الفقهاء في حكم دفع الزكاة لأهل الذمة، فأجازها أبو حنيفة ومحمد بن الحسن، ومنعها أبو يوسف والجمهور، أما الكفارات والصدقات فقد اتفقوا على جواز إعطائها للذمي. انظر: الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج ٢، ص ٨٨٣.

^٢ السرخسي، الميسوط، ج ٣، ص ١١١.

^٣ ابن عابدين، حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الابصار، ج ٤، ص ٣٤٣.

^٤ أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ١٢٦.

^٥ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص ٢٨٨.

فقرر مد يد العون لكل من يعيش في كنف دولته، أبعدها هذا التسامح والتكافل تسامح؟ كل هذا منبعه التوجيه القرآني الحكيم الذي أرسى معالم التكافل، وما علينا إلا السير وفقها ليتحقق الصلاح والإصلاح للبشرية جمعاء.

الخاتمة:

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المتعبد بتلاوته وهو النور الرباني الذي وضعه رب البشر ليرشدنا إلى ما فيه صلاحنا وخير دينانا وعاقبة أمرنا، وقد رأينا من خلال الدراسة أن القرآن الكريم قد خط لنا عدة قواعد في تعاملنا مع المخالف ويمكن تلخيصها بالآتي:

أولاً: الاختلاف سنة إلهية كونية لا يستطيع البشر إلغاؤها وإنما علينا التعامل مع هذه السنة وفق أوامر الله تعالى وتطويعها لنصل لمقصود الشارع الحكيم، كما يجب علينا فهم سر هذه السنة وطبيعتها.

ثانياً: أرشدنا القرآن الكريم لطريقة دعوة المخالف الديني وأخبرنا أن نتائج الدعوة أمر الله تعالى وما علينا إلا بذل الجهد بالدعوة وفق أمره.

ثالثاً: أن المنظومة الأخلاقية هي منظومة إنسانية يجب على المسلم استحضارها في جميع تعاملاته مع بني البشر بغض النظر عن الاختلاف العرقي أو الجنسي أو الديني.

رابعاً: نظم القرآن الكريم العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغيرهم وضبط إيقاع العلاقة الأسرية في حال كان الأبوين أو أحدهما كافراً، فكانت في مجملها دعوة للتعامل وفق البر والقسط والإحسان.

خامساً: أن الأسس الربانية في التعامل مع المخالف الديني لها الأثر في إقناع الآخرين بالإسلام وقد تكون سبيلاً لانعتاق رقايقهم من الكفر والدخول في الإسلام.

المصادر والمراجع:

١. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن ادريس بن المنذر التميمي الرازي، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، (السعودية، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط ٣، ١٩٤١ هـ).
٢. ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (دار طيبة، ١٩٩٩ م).
٣. أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٨ م).
٤. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٩ م).
٥. البناء، جمال، التعددية في مجتمع إسلامي، (القاهرة: دار الفكر الإسلامي، ٢٠٠١ م).
٦. السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، المبسوط، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٣ م).
٧. الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، (القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٧ م).

٨. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، جامع البيان عن تأويل آي القرآن تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن لتركلي، (دار هجر، ط١، ٢٠٠١م).
٩. عمارة، محمد، الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق، (مصر: دار السلام، ط١، ٢٠٠٥م).
١٠. الغزالي، محمد، فقه السيرة، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٤٢٧هـ).
١١. فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ).
١٢. القرضاوي، يوسف، من فقه الدولة في الإسلام، (القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٩٩٧م).
١٣. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سمير البخاري، (الرياض: دار عالم الكتاب، ٢٠٠٣م).
١٤. المصري، صباح مصطفى، النظام الحزبي في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية، (الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٥م).
١٥. المغبشي، عبد الحكيم عبد الجليل، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي والوضعي، (الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٥م).

أهمية الحوار في القرآن الكريم

وداد جمال حسين راوه^١

ملخص البحث:

يعد الحوار من أهم الطرق الفعالة في النقاش، وذلك لما يسهم به من أهمية في تحقيق التفاهم وتبادل المشاعر ونقل الأفكار، وليس فقط بين الأفراد، وإنما بين الثقافات والحضارات والجماعات، وديننا الإسلامي الحنيف منذ بدايته دعا إلى الحوار، واهتم به اهتماماً بالغاً لما له من أثر طيب في الإقناع والوصول إلى الحقيقة من أيسر السبل وأقومها، ويتضح ذلك من صوره المتعددة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حيث بيّن أن الحوار منهج إسلامي أصيل في التربية والدعوة إلى الله عز وجل. ومن حوارات القرآن الكريم حوار الله عز وجل مع الملائكة والأنبياء، ومن حواراته أيضاً مع الأنبياء ومع أقوامهم، "فالقرآن الكريم وضع القواعد وأصل الأصول لحل جميع القضايا، ومن أهمها الحوار القائم على الفعل لا على القوة كوسيلة إلى التعامل مع المخالفين^٢. وهكذا "فالقرآن الكريم يهدي الناس فيما يهديهم إلى أن يحتكموا إلى الحق وإلى أن يسلكوا الطريق الصحيح إليه، وهو طريق المحاوره حتى لا يضلوا فيسلكوا بادئ ذي بدء طريق القوة دون منطق، فيجعل القرآن الكريم كل قضاياها سبيلها للحوار، ويجعل كل خلافه مع أعدائه ومخالفيه قائماً على الحوار ولا يجعل من القوة سبيلاً قط إلى التعامل مع المخالفين^٣.

مفهوم الحوار في اللغة العربية:

تذكر معاجم اللغة العربية أن أصل كلمة (الحوار) من الحور وهو الرجوع^٤. وأن حار بمعنى رجع. وهم يتحاورون أي: يتراجعون^٥.

وحاورته: راجعته في الكرم وهو حسن الحوار، وكلمته فما حار جواباً، أي: ما رجع. وهو بفتح الحاء وسكون الواو، وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء^٦.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَدُ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللّهِ وَاللّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، تحاوركما: أي تراجعك الكلام. وقال الزمخشري^١ يحاوره أي: راجعه الكلام من حار، يحور: إذا رجع. وسألته فما أحرار كلمه.

^١ الأستاذ المساعد بقسم المناهج وطرق تدريس التربية الإسلامية، بجامعة أم القرى، مكة المكرمة.

^٢ فرج، ص ١٨.

^٣ الشافعي، ص ٢٠.

^٤ الرازي، مختار الصحاح، ص ١٦١.

^٥ ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ٢١٨.

^٦ الراغب، غريب القرآن، ص ٤٢.

أما الحوار في اصطلاح المفكرين:

عرفوا الحوار بأنه مناقشة بين طرفين أو أطراف، يقصد بها تصحيح الكلام، وإظهار حجة، وإثبات حق، ودفع شبهة، ورد الفاسد من القول والرأي^١.

وعرفه النحلاوي بقوله: أن يتناول الحديث طرفان أو أكثر عن طريق السؤال والجواب، بشرط وحدة الموضوع أو الهدف، فيتبادلان النقاش حول أمر معين^٢.

أهمية الحوار في الإسلام:

كثرة استعماله في الكتاب والسنة، فهناك أكثر من خمس مئة نص من القرآن والسنة تعرض نماذج مختلفة من الحوار. تكراره واستخدامه في كل الحضارات، فلا تكاد تخلو منه حضارة من الحضارة السابقة.

إن التعارف بين الشعوب والحضارات لا يكون إلا بالحوار قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

رسالة الإسلام تنتشر من خلال الحوار أكثر مما تنتشر من خلال الصراعات والعداوات والحروب. ومن أدلة ذلك: انتشار الإسلام والمراكز الإسلامية، والمساجد في الآونة الأخيرة.

يساعد الحوار في إثراء العلوم، وفي إحياء ما اندثر من تلك الآداب التي جسدها الأنبياء، والعلماء. فالحوار محاولة للسير على نهجهم^٣. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ ائْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

الحوار أسلوب ينمي العقل، ويوجه إلى التفكير للوصول إلى الحقائق، مما يدفع بالمتعلم إلى المشاركة بالأسئلة، والفهم، والتساؤل عما يدركه من حقائق^٤.

نشر الإنسانية بين الناس، وهو جزء من التربية الإسلامية وتربية الأجيال على مهارات الحوار الحضاري يساعد على ممارسة العمليات الإنسانية بين الشعوب والأمم.

أسس الحوار:

أ- قيادة الحوار^٥:

ويقصد بها: رئاسة الحوار. وهنا يكون دور القائد هاماً لإنجاح الحوار، وجعله حواراً بناءً ومن المقترحات لتحقيق ذلك:

^١ الزمخشري، أساس البلاغة، ص ١٤٦.

^٢ حميد، أصول الحوار وأدبه في الإسلام.

^٣ النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١٨٥.

^٤ حميد، أصول الحوار وأدبه في الإسلام، ص ٥.

^٥ بكر، فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، ص ٣٣٣.

^٦ بلجن، تربية الأجيال على أخلاقيات وآداب المناقشة والمحاورة والمناظرة العلمية.

إعداد جدول الأعمال وتوزيعه قبل عقد الحوار، ويفضل اشتراك الأفراد في اقتراح هذه الموضوعات، والاشتراك في وضع تخطيط للحوار والمناقشة للاستعانة به في إدارة الحوار، بتحديد المكان والوقت والمدينة، وتهيئة المكان بما يناسبه من استعدادات كاملة.

تقليل العوائق النفسية والمادية للحوار والمتحاورين أو بين المتحاورين وغيرهم من المستمعين، وذلك عن طريق عدم فصل موقع قائد الحوار عن بقية المشاركين، وإبراز روح الفريق والتعاون على الحوار^١.

ب- معرفة أساليب تهدئة الحوارات الحامية:

هناك أساليب متعددة منها:

تأجيل المناقشة إلى وقت آخر.

استخدام كلمات لطيفة، ورد العنف باللين.

تذكير المناقشين من البداية بأهمية المناقشة العلمية الودية الأخوية، وبأهمية مراعاة آدابها.

التنبه من قبل مدير المناقشة أو غيره على كل ما تحصل منه مخالفة لتلك الآداب باللطف، إشارة، أو تلميحاً.

ج- تحديد الهدف من الحوار:

الهدف من الحوار يحدد موضوعاته، وأساليبه وآدابه. وعليه، يكون الحكم على الحوار بمعرفة أهدافه؛ لأن الأمور بمقاصدها. فلا بد إذاً من تحديد أهداف الحوار، ومعرفة الغاية منه.

ضوابط الحوار ومبادئه:

اهتم القرآن الكريم بالحوار اهتماماً كبيراً، وذلك لأن الطبيعة الإنسانية ميالة بطبعها وفطرتها إلى الحوار، أو الجدال كما يطلق عليه القرآن الكريم في وصفه للإنسان ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

ولأجل تحقيق الحوار مقاصده، ومنعاً له من أن يتحول إلى خصومة تؤكد على أن للحوار أصولاً متبعة، وللحديث قواعد ينبغي مراعاتها، وعلى من يريد المشاركة في أي حوار أن يكون على دراية تامة بأصول الحوار المتبعة، وآدابه؛ لأن الحوار غذاء عقول يقبل الناس عليه إقبالهم على غذاء البطون، لذا يقوم بعض المحاورين بشد انتباه من حوله وذلك بإثارة فضولهم، كأن يستهل حديثه بقصة غريبة أو مثل قديم، أو سرد مقولة لأحد العظماء، فذلك مما يعجب الناس ويجعلهم ينصتون أكثر، لتوقعهم المزيد عنده، ولذلك فإن المحاور الذكي هو الذي يختبر اهتمام صاحبه بحديثه قبل التوغل في حوار معه ويجاوب استشارة اهتمامه بموضوع الحوار، والمحاور البارع هو الذي يجعل كلماته صوراً تتدفق أمام ناظري صاحبه ومن حوله، مبتعداً عن الرمزية والغموض، باحثاً عن الكلمات والعبارات التي تُسمع وتُرى في آن واحد^٢.

^١ حجاب، مهارات الاتصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، ص ١٢١ بتصرف.

^٢ الحبيب، كيف تحاور؟ دليل علمي للحوار، ص ٤٠.

والمحاور الناجح هو الذي يمتلك فنيات الحوار ويقصد بفنيات الحوار: مجموعة المهارات المتكاملة التي يتطلبها أداء المحاور للأنشطة التي يتضمنها الحوار بكفاءة^١.

ومن مبادئ الحوار ما يلي:

١- حسن النية:

فمن النصوص العامة التي وضعت مقومات الحوار، وأصوله وشرط الانتفاع به قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ نَفْسِكُمْ إِذَا قُمْتُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سبأ:٤٦].
فمما ينبغي العناية به إخلاص النية لله تعالى في العلم والعمل، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى».

٢- الالتزام بالأخلاق الحسنة:

من الأصول والمبادئ الأساسية التي يضعها القرآن الكريم التزام المحاور المسلم بالأخلاق الحسنة خلال الحوار نذكر بعضها بإيجاز^٢:

أ- المحاورة بالحسنى:

لابد من الابتعاد عن الغلظة والقسوة والعنف أثناء المناقشات قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥] الحوار الهادي يفتح القلوب للحق والإذعان له ويجعل الكلام يؤثر في النفس، بينما القسوة والغلظة تجلب النفور وتؤدي إلى ابتعاد الناس عن صاحب الدعوة والمخاطبة، ولذلك وصف الله تعالى رسوله ﷺ بأنه بعيد كل البعد عن القسوة والغلظة فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وفي آية أخرى أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بمخاطبة أهل الكتاب بالحسنى، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [العنكبوت:٤٦].
قال القرطبي: "وهذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً، ووجهه منبسطةً طلقاً مع البر والفاجر، والمسيء والمبتدع"^٣.

ب- الصبر والحلم:

ومن أخلاقيات الحوار أن يتسم المحاور المسلم بالصبر والابتعاد عن الغضب وأن لا يستفز مهما كان الموقف، قال تعالى: ﴿أَمْرًا نَبِيًّا ﷺ بِالْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ وَتَرْكِ الْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

^١ اللبودي، الحوار فنياته وأساليب تعلمه، ص ٤٩.

^٢ وزين، أصول الحوار مع الآخر في القرآن الكريم، ص ٤٠.

^٣ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٢، ص ١٦.

ولا شك أن العفو أعلى درجة من كظم الغيظ ورد الغضب لأن العفو هو ترك المؤاخذة وطهارة القلب والتسامح مع المسيء ومغفرة خطيئته.

ج- الرحمة والشفقة:

يجب على المحاور أن يكون حريصاً على ظهور الحق وشفيقاً على من يجاوره؛ لأنه يسعى لهداية الآخرين واستقامتهم، ولا يجوز له أن يجعل الحوار وسيلة للانتقام والكيد وفرصة للتنفيس عن الأحقاد ونشر العداوة والغل، وهذه الرحمة والشفقة كانت من دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين من أتباعهم في التعامل والحوار مع المخالفين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ [غافر: ٣٠].

فالمحاور المسلم رفيق وشفيق على الطرف الآخر لأنه يريد الخير له ولمن وراءه، وذلك من خلال بيان الحق والوصول إليه فهو حريص كل الحرص أن يتخذ كل وسيلة شرعية لتحقيق هذا الغرض.

د- مقابلة السيئة بالحسنة:

ومن أخلاقيات الحوار في القرآن الكريم أن يقابل المحاور المسلم الشدة بالرأفة، وفحش الكلام بطيبه، ويرد الكلمة الجارحة بالكلمة اللينة، ويدفع الاحتقار بالاحترام قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥]. فهذا أمر صريح من الله للداعية المسلم بأن يكون في مستوى أرفع أثناء حوار مع الآخرين، وذلك بالترفع عن الانتقام ومعاملة المثل بالمثل في فحش الكلام، ولاشك أن ذلك لا يتأتى إلا باتصاف المحاور بالصبر والحلم والبلوغ إلى درجات عليا من الخير والخلق الحسن.

٣- البدء بالإيجابيات قبل السلبيات:

وفي ذلك يقول يالجن^١: "إن البداية إن كانت حسنة فإن النتيجة أيضاً حسنة بإذن الله. وهذا يقتضي من البداية أن تكون التصرفات مؤشرة بالآمال الطيبة ومشجعة على الخوض في الحوار، وعلى الوصول إلى النجاح منها، ومع ذلك وفي حال حصول الإخفاق فيها، ينبغي أن يظل الباب مفتوحاً للجلسات القادمة، وأن تؤدي التصرفات إلى استمرار العلاقات الإنسانية، وإلى بقاء الآمال مفتوحة، ولا يتم كل ذلك إلا في ظل الشعور بالتفاؤل، والعدالة الكاملة، وبالأساليب الاستبشارية".

٤- حسن الاستماع والإصغاء:

لذلك أوصى أحد الحكماء تلميذه فقال: "تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، ومن حسن الاستماع: إهمال المتكلم حتى ينقضي حديثه، وقلة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه، والنظر إلى المتكلم، والوعي لما يقول"^٢.

^١ يالجن، تربية الأجيال على أخلاقيات وآداب المناقشة والمحاورة والمناظرة العلمية، ص ٦٥.

^٢ يالجن، تربية الأجيال على أخلاقيات وآداب المناقشة والمحاورة والمناظرة العلمية، ص ٣٢١.

وفي هذا الصدد يقول ديفيد: "استمع، إنك لست في حاجة لإقناع الآخرين، فقط حاول أن تستوعب ما يقولونه، ولا تطرح رأيك بينما يتحدث الآخرون، فقط دع لهم الفرصة كي يتحدثوا، فالمستمع الجيد يستطيع سماع الأفكار غير الشفهية: لذا فحينما ينتهي الطرف الآخر من الحديث اذكر له الفكرة الداخلية التي تراودك أثناء حديثه، حينئذٍ سيشعر المتحدث أنك سمعت وفهمت ما يقول، فسيصبح الحوار هادئاً؛ لأن الطرف الآخر سينصت إلى ما سمعته، وبذلك يتحقق الانسجام في الحوار".^١

٥- الابتعاد عن العبارات القاسية والتعصب:

كان الرسول ﷺ ينهي عن العنف، ويأمر باللطف والرفق قال لعائشة رضي الله عنها: «عليك بالرفق، فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه».^٢

ومن الوصايا: "تأدّب وترفّق مع مخالّك ومجادلك مهما اشتدت مخالفتك لك، وليكن غضبك متعلقاً بخطئه لا بشخصه، ولتكن قوتك على خطئه وما به من شر، لا على شخصه هو، فلعله حريص على الحق الذي أنت حريص عليه، ولكنه أخطأ الطريق، وإنما يحتاج إلى هادٍ ومرشدٍ، وليس إلى مفرع ومؤنب! وإذا كانت المحاور شفهية، فإياك والصراخ ورفع الصوت، فإن الحبال الصوتية لا تذوب عن الحجّة القوية".^٣

٦- أن يضع كل محاور نفسه موضع الطرف الآخر فيما يحبه وفيما يكرهه:

وذلك مطابقاً لقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يجب لأخيه ما يحبه لنفسه».^٤ ويرشدنا الله تعالى عن عدم مس شعور الآخرين بالأذى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

محاور الحوار في القرآن الكريم:

سوف نكتفي بذكر أهم هذه المحاور وأكثرها وروداً في القرآن الكريم:

حوار الله سبحانه وتعالى مع الملائكة:

إن أول من بدأ الحوار في إطار القرآن الكريم هم الملائكة عليهم السلام. وبداية هذا الحوار عندما أراد الله تعالى جعل خليفة في الأرض فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا

^١ فيسكون، فخر طافنك الكامنة في الأوقات الصعبة، ص ٩٦، بتصرف.

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه، ج ٤، ص ٢٠٠٤، رقم ٥٩٤.

^٣ الرحيلي، قواعد ومنطلقات في أصول الحوار ورد الشبهات، ص ٢٠.

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه، ج ١، رقم ١٣، ص ١٤.

كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿البقرة: ٣٠-٣٣﴾. فحين طرح الملائكة سؤالهم "أتجعل فيها" هو تعجبهم من أن يكون خليفة الله في أرضه عاصي ومفسد ومفسك الدماء. واستبعادهم من أن حكمة من الله تقتضي ذلك^١، ولا تعد همزة الاستفهام للإنكار، بل يراد منها استكشاف عن الحكمة الخفية و عما يزيل الشبهة^٢.

حوار الله سبحانه وتعالى مع إبليس:

يعد هذا النموذج من أخطر النماذج الحوارية في القرآن الكريم، حيث تحاور الله سبحانه وتعالى مع إبليس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَبْرَأُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿الأعراف: ١١-١٨﴾.

حوار الله مع الأنبياء:

إن من أبرز محاور الحوار التي تحدث عنها القرآن الكريم وفصل ذكرها، إيجازاً وإطناباً إجمالاً وتفصيلاً في العديد من سوره، هو ما وقع بين الأنبياء وأقوامهم من حوار ومناقشات في مواضيع تتعلق بالعقيدة تصحيحاً وترسيخاً، ونشر لها بعد ذلك؛ لأنه لا يمكن إرجاع الناس إلى جاده الصواب وعاده الله ونبد الشرك عنه بالتنبيه والإقناع الذين يقتضيان الحوار^٣.

حوار نوح عليه السلام مع ابنه:

أخبرنا الله عز وجل أنه بعث نوحاً رسولاً إلى قومه. فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿الأعراف: ٥٩﴾.

ونرى بأن حوار صيغ بصياغة واضحة بألفاظ دقيقة ومحددة الدلالات، فلما دعا سيدنا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله كان ردهم: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿هود: ٢٧﴾، بعد أن سمعهم سيدنا نوح وتأمل في أدلتهم وما اشتملت عليه من شبهات. رد عليهم بأسلوب رقيق وجذاب بأدلة تبطل مزاعمهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْهُمْ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿هود: ٢٨-٣٠﴾.

^١ الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ١٢٩.

^٢ الألوسي، روح المعاني، ج ١، ص ٣٢٥.

^٣ يعقوبي، المنطق الفطري في القرآن الكريم.

يتبين من خلال ما سبق أن سيدنا نوح ردّ على كل شبهة علة حدة، وحاول أن يرجعهم إلى الموضوع الرئيسي وهو عبادة الله.

حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه:

أظهر سيدنا إبراهيم عليه السلام أسمى معاني الأدب في حوارهِ مع الآخرين. ويتضح ذلك من خلال الآتي:
في كلامه الموجه إلى رب العالمين والذي يظهر في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨٠]. أسند المرض إلى نفسه تأدباً في كلامه الموجه إلى الله وأسند الشفاء إلى الله. وإنما المرض والشفاء كلاهما من الله.

ب- في حوارهِ مع الملائكة مع جهله بحقيقتهم في بداية الأمر فقد ظنهم ضيوفاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] بين هنا أدب المعاملة وكرم الضيافة حتى مع الغرباء.

ج- في حوارهِ مع الكفار والنمرود الذي ادعى الألوهية وهو واحد منهم: ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

هـ- في حوارهِ مع أبنائه عندما وصاهم بالتمسك بالدين في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] ويظهر ما في لهجته مع أبنائه من تحبب وتقرب يدلان على أدب وطبع الحوار مع الآخرين.

تطوير مهارات الحوار:

القرآن الكريم والسنة النبوية دستور المسلم الأساسي في كل مناحي الحياة، ولتطوير مهارات الحوار، وجب على المسلم أن يهتدي بمنهجها في الحوار باعتبار كما يلي:

بتدبير الحواريات القرآنية وتحليلها وتدارسها.

بتأمل حوار الرسول ﷺ ودراسة أساليبه وطرائقه في الحوار والتواصل.

بدراسة مصادر ومراجع مفصلة لقواعد الحوار وأدلتها في القرآن والسنة.

باستخراج قواعد كبرى للحوار والتزام العمل بها.

توصيات البحث:

الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية والتزود بهما وتدبرهما والامتنال بهما.

توعية الدعاة بعدم الانزلاق في الجدال العقيم، أو بالأسلوب غير المجدي.

ضرورة إقامة ندوات ومؤتمرات علمية لنشر وعي إسلامي حول أدب الحوار والخلاف وشروطه وضوابطه.

أن تلجأ مناهج التربية الدينية إلى الحوار الهادف، والمناقشة الهادفة، والإقناع المنطقي؛ وبخاصة أنها تتعامل مع المراهقين الذين يتسمون بالقلق، والرغبة في المعرفة، وتتناهم حالات شك، وأوقات ضياع لا منفذ منها غير الحوار الهادئ. إحياء سنة الحوار بأبعاده، وآدابه، ومواصفات خطابه، ومتطلباته.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. البخاري، أبو عبدالله إسماعيل بن إبراهيم، صحيح البخاري، (لبنان: دار الفكر، ١٤٠١هـ).
٣. ابن منظور، جمال الدين محمد الإفريقي المصري، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م).
٤. حجاب، محمد منير، مهارات الاتصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، (دار الفجر للنشر، ط ١، ١٤٢٣هـ).
٥. الحبيب، طارق بن علي، كيف تحاور؟ دليل علمي للحوار، (دار البيت العتيق، ٢٠٠٠م).
٦. حميد، صالح عبدالله، أصول الحوار وأدبه في الإسلام، (جدة: دار المنار للنشر، ١٤١٥هـ).
٧. بكر، عبدالجواد سيد، فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط ١، ٢٠٠٠م).
٨. الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، (بيروت: المركز العربي للثقافة والعلوم، د. ت.).
٩. الرحيلي، عبدالله ضيف الله، قواعد ومنطلقات في أصول الحوار ورد الشبهات، (دار المسلم للنشر، ط ١، ١٤٠٤هـ).
١٠. الزمخشري، أساس البلاغة، (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ).
١١. فيسكوت، ديفيد، فجر طاقتك الكامنة في الأوقات الصعبة، (الرياض: مكتبة جرير، ط ٣، ١٤٢٥هـ).
١٢. القرطبي، أبو عبدالله محمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ).
١٣. اللبودي، منى إبراهيم، الحوار فنياته وأساليب تعلمه، (القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٣م).
١٤. مسلم، ابن الحجاج، صحيح مسلم، ج ٤، (جدة: دار المنار للنشر، ٢٠٠٠م).
١٥. النحلاوي، عبدالرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤م).
١٦. وزين، فضل العبادي، أصول الحوار مع الآخر في القرآن الكريم، (دار صادر للطباعة والنشر، ٢٠٠٩م).
١٧. يالجن، مقداد، تربية الأجيال على أخلاقيات وآداب المناقشة والمحاورة والمناظرة العلمية، (ط ٢، ١٤١٦هـ).
١٨. يعقوبي، محمود، المنطق الفطري في القرآن الكريم، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٠م).

حركة "الأخوات في الإسلام" (Sisters in Islam) في ماليزيا وتعاملهن مع النص القرآني: آية الحجاب نموذجا

د. ميك ووك محمود^١ حبيب الله زكريا^٢

ملخص البحث:

أخذ موضوع المرأة وقضاياها حيزا كبيرا في دراسات بعض العلماء والمفكرين المعاصرين نتيجة ما أثاره أنصار الحركات النسوية في عالمنا اليوم تجاه هذه القضية، ومن بين هذه القضايا قضية الحجاب. وتعد حركة "الأخوات في الإسلام" "Sisters in Islam" إحدى الحركات النسوية التي دارت مسألة الحجاب في كثير من نقاشاتها ودراساتها، وقد زعمت هذه الحركة أن تفسيرات العلماء السابقين لبعض الآيات المتعلقة بشؤون النساء لم تنبثق من روح القرآن نفسه ومقاصده، الأمر الذي يجعل هذه الآراء غير مقبولة في عصرنا الحاضر، وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل وجهة نظر "الأخوات في الإسلام" "SIS" تجاه قضية الحجاب عامة، وتفسير آيات الحجاب خاصة، مع بيان منطلقات الحركة الفكرية، وقد وظف المنهج التحليلي النقدي في البحث، وخلص البحث إلى أن الدعوى بأن الحجاب عادة وليس عبادة لا تدعمها النصوص الشرعية من القرآن والسنة، كما أن دراسة القرآن دون مصاحبة بقية علوم القرآن لا يستند إلى منطق علمي رصين.

مقدمة:

حركة "الأخوات في الإسلام" في السطور:

تعتبر حركة "الأخوات في الإسلام" "Sisters in Islam" إحدى الحركات النسوية النشطة في ماليزيا، ويرجع تأريخ نشئتها إلى عام ١٩٨٧م، وتم تسجيلها تحت جمعية المحاميات "Association of the Women Lawyers (AWL)" وكانت نشاطاتها في إطار هذه الجمعية المتمثلة في إعادة النظر في قانون الأحوال الشخصية الجديد في ماليزيا آنذاك، والذي وضع في حيز التنفيذ عام ١٩٨٤م، وبدأ تطبيقه عام ١٩٨٧م.

وتتضمن هذه الحركة المحاميات، والأكاديميات، والصحفيات، والمحللات وغيرهن، وأول اجتماع لهن كان في بيت سيدة زينة بنت أنور^٣، وكان أول ما فكرت به الجمعية عقد ندوة عامة مع بعض الجمعيات النسوية في ماليزيا عام ١٩٨٨م، وذلك

^١ أستاذ مشارك بقسم الفقه وأصول الفقه، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

^٢ طالب دكتوراه بقسم الفقه وأصول الفقه، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

^٣ أدرجت زينة أنور من بين ١٠ المسلمات أكثر نفوذا من المتحف العالمي للنساء - سان فرانسيسكو ديسمبر عام ٢٠١٣م. انظر:

عشر عليه: <http://www.thestar.com.my/News/Nation/2013/12/31/muslim-women-award-zainab-anwar>

لمباحثة قضية المشاكل التي تواجهها النساء تجاه قانون الأحوال الشخصية الجديد، ومن ثم إبداء ملاحظاتها بغية تطبيق رشيد للقانون دون إضرار بالمرأة^١.

ومن أهداف هذه الحركة مباحثة قضايا المرأة والدعوة إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، وعدم تهميش المرأة في الحقول الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ولا أجنح إلى ما جنحت إليه الباحثة سبتي سورايدا بنت صديق في بحث لها بعنوان: "المساواة بين الرجل والمرأة عند منظمة الأخوات في الإسلام في ماليزيا: دراسة في المنظور القرآني"^٢، وتبعتها في ذلك الباحثة فاطمة شرحة بنت محمد نور الدين في بحث لها الموسوم "المساواة بين الرجل والمرأة في فكر المنظمات النسوية في الحركات الأنثوية في الإسلام بماليزيا نموذجاً: دراسة تحليلية نقدية في ضوء الفقه الإسلامي"^٣، حيث زعمت أن تأسيس هذه الحركة جاءت "استجابة لما تعانيه المرأة من اضطهاد على يد الرجل في ماليزيا، فجاءت دعوة المنظمة إلى تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة لاستعادة مكانتها وحقوقها، وهذا من أهم المطالب التي تنادي بها المنظمة، كما تهدف المنظمة إلى رفع مستوى الوعي على أسس إسلامية حقيقية قائمة على المساواة، وإنشاء المجتمع المسلم القائم على هذه الأسس، والعدل والحرية، وتحقيق الديمقراطية في البلد. لأجل تحقيق هذه الأهداف تم إنشاء منظمة "الأخوات في الإسلام"، لتحمل همَّ إرساء الاستقرار في المجتمع، وعرض الإسلام الحنيف على المسلمين أنفسهم بصورة صحيحة واضحة، على أمل أن يتقبلها أفراد المجتمع^٤... ومن أهدافها مواجهة التهم والشبهات التي تثار ضد الإسلام خصوصاً حول المرأة وحقوقها في المجتمع الإسلامي"^٥.

ومن أبرز شخصيات هذه الحركة: آمنة ودود، أسكيا آدم، نور آني عثمان، رشيدة عبد الله، روس إسماعيل، شريفة زوريا الجفري، زينا أنور. وكلهن ماليزيات.

الحجاب والحرية الدينية في فكر "الأخوات في الإسلام" "SIS":

قضية الحرية من القضايا والمرتكزات المهمة في فكر حركة الأخوات في الإسلام، والذي يقرأ كتابات هذه الحركة يلاحظ ذلك جلياً.

^١ ، عشر عليه ٢٠١٤م. <http://www.sistersinislam.org.my/page.php?35>، The SIS Story

^٢ سبتي سورايدا، المساواة بين الرجل والمرأة عند منظمة الأخوات في الإسلام في ماليزيا: دراسة في المنظور القرآن، ص ٤١.

^٣ فاطمة شرحة، المساواة بين الرجل والمرأة في فكر المنظمات النسوية في الحركات الأنثوية في الإسلام بماليزيا نموذجاً: دراسة تحليلية نقدية في ضوء الفقه الإسلامي، ص ٦٠.

^٤ وما يدل على أن هذه الحركة ليست ببعيدة عن بقية الحركات النسوية في العالم أنها تنادي بالمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، وتدعو إلى الحرية المطلقة للمرأة، حيث إن المرأة تستطيع أن تقرر ما هو الأفضل لها دون الرجوع إلى القرآن والسنة النبوية الصحيحة.

^٥ فاطمة شرحة، المساواة بين الرجل والمرأة في فكر المنظمات النسوية في الحركات الأنثوية في الإسلام بماليزيا نموذجاً: دراسة تحليلية نقدية في ضوء الفقه الإسلامي، ص ٦٠؛ سبتي سورايدا، المساواة بين الرجل والمرأة عند منظمة الأخوات في الإسلام في ماليزيا: دراسة في المنظور القرآن، ص ٤١.

فمن المنطلقات المهمة التي تركز عليها الحركة "الأخوات في الإسلام" أنهن يزعمن أن الإسلام أعطى المرأة حريتها الكاملة في اختيار لباسها، وهذه الحرية ليس للرجل سلطه في أن يفرض عليها لباسا معيناً، بل ليس لأي سلطة أيا كان نوعها حق التدخل في هذه الحرية، سواء كان هذا التدخل بصفة مباشرة أو غير مباشرة؛ لأن القرآن قد نص بما لا يحتمل أي تأويل على الحرية الدينية وعدم الإكراه في الدين. وهذه الحرية على حسب تعبيرهم فيها دلالة على مرونة الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان، ويرجع سبب إعطاء المرأة هذه المهمة كون الأمر ليس مرتبطاً ببيئة بكاملها، لذلك نلاحظ أن القرآن لم ينص على أي عقوبة للمجتمع كعادته في التشريع^١. وقد توصلت حركة "الأخوات في الإسلام" من هذه المقدمة إلى أن:

(١) النص القرآني لم يأمر المرأة بالحجاب المعروف اليوم على الإطلاق، وإنما ندب المرأة والرجل على حد سواء إلى لباس محترم أو محتشم^٢.

(٢) لبس الحجاب حرية مطلقة، فلا ينبغي لأي شخص أو هيئة، أيا كانت حكومة أم خاصة، تقييد المرأة بلبس الحجاب أو عدم لبس الحجاب^٣. وأما ما حدث في تركيا حيث قررت الحكومة بمنع الحجاب في المدارس وبعض المراكز الحكومية، وما حدث كذلك في فرنسا وغيرها من الدول ليس أمراً مقبولاً أو منطقياً على حد تعبيرهن.

الرجوع إلى القرآن رأساً دون الأخذ بأقوال المفسرين القدماء:

من المناهج التي تتبناها حركة الأخوات في الإسلام عند تناول القضايا المتعلقة بالنساء بشكل عام، أنها ترجع إلى القرآن رأساً، دون أن تضع في الحسبان أقوال العلماء المتقدمين من المفسرين والفقهاء، ولم يأت هذا من فراغ، بل أتى من منطلقها بأن التفسيرات القديمة ليست مقبولة؛ حيث إنها تفسيرات ذكورية، لا تمثل تفسيراً صحيحاً، ولذلك خلصن إلى القول بأن القرآن لم ينص على وجوب ما يسمى اليوم بـ"الحجاب"، وأي تفسير يقول بفرضية الحجاب فهو تفسير ذكوري ليس له صلة بروح القرآن ومقاصده.

ومن خلال قراءتهن للقرآن، وتفحصهن الآيات المتعلقة بالحجاب في القرآن الكريم، خلصن إلى أن هناك ثلاثة ضوابط للباس المرأة في القرآن، وأي محاولة للزيادة عليها يعتبر افتراء على القرآن^٤:

الضابط الأول: لباس التقوى: كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٣٦].

الضابط الثاني: تغطية الصدر فقط كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِحُجْمِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، وفي هذا الصدد يذكرن أن ثمة محاولات من قبل

^١ ريشارد وود لوك، Hijab: An interpretation of Islamic women's dress

^٢ <http://sistersinislam.org.my/news.php?cat.120>

^٣ What's with the Hijab? 12 February 2004

^٤ <http://www.sistersinislam.org.my/news.php?item.987.120> عثر عليه في: ٢٣/١٠/٢٠١٤م.

^٤ Women's Dress Code in Islam ، <http://www.sistersinislam.org.my/news.php?item.660.10>، عثر عليه: ٢٢/١٠/٢٠١٤م.

الفقهاء تشمل في إضافة كلمتي "الحجاب" و"الخمار"، وهذا ما جعل بعض الباحثات المنتسبات إلى الحركة تناولن الحديث عن كل من كلمة "الحجاب" و"الخمار".

بلورة معاني لفظي "الحجاب" و"الخمار" في القرآن:

ترى الحركة النسوية الماليزية "الأخوات في الإسلام" أن لكلمة "الحجاب" في اللغة معان كثيرة منها التغطية والحجز، وقد ورد مصطلح الحجاب في القرآن سبع مرات، خمس مرات منها بلفظ "الحجاب"، وجاء مرتين بلفظ "حجابا"، وفي هذه المواضع كلها، لم يحمل هذا المصطلح في طياته ما يعرف اليوم عند الفقهاء وعامة المسلمين بالحجاب.

خلفية تاريخية للحجاب:

ترى الحركة أن الذين يربطون الحجاب بالإسلام أو بالقرآن ليس لهم دراية على الإطلاق بتاريخ الحجاب وخلفياته، فالحجاب ما هو إلا عادة يهودية تسربت إلى الإسلام عن طريق بعض المفترين على الحديث النبوي، كما تسربت بعض الروايات الموضوعة في الحديث، بل إن جميع أتباع الأديان بما فيها اليهودية والنصرانية والإسلام يرتدين الحجاب، وهذا ليس منطلقاً من معتقداتهم الدينية، إنما هو منبثق من عاداتهم وتقاليدهم. وترى الحركة أن هذه الظاهرة "ارتداء الحجاب" ليس منحصرًا في أوساط أتباع الديانات السماوية، بل إن نساء بعض القبائل الأفريقية يرتدين الحجاب ولسن مسلمات.

فالحجاب عندهن باختصار ليس أمراً إلهياً يمكن التسليم أو الخضوع له، بل هو عادة وعرف توارثه جيلاً عن جيل، فربط العادة بالدين يعتبر لونا من عبادة الأصنام، فالمسيحيات في كثير من المناسبات الدينية يضعن غطاء الرأس، وكانت هذه العادة موجودة قبل الإسلام بآلاف السنين، فكيف يدّعي علماء المسلمين أن "الحجاب" تغطية الرأس من الإسلام؟!^١

لفظ "الخمار" في القرآن عند أخوات الإسلام "SIS":

وترى الحركة أن لفظ الخمار المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] لا ينبغي أن يفسر بمعزل عن لفظ الحجاب المذكور في الآيات القرآنية الأخرى؛ إذ إن لفظ الحجاب ذكر قبل لفظ الخمار وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ويلاحظ أن الآية ذكرت ضابطاً مهماً وهو "لباس التقوى" وهذا هو المعيار الأساسي في لباس المرأة. على أن الراسخين في العلم لا يختلفون في أن ذكر لفظ "الخمار" في سورة النور لا يدل بأي طريقة على الحجاب كما يزعم بعض العلماء المعاصرين.

وعلى هذا ترى حركة "الأخوات في الإسلام" أن الخمار في لغة العرب عبارة عن غطاء فحسب، فالثوب يمكن أن يعدّ خماراً، واللحاف كذلك قد يعدّ خماراً، وكل آلة تستخدم في غطاء شيء يسمى خماراً في اللغة، لذلك نجد أن لفظ "الخمر" من أصل (خ م ر)، والمقصود منه كل ما يخمر العقل ويغويه. إلا أن بعض الباحثين الذين ترجموا الآية السالفة الذكر على أن

^١ المرجع السابق.

الخمير حجاب معروف الآن إنما تأثروا ببعض الأحاديث الموضوعية، وقد أضلوا العوام حيث غرسوا في قلوبهم أن لفظ الخمير هو الحجاب المعروف في عصرنا الراهن.

وجدير بالذكر أن الحركة ترى أن القرآن أمر المرأة بأن تستخدم "الخمير" أي كان نوعه لتغطية صدرها، وليس رأسها، أو شعرها كما يزعم بعض العلماء المسلمين، وكيف يكون الأمر متوجها إلى الشعر أو الرأس، وهذان اللفظان لم تنص عليهما الآية، لا من قريب ولا من بعيد. ومعلوم أن الله إذا أراد أن يأمر المرأة بتغطية الرأس أو الشعر لفعل^١.

واحتجوا بأن الله استثنى في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾، والمقصود هو ما ظهر من الزينة، وهذه دلالة ظاهرة على إعطاء المرأة كامل حرمتها لتقرر مدى الحاجة إلى إظهار بعض الزينة، على أن المرأة إذا توفرت فيها الشرط الأول، وهو "التقوى أو لباس التقوى"، فليس هناك مشكلة في أن تقرر لنفسها دلالة لفظ ﴿مَا ظَهَرَ﴾ بدون أن تلجئ إلى أي فقيه أو عالم يقيد لها حرمتها التي منحها القرآن، وبهذا ترى الحركة أن المراد بلفظ ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ في الآية هو جسم المرأة، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ حيث إن المرأة إذا ضربت برجلها فإن الذي يظهر هو بعض تفاصيل جسمها، وليست الزينة المكتسبة كما يزعم بعض المفسرين.

وفي هذا الخضم، خلصت الحركة إلى أن اللاقي يلبس الحجاب على هيئته المعروفة اليوم عن رغبة فيه دون الاعتقاد بأن الأمر من رب العالمين فلهن ذلك؛ لأن هذا من حرمتهن الشخصية، أما اللاقي يريدن الحجاب ويعتقدن أن الحجاب واجب، وأن القرآن أمر به، فإن هؤلاء النساء يقعن في "عبادة الأصنام"؛ لأنهن يتبعن العلماء وليس الله، وقد نهي الله عن الشرك، وتوعد من يشرك بالنار إن مات عليه ولم يتب^٢.

الضابط الثالث: أن يكون الثوب طويلا:

ومن الضوابط التي وضعها أنصار حركة "الأخوات في الإسلام" "SIS" كون اللباس طويلا، وترى الحركة أن القرآن قد أشار إلى هذا الضابط لما أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخبر زوجاته بأن يدين عليهن من جلابيهن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ويستنبط من هذه الآية أن الأمر بالإدناء هنا مطلق، وليس هناك ما يدل على تحديد متى يعتبر الجلاب، قد توفرت فيه شرط الإدناء المذكور في الآية، والإطلاق هنا مقصود بعينه، وليس لأحد من المفسرين أيًا كانت درجته أن يقيد مطلق هذا اللفظ القرآني. ولأن القرآن قد ترك الأمر هكذا حيث علم الله أن الأعراف تختلف باختلاف الأمكنة الأزمنة، لذلك ترك الأمر لكل زمن أو مكان أو بيئة تحديد المراد من لفظ "الإدناء" المذكور في الآية.

^١ ريشارد، Hijab: An interpretation of Islamic women's dress

، http://www.sistersinislam.org.my/news.php?item.605.10، ٢٠١٤م

^٢ المرجع السابق.

إذن الأساس والمعتبر في لباس المرأة في الإسلام هو التقوى والاحتشام، ولكن هذا الأخير متروك لظروف تعيشها المرأة، فالبيئة هي التي تحدد مفهوم الاحتشام، فما يعتبر الاحتشام في ماليزيا قد يختلف عن ما يعد احتشاما في أمريكا، أو ما يعد احتشاما في السعودية قد لا يعتبر احتشاما في غيرها من الدول.

فاختلاف الأنظار في تحديد الاحتشام مقصود بذاته، حيث وضعه القرآن في الاعتبار، فالله لم يرد بنا العسر، وإنما يريد بالبشر اليسر، وليس من حق أي شخص سواء كان عالما كان أو سلطانا أن يحدد أو يقيد اللفظ القرآني بما تهواه نفسه.

هذا مجمل ما أبدته حركة "الأخوات في الإسلام" "SIS" من براهين وحجج، وقيل أن نحوض في مناقشة الأدلة التي استدلوها بها نلاحظ أن أنصار حركة "SIS" لم يذكروا حديثا واحدا، ولم يرجعوا إلى أقوال الصحابة والتابعين، على الرغم من أن اللاتي يكتبن في الركن الخاص بالحركة ليس لهن خلفيات علمية في هذا العلم، غاية ما هناك أن هؤلاء يردن بأي طريقة جرد المرأة مما يعتبرونها قيودا، وجردها من مكانتها الكريمة التي وضعها الله لها، لذلك نلاحظ أن هناك تناقضات واضحة في استدلالاتهم، فتارة يقلن: إن الحجاب عادة وليس عبادة، وتارة أخرى يذكرن أن القرآن ذكر لفظ الحجاب، وإذا قلنا: إن الحجاب عادة، فهل تكون العادة شركا إذا لم تتصادم مع الشريعة الإسلامية؟! وإذا سلمنا جدلا أن أفهام المفسرين توجهت في تفسير "الحجاب" و"الخمار" وغيرهما من الألفاظ ذات الصلة إلى ما يعرف بالحجاب الشرعي اليوم، فهل هذا يقودنا إلى طمس هذه الآراء كافة، ووصفها بأنها شرك وعبادة الأصنام؟! ومتى صار الاجتهاد المبني على أسس متينة، وأدلة معتبرة عادة؟

مناقشة آراء "الأخوات في الإسلام" "SIS" حول الحجاب:

لا يخالطني أدنى ريب في أن محاولات حركة "SIS" ليست بعيدة عن محاولات بقية الحركات النسوية في العالم من حيث تجريد المرأة من أي لفظ يحمل معنى "الحجاب الشرعي"، ولأن الحجاب في فكرهن ما هو إلا قيود، فرضها الرجال على النساء.

فمن هنا يجدر بنا مناقشة آراء هذه الحركة "SIS" وبخاصة الآراء المتعلقة بالحجاب، وما أثير حوله.

الحجاب بين العادة والدين:

نلاحظ كثيرا أن الحركة في كتاباتها تصف الحجاب بأنه عادة وليس دينيا يجب الانقياد له، ولم تكتف بهذا الحد، بل ذهبت أبعد من ذلك حيث ترى أن ارتداء الحجاب والاعتقاد بأنه واجب شرعي يعتبر شركا وعبادة لغير الله!.

ولا يشك من له أدنى دراية بمقاصد القرآن في أن هذا القول افتراء على القرآن ومقاصده، فقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ [النور: ٣١] فيه دلالة واضحة على أن الحجاب المعروف اليوم أمر إلهي، وليس عادة كما تزعم الحركة، بصرف النظر عن ما يندرج تحت مفهوم الحجاب عند العلماء المسلمين المعتبرين، ويلاحظ كذلك أن في الآية دلالة على عدم إبداء الزينة إلا ما ظهر منها. ومعلوم أن العرب قبل نزول الآية ما كانت ترتدي الحجاب كما هو الشأن قبل نزول قوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وفي الآية أمر بمخالفة ما عليه النساء في الجاهلية من التبرج وعدم ارتداء الحجاب، فأين الدليل على أن الحجاب عادة يهودية

تسرب إلى الفقهاء؟! وأين تلك المحاولات التي تدعي الحركة أن الفقهاء والمفسرين هم الذين قاموا بها؟ هل هذه المحاولات تمخضت في عصر الرسالة أم بعدها؟!

ومن أمعن النظر يجد أن هناك تناقضا واضحا في حجة أنصار حركة "SIS" حيث ترى إثم من ارتدت الحجاب احتسابا بدليل أنه اتباع غير الله، وفي الوقت نفسه تستدل بالآية على إباحة إبداء ما ظهر للضرورة، بصرف النظر عن تأويل ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أضف إلى ذلك أن تفسير الآية لا ينبغي أن يتم بمعزل عن آيات أخرى لها صلة وثيقة بالقضية، ومن بين هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ولئن استسلمنا لتحفظات الحركة تجاه اختلاف العلماء في تأويل قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، فليس لها أن تحيد عن أقوال الصحابة الذين عايشوا التنزيل، أو ما فهمه الصحابة كما حكاها المفسرون المعترفون:

فقد فسر ابن مسعود بقوله: "ظاهر الزينة هو الثياب"^١، ومن ذلك ما روي عنه أنه قال: "الزينة زينتان: فالظاهرة منها الثياب، وما خفي: الخَلْخَالان والقرطان والسواران"^٢.

أما ابن عباس وغيره من التابعين فذكروا أن الاستثناء يدل على أن "ظاهر الزينة هو" الكحل والسوار والخضاب إلى نصف الذراع والقرطة والفتخ، ونحو هذا"^٣، على أن بعض التابعين رجحوا أن يكون المراد من الاستثناء هو الوجه والثياب^٤. فالزينة تطلق في الاصطلاح القرآني ويراد بها الثوب كما في قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

وأما قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] والخمر جمع خمار، وهو غطاء الرأس الذي يُسَدُّ لِيَسْتَرِ الرِّقْبَةَ والصدر. الجيوب: جميع جيب، وهو الفتحة العليا للثوب ويسمونها "القبة"، والمراد أن يستر الخمار فتحة الثوب ومنطقة الصدر، فلا يظهر منها شيء.

وأضاف ابن عاشور أن "الخمار: ثوب تضعه المرأة على رأسها لستر شعرها وجيدها وأذنيها"^٥. ومما يلفت النظر أن القرآن قد استخدم لفظ ﴿وليضربن﴾ دلالة على "تمكين الوضع.. (أي) ليشددن وضع الخمر على الجيوب، بحيث لا يظهر شيء من بشرة الجيد. والباء في قوله ﴿بخمرهن﴾ لتأكيد اللصوق مبالغة في إحكام وضع الخمار على الجيب زيادة على المبالغة المستفادة من فعل ﴿يضربن﴾^٦.

^١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٢، ص ٢٢٨.

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ١٩، ص ١٥٥.

^٣ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٢، ص ٢٢٨؛ والطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ١٩، ص ١٥٥.

^٤ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ١٩، ص ١٥٨.

^٥ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٨، ص ٢٠٦.

^٦ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٨، ص ٢٠٦.

على أننا إذا تناولنا بالدراسة والتحليل سياق الآيات الواردة وحالة العرب آنذاك يتبين لنا أن العادة خلاف ما جاء به القرآن، وقد أشار إلى هذا الإمام الرازي حيث ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ "أن نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من خلفهن، وإن جيوههن كانت من قدام، فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن، فأمرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليتغطى بذلك أعناقهن ونحورهن وما يحيط به من شعر وزينة من الحلى في الأذن والنحر وموضع العقدة منها".^١

ويتبين مما ذكر أن القرآن تناول موضوع الحجاب والخمار والجلباب، بل أمر به، وأن الصحابة فهموا وجوب الحجاب الشرعي، ولم نرجع إلى أقوال الفقهاء بسبب أن الحركة تزعم أن القول بوجوب الحجاب أحدثه الفقهاء والمفسرون، لذلك لجأنا إلى أقوال الصحابة والتابعين.

ويعضد ما سبق أن الآية لما نزلت تسارعت نساء الأنصار إلى الامتثال بالأمر كما جاء من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "ما رأيت خيراً من نساء الأنصار، لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن إلى مرطها، فصدعت منه صدعة فاختمت، فأصبحن على رؤوسهن الغريان"، وهل يقال: إن الصحابيات قلدن المفسرين والفقهاء؟! وهل يقال: إنهن إذا احتسبن الأجر من ارتدائهن الحجاب يعتبر شركاً لعبادة لغير الله - والعباد بالله؟! أين منطلق هذا القول؟.

ويضاف إلى ما ذكر أننا إذا رجعنا إلى السنة النبوية والتي أنيط إليها بيان مقاصد القرآن، وتوضيح ما أجمله القرآن، أو تقييد مطلقه، نجد أنها بينت أن الحجاب أمر أقره الشرع وندب إليه، وليس عادة أو "شركاً" على حد تعبير حركة "الأخوات في الإسلام".

فمن الأحاديث الواردة ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة». فقالت أم سلمة رضي الله عنها: "فكيف يصنع النساء بذيولهن؟" قال: «يرخين شبراً» فقالت: "تنكشف أقدامهن". قال: «فيرخينه ذراعاً لا يزدن عليه»^٢.

يضاف إلى ما سبق من مناقشة آراء حركة "الأخوات في الإسلام" أنها غفلت أو تجاهلت بقصد أو بغير قصد عند تحليل الألفاظ المتعلقة بالحجاب في القرآن لفظ التبرج الذي نهي عنه القرآن، ولم تتطرق إلى هذا اللفظ لا من قريب ولا من بعيد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

التبرج والحجاب:

وينبغي أن نشير إلى أن لفظ التبرج جاء في الخطاب القرآني، ومعناه في اللغة كما جاء في مقاييس اللغة، أن (ب ر ج) أصلان: الأول الظهور البروز. والثاني: الوزر والملجأ، يقال: امرأة برزة أي كاشفة محاسنها وزينتها^٣. أما في الاصطلاح الفقهي

^١ الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٣، ص ٣٧١؛ والآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج ١٨، ص ١٤٢.

^٢ أخرجه أبو داود في سننه؛ والترمذي في سننه، وقال حسن صحيح.

^٣ الفيروزبادي، القاموس المحيط، ج ٢، ص ١٦٥.

فقد عرّفه بتعريفات كثيرة، عرفه الزمخشري وهو من العلماء المهتمين باللغة والبلاغة بأن التبرج هو: "أن تتكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها، وإظهار محاسنها"^١.

إذن المفهوم من النهي الذي جاء به القرآن يتمثل في عدم إبداء المرأة زينتها للرجال الأجانب، وهذا كذلك يشمل كشف الشعر وعدم تغطيته، وإظهار المفاتن والمحاسن، وإذا كان الأمر كذلك فأين الأخوات في الإسلام من هذه الآية؟ هل الدراسات القرآنية التي تكبدتها هذه الحركة لم تصل إلى هذه الآية؟! أم هي منسوخة عندهم؟!

ولسائل أن يسأل: هل الحجاب تقييد لحرية المرأة كما يزعم بعض المنتسبين إلى الإسلام؟ أم هو كرامة وصون للمرأة من أيدي الفجار؟ فالحجاب في الإسلام ليس أمراً ظاهرياً، لا يمس الروح والجوهر، بل إن فلسفة الحجاب في الإسلام ترجع إلى عوامل كثيرة، منها ما يتعلق "بجانب نفسي، والآخر ذو جانب أسري، وبعضها ذو جانب اجتماعي، وآخر يرتبط برفع مستوى المرأة واحترامها، والحيلولة دون ابتذالها"^٢.

وليس من نافلة القول أن نؤكد هنا أن الإسلام ليس أول من بدأ بتشريع الحجاب، وإنما سبقته شرائع أخرى، وهذا الذي أرى أنه غاب عن أنصار "الأخوات في الإسلام"، حيث اختلط عليهن ما توارثته الديانة اليهودية والنصرانية من لبس الحجاب، وما يعتبره اليهود والنصارى من عاداتهم وتقاليدهم، ولعل الامتثال بأمر الإله هو الذي من "اعتمدن الرهبانية في المسيحية يرتدين ثياباً محتشمة مع تغطية رؤوسهن؛ أي يتحجبن"^٣.

وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها كما في البخاري وغيره أنها قالت: "كان الركبان يمرون ونحن مع رسول الله محرمات، فإذا حاذونا أسدلت إحدانا جلبابهن من رأسها على وجهها، فإذا جاوزنا كشفناه"، وهل هذا الجلباب مخصص للصدر يا أنصار "الأخوات في الإسلام"!!!؟

ومما سبق تبين أن الحجاب بما فيه تغطية الشعر، وعدم إظهار مفاتن المرأة ومحاسنها مما أمر به القرآن، وأن أي محاولة للروغان عن هذا المصطلح يعد فراراً من أمر الشرع، وبهذا يتضح أن الحجاب ليس عادة كما يتوهمه أنصار حركة الأخوات في الإسلام حيث إن القرآن ينهى عن التبرج، والذي كان سائداً في العصر الجاهلي.

على أننا في هذا البحث لم نهدف إلى بيان اختلاف الفقهاء قديماً وحديثاً في شروط الحجاب الشرعي، وما إذا كان يجدوز كشف الوجه والكفين أم لا، قدر ما نصبو إلى إثبات شرعية الحجاب من ناحية، ومن ناحية أخرى مناقشة أنصار حركة "الأخوات في الإسلام" ما إذا كان للمرأة حر في أن تبدي زينتها ومفاتنها.

خلاصة البحث وتوصياته:

ومما تعرضنا له من هذا البحث المتواضع يمكن أن نخلص إلى الآتي:

^١ الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٧٦.

^٢ المطهري، مسألة الحجاب، ص ٦٣.

^٣ السمراني، المرأة في التاريخ والشريعة، ص ١٩٦.

- ١) إن حركة "الأخوات في الإسلام" "SIS" في ماليزيا ليست ببعيدة عن بقية الحركات النسوية من حيث مطالبها، وقضاياها المحورية.
- ٢) إن منهج حركة "SIS" في تناول الآيات القرآنية لا يتماشى مع منطق علمي مقبول.
- ٣) إن الاستعانة بعلوم القرآن مطلب ضروري لتفسير القرآن واستنباط الأحكام الشرعية منه، فالرجوع إلى القرآن رأساً دون مصاحبة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد وغيرها لا ينسجم مع قواعد التفسير.
- ٤) إن دعوى حركة "SIS" بأن التفاسير الموجودة بين أيدينا الآن لا تمثل تفسيراً صحيحاً بزعم أنها تفسير ذكوري دعوى عارية عن الأدلة القوية المقبولة.
- ٥) إن الحجاب ليس عادة توارثها جيل عن جيل، وإنما هو أمر إلهي، جاء به القرآن ووضحته السنة النبوية الشريفة.
- ٦) إن قضية الحجاب لا يمكن أن تناوله بمعزل عن الأحاديث النبوية الشريفة، فمصدر التشريع ليس قرآناً فحسب، بل هناك سنة يجب الانقياد لها والتسليم لأمرها.

توصيات البحث:

وبهذا يوصي هذا البحث المتواضع بالآتي:

- ١) استمرار دراسة فكر "الأخوات في الإسلام" "SIS"، وما إذا كان هذا الفكر يتماشى مع مبادئ الإسلام ومقاصده.
- ٢) إن ثمة حاجة وضرورة إلى توعية الشعب الماليزي سيما النساء بخطورة منهج حركة "SIS" حيث إن فتح باب الرجوع إلى القرآن رأساً يؤدي إلى مفاسد لا تحمد عقباه.
- ٣) على الباحثين والأكاديميين ترغيب الطلاب في تناول أفكار حركة "SIS" وأيديولوجياتها وعلاقتها بأفكار الحركات النسوية في العالم العربي.

المراجع والمصادر:

١. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية للنشر).
٢. أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، سنن أبي داود.
٣. الألوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
٤. الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى، السنن.
٥. الرازي، مفاتيح الغيب.
٦. ريشارد وود لوك، **Hijab: An interpretation of Islamic women's dress**,
http://www.sistersinislam.org.my/news.php?item.605.10
٧. الزمخشري، الكشاف.
٨. السمراني، أسعد، المرأة في التاريخ والشريعة، (بيروت: دار النفائس، ط ٢، ١٩٩٨م).

٩. سيتي سورايدا، بنت صديق، المساواة بين الرجل والمرأة عند منظمة الخواتم في الإسلام في ماليزيا: دراسة في المنظور القرآن، رسالة ماجستير مقدمة لكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، (ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠٠٧م).
١٠. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، (مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٠م).
١١. فاطمة شرحا، بنت محمد نور الدين، المساواة بين الرجل والمرأة في فكر المنظمات النسوية في الحركات الأنتوية في الإسلام بماليزيا نموذجا: دراسة تحليلية نقدية في ضوء الفقه الإسلامي، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، (ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ٢٠١٠م).
١٢. الفيروزبادي، القاموس المحيط.
١٣. القرطي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٩٩٦م).
١٤. المطهري، الشهيد مرتضى، مسألة الحجاب، ترجمة حيدرال حيدر، (الكويت: مكتبة الفقيه، ط ١، ١٩٨٧م).
١٥. <http://sistersinislam.org.my/news.php?cat.120>
١٦. عثر عليه <http://www.thestar.com.my/News/Nation/2013/12/31/muslim-women-award-zainab-anwar>، عليه ٢٢/١٠/٢٠١٤م.
١٧. **The SIS Story**، <http://www.sistersinislam.org.my/page.php?35>، عثر عليه ٢٠١٤م.
١٨. **What's with the Hijab?**، ٢٠٠٤/٢/١٢، <http://www.sistersinislam.org.my/news.php?item.987.120>، عثر عليه ٢٣/١٠/٢٠١٤م.
١٩. **Women's Dress Code in Islam**، <http://www.sistersinislam.org.my/news.php?item.660.10>، عثر عليه ٢٢/١٠/٢٠١٤م.

خصائص الخطاب القرآني مع الآخر

أ. د. غازي غزاي المطيري^١

ملخص البحث:

تعنى الورقة المقدمة للمؤتمر بذكر خصائص الخطاب القرآني من الحوار مع الآخر، والتي تقوم على الحجة الدامغة، والتي يمكن إجمالها فيما يلي: سمو الهدف وجلالة الغاية. والوصول إلى الحق. وبيان الخطأ والتحذير منه. ومزج الحوار القرآني بالموعظة الحسنة. والعلم. وبلاغة الخطاب. وتلك الخصائص لا تجتمع آحاداً أو مجموعاً إلا في الخطاب القرآني وأعني بذلك، بلوغها درجة الكمال والجمال، وإن شاركها خطاب فهو دونها كما وكيفاً ومثلاً وتطبيقاً وأثراً.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وبعد!

لا جرم أن الإسلام دين جاء لإنقاذ البشرية، وإخراجها من الظلمات إلى النور، ولا يمكن أن يتحقق ذلك، دون مد حبل التواصل بين الداعي والمدعو، وهذا حق واجب كما قال تعالى: ﴿إِن عَلَيْكَ إِلاّ الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. وهذا البلاغ يأخذ صوراً متعددة، وقوالب متنوعة جميعها تصب في سياق الخطاب الموجه إلى المدعو، سواء كان مسلماً أو غير مسلم، ويعد الحوار أحد وسائل الدعوة، الذي اهتم القرآن الكريم بصياغته وفق شمولية دقيقة، بحيث انفرد بخصائص غير العصف الذهني، الذي يستثمر قدرات الإنسان العقلية ويستثيرها، ويجفها، بحيث يوقف الآخر على الحقائق الناصعة، فالقرآن حافل بالأدلة العقلية والمنطقية التي تكفل بإقناع كل باحث عن الحق بدليله وبرهانه، وتعليه وحكمه يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧] فلفظة ﴿كل﴾ دليل على أن القرآن الكريم جمع كل ألوان الخطاب البرهاني لجميع الفئات العقلية، وبذلك سجل سبقاً فكرياً وجدلياً منفرداً ومتميزاً، لم يعرف له نظير في المنطق اليوناني أو الرياضي الحديث، وذلك أنه مزج بين الدليل المقنع والتوجيه الأخلاقي، مستثمراً العاطفة والعقل معاً دون إجبار أو عنق "فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً؛ إلا وفي القرآن بأفصح عبارة، وأوضح بيان، وأعم معنى، وأبعده عن الإيرادات والأسئلة"^٢. وما ذاك إلا لشموليته، التي سدت وأوعت ببلاغة الإجابة على جميع الإشكالات، فليس المقصود من خطاب القرآن الفلج أو الغلبة، بقدر ما هو الدعوة إلى التفكير الحر الجريء، وكثيراً ما طالب خطاب القرآن المشركين بإعمال الفكر بالنظر العميق، والفحص الدقيق، والتدبر الراسخ في معتقداتهم وما وروثوه عن آبائهم وأجدادهم يقول تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

^١ الأستاذ بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية، بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

^٢ ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج ١، ص ٤.

يقول ابن عباس "كل سلطان في القرآن فهو الحجة"^١. فالحق سبحانه وتعالى سمي علم الحجة سلطاناً لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بما سلطان على الخلق، بل سلطان العلم، أعظم من سلطان^٢. وهذا اللقب العلمي مما انفرد به خطاب القرآن الكريم مع الآخر، وتلك أمثلة الخطاب القرآني، التي تعظم الدليل وتلبسه صبغة لغوية قوية، ومسحة معنوية مطابقة تعظيماً لشأن الحقيقة، التي تعد الفيصل الذي يدور عليه فلك الحوار في الخطاب القرآني، بعيداً عن ألوان الزيف أو التأويل المموج أو التحريف ولي أعناق النصوص وقد أثنى الله على أنبيائه الذين يمثلون النموذج الحي في النطق بالحجة يقول ثناءً على إبراهيم عليه السلام ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]. والمحاور المسلم مدعو إلى الاقتداء بالرسول والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الذين طبقوا أدبيات وشرائط ومفاهيم الخطاب القرآني بحذافيره، ومنه قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وتلك شروط ملزمة للمحاور المسلم، وتخص الجدل بالذكر لأهميته الكبرى في الحوار "وقد أوجب الجدل في هذه الآية، وعلم فيها تعالى جميع آداب الجدل كلها، من الرفق والبيان والتزام الحق، والرجوع إلى ما أوجبه الحجة البالغة"^٣. ولم يكتف الخطاب القرآني ببيان الخطوط العريضة للحوار فحسب بل قدّم نماذج مع الآخر، الذي يتقصد غير المسلم، وفي طليعتهم أهل الكتاب. يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِهْنَاءُ وَإِهْنَاءُ وَإِهْنَاءُ وَإِهْنَاءُ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] والآية صريحة في لزوم الجدل، بأعلى مواصفات القول الأحسن "ولهذا كان الواجب على المسلمين، إذا جادلوا اليهودي والنصراني، أن يجادلوه بالتي هي أحسن إلا من ظلم"^٤. والمقصود الإحسان إلى الآخر، ليسمع الحق ويتدبره، ولو كان في أشد الحالات حساسية وخطورة، كالحرب العوان، يقول تعالى: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦] فالهدف من الخطاب هو الهداية وإغراء المخالفين، على الإقبال على سماع حجج الخطاب القرآني قبل أن يتخذوا مواقف عجولة ومتسرعة، فالله عز وجل أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وأتمته من بعده، بإجارة المستجير، حتى يسمع كلام الله، دون ضغط أو إكراه، بدليل الأمر بإطلاق سراحه، وإيصاله إلى موطنه سالماً دون أن يصاب بأي أذى، ويمثل الهدى النبوي النموذج الأمثل في الحوار مع الآخر في العهدين المكي والمدني، حيث كان يستمع إلى الأسئلة الموجهة دون تدمير أو ضيق، ويرد عليها بكل وضوح أو يطلب إرجاءه حتى يأتي الوحي من السماء، وخاصة في القضايا الغيبية، وقد حاولت قريش بمساعدة اليهود، إحراج النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم فشلوا، فقد كان الوحي ينزل بالأجوبة المقنعة، وقد أخذ العلماء من ذلك ضرورة محاورة الآخر، ويتباحثون ويحتج بعضهم على بعض، ولو كان كل واحد منهم مصيباً، كانت

^١ ابن تيمية، نقض المنطق، ص ١٨٠.

^٢ ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج ١، ص ٥٩.

^٣ ابن حزم، الإحكام في الأحكام، ج ٢، ص ٢٠.

^٤ ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

المناظرة خطأ ولغو لا فائدة منها، فإن المخالف إنما يناظر أحد الخصمين الآخر، حتى يغلب على ظنه ما أدى اجتهاده إليه، فيرجع إلى قوله، فالجواب أنه لا فائدة في رجوعه من حق إلى حق، وكونه على ما هو عليه وانتقاله إلى ظن آخر سواء لا يفرق بينهما وتحمل التعب والكلفة والتنازع والتخاصم، لما ذكره المخالف ليس من فعل العقلاء، وقد وجدنا الأمة متفقة على حسن المناظرة، في هذه المسائل وعقد المجالس^١.

والإسلام يروم في إجراء الحوار، إلى احترام العقل البشري الذي جعله مناط التكليف، ولا بد من استثارته فالحوار "يشحذ ويرهف ويثير الخواطر، ويخرج الدقائق، وكل ذلك آله لإدراك العقل الحق"^٢. فالجمود والترابة يقتلان الإبداع، وكلما أعطي العقل حظه من الدربة والمران، توسعت مداركه، وانفتحت أمامه آفاقاً لم تكن تخطر على البال، لذلك "فإن النظر العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدربه ويقويه على العلم"^٣. فالحوار مدخل إلى تلاقح الأفكار، والاستفادة من الآخر بخلاف الانغلاق والتزم، والوقوف في ربة التقاليد فإنه "لا يورث إلا بلاده"^٤. فالشدو في مراتب العلم، والارتقاء في منازل مرهون، بتدريب الفكر وإعماله في جولان الحوار والمناظرة "ومن ليس له بضاعة من هذا الفن لا يكاد يفهم أبحاث العلوم"^٥.

ويمكن إجمال خصائص الخطاب القرآن في الحوار مع الآخر في الآتي:

(١) سمو الهدف وجمالة الغاية:

مما أكد عليه القرآن الكريم في خطابه مع الآخر، أن تكون الغاية الدعوة إلى الله وعبادته لا شريك له، وهذه الحقيقة لا يشارك فيها سواه، فقوله تعالى: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨] هي البوصلة التي توجه مسار الحوار.

(٢) الوصول إلى الحق:

ليس للمحاور المسلم أي هدف يذكر سوى الوصول إلى الحق، ومتى لاحت تباشير الحق، أقر به، وسارع إلى تقريره غير متشبث برأيه، تلك حقيقة، يؤكد لها خطاب القرآن، وعدم السماح بالحيدة عنها قيد أمثلة، لارتباطها بالتوحيد والإخلاص لوجه الله تعالى، فالمحاور المسلم الحق، في حال تلهف دائم لطلب الحق، سواء ورد على لسانه أو بفضله غيره "كناشد ضالة، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرفه الخطأ، وأظهر له الحق"^٦.

وللشيخ السعدي رحمه الله لفتة دقيقة منتزعة من خطاب القرآن تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، يقول: "ولا تكن مناظراتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد الرسل، كما يفعل الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم من حق وباطل، فهذا باطل، وخروج

^١ البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج ٢، ص ٦٢.

^٢ ابن عقيل الحنبلي، الواضح في أصول الفقه.

^٣ ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ص ٢٥٥.

^٤ ابن تيمية، منهاج السنة، ج ٥، ص ٢٨١.

^٥ المرعشي، ترتيب العلوم.

^٦ الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١٥٧.

عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً^١.

فالتجرد من المؤثرات على مسار الحوار هدف أصيل كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ مِثْنِي وَفِرَادَىٰ تُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦] فتقييد القيام بلام الاختصاص ﴿لله﴾ يمثل قمة التجرد والصفاء، والإخلاع من كل مؤثر، ينحرف بالحوار عن مساره الصحيح، وقوله تعالى: ﴿مِثْنِي وَفِرَادَى﴾ غطاء منهجي للحوار، حيث لا أثر للكثرة أو القلة أو الشهرة أو المقام أو الأشخاص، وتلك حقيقة ينفرد بها خطاب القرآن، ويضرب الإمام الشافعي رحمه الله مثلاً يحتذى بقوله "ما ناظرت أحداً، إلا تمنيت لو أن الله أظهر الحق على لسانه"^٢.

وقيد سبحانه خطاب الحوار بقوله ﴿ثم تفكروا﴾ فالتفكير يستلزم البعد عن الإمعية والتقليد، والإقبال على فحص الدليل والنظر في الحجة والبرهان، والمعنى الدقيق للآية "إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق، وهي أن تقوموا لوجه الله خالصاً متفرقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً - ثم تفكروا - في أمر محمد ﷺ، وما جاء به أما الاثنان فيتفكران، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه، نظر متصادقين متصافين، لا يميل بهما أتباع الهواء، ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بها الفكر الصالح، والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه، وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفه من غير أن يكابرها، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم، والذي أوجب تفرقهم مثنى وفردى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الروية ويخلط العقول، مع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف ويشور عجاج التعصب، ولا يسمح إلا نصرته المذهب"^٣.

(٣) بيان الخطأ والتحذير منه:

ليس للخطاب القرآني هدف مع الآخر سوى إرشاده إلى الحق، وتحذيره من الانحراف، وتجليه عواره، وهذا ما أفاض فيه القرآن من استعراض شبهات المشركين والملحددين والكفار والرد عليها ونالك أهل الكتاب النصيب الأوفر من تلك الحوارات القرآنية فإن "كثيراً من أهل الكتاب يبلغهم الإسلام، ولكن يمنعهم من الإيمان شبهات يحتاجون إلى أجوبة عنها"^٤، كما حاور المشركين باختلاف نحلهم، والقرآن بتلك الحوارات الدقيقة، حرصاً على إقرار حقيقة التوحيد، ورد الشرك والباطل.

^١ السعدي، تفسير السعدي، ج ٤، ص ٦٥.

^٢ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ٢٩.

^٣ الرمخشي، الكشاف، ج ٢، ص ٢٩٤.

^٤ ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ١، ص ٧٦.

٤) مزج الحوار القرآني بالموعظة الحسنة:

يتجه الخطاب القرآني في الحوار مع الآخر باستخدام عدة أساليب ينفرد بها عن سائر ألوان الجدل ونظريات المناظرة عبر التاريخ، من خلال مزج الحوار بالموعظة، التي تستثير العواطف كما في الآية الكريمة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. ونلاحظ الفصاحة لائحة في ابتداء الآية إذ "حذف المفعول للتعميم لكونه بعث إلى الناس كافة، وسبيل الله هو الإسلام ﴿بالحكمة﴾ أي بالمقالة المحكمة الصحيحة، قيل: هي الحجج القطعية المفيدة لليقين. ﴿والموعظة الحسنة﴾ هي: المقالة المشتملة على الموعظة السنة التي يستحسنها السامع، وتكون في نفسه حسنة، باعتبار انتفاع السامع بها قيل: الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة، قيل: وليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان، ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الألد، إلى استعمال المعارضة والمناقضة، ونحو ذلك من الجدل، ولهذا قال سبحانه وتعالى ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أي بالطرق التي هي أحسن طرق المجادلة وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محققاً وغرضه صحيحاً، وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً^١.

٥) العلم:

من الخصائص الملزمة للخطاب القرآني مع الآخر، ضرورة الإتكاء على العلم، والإعتماد في المجادلة على العلم ونفي الجهل، يقول سبحانه: ﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجِجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦] والإستفهام بصيغة الإنكار "دليل على المنع من الجدل لمن لا علم له"^٢. فلا يقبل من المتحاورين، التنازع بالجهل، وحينما فرط بعض المسلمين في هذه الحقيقة، وقع كثير منهم في محذورات الحوار والتنازل عن الثوابت، فلا يقر الإسلام الردة عن دين الإسلام. يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلا يمكن القبول بالتنازل عن حقائق العلم القاطعة، بحجة الحوار مع الآخر، فسائر المحرمات والكبائر، ليست محل تنازل تحت مظلة الحوار، مهما بلغ الضعف بالمسلمين، ونالهم تسلط الأعداء على مقدراتهم وثرواتهم، وتلك الخاصية العصبية على التأويل، حافظت على رونق الإسلام وصفائه، فالإسلام يسعى إلى إقامة حوار جاد، يعتمد على البرهان، والدليل، والحجة، وليس حوار زائفاً وهو الحوار "الذي يعتمد على الصورة الشكلية، أكثر من المضمون أو الجوهر، وهو قبول أقوال الآخرين دون

^١ الشوكاني، فتح القدير، ج ٣، ص ٢٠٣.^٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ص ٧٠.

مناقشتهم، وإظهار القبول والموافقة"^١. وقد أكد القرآن ذلك في كل صغير وكبيرة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

هذه الخصيصة العلمية للخطاب القرآني للحوار مع الآخر، حافظت باستمرار على هوية المسلمين، ومن أهم ما ساقته إليه خصيصة العلم المعطيات التالية:

١. ضرورة التفريق في الحوار مع الآخر بين الثابت والمتحول، وفق إدراك وموسوعية الإسلام وثقافته معاً، وعدم إهمال جانب امتلاك المحاور المسلم، العلم، وامتلاك آليات الحوار وأدبياته وتاريخه، سواء ما يخص الثقافة الإسلامية، أو من خلال دراسة الأديان والفرق والنظريات الأخرى.

٢. الفصل بين السياسة والحوار، والملاحظة أن ثمة جهات في العالم الإسلامي، تتجاهل الحقائق العلمية للخطاب القرآني مع الآخر، فتقع في التنازل عن الثوابت العلمية في القرآن، بدافع الخوف من تهمة الإرهاب، وتلميع الصورة أمام الغرب، ومحاولة إذابة الجليد في العلاقات مع الغرب، والرضوخ لنقد الدوائر السياسية والإستراتيجية الغربية تحت ضغط الواقع، وانتقاء عنصر الندية، وهذا المفارقات ما لا يدركها بعض المحاورين المسلمين المعاصرين اليوم.

٦) بلاغة الخطاب:

من الحقائق العلمية، التي يتسم بها الخطاب القرآني، أنه يتسم بخصيصة البلاغة، إذ هو يكتسب سمة الإعجاز الأعظم من المعجزة القرآنية الخالدة كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] ومن صور البلاغة التنويع، وإعادة الفكرة بلغة جديدة باستخدام الأسلوب البلاغي الذي يدفع الملل، ويوسع مدركات الحوار، ويحيط بشمولية بكل دلائل الإقناع، فيمثل الخطاب القرآني رسالة بلاغية محكمة، تحتم بمخاطبة الوجدان، والعقل، يجد فيها الناظر متعة ولذة عقلية وشعورية، ولذلك فإن التكرار في العرض، يتسم بالتجديد، دافعاً للسامة بلغة جميلة مؤثرة ومتنوعة. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

الخاتمة:

بعد عرض موجز لخصائص الخطاب القرآني في الحوار مع الآخر نلاحظ تفرد الخطاب القرآني للحوار، بخصائص يتميز بها، من أهمها سلامة مقاصده وأهدافه، بخلوصه من التحيز والفئوية حيث ارتبط بتقرير عقيدة التوحيد، والإخلاص، والحرص على سمو هدفه، والوصول إلى الحق، وبيان الخطأ والتحذير منه، ومزج حوار بالموعظة والحكمة، مبنياً مضامينه وقواعده على العلم ورفض الظن والاعتماد على الدليل، مصاغ في قوالب من الفصاحة والبلاغة، التي تنزع من معين المعجزة القرآنية.

^١ مجموعة من المؤلفين، الحوار مع الغرب.

المصادر والمراجع:

١. ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، (مطبعة المدني).
٢. ابن تيمية، الرد على المنطقيين، (ترجمان السنة، ١٤٠٢هـ).
٣. ابن تيمية، منهج السنة، تحقيق: محمد رشاد سالم، (الرياض: مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).
٤. ابن تيمية، نقض المنطق، تحقيق: محمد حامد الفقي، (بيروت: دار الكتب العلمية).
٥. ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ).
٦. ابن عقيل الحنبلي، الواضح في أصول الفقه، تحقيق: د. عبدالله التركي، (بيروت: مؤسسة الرسالة).
٧. البغدادي، الفقيه والمتفقه، (بيروت: دار الكتب العلمية، تحقيق إسماعيل الأنصاري، ١٤٠٠هـ).
٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (بيروت: مؤسسة الرسالة).
٩. الزمخشري، الكشاف، (القاهرة: شركة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده).
١٠. السعدي، تفسير السعدي، (مكتبة المعارف).
١١. الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية).
١٢. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (دار الفكر).
١٣. مجموعة من المؤلفين، الحوار مع الغرب، (دار الفكر).
١٤. المرعشي، ترتيب العلوم، تحقيق: محمد إسماعيل السيد، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط ١، ١٤٠٨هـ).

ما يؤخذ وما يرد من علوم الغرب فيما يخص الكون وخلقه

أ.د. سوسن أحمد القلال¹

ملخص البحث:

كان المسلمون في العصور السابقة يتدبرون القرآن، ويستشفون منه بعض العلوم فينطلقون إلى الأبحاث، فسبقوا العالم وصدروا العلوم. أما اليوم وقد أصبحنا أذبالا، غدونا نأخذ العلوم من الغرب على أنها صحيحة، ونحاول إظهار الإعجاز العلمي في القرآن بمحاولة إبراز موافقته لما جاء به الغرب من علوم، فلم نعد نستحق أن نكون أمة وسطا، ولا نستحق أن نكون شهداء. ونريد عبر هذا البحث أن نثبت أننا بتطبيقنا للقرآن والسنة نصبح مؤهلين لأن نكون حكما عدلا وقادرين على أن نعطي كلمة الفصل فيما اختلف فيه العلماء، أو ربما اتفقوا. سوف نهتم بموضوع الكون (السماء والأرض). سوف نسرد بعض ما جاء به الغرب من خلق الكون، بدايته، ما يحيط به، تمدده، انفصال الأرض عن السماء... ثم نضع هذه العلوم تحت محك الكتاب والسنة ليتبين لنا أن بعضها صحيح، وبعضها خطأ، علينا تصحيحه. وصدق خالق الكون حين قال: ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾ [الكهف: ٥١]، وهي آية معجزة، نستشف منها أن المضلين بما أنهم لم يشهدوا خلق السماوات والأرض، فإنهم سوف يخطئون في علومهم المتعلقة بذلك. وطبعا الذي يمتلك المشعل ويستطيع تصحيح الأخطاء، هم الشهداء الذين حق لهم أن يكونوا شهداء بتصديقهم لكتابهم وسنة رسولهم. وقال تعالى في ذلك: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

مقدمة:

ينقسم البحث إلى ٥ أجزاء. في الجزء الأول سوف نتعرض لما يحيط بالكون. في الجزء الثاني نتعرض إلى مسألة اتساع السماء. بعدها نستطيع أن نجيب عما اذا كان الكون أزليا أم حديث الوجود، وما أصل الكون. وأخيرا نتعرض إلى مسألة اتصال أو انفصال السماء عن الأرض وما ينجر عن ذلك من حركة نسبية لأحدهما بالنسبة للآخر. عسى بعضنا يسأل: من نحن؟ ومن نكون؟ ومن فوضنا وأعطانا هذه الصلاحية لنكون قادرين على الحكم؟ هل نستطيع نحن مع تخلفنا في جميع الميادين أن ندقق في العلوم التي أتى بها الغرب الذي تفوق علينا بمئات السنين من التقدم العلمي والتكنولوجي، ونقول هذا صحيح وهذا خطأ؟ ونكون قادرين على التنبيه الى الخطأ و ربما تصحيحه؟ ما هو سندنا في ذلك؟ نبدأ أولا باستعراض بعضا من ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه. فقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] جاءت الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم

¹ جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن، الرياض، المملكة العربية السعودية & جامعة تونس المنار، تونس، Saoussen.kallel@fst.rnu.tn

فى تفسير هذه الآية تبين أن المراد من قوله تعالى: ﴿أمة وسطاً﴾ أى: عدلاً خياراً. وسمى العدل وسطاً لأنه معتدل لا يميل إلى أحد الخصمين. وقد قال الشاعر:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعضل

وقال تعالى: ﴿...ملة إبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله...﴾ [الحج:٧٦]

يقول السيد قطب فى كتابه ظلال القرآن معلقاً على هذه الآية: "فالرسول صلى الله عليه وسلم يشهد على هذه الأمة ويحدد نهجها واتجاهها، ويقرر صوابها وخطأها، وهي تشهد على الناس بمثل هذا، فهي القوامة على البشرية بعد نبينا، وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها، وتربيتها، وفكرتها عن الكون والحياة. ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها... المختار من الله".

إذا فاتبعنا للقرآن والسنة هو الذى يؤهلنا لكي نكون حكماً عدلاً وقوامين على البشرية. نبدأ أولاً باستعراض آية معجزة لو تلوناها بتدبر لفهمنا أن المضلين لن يتمكنوا من كنه أصل خلق الكون.

بسم الله الرحمان الرحيم: ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ [الكهف:٥١].

فخالق هذا الكون لم يشهد المضلين على الخلق، فطبيعي أنهم سوف يخطئون فى تقديرهم لخلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم. ولكن هل كل ما أتى به الغرب مردود عليهم؟ أم يؤخذ منه ويرد؟ وماذا نأخذ؟ وماذا نرد؟

ماذا يحيط بالكون؟

نذكر أولاً أن الكون هو الأرض مع السماء المحيطة بها وما يحويه من ماء ونبات وحيوان وهواء ونجوم وكواكب ومجرات... كون مترامي الأطراف، يقدر بعد أطرافه عن الأرض بما يزيد عن ١٣ بليون سنة ضوئية. علماً أن الشمس تبعد عنا ٨ دقائق ضوئية فقط.

كيف نستطيع أن نعرف ماذا يحيط بالكون الفسيح؟ هل من علماء الغرب من تمكن من رؤية ما وراء السماء؟ طبعاً لا. ولكن رغم ذلك يدعون أن الكون لا يحيط به شيء^١. فهل من علماء المسلمين من يرد؟ إذا كان الغرب لم يشهد ومعه من التقنية المتطورة ما معه، فكيف نستطيع نحن المتخلفون فى جميع الميادين أن نشهد؟

نحن نشهد إذا آمننا بأن ما جاء به نبينا حق، ونشهد بشهادته. فهل رأى رسولنا ما يحيط بالكون؟ بلى. كيف حدث ذلك فى زمن لم يعرف فيه من وسائل النقل سوى الإبل؟ إذا كانت رحلة أرمسترونغ سنة ١٩٦٩ إلى القمر القريب جداً من الأرض لم تصدق فى البداية وأحدثت ضجة كبيرة فإن لم نكن مؤمنين فكيف سنصدق أن هناك من صعد قبل أرمسترونغ بـ ١٣٠٠ سنة ليس إلى هذا الجرم القريب منا ولكن إلى حدود لن يتخيل أحد أن العلم سيصل إليها يوماً. لقد صعد إلى أن

^١ G. Gamow, Phys. Rev.

وصل إلى حدود العرش الدنيا. في رحلة هي أعظم رحلة في التاريخ. هي رحلة المعراج. فماذا رأى الصادق الأمين في هذه الرحلة؟

قال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ [الرحمن: ٣١]. إذا فالنفوذ من أقطار السماوات والأرض ممكن بسلطان.

رحلة المعراج:

رحلة معجزة أكرم بها الله عز وجل رسوله الكريم ليكون أول وأصدق من نفذ من أقطار السماوات والأرض. فقد رأى وشهد شهادة عين يقين، من بصر زكاه خالقه بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٨]. فكل يزيغ بصره إلا رسول الله. وزكى بصيرته بقوله: ﴿ما كذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى • أَفْتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾ [النجم: ١١-١٢]. فكيف لنا أن نحدد ونكذب ما رأى؟ وقد أراه الله ما لم ير أحدا من خلقه. وكتب الصحاح مملوءة بالأخبار عن هذه الحادثة وسوف نقتطف منها ما نحتاج إليه في هذه المناسبة.

عن عبد الله بن عمرو قال: "جعل الله فوق السماء السابعة الماء، وجعل فوق الماء العرش".^١

إذا، فالخطأ الأول هو اعتقاد علماء الغرب ومع كل أسف من تبعهم من المتأخرين من المفتونين من علماء المسلمين أن الكون لا يحيطه شيء، في حين هو محاط بالماء، كما أخبرنا بذلك الصادق الأمين.

هل السماء في اتساع دائم؟

أول من برهن من علماء الغرب عن ابتعاد الاجرام عن الأرض وعن بعضها بعض باستعمال التيلسكوب Georges Lemaître والبلجيكي لوميتر Edwin Hubble إدوين هابل الأمريكي، وكان ذلك سنة ١٩٢٩.^٢ فتأكدت بذلك النظرية المفترضة في ذلك الزمن والتي تدعي أن الكون في اتساع. في حين يعلم المسلمون ذلك بل وأدق من ذلك منذ نزول القرآن الكريم.

قال خالق السماء: ﴿والسمااء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون. والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ [الذاريات: ٤٧-٤٨].

وإذا كان إثبات أن الكون يتسع يُعد أعظم كشف في القرن العشرين، فإن سبب الإلتساع مازال يجير العلماء. وحتى نكون أكثر دقة، فإن السماء هي التي تتسع لا الكون كله.

إذا فاتساع السماء هو نقطة اتفاق بيننا وبين علماء الغرب.

بعد ما درس العلماء توسع الكون، بدأت رحلة العودة إلى الماضي. فكيف كان شكل هذا الكون في الماضي؟ بما أن أجزاء هذا الكون تتباعد باستمرار فلا بُدَّ أنها كانت أقرب إلى بعضها في الماضي. وهكذا عندما نعكس صورة التوسع هذه نجد أن أجزاء هذا الكون كانت كتلة واحدة متجمعة!

^١ موقوف على عبد الله بن عمرو أخرجه مسندا البيهقي في الأسماء والصفات، ج ٢، ص ٢٩٢، رقم ٨٥٣. قال الشيخ الألباني: إسناده صحيح. مختصر العلو للذهبي، رقم ٣٥.

^٢ E. Hubble, Proc. Nat. Acad. Sci.; G. Lemaître, Annales de la Societe Scientifique de Bruxelles.

هذه كانت بداية النظرية الجديدة التي تفسر نشوء الكون.

هل الكون أزلي أم خلق حديثاً؟ ومم خلق؟ وأين؟

اتفق معظم علماء الكون مع نهاية القرن العشرين على نظرية جديدة أطلقوا عليها نظرية بيب بانق^١. وتعتمد هذه النظرية أساساً على أن الكون ولد حديثاً (منذ حوالي ١٤ بليون سنة) من لا شيء حدث فيه انفجار عظيم لا يدرك كنهه أحد فظهرت أثره كتلة هيدروجين متناهية في الصغر وشديدة الكثافة كانت هي نقطة بداية الكون وخلقت منها جميع بقية المواد الأخرى.

العلم الحديث يحاول اكتشاف بعض أسرار الكون، ولكن خالق الكون سبحانه وتعالى هو الذي يخبرنا بالحقائق الدقيقة. فماذا جاء في القرآن والسنة؟

طبعاً، نحن نؤمن بقدرة الله المتناهية وهو قادر على أن يخلق الكون كله من لا شيء، ولكن اقتضت حكمته أن يكون خلق الكون بطريقة أخرى تستنبطها أمة اقرأ من تدبرها في ما جاء في القرآن والسنة.

قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور:٤٥]؛ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧]؛ ﴿أَو لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠].

ويذكر الطبري أن "هذا خبر من الله تعالى أن عرشه سبحانه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض وما فيهن. قال قتادة: "يبنئكم ربكم تبارك وتعالى كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض"^٢.

وعن أبي هريرة قال، قلت: يا رسول الله! إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من ماء»^٣.

قول النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ الذي سأله في هجرته إلى المدينة: ممن أنتم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن من ماء»^٤.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن ناساً من أهل اليمن سألو النبي ﷺ فقالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر؟ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض»^٥.

فالأيات والأحاديث إنما هي خبر عن بداية الخلق، وأن عرش الله عز وجل كان على الماء قبل خلق السموات والأرض. كما أن خلق السموات والأرض كان في ستة أيام سوف نبين تفصيلها في بحث آخر إن شاء الله. المهم عندنا أن الخلق وقع

^١ I. Bogdanov, Visage de Dieu, Grasset; G. Gamow, Phys. Rev.; J. Silk, A Short History Of The Universe, Scientific American Library.

^٢ الطبري، التفسير، ج ١٥، ص ٢٤٦.

^٣ أخرجه أحمد في مسنده، ج ٢، ص ٢٩٥، رقم ٧٩١٩؛ والحاكم في المستدرک، ج ٤، ص ١٧٦، رقم ٧٢٧٨ وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي.

^٤ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ١٦٣.

^٥ أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٩٥٣.

في زمن معين والزمن مرتبط بالمادة وحركة دورانها حول نفسها، وهذا يدل قطعاً أن هنالك مادة سبقت خلق السماوات والأرض. فالخلق لم يكن في لا شيء، بل كان في جسم له حركة. وهذا الجسم هو ذاك المخلوق العظيم الذي ذكره الله في محكم آياته في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن معاني الكرسي أنه أصل الشيء وأساسه، كما يطلق على كل شيء متجمع مترابط. وتفيد الآية أن السماوات والأرض في جوف الكرسي.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا زهير، حدثنا ابن أبي بكير، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة، عن عمر رضي الله عنه قال: أتت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة. قال: فعظم الرب تبارك وتعالى، وقال: «إن كرسيه وسع السماوات والأرض، وإن له أطيافاً كأطياف الرحل الجديد من ثقله»^١. وسوف نذكر باذن الله في بحث قادم، واستناداً إلى ما وصل إليه العلم الحديث^٢، ماهية الكرسي والفرق بينه وبين العرش.

نتنقل الآن إلى الجزئية الموالية التي تتعلق بنقطة الهدروجين المتناهية في الصغر والمتناهية في الكثافة التي يعتقد الغرب أنها كانت بداية خلق الكون. قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْها قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

والدخان: ما يتصاعد من الوقود عند التهاب النار فيه. وقوله: ﴿وهي دخان﴾ تشبيهه بليغ، أي وهي مثل الدخان، وقد ورد في الحديث: إنها كانت عماء. وعن محمد الطاهر ابن عاشور، أن أصل مادة تكوينهما هي الدخان^٣.

خلاصة القول أن الكون كله خلق حديثاً من الماء وليس من لا شيء، ونحن كما نعلم فإن الماء يعطينا غازي الهدروجين والأكسجين. فيكون خلق الماء أسبق ويصبح الهدروجين ناتجاً عن تفكك الماء. وبداية خلق الكون لم تكن كتلة هيدروجين شديدة الكثافة، بل كانت دخاناً أي ذا كثافة جد ضعيفة. إذا، نتفق مع الغرب في أن الكون ليس أزلياً، بل حديث التكوين. ولكن نختلف معهم في أصل خلق هذا الكون. فيعتقد الغرب أنه خلق من لا شيء (من عدم) ونجزم بأنه خلق من ماء.

كما نختلف معهم في بداية خلق هذا الكون. فيعتقد الغرب أن بدايته كانت كتلة هيدروجين شديدة الكثافة، ونجزم بأن بدايته كانت دخاناً والدخان كما نعلم جسم خفيف وليس ذو كثافة عالية وينتج ربما عن انفجار في الماء.

^١ أخرجه أبو يعلى في مسنده كما في تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج ١، ص ٣٨٢. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ١١، ص ٢٥، رقم ١٧٢٧٢: "رواه أبو يعلى في الكبير، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن خليفة الحمذاني وهو ثقة".

^٢ ابن عاشور، التحرير والتنوير.

هل السماء والأرض متصلتان أم منفصلتان؟

إن النظرية السائدة تعتمد على أن السماء والأرض كانتا مندجتين ثم وقع انفصال في خط اختلاف العلماء في ضبط موقعه. فمنهم من يعتبر خط كارمان الذي يرتفع حوالي ١٠٠ كم فوق سطح الأرض هو الحد. واعتبروا بعد ذلك أن الأرض مع غلافها الجوي المحيط بها (حوالي ١٠٠ كم فوق سطح الأرض) يشكل وحدة وأن الفضاء الخارجي المنفصل تماما عن الغلاف الجوي يشكل وحدة أخرى منفصلة عن الأولى. فكانت النتيجة أن كل التجارب التي قاموا بها داخل الغلاف الجوي استنتجوا منها قوانين عن الأرض عوض أن يستنتجوا منها قوانين تخص السماء. فما ردنا على هذه النظرية؟

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

والرتق: الإتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء. والفتق: ضده وهو الانفصال والتباعد بين الأجزاء. قَالَ إِبْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَعَطَاءٌ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةَ: يَعْنِي أَنَّهَا كَانَتْ شَيْئًا وَاحِدًا مُلْتَزِمَتَيْنِ فَفَصَلَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا. وبذلك فصلت السماء عن الأرض. ويقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

ولسنا بحاجة لفلسفة جديدة وتعريف جديد للسماء والأرض، فالأرض هي هاته الكتلة الكثيفة التي نعيش عليها. والسماء هي كل ما يحيط بنا من طبقات غازية. وطبعا أهم ما يبرهن به عمليا عن انفصال جسمين عن بعضهما هي الحركة النسبية لكل منهما بالنسبة إلى الآخر.

إذا فاعتبار علماء الغرب أن الغلاف الجوي المحيط بالأرض هو من الأرض، يتحرك بحركتها وغير منفصل عنها، وأن الانفصال يكون تقريبا في مستوى خط كارمان هو خطأ وسيؤدي حتما إلى أخطاء. وبنيت نظريات على هذا الافتراض وتداولها العالم بأسره. فعلينا مراجعة التجارب والنتائج..

أيهم المتحرك؟ الأرض أم السماء؟

منذ القديم، اعتقد الناس أن الأرض ثابتة، وكل من حولها يدور إلى أن ظهر غاليليو سنة ١٦٣٣ بفكرة مخالفة لما هو سائد، وادعى أن الأرض تدور^١، وهي نظرية تخالف ما جاء في الإنجيل. فأصدرت فيه الكنيسة حكما بالإعدام. وتبنى علماء العصر الحديث هذه النظرية. وفي الواقع لا زال هنالك جدل بين النظريتين. فقد أقيم مؤتمر عالمي في الهند سنة ٢٠١٠ بعنوان "Galileo Was Wrong. The Church Was Right"، كما أصدرت ٣ كتب^٢ بنفس العنوان، تساند النظرية القديمة من الناحية العلمية والدينية عند المسيحيين.

فهل لنا نحن المسلمون أن نحسم في الأمر؟

¹ I. Bogdanov, **Visage de Dieu**.

² R.A.Sungenis and R.J.Bennett, **Galileo Was Wrong: The Church Was Wright, The Scientific Evidence For Geocentrism**; R.A.Sungenis and R.J.Bennett, **Galileo was wrong: the church was wright, The Evidence from Modern Science**; R.A.Sungenis, **Galileo was wrong: the church was wright, The Evidence from Church History**.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وفي تفسير ابن كثير: عن ابن عباس قال: السجل كتاب للنبي صلى الله عليه وسلم^١. والكتاب هو ما يكتب عليه في ذلك الزمان ويكون طيه في ذلك الزمان على الشكل الحلزوني، كما في الصورة الموالية: وقد أثبت العلم الحديث أن كل الأجرام السماوية تتكون بنفس الطريقة انطلاقاً من دوران الجسم حول نفسه، من ذلك النجوم والمجرات. وفي الصورة مجرة درب اللبانة (مجرتنا) وهي في حركة لف مستمر مع اتساع.

مجرة درب اللبانة

ولكن لا ننس قراءة قالون عن نافع التي يقرأ فيها الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء ب "كتاب" بدل "كتب". فنفهم من ذلك أن السماء تلتف حول نفسها التفافاً حلزونياً بنفس طريقة خلق النجوم والمجرات. وبذلك فالسماء هي التي تدور، ولذلك تكون المسالك فيها منعدجة كما أثبت العلم الحديث وتصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر: ١٤].

طيب، وماذا عن الأرض؟

يقول علام الغيوب: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ حَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فالأرض مقبوضة بقدرة القدير، فلا يجوز لها أن تتحرك، في حين أن السماء في حركة مستمرة.

هل آن لنا نحن المسلمون أن نستفيق من غفلتنا، ونعود إلى عزنا و رفعتنا، علما وإننا لا ننال شرف ذلك إلا بالتفاننا حول كتابنا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

المصادر والمراجع:

- 1) I. Bogdanov, **Visage de Dieu**, Grasset, 2010
- 2) G. Gamow, **Phys. Rev.**, 70, 572 (1946).
- 3) E. Hubble, **Proc. Nat. Acad. Sci.**, 15, 168 (1929).
- 4) S. Kallel, **Water Is Life. The Big Bang Explosion And The Origin Of The Universe**. Preprint.
- 5) G. Lemaître, **Annales de la Societe Scientifique de Bruxelles**, 47, 49 (1927).
- 6) J. Silk, **A Short History Of The Universe**, Scientific American library, N.J. 1994.
- 7) R.A.Sungenis and R.J.Bennett, **Galileo Was Wrong: The Church Was Wright, The Scientific Evidence For Geocentrism**, fifth edition. Catholic Apologetics International publishing, volume 1, 2010.
- 8) R.A.Sungenis and R.J.Bennett, **Galileo Was Wrong: The Church Was Wright, The Evidence From Modern Science**, VolumeII , 10th Edition, 2014, CAI Publishing Inc.
- 9) R.A.Sungenis, **Galileo Was Wrong: The Church Was Wright, The Evidence From Church History**, Volume III, 10th Edition (April 2014, Hardcover, B&W Images)

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم.

موقف القرآن الكريم من الحوار الإسلامي المسيحي المؤسسات الإسلامية بالفلبين أنموذجاً

خيرالدين داتو سليمان لاوء^١

ملخص البحث:

مما لا شك فيه أن الحوار الإسلامي المسيحي قد قدم قدم الإسلام، بدأه الرسول ﷺ، واستمر حتى هذا التاريخ. أشار الباحث إلى موقف القرآن الكريم من الحوار الإسلامي المسيحي، وبين مفهوم الحوار الديني، وأهدافه، وضوابطه، وآدابه، ودوافعه. كما ألقى الضوء على الوسائل المستخدمة أثناء الحوار. من هنا يهدف هذا البحث إلى توضيح مفهوم الحوار الديني في الإسلام وموقف القرآن الكريم منه، واتخاذ الحوار الديني وسيلة ناجحة للتعايش السلمي في العالم عامة وللفلبين خاصة. واستخدم فيه المنهج الاستقرائي لجمع النصوص والمقالات التي تتعلق بالموضوع، معتمداً على الدراسة الميدانية، فقام بمقابلات شخصية مع البارزين في المؤسسات الإسلامية الثلاث المختارة.

المقدمة:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أما بعد! فقد قال الله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِهْنَأْ وَإِهْنَأْ وَإِهْنَأْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

أول مجتمع إسلامي شاده رسول الله محمد ﷺ في المدينة المنورة عاشت فيه قبائل متنوعة وبعض أهل الكتاب. وكان رسول الله ﷺ يستقبل أهل الكتاب ويجاورهم لبناء الثقة وإقامة نسق تعاوني معهم. وقد تبين ذلك بصورة واضحة حينما قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران، ستون راكبا، وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرفهم، وفي الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر تولوا أمرهم: العاقب، أمير القوم وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدر عن رأيهم، واسمه عبد المسيح، لهم ثمالهم^٢ وصاحب رحلتهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة، أحد بني بكر بن وائل، وأسقفهم وحرهم وإمامهم، وصاحب مدراسهم^٣. وصدر بعد ذلك عن النبي ﷺ عهد للنصارى بتاريخ الثالث من محرم في السنة الثانية للهجرة. وشهد

^١ طالب دكتوراه في قسم أصول الدين ومقارنة الأديان بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

^٢ أي من يرجعون إليه ويقوم بأمرهم.

^٣ ابن هشام، السيرة النبوية، مجلد ٢، ص ٢١٥.

عليه كبار الصحابة، منهم الخلفاء الأربعة أبوبكر وعمر وعثمان وعلي. يقول العهد النبوي: "وإن احتمى راهب أو سائح في جبل أو واد أو مغارة أو عمران أو سهل أو رمل أو رذنة أو بيعة، فأنا أكون من ورائهم ذابًا عنهم من كلّ عدة، لهم بنفسى وأعواني وأهل ملتي وأتباعي كأنهم رعيتي وأهل ذمتي، وأنا أعزل عنهم الأذى".^١

وتواصل الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب في العهدين الأموي والعباسي. ولعل من أبرز معالم الحوار الشهير، في القرن الثامن، بين الخليفة العباسي المهدي والبطريك تيموثيوس الأول، كما تواصل في ظل أوضاع وظروف مختلفة. وكذلك من أبرزه الحوار الذي جرى أثناء حروب الفرنجة "الحمالات الصليبية" في عام ١٢١٩م في مدينة دمياط بمصر.

ونتيجة تطور الحوار بين المسلمين وأهل الكتاب في الفترة ما بين ١٠٠٠ - ١٥٠٠م خاصة في أوروبا بسبب التعايش السلمي وعلاقات التعاون شتى في مجالات والمستويات الاقتصادية والثقافية.^٢ وقد تميز ذلك بصورة واضحة في الأندلس في ظل سيادة الإسلام.

المبحث الأول: مفهوم الحوار الديني وأهدافه

تعريف الحوار:

نجد من حيث الدلالة اللغوية أن كلمة "حور" مشتقة من جذر "ح، و، ر" الذي يأتي بمعانٍ تؤكد على مفاهيم أصيلة في تراثنا الثقافي والحضاري^٣. فكلمة الحوار تعني: الرجوع عن الشيء. والمحاورة: المجاورة. والتحاور: التجاوب. والمحاورة: مراجعة المنطق، والكلام في المخاطبة. نقول: كلمته فما أحرار إليّ جوابًا وما ردّ إليّ حويرًا ولا حويرةً ولا محورةً ولا حوارًا أي ما ردّ جواباً... واستحاره أي استنطقه^٤. وعلى هذا جاء استعماله في القرآن الكريم، قال الراغب: (والمحاورة، والحوار: المراد في الكلام ومنه التحاور. في قوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ﴾ [المجادلة: ١]^٥. والمحاورة هي مجرد مراجعة الكلام بين المتكلمين، ولا تلزم فيه صورة الخصومة، وإنما تغلب عليها صورة الكلام المتبادل بين طرفين في أسلوب لا تقصد به الخصومة أو لا يراد به بالضرورة الاتجاه إلى الخصومة^٦.

أما مفهوم مصطلح الحوار، فنجد أن الحوار هو محادثة بين شخصين أو بين أطراف عديدة تباينت آراؤهم وأفكارهم وكذلك معتقداتهم، ويجري الحوار بهدف المكاشفة والمصارحة مع الإصغاء باحترام إلى رأي أو آراء الآخرين ليُفهم مقصدها ومرماها بغض النظر عما إذا كان رأي الغير يتلاءم أو يتنافر وآراء الأطراف الأخرى المشتركة معه في عملية الحوار^٧.

^١ حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٥٦١.

^٢ انظر: جورافسكي، الإسلام والمسيحية، ص ٣٦.

^٣ انظر: التوجيهي، الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي، آفاق الإسلام، ص ٦٥.

^٤ ابن منظور، لسان العرب.

^٥ الراغب، مفردات القرآن، ص ١٣٥، ومنه قوله ﷻ: ﴿فَقَالَ لَصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: ٣٤]، ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: ٣٧].

^٦ حفني، أسلوب المحاور في القرآن، ص ١١.

^٧ عبد الله، الحوار الديني الإبراهيمي في ميزان القرآن، ص ٣٢.

لذا، نستطيع أن نقول بأن الحوار هو طريقة من طرق التعليم الفعالة بين طرفين بهدف الوصول إلى الحقيقة (الدينية) بصدق وأمان للتعايش السلمي والتفاهم لدى الجميع.

أهداف الحوار الديني:

إن أهم أهداف الحوار هي كل ما يحقق الخير والصلاح والأمن والسلام والرخاء والطمأنينة للناس كافة، وفي اللفظ القرآني "التعارف" من قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [المحرات: ١٣]. فالتعارف هنا يتسع ليشمل التعاون والتعايش، وكل ضروب العمل الإنساني المشترك لما فيه الخير والمنفعة لبني البشر، وهو هدف سام من أهداف الحوار.

وكما هو شأن التعاون الثقافي الدولي، فإن على الحوار بوجه عام أن يبرز الأفكار والقيم التي من شأنها توفير مناخ صداقة وسلام، وأن يستبعد جميع مظاهر العداة في المواقف وفي التعبير عن الآراء، على أن يتوخى الحوار أيضا، النفع المتبادل لجميع الأمم التي تمارسه^١، ويسعى في جهد مشترك مع الأطراف جميعا للقيام بعملية حضارية كبرى، وهي تصحيح المفاهيم الخاطئة التي تسود المجتمعات وتعوق مسيرة التعاون والتفاهم والحوار المثمر. ويبيّن محمود حمدي زقزوق بأن هدف الحوار هو السعي الحقيقي من جانب المتحاورين إلى السلام والعدل والتوصل إلى تفاهم خالص بين الأديان^٢.

ويمكننا أن نقول: إن الحوار الديني المقصود بشكل عام هو الحوار الإسلامي المسيحي، ونفهم من ذلك أن الهدف من هذا الحوار هو خلق جو التعايش السلمي بين العالمين الإسلامي المسيحي.

المبحث الثاني: موقف القرآن الكريم من الحوار الديني

من طبيعة الإنسان التي فطر الله عليها هي حتمية الحوار وضروريته، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]. فتشير هذه الآية الكريمة إلى أن الجدل أو الحوار من سمات الملازمة للإنسان، وكأنها جزء من فطرته، فقد فطر الإنسان على أن يواجه الحياة، بكل ما فيها من أوضاع وأحداث وملازمات وأفكار بعقلية منفتحة، قلق، لا تكاد تستقر على الحال، فتراه يبحث عن الشيء ونقيضه، وعن الحق والباطل، ليجادل في هذا ويجاور في ذلك، وما أن يتيقن من أمر حتى يبدأ في الانتقال إلى أمر آخر تحيطه شكوك، فيبحث مرة أخرى عما يبين له ويوضحه ويثبت ويبرهن حتى يطمئن على ما توصل إليه... وهكذا في رحلة مستمرة طوال الشطر الأكبر من مشوار حياته حتى يأتيه اليقين.

الحوار في القرآن الكريم:

وقد أكد القرآن الكريم المصدر الأساس للحوار من خلال نصّه المقدس الداعي إلى إدراك الصورة الحقيقية لفكرة الحوار مع أتباع الأديان عامّة، وأتباع المسيحية خاصّة، وقد ورد في الاصطلاح القرآني لفكرة الحوار مرتين في سورة الكهف، ومرة في

^١ انظر: إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي الصادر عن المؤتمر العالم لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، في نوفمبر ١٩٦٦م، المادة السابعة والثامنة.

^٢ انظر: زقزوق، الإسلام وقضايا الحوار، ص ٦٩.

سورة المجادلة. قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] وقال تعالى أيضا: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧].

فقد استخدم القرآن الكريم لفظ "الحوار" في هاتين الآيتين مرتين حينما عرض قصة رجلين يختلفان في موقفيهما تجاه نعمة الله تعالى عليهما. ويفهم من هاتين الآيتين أنّ هذين الرجلين ينحدران من بيئة دينية مختلفة، أحدهما المؤمن الذي لا يملك مالا كثيرا والآخر الكافر الذي عنده حديقتان مشمرتان. ويظهر الكافر من خلال تحاوره مع المؤمن تكبره وجهالته وتعلقه العقيم بنعيم العالم المادي الذي أنساه ربه وخالقه. أما المؤمن فيجيب الكافر بطريقة متواضعة عبر حديث سلمي. والملاحظ من الحوار الدائر مواجهة هذا الأخير باضطراب ذهن وحيرة عقل، وقد كان الغرض الأساسي من هذا الحوار إخراج هذا الكافر من حالته النفسية بأسلوب هين لا قسوة فيه ولا عنف، لذا يجاور المؤمن بالحكمة والموعظة الحسنة التي تؤثر فيه، وتجعله يندم على ما قال سابقا. ونفهم أنّ طريق الجدال، والتعامل، والتحدّث بين المؤمن والكافر يهدف إلى نفس الغاية التي يسعى إليها موضوع الحوار مع الآخر المبني على الاحترام المتبادل وتقارب الأهداف والتفاهم المنصف على طريق الإيمان^١.

إنّ الاستعمال السياقي لفهم فكرة الحوار الديني من خلال الآيات القرآنية ينبّه الناس عامّة، والمسلم خاصّة إلى: "ضرورة التفكير، والتبصّر، والتدبّر، فلا يجد عقله بترديد كلمات كالبيغاء، بل عليه أن يجني ثمر الفكر"^٢ حينما يشارك في المحادثة السلمية مع الآخر. ولا شك أنّ القرآن الكريم هو المصدر الرئيس الذي يعرض الموقف الشامل للإسلام وانفتاحه تجاه هذا الحوار، كما يُظهر أنّ جزءا من خطابه يركز على الحقيقة الدينية والحضارة الإنسانية. ولهذا قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَعُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويمكن لنا أن نستنبط من سياق هذه الآية الكريمة القاعدة الشرعية التي تحدّد موقف الإسلام من التعامل والتعاون والتعايش السلمي بين أتباع الأديان الأخرى. إنّ الله تعالى يأمر نبيه محمدا ﷺ بأن يدعو أهل الكتاب من خلال المحادثة السلمية إلى التفاهم المشترك^٣، أي الأخذ بعين الاعتبار العهد الديني المشترك بينهم، ﴿... أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ...﴾^٤ وإضافة على ذلك، يدعو القرآن إلى العودة إلى التوحيد الأصيل في اليهودية والمسيحية، كما ينصح كلّ مسلم أن يُظهر نحوهم الاحترام والتسامح، والأهم من ذلك موضوع الحوار الديني، الذي يفهم من موقف النبي ﷺ بالتقارب السلمي نحو أهل الكتاب والمسيحيين خصوصا، حين كان يُقدّم لهم المبدأ الرئيس لدينه وهو التوحيد. ومن المعلوم أنّ نفس التوحيد قد بلغه موسى وعيسى عليهما السلام، ولهذا ﷺ يدعوهم من خلال المحادثة السلمية إلى أن يشهدوا على حقيقة طبيعية، كما ورد في

^١ فطيمير، حوار الأديان بين القرآن والتطبيقات المعاصرة، المجلد (١)، العدد (١)، ص ٦٢-٦٣.

^٢ مراد هوفمان، الإسلام كبديل، ترجمة: غريب محمد غريب، ص ١١٧.

^٣ انظر: التوحدي، الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين، ص ٣٧-٣٨.

^٤ سياق هذه الآية يدعو إلى تحقيق المبادئ الثلاثة: إفراد الله بالعبودية، وعدم الإشراك به، ورفض اتخاذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله.

كتبهم المقدسة، وتدلّ الحادثة السلمية التي كان يدعو إليها النبي ﷺ أهل الكتاب، على موقف معتدل للرسالة الإسلامية وتعاملها مع الآخرين^١.

وفي الفقرة الأخيرة في الآية "فَإِنْ تَوَلَّوْا" جاءت لتحديد الموقف بعد امتناعهم عن التجاوب مع الدعوة الكريمة باللقاء والتعاون في المجالات المشتركة، وهو أن يطلب منهم الوقوف القليل، ليتحملوا هذه الشهادة التي يشهدها المسلمون ويلتزموها على أنفسهم، وهي أنهم يحددون الخط الذي يحكم علاقتهم بالحياة وبالآخرين، باسلام الوجه والقلب واليد واللسان لله تعالى. ولذا فإنهم مستعدون للاستجابة إلى تعاليمه، وتوجيهاته في العقيدة والتشريع، فلا خضوع إلا لله، وليس على الآخرين إلا أن يثبوا لهم ذلك بالحجة والبراهين والدليل.

الحوار في السنة النبوية:

إن موقف السنة النبوية من الحوار الإسلامي المسيحي بدأ من اللقاءات مع المسيحيين، سواء أكانت هذه اللقاءات بين النبي ﷺ وبين المسيحيين، أم كانت بين الصحابة وبين المسيحيين.

ومن ضمن لقاءات النبي ﷺ مع المسيحيين التالية:

أولاً: لقاء النبي ﷺ مع ورقة بن نوفل^٢:

يعتبر ورقة بن نوفل واحداً من أربعة نفر فارقوا دين قريش^٣، وصار كل واحد منهم يبحث عن دين يعتنقه، فكان ورقة بن نوفل ممن استحكّم في المسيحية، وصار علماً من أعلام أهل الكتاب، في منطقة مكة المكرمة.

ولما نزل الوحي على النبي ﷺ ذهبت خديجة زوجه ﷺ إلى ورقة وكان ابن عمها، فأخبرته الخبر فقال ورقة: قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن صدقتني يا خديجة جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة. فقولي له: فليثبت. فرجعت خديجة إلى النبي ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل. ولما عاد النبي ﷺ من اعتكافه ثانية من غار حراء صنع كما كان يصنع، فبدأ بالكعبة فطاف بها، فلقى ورقة بن نوفل وهو يطوف، فقال يا ابن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت. فأخبر النبي ﷺ. فقال له ورقة: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكدبته، ولتخرجنه، ولتقتله، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرأ يعلمه، ثم أدنى رأسه، فأقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله^٤. في هذه الصورة الأولى للقاء النبي ﷺ مع المسيحيين لم يكن أى حوار، سوى سؤال وجواب حول الوحي الذي أتى النبي ﷺ ولم يكن عند النبي أي علم به، فكان ورقة الشارح لحقيقته، والموضح لهدفه.

^١ فطيمر، حوار الأديان بين القرآن والتطبيقات المعاصرة، المجلد (١)، ص ٦٢-٦٣.

^٢ انظر ترجمته: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ١٩١-٢٢٢؛ وابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٣، ص ٥٩٧.

^٣ انظر أسماءهم: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٢٣.

^٤ انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٣٨.

ثانياً: لقاء النبي ﷺ مع وفد نصارى نجران:

وكان رسول الله ﷺ يستقبل أهل الكتاب ويجاورهم لبناء الثقة وإقامة نسق تعاوني معهم. وقد تبين ذلك بصورة واضحة حينما قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران، ستون راكبا، وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرفهم، وفي الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم يتولّى أمرهم: العاقب، أمير القوم وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرن إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، لهم ثماهم^١ وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة، أحد بني بكر بن وائل، وأسقفهم وحبرهم وإمامهم، وصاحب مدراسهم^٢.

ثالثاً: لقاء النبي ﷺ مع العبد النصراني عدّاس:

كان ذلك اللقاء عقيب خروج النبي ﷺ من الطائف ورفض أهلها الإيمان، وقد آذوه وأدموه، فأوى إلى بستان لعتبة وشبيهه ابني ربيعة، فأعطوا عبداً نصرانياً لهم اسمه عدّاس عبناً ليقدمه للرسول ﷺ فأقبل إليه ووضع بين يديه، فمدّ الرسول الكريم ﷺ يده، وقال بسم الله. ثم أكل، فنظر عدّاس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد: فقال له الرسول ﷺ: ومن أهل أي بلاد أنت يا عدّاس، وما دينك؟ قال نصراني، وأنا رجل من نينوى، فقال له الرسول ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متي، فقال عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متي؟ فقال الرسول: ذاك أخي، وكان نبياً وأنا نبي. فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه، وأسلم على يدي الرسول ﷺ، فلما عاد إلى أبي ربيعة، قال له: ويلك يا عداس! مالك تُقبل هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي^٣.

رابعاً: لقاء النبي ﷺ مع الجارود بن عمرو

وهو من بني عبد القيس، وكان ذلك اللقاء في عام الوفود في السنة السادسة للهجرة، وكان زعيماً لقومه يعتنق النصرانية، فعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، ورغب فيه، فقال الجارود: إن لي ديناً فلي إن تركت ديني، ودخلت في دينك ألا يعذبني الله؟ فقال الرسول ﷺ: نعم. فأسلم، وحسن إسلامه، وفرح به الرسول ﷺ وأدناه^٤.

خامساً: لقاء النبي ﷺ مع عدي بن حاتم الطائي

كان عدي بن حاتم ملكاً على قومه، يدين بالنصرانية، ويسير بأخذ المرباع^٥ في قومه، وهرب بأهله عندما وصلت جيوش النبي ﷺ إلى طيء، وحلف أختاً له فأسرت، فلما قدموا بها المدينة، منّ عليها رسول الله ﷺ بالإعتاق، ووصلها بنفقة، فأتت

^١ أي من يرجعون إليه ويقوم بأمرهم.

^٢ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٢١٥.

^٣ انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٤٢١؛ والطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٥٥٤.

^٤ انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٥٧٥؛ والطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ١٩٩.

^٥ المرباع: أخذ الربيع من الغنيمة. انظر: ابن منظور، القاموس المحيط، ج ٣، ص ٢٥.

أخاها في الشام، فنصحته بالقدوم على الرسول ﷺ، وكان عدي يقول: " ما من رجل من العرب أشد كراهية لرسول الله حين سمع به مني"^١.

وروي الترمذي، أن عدي بن حاتم قدم على النبي ﷺ وجلس بين يديه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما يُفْرِكُ أن تقول: لا إله إلا الله. فهل تعلم من إله سوى الله؟» قلت: لا. قال: ثم تكلم ساعة، ثم قال: «إنما تَقَرَّر أن تقول: الله أكبر؟ وتعلم أن شيئاً أكبر من الله؟» قال: قلت: لا. قال: «إن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضلال». قال: فإني جئت مسلماً، فرأيت وجهه تبسّط فرحاً^٢.

الدلالات التي يمكن استخلاصها من هذه اللقاءات^٣:

١. إن أول إنسان صدّق النبي ﷺ، وآمن به، هو أحد علماء أهل الكتاب المسيحيين، وهو ورقة بن نوفل.
٢. ظهور الأدب النبوي الرفيع في معاملة المسيحيين.
٣. أثر أخلاق الرسول ﷺ في إيصال نور الإسلام، وجمال دعوته، إلى قلوب الآخرين.
٤. التزام الرسول ﷺ بمنهج القرآن الكريم، في كل ما يتعلق بالمسيحية.
٥. استخدام الرسول ﷺ للأسلوب العقلي في حوار مع المسيحيين، ومن ذلك قوله لعدي: هل تعلم من إله سوى الله؟ وقوله: وتعلم شيئاً أكبر من الله؟

وهكذا، شكّل اللقاء مع الرسول نفسه ﷺ وفي بيته، وفي المدينة المنورة، أول لقاء حوارى إسلامي مسيحي في التاريخ. وصدر بعد ذلك عن النبي ﷺ عهد للنصارى بتاريخ الثالث من محرم في السنة الثانية للهجرة، وشهد عليه كبار الصحابة، منهم الخلفاء الأربعة أبوبكر وعمر وعثمان وعلي. وانتشر الإسلام واتسعت الفتوحات كفتح الشام على يد سيدنا عمر رضي الله عنه، وكان الجميع يعيشون في أمن وسلام في ظل الدولة الإسلامية. وقد تميز ذلك بصورة واضحة في الأندلس في ظل سيادة الإسلام. وأخيراً فإن قيمة العامل النفسي هي أن يهيء الجو لشعور الآخرين بالمعاني القوية الرائعة التي تحكم الفكر والدعوة في مجال الحوار.

^١ انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤، ص ٥٨٧.

^٢ رواه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب تفسير فاتحة الكتاب، ج ٥، ص ٢٠٣. وقال: "حسن غريب".

^٣ انظر: عحك، الحوار الإسلامي المسيحي: المبادئ، الموضوعات، الأهداف، ص ١١٩-١٢٠.

المبحث الثالث: ضوابط الحوار الديني وآدابه

الضوابط في اللغة جمع "ضابط" وهو مأخوذ من الضبط، وهو لزوم الشيء وحبسه^١. وتضمن كلام دعاة حوار الأديان في العصر الراهن ضوابط للحوار الديني، أبرزها ما يلي:

أولاً: المنهجية العلمية للحوار

الالتزام بالموضوعية والمنهجية في الحوار مهم للغاية، ونقصد بالمنهجية هي التحلي والابتعاد عن اتباع الهوى أو الميل إلى العواطف والشعور من غير حكمة، ولا برهان ولا إثبات صحة المنقول في الحوار الديني. وللمنهج العلمي سبل ووسائل متعارف عليها، وفي مقدمتها: تقديم الأدلة والبرهان المثبتة للدراسات والبحوث، وإثبات صحة المنقول من الحجج والأقوال. ومنها، عدم تغليب دوافع الذات وعواطفها وانحيازاتها الفكرية والاجتماعية على العناصر الحقيقية والعلمية للموضوع، بحيث لا يتحدد الموقف بشكل تعسفي وعلى غير ما يجب أن يكون من صدق وأمانة وإخلاص وتوازن^٢.

ثانياً: بيان المراد بحوار الأديان

وهذا من أهم ما يمكن اشتراطه قبل الدخول في أي حوار بين أتباع الأديان، والمراد من الحوار مع أتباع الأديان، من وجهة النظر الإسلامية- هو تعريف الإسلام، وتقديم معارفه للآخر، وإيجاد مساحة يستطيع الجميع في ضوئها التعامل والتفاهم مع المخالفين، وليس المقصود من الحوار أن ننشئ ديناً جديداً أو وحدة الأديان أو تنازلات في أمور العقائد والشرائع، حيث أن من: ﴿يَبْتَغِ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثالثاً: القبول سنة الاختلاف

يجب أن ينطلق الحوار من رؤية تحمل في طياتها جملة من العناصر، أهمها القبول الواعي بسنة الاختلاف بين البشر، ووجود التنوع بين الملل، وعي الشامل بأهمية التفاهم والعيش وحضارته واقعة الديانات والثقافات واللغات بين الأمم، وعامل المسلمون غيرهم من أهل الكتاب بالتعايش والتسامح بلا خداع ولا ظلم، وتمثل ذلك صورة في ظل دولة الإسلامية في الأندلس.

وإذا قَبِلَ واعتقد المتحاوران أو المتحاورون بسنة الاختلاف بين البشر في الأفكار والثقافات والديانات، فيترتب ذلك الحوار بالتسامح والتفاهم والتعاون والحرية الدينية أو العقائد، وليس ذلك فحسب بل يفتح باب العدل والسلام والإصلاح البشرية والكون. قال ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]. فأخبر الله تعالى بأنهم لا يزالون مختلفين أبداً، مع أنه قد خلقهم للاختلاف. ويقول ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا

^١ انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ضبط)، ج ٧، ص ٣٤٠.

^٢ انظر: القرشي، التربية الحوارية: دراسة في إشكاليات الاختلاف والوحدة في الإطار الإسلامي، ص ٨٣-١٠٦.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبِّئُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِشُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٨]. فكأن الاختلاف والتعدد هنا يشكلان حافزاً للاختيار وللابتلاء في سياق ما يكون من تنافس وتنافس وتناسق بين المختلفين والمتعددين في الخصال والسمات^١. ومن هنا، إذا رجعنا إلى مفهومنا للحوار فنرى حقيقة الاختلاف بين المتحاورين في الثقافة والفكر والمواقف ... إلخ. لذا، أدركنا أن وجود الفروق بين الناس يعزز الحاجة إلى الحوار، لكن يجب أن يراعي مراد الحوار، وشروطه، وضوابطه الشرعي.

رابعاً: التكافؤ بين المتحاورين

التكافؤ بين المتحاورين أمر أساسي للحوار الناجح، وهذا التكافؤ يقوم على العدل بين الطرفين، فلا يُشعر طرف بالقهر أو الضعف، إذ إنه لو كان الحوار بين قوي وضعيف، أو غالب ومغلوب، أو مستعمر ومستعمر، أو قاهر ومقهور ... إلخ، فلا يكون هناك حوار مثمر، لا تفاهم، ولا تعاون بين الطرفين بل تباعد وصراع دائم. لذلك أكدت شريعة الإسلام على العدل المطلق بين الصديق والعدو، مع القريب والبعيد، وقد بين الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

آداب الحوار:

بجانب ضوابط الحوار، هناك آداب يجب أن يلتزم بها أصحاب الحوار حتى يستقيم أمر الحوار ويستمر. وإذا كانت وظيفة ضوابط الحوار استقامة الحوار، فإن آداب الحوار تحمي عملية الحوار من الخروج عن مسارها العلمي، وتحول دون أن يتحول الحوار إلى خصومة وشقاق لا ينير فيها طريقاً. فأدب الحوار تجعل الحوار أن يحقق هدفه الأساسي الذي هو البناء والتطور والإصلاح، وليس التنافر، والتخاصم، والتصارع. ومن الآداب التي يفترض أن تتوفر للحوار هي ما يأتي:

أولاً: الصدق والإخلاص

أي تحري الصدق والإخلاص في إطار المحاورات، والابتعاد عن الكذب وكل ما يمكن أن يحرف سير الحوار المثمر، الصدق الذي لا يحوم حوله كذب مطلوب، والصدق لا يأتي إلا من نفس طاهرة، نقية من الغل والحسد، ولا يصدر الصدق إلا من قلب سليم لا يعرف الغش أو الخداع، ولا ينبع إلا من عقل راجح يستطيع (بعون الله تعالى وتأييده) أن يكشف بفضة وذكاء وحكمة، عن الباطل والزيف والدجل كمثل كان الحوار الذي دار بين موسى وفرعون. يقول السيد طنطاوي: "إن الحوار البناء الذي يقصد به الوصول إلى الحق والعدل ومكارم الأخلاق هو الذي يكون لحمته وسداه الصدق في القول والعفاف في السلوك"^٢.

^١ انظر: عمارة، الإسلام و التعددية، ص ٩.

^٢ انظر: طنطاوي، أدب الحوار في الإسلام، ص ١٦.

ثانيا: الحلم والصبر

من آداب المحاور أن يكون حليماً صبوراً فلا يغضب لأتفه سبب، فإن ذلك يؤدي إلى الفشل في الحوار، وإلى النفرة منه والابتعاد عنه، وسرعة الغضب لا يوصل إلى نجاح في الحوار. فالحلم من صفات المؤمنين والمتقين والمحسنين. هاتان الصفتان وإن كانتا من الآداب التي يجب على المسلم التحلي بهما في جميع شؤونهما إلا أنهما في الحوار يكون الالتزام بهما أشد وذلك لداعي التحاور الذي قد يكون فيه ما يجعل الإنسان يتخلى عن الحلم إلى الجهل، ومن الصبر إلى الضجر والغضب وربما زاد عن ذلك، والصبر في الحوار يأتي على أنواع منها الصبر على مواصلة الحوار، والصبر والحلم على جهل الطرف الآخر، والصبر على شهوة النفس في الانتصار على الخصم. فالصبر هو مفتاح التفاهم والتعاون.

ثالثا: طيب الكلام وحسن الإستماع

من الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المحاور حسن الكلام، وهو أن يكون حديثه وكلامه بأدب وتلطف، فلا يرفع صوته، ولا يتلفظ بكلمات بذئية أو نابية أو تجرح الطرف الآخر، أو تمس كرامته. لا بد للمحاور الناجح أن يتقن فن الإستماع، فكما أن الكلام فنًا وأدبًا، فكذلك الإستماع، وليس الحوار من حق طرف واحد يستأثر فيه بالكلام دون محاوره، ففرق بين الحوار الذي فيه تبادل الآراء وبين الإستماع إلى خطبة أو محاضرة. ومما ينافي حسن الاستماع، مقاطعة كلام الطرف الآخر.

رابعا: الجهر بالحق والرجوع إليه

الجهر بالحق والرجوع إليه هو الأصل في الحوارات سواء أكانت في الأمور الدينية أو في الأمور الدنيوية أي غير الشرعية، وإذا لم يتوفر هذا الضابط أو القيد وكان الهدف من الحوار هو الانتصار على الطرف الآخر أو دحض حججه وبراهينه ولو بالالتفاف والتحايل، فإن الحوار لن يحقق أي نتيجة ويصبح وبالأعلى من كانت هذه حاله، وفيه تضييع للوقت دون مقتضى شرعي.

فالرجوع إلى الحق وعدم التعصب بالرأي بعد معرفة مخالفته للحقيقة أمر مطلوب للغاية في جميع تصرفات الإنسان بصفة عامة وفي مجال المحاورة بصفة خاص.

خامسا: التواضع والأخذ باللين

إن التزام الأدب وحسن الخلق عموماً، والتواضع والأخذ باللين على وجه الخصوص، له دور كبير في إقناع الطرف الآخر، وقبوله للحق وإذعانه للصواب، فكل من يرى من محاوره توقيراً وتواضعاً وليئناً، ويلمس خلقاً كريماً، ويسمع كلاماً طيباً، فإنه لا يملك إلا أن يحترم محاوره، ويفتح قلبه لسماع رأيه.

فالكبر والتواضع يكونان في القلب وأمرهما عظيم، لذا ذكر الله ﷻ في كتابه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]. ويبيّن رسول الله ﷺ في حديثه الشريف قائلاً: «لا يدخل الجنة من

كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^١، وقال أيضًا: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»^٢. وهذه النصوص دلت على صفات منها: الغرور والإعجاب المفرط بالنفس، والكبر.

المبحث الرابع: دوافع الحوار الإسلامي- المسيحي ووسائله في الفلبين

قد قام الباحث بمقابلة الشخصيات الكبار البارزين في المؤسسات الإسلامية في الفلبين، وحصل على معلومات مهمة عن مقومات الحوار الإسلامي- المسيحي على النحو التالي:

١- الإصلاح بين المسلمين والمسيحيين

كانت علاقة المسلمين مع المسيحيين علاقة حرب وقتال وعداوة وبغض مستمر منذ مجيء الاستعمار الأسباني في عام ١٥٢١م والاستعمار الأمريكي في عام ١٨٩٩م، وأهدافهم واحدة هي: دينية وسياسية واقتصادية، بل حاولوا إجبار المسلمين على دخول الديانة المسيحية ذلك مما تسبب في اندلاع الحرب سجالاً بينهم وبين المسلمين في المناطق الإسلامية في جزيرة مينداناو، وقد تعاون الأمريكيون المستعمرون والمسيحيون المواطنون في قتال المسلمين، وطرد كثير من المسلمين من مناطقهم التي كانوا يعيشون فيها مثل كوتاباتو، وزمبوانجا ولم يبق لهم مكان يتركزون فيه إلا مدينة ماراوي التي يسكن فيها أغلب المسلمين. وانطلاقاً من هذا استمرت العداوة والحرب بين المسلمين والمسيحيين. وفي القرن العشرين حاول بعض رجال الدين من المسيحيين مثل الدكتور فيتر غوينج^٣ (Dr. Peter Going) وبعض المسلمين مثل الدكتور مختار ماتوان (Dr. Moctar I. Matuan) أن يصلحوا هذه المشكلات بالحوار الإسلامي المسيحي. ودفعت بعض المؤسسات الإسلامية للحوار الإسلامي المسيحي نحو الإصلاح بين المسلمين والمسيحيين.

٢- التعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين

بعض المؤسسات الإسلامية دفعت إلى الحوار الإسلامي المسيحي لأجل التعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين الذين يسكنون في مكان أو شارع واحد في جزيرة "لوزون" (Luzon) وهي أكبر جزيرة في الفلبين وفيها العاصمة "مانيللا" (Manila) التي يسكنها أقلية من المسلمين، وكذلك في كافيتي (Cavite) وغيرها، وأما في جزيرة مينداناو فيها مدينة ماراوي (Marawi City) التي يسكنها أكثر المسلمين، ومدينة إيلغان (Iligan City) أكثر سكانها من المسيحيين، وكذلك كاغايان دي أورو (Cagayan de oro City) وكوتاباتو (Cotabato) وغيرها، وبلديات مثل كوسوغان لاناو ديل نورتي (Kauswagan Lanao del Norte) وغيرها، لذلك دفعت بعض المؤسسات الإسلامية إلى الحوار الديني بهدف التعايش السلمي، وبناء السلام

^١ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ج ١، ص ٦٥.

^٢ المرجع السابق، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

^٣ هو مواطن من ماساتشوستس (Massachusetts)، تخرج من جامعة مين (University of Maine) درجة بكالوريوس وماجستير، وحصل على دكتوراه من جامعة سيركيوز (Syracuse University) العلوم الاجتماعية، كان وزير كنيسة المسيح المتحدة، وعمل مديراً للزراعة في Manice لمدة تسع سنوات، تم تعيينه قسيساً إلى الولايات المتحدة لأسطول المحيط الأطلسي في عام ١٩٥٥م، وفي عام ١٩٦٠م ذهب بوصفه مبشراً للكنيسة المتحدة لمجلس الوزراء العالم لكلية جامعة Silliman في مدينة Dumaguete في الفلبين، وبقي هناك أحد عشر عامًا.

والتفاهم والاحترام المتبادل، ثم التعاون على إقامة القيم المحمودة والدفاع عنها لمصالح الحياة المشتركة، ومن أجل تحقيق السعادة البشرية. يرى الباحث بأن أتباع الأديان في البلد بحاجة إلى الحوار الديني الذي يسعى إلى التعايش السلمي، مع ضوابط أو موازين شرعية، ولأنه أكثر فائدة على الساحة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، من الاحترام المتبادل والتفاهم والتصالح والتعاون والتطور والتعارف بين المسلمين والمسيحيين في الفلبين.

٣- الرد على الشبهات

من أهم مقومات الحوار الإسلامي المسيحي هو الردّ على الشبهات التي تثار حول الإسلام والمسلمين. لقد كثرت الاتهامات الملتصقة بالمسلمين في العالم عامة، وفي الفلبين خاصة، وهناك دعايات الإعلام ضد المسلمين ومؤسساتهم وتجارهم وأعمالهم بل الإسلام نفسه عقيدته وشريعته ومعاملاته والرسول ﷺ. لذا دفعت الحوار الإسلامي المسيحي من قبل بعض المؤسسات الإسلامية في البلد لتردّ على تلك الدعايات والاتهامات. يرى الباحث أن المؤسسات الإسلامية في الفلبين ينبغي لها أن تبذل الجهد في ردّ الشبهات حول الإسلام، وتوضح رسالة الإسلام ومقاصده مستدلة بالكتاب والسنة. وذلك لدفاع عن النبي ﷺ ولإظهار ما في الإسلام من كمال وجمال، فيظهر الحق ويدحض الباطل، وقد ذكر ابن تيمية أن كثيرا من أهل الكتاب يبلغهم الإسلام، ولكن يمنعهم من الإيمان شبهات يحتاجون إلى أجوبة عليها^١.

٤- الدّعوة إلى الإسلام

المسلمون في الفلبين جزء من أمة الإسلام وهي خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. يعتبر المسلمون في الفلبين أقلية مسلمة وعلى الرغم من ذلك فهم متمسكون بدينهم، ويدافعون عن الإسلام والرسول ﷺ، ويبدلون جهودهم في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال والحوارات والمناقشات التي هي أحسن مع المسيحيين، لذا دفعت أكثر المؤسسات الإسلامية التي تهتم بالحوار الإسلامي المسيحي إلى الدعوة الإسلامية. يرى الباحث أن الطرفين المتحاورين كليهما يجب عليهما احترام مبادئ الآخر وصولاً إلى الحق.

أهم الوسائل المستخدمة في الحوار الإسلامي المسيحي في الفلبين:

وسائل الحوار الإسلامي المسيحي التي تتخذها المؤسسات الإسلامية في الفلبين متنوعة، منها الرسمية ومنها غير الرسمية. الوسائل الرسمية تشمل الندوات، والمؤتمرات، والكتابة، والإعلام، والوسائل غير الرسمية تشمل الزيارات، وإلقاء الدروس.

خاتمة:

بعد أن انتهى الباحث من كتابة هذا البحث المتواضع حول موقف السنة النبوية من الحوار الإسلامي المسيحي، وعلمًا بأن هدف الحوار الإسلامي- المسيحي هو عرض رسالة الإسلام وشريعته والدفاع عن سنة النبي ﷺ ونشر أخلاقه ومعاملته وهو رحمة للعالمين. ومن خلال نتائج دراسة الباحث لموقف السنة النبوية من الحوار الإسلامي المسيحي، يمكن تحديد تلك النتائج في النقاط الآتية: ظهور الأدب النبوي الرفيع في معاملة المسيحيين، وأثر أخلاق الرسول ﷺ في إيصال نور الإسلام،

^١ ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ١، ص ٧٦.

وجمال دعوته، إلى قلوب الآخرين، والتزام الرسول ﷺ بمنهج القرآن الكريم، في كل ما يتعلق بالمسيحية، واستخدام الرسول ﷺ للأسلوب العقلي في حوار مع المسيحيين. ومن أهم ضوابط الحوار الديني هي المنهجية العلمية، وبيان المراد بحوار الأديان، والقبول سنة الاختلاف، والتكافؤ بين المتحاورين. وأما أهم آداب الحوار هي الصدق والإخلاص، والحلم والصبر، وطيب الكلام وحسن الإستماع، والجهر بالحق. ومن أهم دوافع الحوار للمؤسسات الإسلامية في الفلبين هي الدعوة إلى الله ﷻ والدفاع عن النبي ﷺ، والإصلاح بين المسلمين والمسيحيين، والتعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين، والرد على الشبهات التي تثار حول الإسلام وتعاليمه. أبرز وسائل المؤسسات الإسلامية في الحوار الديني في الفلبين هي الندوات.

التوصيات والمقترحات:

أهم التوصيات والمقترحات لهذا البحث كما يأتي: لا بد من إعادة النظر في منهج الحوار الديني ليكون من الكتاب والسنة ومنهج السلف، وأن تقوم المؤسسات بتكوين لجنة خاصة لدراسة منهج الحوار الديني وتحديد أهدافه وضوابطه، وتطور أساليبه، وحل معوقاته، وتقويم آثاره على الساحة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية. ويجب على المؤسسات والمنظمات الإسلامية التي تهتم بالحوار بين الأديان أن تجعل من يمثلها في هذه المجالات من المتخصصين ذوي الدراية والمعرفة بالأديان غير الإسلامية إضافة إلى المعرفة العميقة بالإسلام نفسه. ولا بد من تدريس مادة الحوار الديني في الجامعات والمعاهد الإسلامية وخاصة في قسم أصول الدين والدعوة للاهتمام بهذا الموضوع وحتى يدرك الطلاب قيمة الحوار الإسلامي المسيحي وأهميته في البلد وغيره من البلدان. ضرورة الاهتمام بالأنشطة الرسمية مثل المؤتمرات والندوات والمناقشات وورش العمل وغيرها لجمع المعلومات، وتبادل الأفكار والنظريات والتجارب، وتقوية الآراء، وإتمام تقرير ما يجب إجراؤه، وبيان الحقائق، وتحقيق الأهداف والأغراض، ومعالجة الأخطاء. فضلا عن الاهتمام بالأنشطة غير الرسمية مثل الزيارات والدراسات الأسبوعية لتطبيق الحوار مع المسيحيين في البلد.

المصادر والمراجع:

١. ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (مطابع الجد التجارية).
٢. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، تحقيق: أمين عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط ١، ١٦٤١٦هـ/١٩٦٦م).
٣. ابن هشام، السيرة النبوية، علق عليها، وخرّج أحداثها، وصنع فهراسها، عمر عبد السلام تدمري، (القاهرة: دار الريان، ط ١، ٤٠٨هـ/١٩٨٧م).
٤. أليكس جورافسكي، الإسلام والمسيحية، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٦م).
٥. التوجري، عبد العزيز بن عثمان، الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين، (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٩٨م).
٦. التوجري، عبد العزيز بن عثمان، "الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي"، آفاق الإسلام، السنة: ٢٤ ديسمبر ١٩٩٨، العدد: ٦.

٧. حفني، عبد الحليم، أسلوب المحاوراة في القرآن (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م).
٨. شيخو فطيمير، حوار الأديان بين القرآن والتطبيقات المعاصرة، (مجلة الإسلام في آسيا، المجلد ٥ (العدد ١)، ٢٠٠٨م).
٩. طنطاوي، محمد سيد، أدب الحوار في الإسلام، (مصر: مكتبة نهضة، ١٩٩٧م).
١٠. عبد الله، علي محمد صالح، الحوار الديني الإبراهيمي في ميزان القرآن، (مصر: دار السلام، ٢٠٠٧م).
١١. عحك، بسام داود، الحوار الإسلامي المسيحي: المبادئ، الموضوعات، الأهداف، (بيروت: دار قتيبة، ٢٠٠٨م).
١٢. علي القرشي، التربية الحوارية: دراسة في إشكاليات الاختلاف والوحدة في الإطار الإسلامي، (بيروت: مجلة المعاصر، ع ٨٨، ١٩٩٧-١٩٩٨).
١٣. محمد عمارة، الإسلام والتعددية، (القاهرة: دار الرشاد، ١٩٩٧م).
١٤. محمود حمدي زقزوق، الإسلام وقضايا الحوار، (القاهرة: ط التجارية، ٢٠٠٢م).
١٥. مراد هوفمان، الإسلام كبديل، ترجمة: غريب محمد غريب، (الكويت: مجلة النور الكويتية، ١٩٩٣م).

موقف القرآن والسنة من نزول المسيح عليه السلام آخر الزماند. محمد إبراهيم الشريبي صقر^١

ملخص البحث:

لا يشكّ مسلم عاقل في أن القرآن والسنة مصدران أصليان للتشريع الإسلامي، وقد اعتنى العلماء المسلمون على مرّ العصور بدراستهما، وبيان ما تضمّناه من تشريعات وأخلاق وعقائد. ومن هذه العقائد الهامة التي أشار إليها القرآن الكريم، وتواترت الأحاديث الصحيحة على التصريح بها، واهتم العلماء بتوضيحها، وإفراد المؤلفات لبيانها، عقيدة نزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان. ولهذا الموضوع أهمية كبيرة، خاصة في هذا الزمان، الذي ينكر فيه بعض الناس من منحرفي العقيدة، ومتبعي الهوى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعترفون إلا بالقرآن الكريم مع تحريف تأويله إلى مرادهم وهواهم ونحلتهم. ولقد انتشر هذا الفكر الخبيث في المجتمعات، وروج له بعض النفوس الضعيفة المريضة، التي تركت طريق الوسطية الإسلامية، واتجهت نحو التعصب والمغالاة. ومن هذا المنطلق تتبعت آيات القرآن الكريم التي تشير إلى نزول المسيح عيسى عليه السلام في آخر الزمان، وأوردت ما قاله المفسرون عن هذه الآيات، مع ترجيح الآراء التي تتوافق مع أصول الإسلام وقواعده، وأوردت الأحاديث الصحيحة الصريحة المتواترة في نزول المسيح، مع بيان مدلولاتها وشرح غريبها، وهذه الأحاديث قد بلغت حد التواتر المعنوي. وأوردت ما قاله العلماء الأثبات الذين أجمعوا على نزوله عليه السلام في آخر الزمان، إلا أن البعض قد خالف هذا الرأي وأوّل نزوله بغلبة روحه وسر رسالته على الناس، وهذا الرأي قد ردّته الأحاديث المتواترة الصريحة في بيان نزوله صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان. وسيتضح في هذا البحث كيفية نزوله عليه السلام والأعمال التي يقوم بها في آخر الزمان، والمدة التي يعيشها في الدنيا وزيارته إلى مكة والمدينة، ثم وفاته. وكل ذلك بتتبع الأحاديث الصحيحة وأقوال العلماء المحققين.

وقد اشتمل البحث على عدة نتائج، من أهمها:

- ١- إن في القرآن الكريم أربع آيات تشير إلى نزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام آخر الزمان.
- ٢- أن الأحاديث تواترت على نزول المسيح عيسى عليه السلام في آخر الزمان.
- ٣- أجمعت أمة محمد صلى الله عليه وسلم على نزول المسيح عليه السلام ولم يخالف في ذلك أحد إلا الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافهم، وقد انعقد الإجماع على أنه ينزل ويحكم بالإسلام وليس بشريعة مستقلة، وإن كانت النبوة قائمة به وهو متصف بها.

^١ كلية بحانج الإسلامية السلطان أحمد شاه KIPSAS.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وإمام المجاهدين محمد ﷺ ورضي الله عن الصحابة الأبطال الأبرار، ورضي الله عن التابعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد! فلا يشكّ مسلم عاقل في أن القرآن الكريم والسنة المشرفة مصدران أصليان للتشريع الإسلامي، وقد اعتنى العلماء المسلمون على مرّ العصور بدراستهما، وبيان ما تضمنناه من تشريعات وأخلاق وعقائد.

ومن هذه العقائد الهامة التي أشار إليها القرآن الكريم، وتواترت الأحاديث الصحيحة على التصريح بها، واهتم العلماء بتوضيحها، وإفراد المؤلفات لبيانها عقيدة نزول المسيح عيسى بن مريم ﷺ في آخر الزمان.

ولهذا الموضوع أهمية كبيرة خاصة في هذا الزمان، الذي ينكر فيه بعض الناس من منحرفي العقيدة ومتبعي الهوى أحاديث النبي ﷺ ولا يعترفون إلا بالقرآن الكريم مع تحريف تأويله إلى مرادهم وهواهم ونحلتهم.

ولقد انتشر هذا الفكر الخبيث في المجتمعات، وروج له بعض النفوس الضعيفة المريضة، التي تركت طريق الوسطية الإسلامية، واتجهت نحو التعصب والمغالاة.

ومن هذا المنطلق تتبعنا آيات القرآن الكريم التي تشير إلى نزول المسيح عيسى ﷺ في آخر الزمان، وأوردت ما قاله المفسرون عن هذه الآيات مع ترجيح الآراء التي تتوافق مع أصول الإسلام وقواعده، وأوردت الأحاديث الصحيحة الصريحة المتواترة في نزول المسيح ﷺ، مع بيان مدلولاتها وشرح غريبها، وهذه الأحاديث قد بلغت حد التواتر المعنوي.

المطلب الأول: الآيات الدالة على نزول المسيح ﷺ وأقوال المفسرين عنها

إن عقيدة نزول المسيح ﷺ قبل يوم القيامة من عقائد أهل السنة والجماعة، وقد وردت آيات في القرآن الكريم تشير إلى نزوله ﷺ في آخر الزمان، وقد أشار أكثر المفسرين في تفسير هذه الآيات بنزول عيسى ﷺ قبل يوم القيامة، وسيوضح كل ذلك من خلال السطور التالية.

أولاً: الآيات الدالة على نزول عيسى ﷺ:

ورد في القرآن الكريم أربع آيات تشير إلى نزول المسيح ﷺ، وهذه الآيات:

1- قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

2- وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۗ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۗ وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۗ وَثَبَرْتُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۗ وَإِذْ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۗ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

3- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

٥ - وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُون﴾ [الزخرف: ٦١].

ثانياً: أقوال المفسرين عن آيات نزول عيسى عليه السلام:

إن أقوال المفسرين على اختلاف أساليبهم ووجهتهم تقرر نزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام آخر الزمان، وهذه بعض أقوالهم حول تفسيرها:

أ- آراء المفسرين في الآيتين الأولى والثانية:

فالآيتان الأولى والثانية تشيران إلى أن عيسى عليه السلام يكلم الناس في المهدي، وقد حدث ذلك بأن قال كما حكى القرآن الكريم عنه وعن أمه السيدة مريم عليها السلام: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٩-٣٠]. وأما كلامه وهو كهل فيقول الإمام القرطبي: "إذا أنزله الله تعالى من السماء أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين وهو الكهل"^١. فالآيتان تشيران إلى نزوله عليه السلام قبل يوم القيامة فكما كلم الناس في المهدي فسوف يكلمهم عند نزوله من السماء وهو كهل.

ب- آراء المفسرين في الآية الثالثة:

أما الآية الثالثة فهذه آراء المفسرين في تفسيرها وبيانها:

١- رأي الإمام الطبري (ت ٣١٥هـ): يقول في تفسيره لهذه الآية: "اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩] يعني: "بعيسى (قبل موته)، يعني: قبل موت عيسى، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم عليه السلام"^٢.

ثم ذكر الإمام ابن جرير عدة أقوال تؤيد هذا الرأي، وأن الضميرين في الآية يعودان إلى عيسى عليه السلام، ثم ذكر رأياً آخر مفاده أن الضميرين في الآية يعودان إلى عيسى عليه السلام والكتابي، ومعنى ذلك: أن ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمن بعيسى قبل موت الكتابي، ثم ذكر من الأقوال ما يؤيده. ثم ذكر رأياً ثالثاً: مفاده: أن الضميرين في الآية يعودان على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم والكتابي، ومعنى ذلك: أن ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل موت الكتابي، ثم ذكر ما يؤيد هذا الرأي، ثم رجع القول الأول فقال: "وأولى هذه الأقوال بالصحة والصواب قول من قال: تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن بعيسى قبل موت عيسى"^٣. وذلك بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان، وقد تابعه في ذلك كثير من المفسرين.

^١ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم، ج ٤، ص ٨٦.

^٢ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن الكريم، ج ٤، ص ٣٥٦.

^٣ الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن الكريم، ج ٤، ص ٣٦٠.

٢- رأي الإمام ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): يقول في تفسيره لهذه الآية معلقاً على كلام الإمام ابن جرير وموافقاً له: "ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأن المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبرهم الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شُبّه لهم، فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حي، وإنه سينزل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ لا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود، ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي بأعمالهم التي شاهدتها منهم قبل رفعه إلى السماء بعد نزوله إلى الأرض".^١

٣- رأي الغمام البغوي (٥١٦هـ): يقول في تفسيره لهذه الآية: "وما من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام. هذا قول أكثر المفسرين وأهل العلم، وذهب قوم إلى أن الهاء في (موته) كناية عن عيسى عليه السلام معناه: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى عليه السلام، وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحد إلا آمن به حتى تكون الملة واحدة ملة الإسلام".^٢

٤- رأي الطبرسي الشيعي (٥٤٨هـ): يقول في تفسيره لهذه الآية: "اختلف فيه على أقوال (أحدها) أن كلا الضميرين يعود إلى المسيح: أي ليس يبقى أحد من أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا ويؤمنن بالمسيح قبل موت المسيح إذا أنزله الله إلى الأرض، وقت خروج المهدي في آخر الزمان لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام دين إبراهيم".^٣

٥- رأي الإمام الرازي (٦٠٦هـ): يبين في تفسيره: أن الآية تحتمل وجهين: الوجه الأول: أن ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موتهم، فالهاء في الأولى لعيسى، وفي الثانية للكتابي. والوجه الثاني: أن الضميرين لعيسى عليه السلام فيقول: "أن قوله (قبل موته) أي قبل موت عيسى، والمراد: أن أهل الكتاب الذين يكونون موجودين في زمان نزوله لا بد وأن يؤمنوا به".^٤

٦- رأي الإمام القرطبي (٦٧١هـ): يقول في تفسيره لهذه الآية: "ليؤمنن به - عيسى عليه السلام - من كان حياً حين نزوله يوم القيامة. وروى يزيد عن زريع عن رجل عن الحسن في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى، والله إنه لحي عند الله الآن؛ ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون".^٥

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٣٣٦.

^٢ البغوي، تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، ج ١، ص ٤٩٧.

^٣ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٣، ص ٢١١.

^٤ الرازي، التفسير الكبير، ٦م، ج ١١، ص ١٠٦.

^٥ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم، ج ٥، ص ٣٧٤.

٧- رأي الإمام البقاعي (٨٨٥هـ): يقول في تفسيره لهذه الآية: " (وإن أي والحال أنه ما (من أهل الكتاب) أي أحد يدرك نزوله في آخر الزمان. (إلا) وعزتي (ليؤمنن) أي بعيسى عليه السلام (قبل موته) أي موت عيسى عليه السلام، أي أنه لا يموت حتى ينزل في آخر الزمان، يؤيد الله به دين الإسلام، حتى يدخل فيه جميع أهل الملل، إشارة إلى موسى عليه السلام إن كان قد أیده الله تعالى بأنبياء كانوا يجددون دينه زماناً طويلاً.

فالنبي الذي نسخ شريعة موسى وهو عيسى بن مريم - عليهما الصلاة والسلام - هو الذي يؤيد الله به هذا النبي العربي في تجديد شريعته وتمهيد أمره والذب عن دينه، ويكون من أمته بعد أن كان صاحب شريعة مستقلة وأتباع مستكثرة، أمر قضاة الله في الأزل فأمضاه، فأطيلوا أيها اليهود أو اقصروا!

فمعنى الآية إذن - والله أعلم - أنه ما من أحد من أهل الكتاب المختلفين في عيسى عليه السلام على شك إلا وهو يوقن بعيسى عليه السلام قبل موته بعد نزوله من السماء أنه ما قتل وما صلب، ويؤمن به عند الشبهة، والله أعلم^١.

وقد ذكر الإمام محمد جمال الدين القاسمي المتوفى سنة ١٣٣٢هـ في تفسيره المسمى (محاسن التأويل) ما ذكره الإمام البقاعي في تفسيره لهذه الآية^٢.

٨- رأي الإمام الشوكاني (١٢٥٥هـ): وقد قال في تفسيره حول هذه الآية: "وذهب كثير من التابعين فمن بعدهم إلى أن المراد: قبل موت عيسى. وقيد كثير منهم بأنه يؤمن به من أدركه عند نزوله إلى الأرض وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى عليه السلام"^٣.

٩- رأي الإمام الزمخشري (٥٣٨هـ): ولقد ذهب في تفسيره لهذه الآية إلى ترجيح القول بأن الضميرين في الآية ﴿...﴾ ليؤمنن به قبل موته ﴿﴾ يعود الأخير منهما إلى الكتابي، والأول لعيسى عليه السلام فيقول: "وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمن قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله، يعني إذا عاين قبل أن تزهر روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف. وعن شهر بن حوشب قال لي الحجاج: آية ما قرأها إلا تخالج في نفسي شيء منها: يعني هذه الآية، وقال: إني أوتي بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا: يا عدو الله! أتاك عيسى نبياً فكذبت به، فيقول: آمنت أنه عبد نبي، وتقول للنصارى: أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله أو ابن الله، فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه، قال: وكان متكئاً فاستوى جالساً فنظر إلي وقال: ممن؟ قلت: حدثني محمد بن علي ابن الحنفية، فأخذ ينكت الأرض بقضيبه، ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية أو من معدنهما. فإن قلت: ما فائدة الأخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم؟ قلت: فائدته الوعيد، وليكون علمهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند

^١ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج ٢، ص ٣٦٥.

^٢ القاسمي، محاسن التأويل، ج ٣، ص ٦٢٣.

^٣ الشوكاني، فتح القدير، ج ١، ص ٤٦٢.

المعانية، وأن ذلك لا ينفعهم بعثاً لهم وتنبهاً على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزاماً للحجة لهم، وكذلك قوله: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذبوه، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله. وقيل: الضميران لعيسى، وقيل: إلى محمد ﷺ¹.

ومما سبق عرضه لأقوال المفسرين حول هذه الآية يتبين لنا:

أن ما عليه أكثر المفسرين: أن هذه الآية تقرر نزول المسيح ﷺ آخر الزمان؛ وعلى ذلك فالضميران في الآية ﴿ليؤمنن به قبل موته﴾ يرجعان إلى عيسى ﷺ.

وذهب رأي آخر إلى أن الضمير الأول لعيسى، والثاني للكتابي، ومعنى ذلك: أن ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت الكتابي. وهذا رأي ضعيف، وأضعف منه من ذهب إلى القول بأن الضميرين في الآية يعودان إلى سيدنا محمد ﷺ والكتابي.

والرأي الأول هو الأرجح، وهو الذي تؤيده الأحاديث المتواترة.

ج- آراء المفسرين في الآية الرابعة:

أما الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾:

يقول الإمام ابن جرير في تفسيره لهذه الآية: "اختلف أهل التأويل في الهاء التي في قوله: (وإنه) وما المعني بها؟ ومن ذكر ما هي؟ فقال بعضهم: هي من ذكر عيسى، وهي عائدة عليه، وقالوا: معنى الكلام: وإن عيسى ظهوره علم يعلم به مجيء الساعة؛ لأن ظهوره من أشراطها، ونزوله إلى الأرض دليل على فناء الدنيا وإقبال الآخرة"².

ثم ذكر الإمام ابن جرير ما يؤيد هذا القول، وذكر رأياً آخر مفاده أن الضمير في (وإنه) عائدة على القرآن الكريم، ثم ذكر ما يؤيده من أقوال.

ويذكر الإمام ابن كثير هذه الآراء، ثم يرجح أحدها فيقول: "الصحيح أنه عائدة على عيسى ﷺ فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ [النساء: ١٥٩] أي قبل موت عيسى ﷺ: ﴿ثم يوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: ﴿وإنه لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي أمانة ودليل على وقوع الساعة. قال مجاهد: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ أي آية للساعة خروج عيسى بن مريم ﷺ قبل يوم القيامة، هكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى ﷺ قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً"³.

¹ الزمخشري، تفسير الكشاف، ج ١، ص ٥٨١-٥٨٢.

² الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن الكريم، ج ١١، ص ٢٠٤.

³ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٧، ص ١٨٠.

المطلب الثاني: تواتر الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام

صرح كثير من العلماء بتواتر الأحاديث التي تدل على نزول عيسى عليه السلام في آخر، وأنه ينزل حاكماً بشريعة الإسلام، ومن هذه الأقوال:

١- قول الإمام ابن كثير: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: "وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً".^١

٢- وقد ذكر الإمام محمد أنور الكشميري في كتابه: (التصريح بما تواتر في نزول المسيح)، أكثر من سبعين حديثاً في نزول المسيح عليه السلام. وقال تلميذه محمد شفيع مفتي باكستان في مقدمة الكتاب: "واعلموا أن هذه الأحاديث المتواترة كلها في الحقيقة تفسير لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]."

كما صرح به المفسرون قاطبة بتصريحاتهم وإخراجهم هذه الأحاديث تحت هذه الآية، ولتنصيب ألفاظ الروايات على ذلك، ولا سيما حديث أبي هريرة -مرفوعاً وموقوفاً- فقد قال فيه بعد ذكر نزول عيسى بن مريم عليه السلام متأكداً بالقسم: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ استشهداً على النزول.

٣- وقال السيد محمد صديق حسن: "والأحاديث في نزوله عليه السلام كثيرة ذكر الشوكاني منها تسعة وعشرين حديثاً، ما بين صحيح وحسن وضعيف منجبر، ثم قال: منها ما هو مذكور في أحاديث الدجال، وتنضم إلى ذلك أيضاً الآثار الواردة عن الصحابة، فلها حكم الرفع؛ إذ لا مجال للاجتهاد في ذلك، ثم ساقها ثم قال: وجميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع. فقرر أن الأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم متواترة".^٢

٤- ويقول الإمام محمد زاهد الكوثري بعد عرضه لتفسير آيات نزول عيسى عليه السلام: "... أن نصوص القرآن الكريم وحدها تحتم القول برفع عيسى حياً، ونزوله في آخر الزمان، حيث لا اعتداد باحتمالات خيالية لم تنشأ من دليل، كيف والأحاديث قد تواترت في ذلك، واستمرت الأمة خلفاً عن سلف على الأخذ بها، وتدوين موجبها في كتب الاعتقاد من أقدم العصور إلى اليوم، فماذا بعد الحق إلا الضلال".^٣

٥- ويقول الإمام الألباني عن تواتر أحاديث نزول عيسى عليه السلام: "وقد تيقنت - أنا شخصياً - بتواتر أحاديث الدجال وعيسى، وقد بلغت الطرق التي تجمعت عندي أكثر من أربعين طريقاً عن نحو أربعين صحابياً، بعضها على شرط الصحة، وسائر أكثر شواهدا معتبرة".^٤

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ح ٧، ص ١٨٠.

^٢ صديق خان، الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، ص ١٦٠ بتصرف.

^٣ الكوثري، نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة، ص ١٠٥.

^٤ الألباني، قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام وقتله إياه، ص ٢٥ بتصرف.

وقد خالف في تواتر هذه الأحاديث الإمام الأستاذ. محمد عبده ومن تبعه^١، وقال عن هذه الأحاديث أنها أحاديث آحاد. فقال عن حديث الرفع والنزول: "أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي؛ لأنه من أمور الغيب والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي؛ لأن المطلوب فيها هو اليقين، وليس في الباب حديث متواتر"^٢.

وقد علق الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ الإمام محمد عبده على قوله أستاذه فقال: "هذا ما قاله الإمام في الدرس مع بسط وإيضاح، ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في ذلك تأباه"^٣.

ثم ذكر الشيخ محمد رشيد رضا أن هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث فيقول: "ولأهل التأويل أن يقولوا: إن هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث، والناقل للمعنى ينقل ما فهمه"^٤.

والحق أن هذه الأحاديث لم تنقل بالمعنى كما قال الشيخ رضا بل إن "أكثرها متفق في وصف الأحداث، إلا أن في بعضها زيادات وتطويلات ليست في البعض الآخر"^٥.

وأول الشيخ محمد عبده نزول المسيح عليه السلام بغلبة روحه وسر رسالته على الناس، فقال: "تأويل نزوله (عيسى عليه السلام) وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس، وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة، دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبها. وهو حكمته وما شرعت لأجله، فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة، ولكنه جاءهم بما يرحمهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام، ويوقفهم على فقها والمراد منها، ويأمرهم بمراعاته، وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحري كمال الآداب، أي ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها، بل وألفاظ من كتب فيها معبراً عن رأيه وفهمه، وكان ذلك مزهقاً لروحها، ذاهباً بحكمتها كان لابد لهم من إصلاح عيسوي يبين لهم أسرار الشريعة وروح الدين وأدبه الحقيقي. وكل ذلك مطوي في القرآن الذي حجبا عنه بالتقليد الذي هو آفة الحق، وعدو الدين في كل زمان. فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقييد بالرسوم والظواهر"^٦. وهذا الكلام ترده الأحاديث الصحيحة المتواترة، وأقوال علماء الأمة.

^١ منهم الشيخ/ محمود شلتوت، والشيخ/ محمد بن فهم أبو عبيدة رئيس بعثة الأزهر الشريف ببلنجان.

^٢ رشيد رضا، تفسير المنار، ج٣، ص٣١٧.

^٣ رشيد رضا، تفسير المنار، ج٣، ص٣١٧.

^٤ رشيد رضا، تفسير المنار، ج٣، ص٣١٧.

^٥ هراس، فصل المقال في نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال، ص٥٩.

^٦ رشيد رضا، تفسير المنار، ج٣، ص٣١٧.

المطلب الثالث: إجماع الأمة على نزول المسيح عليه السلام

فقد "أجمعت أمة محمد صلى الله عليه وسلم على نزول المسيح عليه السلام، ولم يخالف في ذلك أحد إلا الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافهم، وقد انعقد الإجماع على أنه ينزل ويحكم بالإسلام وليس بشريعة مستقلة، وإن كانت النبوة قائمة به وهو متصف بها"^١.

وهذه بعض أقوال علماء الأمة الإسلامية عن نزوله عليه السلام في آخر الزمان:

١- يقول الإمام أبو الحسن الأشعري (ت ٣٣٠هـ) في حديثه عن عقيدة أهل السنة والجماعة: "الإقرار بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يردون من ذلك شيئاً... ويصدقون بخروج الدجال وأن عيسى بن مريم يقتله"^٢. وقد سار على نهجه كثير من العلماء منهم:

٢- القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) فقال: "نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال حق وصحيح عند أهل السنة للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله فوجب إثباته"^٣.

٣- ويقول الإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): "والمسيح -صلى الله عليه وسلم وعلى سائر النبيين- لا بد أن ينزل إلى الأرض على المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير كما ثبت في الأحاديث الصحيحة"^٤.

٤- ويقول الإمام الطحاوي (ت ٧٩٢هـ): "ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء..."^٥.

٥- ويقول العلامة محمد السفاريني (ت ١١١٨هـ): "ومنها -أي علامات الساعة العظمى- العلامة الثالثة^٦: أن ينزل من السماء السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ونزوله ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة"^٧.

المطلب الرابع: أحداث نزول عيسى عليه السلام

بينت الأحاديث كيفية نزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ومحل نزوله، وذلك بأنه ينزل بعد خروج الدجال، وإفساده في الأرض، ويكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، فينزل وعليه ثوبان مصبوغان بورد ثم بزعفران، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، ويكون نزوله على الطائفة المنصورة التي تقاتل على الحق والتي تجتمع في هذا الوقت لقتال الدجال، فينزل وقت إقامة الصلاة، يصلي خلف أمير هذه الطائفة.

^١ الشبلي، صحيح أشراط الساعة، ص ٢٥٣.

^٢ الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ص ٣٤٥-٣٤٨.

^٣ النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٨، ص ٧٥.

^٤ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٤، ص ٣٢٩.

^٥ ابن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، ص ٢٢٩.

^٦ العلامة الأولى: ظهور المهدي، والعلامة الثانية ظهور الدجال.

^٧ السفاريني، المسيح الدجال وأسرار الساعة، ص ٥١.

وبيان ذلك في الأحاديث التالية:

أولاً: كيفية ومكان نزول عيسى عليه السلام: فقد بينت الأحاديث كيفية نزوله والمكان الذي ينزل فيه، ومن هذه الأحاديث:

١- عن النواس بن سميان رضي الله عنه في حديث الدجال الطويل قال رسول الله ﷺ: «... فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَيْنِ، وَاضِعًا كَفَيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جَمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ»^١.

٢- وعن أوس بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل عيسى بن مريم عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق»^٢. يقول الحافظ ابن كثير في (النهاية) عن موضع نزول المسيح عليه السلام وهو المنارة البيضاء شرقي دمشق: "هذا هو الأشهر في موضع نزوله، أنه على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق؛ وقد رأيت في بعض الكتب أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي جامع دمشق، فعمل هذا هو المحفوظ، وتكون الرواية فينزل على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق، فتصرف الراوي في التعبير بحسب ما فهم، وليس بدمشق منارة تعرف بالشرقية سوى التي إلى شرق الجامع الأموي، وهذا هو الأنسب والأليق؛ لأنه ينزل وقد أقيمت الصلاة فيقول له إمام المسلمين: يا روح الله! تقدم. فيقول: تقدم أنت فإنها أقيمت لك. وفي رواية: بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله هذه الأمة"^٣.

٣- ونزول عيسى عليه السلام سوف يكون على الطائفة التي تقاتل على الحق، وتكون مجتمعة لقتال الدجال: فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». قَالَ: «فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُ أَمِيرَهُمْ: تَعَالِ صَلِّ بِنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَّرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ»^٤.

ويكون وقت نزوله عليه السلام من السماء في صلاة الصبح كما بينت الأحاديث. فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال ﷺ: «فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهَيْمُ الصُّبْحِ، إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصُّبْحِ، فَرَجَعَ ذَلِكَ الْإِمَامُ يَنْكُصُ بِمَشْيِ الْقَهْقَرَى؛ لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَيَضَعُ عِيسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: تَقَدَّمَ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَكَ أُقِيمَتْ، فَيُصَلِّي بِهَيْمُ إِمَامُهُمْ»^٥.

ثانياً: الأعمال التي يقوم بها عند نزوله:

^١ مسلم، الصحيح، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، ج ٤، ص ٢٢٥٠-٢٢٥٥، رقم ٢٩٢٧. وهذه المنارة موحدة اليوم شرقي دمشق، مهردتان: معناه لابس ثوبين مصبوغين بوس ثم بزعفران. وقيل: هما شقتان، والشقة نصف الملاءة. قوله ﷺ: «تحدّر منه جمان كاللؤلؤ»: الجمان: هي حبات من الفضة، تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار، والمراد ينحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفاته، فسمي الماء جماناً لشبهه به في الصفات. النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٨، ص ٦٧.

^٢ رواه الحاكم في المستدرک، كتاب الفتن والملاحم، ج ٤، ص ٥٣٨، رقم ٨٥٠٨، وقال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين"، وأقره الذهبي. ورواه الطبراني في المعجم الكبير، ج ١، ص ٢١٧، رقم ٥٩٠.

^٣ ابن كثير، النهاية في الفتن والملاحم، ج ١، ص ١٦٢.

^٤ مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى عليه السلام حاكماً بشرية نبينا محمد ﷺ، ج ١، ص ١٣٧، رقم ١٥٦.

^٥ رواه الحاكم في المستدرک، كتاب الفتن والملاحم، ج ٤، ص ٥٣٦، وقال الحاكم: "صحيح الإسناد" وأقره الذهبي.

عند نزول عيسى عليه السلام من السماء، سوف يقوم بعدة أعمال، من هذه الأعمال:

١- القضاء على كل الشرائع التي تخالف الإسلام والحكم بالإسلام، وتكسير الصليب، واستئصال عبادته، وقتله الخنزير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْثَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعَ الْجُزْيَةَ (الْحَرْبَ)، وَيَفِيضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَأَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].^١

٢- قتل عيسى بن مريم الدجال ومن معه من اليهود: فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال - إلى أن قال: «... فَيَطْلُبُهُ - عيسى - حَتَّى يُدْرِكُهُ بِنَابٍ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ - الدجال - ...»^٢.

٣- حجه وسفره إلى روضة النبي صلى الله عليه وسلم: ومن الأعمال التي يقوم بها سيدنا عيسى عليه السلام بعد نزوله، رفع صوته بالتلبية محرماً بحج أو عمرة أو الجمع بينهما، وهذا يكون من مكان يقال له فج الروحاء^٣، ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويسلم عليه، ويرد النبي صلى الله عليه وسلم على السلام. وقد بينت الأحاديث ذلك:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَيَهْلَأَنَّ ابْنُ مَرْثَمَ مِنْ فَجِّ الرَّوْحَاءِ، بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ، أَوْ لَيَنْتَبِهُمَا»^٤.

يقول الإمام النووي في شرحه للحديث: "قوله صلى الله عليه وسلم: (يكون هذا (أي الحج أو العمرة أو القران) بعد نزول عيسى عليه السلام من السماء في آخر الزمان"^٥.

وأخرج الحاكم وصححه: «ليهبطن ابن مريم حكماً عدلاً، وإماماً مقسطاً وليسلكن فجاً -الروحاء- حاجاً أو معتمراً، وليأتين قبري حتى يسلم عليّ، ولأردن عليّ». يقول أبو هريرة: "أي بني أخي! إن رأيتموه فقولوا: أبو هريرة يقرئك السلام"^٦.

ثالثاً المدة التي يبقى فيها عيسى عليه السلام في الأرض بعد نزوله:

توضح بعض الروايات أن هذه المدة: سبع سنين، وفي بعضها: أربعين سنة. ففي رواية الإمام مسلم مرفوعاً عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ رِيحاً بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ

^١ البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم - عليهما السلام -، ج ٢، ص ٣٨١، رقم ٣٤٤٨.

^٢ مسلم، الصحيح، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، ج ٤، ص ٢٢٥٠-٢٢٥٢، رقم ٢٩٣٧.

^٣ فج الروحاء: "يقع بين مكة والمدينة كان طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر وإلى مكة عام الفتح وعام الحج". الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٣٦.

^٤ مسلم، الصحيح، كتاب الحج، باب جواز التمتع في الحج والقرآن، ج ٢، ص ٩١٥، رقم ١٢٥٢.

^٥ النووي، صحيح مسلم يشرح النووي، ج ٨، ص ٢٣٤.

^٦ رواه الحاكم في المستدرک، ج ٢، ص ٦٥١، رقم ٤١٦٢، وقال الحاكم: "صحيح الإسناد"، وأقره الذهبي.

الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضْتُهُ»^١. وفي رواية أحمد وأبي داود: «... فيمكث -عيسى عليه السلام- في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون»^٢.

ويعلق الإمام ابن كثير على هاتين الروایتين بقوله: "فهذا مع هذا مشكل، اللهم إلا إذا حملت هذه السبع على مدة إقامته بعد نزوله، وتكون مضافة إلى مدة مكثه فيها قبل رفعه إلى السماء وكان عمره إذ ذاك ثلاثاً وثلاثين سنة على المشهور، والله أعلم"^٣.

وعلى ذلك فكلتا الروایتين صحيحتان، على أن مكثه عليه السلام قبل رفعه إلى السماء (ثلاثاً وثلاثين) سنة، وبعد نزوله يمكث (سبع سنين)، فيكون المجموع أربعين سنة.

رابعاً: الحكمة من نزول عيسى عليه السلام:

ذكر الإمام القرطبي في الحكمة من نزول عيسى عليه السلام في هذا الوقت دون غيره ثلاثة أوجه فقال: "أحدها: يحتمل أن يكون ذلك؛ لأن اليهود همت بقتله وصلبه، وجرى أمرهم معه على ما بينه الله تعالى في كتابه، وهم أبدأ يدعون أنهم قتلوه، وينسبونه في السحر وغيره إلى ما كان الله يراه نزهه منه، ولقد ضرب الله عليهم الذلة، فلم تقم لهم منذ أعز الله الإسلام وأظهر رايته، ولا كان لهم في بقعه من بقع الأرض سلطان، ولا قوة ولا شوكة، ولا يزالون كذلك حتى تقترب الساعة، فيظهر الدجال، وهو أسحر السحرة، ويبايعه اليهود، فيكونون يومئذ جنده، مقدرين أنهم ينتقمون به من المسلمين، فإذا صار أمرهم إلى هذا، أنزل الله تعالى الذي عندهم أنهم قد قتلوه، وأبرزه لهم ولغيرهم من المنافقين والمخالفين حياً، ونصره على رئيسهم وكبيرهم المدعي الربوبية قتلته، وهزم جنده من اليهود، بمن معه من المؤمنين، فلا يجدون يومئذ مهرباً، وإن توارى أحد منهم بشجر أو حجر أو جدار ناداه: يا روح الله! ها هنا يهودي حتى يوقف عليه... فإذا أن يسلم، وإما أن يقتل، وكذا كل كافر من كل صنف، حتى لا يبقى على وجه الأرض كافر.

الوجه الثاني: وهو أنه يحتمل أن يكون إنزاله مدة لدنو أجله لا لقتل الدجال؛ لأنه لا ينبغي لمخلوق من التراب أن يموت في السماء، لكن أمره يجري على ما قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]. فينزله الله تعالى ويقبره في الأرض مدة، يراها فيه من يقرب منه ويسمع به من نأى عنه، ثم يقبضه فيتولى المؤمنون أمره ويصلون عليه، ويدفن حيث دفن الأنبياء الذين أمه مريم من نسلهم وهي الأرض المقدسة، فينشر إذا نشر معهم، فهذا سبب إنزاله، غير أنه يتفق في تلك الأيام من بلوغ الدجال باب لد. هذا ما وردت به الأخبار، فإذا اتفق ذلك وكان الدجال قد بلغ من فتنته أن ادعى الربوبية، ولم ينتصب لقتاله أحد من المؤمنين لقتلهم، كان هو أحق بالتوجه إليه، ويجري قتله على يديه، إذ كان

^١ مسلم، الصحيح، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقلته إياه، رقم ٢٩٤٠.

^٢ أبو داود، السنن، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، ج ٤، ص ١١٧-١١٨، رقم ٤٣٢٤، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ج ٣، ص ٨١٦، رقم ٣٦٣٥.

^٣ ابن كثير، النهاية في الفتن والملاحم، ص ١٦٣.

من اصطفاه الله لرسالته، وأنزل عليه كتابه وجعله وأمّه آية، فعلى هذا الوجه يكون الأمر بإنزاله لا أنه ينزل لقتال الدجال قصداً. والله أعلم.

والوجه الثالث: أنه وجد في الإنجيل فضل أمة محمد ﷺ ما قال وقوله الحق: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۗ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ۗ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] فدعا الله عز وجل أن يجعله من أمة محمد ﷺ، فاستجاب الله تعالى دعاءه، ورفعته إلى السماء إلى أن ينزله آخر الزمان، مجدداً لما درس من دين الإسلام دين محمد ﷺ، فوافق خروج الدجال فقتله. ولا يبدو على هذا أن يقال: إن قتاله للدجال يجوز أن يكون من حيث إنه حصل بين ظهري الناس وهم مفتونون، قد عم فرض الجهاد أعيانهم وهو أحدهم لزمه من هذا الفرض ما يلزم غيره، فلذلك يقوم به وذلك داخل في أتباع نبينا محمد ﷺ وبالله التوفيق^١.

مما سبق من كلام الإمام القرطبي يتبين لنا أن نزول عيسى في آخر الزمان دون غيره من الأزمنة لأمر ثلاثة: ١- للرد على اليهود زعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم، فبين تعالى كذبهم، وأخبرهم أن عيسى عليه السلام هو الذي يقتلهم ويقتل الدجال. ٢- أن نزوله في آخر الزمان لدنو أجله لأنه مخلوق من التراب، ولا بد أن يرجع إلى التراب. ٣- عيسى عليه السلام دعا الله عز وجل أن يجعله من أمة محمد ﷺ لما رأى فضل هذه الأمة في الإنجيل فاستجاب الله تعالى دعائه.

وذكر د/يوسف بن عبد الله الوابل في كتابه أشراط الساعة حكمة أخرى وهي: "أنه ينزل مكذباً للنصارى، فيظهر زيفهم في دعواهم الأباطيل، ويهلك الله الملل كلها في زمنه إلا الإسلام؛ فإنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية"^٢. ولعل أرجح هذه الأقوال: القول الأول من الأقوال التي ذكرها الإمام القرطبي، وهذا القول السابق الذي ذكره د/ يوسف الوابل هو القول الأول: رد على اليهود فيما زعموه من قتله عليه السلام، وأنه سوف يقاتلهم في آخر الزمان ويستأصل شأفتهم. القول الثاني: إبطال دين النصارى بكسر الصليب وقتل الخنزير، وبذلك يهلك الله تعالى الملل كلها إلا الإسلام. وفي نهاية البحث عن نزول المسيح في آخر الزمان أقول:

أنه لا يجوز للمسلمين اليوم أن يتواكلوا ويقعدوا عن العمل الجدي للإسلام، استسلاماً وانتظاراً لنزول المسيح عليه السلام، وحثتهم في ذلك أن العمل الآن للإسلام لا يجدي بعد انتشار الفساد في الأرض وكثرة الضلال، فعلياً الآن انتظار المهدي ونزول عيسى عليه السلام، وحينئذ سيعود النصر للإسلام. وهم بذلك يتركون العمل لإقامة دولة الإسلام في الأرض، وهذه فكرة خبيثة "دخيلة على الإسلام بمخارز أعدائهم الناعمة أسقطت السعي الجدي الواجب، والوعي الإسلامي الصحيح عند هؤلاء الجاهلين ومن يدور في فلکهم من المسلمين المغفلين! فقد أثرت فيهم تأثيراً سلبياً، وأحببت منهم العمل الجدي والسعي

^١ القرطبي، المسيح الدجال، ص ٢٨-٣٠.

^٢ الوابل، أشراط الساعة، ص ٣٥٧.

المتواصل لإعادة الحياة الإسلامية، وكثيراً ما خدع هؤلاء الجاهلون الأغرار من المسلمين: أشباههم، بقولهم لهم: إن العالم قد اقترب من نهايته، وإن الأحاديث النبوية تدل على استمرار التدهور في شأن الإسلام والمسلمين، ولما كان الأمر هكذا، كان لا جدوى من السعي لعمل شيء في وقف هذا التيار الفاسد، ومنع هذا الانحدار، إذ هو أمر قدره الله تعالى، وبلغه رسوله ﷺ، ولا بد أنه واقع فما علينا إلا التسليم والسكون حتى يأتي أمر الله الذي لا مفر منه.

وهذه الفكرة الخاطئة الزائفة يجب معالجتها في نفوس المصابين بها لدفع هذا التأثير السلبي الذي أثرته في إرادة هؤلاء المسلمين الشعورية واللاشعورية؛ فإن هذا الاعتقاد الباطل يعيق الحركة الإسلامية من داخل المسلمين فضلاً عن المعوقات التي تنشر في طريقها من خارج^١.

خاتمة:

قد خرجت من هذه الدراسة بنتائج وتوصيات، أهمها:

أولاً: نتائج البحث:

- ١- إن في القرآن الكريم أربع آيات تشير إلى نزول المسيح عيسى بن مريم ﷺ آخر الزمان.
- ٢- إن الأحاديث تواترت على نزول المسيح عيسى ﷺ في آخر الزمان.
- ٣- أجمعت أمة محمد ﷺ على نزول المسيح ﷺ، ولم يخالف في ذلك أحد إلا الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافهم، وقد انعقد الإجماع على أنه ينزل ويحكم بالإسلام وليس بشريعة مستقلة، وإن كانت النبوة قائمة به وهو متصف بها.
- ٤- عند نزول عيسى ﷺ من السماء سوف يقوم بعدة أعمال، منها: القضاء على كل الشرائع التي تخالف الإسلام والحكم بالإسلام، وتكسير الصليب، واستئصال عبادته، وقتله الخنزير، وقتله للدجال.
- ٥- من حُكِمَ نزول عيسى ﷺ رد على اليهود فيما زعموه من قتله ﷺ، وأنه سوف يقاتلهم في آخر الزمان ويستأصل شأفتهم.

ثانياً: التوصيات:

- ١- ضرورة مواجهة الفرق المنحرفة عن الإسلام التي تتمسك بالقرآن فقط وتترك السنة، والرد عليهم ودحض حججهم.
 - ٢- أنه لا ينبغي للمسلمين اليوم أن يتواكلوا ويقعدوا عن العمل للإسلام، استسلاماً وانتظاراً لنزول المسيح ﷺ بحجة أن العمل الآن للإسلام لا يجدي بعد انتشار الفساد في الأرض وكثرة الضلال، فعلياً الآن انتظار المهدي ونزول عيسى ﷺ.
- والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع:

^١ الكشميري، التصريح بما تواتر في نزول المسيح، وهو كلام الشيخ عبد الفتاح، ص ط.

١. ابن أبي العز، صدر الدين علي بن محمد الأذري دمشقي الحنفي، شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، تحقيق: أحمد بن علي، (القاهرة: دار الحديث، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
٢. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد قاسم، (القاهرة: دار التقوى، د.ط، د.ت).
٣. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، (القاهرة: المكتبة التوفيقية، ط ١، د.ت).
٤. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، النهاية في الفتن والملح، تحقيق: عصام الدين الضباطي، (القاهرة: دار الحديث، د.ط، د.ت).
٥. الأشعري، أبو الحسن، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).
٦. الألباني، محمد ناصر، قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام وقتله إياه، (عمان: المكتبة الإسلامية، ط ١، ١٤٢٤هـ).
٧. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، (المنصورة، القاهرة: مكتبة الإيمان، د.ط، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
٨. البغوي، أبو محمد الحسين، معالم التنزيل، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، مروان سواد، (بيروت: دار المعرفة، ط ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
٩. البقاعي، برهان الدين، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
١٠. الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، (بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٤٠١هـ/١٩٨٨م).
١١. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، (القاهرة: دار الفكر، د.ت).
١٢. السفاريني، محمد، المسيح الدجال وأسرار الساعة، (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د.ط، د.ت).
١٣. الشبلي، مصطفى أبو النصر، صحيح أشراط الساعة، (جدة: مكتبة السواد، ط ٣، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
١٤. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، (المنصورة: دار الوفاء، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
١٥. صديق خان، محمد، الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، (دار علي رحمي، د.ط، د.ت).
١٦. الطبرسي، الفضل، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: السيد المحلاقي، السيد الطباطبائي، (بيروت: دار المعرفة، ط ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
١٧. الطبري، أبو جعفر بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن الكريم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
١٨. القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر، ط ٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).
١٩. القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن الكريم، (بيروت: دار الفكر العربي، د.ط، ١٤١٥هـ).
٢٠. القرطبي، محمد بن أحمد، المسيح الدجال، (القاهرة: دار الفجر، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
٢١. الكشميري، محمد أنور، التصريح بما تواتر في نزول المسيح، تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، (بيروت: دار القلم، ط ٥، ١٤١٢هـ).
٢٢. الكوثري، محمد زاهد، نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة، (القاهرة: دار الجيل للطباعة، ط ٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).
٢٣. مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، الصحيح، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٩٧٢م).
٢٤. النووي، شرف الدين، صحيح مسلم بشرح النووي، (دمشق: مكتبة الغزالي، د.ط، د.ت).
٢٥. الوابل، يوسف بن عبد الله، أشراط الساعة، (السعودية: دار ابن الجوزي، ط ١٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

نظرة القرآن الكريم لتنوع الأجناس والأدوار وآثارها في تنمية المجتمعات

عفاف عبد الغفور حميد*

ملخص البحث:

إن من الأدلة المعروفة على وجود الله دليل الخلق والعناية، وتتمثل تلك العناية في دوام الحياة واستمرارها، وقيام كل مخلوق بالدور الذي خلق له، ودوام الحياة الإنسانية يرتبط بوجود الزوجية بين الذكر والأنثى، وأداء كل منهما الدور المناط بهما، والأصل في وجود الإنسان في هذه الحياة أداء مهمة الاستخلاف وعمارة الأرض، وفق المنهجية التي كلف الله الأنبياء والرسل بتبليغها للناس، من أجل تحقيق الغاية التي خلق لها الإنسان، ألا وهي العبودية الحققة، بما فيها من ضمان لتحقيق المصالح للبشرية وسعادتها. ويهدف البحث إلى بيان أن التنوع والاختلاف سنة إلهية كونية بالغة الحكمة تتجلى في آيات قرآنية كثيرة، وهذا الاختلاف ضروري، فيه حكم كثيرة، حتى يقوم كل بدوره في تلك المجتمعات، فيتحقق التكامل المنشود على مستوى التنوع العام في العرق واللون واللغة، أو على مستوى التنوع الخاص في الزوجية ذكورة وأنوثة، ولكل دوره، ولا تستقيم الحياة بأحدهما، ولا يمكن أن تستمر دون الآخر، وتكمن إشكالية البحث في أن المجتمعات لا يمكن دوامها واستمرارها بالجنس والصفة الواحد، ولا يمكن تقدمها إلا بتعايش من يشتركون معهم في المكان والزمان. ويعتمد البحث على المنهج المكتبي القائم على جمع النصوص وتحليلها وخاصة نصوص القرآن والحديث النبوي، وما استنبطه العلماء والمفكرون منها.

المقدمة: تعريف مصطلحات البحث

النوع والجنس والتنمية والدور

النوع: هو أخص من الجنس، وهو أيضا الضرب من الشيء، والجمع أنواع، قل أو كثر. قال الليث: النوع والأنواع جماعة، وهو كل ضرب من الشيء، وكل صنف من الثياب والثمار وغير ذلك حتى الكلام، وقد تنوع الشيء أنواعاً^١. وقال ابن فارس: "النون والواو والعين كلمتان، إحداهما تدل على طائفة من الشيء مماثلة له، والثانية ضرب من الحركة...^٢".

والتنوع اصطلاحاً: كون الشيء متعدداً ومتفقاً في الحقيقة^٣.

الجنس: الضرب من كل شيء، وهو من الناس، ومن الطير، ومن حدود النحو والعروض والأشياء جملة. والجنس أعم من النوع، ومنه المجانسة والتجنيس. ويقال: هذا يجانس هذا أي يشاكله، وفلان يجانس البهائم ولا يجانس الناس إذا لم يكن له تمييز ولا عقل. والإبل جنس من البهائم العجم، والحيوان أجناس: فالناس جنس والإبل جنس والبقر جنس والشاء جنس^٤.

* أستاذ مشارك بجامعة الشارقة.

^١ ابن منظور، لسان العرب، ج ٨ ص ٣٦٤.

^٢ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة "نوع"، ج ٥، ص ٣٧. وينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط ص ٩٩٣؛ وابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص ٣٦٤.

^٣ ينظر: الجرجاني، التعريفات، ص ٣١٦؛ وضوابط المعرفة، ص ٤٠.

والفرق بين الجنس والنوع: أن الجنس أعم من النوع؛ لأن الجنس يشمل ما يعقل وما لا يعقل، أما النوع، فهو لما لا يعقل، ألا ترى أنه يقال: الفاكهة نوع وجنس، ولا يقال للإنسان نوع^٢.

التنمية: نمى المال نماء، وأتماه الله تعالى، ومنه نامية الله خلقه لأنهم ينمون، وما على الأرض نام وصامت، فالنامي نحو النبات، والصامت كالحجر، ونميت الحديث إلى فلان رفعته وأسندته ونمي إليه الحديث... ويقال نميت الحديث بلغته على جهة الإصلاح، ونميتة تنمية بلغته على جهة الإفساد، وفلان ينمي أحاديث الناس، ونمي الخبر في الكتاب اشتد سواده وزاد بعدما كتب^٣.

والتنمية اصطلاحاً: تحقيق زيادة سريعة تراكمية ودائمة عبر فترة من الزمن^٤، وهي لا تعني الجانب الاقتصادي فقط بل جوانب الحياة الأخرى بكافة صورها.

الدَّوْرُ: بالفتح لغة الحركة وعود الشيء إلى ما كان عليه، وهو مهمة ووظيفة، وقام بدور ولعب دوراً: شارك بنصيب كبير، دَوَّرَ: جمع: أدوار، ودور مصدر دار، يقال: إنتهى دَوْرِي عَمَلِي، أي: ما يَحْتَصُّ بي. ولا دَوْرَ لَكَ في هذا العَمَلِ أي: لا شَأْنَ لَكَ فيه. وقام بِدَوْرٍ مُهِمٍّ لِفَكِّ التَّرَاعِ بَيْنَهُمَا أي: بِقِسْطٍ، بِنَصِيبٍ كَبِيرٍ. وَأَنَا بِدَوْرِي سَاهَمْتُ في العَمَلِ أي: مِنْ جِهَتِي^٥.

والدور مجموعة من المسؤوليات والأنشطة والصلاحيات الممنوحة لشخص أو فريق. ويمكن لشخص أو فريق أن يكون له عدة أدوار، الدَّور الاجتماعي: (علوم الاجتماع) السُّلوك المتوقَّع من الفرد في الجماعة، أو التَّمَطُّ التَّقَائِيَّ المحدَّد لسُّلوك الفرد الذي يشغل مكانةً معيَّنة.

المحور الأول: سنة الله في التنوع العام وآثارها في التنمية

لله سنن في الأنفس والآفاق، ومن أبرز تلك السنن هو التنوع والاختلاف فيهما، فالتنوع الهائل الذي ميز العوالم الحية وغير الحية بما في ذلك عالم المجرات والنجوم والأفلاك لا يعلم سرها إلا الله تعالى، ومثل ذلك عالم النبات والحيوان وغير ذلك، وهذا التنوع الشامل لجميع الأشياء لازمه تنوع في المهام والوظائف، وهذه الظاهرة الكونية من مبدع وخالق ودليل عظمة الخالق سبحانه.

وتأتي أهمية هذا التنوع في الطبيعة أنه يضيف صورة جميلة وفاتنة على العالم لا يمكن تخيل العالم بدونه. هذا التنوع ينطبق على البشر، تنوع في الأعراق والألوان واللغات والميول وغير ذلك، وهو سنة إلهية حكيمة فقد ذكر القرآن آيات عدة في بيان ذلك من أبرزها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

^١ ابن منظور، لسان العرب، ج ٦، ص ٤٣؛ والتهاوني، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ص ٥٩٤.

^٢ راجع: القرافي، الفروق في اللغة، ص ١٥٧.

^٣ الزنجشيري، أساس البلاغة، ج ١، ص ٦٥٦.

^٤ عبد الباسط محمد حسن، التنمية الاجتماعية، ص ٣.

^٥ التهاوني، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ص ٨١٠.

أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، وتشير الآية إلى تنوع في الشعوب والقبائل في إطار الوحدة البشرية، وهو ما يدعو القرآن إلى توظيفها في إقامة علاقات التعارف بين المختلفين.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، والآية تشير إلى التنوع في القوميات والأجناس وتعددتها، وأنه آية من آيات الله كآية خلق السموات والأرض، كما تشير آية أخرى إلى اختلاف الشرائع والمناهج، ومن ثم تمايز الحضارات بناء على سنة التدافع حيث يقول تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفي إطار وحدة الدين وتعدد الشرائع جاء القرآن ليقرر هذه الحقيقة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

الآيات السابقة نستنتج منها الحركة والتغيير الذي هو من طبيعة الحياة، ومن خلال آيات الله تعالى في اختلاف الناس في: خلقهم وخلقتهم وملكاتهم وخصائصهم وألوانهم ولغاتهم، وطرائق تفكيرهم، وقدراتهم.

هذا الاختلاف مع خصوصيات المكان وظروف الزمان تتسع معه الرؤى والمفاهيم مما يحدث تعددا في الأحكام الصادرة عنها. وهذه السنة الإلهية في تنوع الأجناس والأدوار لها حكمها الإلهية، ولكن قبل ذلك لا بد من الكلام عن نظرة القرآن الكريم لهذا التنوع من خلال الحقائق الآتية:

أولاً: تقرير القرآن للكرامة الإنسانية عامة:

الإنسان أي إنسان مكرم في الإسلام بغض النظر عن جنسه ولونه ولغته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، تبين الآية بشكل لا لبس فيه أن هذه الكرامة لا تخص لوناً أو ديناً أو جنساً معيناً، بل هي عامة لجميع البشر.

ومن مظاهر تلك الكرامة أن الله تعالى خلق الإنسان بيده، ونفخ فيه من روحه، وجعله خليفته في الأرض كما نصت آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ويؤكد ذلك أن نصوص القرآن عدت قتل إنسان أي كان انتماءه أو دينه وعرقه هو قتل للناس جميعاً، ومن أحيائها كأنه أحيانا الناس جميعاً، قال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ [المائدة: ٣٢]، كما أن الإسلام كرم الإنسان حياً وميتاً، يظهر ذلك من خلال عمل رسول الله ﷺ، فقد منع المثلة بالمقتول، رغم أن قريشا مثلت بعمه حمزة بن عبد المطلب ﷺ في يوم أحد.

وعندما مرّت جنازة يهودي وقف رسول الله ﷺ احتراماً للجنازة، ووقف معه الصحابة رضي الله عنهم، ثم قال أحدهم: يا رسول الله! إنها جنازة يهودي!! فردّ على الصحابي: قائلاً: «أليست نفساً؟!»^١.

كما غضب ﷺ عندما وجد رجلاً يكسر عظماً دون مبرر في مقبرة وقال له: «كسر عظم الميت ككسره حياً» وفي رواية «في الإثم آ»، «فالإنسان مكرم في الإسلام حياً وميتاً، مسلماً وكافراً، له حقوق، وعليه واجبات، فإن اعتدى على الغير عوقب بما يستحق من العقاب بعد أن تثبت عليه التهمة، فإن لم تثبت التهمة فلا عقاب»^٣.

ومظاهر تكريم الإنسان كثيرة معلومة للجميع، ونصت عليها آيات كثيرة، منها تسخير السموات والأرض له، ومنحه العقل والإرادة، وحسن المظهر، وملكة البيان مما لا ضرورة لتفصيله.

ثانياً: إقامة العدل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، هذه الآية تضمنت أصول الأحكام الشرعية والقطب الذي تدور وتتسع من حوله معاني القرآن الكريم والغاية من بعثة الرسل عليهم السلام ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وإذا ما علمنا أن هذه الآية مكية، حيث لم يكن هناك حكم ولا قضاء، ولا تنظيم اجتماعي، أدركنا اتساع معاني العدل في الإسلام من حيث احتواؤها لما يتعلق بتنظيم المجتمعات من ناحية، وتجاوزها ذلك إلى مجالات أرحب من الفكر والعقيدة والسلوك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مسألة العدل حتى بمعانيه الاجتماعية والسياسية كانت محورا أساسيا لهذا الدين، ومهمة أساسية من مهام التغيير التي كانت مطروحة على الجماعة الإسلامية في مكة، فطفحت السور المكية بالتنديد بالتزلف والتفاوت والإسراف والاعتداء على أموال المستضعفين...، وتوعّدت المعتدين بأشد العقوبات، وبشّرت بمجتمع العدل وتحذّثت عن الزكاة والبر والإحسان...^٤.

وقد وردت كلمة (العدل) في القرآن في (٢٨) موضعاً، فضلاً عما يقاربها في المعنى كالقسط والحق الذي ورد في (١٣) موضعاً منها بمكة، مما يدل على مكانة العدل بين عموم الناس في الرسالة الجديدة، وهو يفسر غلبة عنصر المستضعفين في البنية الاجتماعية للمسلمين الأوائل، والإقبال المتزايد من الشعوب المستضعفة للدخول في الإسلام.

والكلام عن العدل في القرآن في المواضع المذكورة في محاور مختلفة ومجالات متنوعة:

- في العقيدة: كقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

^١ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز. باب من قام لجنازة يهودي، ج ١، ص ٤٤١.

^٢ أخرجه مالك، الموطأ، كتاب الجنائز، باب جامع الجنائز، ج ١، ص ٢٣٨؛ وأحمد، المسند، ج ٦، ص ١٦٨، رقم ٢٥٣٩٥؛ وأبو داود، السنن، كتاب الجنائز، باب في الحفار يجد العظم هل يتكف ذلك المكان، ج ٣، ص ٢١٢، رقم ٣٢٠٧؛ وابن ماجه، السنن، باب في النهي عن كسر عظام الميت، ج ١، ص ٥١٦، رقم ١٦١٦.

^٣ البار، معاملة غير المسلمين الحوار والتسامح في الإسلام، شواهد من التاريخ، ص ٥٥.

^٤ الغوشي، حقوق المواطنة، ص ٣٥.

- في مجال الحكم: قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] و﴿وَأَمْرٌ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

- في القضاء: قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فالآية أمر للقضاة والحكام بين الناس عامة بالتسوية بين المؤمن والكافر والقريب والبعيد، فلا توقعهم العداوة أو القرابة في جرم الميل والظلم والتحيز.

- في الشهادة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أي: بالقسط والحق.

- وفي شؤون الأسرة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣] و﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩] أي: إذا كانت التسوية بين النساء صعبة المنال فسددوا وقاربوا، ولا تتركوا الميزان يختل جملة.

- في الصلح بين المتخاصمين: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] أي تكون المصالحة بالحق بلا تحييز إلى أحد المتخاصمين.

- في الصدق واستواء السر والعلن والتزام الإنصاف: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا... هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥-٧٦].

كما يؤكد القرآن على إنسانية العدل الإلهي على الصعيد الاجتماعي في الدعوة إلى إقامة مجتمع حر مفتوح من كل جنس ولون للمسلمين وغيرهم المسلمين في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة: ٨-٩]، ولذلك شكل مجتمع المدينة برئاسة مبعوث الرحمة الإلهي النموذج الأمثل للمجتمع القائم على حقوق المواطنة وواجباتها بكتابته الصحيفة النبوية بعد الهجرة للمدينة والذي كان بمثابة دستور ينظم العلاقة بين أصناف المجتمع المدني، فأصبحوا أمة واحدة بالمعنى السياسي، ومن بنود تلك الصحيفة:

- "أن على يهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة".

- "من خرج من المدينة آمن، ومن قعد آمن إلا من ظلم وأثم".

كما نصت على ضرورة الدفاع المشترك عن المدينة ضد كل عدوان ... وأن هذا التعاقد مفتوح لكل من التحق بالمدينة من مؤمن أو ذمي ...^١

ومن العدل تحقيق مبدأ المساواة للمواطنين مسلمين وغيرهم في حق تولي الوظائف في الدولة، وأن المدار في توليها هو الكفاءة والأمانة بغض النظر عن الفوارق الأخرى، مما يفرض اختصاص المسلمين ببعض الولايات ذات الصبغة الدينية، ويؤكد

^١ انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٢١-٣٢٢.

هذا التوجه القرآني ما شهدته التاريخ الإسلامي من تولى غير المسلمين للوظائف، ومساواة المسلمين مع غيرهم في كل ما ليس له صفة مباشرة بالدين. وللموضوع تفاصيل كثيرة في الحقوق السياسية كذلك لا يتسع المجال لذكرها.

وقد وقف العلماء طويلاً عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، فذكرت إلى جوار العدل الإحسان، وهو المبالغة في الإجابة والإتيان في أداء الواجبات، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن هذه الآية أجمع آية في القرآن، ولقد ألف الشيخ عز الدين ابن عبد السلام كتاباً سماه "الشجرة" بين فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية في سائر الأبواب الفقهية، وسماها السبكي في الطبقات "شجرة المعارف" ...^١.

ثالثاً: حقوق الإنسان: وأهم هذه الحقوق:

١- الحرية المنضبطة: والتي تحكمها حدود وضوابط تتوافق مع العقل السليم؛ لأن الحرية إن تركت سائبة منفلة بلا حدود عقلانية فغايتها الضلال والسقوط، وقد أحكم الإسلام ذلك بوضع قواعد لحرية الإنسان أفراداً ومجتمعات، وكما إطارها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»^٢.

وأول هذه الحريات: حرية المعتقد والدين، وكما أسلفت في ذكر ذلك في الصحيفة النبوية حيث أقر الرسول صلى الله عليه وسلم بحقهم في العبادة وتأمينهم على أماكن عبادتهم، فأهل كل معتقد هم أحرار ما داموا مسلمين ويمنحهم حرية إقامة شعائرهم الدينية، والشعار الإسلامي في ذلك قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، هذه القاعدة العامة ضامنة لحرية التدين مخصصة لآيات القتال للمحاربين، فيستثنى المعاهدين وأهل الذمة لما لهم من حق المواطنة، ومن الشواهد على ذلك جواز نكاح الكتابيات وحل ذبائحهم، ونف الإكراه إذ بوجوده تفقد قيم الاستحلاف والتكريم والجزاء معانيها، ثم جاء القرآن بنص صريح للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضْطَرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، و﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، بل وصل التوجيه القرآني إلى حد استنكار كل محاولة للإكراه فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، بل تدع الناس يتحملون مسؤوليتهم ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ويتبع ذلك حق المساواة أمام القانون وحق العمل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».

كما يتضمن ذلك التسامح الديني وتحريم التكفير، ويشهد لذلك تعايش الأديان والطوائف المختلف لقرون طويلة في ظل الحضارة الإسلامية تحت مسمى المواطنة، وفي ظل الشعارات للآيات القرآنية آفة الذكر.

^١ الغنوشي، حقوق المواطنة، ص ٣٢.

^٢ أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الوصية، باب القضاء في المرفق، ج ٢، ص ٧٤٥، رقم ١٤٢٩؛ وابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، باب من بئى في حقه ما يضُرُّ يجاره، ج ٢، ص ٧٨٤، رقم ٢٣٤١؛ والبيهقي في سننه، كتاب الإقرار، باب باب من قضى فيما بين الناس بما فيه صلاحهم ودفع الضرر عنهم على الاجتهاد، رقم باب من قضى فيما بين الناس بما فيه صلاحهم ودفع الضرر عنهم على الاجتهاد، ج ٦، ص ١٥٧.

رابعاً: الحوار مع الآخر وحق الاختلاف والتسامح:

بما أن الاختلاف والتنوع والتعدد سنة إلهية طبيعية، فالاختلاف في الآراء والأفكار والأمزجة مسألة طبيعية، كما هو الشأن في اختلاف الأديان والأعراق حيث ينعكس هذا التعدد إلى الاختلاف، وقد أقرّ القرآن ذلك الاختلاف فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَوَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وجعله القرآن هذا الاختلاف في الشرائع والمناهج ومن ثم الحضارات حافزاً للتنافس في الخير، وسبب التدافع الذي يرشد مسار أمم الحضارات للتقدم، والباعث على الحيوية والإبداع الذي لن يتحقق إذا غاب التمايز والخصوصيات، يؤكد قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيَهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، و﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ فِئْتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ فِئْلَهُ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وما الصحيفة النبوية التي نظمت المجتمع المدني: مهاجرين وأنصار ويهود إلا دليلاً عملياً على إقرار الاختلاف والتعامل معه بالاعتراف بالمخالف أو ما يسمى بالآخر.

ومن منطلق إقرار القرآن بالتنوع والاختلاف بين الناس، وضع آداباً بين المختلفين والمتحاورين التزم بها المسلمون منذ العقود الأولى، وتحدث علماؤنا عنها وخصوصاً ضمن الكلام عن الشورى.

وعلى هذا أقر القرآن مبدأ الحوار وأرسى قواعده، ابتداء من الحوار مع إبليس في قصة خلق آدم ورفض إبليس السجود له، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فِيمَا أُعْوِطَني لأُقْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا بَجْدٍ أَكْثَرُهم شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢-١٨]، ويبرز هذا الحوار الخير والشر والثواب والعقاب، والإيمان والكفر.

كما أبرز القرآن الحوار مع الأنبياء ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمَنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وفي حوار الله مع عباده يظهر حقيقة العدل الإلهي قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٥-١٢٦].

والقرآن وخصوصاً في قصصه حوارات كثيرة للأنبياء مع الناس كما في سورة المجادلة مثلاً، والتي تبرز التربية الإلهية لهم، وهذا الحوار من قبل الأنبياء كان مع المحسن والمسيء.

يعلما القرآن من خلال حواراته أن التفاهم والاحترام ضرورة حتى بين المختلفين ليحصل التعايش بينهم، كما أنه يبرز الجوانب المشتركة بين المختلفين، ويشري أفكار المتحاورين، ويوجد قواسم مشتركة لالتقاء المصالح.

والتعايش المقصود هو تعايش قائم على مبدأ التسامح الذي دعا إليه القرآن الكريم، وهو من آداب الحوار، من خلال تقبل النقد، وعدم التحريج والتكفير، وجاء الخطاب بذلك للرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، بل عدم إغفال محاسن الحوار، ومحاولة الاستفادة من وجهات النظر بما يحقق المصلحة العامة، قال رسول الله ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن...»^١.

خامسا: دعوة القرآن للسلم والتعايش:

إن المتتبع لتوجيهات القرآن الكريم وتطبيقاته العملية من خلال سنة النبي ﷺ، يتضح بجلاء دعوته للسلم والتعايش البناء بين مختلف الناس وعلى تباين أديانهم أو قومياتهم وألوانهم وألسنتهم، وأن لا يكون ذلك التنوع مدعاة للتناحر والخصومة، بل لإثراء المجتمعات وإضفاء الحيوية والتناسف الشريف بينهم، وحتى بين النوع أو الجنس الواحد، فمن سنة الله أن جعلهم يختلفون في حظوظ الدنيا ولا تقوم الحياة إلا بذلك، فمنهم الغني ومنهم الفقير، والرئيس والمرؤوس، وصاحب الجاه ومن لا يمتلكه، والجميل وغيره، وكل ذلك ابتلاء لهم، ولا يتصور أن يكون مجتمع ما كلهم أغنياء، وكلهم وجهاء، وكلهم أصحاب، فسنة التسخير تقتضي الاختلاف والتنوع، ولذلك جعل الإسلام الميزان في التفاضل هو "التقوى" كما مرّ، أما التفاضل في حظوظ الدنيا فسنة إلهية لأجل الابتلاء.

فدعوة القرآن للسلم نجدها حتى مع الأعداء والملل الأخرى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وهذا على مستوى الأفراد أو الدول، وقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة: ٨-٩]، وقد رأى كثير من المفسرين ومنهم محمد عزة دروزة أن هذه الآية تخصص آية السيف التي تأمر بالقتال من غير فرق بين المسلم من غيره^٢، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، فهي جاءت بعد ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ويدخل فيها طالب الأمان من المحاربين، وعلّة ذلك أنه قد يجلب بعد ذلك الأمان أنه يتعايش مع المسلمين فيكون بابا من أبواب الدعوة، ومثله إباحة الزواج من الكتابية.

ومن ذلك أنه من حق أي مواطن أن يعطي الأمان لمحارب أو مجموعة، لقوله ﷺ: «المسلمون تتكافؤ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم»^٣.

^١ رواه الترمذي، السنن، كتاب العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ج ٥، ص ٤٨، ٥١، رقم ٢٦٨٧؛ وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الحكمة، ج ٢، ص ١٣٩٥، رقم ٤٢٦٩.

^٢ دروزة، التفسير الحديث، ج ٩، ص ٢٧٨.

^٣ أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر، ج ٣، ص ٨٠، رقم ٢٧١٥.

ومن أمثلة الدعوة للسلم، الرفق واللين في التعامل وفي الدعوة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولذلك لا نقول كما قال أحد مفكري الغرب: "صراع الحضارات" بل "حوار الحضارات"، والأفضل تعارف الحضارات "لأن القرآن قال: "لتعارفوا..." فالإسلام يدعو للسلم ويعده الأصل، والحرب استثناء من خلال الدعوة الواضحة للمسلمين إلى التعايش مع غيرهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

سنة التنوع وأهميتها في الأدوار والتنمية:

أن التنوع الذي يعكس تمييز المختلفين وأدوارهم في المجتمع يشكل بجهة للحياة من حيث انسجامه مع التنوع الكوني والمخلوقات.

كما أن التنوع الثقافي الذي يتبع تنوع الأعراق والقوميات والأديان يعد ثروة ينبغي حمايتها من جميع الأطراف، والتعاون بينها بدل الانغلاق والتفاهم بدل التجاهل، وعلى هذا فمبدأ التعارف الحضاري الذي دعا إليه القرآن هو الكفيل للعيش السلمي المشترك، القائم على الاحترام المتبادل للأديان والمقدسات، وخصائص الأجناس والأعراق.

وقد تكلم علماء الاجتماع قديماً وحديثاً عن التكوين والبناء الاجتماعي للإنسان، وكثرت النظريات بداية من الفلاسفة، وإلى رأي الأديان والمذاهب الحديثة، وأثر هذا البناء على التنمية المستدامة للشعوب، وكانت النظرية الإسلامية سباقة في علاج ذلك حين دعت إلى بناء المجتمع الإنساني وصياغة الفرد ضمن التشكيل الاجتماعي العام على أسس ومبادئ راسخة وثابتة ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وكما أشرنا إلى تلك الأسس السابقة.

كما أن التنمية المستدامة لا بد لها من مبادئ وأهمها العدالة - كما أشرنا سلفاً - في حصول الناس على حقوق متوازنة في المجتمع من حيث المكانة والثروة والمشاركة المنصفة في عملية التنمية من خلال السعي لاكتشاف مقومات التنمية، والمبدأ الآخر هو التمكين، أي: أن الناس يجب أن يكونوا في وضع يتيح لهم المشاركة الكاملة في القرارات والآليات التي توجه حياتهم ومصيرهم، من خلال التعبير عن حاجاتهم ومشاكلهم الفعلية وطموحاتهم.. وبذلك تفتح لهم مجالات عمل جديدة ووسائل إنتاج، من خلال المشاركة السياسية والتأثير في اتخاذ القرار، والأمر الآخر هو مبدأ التقارب الاجتماعي، بتنمية الموارد البشرية والقضاء على البطالة، وعدم تهميش فئات من المجتمع...^٢

ما ذكرناه في البناء الاجتماعي المتنوع وقيام الكل بدوره في المجتمع دون تمييز هو تطبيق للمبادئ القرآنية التي أشرنا إليها

آنفاً.

^١ انظر: إيمان محمد الطائي، وحسن حمود الفلاحي، التكوين الاجتماعي والثقافي ودورهما في التنمية المستدامة، بحث، ص ١٢.

^٢ المصدر السابق، ص ٢٧-٢٨.

إن التنوع داخل المجتمع الواحد يمكن أن يستغل كحافز للتنمية والاستقرار، فجميع الثقافات ثقافات خلاقة ودينامكية، مع أن كل واحدة منها تبقى فريدة من نوعها، وغير قابلة للاستبدال، ذلك أن أية حضارة قد تهمل خلال جيل واحد قد تتعرض للضياع إلى الأبد، وبالتالي فمن الضرورة خلق جو يتيح لجميع الثقافات أن تفتتح بكل حرية. إن التنوع الثقافي العالمي ينبغي أن يشكل دافعاً نحو تعزيز الاحترام والاعتراف للآخر بما لديه من خصوصيات وتقاليده ومميزات.

أهمية الأدوار في التنمية: الدور ما يقوم به كل فرد من وظائف ومهام، الأدوار التي يقوم الأفراد أو الجماعات بمجموعها يحصل التكامل المنشود لإقامة المجتمعات.

وقد مرّ تعريف الدور في المقدمة، وهناك من يعرفه بأنه: "هو نمط من الدوافع والأهداف والمعتقدات والقيم والاتجاهات والسلوك التي يتوقع أعضاء الجماعة أن يروه فيمن يشغل وظيفة ما أو يحتل وضعاً اجتماعياً معيناً، والدور الذي يصف السلوك المتوقع من شخص في موقف ما"، والدور بناء على ذلك تتابع نمطي لمعارف واتجاهات ومهارات مكتسبة يقوم به فرد من الأفراد في موقف من المواقف وعادة ما يرتبط دور الفرد بأدوار الأفراد الآخرين.

وكل فرد يقوم بدور اجتماعي حسب مكانته، وتعدد الأدوار الاجتماعية للفرد الواحد، وتختلف هذه الأدوار الاجتماعية في ضوء المعايير: قد تكون جبرية أو اختيارية، وفي السلوك حسب نوع الدور، وقد تكون مستمرة أو مؤقتة، والسهولة والصعوبة، والأهمية والشهرة، وفي جميعها يمكن للإنسان أن يتعلم ويتدرج في الأدوار الاجتماعية.

وفي كل الحالات الأدوار كلها مطلوبة ومحترمة، ولا بد من القيام بمجموعها من التنوع الاجتماعي الذي يحقق التكامل يقول رسول الله ﷺ: «... اعملوا، فكل ميسر لما خلق له...»^١.

المحور الثاني: سنة الله في التنوع الخاص وأثرها في التنمية

أن الزوجية سنة من سنن الله في الخلق والتكوين، وهي سنة عامة ومطرودة، لا يشدّ عنها أحد في عالم الإنسان، أو عالم الحيوان، أو عالم النبات، فالزوجية ثابتة في النبات، والحيوان، والإنسان، إذًا: هي سنة كونية مطرودة في الخلق والتكوين، لقول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وهي حكمة إلهية لقانون التكاثر عن طريق التزاوج، فالزوجية سنة ثابتة ومطرودة في عالم الإنسان، والحيوان، والنبات، وهي أصل في الخلق والتكوين، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِثُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [الزحرف: 12]، "والأزواج هي الشئ ومقابله، وقد أقسم الله تعالى فقال: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ٣]، وإنّ المخلوقات كلّها من أزواج، هي الذكر والأنثى كما في عالم الأحياء من حيوان^٢، ومما تنبت الأرض: من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك على اختلاف

^١ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿فسنيسره للعسرى﴾، ج ٤، ص ١٨٩١، رقم ٤٦٦٦.

^٢ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج 9، ص ٥٤.

أجناسها، وخلق الله الأحياء أزواجاً؛ النبات فيها كالإنسان، ومثل ذلك غيرهما^١. والزوجية واضحة كذلك في عالم المعاني كالصدق والكذب، والحقّ والباطل، والإيمان والكفر، والضلال والهدى^٢.

والآية السابقة عدت الأصناف لإفادة العموم، ثم بعد ذلك قال: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ومما لم يطلعهم الله تعالى على خصوصياته لعدم قدرتهم على الإحاطة بها، ولما لم يتعلق بذلك شيء ملحّ من مصالحهم الدينية والدنيوية، وإنما أطلعهم على ذلك بطريق الإجمال، ولو كان لهم به حاجة ملحّة لأعلم به كما أعلم بأحوال الآخرة وغيرها مما لم نكن نعلمه^٣.

والمادة نفسها، والجماد لو حللناه لوجدناه مؤلفاً من ذرات، وكل ذرة فيها نواة وكهارب، وهذه الكهارب بعض شحناتها إيجابي، وبعضها سلبي، إذاً هناك تكامل، وهذا التكامل يشمل الأحياء وغيرها، وربنا سبحانه وتعالى اختص الإنسان بنظام رفيع في الزوجية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ونجد هذه الزوجية في بعض تعابير اللغة: إسلام كفر، وجنة نار، وآخرة دنيا، وطهر نجاسة، وبيع شراء، ومدين دائن، وزواج طلاق، وإمساك تسريح، ومقدم مؤخر، وذكر أنثى، وغنى فقر، وكرم بخل، وشجاعة جبن، ومرتفع منخفض، وجبل وادي، وطول قصر، وذكاء غباء، وحسنة سيئة، وأجر وزر، وبصيرة عمى، وحلم غضب، وإيثار أنانيّة، وإصلاح إفساد، وسهل حزن، وعلوّ سفول، وبروز ضمور، ومصقول خشن، وفرح ترح، وسعادة شقاوة، ونظافة قذارة، وجديد قديم، وكثير قليل، وكبير صغير، وحضور غياب، وجميل قبيح، وظاهر باطن، وقدم مغادرة، ويغدو يروح، وخماص بطن، وظلّ حرور، ومناصرة عدا، وسلم حرب، ونجاح فشل، وفلاح خيبة، واجتهاد كسل، وغطاء فراش، وأظلم أقلّ، ووعي غفلة، ويقين جهل.

ولما كان وجود الذكر والأنثى ضروري ليس فقط للتكاثر بل للبناء الاجتماعي، وعليه نتعرف على نظرة القرآن الكريم لهذا التنوع الخاص من خلال الحقائق القرآنية الآتية:

أولاً: وحدة النفس الإنسانية:

يؤكد القرآن الكريم أن الناس كلهم ذكوراً وإناثاً خلقوا من نفس واحدة وأصل واحد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، هذه الآية من أدق الآيات في بيان هذا الموضوع، لأن المرأة والرجل خلقا من نفس واحدة، ومن طبيعة واحدة، وجبلة واحدة، وخصائص واحدة.

^١ الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج 12، ص 931؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 3، ص 753؛ والزمخشري، الكشاف، ج 4، ص 20؛ وسيد قطب، في ظلال القرآن، ج 5، ص 2967.

^٢ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج 14، ص 28؛ الخطيب، ج 12، ص 931.

^٣ البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج 6، ص 261؛ والزمخشري، ج 3، ص 322.

خلق الله البشر جميعاً متساوين في أصل الخلق من نفس واحدة، ويتساوون -تبعاً لذلك- في الخصائص العامة، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن يتفاوتوا في بعض الخصائص كالقوة والضعف، وفي الملكات والقدرات النفسية والعقلية والجسمية.

وهذا التنوع البشري في بعض الخصائص هو قوام الحياة بالتعارف والتعاون والتكامل بين الأفراد والمجتمعات، وليس مدعاة للعداوة والتباغض، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وجاءت الأحاديث النبوية كذلك مؤكدة هذا المعنى ومنها قول رسول الله ﷺ: «النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ»، وقوله ﷺ: «إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»^١. وعليه فالذكر والأنثى متساويان في الإنسانية التي خلقها الله في أحسن تقويم.

ثانياً: المساواة بين الجنسين بشكل عام

وأهم مظاهر هذه المساواة:

١- المساواة في التكليف والمسؤولية: المقصود بالتكليف الشرعية الواجبات المفروضة، وأهمها العبادات، فجميع النصوص الموجهة تشمل الذكر والأنثى، والنساء والرجال، كما أن كلا الجنسين مكلفون بواجب مسؤولية الدعوة للإسلام وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي بيان المسؤولية قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول، فالإمام راع وهو مسؤول، والرجل راع على أهله وهو مسؤول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول»^٢.

٢- المساواة في الجزاء: المقصود بالجزاء الثواب والعقاب، فالنصوص العامة يدخل فيها النساء، فضلاً عن أن بعض النصوص صرحت بذلك منها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ (٤) فَأَمَّا مَن أُعْطِيَ وَأَنْتَمَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٣-٩]، وهي تعني الجزاء للأنثى بالتيسير على العطاء والتقوى والتصديق، والتعسير على البخل والاستغناء والتكذيب، مثلها في ذلك كالرجل، ومن الآيات كذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] فالجزاء في الآيتين للأنثى مثل ما للرجل بالجنة والحياة الطيبة، وفصلت آيات

^١ رواه الترمذي في سننه، كتاب المتأقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل الشام واليمن، ج ٥، ص ٧٣٤. وقال: حسن غريب.

^٢ رواه الترمذي في سننه، كتاب أبواب الطهارة، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللاً ولا يذكر احتلاماً، ج ١، ص ١٨٩، رقم ٢٣٦؛ وأبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في الرجل يجد البلة في منامه، ج ١، ص ٦١، رقم ٢٣٦؛ وأحمد في مسنده، ج ٦، ص ٢٥٦، رقم ٢٦٢٣٨؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الطهارة، باب المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل، ج ١، ص ١٦٨.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، ج ٥، ص ١٩٩٦، رقم ٤٩٠٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٢، ص ٥، رقم ٤٩٥.

سورة.. على توصيف المرأة مسلمة ومؤمنة وقانته وصائمه ومتصدقة و... بالجزء الحسن مغفرة وأجرًا عظيمًا كشقيقتها الرجل وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

أما في مجال العقاب فمنها قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] وقوله: ﴿الرَّائِيَةُ وَالرَّائِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

وعلى هذا نرى أن القرآن جاء بتقرير عام على أهلية المرأة كأخيها الرجل ومساواته في الشؤون العامة إلا ما اقتضت ضرورة الطبيعة الجبلية للتفريق فيه من منطلق مراعاة الخصائص.

٣- المساواة في الحقوق: والمقصود ما لها من حق فيه كما في الحقوق الاجتماعية كقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وكذلك في الحقوق المالية فلها ذمتها المالية المستقلة كحق التملك والاستثمار والعمل كما قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧]، وقوله في حق الاكتساب: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا﴾ [النساء: ٣٢]، ولها حق التصرف في مالها كما في قول رسول الله ﷺ: «يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن»^١، وحق الجنسين في المشاركة السياسية يشتهر ما كان من مبايعة النبي ﷺ للنساء، واشتراكهن في بيعة العقبة الثانية مما هو مثبت في نصوص كثيرة.

ثالثا: مراعاة الفروق الطبيعية واختلاف الأدوار:

هناك علاقة واضحة بين واجبات المرأة المكلفة بها بطبيعة تكوينها عند الرجل، عما هي مع المساواة في أصل الخلق بين الذكر والأنثى، فهناك فروق في الطبيعة البيولوجية لكل منهما، أي أن المساواة هنا في الخصائص العامة، ولكن هناك خصائص فردية لكل منهما، وحينما خلق الله الذكر والأنثى جعل فيهما صفات نفسية، واجتماعية، وعقلية، وجسمية أودعها الله في الذكر والأنثى، وبناء عليها تختلف الأدوار، فللرجل ما يناسبه من الأعمال والواجبات والأدوار، وللمرأة ما يناسبها، ولا يتجاهل ذلك إلا مكابر ينكر الحقائق الثابتة، فالمساواة المقصودة في الإسلام ليست مطلقة، بل تنطوي على عدالة، فلا تعطى المرأة من الأعمال التي لا تتناسب مع طبيعتها، فالأعمال الشاقة لا تتحملها طبيعة المرأة، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ [مريم: ٣٦]، وقال: ﴿أَوْ مَن يُنْشَأُ فِي الْحُلِيِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، [الزخرف: ١٨]، كما أن مهمة الأنثى الأولى هي الإنجاب ورعاية الأبناء، وهي ليست بالمهمة السهلة، وجاءت الوصية بها في التنزيل لأدائها وظيفة الحمل، في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، أما في حال خلو المرأة من هذه المهمة التي تمكنها العمل، فالإسلام لا يمنعها من أن يكون لها دور في الحياة الاجتماعية والثقافية وغيرها، ويشهد لذلك المجتمع المدني في

^١ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقراب، ج ٢، ص ٥٣١، رقم ١٣٩٣، وليس فيه "ولو من حليكن"، وجاء بهذا اللفظ في مسلم برقم ١٠٠٠، وفي سنن الترمذي، رقم ٦٣٥؛ وصحيح ابن حبان، برقم ٤٢٤٨.

عصر النبي ﷺ، فقد كانت المرأة تقوم بكل هذه الأدوار، والأمثلة كثيرة ومبثوثة في كتب السنة والسيرة والتاريخ، غير أن الذي نقصده في مجال العمل والكسب ما يناسب طبيعتها، كما كفل لها الإسلام مؤنة النفقة على وليها أباً أو زوجاً أو أخاً. فالأمومة من أخص خصائص المرأة الفطرية، وينبغي تعزيز هذه الفطرة وتنميتها وتوجيهها، وعندما تتعارض أي وظيفة اجتماعية مع هذه الوظيفة تقدم الشريعة الإسلامية وظيفة الأمومة، لأنها أشرف من أية وظيفة أخرى، كيف لا وهي تتعامل مع الإنسان الطفل.

وجعلت الشريعة الإسلامية النفقة من واجبات الرجال بالدرجة الأولى، نظراً لفطرتهم التي تجعلهم الأقدر على الكسب، ونظراً لأهميّة وظيفة المرأة الاجتماعية المتعلقة بالأمومة، والتي تعيقها عن الكسب. فضلاً عن الأمور الأخرى التي تمثل معوقات الكسب في عالم المرأة.

لقد جاءت الدراسات العلمية في العقدين الأخيرين لتثبت أنّ الفروق البيولوجية بين الذكر والأنثى تنعكس بوضوح على طريقة التفكير، وعلى الميول، وعلى السلوك. وقد انعكست هذه البحوث العلمية في عالم التربية؛ حيث تتبنى الغالبية العظمى من علماء التربية سياسات تربويّة تقوم على أساس الفروق بين الجنسين، وضرورة مراعاة هذه الفروق في العملية التربويّة. أي أنّ البحوث العلميّة ومعطيات علم التربية جاءت منسجمة مع الإجماع البشري، الذي يقوم موقفه على أساس علمي، وهو التجربة والملاحظة عبر آلاف السنين^١.

وهناك دراسات علمية قام بها علماء اختصاص عن النتائج السلبية على اللاعبات الفتيات اللواتي يمارسن الرياضة التي لا تتناسب مع الأنثى على الصحة^٢.

ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى وهو الذي فطر النفوس ويعلم ما فيها عن أن يتمنى كلا من الجنسين ما فضل به أحدهما على الآخر فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]، فالآية تثبت أن لكل من النساء والرجال فضل يختلف بناء على اختلاف الأعباء والتكاليف.

فالفضل: هو الزيادة، فلدى النساء فضل ولدى الرجال فضل، وهذا الفضل يجعل لكل واحد منهما خصوصيّة يحتاجها الآخر، وبذلك تتكامل أدوار الرجال والنساء. وعندما يتمنى الرجال أن تكون لهم خصائص النساء، وعندما تمنى النساء أن يكون لهن خصائص الرجال، يكون ذلك مؤشراً على وجود خلل في البنية الفكرية، والبنية النفسية، وهذا وضع شاذ. وفضل الرجال هو فضلٌ وظيفي، وفضل النساء هو أيضاً فضل وظيفي، وما ينبغي لأحدهما أن يشعر بالدونية عند القيام بوظيفته التي شرفه الله بها^٣.

^١ بسام جرار، النوع الاجتماعي، ص ٤، بحث منشور على صفحة الأنترنت.

^٢ انظر: الغزالي محمد، قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة والوفاة، ص ٣٥.

^٣ بسام جرار، ص ٧.

والأفضل من هذا كله هو في أن نرحب بهذه الاختلافات المكتملة لبعضها وأن نستثمرها.

رابعا: العلاقة بين الجنسين والتكامل بينهما:

إن التنوع البشري في بعض الخصائص هو قوام الحياة بالتعارف والتعاون والتكامل بين الأفراد والمجتمعات، وليس مدعاة للعداوة والتباغض، قال جلّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومع وحدة الإنسان في أصل الخلق من نفس واحدة، فقد خلق الله منها بقدرته زوجين: ذكرا وأنثى، ولا تستمر الحياة وتعمُر الأرض ويتكاثر الجنس البشري إلا بتلاقيهما وتعاونهما وتكاملهما، وتلك هي سنة الله في جميع الكائنات والأشياء الدنيوية.

ومن الرابطة بين الرجل والمرأة تتكون الأسرة، وهي النواة الأولى للمجتمع الإنساني، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٠-٢٢].

ومع وحدة الإنسان في أصل الخلق من نفس واحدة، فقد خلق الله منها بقدرته زوجين ذكرا وأنثى، قال الله جلّ شأنه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [البأ: ٨].

ثم تبين المادة أن الحياة لا تستمر ولا تعمُر الأرض ولا يتكاثر الجنس البشري إلا بتلاقي الذكر والأنثى وتعاونهما وتكاملهما، وتلك هي سنة الله في جميع الكائنات والأشياء الدنيوية قال الله جلّ شأنه: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، ومن الرابطة بين الرجل والمرأة تتكون الأسرة، وهي النواة الأولى للمجتمع الإنساني، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [النحل: ٧٢]، ومن حكمة الله ورحمته جعل هذا الزواج بين الجنسين يقوم على المودة والرحمة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

الأسرة ضرورة بشرية، وتعزيز ببيان الأسرة يضمن أجواءً سليمة وصحية لنشأة الأجيال واستمرارها، ومن هنا نجد أنّ الفقه الإسلامي قد ركّز بشكل كثيف على أحكام الأسرة وما يتعلق بها.

كما جعل الله العلاقة بين الزوجين علاقة المولاة التي ينالون بها رحمة الله وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

الخاتمة:

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١. إن التنوع سنة من سنن الله في الكون والإنسان، وهذا التنوع ضمن الأصل الواحد الذي أقرّه القرآن الكريم، ومنه تنوع عام في الأديان والإعراق واللغات والألوان.
٢. أقرّ القرآن الكرامة للناس جميعاً، فكرّم بني آدم على اختلاف تنوعهم لأنهم من أصل واحد كما نص القرآن الكريم، وعليه يكون العدل في الحقوق والواجبات، وأقرّ القرآن حقوق الإنسان، وأهمها الحرية المنضبطة، وحق الاختلاف مع التسامح من خلال الحوار مع الآخرين، ودعوتهم للسلم والتعايش، والالتفات إلى التوحد لبناء الأرض وتعميرها.
٣. تبنى القرآن فكرة: تعارف الحضارات من مبدأ "وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا..." وجعل مرتكزات ذلك التعارف الخطاب القرآني العام في القرآن، والمؤكد لوحدة الأصل "يا أيها الناس" و"يا بني آدم"، وعليه لا ينبغي أن يكون هذا التنوع مدعاة للصراع.
٤. وجوب الاعتراف بالفوارق بين الجنسين، وهو السبيل الذي يجعل الناس أكثر سعادة، وأكثر مراعاة لحقوق ومشاعر الطرف الآخر، كما أنّ الإدراك بأنّ الرجال والنساء غير قادرين على تبادل أدوار الأبوة والأمومة فيما بينهم قد يجعل منا آباء وأمّهات أفضل، فالله تعالى فضّل الذكور بأمور - وهي في الحقيقة واجبات - وفضّل الإناث بأمور أخرى، فالتفاضل في حظوظ الدنيا سنة لا تنكر، وحكمتها في تحقيق التكامل للبناء.
٥. ينبغي تعزيز الفوارق الفطرية لأنها تضمن قيام الرجل والمرأة بالوظيفة على أكمل وجه، من هنا نجد أنّ الإسلام قد عزّز هذه الفوارق عندما نهى عن تشبّه الرجال بالنساء، وتشبّه النساء بالرجال، ويشمل ذلك اللباس والزينة وغيرها من المظاهر.
٦. الفروق الفطرية هي بعض مظاهر الحكمة الربانية، والمتدبر للكون الرائع البديع يجد الانسجام والوحدة في الخلق. وجاءت الشرائع لتعلّم الإنسان كيف ينسجم مع فطرته، وكيف ينسجم مع الكون من حوله؛ فعلاقة الإنسان بالكون المحيط هي علاقة تصالح وانسجام، وليست علاقة عدا وصرع.
٧. أن التنوع البشري ينبغي أن يكون عاملاً قوياً للمجتمعات، وحافزاً يحقق التنمية وبجميع أنواعها، البشرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية من خلال إقرار القرآن بهذا التعدد والدعوة للتعارف، أي تفاهم هذه الثقافات التي هي مصدر ثراء وحركة دون الجمود والانغلاق، بل يجعلها تنمية مستدامة.
٨. إن الإسلام ينكر فكرة المركزية المفرطة، التي تريد العالم على نمط واحد، وقالب واحد، سواء كان في الدين أو اللغة أو الثقافة، لأنه ينكر على الآخرين حق التمايز والاختلاف، وهذا خلاف السنن الإلهية والفطرة ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ و ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، كما أنه يؤدي إلى الانغلاق على النوع الذي يولد التعصب والتطرف، ومن ثم الاقتتال والتكفير والانتقاص من الآخر.

المصادر والمراجع:

١. ابن حنبل، أحمد ابن حنبل أبو عبد الله الشيباني، المسند، (مصر: مؤسسة قرطبة، د.ط، د.ت)
٢. ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت).
٣. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، د.ط، ١٩٥٦م).
٤. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، (مكة المكرمة: المكتبة التجارية، د.ط، د.ت).
٥. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت).
٦. أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط ٥، ١٩٨٣).
٧. البار، محمد علي، معاملة غير المسلمين، (بيروت: الدار الشامية، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
٨. البخاري، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، اليمامة، ط ٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
٩. البقاعي، برهان الدين، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، ٢٠٠٦م).
١٠. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤).
١١. الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: محمد أحمد شاکر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).
١٢. التهانوي، محمد علي، موسوعة كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، (بيروت: لبنان ناشرون، ١٩٩٦م).
١٣. الجرجاني، علي بن محمد، كتاب التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (مصر: دار الريان للتراث، ١٩٧٨م).
١٤. دروزة، محمد عزت، التفسير الحديث، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٨٣هـ).
١٥. الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير مفاتيح الغيب، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م).
١٦. الزمخشري، محمود عمر، أساس البلاغة، (بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٩٧٩م).
١٧. الطائي، إيمان محمد، والفلاحي، حسن حمود، التكوين الاجتماعي والثقافي ودورهما في التنمية المستدامة، (بحث منشور في مجلة البحوث التربوية والنفسية، جامعة بغداد، العدد الحادي عشر).
١٨. الغزالي، محمد، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، (القاهرة: دار الشروق، د.ط، ١٩٩٠م).
١٩. الغنوشي، راشد، حقوق المواطنة: حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلامي، (تونس: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
٢٠. مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (مصر: دار إحياء التراث العربي).
٢١. محمد حسن، عبد الباسط، التنمية الاجتماعية، (القاهرة: مكتبة وهبة، د.ط، ١٩٩٨م).



الكتاب الذي بين أيدينا يحتوي على 29 بحثا كل يسعى إلى محاولة بيان كيفية اهتمام الإسلام بالمرأة والشباب، وضرورة تسليحهما وإعداد كل منهما لمقاومة التحديات التي تواجههما، والتي تمدد دينهم الحنيف، وعلاقتهم برهيم ومجتمعهم. فمن هذا المبدأ درس علماؤنا الأجلاء النصوص القرآنية التي تختص بالمرأة، فجاءت النتيجة إلى أن مجموعة من الدراسات وصلت إلى أن ما يقرب من (80 %) من المواد القانونية في القرآن الكريم أشارت إلى المرأة ومكانتها. هذا إن دل على شيء فإنما يدل على العناية الربانية بالمرأة. ومن الناحية الأخرى أوضح الباحثون مبادئ تعامل وتعايش المسلمين مع غير المسلمين.

ISBN 978-967-418-396-7



9 789674 183967